

تاريخ الدولة الفاطمية

في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعتي
بنسلفينيا وكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية (سابقا)

الطبعة الثانية ١٩٥٨

من كتاب الفاطميون في مصر

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة



تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعتى
بنسلفنيا وكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية (سابقا)

الطبعة الثانية ١٩٥٨

من كتاب الفاطميون فى مصر

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية ، في المغرب ومصر ، وسورية ، وبلاد العرب » . وقد وضع هذا الكتاب على أساس كتابي « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » الذي تقدمت به باللغة الإنجليزية لنيل درجة الدكتوراه في الآداب (D. Lit) من جامعة لندن سنة ١٩٢٨ . وقد قامت وزارة التربية والتعليم المصرية بنشر هذه الترجمة سنة ١٩٣٢ .

ولما نفدت هذه الطبعة بعد سنين قليلة اعتزمت إعادتها ، وطويت أعوام أخرى ظهرت في خلالها عشرات المؤلفات والأبحاث والرسائل والمخطوطات التي تتناول تاريخ الفاطميين من نواحيه المتعددة ، أصبحت إعادة الطبعة الأولى من كتاب الفاطميين لا تجعله يفي بالغرض المنشود بعد ظهور هذه الأبحاث والمخطوطات وغيرها .

لذلك بذلت جهوداً متصلة في سبيل نشر هذا الكتاب على النحو الذي أوضحته على أساس أنه كتاب جديد لا يمت إلى الكتاب المترجم إلا بصلة محدودة ، وذلك بفضل ما أدخلته على الكتاب الأصلي من تعديلات وزيادات وآراء ، حتى لقد بلغ حجم هـذه الطبعة ضعف حجم الطبعة الأولى تقريباً . وتقع الطبعة الأولى في تسعة أبواب ، على حين تقع هذه الطبعة في أربعة عشر باباً . وقد أفردت باباً لنسب الفاطميين ، وباباً للخلفاء الفاطميين في المغرب ، وباباً للخلفاء الفاطميين في مصر إلى عهد الخليفة الحافظ ، كما أفردت باباً للنظم الفاطمية ، وباباً للثقافة الفاطمية ، وباباً للفن الفاطمي ، وباباً للحالة الاقتصادية ، وباباً للحالة الاجتماعية ، بحيث أصبح الكتاب يتناول تاريخ الدولة الفاطمية من النواحي

السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية . يتضح ذلك جلياً من قراءة محتويات أبواب الكتاب الأربعة عشر التي يراها القارئ بعد هذه المقدمة .

وقد اعتمدت في هذا الكتاب على دراسة المصادر الأصلية التي لا توجد أحياناً إلا مخطوطة — ويسرني أن أنقل هذه العبارة التي أعتز بها ، والتي ذكرها أستاذي المرحوم سير توماس أرنولد عن البحث الأصلي الذي تقدمت به لجامعة لندن حيث قال :

« إن الرسالة التي تقدم بها الدكتور حسن إبراهيم حسن لنيل درجة الدكتوراه (D. Lit.) بجامعة لندن أكسبته أقصى ما يمكن من إطراء الممتحنين المعينين من قبل الجامعة ، الذين عدّوها مجهوداً نادر النظير . . . ولا ريب في أن الكتاب يعتبر أعظم وثيقة ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن . وتتجلى فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزلته الأدبية اللتان امتاز بهما في كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان في كشف كثير من المسائل الخفية المعقّدة » .

وأرى لزاماً عليّ أن أنوه بالجهود الموفقة التي بذلها العلماء وطلاب البحث العلمي ، الشرقيين والمغربيين ، في سبيل نشر كثير من المخطوطات ووضع الأبحاث التي تتناول تاريخ الفاطميين من نواحيه المتعددة ، مما كان له أثر بعيد في نشر كتابي . أخص بالذكر من هؤلاء تلاميذي الدكتور زكي محمد حسن ، والدكتور جمال الدين الشيال ، والدكتور محمد جمال الدين سرور ، والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، والدكتور حسن أحمد محمود ، والدكتور طه أحمد شرف ، والدكتور حسن سليمان محمود ، والدكتور عطية مشرفة . كما أود أن أنوه أيضاً بجهود الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور عبد المجيد ماجد ، والدكتور حسين الهمداني ، والدكتور برنارد لويس ، والدكتور آصف علي فيظي ، والأستاذ فلاديمير إيفانوف ، وغير هؤلاء وهؤلاء الذين أسدوا خدمات جليلة في سبيل نشر الثقافة الفاطمية .

وأرى من باب الوفاء والعرفان بالجميل لذكرى أستاذي العظيم سير توماس أرنولد أن أكرر هنا ما سبق أن سجلته في مقدمة الطبعة الأولى ، وقد طال العهد وانطوت ثمان وعشرون

سنة على وفاته . « إنى لمدين بالشكر الجزيل لأستاذى الجليل المرحوم سير توماس أرنولد (Sir Thomas W. Arnold) طيّب الله ثراه . فقد حظيت بالانتماء إليه والسير وراء إرشاداته العلمية أثناء وجودى بانجلترا » .

كذلك أرى لزاماً علىّ أنْ أشكر لتلميذى الدكتور حسن أحمد محمود مساعدته القيمة التى كان لها أكبر الأثر فى إخراج هذا الكتاب ، ولتلميذىّ الدكتور محمد جمال الدين سرور والأستاذ أحمد محمد عيسى ، على كريم معاونتهما ، ولصديقى الأستاذ مصطفى السقا لتفضله بقراءة الكتاب ، ولأصحاب مكتبة النهضة المصرية لتفضلهم بنشر الكتاب .

ويرى القارئ فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع فى مسألة من المسائل . وقد ذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر العربية والمصادر الإفرنجية مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين . كما ذيلته بكشاف عام يشتمل على أسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والأسماء التى تدل على حوادث تاريخية هامة .

والله أسأل أن يلهمنا السداد والتوفيق ، إنه سميع مجيب .

الجيزة فى ٤ أغسطس سنة ١٩٥٨

حسن إبراهيم حسن

محتـــويات الكتاب

صفحة

الباب الأول ١

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

الباب الثانى

نســب الفاطميين

الباب الثالث

الخلفاء الفاطميون فى المغرب

صفحة

الباب الرابع

الفتح الفاطمى لمصر

الباب الخامس

الخلفاء الفاطميون فى مصر

من المعز إلى الحافظ

٣٦٢ — ٥٤٤ / ٩٧٣ — ١١٤٩

صفحة

الباب السادس

سقوط الدولة الفاطمية

الباب السابع

سياسة الفاطميين الداخلية

صفحة

الباب الثامن

سياسة الفاطميين الخارجية

الباب التاسع

النظم الفاطمية

صفحة

الباب العاشر

الدعوة الفاطمية

صفحة

الباب الحادى عشر

الثقافة الفاطمية

صفحة

الباب الثانى عشر

الفن الفاطمى

صفحة

الباب الثالث عشر

الحالة الاقتصادية

الباب الرابع عشر

الحالة الاجتماعية

مصادر الكتاب

الخرائط الجغرافية

أمام صفحة

الصــــور

الخلفاء الفاطميون

مرتبة أسماؤهم حسب مدد حكمهم

---

١ المهدى : عبيد الله أبو محمد (٢٩٧ — ٣٢٢ / ٩٠٩ — ٩٣٤)

٢ القــائم : محمد أبو القاسم (٣٢٢ — ٣٣٤ / ٩٣٤ — ٩٤٥)

٣ المنصور : إسماعيل أبو طاهر (٣٣٤ — ٣٤١ / ٩٤٥ — ٩٥٢)

٤ المعز : مَعَدّ أبو تميم (٣٤١ — ٣٦٥ / ٩٥٢ — ٩٧٥)

٥ العــزيز : نزار أبو منصور (٣٦٥ — ٣٨٦ / ٩٧٥ — ٩٩٦)

٦ الحاكم : المنصور أبو علىّ (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٩٦ — ١٠٢٠)

٧ الظاهر : علىّ أبو الحسن (٤١١ — ٤٢٧ / ١٠٢٠ — ١٠٣٥)

٨ المستنصر : معدّ أبو تميم (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤)

٩ المستعلى : أحمد أبو القاسم (٤٨٧ — ٤٩٥ / ١٠٩٤ — ١١٠١)

١٠ الآمر : المنصور أبو علىّ (٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠)

١١ الحافظ : عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤ — ٥٤٤ / ١١٣٠ — ١١٤٩)

١٢ الظافر : إسماعيل أبو المنصور (٥٤٤ — ٥٤٩ / ١١٤٩ — ١١٥٤)

١٣ الفائز : عيسى أبو القاسم (٥٤٩ — ٥٥٥ / ١١٥٤ — ١١٦٠)

١٤ العاضد : عبد الله أبو محمد (٥٥٥ — ٥٦٧ / ١١٦٠ — ١١٧١)



الباب الاول

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

١ — الدعوة الشيعية فى عهد الخلفاء الراشدين :

لما كان من غرضنا الإلمام بتاريخ مذهب الشيعة ، وجب علينا هنا أن نتتبع أصل هذه الطائفة التى كان يطلق عليها منذ الصدر الأول للإسلام اسم الشيعة ، أو العلويين ، أو أهل البيت ، وأن نقف على ما قامت به هذه الطائفة فى سبيل نشر دعوتها إلى أن تأسس سلطانهم فى القيروان .

والعلويون — كما نعلم — هم أولاد علىّ من فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم . وقد اعتقد أنصار الشيعة أنهم وحدهم أهل للخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، انتزعوا حق الإمامة المقدس من علىّ . وقد صنف العلماء المتشيعون من المؤرخين الأسفار الطوال فى تأييد هـذه المقالة ، وذهب بهم الاعتقاد إلى القول بأن الخلافة سلخت من بيت علىّ ، أو بعبارة أخرى اغتصبت من بيت النبى .

ولم يقف الحال عند هذا الحد ، فقد اشتط الغلاة من الشيعة فقالوا إن الإمامة فى بيت علىّ ، وإن الأئمة معصومون ، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية — حتى بعض فرق الشيعة منهم — خارجون على الدين . ودللوا على صحة هذا القول بأن عليا كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ما قام به فى سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبى . وأسند هؤلاء الغلاة من الشيعة إلى النبى أحاديث تشهد بما لآل علىّ من حرمة ، وبما لعلىّ من حق فى الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

على أن هذه الأحاديث التى وصلت إلينا كانت — على ما هو مشهور — موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدِّثين ونقدة الحديث . وقد جمع البخارى — على ما نعلم — نحو ستة آلاف حديث ، اختارها — على ما قيل — من ستمائة ألف . ومع

ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر منها . ومن هنا يتبين لنا ما وصل إليه اختلاق الأحاديث فى هذا الموضوع . فما هو السبب إذاً ؟

ذلك أنه عند وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يعرف القراءة والكتابة . فلم يدوّن تاريخ هذه الأمة إلا بعد زمن غير قصير . ولقد تناول العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فأثرت هذه الحوادث بشىء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى إلى الغموض والإبهام فى معانيها والأحوال التى أحاطت بوقوعها .

حتى إذا ما جاء القرن الثانى للهجرة ، أخذ العرب يبحثون عن تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة وحوادث متفرقة أو مدونة بطريقة تتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد آلى كل منها إكبار أنصار مذهبه ولعن أعدائه ، مستنداً إلى ما يعزونه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

فمن ذلك ما عُزى إلى النبى أنه قال : « أهل بيتى كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن عدل عنها غرق[1] » . وقوله أيضاً : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ومن مات على بغض آل محمد لم يَشَمّ رائحة الجنة »[2] . فهذان حديثان لا شك مطلقاً فى أن الشيعة اخترعوهما بعد موت النبى ، تأييداً لعقيدتهم التى كان مبناها ممالأة علىّ وخلفائه من بعده .

ونحن نعلم أن النبى ترك مسألة الخلافة من غير أن يبت فى أمرها . ولسنا نجهل أيضاً أن النبى فى مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلى بالناس بدلا منه[3] ، وأن السبق والإخلاص اللذين صفتان بارزتان قد عرفهما النبى لأبى بكر ، وقد أشربت نفس الرسول هذه الروح

---

(١) أورد هذا الحديث أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب عند استيلائه على صنعاء فى الثالث من رمضان سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) : مكتبة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٨٦ ، ورقة ١٠٠ ب .

(٢) حسام الدين المحلى ، مكتبة المتحف البريطانى ، مخطوط ٣٧٧٢ ، القسم الشرقى ، ورقة ٢٨٠ ب .

(٣) سيرة ابن هشام ، طبعة وستنفلد (ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠٠٩) .

الديمقراطية التي سادت لدى العرب منذ أيام الجاهلية . فرأى عليه السلام أن يترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من أحبوا .

على أن إنابة النبي أبا بكر عنه للصلاة ، جلي في أن النبي كان بعيداً كل البعد عن التحيز والميل لذوى قرباه ، عاملا على تأييد قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة[1]) ، وعلى ما أثر عنه من قوله عليه السلام « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

• وخلاصة القول إن مسألة الخلافة تُركت دون أن يُبَت في أمرها . فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بين المسلمين في أول نشأة الإسلام ، ذلك الانقسام الذي انغرست جذوره في اليوم الذي انتقل فيه الرسول إلى جوار ربه .

ومع أن استخلاف أبي بكر تم بطريقة ديمقراطيــة ، على ما كان مألوفا لدى قبائل العرب في الجاهلية (Patriarchal State) : ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساساً لاختيار شيخ القبيلة ، فإن امتناع كثيرين من علية العرب ، كالعباس عم النبي ، وطلحة والزبير ، وهم من السابقين إلى الإسلام[2] الذين اتحدوا مع عليّ بن أبي طالب ، ثم ما كان أيضاً من عدم إجابة فاطمة إلى ما طالبت به من استيلائها على ميراث أبيها[3] — كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية إلى سُنيين وشيعيين .

ولقد أشار أبو بكر الخوارزمي (+ ٣٨٣/٩٩٣) الكاتب المشهور والشيعي المتحمس لهذا المذهب ، إلى هــذا الانقسام في إحدى رسائله (ص ١٣٠ — ١٣٩) ، وقد بعث بها إلى أهل نَيْسابور حين جار عليهم عاملها محمد بن ابراهيم وأوقع بهم ، لاعتناقهم مذهب الشيعة . فأتى لنا في هــذه الرسالة بوصف يثير النفوس لهذه الأعمال التي أوقع لأجلها أهل السنة بالشيعة منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام[4] .

على أن هذا الشعور العدائي نحو عليّ قد وُجد — على ما ذكره كاتب آخر من الـكتاب

---

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١٠ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٠١٣ .

(٣) المصدر نفسه — يشير الخوارزمي (ص ١٣٠) إلى ذلك في إحدى رسائله .
قيل إن الرسول أعطى ابنته فاطمة ضيعة فدك للارتفاق بها ، فأخذها منها أبو بكر بحجة أن الأنبياء لا يورثون ، كما سيأتي الكلام على ذلك في قانون الوراثة في عهد الفاطميين .

(٤) رسائل الخوارزمي ص ١٣٠ و١٣١ و١٣٤ .

الذين سبقوا الخوارزمىّ ، وهو يحيى بن الحسين الزيدى (+ ٣٦٠/٩٧١) — حتى فى حياة النبى . فقد عزى إليه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلىّ بن أبى طالب : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ؟ » . ولهذا الحديث علاقة برحيل النبى إلى تبوك[١] ، الواقعة على بعد اثنى عشر فرسخاً من المدينة . وقد استخلف علياً على المدينة ؛ فثقُل ذلك على أهلها ؛ فتبع علىّ النبى وشكا إليه ، واعتذر عن العودة إلى المدينة ؛ فقال له النبى : « ارجع يا أخى إلى مكانك ! فإن المدينة لا تصلح إلا بك ، فأنت خليفتى فى أهلى ودار هجرتى (يعنى المدينة) وقومى . أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى ؟ »[٢] . ولو أراد عليه السلام أن يستخلف علياً ، فإنه لم يكن يرى من الصواب ذلك لمنافاته لروح العرب الديمقراطية .

و بينما الخوارزمى يوجه حملاته ضدّ أعمال العنف الذى حل بأهل مذهبه ، نرى كاتباً سنياً معاصراً ، وهو بديع الزمان الهَمَذانى صاحب المقامات والرسائل المشهورة (+ ٣٩٨/ ١٠٠٧ — ١٠٠٨) ، يلتمس المعاذير لما أتاه العمال السنيون الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين[٣] .

وقد تمت بيعة أبى بكر برغم هذا الخلاف العنيف الذى احتدم بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة فى أمر الخلافة . بيد أن هذه السياسة الرشيدة التى نهجها أبو بكر وعمر ساعدت على كبح جماح الأمة العربية .

ثم جاء بعد ذلك سياسة عثمان ، فى تفضيل أقاربه ومَن بينهم و بينه صلة ، فأصبحت هذه السياسة مثاراً للسخط فى جميع الولايات الإسلامية ، وأتاحت لأنصار علىّ فرصة لتحويل الخلافة إلى أهل البيت .

وقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم ، اشتهر بأنه أول من حيّا النبى بتحية الإسلام[٤] ، و بأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبرى) من اعتنق هذا الدين[٥] ،

---

(١) انظر لفظ تبوك فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) يحيى بن الحسين ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ورقة ٥٥ (ا) و (ب) .

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذانى ص ٤٢١ — ٤٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٥٤ .

(٥) الطبرى ج ١ ص ١١٦٨ . أسد الغابة لابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

واشتهر بالورع والتقوى ، وكان من كبار أئمة الحديث[1] ، وهو أبو ذرّ الغفارى .

تحدى أبو ذرّ سياسة عثمان ومعاوية عامله على الشام ، بتحريض رجل من أهل صنعاء ، هو عبد الله بن سبأ (ويسمى أيضاً ابن السوداء) . وقد روى لنا الطبرى أن ابن سبأ هذا كان يهودياً فأسلم فى السنة السابعة من خلافة عثمان : أى سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ . وسرعان ما ظهر ابن سبأ بعد إسلامه فى ثوب الغيور على الدين ، مما أدخل الشك على المؤرخين ، ولا سيما العرب منهم ، وجعلهم يعتقدون أنه إنما اعتنق الإسلام ليضل المسلمين ، ويكيد للإسلام ، وأنه كان أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان .

أخذ ابن سبأ بعد إسلامه يتنقل فى البلاد الإسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، فالكوفة ، ومنها إلى الشام ، فمصر . ولما وفد على الشام لقى أبا ذرّ ، فوجد فيه الرجل الذى ينشُده ، لما فيه من الغيرة وطيب القلب . فجاءه من ناحية الدين ، وشكا إليه من معاوية وما أتاه فى سياسته ، وقال : « يا أبا ذرّ ! ألا تعجبُ إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه[2] دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين[3] (من ديوان العطاء) ؟ » .

لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذرّ يشمر عن ساعد الجدّ فى إعلان استيائه من سياسة معاوية ، ووجدناه يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادّخار أموالهم وكنزها ، محتجاً بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يُحمى عليها فى نار جهنمَ ، فتُكوَى بها جباههُم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)[4] . وكذلك لا نعجب إذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ، ويسيئون إلى الأغنياء ، مما أوجب شكايتهم إلى معاوية ، ليرفع الأمر إلى عثمان . وقد أيقن الخليفة أن الفتنة قد أخرجت خَطْمها[5] وعينها .

بعث عثمان فى طلب أبى ذَرّ ؛ وقد آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .
(٢) احتجن المال ضمه واحتواه .
(٣) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .
(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٤ .
(٥) الخطم معناه مقدم الأنف والفم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة .

السياسة . فلما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، نادى فى المجتمعين : « بَشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مِذكار » . وكأن أبا ذر تنبأ بتلك الثورة التى ذهب عثمان ضحيتها[1] .

وقد أذن عثمان لأبى ذر بالإقامة فى الربَذَة ، وهى قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام[2] والخوارزمى[3] — ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات وهو كاره لها سنة ٣١ هـ .

وقد وجد ابن سبأ — وهو أول من حرض الناس على كره عثمان على ما تقدم — الطريق ممهدة أمامه لإسقاط عثمان . ولسنا نشك فى حسن نية أبى ذر ، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته . ولكنا نرى أن مصدر استيائه الرغبة فى التمسك بالدين وأحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ . ولقد أصاب فان فلوتن (Van Vloten)[4] حيث يقول : « إن هذه الطوائف التى نشأت بين العرب فى الولايات التى فتحوها ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة ومصر ، كانت تنطوى فى بادئ الأمر على غرض سياسى محض ، برغم ظهورها بهذا المظهر الدينى » .

لم يلق ابن سبأ من أهل الشام أذنا مصغية ، اللهم إلا من أبى ذر . ولقد قيل إن عبادة بن الصامت — وهو من أكابر الصحابة ، وممن شهد فتح مصر ، ومن ذوى الرأى والجاه فى دمشق — ساق ابن سبأ إلى معاوية وقال له : « هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر »[5] .

وإن الاهتداء إلى رأى قاطع فى هذه المسألة ، وهى هل كان أبو ذر أو ابن سبأ هو المؤسس الحقيقى لمذهب الشيعة فى الإسلام ، ليس من الأمور السهلة ؛ لأن هذا الموضوع لم يزل موضع جدل عنيف بين المؤرخين . على أنه وإن استحال هنا معالجة هذه المسألة بوجه التفصيل ، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ندلى بالرأى الذى نراه : وهو أن ابن سبأ

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٧١ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ١٣١ .

(٤) La Domination Arabe, le Chiitisme et les Croyances Messianiques, p. 34.

(٥) الطبرى ج ١ ص ٢٨٥٩ .

هو أول من وضع عقائد مذهب الشيعة الغالية فى الإسلام ، وأن أعمال أبى ذر لا تنطوى على محاولة ما لتحويل الخلافة إلى على ، وإنما أدت إلى توطيد دعائم هذا المذهب الذى غرس بذوره ابن سبأ .

وقصارى القول ، أنه لم يكن لأبى ذر عمل فى توطيد ذلك المذهب ؛ ولكن خصوم عثمان والشيعة من بعدهم قد اتخذوا نفيه إلى الربذة تكأة للعيب فى حق عثمان والتشهير به و بعماله .

استياء الولايات الإسلامية :

تولد الاستياء وفشا السخط فى الولايات الإسلامية بعد أن ولى عثمان الخلافة ، لاشتطاط عماله فى جمع الضرائب : ففى البصرة صادفت دعوة ابن سبأ مرعى خصيباً ؛ بيد أن عبد الله ابن عامر والى عثمان طرده من هذه البلاد ، فرحل إلى الكوفة[1] ، حيث تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه ، ومن قريش الذين استولوا على سوادهم[2] واتخذوه بستاناً لهم . وواصل الثائرون الاجتماعات فى بيوتهم ، ولُعن عثمان على ملأ من الناس ، ولج هؤلاء وأولئك فيما ارتكب من عظائم الأمور[3] .

ومما عابه بعض المسلمين على عثمان أنه عزل ولاة عمر عن الأمصار الإسلامية وولاها ذوى قرباه ومن بينهم و بينه صلة ، وأنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها واستمتعوا استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف واللهو . ومما عابوه عليه أيضاً أنه استحدث عدة أشياء لم يسبق بها فى عهد الرسول ولا فى عهد أبى بكر وعمر :

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٩٢٢ ، يقول هذا المؤرخ : إن هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين ، وأن توليته كانت سنة ٢٩ هـ (١ : ٢٨٢٨) . وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ فى سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢)

(٢) السواد موضعان : أحدهما نواحى البلقاء . سميت بذلك لسواد حجارتها . والثانى يراد به رستاق العراق وضياعها التى فتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب . وقد سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار ، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى لا زرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار ، فيسمونه سواداً ، كما إذا رأيت شيئاً من بعيد قلت : ما ذلك السواد ؟ وهم يسمون الأخضر أسود والأسود أخضر .

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٤ . أنظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبرى ج ١ ص ٢٩١٦ وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ .

فهو أول من أقطع القطائع ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالأذان يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض الناس إخراج زكاتهم ، وأول من أخذ الزكاة على الخيل ، وأول من حمى الحمى . والحمى موضع كلأ يحمى من الناس أن يرعى . وقد نهى الرسول أن يحمى على الناس كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . وقد أجاب عثمان بأن عمر قد اتخذ الحمى من قبله ، وأنه إنما وسع هذا الحمى حين زادت إبل الصدقة ، وامتنع بعض المسلمين الذين يمتلكون أرضاً بجوار المسجد النبوى عن تسليمها إليه ليوسع بها المسجد ، فأخذ عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبلى[1] .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً ، فقصد الشام — على ما تقدم — فلم يلق من أهلها ما لقى فى البصرة والكوفة ؛ فرحل إلى مصر . وهنا أخذ ينشر دعوته التى ألبسها لباس الدين ؛ واتصل بالثائرين فى البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسل[2] ؛ وبعث بالدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلىّ . واستطاع أن يؤثر فى نفوس الناس ، فوضع مذهب الرجعة : أى رجعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فى ذلك : « إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) »[3] . وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . ومن هنا نشأ فى الإسلام مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر .

ونشر ابن سبأ بعد ذلك مذهب الوصاية الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن علياً وصىّ محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، واتهم من ناوءوا علياً وتعدوا على حقه فى الإمامة ، كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون فى صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى — نظرية الحق الإلهى ، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبى ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٣٤ ، ١٣٧ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٥٧) ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٨ .

(٢) الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٢ .

(٣) سورة القصاص ٢٨ : ٨٥ .

من على وصى رسول الله ، واستطاع ابن سبأ أن يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته فقال لهم : « إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر »[1] .

ولم يكن يصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ سياسته فى مصر ، حيث اشتد سخط أهلها على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر ومن ذوى قرباه . وساعد على إذكاء نيران السخط فى مصر عاملان قويان : هما محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر . ولا غرو فقد ساعد انضمامهما لهذه الحركة على نجاح ابن سبأ فى سياسته .

ويرجع سبب انضمام محمد بن أبى بكر إلى صلة النسب بينه وبين على بن أبى طالب وابنه الحسين بن على . فقد تزوج على أسماء بنت عُميس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة أبيه ، فكان ابن أبى بكر ربيباً فى بيت على ، ولأن الحسين بن على ومحمد بن أبى بكر كانا زوجين لابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس ، ثم لأن مروان بن الحكم كتب إلى ابن أبى سرح بقتل محمد بن أبى بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار .

وأما مسلك ابن أبى حذيفة المدائى لعثمان ، فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبى سرح فى غزوة السوارى — أو ذات السوارى — التى نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ (٦٥١ م[2]) . فقد اختلف معه فى هذه الموقعة على التكبير فى الصلاة حين صلى ابن أبى سرح العصر بالناس ، فرفع ابن أبى حذيفة صوته بالتكبير ، فنهاه ابن أبى سرح فلم ينته . ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ، فنهره ابن أبى سرح وهمّ بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبى حذيفة فى إثارة الناس على عثمان وعلى ولاته . ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبى بكر إلى الفسطاط حيث انضما إلى ابن سبأ[3] .

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٢ .

(٢) سميت بهذا الاسم لكثرة سوارى السفن التى اشتركت فى المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين .

(٣) الطبرى : طبعة مصر ج ٥ ص ٧٠ — ٧١ ، ١٣٥ .

ولقد أدلى لنا المقريزى بالسبب الذى حدا بابن أبى حذيفة أن يسلك هـذا المسلك العدائى نحو عثمان ، فقال إن ابن أبى حذيفة تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ، فلما ولى عثمان الخلافة ، طلب إليه أن يوليه بعض أمور المسلمين ، فأبى ذلك عليه ، إذ نمى إليه أنه شرب الخمر[1] . فقال له : « لو كنتَ رضا لوليتك ، ولكنك لست هناك » .

ولقد وافانا المقريزى[2] بشىء عن سيرة ابن أبى حذيفة فى مصر ، ننقله للقارئ فيما يلى : « انتبز محمد بن أبى حذيفة فى شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن نافع خليفة ابن أبى مسرح ، وأخرجه من الفسطاط ، ودعا إلى خلع عثمان من البلاد ، وأسعر البلاد . فكان يكتب الكتب على لسان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ، والرجال فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة ومصر ، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم ، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب ، ثم يتلقاهم ابن أبى حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى » .

وقد حاول عثمان أن يصلح بينه وبين ابن أبى حذيفة ؛ ولكن هذا آلى على نفسه أن يواصل سياسة العنف والشدة . ولقد بعث إليه عثمان بثلاثين ألف درهم وكسوة ؛ فانتهز ابن أبى حذيفة وصول هدية عثمان إليه فرصة سانحة ليظهر للناس أن هذه الحركة التى قام بها حركة دينية ، بعيدة عن كل غرض دنيوى . فأظهر الهدية للناس فى المسجد وقال : « يامعشر المسلمين ! ألا ترون أن عثمان يخادعنى عن دينى و يرشونى (يرشينى فى الأصل) عليه ؟ » . وكان لهذه الدعوة أغراض ومرام خبيثة ؛ فقد زادنا المقريزى أن أهل مصر ازدادوا تعظيما لابن أبى حذيفة وطعناً على عثمان ، وبايعوه على رياستهم[3] .

وقد أصبحت الحالة فى البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فى الولايات

---

(١) المقفى الكبير للمقريزى ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (١) .

(٢) خطط ج ٢ ص ٣٣٥ . وقد وردت هذه العبارة أيضاً بتصرف فى كتاب المقفى الكبير الموجود بمكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٥ (ب) .

(٣) المقفى الكبير للمقريزى ، ليدن ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (١) .

الإسلامية . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وهو أحد أصحاب رسول الله ، ومن السابقين إلى الإسلام ، وممن عرف لهم النبي صدق الإيمان[1] .

وقد عاد هؤلاء الذين ندبهم الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثائرون فى مصر[2] . وساعد على ذلك ما كان بين عمار وعثمان الذى أدّبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبي لهب . وإن انضمام صحابي جليل كعمار ، يبين مبلغ السخط الذى أثارته سياسة الضعف واللين التى سار عليها عثمان بن عفان .

ولا شك أن ابن سبأ قد حقق ما كان يرمى إليه من إثارة الولايات الإسلامية على عثمان وولاته . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه ، من أمثال محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر .

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ ؛ فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة ، وهو ما يمكن تسميته دور العمل . وخرج كل منهم فى ستمائة رجل توافوا خارج المدينة حيث اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان . فمال أهل البصرة إلى طلحة ، وأهل الكوفة إلى الزبير ، ورغب أهل مصر ، وعلى رأسهم ابن سبأ ، إلى علىّ بن أبي طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره[3] .

ولم يمض زمن طويل حتى فاز المصريون أنصار ابن سبأ ؛ فقتل عثمان فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وتولى علىّ بن أبي طالب الخلافة (فى الخامس والعشرين من هذا الشهر) . فكان ذلك أول فصول هذه المأساة ، وما أعقبها من تحزب المسلمين مما أضعف الإسلام وزاد كلمة المسلمين تفريقاً .

---

(١) ذكر ابن حجر فى كتابه " الإصابة فى تمييز الصحابة " ج ٤ ص ١٢٢٠ أن النبى قال : " اقتدوا باللذين من بعدى : أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار " (بن ياسر) .

(٢) الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤ .

(٣) الطبرى ج ١ ص ٢٩٥١ ، ٢٩٥٥ .

عقيدة ابن سبأ الشيعية وألوهية على :

والآن نعود إلى الكلام على حياة ابن سبأ من حيث تطور عقيدته الشيعية فى خلافة علىّ وبعدها : ذكر ابن حزم أن قوماً من أصحاب عبدالله بن سبأ أتوا علياً وقالوا له : « أنت هو ! » فقال لهم : « ومن هو ؟ » فقالوا : « أنت الله ! » فغضب علىّ وأظهر الجد ، وأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبراً بأن يلقى بهؤلاء الرجال فيها ؛ فجعلوا يقولون وهم يلقون فى النار : « الآن صح عندنا أنه الله لأنه لايعذب بالنار إلا الله » .

وقد زادنا ابن حزم أن علياً أشار إلى هذه الحادثة فى هذا البيت :

لما رأيتُ الأمر أمرا منكرا أجّجتُ نارا ودعوتُ قُنبرا[1]

وكان من أثر هـذا الغلو فى العقائد الدينية أن أمر علىّ بابن سبأ فنفى إلى المدائن[2] . بيد أن هذا لم يكن ليثنى ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعلىّ ، حتى إذا ما مات علىّ قالت الطائفة السبئية برجعته وتوقفه[3] ، أى انتظار رجوعه ، وبحلول الجزء الإلهى فيه . وقد ذهبوا أيضاً إلى القول بأنه يجئ فى السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب بعض) ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما[4] .

٢ — الدعوة السرية للهاشميين أيام بنى أمية :

نال معاوية الخلافة بحد السيف طوراً ، وبالمكيدة والسياسة طوراً آخر ، لا بإجماع من المسلمين ورضا منهم : ذلك أن العرب دعوا إلى الحسن بن علىّ بعد موت أبيه ؛ إلا أن

---

(١) قنبر مولى علىّ بن أبى طالب الذى رمى هؤلاء الرجال فى النار (ابن حزم : الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٦) .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩ . الشهرستانى ج ٢ ص ١١ .

(٣) قال ابن سبأ لما بلغه قتل علىّ : " لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ، ماصدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا " — ابن حزم ج ٤ ص ١٨٠ .

(٤) الشهرستانى ج ٢ ص ١١ .

خلافته لم يطل أمدها[١] ، لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام ، وتخلى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة ، حقنا لدماء المسلمين[٢] .

على أن الدافع الحقيقى الذى دفع بالحسن إلى النزول عن الخلافة إنما يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبى[٣] — إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع أن يقف فى وجه معاوية . وانتهى هذا النزول بإبرام معاهدة الصلح بين الحسن ومعاوية ، تلك المعاهدة التى جعلت معاوية صاحب السلطان المطلق فى كافة الولايات الإسلامية . وفى الخامس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ[٤] دخل معاوية الكوفة حيث بايعه الناس[٥] . بيد أن السياسة التى سار عليها معاوية من سب علىّ وأهل بيته على المنابر أثارت حنق الشيعيين عليه[٦] .

وفى خلافة يزيد بن معاوية تسلم الحسين بن على كتب[٧] أهل الكوفة يحرضونه فيها على الرحيل إليهم ؛ فلم يعتبر بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، بل لم يع قول الفرزدق الشاعر المشهور ، حين سأله الحسين عن أهل الكوفة ، وكان فى طريقه إليها : « خلّفتُ قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية عليك »[٨] .

ولقد صدق الفرزدق . فإنه فى التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) قاتل الحسين على رأس فئة قليلة لم يبلغ عددها ثمانين رجلا ؛ فأوقع بهم العدو فى كربلاء فى العاشر من ذلك الشهر ، وأبادهم عن آخرهم .

وقد علق الأستاذ براون[٩] على موقعة كربلاء بقوله : « إن فريق الشيعة أو حزب

---

(١) ذكر المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣١ أن علياً مات فى العشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ، واستخلف بعده ابنه الحسن فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فظل فى الخلافة إلى أن نزل فى مستهل ربيع الأول سنة ٤١ هـ .

(٢) النسيبى ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ٩٣ (ب) .

(٣) (ج ٢ ص ٢٥٥) .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) الطبرى (طبعة مصر) ج ٦ ص ٩٢ .

(٦) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٣ .

(٧) قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات (ليدن، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ١٢ (ب) ، ومخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٤٥ ا) ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ (٦٨٠م) .

(٨) المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ٦٥ .

(٩) Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 226 seq.

علىّ كان — على ما رأينا — ينقصه الحماسة و بذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى ميدان كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبى ، مع ما قاساه من شدة العطش و إحاطته بجثث ذوى — قرباه كل ذلك غدا منذ هذا الحين كافياً لأن يثير عاطفة الحماسة التى كانت على أشدّ ما تكون ، والأحزان التى تملكت النفوس — حتى عند أكثر الناس فتوراً وتراخياً — وأصبحت هذه الروح التى لا تبالى بالآلام والأخطار ، أو بالموت ، ترى كل هذه ترهات لا تساوى التفكير فيها » .

و يجدر بنا أن نقتبس أيضاً ما ذكره الأستاذ نيكلسون حيث يقول : « لقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يعضوا يد الندامة على ما قدمت أيديهم ؛ إذ أن هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين ! — هذا النداء الذى دوى فى كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب »[١] . ومن هنا نشأت فرقة التوابين الذين ندموا على ما فرطوا فى حق الحسين وخذلانهم إياه وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم ، وتابوا مما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى سبيل الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته . ونظموا القصائد فى رثائه ، وأمروا عليهم سليمان بن صُرَد ، وساروا إلى عين الوردة حيث حلت بهم الهزيمة[٢] .

هاتان العبارتان تصفان حال الأمة العربية وصفاً دقيقاً . فإن هذا النزاع الذى احتدم بين هذين الحزبين لم ينته بموت الحسين وانهزام أشياعه ، بل على العكس من ذلك ، قد زاد فى الدعوة لآل علىّ قوة ، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين أصبح أشد خطراً وأعظم احتداماً من ذى قبل . يؤيد هذا القول ما كان من ردّ ابن عفيف على ابن زياد عامل الكوفة ، حين صعد المنبر بعد وفاة الحسين وخطب الناس خطبة جاء فيها : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد (بن معاوية) وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته » .

بيد أن شعور العداء عند الشيعة أخذ يثور بعد يوم كربلاء لأوهى الأسباب ؛ ذلك أنه بعد أن فرغ هذا الأمير من كلامه ، انبرى له عبد الله بن عفيف الأزدى يفند قوله فى

---

(١) Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 198

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩ .

هذه الكلمات الملوءة حنقاً المفعمة سخطاً على بنى أمية وولاتهم فقال : « يا عدوّ الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟[١] »

وقد دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه فى سنة ٦٣ الهجرة ، فصادفت دعوته نجاحا عظيما فى بلاد العرب والعراق . على أن محمد بن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب أبى مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — فقت ذلك فى عضد ابن الزبير ، وساعد على ظهور حزب جديد : هو حزب الكَيْسانية الذى قام فى الكوفة بالدعوة إلى محمد بن الحنفية بعد قتل الحسين فى كربلاء .

وإن حياة ابن الحنفية لحياة حافلة عجيبة ، فقد أقسم يمين الطاعة ليزيد حين ولاه أبوه العهد . ولما ولى يزيد الخلافة دعا ابن الحنفية لزيارته فى دمشق ، حيث تلقاه بكل مظاهر الإجلال ، وأكرمه الإكرام كله ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم (وفى رواية أخرى خمسمائة ألف درهم) وعروض بمائة ألف[٢] .

المختار والكيسانية :

أدى إباء ابن الحنفية عن الدخول فى الدعوة التى قام بها عبد الله بن الزبير إلى إضعاف هذه الدعوة ، وهيأ للمختار بن أبى عبيد الثقفى فرصة سانحة لتكوين حزب شيعى جديد ، هو حزب الكيسانية[٣] . وقد ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى فى ميدان السياسة سنة ٦٦هـ .

---

(١) ابن النعمان ، ليدن مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٨٠ أ

(٢) المقريزى ، التاريخ الكبير المقفى ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٧ ب .

(٣) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبرى (طبعة دى غويه ج ١ ص ٢٣٩٣) ، والبغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستانى (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) إلى كيسان مولى على بن أبى طالب ، الذى قتل فى موقعة صفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودى (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩) إلى المختار بن أبى عبيد . ولكن كلام المسعودى لا يعتمد عليه ، لأنه يعود فيلقى الشك على هذه المسألة فيقول : " أو هو غير المختار " .

على أننا نجد كثيراً من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) أن هناك شخصين مختلفين ، هما المختار بن أبى عبيد وكيسان أبو عمرة . =

= ويقول الشهرستاني ج ١ ص ١٩٦ ، إن هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية ، الأولى تنسب إلى كيسان مولى علي ، والثانية إلى المختار بن أبي عبيد .

وذكر الطبري (ج ٢ ص ٦٧١) في مكان آخر ، أن أباه عمرة كيسان مولى بجيلة ، هو رئيس شرطة المختار بن أبي عبيد . ووافق على هـذا أحمد بن يحيى بن المرتضى (غايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٧٢ ورقة ١٣٧ ب) . على أن ابن المرتضى لدين الله لم يأت بقوله على أنه القول الفصل في هذه المسألة حيث قال كما قال الطبري (ج ٢ ص ١٣٩٣) : ويقول إن لفظ كيسان يطلق على مولى علي بن أبي طالب .

وقد يؤخذ بما ذكره الطبري ، لولا ما جاء في رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاهتداء إلى أصل الطائفة الكيسانية بعيداً كل البعد . على أن هذا الاهتداء يمكن الوصول إليه من مصدرين آخرين هما كتاب الطبقات لابن سعـد (+ ٨٤٤/٢٣٠) ج ٥ ص ٧٧ ، وكتاب الأخبار الطوال للدينوري (+ ٢٨٢ أو ٢٩٠ هـ و ٨٩٥ أو ٩٠٣ م) ؛ طبعة ليدن (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

ولقد أتى ابن سـعد باسم أبي عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال ، الذين شهدوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يبث الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وإن كان هذا القول مشكوكاً فيه ، لأنه غير ثابت تاريخياً ، بأن ابن الحنفية مالأ المختار بن أبي عبيد ، بل بالعكس ، فقد عرف أنه بايع يزيد بن معاوية ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينوري عن الشعبي في سياق كلامه على المختار ، عبارة تدل دلالة واضحـة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشعبي هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مالكي مشهور بالورع وصدق القول وتحري النقل . قال الدينوري : "وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ؛ فأرسل ابن مطيع إلى المختار : ما هذه الجماعات التي تغدو وتروح إليك ؟ فقال : المختار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه : عليك بإبراهيم بن الأشتر فاستمله ، فإنه متى شايعك على أمر ظفرت به وقضيت حاجتك . فأرسل المختار إلى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص ، فقال الشعبي : وكنت فيمن دخل عليه ، فرأيت الرصاص يلوح ، فظننت أنه إنما ختم من الليل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتي إبرهيم بن الأشتر . قال فضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الأزدي ، وأحمد بن سليط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيلة ، الذي يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار " .

ولقد حاول فريدليندر (Friedlaender) في تعليقه على " شنع (جمع شنعة) الشيعة على ما جاء في كتاب ابن حزم " (Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية في العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX. pp. 29-30) الاهتداء إلى أصل الكيسانية . وبالرغم من أن هذا الكاتب أخذ عن مصادر غير " الملل والنحل " لابن حزم ، فإنه قال بأن " ما ذكره ابن حزم عن هـذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقاً من بين المؤرخين على اختلافهم " .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) إنما قال إن الكسانية هم أنصار المختار بن أبي عبيد . وهـذا لا يستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لأنه لا توجد ثمة صلة اشتقاقية بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فإنه من المحتمل كثيراً أن يكون لفظ الكيسانية مشتقاً من كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويبعد أن يكون مشتقاً من كيسان مولى علي ، لأنه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة . يضاف إلى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجلاء ووضوح بين لفظي المختار وكيسان عند الإشارة إلى الطائفة الكيسانية في سياق كلامه على الإمام الثاني عشر فقال : وكان رئيسهم المختار بن أبي عبيد ، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون إلى أن الإمام بعد الحسين محمد أخوه المعروف بابن الحنفية . وعليه فإن ما أورده ابن سعد والدينوري — لا ابن حزم أو غيره — هو القول الصحيح حقاً .

وكان ذا أطماع كبيرة : تقلب كثيراً فى الأحزاب ، واتصل أخيراً بعبد الله بن الزبير وأراد أن يكون له وزيراً . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب : فقد كان أمويا ثم زبيريا . ولما لم يجد المختار من ابن الزبير ما كان يؤمله ، رجع إلى الكوفة ، واستغل ثورة التوابين لتحقيق أغراضه ومراميه ضد ابن الزبير والأمويين ، واستتر وراء ابن الحنفية وادعى أنه أمينه ووزيره ، وذلك لتنفيذ أغراضه والوصول إلى الخلافة . وبذلك وقف فى وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان . وانضوت الشيعة تحت لواء المختار ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول فى الدعوة التى قام بها ابن الزبير فى مكة .

طرد المختار عامل ابن الزبير من الكوفة ، وقاتل جيشه عبيد الله بن زياد عامل الأمويين على الكوفة الذى دارت الدائرة عليه ، فازداد تعلق الشيعة بالمختار والتف حوله كثير منهم . ثم عمل عبد الله بن الزبير على الإيقاع بالمختار ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة أخيه مصعب الذى استولى على الكوفة ، وقتل المختار سنة ٦٧ هـ (٦٨٦ م) . وقد ترك عبد الملك ، عبد الله بن الزبير يقاتل الشيعة والخوارج دون أن يتعرض لهم . ولا شك أنه كان يرمى بسياسته هذه إلى إضعاف قوة ابن الزبير . وبذلك استطاع أن يقضى على مصعب ابن الزبير فى العراق سنة ٧٠ هـ ، ثم على أخيه عبد الله سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م)[١] . ورجع للدولة الأموية سلطانها على كافة الولايات الإسلامية .

بيد أن المجهودات التى بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده ، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل[٢] .

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) ذكر المقريزى فى كتابه " المقفى الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٨ ا) أن فريقاً من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرى ، ساروا إلى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فريقاً آخر ممن شايعوا ابن الزبير فى الكوفة ، وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع ، عامل ابن الزبير على الكوفة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، إلى محمد بن الحنفية فقالوا له : أخرج معنا نقاتل يزيد ، فقال : على ماذا أقاتله ولم أخلعه ؟ قالوا : إنه كفر ... وشرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ، هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه ، فما رأيت به سوءا ؟ قالوا : إنه لم يكن يطلعك على فعله . قال : أفأطلعكم أنتم عليه ؟ فخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه أن يبايعوه إذ كره أن يبايع ابن الزبير ، فقال : لست أقاتل تابعاً أو متبوعاً . قالوا : فقد قاتلت مع أبيك . قال : وأين مثل أبى اليوم ؟ فأخرجوه كارها ومعه بنوه مسلحين ؛ فحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه ، فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله ؛ ثم خرج ابن الحنفية إلى مكة من فوره " .

وقد قارن فان فلوتن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال : « يظهر أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأى القديم القائل بتجسد الألوهية . وزاد هذا المؤرخ أن السبئية يختلفون من الحزب الشيعى الآخر ، وهو حزب الكيسانية ، الذى ظهر فى بادئ الأمر فى الكوفة تحت زعامة المختار[1] . وعلى الرغم من عقيدتهم الأصلية ، وهى القول بإمامة محمد بن الحنفية بعد علىّ أبيه ، يغلو الكيسانية فى اعتقادهم بمحمد بن الحنفية وبإمامته ، وبإحاطته بالعلوم كلها »[2] ، بمعنى إحاطته بسائر العلوم ، إذ اقتبس من أخويه الحسن والحسين الأسرار ، وأحاط بعلم التأويل والباطن[3] .

ولا غرو فإن عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التى نسبوها إليه ، ورمى فى النار من دعوه إلها ، ونفى عبد الله بن سبأ إلى المدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك أباه فى عواطفه وآرائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا فى إحاطته بعلم التأويل والباطن . يدلك على صحة هذا القول ما ذكره ابن سعد[4] أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكيسانية ، أن آل علىّ يحيطون بالعلوم كلها ، قال : « والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، ثم قال : اللهم حلاً وهذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى » .

وهذا التصريح من ابن الحنفية ، يدل دلالة واضحة على أن آل على لم يختصوا بميراث شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يرثوا منه إلا ما ورثه عامة المسلمين .

ويعتقد الكيسانية فى البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغيّر ما أراد ، وفى تناسخ

---

(١) كان المختار بن أبى عبيد ممن بايعوا ابن الزبير الذى أوفده إلى الكوفة ليبث الدعوة باسم الطالبيين . على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية . انظر " مروج الذهب " للمسعودى ، (ج ٢ ص ٥٥ — ٧٧) . وقد ذكر الشهرستانى (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة فى بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام — فى القرن الخامس الميلاد) ، والبراهمة فى الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئين .

(٢) انظر كتاب فان فلوتن (Van Vloten : Recherohes sur la Domination Arabe, Le Chûtisme etc., p. 4) مقتبساً من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل إن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . وقد أصاب فان فلوتن فى تعليقه على هذه الحقيقة بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأى مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة فى الغلو التى كانت أشخاصهم السبب فى ظهورها ؟

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستانى : الملل والنحل (ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٨) .

(٤) كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ٧٧ .

الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها فى جسد آخر ؛ وفى الرجعة ، أى رجعة محمد ابن الحنفية ؛ كما يعتقدون بنبوة على والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون فى أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن علىّ مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين[١] .

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت ابن الحنفية ، واستفزتهم الأخبار التى ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم فى جبل رَضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة) ، وأن عودته ستكون من هذا المكان . وقد جعل كُثَيِّرعَزّة والسيد الحميرى هذا الاعتقاد مثاراً لنظم أشعارهما ، حتى غدا هذا النوع من الشعر يُعرف بالشعر الكيسانى .

وفى ذلك يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

ألاَ إنَّ الأئمةَ من قريشٍ ولاةَ الحق أربعةٌ سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسِبطٌ سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموتَ حتى يقودَ الخيل يتبعها اللواء
تغيَّب لا يُرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

ويقول السيد الحميرى المتوفى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ — ٧٩٠ م) ، وكان كيسانيا :

سنينَ وأشهرا ويُرى برضوى بشِعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين وحَفَّان تروح خلال رُبْد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترساً بحد
أمِنَّ به الردى فرتعن طورا بلا خوف لدى مرعى وورْد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميرى فى محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى ، سنين وأشهراً كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد ، والظباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن يعدو أسد عليها بظفر أو بناب ، لمكان احترامها له وتقديسها إياه .

ويعتقد الكيسانية أن الدين طاعة رجل ، حتى حملهم هذا الاعتقاد على تأويل

---

(١) النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ٢٠ ومايليها .

الشريعة ، وأن طاعتهم ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام كالصيام والصلاة والحج وغيرها[1] .

وقد تكلم فان فلوتن[2] عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : « إذا كان السبئية يعتبرون إمامهم كائناً مقدساً بطبيعته ، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة محيطا بعلوم ما وراء الطبيعة .

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا يخفى بطلانها وبُعدها عن تعاليم الدين الإسلامي .

٣ — الدعوة السرية للعباسيين أيام بني أمية :

من الضروري أن نعرض لحدث هام في تاريخ الشيعة : هو انتقال حق الخلافة من بيت عليّ إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

ذلك أنه في سنة ٩٨ ﻫ (٧١٦ م) مات أبو هاشم ، وهو عميد الشيعة الكيسانية . وقبل موته بقليل ، استدعاه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك[3] ٩٦ — ٩٩ ﻫ (٧١٤ — ٧١٧ م) إلى دمشق وأظهر التودد له ، ولكنه دبر أمر موت أبي هاشم — على ما قيل — لما رآه من ذلاقة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو إلى نفسه ويجد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ؛ فدس له هذا الخليفة من سمه وهو في طريقه إلى أرض الشَّراة بين الشام والحجاز ، حيث كان يقيم محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس في الحميمة ، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة .

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله ، عرج على محمد بن عليّ وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، وأمده بكتب يسلمها إلى داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة ، ونزل

(١) الشهرستاني (ج ١ ص ١٩٦) .
(٢) Van Vloten, p. 42 وترجمة المؤلف (السيادة العربية ص ٨٢) .
(٣) يقول المقريزي في كتابه " المقفى الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٣٥ ب) إن الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ ﻫ (٧٠٥ — ٧١٤ م) هو الذي استدعى أبا هاشم ، وهذا خطأ واضح .

له عن حقه فى الإمامة ، وأوصى بأن تكون لابنه ابراهيم بن محمد الملقب بالإمام من بعده[1] ، وأن يبدأ ببث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨م) . وقد ذكر المقريزى أن أباهاشم قال لمحمد بن علىّ عندما أفضى إليه بسر الدعوة : « هذا أمر أنت أوَّلُ من يقوم به ولولدك آخره »[2] .

وبهذا تحول حق الإمامة من بيت علىّ إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبى هاشم . وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة ، قام الإمام محمد بن علىّ بتنفيذ وصية أبى هاشم ؛ فأرسل إلى الدعاة يكشف عن السياسة التى ينبغى أن يسيروا عليها[3] . وهنا نسأل : ما الذى حدا بأبى هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بنى عمه ، ويترك بنى أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أميه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم ، فلماذا لم يوص إلى أحد من بنى أبيه ، ويسلم وصيته إلى أحد أولاد عمه ليوصلها إليه ؟ ولعل ذلك يرجع إلى ما كان هناك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبى هاشم والإمامية شيعة أولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة ، وهى أن نزول أبى هاشم بن محمد بن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولا من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكا بعقائد الشيعة الإمامية ، بدليل قيامهم فى وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

رأى الإمام محمد بن على العباسى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق . فرأى ببعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة ، فطلب من شيعته أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بنى أمية ، ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة : لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون التشيع بسهولة ، ويعتقدون فى نظرية الحق الملكى المقدس وكانت سائدة فى بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان

---

(١) المسعودى « التنبيه والإشراف » طبعة دى غويه (ج ٨ ص ٣٣٨) .

(٢) ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ورقة ١٣٥ ب .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٣ .

يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الإمام محمد بن علىّ العباسى شعور أهالى الولايات الإسلامية المختلفة وميولهم ، كما يتبين ذلك من وصفه الدقيق للأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات فى ذلك الحين فى هذه العبارة التى ذكرها فى إحدى خطبه :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ ؛ وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية[1] مارقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ؛ وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعدُ فإنى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق[2] » .

ومن تلك الخطبة نتبين ، أنه كان من بين الأسباب التى حملت محمد بن علىّ على اختيار خراسان ، هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سبباً آخر قد يكون أبعد أثراً ، وإن لم يعلق عليه الإمام أهمية كبيرة فى خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بنى أمية . ولقد صدق فان فلوتن[3] إذ يقول تعليقاً على خطبة الإمام : « ولكن هناك أمراً آخر — وإن لم يدل عليه كلام الإمام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختياراً موفقاً ، ذلك هو أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين » . ولا شك فى أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم .

---

(١) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن طالب ، فنسبوا إليها وسموا حرورية (أو خوارج) . انظر لفظ حروراء فى معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادى (ص ٥٧) ، (Prof R. Nioholson : Literary History of the Arabs, p. 209)

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبعة دى غويه) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٣) Van Vloten, p. 46

بدأت هذه الدعوة السرية فى أوائل القرن الثانى للهجرة من الحميمة التى اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم ، وذلك فى عهد عمر بن عبدالعزيز . ووجه محمد بن على دعاته ؛ فوجه ميسرة إلى العراق . كذلك وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج [١] ، وعهد إليهم فى نشر الدعوة فى خراسان . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة العباسية تحت طى الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية ، من بينهم اثنا عشر نقيباً ، كما فعل النبى فى العقبة إذ اختار اثنى عشر نقيباً . وشمر الـكل عن ساعد الجد فى بث الدعوة لبنى العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد . وفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، فخلفه رجل ذو بأس وجاه ، هو بُكَيْر بن ماهان [٢] .

و إنه ، و إن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بأن قلوب الخراسانيين لم تزعزعها الاختلافات الدينية ، ينبغى أن لا يعزب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هددت جهود غالب ، وهو داع علوى متطرف ، نجاح الدعوة لبنى العباس ، وأدت إلى تغيير يذكر فى نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب إلى مسامع إبراهيم الإمام ، بعث هذا إلى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد أبى محمد مولى بنى همدان ، وأوصاه أن يتجنب غالباً ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول زياد ، أتاه فى مرو ، وقامت بين الرجلين مناظرة عدائية : هذا ينتصر لبيت العباس ، وذاك لبيت على .

وكان من وراء عداء غالب أن أصبحت الدعوة بعد ذلك الحين تنص على « الرضا من آل محمد » . وبذلك وجد العباسيون ، كما يقول الأستاذ نيكلسون [٣] ، فى هذه اللفظة المبهمة عبارة يمكن تطبيقها على أبناء علىّ وأبناء العباس ، وبها أيضاً أمكن ستر المدعو إليه ، حتى لا تناله أيدى بنى أمية . ولم يكن يعلم بشخص المدعو له إلا النقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك تسنى للعباسيين أن يوجهوا الدعوة إليهم تحت طى الـكتمان . كما أوصاهم محمد بن على

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٣٥٨ و ١٦٨٨ .

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٣٣٦) ، الطبرى ج ٢ ص ١٣٦٧ .

(٣) Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 250 .

العباسى أن يتظاهروا بنشر الدعوة لآل البيت عامة تسكيناً للعلويين . وهذا ما يمكن أن نعده بدء الدور السرى للدعوة .

ويمكن تقسيم تطور الدعوة العباسية قسمين :

الأول : يبدأ فى مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهى بانضمام أبى مسلم الخراسانى . وكانت الدعوة فى هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج .

والثانى : ويبدأ الدور الثانى بانضمام أبى مسلم الخراسانى إلى الدعوى العباسية ؛ وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى دور العمل ، وهو دور الحروب التى انتهت بزوال الدولة الأموية .

وقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التى بذلها دعاتهم ، وأدت إلى انضمام كثيرين من ذوى الرأى والجاه ، من أمثال سليمان بن كثير ، وأبى مسلم الخراسانى[١] . حتى إذا مات الإمام محمد بن علىّ سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل النجاح . وفى عهد ابنه وخلفه إبراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ؛ بمعنى أن النزاع بين بنى أمية وبنى العباس دخل فى طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك فى سنة ١٢٧ هـ ، وإليك البيان :

فى سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الأمور فى خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية أو النزارية ، وبين اليمانية فى خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج فى اليمن وحضر موت[٢] .

وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين فى هذه البلاد ؛ فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتاباً ، يكشف له فيه عن قوة أبى مسلم وضعف الجند الأموى ويستمده ، وختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ   فأحْجِ بأن يكونَ له ضرامُ

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٤٤١ — ٤٤٢) . الطبرى (ج ٢ ص ١٧٢٧) .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٩٤١ — ١٩٤٩ . المسعودى : مروج الذهب ، طبعة مصر (ج ٢ ص ١٤٥) .

فإنّ النارَ بالعودَيْن تُذْكى　　وإنّ الحرب أولها الكلامُ
فقلتُ من التعجب ليت شعرى !　　أأيقاظٌ أميـةُ أم نيامُ ؟

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ؛ وأمره بأن يحفظ ناحيته بجهده . فلما ورد الخطاب على نصر قال لأصحابه : « أما صاحبكم (يعنى مروان) فلا نصر عنده » .

بعد ذلك كتب نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق كتاباً يطلب فيه المعونة والمدد ، وختمه بهذه الأبيات :

أبلغْ يزيدَ ، وخـيرُ القول أصدقه　　وقد تبينتُ أن لا خير فى الكذب ،
أنّ خراسانَ أرضٌ قد رأيتُ بها　　بَيْضًا لو أفرخ قد حُدِّثْتَ بالعجب
فراخُ عامين إلا أنها كبرت　　لما يطرن وقد سُرْبلن بالزغب
فإنْ يطرنَ ولم يُحتَـلْ لهنّ بها　　يُلهبْن نيرانَ حرب أيّما لهب

فرد عليه يزيد بما لم يَشْفِ غُلة ، فيئس نصر من النصر وقال : « لا غلبة إلا بكثرة ، وليس عندى رجل »[1] .

ولقد أحكم شيعة العباسيين ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى ، الحيلة فى تفريق كلمة العرب فى خراسان ، فبذروا بذور الشقاق بين النزارية واليمانية . وبذلك أمنوا اجتماع كلمة العرب . وفى أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق ، ودالت الدولة الأموية ، وآلت الخلافة إلى أول خلفاء بنى العباس ، وهو أبو العباس السفاح[2] .

---

(١) انظر الطبرى (ج ٢ ص ١٩٧٣ – ١٩٧٤) ، والمسعودى : مروج الذهب ، طبعة مصر (ج ٢ ص ١٤٥ – ١٤٦) .

(٢) قال الأستاذ نيكلسون فى كتابه Lit. Hist. of the Arabs, p. 253, n. I : " يقول الأستاذ بيفان (Prof. Bevan) الذى أدين له بهذه الملاحظات ، إن ترجمة لفظ السفاح ، ولو أن استعمالها قد شاع بين الكتاب الأوربيين ، لا تزال مثاراً لكثير من الشك ، وقد ذهب الأستاذ دى غويه (De Goeje) إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح (munificent) . ومع كل فإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة بنى كلاب الأولى (ابن الأثير طبعة Tornberg (ج ١ ص ٢٤٦) ، سمى السفاح ، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة – ابن دريد ، طبعة Wüstenfeld (ص ٢٠٣ و ١– ١٦) . ولقد ورد فى هذا الكتاب ذكر لشاعر اسمه السفاح بن عبد مناة (ص ٢٧٧) ، السطر الذى قبل الأخير " . والذى أميل إليه أنه إنما سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له " فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح ".

وفى أواخر الدولة الأموية بدأ الاعتقاد بظهور المهدى وانتظاره ينتشر بين المسلمين ، بحسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره . ويقول فان فلوتن إن هذا الاعتقاد لم يقتصر على آل البيت وحدهم ، بل تعداهم إلى أهل السنة ، حتى نحت ذكر غيره من المهديين الذين كان بعض يتنبأ بهم : مثل السفياني المنتظر ، والقحطانى المنتظر وغيرهما . وذكر بعض المؤرخين أن الناس كانوا يلقبون كلا من موسى بن طلحة وعمر بن عبد العزيز بالمهدى . ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين ، وإنما صاروا بالنسبة إلى المهدى المنتظر بالنسبة إلى عيسى بن مريم[1] .

ويقول فان فلوتن[2] أيضاً : « هل كان الناس يعتقدون بإزاء تلك الحالة السيئة (يعنى قيام الفتن ولا سيما على أيدى الشيعة والخوارج) بقرب ظهور المهدى (المخلص) ؟ كل ذلك ممكن ، بل من المحتمل جداً أن هذا الأمل كان العزاء الوحيد للتقاة من المسلمين (أهل السنة) . ومع ذلك فلا يدهشنا أن نرى نبوءة أخرى تشغل الأذهان فى ذلك الحين . لذلك كان من الضرورى ظهور رجل يهدم كل قديم ويأتى عليه ليعبد السبيل لذلك للمهدى المنتظر . وهكذا ظهرت بجانب تلك النبوءات القديمة نبوءة أخرى هى « نبوءة الرجل ذى الأعلام السود »[3] الذى يخرج من المشرق ويزيل عرش بنى أمية[4] .

ولما آلت الخلافة إلى أبى العباس ، عهد إلى عمه عبد الله بن على بقتال مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق وأحل الهزيمة بجنده ، ثم طارده إلى الموصل فحران ، ثم إلى دمشق حيث قتل عدداً كبيراً من بنى أمية وأنصارهم . ثم فر مروان إلى مصر ، حيث أدركه عبد الله بن على ثم ولى أخاه صالح قتال مروان ، فلحق به جند العباسيين فى قرية بوصير من أعمال الفيوم وأخذوا بثأر إبراهيم الإمام الذى سمه الأمويون فى حران وقتلوه فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ .

---

(١) السيادة العربية ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) كان البياض شعار الأمويين إلى ذلك الحين ، فاتخذ العباسيون السواد شعاراً لهم حداداً على الشهداء من آل البيت .

(٤) انظر المبرد : كتاب الكامل ص ٥٨٥ . الطبرى (طبعة غويه) ٢ : ١٩٢٩ وما يليها .

ويرجع سقوط الدولة الأموية إلى عدة عوامل أضعفت البيت الأموى وآذنت بذهاب ريحه . ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلى :

١ — تولية العهد اثنين يلى أحدهما الآخر مما أثار المنافسة بين أفراد ذلك البيت وأورثهم الحقد والبغضاء ، وتعدى إلى النزاع إلى القواد والعمال ، إذ كان الخليفة الجديد ينكل بمن ظاهر خصمه وساعده على إقصائه من ولاية العهد .

٢ — بعث روح العصبية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين مضر واليمن ، مما أثر فى انحلال الحزب الأموى تأثيراً عظيما .

٣ — انغماس بعض الخلفاء وميلهم إلى حياة البذخ والترف تشبهاً بأصحاب البلاط البيزنطى مما كان له أثر كبير فى سقوط دولتهم .

٤ — تعصب الأمويين للعرب والعربية ونظرهم إلى الموالى نظرة الاحتقار مما أيقظ الفتنة بين المسلمين وبعث روح الشعوبية فى الإسلام . وكان منشأ تلك الحركة اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم ، بما ساق الله إليهم من النبوة والخلافة والملك ، وأن لغتهم أفضل اللغات .

٥ — عدم مساواة الأمويين بين العرب وبين الموالى واشتطاطهم فى جمع الضرائب ، مما أثار الموالى الذين انضموا إلى أعداء الأمويين : فانضموا إلى المختار ثم إلى الخوارج وغيرهم ، ثم انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة .

وقد صور المسعودى[1] الأسباب التى ساعدت على زوال ملك بنى أمية فى هذه العبارة التى نقلها عن أحد شيوخ بنى أمية عقب زوال دولتهم : « إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا ، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ؛ وتحومل على أهل خراجنا ، فتخلوا عنا ؛ وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا ؛ ووثقنا بوزرائنا ، فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ؛ وتأخر عطاء جندنا ، فزالت طاعتهم لنا ؛ واستدعاهم أعادينا ، فتظاهروا معهم على حربنا ؛ وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ؛ وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

---

(١) مروج الذهب (طبعة مصر) ج ٢ ص ١٩٤ .

٤ — الدعوة السرية للعلويين أيام الدولة العباسية :

عاش العلويون عيشة هادئة إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدى العباسيين ، فلم يزجوا بأنفسهم فيها ، وتركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى كونوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة وكسبوا رضاء أهل المدينة ، فأولوهم عطفهم واحترامهم ، وأظهروا استعدادهم للانضمام إليهم وإلى دعوتهم .

فلما ظفر العباسيون بالخلافة لم يعجب ذلك العلويين ولم تطب بذلك نفوسهم ، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم ، وأدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم ، فنابذوهم ، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل .

ولم يعدل العلويون عن المطالبة بدعواهم ، بل ظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إلى الخلافة . على أننا نجد أن الضرورة هى التى أكرهت الشيعيين على الاكتفاء بالزعامة الدينية بعد مقتل الحسين ، حتى لقد أصبح تاريخ الشيعة تاريخاً للمكائد التى دفعتهم عقيدتهم إلى سلوك سبيلها . وهذا القول تؤيده تلك المسألة التاريخية ، وهى أن الشيعيين لم يستطيعوا الظهور فى ميدان السياسة والاعتماد على السيف بدلا من اعتمادهم على الكيد ، إلا فى أحوال قليلة .

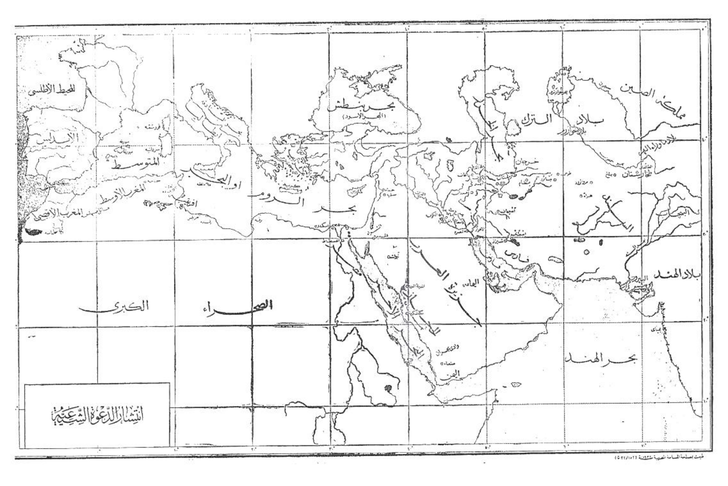
وإن قيام زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ ، الذى تنسب إليه طائفة الزيدية ، والذى ثار على هشام الخليفة الأموى[١] فى سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، مصداق لهذا التطور الجديد . وقد روى النويرى[٢] أن هشاماً أنب زيد بن علىّ بن الحسين إذ بلغه أنه يكيد له فى الخلفاء ، وأخرجه من مجلسه ، فخنق زيد وقال للخليفة : « أخرج ولا أكون إلا بحيث تكره » . كما أورد النويرى (ورقة ٣٢ ب) نص الدعوة التى كان يأخذها زيد على من يعتنق مذهبه ، وهى تتلخص فى أن يحلف الرجل يمين الطاعة والولاء لزيد ،

---

(١) المسعود : كتاب التنبيه والإشراف (طبعة دى غويه) (ج ٨ ص ٢٢٣) (مروج الذهب ، طبعة مصر ج ٢ ص ١٨١) .

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٢٢ ب ، ٩٣ .




انتشار الدعوة الشيعية
المحيط الأطلسى
الأندلس
المتوسط
او البحر
بحر الروم
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
افريقية
بحر بنطش
(البحر الأسود)
بلاد الترك
مملكة الصين
خرجان
فارس
العراق
بلاد العرب
اليمامة
وادى نجران
اليمن
بلاد الهند
بحر الهند
الصحراء الكبرى

وأن يعقد النية على قتال أعدائه : « إنا ندعوك الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، وإعطاء المحرومين ، وتقسيم هذا الفيء بين أهله بالسواء . أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قال نعم ! مسح على يده ثم قال اللهم اشهد . فبايعه خمسة عشر ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً ؛ وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه » .

على أن أهل الكوفة خانوا عهد زيد واعتزلوه ، وبايعوا جعفراً الصادق على إمامتهم[1] . وبذلك ترك زيد يحارب في جماعة قليلة قاتل معها إلى أن قتل ؛ فأحرقوه بالنار وضربوه بالعصى حتى صار رماداً[2] .

وهؤلاء الزيدية هم الذين تفرعت منهم جماعة الرافضة ، ويرجع السبب في تسميتهم الرافضة إلى أن زيداً لما اشتبك مع يوسف بن عمر الثقفي والى العراق من قِبَل هشام بن عبد الملك قالوا له : « إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك عليّ بن أبي طالب » . فقال زيد : « إني لا أقول فيهما إلا خيراً ، وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيراً . وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » . ففارقوه عند ذلك فقال لهم : « رفضتموني » ؛ ومن يومئذ سموا الرافضة[3] .

وبعد موت زيد بن علي بن الحسين انقسم الزيدية إلى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد ، وبايعوا ابنه يحيى ، وقاتلوا معه في خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣م) .

---

(١) ذكر الطبرى (٢ : ١٦٩٩ و ١٦٧٠) أنهم دعوا الرافضة . وقد بحث فريدليندر أصل هذا اللفظ بحثا ممهبا في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX. pp. 137-159) فقال : " من المرجح كثيراً أن يكون شيوع استعمال هذا اللفظ نتيجة العداء الشديد للشيعيين ، ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء " .

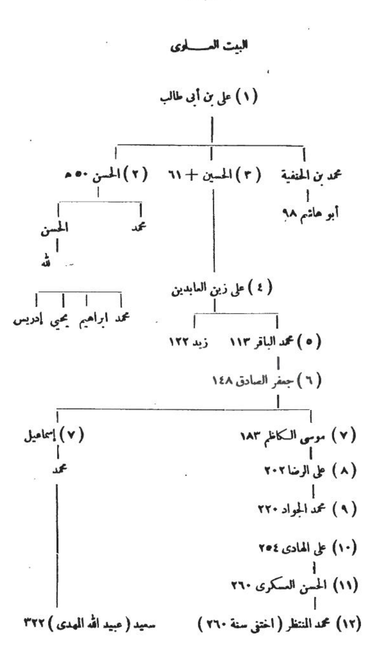
ويريد فريدليندر أن يقول إن هذا اللفظ جرى في العرف العام مجرى الذم ؛ فإنهم إذا أرادوا أن يحقروا شخصاً ويصفوه بأقبح أوصاف الذم يقولون "رافضى" . ولا يزال هذا اللفظ جارياً على ألسنة العامة ، مع تحريف إلى "رفضى"، حتى كان هذا اللقب في بعض الأزمان يطلق على كل من يبدى ميلا لآل البيت . ومن ذلك قول الشاعر :

إن كان رفضاً حب آل محمدٍ   فليشهد الثقلانِ أنى رافضُ

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨١ :

(٣) الفخرى ص ١١٩ — ١٢٠ .

البيت العلوى



إلا أن أمره آل إلى ما آل إليه أمر أبيه من قبل ؛ إذ أصابته نشابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رماداً تذروه الرياح[1] .

على أن فريقاً كبيراً من الزيدية الذين اعتزلوا زيداً انضموا إلى الطائفة الإمامية أنصار جعفر الصادق . والإمام حسب معتقدات الإمامية يكتسب حقه فى الإمامة بطريق الوراثة عن علىّ باعتباره خليفة النبى شرعا . ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبى عن فاطمة ؛ ويغلب فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد جر إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين :

(١) الإمامية الموسوية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ، وقالوا بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع .

(٢) الإمامية الإسماعيلية : وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر . وكان أكبر أولاد أبيه جعفر ، وإن كانت وفاته فى حياة أبيه ؛ فحول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد ، وهو عندهم الإمام السابع . ومن ثم أطلق عليهم السبعية لتمييزهم عن الاثنا عشرية .

ذلك أنه فى خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨/٧٥٤ — ٧٧٥) ، دعا محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، المعروف بالنفس الزكية ، إلى نفسه سراً ، وتلقب بأمير المؤمنين . وفى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهر محمد بن عبد الله هذا بعد أن عاش فى الخفاء دهراً أخذ فيه أشياعه يقيمون له الدعوة ، إلى أن كثر أنصاره فى خراسان[2] ، واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدينة ؛ ومن هذه أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته .

على أن محمد بن عبد الله لم يعش حتى يرى أثر دعوته . فقد قتل على يد عيسى بن

---

(١) الطبرى (٢ : ١٧٧٠ — ١٧٧٤) .
قسم أبو الحسن النوبختى (كتاب فرق الشيعة ص ١٩ ، ٤٩ ، ٥٠—٥١) الزيدية إلى ثمانى فرق . وقد غلا هؤلاء فى المذهب .

(٢) يحيى بن الحسين ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٤ ، ورقة ١٥ (١) وما يتبعها .

موسى (بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس) ؛ فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه ، وشد أزره كثيرون من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه . وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونه أبوحنيفة وراسله سراً ، كما عاون الإمام مالك أخاه محمداً بالمدينة حين أفتى بنقض بيعة المنصور لأنها كانت مبنية على الإكراه . وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالى واسط والأهواز وفارس فى دعوته[1] .

بيد أن حياة إبراهيم آلت إلى ما آلت إليه حياة أخيه من قبله ، فقد قتله عيسى بن موسى أيضاً أول ذى الحجة سنة ١٤٥ (٧٦٢ م) فى موقعة باخمرا[2] الواقعة بين الكوفة وواسط[3] .

ومن هنا يتبين أن العلويين لم يعوّلوا فى دعواهم فى الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم فى ميادين القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال : ففى عهد الهادى خرج الحسين بن علىّ بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علىّ بالمدينة يدعو إلى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ ، ومنها سار إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين بفخ[4] — وهو واد فى طريق مكة يبعد عنها بستة أميال — فقتل بعد أن أبلى بلاء شديداً ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » . وقد أكثر شعراء الشيعة فى رثاء قتلاهم ؛ ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكينّ على الحسـ ... ـن بعَوْلة وعلى الحسنْ
وعلى ابن عاتكةَ[5] الذى ... وارَوْه ليس بذى كفن
تُركوا بفخ غُـدوةً ... فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هُيِّجوا ... لا طائشين ولا جُبُنْ
غَسَـلوا المذلةَ عنهم ... غسل الثياب من الدَّرَن[6]
هُدِىَ العبادُ بجدهم ... فلهم على الناس المنن[7]

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٩ .

(٢) أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . وراجع معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ . المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٤) راجع لفظ فخ فى معجم البلدان لياقوت

(٥) هو الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن قتيل فخ .

(٦) الدرن : القذارة

(٧) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ .

وكانت هذه الموقعة بعيدة الأثر ؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجى فى حلق العباسيين : أحدهما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس فى بلاد المغرب .

أما يحيى فقد ثار فى عهد هارون الرشيد ١٧٠ — ١٩٣ هـ (٧٨٦ — ٨٠٩ م) فى بلاد الديلم ، وانتصر له أهل اليمن ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد . فولى الفضل بن يحيى البرمكى بلاد جرجان وطبرستان والرى ، وسيره فى خمسين ألف جندى لمحاربة هـذا العلوى . ولـكن الفضل أتى يحيى من ناحية غير ناحية الحرب . فأخذ يحذره ويخوفه حيناً ، ويمنيه ويرغبه حيناً آخر ، حتى مال إلى الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما طلب ، وأرسل إليه الأمان مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ثم لم يلبث أن حبسه وقتله ومداد الأمان لم يجف بعد . على أن الصورة التى قتل بها يحيى لا تزال سراً غامضاً (سنة ١٧٦ هـ)[1] .

وكان من أثر هذه الجهود التى بذلها إدريس بن عبد الله أخو يحيى فى إثارة شعور شمال إفريقية على حكم العباسيين ، أن تأسست دولة الأدارسة فى الطرف الشمالى الغربى ، وضاعت هذه البلاد من أيدى العباسيين . على أن الرشيد أرسل رجلا تقرب من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات (١٧٧ هـ) دون أن يترك ولداً يئول إليه الأمر من بعده . ثم وضعت زوجته ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وإليه تنسب الأدارسة ببلاد المغرب . وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف ويعمل على استئصالهم . وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليقف فى وجه الأدارسة .

٥ — انتقال الدعوة الشيعية إلى المغرب :

كانت النتيجة الطبيعية لما حل بالعلويين من حبس وقتل ، أن عمدوا إلى نشر دعوتهم فى طى الخفاء ، وتلمسوا أماكن يختفون فيها ، ويتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم ما كان يوقعه العباسيون بهم من حبس وآلام ، إلى أن تقوى دعائم دعوتهم ، وإذ ذاك يستطيعون الظهور .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٦ — ١٧٧

على أن فكرة سرية الدعوة كانت فكرة قديمة، استحدثها النبى صلى الله عليه وسلم؛ فقد دعا إلى الإسلام سراً فى دار ابن الأرقم ، ثم اختفى فى الغار حين هدد حياته أعداؤه من قريش . واتخذت هذه النظرية التى ابتدعها ابن سبأ شكلا جديداً فى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م) ، وهى السنة التى مات فيها الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر .

أما ونحن بصدد الكلام على الغيبة ، وجب أن نأتى بكلمة يسيرة نصف بها استتار أئمة الشيعة لدرء ما عسى أن يحيق بهم من مكروه . ولا غرو فقد شدد الخلفاء العباسيون فى طلب آل البيت ، حتى لا تظهر دعوتهم وتقوم دولتهم على أنقاض الخلافة العباسية نفسها . ولهذا اتخذ دعاة الشيعة من الإسماعيلية بوجه خاص دور الهجرة فى البلاد التى قاموا فيها بنشر المذهب الإسماعيلى .

وقد أورد يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) فى كتابه « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » أن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علىّ بن أبى طالب استتر فى مصر فى خلافة المأمون العباسى ، وأنه لما بلغه موت أخيه محمد دعا إلى نفسه ، و بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان و بلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ؛ فبلغ خبره الخليفة ، فأمر بالتشدد فى طلبه . فلم يطب للقاسم المقام فى مصر ، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بنى عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه فى بلخ[1] والطالقان[2] ومرو وغيرها ، فذاع خبره و بعث الخليفة إلى بلاد اليمن جنداً يطلبونه ، فاختفى فى حى من البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة شدد فى

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان ، ومن أجل مدائنه وأكثرها خيراً . افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان بن عفان . وإليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ – انظر لفظ بلخ فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروز وبلخ ، بينها وبين مرو الروز ثلاث مراحل . وقد ذكر الإصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع فى مستوى من الأرض ، يجرى فيها نهر كبير ، وتبلغ فى الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ ؛ والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت فى أيام عثمان بن عفان ، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخاً ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخاً) وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

طلب القاسم ، و بعث بغا الكبير وأشناس فى جند كثيف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

هذا وقد روى المؤرخ حكاية عن خادم القاسم بعصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف . . . . فنودى نداء يبلغنا صوته : بَرِئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البز كذا وكذا . والإسكاف مطرق يسمع و يعمل لا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعتَ ؟ قال : مَنّ لى ! ما ارتياعى منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى فى وقايتى لولده بنفسى[1] ؟ » .

الآن نعود إلى الكلام على الإمام الثانى عشر . فى شهر شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكرى[2] وهو الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سماه محمداً ، من أم ولد اسمها صَقيل[3] . فلما توفى الحسن فى سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد فى الخامسة من عمره ، فأصبح الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الموسوية الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثنا عشرية . و يقال إن محمداً دخل سرداباً فى مدينة سامرا وأمه تنظر إليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين . ومن هنا تنسب إلى الإمام الثانى عشر غيبتان : الغيبة الصغرى ، وتبدأ بمولده سنة ٢٥٥ هـ وتنتهى بموت أبيه سنة ٢٦٠ هـ ؛ والغيبة الكبرى ، وتبدأ من اختفائه أخيراً سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن . ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم . ولهذا يعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن محمداً الإمام الثانى عشر سيظهر و يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . ومن ثم سمى الإمام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالأمر ، والحجة .

وقد رجح ابن حزم صحة اسم صقيل ؛ وزاد أنها أدعت الحمل بعد وفاة الحسن العسكرى

---

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ ا — ٣٥ ب .

(٢) نسبة إلى العسكر . والمراد هنا مدينة سامرا التى أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكرا لجنده الأتراك ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ — ٢٧٩ هـ) ، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة .

(٣) هذا هو الرأى الشائع . على أن هناك فريقاً من المؤرخين يخالفون هذا الرأى ، فيذكرون أن محمداً من أم ولد اسمها نرجس ، ويزعم آخرون أنه من أم ولد اسمها سوسن (ابن حزم ج ٤ ص ٩٤) .

سبع سنين ، فوقف ميراثه ؛ وقد نازعها فيه أخوه جعفر بن عليّ إلى سنة ٢٦٧ هـ ، فقضى له القاضي وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

(١) فريق ناصر جعفرا .

(٢) وفريق آخر تعصب لصقيل ، ومن بينهم حسن بن جعفر النُّوبختي[1] . والنوبختي فارسي الأصل ، وهو صاحب الزيج المشهور ، الذي قام برسم مدينة بغداد للمنصور ، فصار بيته من أشهر البيوتات .

عاشت صقيل بعد وفاة سيدها عشرين سنة في بيت الحسن النوبختي ؛ فراجت الإشاعات حول مقامها في هذا البيت ، فأمر الخليفة المعتضد فحملت إلى قصره ، فظلت فيه إلى أن ماتت في خلافة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٠ هـ ، أن الحسن العسكري وكل بدعوته بعضَ رؤساء الشيعة . فكان أبو سعيد العُمَري رئيسُ الإمامية الوكيلَ الأول . أما الوكيل الثاني فهو النُّمَيْري ، وهو أصل الطائفة النُّصَيْرية ، التي تعد من أشهر الفرق الاثنا عشرية وغلاتهم الذين يؤلهون على بن أبي طالب ، ولا يزال لهم بقايا في فارس والشام . والوكيل الثالث حسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل عليّ على يد رجال من بيته .

ظلت طائفة الإمامية الاثنا عشرية معيناً يمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهوري الدعاة الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسماعيلية ، مثل ابن حوشب ، وابن فضل اليمني الذين قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن بفضل جهودهما ، وأبي عبد الله الشيعي المحتسب الذي يرجع إليه الفضل في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطميــة في بلاد المغرب . ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثاني عشر ، فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملأ الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر ، الذي طالت غيبته ، وغدا ظهوره في نظرهم أمراً بعيد الوقوع[2] .

---

(١) نوبخت بالفارسية معناها البخت القريب .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmane d'Espagne, vol. III, p. 128.

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة الرابعة ١٩٥٧) ج ٢ ص ١٩٤ .

وقد ذكر دى جوبينو فى كتابه « الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى[1] » تأثير مذهب الاثنا عشرية وأهميته عند الفرس ، الذين كانوا ينظرون إلى أئمتهم كما ينظر المسيحيون إلى أقانيمهم ، ويعتقدون أن فى أيديهم مقادير العالم الذى يحيى بوجود هؤلاء الأئمة ويهلك بدونهم . كما أن الطاعة والتوسل الى الأئمة من الأمور الضرورية عند طائفة الاثنا عشرية فى فارس . وهناك صلوات خاصة بهؤلاء الأئمة : من ذلك أن يوم الأحد مقدس عندهم من أجل على وفاطمة ، والساعة الثانية من كل يوم مقدسة كذلك من أجل الحسن ، والساعة الثالثة مقدسة من أجل الحسين ، والرابعة من أجل على زين العابدين ، والخامسة من أجل محمد الباقر ، والسادسة من أجل جعفر الصادق ، والسابعة من أجل موسى الكاظم ، والثامنة من أجل على الرضا ، والتاسعة من أجل محمد الجواد ، والعاشرة من أجل على النقى ، والحادية عشرة من أجل الحسن العسكرى الزكى ، والثانية عشرة من أجل محمد المهدى الحجة .

ويعتقد الإمامية الاثنا عشرية أن الله قد أخفى الإمام الثانى عشر عن أعين الخلق ، ولكنه لا يزال حياً ، وهذه معجزة له . كما يقولون إنه يرى من وقت إلى آخر ، وإنه على اتصال بغيره ، وأن بيده تقدير حظوظ أشياعه[2] .

وقد جعل الصفوية ، أنصار إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية فى فارس فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، مذهب الإمامية الاثنا عشرية للمذهب الرسمى فى هذه البلاد . فقد أمر إسماعيل الخطباء بأن تقام الخطبة باسم الإمامية الاثنا عشرية ، كما أمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان عبارة « أشهد أن علياً ولى الله » ، وأمر الجند بقتل كل من يعارض ذلك . ولا يزال مذهب الاثنا عشرية مذهب الدولة فى إيران .

(ا) دور الستر :

وقد ذهبت طائفة الإسماعيلية إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، وأنكرت موت إسماعيل فى حياة أبيه وقالت إنه تغيب ،

---

(١) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale. p. 60.

(٢) Donaldson, The Shi' ite Religion London., 1933), p. 235.

ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس ؛ كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه إسماعيل ، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب . ولم يكن لأخوى إسماعيل ، عبد الله وموسى فى الإمامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين . ويسمى أصحاب هذا القول « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر »[1] .

وقد قام النزاع بين الموسوية أشياع موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياع أخيه إسماعيل ومحمد بن إسماعيل من بعده . وهؤلاء يقولون ببطلان إمامة موسى لأنه قد نص على إمامة إسماعيل . و « أن النص لا يرجع القهقرى ، والقول بالبداء[2] محال[3] » . إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى فى حياة أبيه ، وقالوا إنه إمام مستودع (Acting or Trustee Imām) ، كالحسن بن على بن أبى طالب الذى لم يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه ، رغم أنه كان إماماً ، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (Permanent or necessary Imam) يستطيع أن يورّث الإمامة لأبنائه ، فهو والحالة هـذه كالحسين بن علىّ بن أبى طالب[4] . ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقيّةً[5] (تظاهرا بغير ما يخفى لتبقى سطوة الحاكم) ، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل ، وهم الأئمة الحقيقيون ، لاضطهاد العباسيين .

من ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذى يتمتع بالإمامة فى حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده . كالحسن بن على فى نظر الإمامية ، وموسى الكاظم فى نظر معتدلى الإسماعيلية ، وأن الإمام المستقر هو الذى يتمتع بالإمامة فى حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده ، كالحسين بن على وأبنائه من الأئمة ، وكإسماعيل بن جعفر

---

(١) أبو محمد الحسن النوبختى : كتاب فرق الشيعة ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ — ٧٢ ، ٩٠ .

(٢) يعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٧ .

(٤) Bernard Lewis, The Origins of Isma'ilism, pp. 49—52. Ivanow : Kalami Pir, p. xlviii.

(٥) ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة لأنه رمى بشرب الخمر وسوء السيرة . ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها .

فى نظر الإسماعيلية . وقد ذكر الشهرستانى[1] شيئاً كثيراً عن آراء الإسماعيلية فى إمامة إسماعيل ، وأنهم نسبوا إليه أموراً خارقة للعادة .

١ — رياسة الدعوة :

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعيين عامة ، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم فى طى الكتمان . ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية فى الحجاز وبأخيه إبراهيم فى العراق سنة ١٤٥ هـ ، وقتلوا الحسين ابن على بن الحسن فى موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التى كانت بعيدة الأثر فى تاريخ الشيعة . فقد هرب منها اثنان من العلويين هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس بن عبد الله الذى أسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى . كذلك خرج من أبناء جعفر الصادق ، محمد الديباج بمكة فى خلافة المأمون ، كما خرج عليه القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن ، الذى استتر نحوا من عشر سنين ، وبث دعاته فى مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وفى بلخ والطالقان ومرو ، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره فى عهد المعتصم .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم فى الخفاء ، وفى بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية ، ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة ، حتى إن محمد بن إسماعيل فر إلى الرى ، ومنها إلى دماوند[2] ، حيث استقر بقرية سميت محمد أباد نسبة إليه . وسار أبناؤه على منواله ، فاختفوا فى خراسان ، وفى إقليم قندهار ، وفى السند ، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم[3] .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سلمية من أعمال حماة ببلاد الشام مركزاً لنشر هذه الدعوة ؛ وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، ويمهدون فى تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم فى هذا الدور ، وهو دور الستر ، نواب

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢) جبل قرب الرى — انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ Levy : The Accounts of Ismal'ili Doctrines in the Jam' i-at Tawarikh of Rashid -i-al Din Fadlallah (J. R. A. S.), 1930, p. 522

الأئمة أو الحجج[١]، وهؤلاء يرسلون دعاة من قِبلهم لنشر المذهب الإسماعيلى فى أرجاء العالم الإسلامى .

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب ، وكانت إليهم رياسة هـذه الدعوة ، ميمون القداح الذى وضع دعامة المذهب الإسماعيلى ، حتى اعتقد بعض المؤرخين أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه[٢]، واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر فى عمله عن ميول شعوبية ترمى إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس ، وأنه اتخذ قَداحة العيون أو تطبيبها (هى عملية استخراج ماء من العين Gloucoma) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية ، وهى نشر المذهب الإسماعيلى ، ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله بن ميمون .

وقد وصف المقريزى[٣] عبد الله فقال إنه كان عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه اعتنق مذهب الشيعة ، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق أو ابنه محمد ، بل كان ذلك لحيلة اتخذها ليجمع حوله أنصارا ، بمعنى أنه اتخذ هـذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهى تـكوين دولة فارسية . ويعتبر عبد الله المؤسس الحقيقى لذلك المذهب الإسماعيلى الذى انتشر بين القرامطة وغيرهم .

وذكر النويرى[٤] أنه « كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن الحسن بن جهار نجار ، الملقب دندان ، وهو بنواحى الـكرج وأصبهان ، له حال واسعة وضياع عظيمة ، وهو المتولى على تلك المواضع . وكان يبغض العرب ويذمهم ، ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع فى نواله تقرب إليه بذم العرب ، فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ، وما ينتحله من بغض العرب وصنعة النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العين ، ويقدح المـاء النازل فيها ، ويُظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة (زلفى إلى الله)، وتقرباً إلى الله عز وجل بنواحى أصفهان الجبل . فأحضره دندان ، وفاتحه الحديث ،

---

(١) كتاب عقيدة الإسماعيلية (نشره جويار) Fragments relatifs à la Doctrine des Ismàelis (Paris, 1874), pp. 188-9

(٢) Prince Mamour : Polemics on the Origin of the Fatimid Caliphs, p. 52.

(٣) خطط ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٤) نهاية الأرب فى فنون الأدب : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ ج ٢٦ ص ٢٢ — ٢٣ .

فوجده كما يحب ويهوى ، وأظهر له عبد الله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال له : مثلك لا ينبغي أن يعطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك ، فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ، ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن يتعصب لهذا الدين ، فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس والهند مع بأسهم ونجدتهم . وقد علمت شدة بابك صاحب الخرمية وكثرة عساكره وانه نفسك ، والزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ، ويقول هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام ، فإنك إذا سببتهما سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك في استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأي ، ثم قال له عبد الله : إن لي أصحاباً وأتباعاً أبثهم في البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع . ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك وسر به ، وبعث لعبد الله القداح ألفي ألف دينار ، فقبل المال وفرقه في كور الأهواز وسواد الكوفة ، وبطالقان خراسان ، وسلمية من أرض حمص . ثم مات دندان ، فخرج عبد الله إلى البصرة وسواد الكوفة ، وبث الدعاة ، وتقوى بالمال ، وتدبر الحال » .

اتخذ عبد الله الأهواز مركزاً لنشر دعوته . ولما اتصل خبره بواليها أضمر له الشر ، ففر إلى البصرة . وقد عزا المقريزي[1] هرب عبد الله إلى ما ظهر منه « من التعطيل والإباحة والمكر والخديعة ، فثارت به الشيعة والمعتزلة ، فكبسوا داره ؛ ففر إلى البصرة » ، وأقام في أسرة عقيل بن أبي طالب ، مدعياً انتماءه إليهم ، فحامت حوله الشبهات ، فرحل إلى الشام ، وأقام في سلمية إلى أن مات بها[2] .

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٢ .

(٢) يرى دى غويه Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 19. أن هرب عبد الله بن ميمون حدث حول سنة ٢٧٠ ﻫ ، وأن ابنه أحمد أصبح على رأس الدعوة في سنة ٢٧٤ﻫ . فلا بد أن تكون وفاته قد حدثت بين سنتي ٢٧٠ ، ٢٧٤ ﻫ .

وقد وضع عبد الله بن ميمون أساس الدعوة لبث عقائد المذهب الإسماعيلي أو مذهب السبعية الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وابتدع لذلك دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب ، زيدت بعده حتى أصبحت تسعاً في أيام الفاطميين . ولم يمت عبد الله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الإسلامية على ما سنرى .

خلفاء ابن ميمون القداح :

لما مات عبد الله بن ميمون القداح خلفه في رياسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد[1]. ويرى ابن النديم[2] أن الذي خلف عبد الله ابنه محمد . وذكر ابن عذاري[3] ، والمقريزي[4] والنويري[5] أن أحمد هو الذي خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع . ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلمية مركزاً رئيساً لنشر الدعوة ، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بها ، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرياسة الدعوة في بعض مدن العراق ، وخاصة الكوفة وبغداد ، وعين أحد أولاده لرياسة الدعوة في فارس . ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبي الشلعلع برياسة الدعوة في سلمية والعراق . ومن ثم انتقلت إليه رياسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ ، وأصبح وصيا على سعيد ابن أخيه الحسين الذي يزعم بعضهم أنه عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين . وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في بلاد اليمن ، كما بعث أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن لتلقي أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب .

ولا غرو فإن جهود الإمامية قد ظهرت ظهوراً بيناً منذ وفاة الإمام الحادي عشر سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، مما حدا بالخلفاء العباسيين إلى تضييق الخناق على الشيعيين عامة ، فاضطرت طائفة الإسماعيلية إلى مغادرة سَلَمْيَة[6] مركز دعوتهم ، ومواصلة جهودهم في بلاد أكثر صلاحية لبث هذه الدعوة ، وهي شمال إفريقية .

---

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٣٤٨ ، ووافقه على ذلك النويري : نهاية الأرب ، مخطوط ج ٢٦ ص ٢٤ .

(٢) الفهرست ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ٢٩٤ .

(٤) خطط ج ١ ص ٣٤٨ .

(٥) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٢٤ .

(٦) بفتح السين واللام وسكون الميم وفتح الياء ؛ كما حققه ياقوت في معجمه ، هي من أعمال حماة من بلاد الشام .

ولا شك فى أن الجهود التى بذلها الشيعيون لتأسيس خلافة علوية بالشام قد قضى عليها؛ فلم ير الأئمة بدا من الاستتار ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة. والآن نشرع فى بيان الأسباب التى من أجلها وقع اختيار الشيعيين على شمال إفريقية ابتغاء نجاح دعوتهم، ثم نأخذ فى الكلام بعد ذلك على نسب الإسماعيلية أو الفاطميين، وهو اللفظ الذى اصطلح المؤرخون على استعماله إذا ما تناولوا الكلام على هذه الأسرة.

٦ — أسباب نجاح الدعوة الشيعية فى المغرب :

كان الأدارسة — على ما ذكرنا — أول من أسس سلطاناً من العلويين؛ فأقاموا دولة الأدارسة فى شمال إفريقية (المغرب الأقصى) سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م)، وحذا حذوهم ذوو قرباهم من الزيدية فى بلاد اليمن. أضف إلى ذلك أن شمال إفريقية التى أقطعها هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب قد استقلت استقلالا فعلياً ولم تكن خاضعة للعباسيين إلا فى الاسم فقط.

ثم أقام إبراهيم دولة دام سلطانها زهاء مائة سنة ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠ — ٩٠٩ م). وعلى الرغم من أن خلفاءه اكتفوا بلقب الإمارة، بلغت قوة الخليفة العباسى من الضعف بحيث لم يعد قادراً على التدخل فى أمور هذه الولاية، مكتفيا بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة. وهذان المظهران هما كل ما بقى للخلافة العباسية فى جميع البلاد الإسلامية التى زال عنها نفوذ بغداد.

ضعفت قوة الدولة العباسية لاستئثار الموالى من الأتراك بالسلطة دون الخليفة، وأصبح فى يدهم تولية الخليفة وعزله وقتله؛ وغدت البلاد مرتعاً للفوضى والقلاقل، وصارت السلطة العسكرية فى حاضرة الدولة — وقد أصبحت ملهى يلهو به المتنافسون — من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادراً على الدفاع عن حاضرة دولته، وقد هددها الزنج وأضرموا نار الثورة التى دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥ — ٢٧٠ هـ (٨٦٩ — ٨٨٣ م) عرّضوا فيها كيان الدولة للخطر، كما أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع

الطرق الذين أدخلوا الفزع والهلع فى قلوب الأهلين ؛ وتعدى بلاؤهم إلى محاصرة أمهات المدن كالبصرة ، والأهواز ، وواسط .

هذه الحالة تكشف لنا عن مبلغ الضعف الذى وصلت إليه السلطة المركزية فى بغداد ثم فى سامرا (٢٢١ — ٢٥٩ هـ) ، هذه السلطة التى عجزت حتى عن الدفاع عن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة . ومن هذا يتبين مبلغ السهولة التى أقام بها الفاطميون دولتهم فى إحدى ولايات الدولة البعيدة عن إفريقية (تونس الحالية) ، لما أصابها من وهن وما اشتهر عن أمرائها من ضعف وانحلال .

« أضف إلى ما تقدم أن البربر ، على ما هو مشهور عنهم من حب القتال ، وما تعوّدوه من شظف فى العيش ، وما فطروا عليه من عدم إخلاد للنظام ، كانوا — كما بينا — متأهبين للمخاطرة بأرواحهم إذا ما عرض لهم باعث يحرك فى نفوسهم ما جبلوا عليه من إقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال . زد على ذلك أن عامل الشراهة الذى فطر البربر على إرضائه ، وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة — كل ذلك جعلهم أسلس قياداً إلى أبى عبد الله الشيعى ، فتمكن من الوصول إلى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل علىّ والمهدى »[1] .

ولا يغيب عن أذهاننا أن بلاد الأندلس ، التى سهل انسلاخها عن الخلافة العباسية ، بسبب بُعدها عن مركز هذه الخلافة ، وازدياد نفوذ الأمويين فيها فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، لو بقيت تحت سلطان العباسيين ، لوقفت حجر عثرة فى سبيل ازدياد نفوذ الفاطميين فى شمال إفريقية .

ولم تتوطد أركان السلام بين البربر والعرب النازلين فى بلادهم منذ ظهور الإسلام وامتداد فتوحه إلى هذه البلاد . ولا ريب فى أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة ، وقد نظروا إلى العرب نظرهم إلى الغاصب . وزاد اشتعال نار العصبية هذا العداء . هذا إلى أن البربر فى ذلك الحين لم يكن لديهم الميل والاستعداد للأخذ بأهداب الحضارة الإسلامية التى أوجدها العرب فى صدر الإسلام . ولو أخذ البربر بحضارة العرب لكان ذلك قبولا لحضارة الفاتحين .

(1) Nicholson (J.): The Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa, p. 26.

ولا شك فى أن أكبر العوامل التى وقفت فى سبيل استتباب الأمن إنما ترجع إلى العاطفة الوطنية التى هى من أخص صفات البربر منذ مبدأ ظهورهم فى عالم التاريخ ، والتى أخذت تتجلى شيئاً فشيئاً فى الأحقاب المتتابعة .

وتتكون البلاد التى يعيش فيها البربر من بقاع رملية وتلال جرداء مجدبة ، لا يمكن أن تمدهم بما تحتاج إليه الأمم من الحاجات اللازمة لتقدمها ورقيها ، ولا تجعل من السهل عليها أن تقيم حضارة خاصة بها ، أو أن تتصل بغيرها من الأمم فتنال قبساً من ثقافتها . هذا إلى أن بلادهم لم تكن لتصلح إلا لإمدادهم بما تتطلبه الحياة البدوية — اللهم إلا إذا استثنينا هذا السهل الضيق الذى يتاخم البحر الأبيض المتوسط ، وجل سكانة من أصول مختلفة : من فينيقيين وقرطاجانيين و إغريق ورومان ، إلى وندال ، وهم من أصل جرمانى ، وعرب — فقد كان قرب هذا الجزء من الساحل الأوربى سبباً فى أن تيسر لسكانه أن يقتبسوا شيئاً من رقى الأمم المجاورة .

وليست فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الأهلين بأقل أهمية مما تقدم . نعم ! لم يكن قيام الخوارج من البربر فى وجه الولاة خروجاً على الدين ، بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة لظلم الولاة لهم وفرضهم ضرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين . كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يؤملونه ثمناً لما قاموا به من تضحيات فى حربهم مع العرب ، ولم يجدوا فى ولاتهم ما يحببهم إليهم . فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للمسود ، لا النظير للنظير ؛ فكان كل ذلك مما أعدهم لقبول المذهب الشيعى . على أنهم لما ساءهم أمر الولاة ، رفعوا الصوت تنديداً بهذه السياسة الخرقاء و بثوا شكواهم إلى الخليفة العباسى فى بغداد .

ولما كانت بغداد بعيدة عن بلاد المغرب ، لم يعر الخليفة — لما حل به و بدولته من ضعف ووهن — شكواهم أذناً مصغية ؛ فهموا تارة إلى الاحتجاج وتارة بالسيف . وسهلت كراهتهم للعرب انضمامهم لأبى عبد الله الشيعى ، الأمر الذى ساعد على تأسيس الدولة الفاطمية بالقيروان . وقد أصاب نيكلسون حيث يقول : « لم يعد من الصعب أن يحرض البربر على محاربة الذين لا يمكن اعتبارهم إلا متطفلين فى أرض الوطن »[1] .

---

(1) Nicholson (J) : The Fatimite Dynasty in Africa, p. 26.

مما تقدّم نستطيع أن ندرك كيف هيأت الأحوال فى إفريقية دخول كثيرين من البربر فى حظيرة المذهب الشيعى بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل . ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية على يد أبى عبد الله الشيعى ، حتى إذا ما وصل بلاد كتامة (أو كِتامة)[1] سنة ٢٨٨ هـ (٩١٠م) التى حرثها الحلوانى وأبو سفيان من قبله ، وجد هذه البلاد موطأة ممهدة له .

وقد ذكر ابن الأثير[2] والمقريزى[3] أن أبا عبد الله جعفر الصادق بن محمد بعث هذين الداعيين (الحلوانى وأبا سفيان) سنة ١٤٥ هـ وقال لهما : « إن المغرب أرض بور ، فاذهبا فاحرثا حتى يجىء صاحب البذر » . والفترة بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول أبى عبد الله الشيعى ١٤٣ سنة (١٤٥ — ٢٨٨ / ٧٦٢ — ٩٠١) .

وفى الحق أن هذه الحالة السياسية التى سادت شمال إفريقية ، وميول بنى كتامة الدينية الذين أثمرت وأينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة قبل أن تطأ قدم أبى عبد الله أرضهم — كل ذلك مهد السبيل للمهدى ليظهر للناس كأنه المهدى المنتظر وسليل آل علىّ ، ويحقق بذلك الأغراض التى كان يرمى إليها من نشر دعوته .

ولا يفوتنا ما كان من ضعف قوة الأمراء فى شمال إفريقية ، وما أبداه دعاة الشيعة من نشاط وهمة كان لهما أثر بعيد فى اكتساب ولاء القبائل على اختلافها ومعونة رجالها الذين عرفوا بغيرتهم وتعصبهم — فكان اجتماع كل هذه الأسباب فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس خلافتهم .

٧ — نجاح الدعوة الشيعية فى إفريقية :

كانت الفترة التى تخللت سنتى ٢٨٨ و ٢٩٦ هـ (٩٠١ — ٩٠٨ م) فترة جهاد مستمر ، سلك فيه أبو عبد الله[4] سياسة الحزم والعزم .

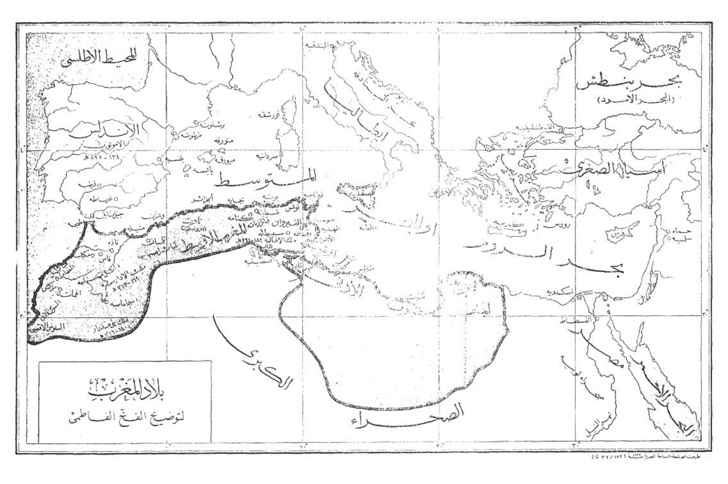
(١) انظر كتاب الأنساب للسمعانى (ص ٤٧٤ ب و ٥٧٥ ا) لمعرفة أصل هذه القبيلة وصحة نطق هـذا اللفظ .

(٢) ج ٨ ص ١١

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٢١ .

(٤) أطلق عريب بن سعد على أبى عبد الله الشيعى اسم الصوفى أو المحتسب . انظر الأحكام السلطانية للماوردى — طبعة مصر (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) والقلقشندى (ج ٣ ص ٤٨٧)





بلاد المغرب
لتوضيح الفتح الفاطمى
المحيط الاطلسى
الاندلس
الامويون
١٣٨ - ٨٩٧ هـ
المتوسط
بحر بنطش
(البحر الاسود)
اسيا الصغرى
الصحراء
الكبرى
مصر
نهر النيل
الفسطاط
اسكندريه
رودس
قبرص
قرطبه
غرناطه
منورقه
ميورقه
يابسه
بلنسيه
سردانيه
قورشقه
تونس
القيروان
كتامه
فاس
مكناس
تازه
سجلماسه
اغمات

وأبو عبد الله الشيعيّ هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، من أهل صنعاء باليمن ، ولذلك لقب الصّنعانى . وكان أبو عبد الله يعتنق أول الأمر عقائد الاثنا عشرية ، كما كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم هذا المذهب قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . كما كان يطلق عليه أيضاً اسم الصوف ، لأنه كان يلبس الأردية الخشنة ومرقعات الصوف . وقد ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد ، فلما اتصل بمحمد الحبيب أبى عبيد الله المهدى ، آنس فيه الكفاية والذكاء ، فأوفده إلى بلاد اليمن سنة ٢٧٨ ﻫ ، فاتصل بابن حوشب داعى دعاة الإسماعيلية فى هذه البلاد وصار من كبار أصحابه .

فلما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبى سفيان داعى الإسماعيلية فى بلاد المغرب ، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى هذا المذهب ، وقال له : " إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وقد ماتا ؛ وليس لها غيرك ؛ فبادر فإنها موطأة ممهدة لك " .

غادر أبو عبد الله اليمن قاصداً مكة ؛ وقد زوده ابن حوشب بما احتاج إليه من المال . فلما وصل إلى مكة ، سأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فحدثهم فى ذلك وأفاض القول فى مآثر أهل البيت . ثم نهض ، فسألوه أن يأذن فى زيارته لما رأوا من علمه وعقله ؛ فأجابهم إلى ذلك . فأخذوا يترددون عليه وسألوه أين يقصد ، فأجابهم إنه يريد مصر . فسروا بصحبته ، ورحلوا جميعاً من مكة ، وهو فى كل ذلك يخفى عنهم أغراضه . وما لبثوا أن تعلقوا به واجتمعوا على محبته لما

= ونشوار المحاضرة للتنوخى (ص ١٥٨ و ١٦٤ و ٢٥٠) لمعرفة واجبات المحتسب ، ومقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٥ — ٢٢٦) والمقريزى : خطط (ج ١ ص ٣٦٣ و ٤٦٤) . وذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) وغيره أن أبا عبد الله من أهل صنعاء ، وقد اتصل بمحمد الحبيب أبى عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ، فأرسله إلى اليمن ، وهناك صحب ابن حوشب بعدن وصار من كبار أصحابه . ولما كانت تلك البلاد خالية ممن يقوم ببث الدعوة فيها من عهد وفاة الحلوانى وأبى سفيان ، بعث به ابن حوشب إلى بلاد المغرب .

على أن ابن خلدون (ج ٤ ص ٣٢) خالف عريب بن سعد ، فقال إن أخا أبى عبد الله (أبو العباس) هو المحتسب ، وكان يؤدى أعمال هذه الوظيفة فى أحد أعمال البصرة ، وأن أبا عبد الله كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم مذهب الإمامية قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . أما المقريزى (خطط ج ٢ ص ١٠) فقد خالف ابن خلدون فى هذه المسألة ، فقال إن أبا عبد الله نفسه كان محتسباً فى أحد أعمال بغداد ، لا البصرة .

رأوا من ورعه وزهده ، وهو فى ذلك كله يسألهم عن أحوال بلادهم وعن مبلغ إطاعتهم لأميرهم ، فقالوا : « ليس له علينا طاعة ، وبيننا و بينه عشرة أيام » .

وقد استطاع أبو عبد الله بما جبل عليه من مكر ، وما وهبه الله من ضروب الحيل ، أن يعرف منهم أن حمل السلاح كان كل همهم ، وبهذا كله أتيح له أن يقف على جميع أحوالهم . فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ؛ فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر ، فقال إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم ؛ فقالوا له : « فأما إذا كنتَ تقصد هذا ، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بحقك » . وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم ؛ واستأنفوا السير حتى أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة — وهى فى بلاد الجزائر اليوم — وقد خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين أينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل .

ولما وقف القوم على حال أبى عبد الله ، أحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام ، ورغبوا فى نزوله عندهم واقترعوا أيهم يضيفه . ولما بلغوا أرض كتامة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، تهافت كل منهم على إنزاله فى بيته ؛ فسألهم : « أين فج الأخيار[1] ؟ » فدلوه عليه ، فقصده ، وسار إلى جبل إيكجان ، فنزل بفج الأخيار . وهنا قال لهم : « هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم ؛ ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ؛ وبخروجكم فى هذا الفج ، سمى فج الأخيار » . فتسامعت به القبائل وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره ؛ وما لبث أن كشف عن قصده ، فقال لرجال كتامة : « أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى »[2] ، الذين أرسلهما الإسماعيلية لبث الدعوة فى

---

(١) فى جبل إيكجان فى أرض كتامة (على مقربة من مدينة قسنطينه ، تعرف بمناعتها . يسكنها قبائل من كتامة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت كبيرة آهلة بالسكان (انظر البكرى ص ٦٣ و ٦٤) ، وفيه أقام أبو عبد الله الشيعى وسماه دار الهجرة . وقد سمع ياقوت بعض الناس يطلقون عليه ايكجان ، وذكره المقريزى فى اتعاظ الحنفا (ص ٣٢) ، ونقله أوليرى (O'Leary) أنكجان ، وهو خطأ .

(٢) بعث محمد الحبيب أحد أشياعه ، ويدعى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى إلى اليمن ، لينشر الدعوة للفاطميين ويعلن للناس أن قد حان ظهور المهدى ، فظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ ، ونجح ابن حوشب فى مهمته ، حتى اعتقد الناس فى المهدى من آل على وفى صفاته . وسرعان ما ابتنى ابن حوشب حصناً بجبل لاعة وتغلب على أغلب بلاد اليمن بما فيه صنعاء ، ودعا نفسه المنصور ، وبعث الدعاة إلى كافة بلاد اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وشمال إفريقية — ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) والمقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٢٧) .

بلاد كتامة[1] . فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم ، وأتته القبائل من كل مكان[2] .

أما ونحن بصدد الكلام عن فج الأخيار ، يجدر بنا أن نذكر كيف قام الإسماعلية يبث دعوتهم . كان الإسماعيليون يبعثون بالدعاة من سلمية ، مركز حركتهم الدينية إلى كافة الأقطار الإسماعيلية . وقد اتخذ هؤلاء الدعاة دار هجرة فى كل قطر ؛ فاتخذوا دار هجرة فى نجران ، وفى سواد الكوفة ، وفى جبل لاعة باليمن ، وفى بلاد تركستان وعلى الأخص فى الجزء الشرقى ، وكذلك فى بنجاب ، وبمباى ، حيث لا يزال يمثل أغا خان طائفة منهم إلى الآن .

ولما دخل أبو عبد الله الشيعى بلاد المغرب ، اتخذ دار هجرة فى فج الأخيار فى إيكجان الواقع فى بلاد كتامة بإفريقية[3] . وكان يطلق على إيكجان منذ قديم الزمان Tzajjan ، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى . وفى هذا المكان اتخذ أبو عبد الله الشيعى دار الهجرة ، وهو مركز حركته وجمع أنصاره من البربر . ويرجع ذلك — على ما ذكرنا — لسذاجة البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الإسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة فى الصعوبة ، كغيرهم من أهالى الإسماعيلية — كفارس ومصر .

فليس من عجب إذا لم يتعمق البربر فى فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التى تحتاج إلى إعمال الفكر ، وإنما اعتنقوه لأول وهلة مدفوعين بعدائهم للأغالبة السنيين . فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه فى نفوسهم ، مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب ، حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر[4] .

وعلى الرغم من مساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة ، كان مركز أبى عبد الله

---

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) .

(٢) البكرى : المغرب ص ٦٣ — ٦٤ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣ .

(٣) Gautier, Les Siècles Obscurs du Maghreb, p. 318.

(٤) إنى مدين ببعض ما جاء بهذه العبارة إلى المسيو لوى ماسينيو الأستاذ بكلية فرنسا (M. Louis Massignon, Professeur au Collège du France) . وقد دارت بيننا محادثات على موضوع هذا الكتاب فى منزله بباريس سنة ١٩٢٥ .

ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ٣٢) ، فى كلامه على دخول أبى عبد الله الشيعى أرض كتامة ونزوله فج الأخيار ، أن أبا عبد الله خطب أهل كتامة ، معدداً مآثرهم مشيداً بفضل بلادهم فى العبارة التى ذكرناها قبل .

محوطا بكثير من المصاعب . فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغاربة وفقهائهم . على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء ، كما تمكن من القضاء على المؤامرات التى حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته . فتكاثر الداخلون فى طاعته رغبة أو رهبة ، وتوافرت جموعه ، وقوى أمره[١] ، « واستقام له أمر البربر وعامة كتامة »[٢] .

ولم يدخر إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) وسعاً فى القضاء على دعوة أبى عبد الله الشيعى ، فحاول أن يجذبه إليه أول الأمر ، وأرسل إليه رسالة يمده ويتوعده فيها . فلم يجبه أبو عبد الله إلى ما طلب ، وردّ عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة[٣] . ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الإسماعيلية . وكانت أولى هذه الحملات فى سنة ٢٨٧ هـ ، أى قبل وفاة إبراهيم الأغلبى بسنتين ، وكان النصر فيها حليف أبى عبد الله . ولكن إبراهيم الأغلبى عول على مواصلة القتال ، فأرسل جيشاً آخر ، لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة .[٤]

وفى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) بدأت أعمال أبى عبد الله الشيعى الحربية ، فوقعت فى يده مدن عدة . وساعد على تقدمه فى الفتوح موت إبراهيم بن الأغلب (سنة ٢٩١ هـ) ، ولحاق ابنه أبى العباس به ، وتولية ولده زيادة الله الذى قضى أيامه فى اللهو والترف ، على حين كان وزراؤه لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعى الذى اعتنقه معظمهم . ولا غرو فقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبد الله على قمع الأغالبة ، ومد نفوذه على أكثر أجزاء هذه البلاد ، والمجاهرة بأن ظهور المهدى قد آن أوانه .

رحيل عبيد الله المهدى إلى المغرب :

غدا الشيعيون فى ذلك الوقت (سنة ٢٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٠٨ .

(٢) المنصورى : زبدة الفكرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ج ٥ ورقة ١٥٥ .

(٣) وردت هاتان الرسالتان فى كتاب نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٦ .

(٤) انظر البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ — ٢٧ .

الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[١] ؛ واتبع أبو عبد الله الشيعي سياسة تنطوى على الحكمة وبُعد النظر وإقرار العدل بين الناس ، كما يتبين من هذه الحكاية التى رواها ابن عذارى[٢] ، وهى أن أبا عبد الله لما استولى على مدينة طبنة فى سنة ٢٩٣ هـ أتاه والى هذه المدينة مع بعض عمال الجباية وأعطوه الأموال التى جمعوها من الأهلين ، فقال أبو عبد الله لأحدهم : من أين جمعت هذا المال ؟ فقال له من المشور ، فقال أبو عبد الله : إنما المشور حبوب وهذا عين ، ثم قال لقوم من ثقات طبنة : اذهبوا بهذا المال ، فليرد على كل رجل ما أخذ منه ، واعلموا أنهم أمناء على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة المشور معروفة فى أخذه وتفرقته على ما ينصه كتاب الله عز وجل . ثم قال لآخر : من أين هذا المال الذى بيدك ؟ قال : جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم ، فقال : وكيف أخذته عيناً ؟ وإنما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملى ثمانية وأربعين درهما ، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهما ، ومن الفقير اثنى عشر درهما ؟ فقال له : أخذت العين عن الدراهم بالصرف الذى كان يأخذه عمر رحمه الله ، فقال أبو عبد الله : هذا مال طيب ، ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه وقال لمن أتاه بمال الخراج : هذا مال لا خير فيه ولا قِبَل له ولا خراج على المسلمين فى أموالهم . ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله ، وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنهما قبضت الأنعام على الأسنان الواجبة فى الصدقات ، ثم بيعت وجمعت أثمانها ، فرضى بذلك وجوّزه . فلما نظر أهل طبنة إلى فعله سروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة . وانتشر فعله فى نواحى إفريقية ، فتاقت أنفسهم إليه وكاتبوه ودخلوا فى طاعته .

ومما يدل على حسن سياسة أبى عبد الله الشيعى ، هذا الحديث الذى دار بينه وبين أخيه أبى العباس حين أراد أن ينشر المذهب الإسماعيلى بين الناس عن طريق العنف والإكراه ، فنعه أبو عبد الله . يقول النويرى[٣] : ولما وصل أبو العباس ، أراد أن ينفى

---

(١) أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقاده ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة — انظر البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ص ٢٢—٢٧).

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢١ .

عن القيروان من يخالف مذهبه . فقال أبو عبد الله : إن دولتنا دولة حجة و بيان ، وليست دولة قهر واستطالة ؛ فاترك الناس على مذاهبهم .

أنفذ أبو عبد الله الشيعى الرسل إلى المهدى فى سلمية يدعوه للحضور إلى إفريقية[1] . فرحب عبيد الله بهذه الدعوة ، وقد سمع بدعوته الخاص والعام ، فأصدر الخليفة العباسى المقتفى الأوامر بالقبض عليه . على أن عبيد الله لم يكد يصل إلى مدينة سجلماسة[2] حاضرة بنى مدرار حتى قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار وحبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله[3] .

ومن الصعب أن نفهم كيف أتيح لعبيد الله المهدى أن يتجنب القبض عليه قبل وصوله إلى سجلماسة ، إذا علمنا أن الأوامر قد صدرت للولاة فى مصر وشمال إفريقية بالقبض عليه ، إذ هدد سلطة الخليفة العباسى ، وهو المالك للبلاد التى سلكها عبيد الله . وقد ذكر عريب بن سعد أن محمد بن سليمان[4] قبض عليه ثم

---

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٢) مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهرين يسلكانها شرقاً وغرباً . وتقع فى سهل أرضه سبخة حوله أرباض كثيرة . وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخاً . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ . وفى سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنومدرار حاضرة لملكهم — انظر البكرى (ص ١٤٨ — ١٤٩) .

(٣) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٤) خالف عريب بن سعد غيره من المؤرخين من أمثال أوتيخا (ص ٧٦) والكندى (ص ٢٥٨) وابن الأثير ج ٨ ص ١٣ وأبى الفدا ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ والمقريزى (خطط ج ١ ص ٣٢٧) فقال إن محمد بن سليمان — لا عيسى النوشرى — هو الذى قبض على عبيد الله . وقد ذكر الطبرى (٣ : ٢٢٥١ ، ٢٢٥٢) أن الخليفة العباسى المكتفى ندب محمد بن سليمان لطرد هارون آخر ولاة الطولونيين من مصر وفى صفر سنة ٢٩٢ هـ هُزم هارون وقُتل . وفى السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ، رحل محمد بن سليمان عن مصر بعد أن أقام فيها نحواً من أربعة أشهر .

وقد تكلم الكندى (كتاب الولاة ص ٢٢٨) عن مدة ولاية محمد بن سليمان فقال : إنها بدأت فى ٧ جمادى الأولى من السنة التى أتى مصر فيها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ذكر أوتيخا (ص ٧٦) أن مدة ولاية محمد بن سليمان دامت نحواً من ستة أشهر ، خلفه بعدها عيسى النوشرى . على أننا نشك فى صحة هذا القول ، لأن هذا المؤرخ لم يعين الوقت الذى بدأت فيه ولاية محمد بن سليمان فعلا .

وتكلم ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ عن هذه الحادثة بإسهاب ، ونقل عنه ، على ما يظهر ، بعض من أتى بعده من المؤرخين كابن خلدون والمقريزى . قال ابن الأثير إن عبيد الله لما وصل إلى مصر ، أشار عليه بعض رجال الحاشية فى بلاط النوشرى ، ممن اعتنق مذهب الشيعة ، أن يحذر من أن يقبض عليه رجال السلطة فى مصر . وبالرغم من هذا التحذير فقد قبض عليه النوشرى وهو فى طريقه إلى بلاد المغرب،ولكنه=

أطلقه لمال أخذه منه [(١)] .

وقد زادنا ابن الأثير بياناً فى هـذه المسألة ، فقال إن عبيد الله لما رحل عن سلمية ، حمل معه مالا عظيما استطاع أن يرشو به الولاة فى طريقه إلى سجلماسة ويأمن الوقوع فى أيديهم [(٢)] . ويظهر لنا أن ابن الأثير نقل هذه العبارة عن عريب بن سـعد (ص ٥٢) الذى يقول إن محمد بن سليمان قبض على عبيـد الله المهدى وأخذ منه مالا فأطلقه . ونحن نرجح صحة هذا القول ، إذا عرفنا كيف استطاع عبيد الله أن يأمن القبض عليه فى مصر ، وفى طرابلس أيضاً ، حيث كتب أميرها إلى زيادة الله بن الأغلب — وقد أمر بالقبض على عبيد الله — يقول : إن عبيد الله هذا قد غادر المدينة ، وأن لا سبيل إلى اللحاق به .

على أن وصول عبيد الله المهدى إلى سجلماسـة ، وهى واحة فى أطراف صحراء المغرب الأقصى ، أمر يدعو إلى العجب ، إذ كان يجب عليه أن يسير إلى إفريقية حيث ذاعت الدعوة الفاطمية وكثر أنصارها . وهـذا يحملنا على الظن بأن عبيد الله المهدى سلك طريق

= أطلقه لورعه ، أو كما قال ابن الأثير ، لما أخذه منه . ولم تكد سلطة الوالى الجديد (عيسى النوشرى) تستقر ثلاثة شهور ، حتى سلبها منه ابن الخليج أحد قواد الطولونيين ، الذى انتزع منه نفوذه زهاء ثمانية شهور (سبعة شهور وعشرون يوماً على ما ذكره المقريزى فى خططه ج ١ ص ٣٢٧) بعد أن استولى على الفسطاط ، الذى ظل فى يده إلى أن قبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣ (الطبرى ٣ : ٢٢٦٧) وبعث به وبغيره من الثوار إلى بغداد ، فغدا عيسى بحيث يستطيع استرداد سلطته ويتحول إلى الفسطاط وينزل بدار الإمارة .

أما إلقاء القبض على عبيد الله وإطلاقه ، فلا بد أن يكون حدوثهما قد تم إما فى ولاية محمد بن سليمان (محرم — رجب سنة ٢٩٢) أو فى ولاية عيسى النوشرى (جمادى الثانية — ذو القعدة سنة ٢٩٢) — وقد دامت ولايته ، على ما ذكره الكندى (٢٦٧) ، إلى أن مات سنة ٢٩٧ هـ .

وعليه ، فإن ما ذكره عريب من أن عبيد الله سار إلى بلاد المغرب فى ولاية محمد بن سليمان ، لا يترك مجالا للشك فى وقوع هذه الحادثة سنة ٢٩٢ هـ ، بعد الانتصارات التى أحرزها أبو عبد الله الشيعى فى شمال إفريقية سنة ٢٩١ هـ كما سبق .

ونحن نرى أن محمد بن سليمان — لا عيسى النوشرى — هو الذى قبض على عبيد الله المهدى . يؤيد هذا الرأى ما أورده أوتيخا (ص ٧٧) عن محمد بن سليمان مما يؤيد أيضاً ما ذهب إليه عريب بن سعد . وتتلخص عبارة أوتيخا فى أن الخليفة العباسى المكتفى قبض على محمد بن سليمان ، إذ اتهمه بمال أخذه من خراج مصر . وهذه العبارة ترجح ما ذهبنا إليه من أن محمد بن سليمان هو الذى قبض على عبيد الله ثم أطلقه لمال أخذه منه . هذا فضلا عن أن عريب بن سعد أقدم من كتب عن هذا الموضوع (بعد أوتيخا والكندى) من المؤرخين . ولا شك فى أن عبارته التى خلفها لنا مما يقام له وزن ويجزم بصحته إذا ما قيست بأقوال غيره .

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣ و ١٤)

الصحراء الذى تخترقه القوافل التى تسير بين واحات مصر وواحات المغرب الأقصى ليأمن الوقوع فى أيدى الأغالبة . فلما علم أبو عبد الله الشيعى بنبأ اعتقاله بسجلماسة ، خف إليه وأنقذه من الأسر على النحو الذى بيناه .

على أن مسألة إلقاء القبض على عبيد الله فى سجلماسة على يد أميرها إنما ترجع إلى سبب واحد ، هو أن الرشوة لا تجدى مع هذا الأمير بحكم مركزه وما لصفة الإمارة فى نفسه من هيبة وحرمة ، فضلاً عن أن أمير سجلماسة كان سنيا يكره الشيعيين ، أو لأنه ارتاب فى أمره . فقد أجمع المؤرخون على أن أبا عبد الله الشيعى أرسل فى سنة ٢٩١ هـ إلى عبيد الله بمال كثير مما حصل عليه فى حروبه من أسلاب وغنائم .

أخذ أبو عبد الله الشيعى يواصل فتوحه مذ رحلت رسله إلى عبيد الله المهدى ، وغدا للحروب التى نشبت بين زيادة الله وداعى الشيعة شأن أجل وأعظم . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) بسط أبو عبد الله نفوذه على معظم أرجاء إفريقية . وفى يوم الأحد مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ دخل داعى الشيعة مدينة رقادة (وتقع جنوبى القيروان ، وهى من أعمال تونس الآن) ، واستقر فى دار الإمارة . وبهذا تكللت أعمال الداعى بالنجاح[1] .

ثم أمر الداعى بجمع ما كان لزيادة الله من مال وسلاح وغيره . ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء فى القيروان ورقادة فخطبوا ، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة . وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية عن هذه البلاد . وأمر الداعى بالسكة فضربت من غير أن ينقش عليها اسم[2] ، بل جعل فى أحد وجهيها : « بلغت حجة الله » ،

---

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) . البكرى (ص ٢٧) .

(٢) ذكر الدكتور أوليرى (Dr. O'Leary, p. 63) ، عند كلامه عن الخطة التى سلكها أبو عبد الله الشيعى بعد دخوله مدينة رقادة ، " أن الطقوس الدينية أدخلت فى الخطبة ، فزيدت عبارة " حى على خير العمل " ، وأضيفت إليها أسماء " علىّ وفاطمة والحسن والحسين " . ويظهر أن الدكتور أوليرى أخذ هذه العبارة عن كتاب نيكلسون " تأسيس الدولة الفاطمية فى إفريقية " (Nicholson, J. : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa) . وقد أخذها فى كتابه أيضاً دى ساسى (De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, T. I. p. CCLXXII) وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد بكتاب " صلة تاريخ الطبرى " لعريب بن سعد القرطبى عن تأسيس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب مع شرح بعض الحقائق التاريخية . على أن هذه العبارة لم يرد لها ذكر فى النص العربى الذى طبعه مسيو دى غويه (De Goeje) ؛ ولا توجد إلا فى كتب من جاء بعد عريب بن سعد من المؤرخين ، كيحيى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٦) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ١١) ، اتعاظ الحنفا (ص ٣٨) .

وفى الوجه الآخر : « تفرق أعداء الله » ، ونقش على السلاح : « عدة فى سبيل الله » ، ونقش على خاتمه الذى يختم به : (فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين)[١] ، ونقش على خاتمه الذى يستخدمه فى الطبع على السجلات : (وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته)[٢] ، وإذا ركب نودى فى الجيش : ياخيل الله اركبى . ووسم الخيل على أفخاذها : « الملك لله » ، وعلى أعلامه : « سيُهزَم الجمع ويولون الدُّبُر »[٣] ، وأقام على ما كان عليه من لبس الدرن الخشن والقليل من الطعام الغليظ[٤] .

ظل عبيد الله فى حبسه بسجلماسة ، وأبو عبد الله الشيعى يواصل حروبه وفتوحه . فلما تم لداعى الشيعة ما أراد من فتح ، سار فى قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبيد الله المهدى . وفى اليوم التالى ليوم وصوله ، اتصل بمسامع الداعى نبأ هرب اليسع بن مدرار أمير هذه المدينة ليلا ، وقد حمل معه أقاربه وأمتعته ، فأطلق الداعى عبيدالله المهدى وابنه أبا القاسم .

وقد حامت حول إطلاق عبيد الله الشبهات وتباينت فيها أقوال المؤرخين . فذهب بعض إلى أن الداعى علم بقتل عبيد الله ، فجاء رجل يهودى أظهره للناس باسم المهدى . وليت شعرى أين كان أبو القاسم الذى ولى الخلافة بعد أبيه ؟ ولِمَ لَمْ يلها فى ذلك الوقت ، وقد كان فى سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ يدلك على صحة هذا القول ما كان من مسير أبى القاسم على رأس جيش من المغاربة لغزو مصر فى سنة ٣٠١ هـ وما بعدها ، أى بعد هذه الحادثة بنحو أربع سنين .

كان إطلاق عبيد الله المهدى من سجنه بسجلماسة فى ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ إيذاناً بزوال سلطان بنى رُسْتَم فى تاهَرْت[٥] والأغالبة فى تونس ، وقامت الدولة الفاطمية فى كل شمال إفريقية الذى خرج عن سلطان العباسيين .

---

(١) سورة النمل ١٧ : ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام ٦ : ١١٥ .

(٣) سورة القمر ٤٤ : ٤٥ .

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) . De Sacy, Exposé, tome I. p. CCLXXII.

(٥) تاهرت أو تيهرت اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما الداعى سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب ابن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت ، رأس الإباضية وإمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

ولما قرب عبيد الله المهدى من رقادة ، تلقاه أهلها وأهل القيروان ، وسار بين يديه أبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة ، فسلموا عليه بالخلافة و بايعوه على الطاعة . ونزل ذلك الخليفة الفاطمى الجديد بقصر من قصور رقادة . وفى يوم الجمعة ذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، وجلس فى ذلك اليوم رجل يُعرف بالشريف ومعه الدعاة ، ودعوا الناس إلى مذهب الإسماعيلية ، فدخل فيه الناس طوعاً أو كرهاً .

ولم يلبث المهدى أن قسم أعمال إفريقية على رؤساء كتامة . وسرعان ما دوّن الدواوين وجبى الأموال ، فاستقرت قدمه ودانت له البلاد .

ولا شك فى أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها فى عالم الدول المستقلة لداعى الشيعة الذى تأسست هذه الدولة بفضل جهوده وحسن سياسته . ويعزو المؤرخون قتل أبى عبدالله الشيعى إلى أن البلاد لما دانت للمهدى واستقامت له الأحوال ، كف يد أبى عبدالله الشيعى و يد أخيه أبى العباس ؛ فداخل أبا العباس الحسد واستمال أخاه إليه ، وأخذا يحرضان على المهدى ، واتفقا على قتله . فوصل خبر هذه المؤامرات إلى مسامع المهدى ، ففرق أنصارهما فى البلاد وأمر بهم فقتلوا ، ثم قتل أبا عبد الله الداعى وأخاه (الإثنين ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨) .

وقد دلت الحوادث على أن مَن أسس دولة لا يستمتع بها فى أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تتمنَّوا الدول فتُحْرَموها » ، وقال صاحب الفخرى[1] : وكأن المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك ، كلما زاد تبسطه زادت الأنَفة عندهم حتى يوقعوا به » . والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبى عبد الله الشيعى خاتمة أبى مسلم الخراسانى ، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٥٤

الباب الثانى

نسب الفاطميين

١ — آراء طائفة من المؤرخين الأوربيين :

إن لفظ الفاطميين الذى عرف به أولاد عبيد الله المهدى ، يشعر فى بادئ الرأى بأنهم من أولاد فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فهم علويون أيضاً . على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت — ولا تزال — موضوعا كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين ؛ لما كان من انحياز الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزعاتهم السياسية وميولهم الدينية ، بعيدين عن الحقيقة : اختلف العلماء فى نسب عبيد الله اختلافاً كبيراً ، فهناك جماعة يرون صحة نسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وجماعة ينكرون هذا النسب ، فيرون أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، أو من سلالة موسى الكاظم . وبهذا نرى المؤيدين نسب عبيد الله إلى علىّ وفاطمة ثلاث طوائف : طائفة تقول إنه إمام من الأئمة الاثنا عشرية أو الموسوية ، وطائفة تنسبه إلى إسماعيل بن جعفر ، وهم من الإسماعيلية ، وجماعة من السنيين يرون صحة انتسابه لإسماعيل . أما المؤيدون نسب عبيد الله لميمون القداح ، فهم قلة من الإسماعيلية أنفسهم ، والغالبية العظمى من العلماء السنيين .

بيد أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، نظراً لما خنفه لنا المؤرخون الأقدمون من أقوال كثيرة متباينة . ويحسن بنا ألا نمر عليها مر الكرام من غير أن نعير هذه الدعاوى التى أقامها الفاطميون لإثبات صحة نسبهم شيئاً مما هى جديرة به من عناية واهتمام .

حاول دى ساسى فى كتابه (De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, Paris,1835) أن يلقى قبساً من النور على هذا الموضوع . وكان المصدر الأصلى الذى اعتمد عليه هذا المؤرخ ، هو هذه الشذرات الهامة التى كتبها الشريف أخو محسن[1] ،

---

(١) هو محمد بن على بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ونقلها عنه ابن النديم[١] ، ونسبها خطأ إلى ابن رزّام ، فظن أنها له ؛ وهؤلاء جميعاً عاشوا في القرن الرابع الهجرى .

ولقد نقل النويرى فى « نهاية الأرب »[٢] والمقريزى فى « اتعاظ الحنفا »[٣] عبارة أخى محسن . على أن فيما أورده المقريزى[٤] من أنه قرأ هـذا الـكتاب بنفسه ووصفه بأنه يقع فى مجلد واحد فى أكثر من عشرين كراسة ، ما يحملنا على عدم الأخذ بصحة نسبة هذه الشذرات إلى ابن رزام .

وقد حاول آخرون ، من أمثال وستنفلد (Wüstenfeld)[٥] ودى غويه (De Goeje)[٦] أن يزيدوا هذا الموضوع بياناً . ولـكن ما صادفوه من نجاح فى هذه السبيل لم يتعد زيادة عدد المصادر التى اعتمد عليها من تقدمهم من الـكتاب ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى هذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء المؤرخين لم يهتدوا إلى رأى قاطع فى هذه المسألة ، كما أنهم انساقوا مدفوعين بميولهم الشخصية ، فلم يجمعوا على رأى واحد فى صدد هذا النسب . ويظهر أن ما قام به فايل (Weil) ووستنفلد (Wüstenfeld) فى استقصاء هذه الناحية لم يتعد نقل حقائق تاريخية لغيرهم دون أن يبينوا رأيهم الخاص .

أما دى ساسى (De Sacy) فإنه يميل إلى الأخذ بصحة نسب الفاطميين إذ يقول : « وهنا يتسنى للمرء أن يضيف إلى هـذه الأدلة التى أوردها المقريزىّ أنه إذا كان عبيد الله دعياً حقاً ، ولم يكن من سلالة علىّ ، فإن أبناء على الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم لم يفقدوا الأمل قط فى أنه سيأتى اليوم الذى يستطيعون فيه أن يؤكدوا حقوقهم ، وأن يهتموا بكشف القناع عن هؤلاء الأدعياء »[٧] .

---

(١) كتاب الفهرست (ج ١ ص ١٨٦ وما يتبعها)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٤٧ (ب) وما يتبعها .

(٣) ص ١١ — ١٤

(٤) المصدر نفسه (ص ١١)

(٥) Geschichhte der Fatimiden—Chalifen, pp. 3—12

(٦) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, Leyden, 1886

(٧) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Introduction, p. 251

وأما دى غويه (De Goeje)[1] فإنه اعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجدّ الخلفاء الفاطميين حيث قال : « كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة ، هى أن حزبا خامل الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة ، وينتهى بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة فى الغرب ... إلى أن يقول : فإنه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة ، قام عبد الله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هـذا المذهب ... الخ » . ويقول دى غويه فى موضع آخر : « إذا ما تناولنا الـكلام على الفاطميين والقرامطة ، فإنما نتكلم عن طائفة واحدة »[2] .

وقد ختم وستنفلد عبارته المسهبة عن نسب الفاطميين بهذه الـكلمات التى تبين أنه تردد فى تكوين رأى قاطع فى هذه المسألة ، بسبب ما جاء عنها من آراء كتاب العرب المتناقضة المتضاربة ، حتى ما ذاع منها بين العلويين أنفسهم . ويظهر أن وستنفلد يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بنسبة الفاطميين إلى الإمام المهدى المنتظر فيقول : « وكل ما يمكن قوله ، هو أن هذا النسب إلى الإمام المنتظر محتمل بعض الاحتمال ، على الرغم من وجود هذه الحجة العديمة القيمة ، وهى عدم اعتراف الشيعيين بهذا النسب »[3] .

٢ — رأى الطاعنين فى صحة النسب :

ينتسب عبيد الله المهدى — على ما ذهب إليه أخو محسن وغيره ممن نقل عنه أو لم يميلوا إلى القول بصحة نسب الفاطميين — إلى ميمون بن دَيْصَان الثنوى المذهب الذى ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة .

وقد خلف القداحَ ابنه عبد الله ؛ ووصفه المقريزى فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب . وقد اعتنق عبد الله هذا — على ما ذهب إليه أخو محسن — مذهب الشيعة ، لا للدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابنه محمد ، بل لحيلة اتخذها ليجمع حوله أتباعا ؛ بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهى تكوين دولة فارسية[4] .

---

(١) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn, etc. p. 1

(٢) Ibid, pp. 2, 3

(٣) Wüstenfeld : Geschichte der Fatimiden—Chalifen, pp. 14. 15

(٤) المقريزى : خطط (ج ١ ص ٣٤٨)

وذهب نيكلسون إلى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية ، كان أقصى ما وصلت إليه هذه المؤامرة القوية الدعائم ، التى تم تنظيمها بمهارة فائقة ، والتى شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى الفارسى الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن ، وقد تملكت نفسه الكراهة فى أبشع صورها للعرب ، والاحتقار للإسلام والمسلمين ، مدفوعا إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة . وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعاً مبادئها كلا على قدر عقله واستعداده ، وتعبث بأشد الميول وأقواها ، وتغرّر بكافة عوامل الضعف الكامنة فى الطبيعة البشرية ، لجمع بين كل الساخطين فى صورة مؤامرة ترمى إلى قلب النظام الحاضر »[1] .

وهذا كله مما حدا بعبد الله بن ميمون — على ما ذهب إليه دوزى Dozy — « إلى العمل على استخلاص الحكم ، إن لم يكن لنفسه ، فلأولاده من بعده ، وهذه فكرة — إن صحت — تعد عظيمة ، لأنها تنطوى على الجرأة والإقدام . وقد ساعد على تحقيقها ما وهبه هذا الرجل من مهارة وحيلة ودراية تامة بما فى قلوب الناس[2] » .

٣ — تأييد الفرس للعلويين :

أما عن تعلق الفرس بأهداب عقائد المذهب الشيعى أو حزب علىّ ، فقد أوضح الأستاذ براون السبب الذى استمالهم إلى ذلك ، معتمداً على ما ذكره دى جو بينو فى هذا الصدد حيث يقول : « إننى أعتقد أن دى جو بينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الإلهى وحصرها فى البيت الساسانى كان لها تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التى أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تسترت بستار الدين ، فلن يفوتَ الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 271—272

(٢) Dozy : Histore des Musulmans d'Espage, vol. I. p. 8 seq.

الحسين ، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبي وعلىّ ابن عمه ، قد قالوا إنه تزوج من شهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنا عشرية الشائعة الآن فى بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معاً[1] .

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التى يشير إليها دى جو بينو فى العبارة الآتية حيث يقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهر بانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقا[2] .

كيف سار عبد الله بن ميمون فى تحقيق أغراضه :

أظهر عبد الله بن ميمون القداح ، الذى يرى بعض المؤرخين نسبة الفاطميين إليه ، الزهد والتقشف ، والعلم والتشيع ، فحاز ثقة الناس ونجح فى تأسيس جمعية سرية . ثم أخذ يعلم الناس أسرار الدعوة التى قسمها إلى سبع درجات (وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعاً فى أيام الفاطميين) ، فكثر أنصاره .

وكان عبد الله ودعاته يعلمون الناس — كما قدمنا — كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه . فكان الداعى يبدأ بإظهار بعض مشكلات القرآن ، حتى إذا ما طلب الناس منه حل هذه الرموز ، أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يجعلوا هذه الدعوة سراً مكتوماً ، ثم طلب منهم أن يدفعوا ضريبة مقررة تساعده على نشر مذهبه .

وإذا تم للداعى ما أراد ، دخل بالطالب فى المرحلة الثانية ؛ ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدى إلى مرضاة الله ، إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . فإذا وصل الطالب إلى المرحلة الرابعة ، اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم

---

(١) Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 130

(٢) Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale. p.275

النبيين ، ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للإسلام بصلة ، حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هارون من موسى ، أو بمنزلة عليّ من محمد .

اتصل بالوالى خبر عبد الله بن ميمون ، فقصده بالسوء ؛ ففر من فارس إلى البصرة قبل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) ، وأقام فى أسرة عَقيل بن أبى طالب ، فحامت حوله الشبهات ، فرحل إلى الشام وأقام فى سلمية حيث وُلد له ابن سماه أحمد ، فخلفه بعد وفاته .

ولما مات أحمد هذا ، خلفه فى الدعوة ابنه الحسين ؛ ولكنه مات بعد قليل ، فقام من بعده أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع ، وهو الذى بعث إلى المغرب بأبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس كما تقدم .

وكان لأحمد بن الحسين ولد اسمه سعيد ، أصبح فى حِجْر عمه بعد وفاة أبيه . وقد اشتهر أمر سعيد هذا بعد وفاة عمه وكثر ماله وأنصاره ، حتى اضطر الخليفة العباسى المعتضد إلى التشديد فى طلبه ، ففر من سلمية يريد بلاد المغرب عن طريق مصر ، فحبسه أمير سجلماسة — على ما ذكرنا — وظل فى حبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله الشيعى وذهب به إلى رقادة ، حيث تسمى بالمهدى وتلقب أمير المؤمنين ، وانتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

هذا ما ذهب إليه من ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدى إلى عليّ وفاطمة ، إذ يقولون إن عبيد الله المهدى هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوى الأهوازى ، وأصله من المجوس .

وليس هذا كل ما يقوله الذين أنكروا صحة نسب الفاطميين . فقد ذكر أخو محسن أن سعيداً — أو عبيد الله — كان ابن حداد يهودى مجهول ، تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون ، فتبنى سعيداً ، وأدبه وعلمه أسرار مذهب الإسماعيلية ، وأوصى الدعاة بطاعته ، وزوجه ابنة عمه أبى الشلعلع[1] . .

وقد ذاع قول أخى محسن وأخذ به المؤرخون الذين لا يميلون إلى القول بصحة نسب

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ٢١ و ٢٢)

الفاطميين ، مثل أبي بكر الباقلاني[١] المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، وابن واصل[٢] المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه « تاريخ الإسلام » .

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من أهل مصر طعنوا في نسب المعز واتصاله بعليّ ابن أبي طالب ، حتى إن هذا الخليفة لما وصل إلى مصر ، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم ، وهو ابن طَبَاطَبا : « إلى من ينتسب مولانا ؟ » فأجابه المعزّ بأنه سيعقد مجمعاً يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه . حتى إذا ما انعقد المجلس في القصر ، سلّ المعزّ سيفه إلى النصف وقال : « هذا نسبي » ، ثم غمرهم بالذهب الكثير وقال : « وهذا حسبي » . ومن هنا نشأ القول المأثور « سيف المعزّ وذهبه » للإشارة إلى بطلان الشيء أو أنه مأخوذ كَرْهاً .

وقد أنكر دى سلان De Slane[٣] بالدليل صحة هذه الرواية ؛ لأن المعز لما وصل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) ، أي قبل أربع عشرة سنة ، على ماذكره ابن خلكان في موضع آخر[٤] .

ولقد نقل ابن خلكان أيضاً حكاية أخرى تبين مبلغ إنكار المصريين صحة نسب الفاطميين . ذلك أن العزيز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته ، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

---

(١) كتب القاضي أبو بكر الباقلاني كتاباً سماه " أسرار الباطنية " ، وهو الكتاب الذي أشار إليه المقريزي (المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ١٦٦ ب) وفي هذا الكتاب من الباقلاني على الفاطميين وأنكر صحة نسبهم . وتوفي ، على ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٩) ، في بغداد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .

انظر أيضاً أبا الفدا (ج ٢ ص ١٥١) ، ووستنفلد (Wüstenfeld : Geschichte der Fatimiden—Chalifen, p 1)

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٠٢ ، ورقة ٢٣٠ ب — وقد روى أبو المحاسن (المجلد الثاني ج ١ رقم ١ ص ٩٠) بعض ما جاء بكتاب ابن واصل عن هذا الموضوع . وقد نشر هذا الكتاب الدكتور جمال الدين الشيال (مطبعة جامعة القاهرة) سنة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ .

(٣) Ibn Khallikân's Biographical Dictionary, English Translation, vol. II. p. 49, n.7

(٤) ج ١ ص ٣٢٦ .

إنا سمعنا نسباً منكراً ... يُتلى على المنبر فى الجامع
إن كنتَ فيما تدعى صادقاً ... فاذكرْ أباً بعد الأب الرابع
وإن تُرِدْ تحقيقَ ما قلته ... فانْسُبْ لنا نفسك كالطائع[1]
أو فدَعِ الأنسابَ مستورةً ... وادخلْ بنا فى النسب الواسع
فإنّ أنسابَ بنى هاشم ... يقصُر عنها طمع الطامع[2]

وقد روى لنا الثعالبى حكاية أخرى تؤيد هؤلاء المؤرخين ، إذ يقول إن عبد الرحمن الثالث الأموى الأندلسى تلقى من العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه ، ليس لسبب نعرفه ؛ فكتب إليه عبد الرحمن : « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »[3] .

ونستطيع أن نخلص مما ذكره السنيون الذين ينكرون صحة هذا النسب ، إلى أمور أهمها :

أولا — أن هؤلاء المؤرخين يكادون يجمعون على أن عبيد الله من سلالة ميمون القداح ، ويذكرون فى الوقت نفسه أن ميموناً القداح وأبناءه كانوا من دعاة الأئمة الإسماعيلية المستورين ، ثم اغتصبوا الأمر لأنفسهم .

ثانياً — يرى هؤلاء أيضاً أن عبيد الله وآباءه كانوا من الزنادقة المجوس الذين حاولوا تقويض دعائم الإسلام ، عن طريق التأويل تارة ، والقول بالباطن أخرى ، أو عن طريق محاولة إحياء عقائد المجوسية ، أو ما إلى ذلك .

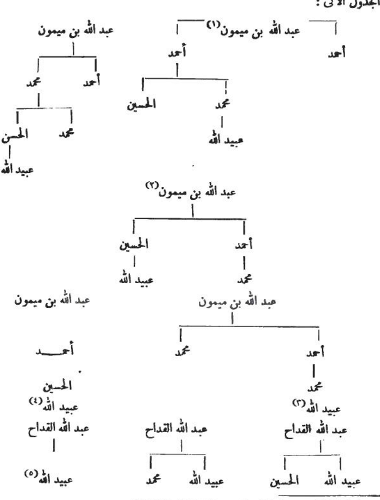
ثالثاً — أنهم يرجعون عبيد الله إلى أصل يهودى ، ويذهب بعض إلى أنه قتل فى سجلماسة . وسنرى أن المعارضين فى صحة هذا النسب على شىء من الصواب ، فيما يتعلق بالأمرين الأول والثانى ، وأنهم لم يصيبوا فيما ذهبوا إليه مما يتعلق بالأمر الثالث .

رابعاً — اختلف كثير من هؤلاء المؤرخين فى ذكر أسماء آباء عبيد الله ، وفى عدد الأجيال التى تفصل بينه وبين جده عبد الله بن ميمون القداح ، المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ؛ فيقول بعض إنها ثلاثة أجيال ، ويقول بعض آخر إنها جيلان . ومنهم

---

(١) هو الخليفة العباسى ٣٦٣ — ٣٨١ ﻫ (٩٧٣ — ٩٩١ م) .
(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .
(٣) الثعالبى : يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٢٤) .

من يقول إنها جيل واحد فقط ؛ بل إن هناك من يعتقد أن عبيد الله هو ابن عبد الله القداح نفسه . وهناك أهم آراء السنيين الذين ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدى ، على ما نراه فى الجدول الآتى :



(١) Mamour : Palemics. on the Origins, pp. 137-9

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٥

(٣) Mamour : Polemics, pp. 137-9.

(٤) أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٩ .

٥ — أقوال المثبتين لصحة النسب :

خالف كثير من الكتاب والشعراء وغيرهم من ذوى الرأى والجاه من أولاد علىّ بن أبى طالب ، ما ذهب إليه من ذكرنا من المؤرخين الذين ينكرون نسب الفاطميين إلى علىّ وفاطمة إذ اعترفوا بصحة هذا النسب . فيكون نسب عبيد الله المهدى ، على ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون وغيرهم كما يلى : عبيد الله (أو سعيد) المهدى بن أحمد بن إسماعيل بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق[١] .

والآن نأتى بأمثلة من أقوال الشعراء والكتاب المعاصرين للفاطميين الذين تصدّوا للكلام على هذا الموضوع ، فنذكر الشريف الرضىّ العلوى[٢] ، وناصر خسرو[٣] الإسماعيلى المذهب المتوفى سنة ٤٨١ هـ ، بل عمارة اليمنى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وكان من غلاة السنيين كما سيأتى عند كلامنا على ما قام به هذا الشاعر فى سبيل تأييد سلطان الفاطميين .

أجل ! لقد طعن كثير من المؤرخين والكتّاب فى نسب مؤسس هذه الأسرة ، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وإبهاما ، لتشعب آراء الكتاب المعاصرين من العرب على اختلافهم ، لأنهم كتبوا متأثرين بسطوة الخلفاء من العباسيين أو من الفاطميين ، ذلك الأمر الذى أدّى بهم إلى إيراد هذه الآراء التاريخية المتناقضة .

وقد أشار كترمير (Quatremère)[٤] فى كلامه عن أصل الفاطميين بهذه العبارة :

---

(١) هناك أقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر ؛ ولا حاجة بنا إلى استقصائها هنا .

(٢) أبو الحسن محمد بن علىّ بن أحمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى ابن جعفر الصادق .

(٣) كان ناصر خسرو إسماعيلى المذهب ؛ زار مصر فى القرن الخامس من الهجرة (الحادى عشر الميلادى) . وقد تكلم عن نفسه فقال إنه وصل إلى القاهرة فى ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) وأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ (إبريل سنة ١٠٥٠ م) . واعتبر القاهرة — كغيره من الإسماعيلية الغلاة — مركزاً لهذا المذهب ، واعتقد أن الخليفة الفاطمى هو الإمام حقاً . وذكر هذه الحقائق فى كتابه « سفرنامه » .

(٤) Journal Asiatique, Oоût, 1836, pp. 101—2.

« على أن بُعد الزمن ، وما ساد العقول من أوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من نزعات وميول ، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة : فريق ألّف وكتب متأثراً بسلطان الخلفاء العباسيين ، وفريق آخر قام بهذا العمل مجاراة لأعداء هذه الأسرة — كل ذلك قد أحاط — لسوء الحظ — هذه المسألة بظلام دامس ، لا يستطيع مِشعل النقد كشفه إلا بشكل ناقص مبتور » .

وعلى الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين فى هذه المسألة ، فإننى أميل إلى القول — ولو بشىء من التردّد — إلى أن نسب الخلفاء الفاطميين إلى فاطمة صحيح ، وأنه بسبب هذا الغلو الذى ساد المعتقدات الفاطمية ، همّ مناظروهم بدحضون ما ادّعوه من النسبة إلى فاطمة ، عسى أن يحط ذلك من شأنهم فى أعين رعاياهم .

ولا غرو فإن التحيز ليظهر ظهوراً بيناً من ثنايا أقوال الكتاب السنيين ، مما يجعل دحضه أمراً ميسوراً . ولا بأس من أن نأتى فى هذا الصدد بمثل أو مثلين من هذه الأقوال : من ذلك ما ذهب إليه السنيون من أن أبا عبد الله الداعى لما علم بقتل المهدى فى سجنه بسجلماسة ، أجلس على العرش رجلا يهوديا لا حيثية له ، وادّعى أنه الإمام المنتظر . وهنا يسأل المرء : ما هو الدافع الذى حمل أبا عبد الله الشيعى على عدم إجلاس أبى القاسم بن المهدى بعد وفاة أبيه ؟ كما نسأل أيضاً : ألم يجد أبو عبد الله الشيعى من يجلسه من المسلمين مكان عبيد الله حين علم بموته ، وخصوصاً بالنسبة لابنه ؟ وقد كان هناك من العلويين من يصلح لهذا المركز بدلا من ذلك اليهودى الذى لا قيمة له ، والذى لا ندرى كيف عثر عليه بهذه السهولة .

نعم ! لا شك فى أن هذا العمل كان من السهولة بمكان ، فضلا عن أنه لم يكن ينطوى تحته إجراء تغيير أو تبديل فى البيعة ، لأن حق المهدى يتحول بمقتضى قانون الشيعة إلى ابنه بصورة طبيعية .

وهناك مثل آخر ، وهو ما أشرنا إليه من إحراج ابن طباطبا للمعز بسؤاله عن نسبه ، وما كان من سل المعز سيفه قائلا : « هذا نسبى » ، ونثره الذهب الكثير قائلا : « وهذا حسبى » .

هذا مَثل من أقوالهم ، ونحن نشك فيه كل الشك ، إذا علمنا أنه لما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ ، أى قبل أربع عشرة سنة من مجيئه .

ولدينا من الحقائق التاريخيـة ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين إلى النبى . فقد ساعد اعتقاد الناس فى صحة هذا النسب على نشر سـلطة الفاطميين الروحية والزمنية — أو كليهما — فى كثير من البلاد الإسـلامية إلى حد أن نجح الفاطميون فى الحصول على اعتراف الناس بهذه السـلطة فى أكثر بلاد الدولة العباسية ، دون أن يجدوا معارضة من الرأى العام فى ذلك الوقت .

وبدهى أن الوصول إلى اعتراف الناس بأن المهـدى وخلفاءه هم الأئمة حقا وأنهم يتصلون بالنسب إلى فاطمة ، راجع إلى ذلك النشاط الذى أبداه دعاة الفاطميين . ذلك أنه بعد تأسيس الدولة الفاطمية فى القيروان بقليل ، ذهب شعراء الأغالبة المتشيعون من أمثال ابن سعدون الورّجيلى [1] إلى القول بصحة هذا النسب ، كما يتبين ذلك من هذه الأبيات التى أنشدها هذا الشاعر فى حضرة المهدى عبيد الله وأبى عبد الله الشيعى داعى دعاته :

هذا أميرُ المؤمنين تضعضعتْ لقـدومه أركانُ كل أمير

هذا الإمامُ الفاطمى ومَنْ به أَمِنَتْ مغاربُها من المحذور

يا مَنْ تخيَّرَ من خيار دعاته أرجاءَهُ للعسر والميســور

ولم يفتر الخلفاء الفاطميون عن إجزال العطاء للشعراء الذين أشادوا بذكرهم وأطنبوا فى أحقيتهم بالإمامة . فليس من عجب إذا « أمر المهدى للشاعر بصلة جزيلة كانت تجرى عليه لـكل عام ، ووصله أبو عبد الله أيضا » . وقد ذكر مسكويه والمقريزى أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث إلى المهـدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعونى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مؤنة ؛ فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسـيفى ومنطقى بين يديه وامتثلت أمره ... الخ [2] » .

---

(١) يحتمل أن يكون هذا اللفظ مشتقاً من ورجّـلان ، وهى كورة بين إفريقية وبلاد الجريد التى يسكنها قوم من البربر ومجّانه — البكرى (ص ٧٧ و ١٨٢) وياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ ورجْلان .

(٢) المقريزى : كتاب المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ أ و ب .

أضف إلى ما تقدم ما كان من أمر يوسف بن أبى الساج أمير الرى — إذا أخذنا بقول كاتبه محمد بن خلف النيرمانى — فقد فكر فى خلع طاعة الخليفة العباسى المقتدى والدخول فى طاعة الإمام العلوى بالقيروان الذى كان أبو طاهر القرمطى — على ما ذهب إليه ابن أبى الساج — من أصحابه وأنصاره . وقد أورد مسكويه هذه الحكاية بشىء من التفصيل ، ونحا المقريزى فيها منحى الإيجاز .

وقد أخبر ابن أبى الساج — على ما ذكره مسكويه[1] — محمد بن خلف ، أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسَقى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ، شق عصا طاعة الخليفة العباسى وأظهر الدعوة للمهدى ، ثم دعا الناس إلى الدخول فيما دخل فيه ، وسار إلى بغداد فكتب محمد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب ، فأوصله إلى مسامع الخليفة العباسى .

غير أنه يظهر أن الخليفة لم يقم بأى عمل إزاء هذا الحادث ؛ بل لقد علمنا بالقبض على ابن خلف ومصادرة أمواله ؛ وعلمنا أيضاً أن ابن أبى الساج كان يقود الجيوش العباسية ويحارب أبا طاهر بظاهر الكوفة (شوال سنة ٣١٥ هـ) ، وأن الهزيمة حلت بابن أبى الساج فأسر ثم انتحر[2] .

وعلى الرغم من أن عبارة مسكويه لا تدل على أن ابن أبى الساج لم يقم فى هذه الحرب بعمل ينطوى على العصيان للخليفة العباسى ، لا يحول هذا الأمر دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل إلى الدخول فى دعوة المهدى ، ولكن الفرصة لم تحن بعد لأن يقوم بتحقيق مثل هذا العمل .

أضف إلى ما تقدم أن مرداويج بن زيار الديلمى ، أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، الذى طرد الأصفر واستولى على بلاده ثم فتح الرى وأصبهان — وكانا من قبل تحت ولاية ابن أبى الساج — قد بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدى فى إفريقية ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته .

ولقد أورد المقريزى عبارة موجزة نتبين منها اتجاه ميول هؤلاء الأمراء إلى ما ادّعاه

---

(١) ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٣ وما يتبعها .

الفاطميون من حق فى الخلافة ، مما لا يترك مجالا للشك فى أن نسب عبيد الله إلى فاطمة كان أمراً معترفاً به فى ذلك الوقت . وقد ختم المقريزى عبارته بقوله إن المهدى ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الأمراء ، فنصح إليهم أن يلزموا مراكزهم ، كما يظهر ذلك من الكلمات التى كتبها المهدى بيده ، نذكرها فى عبارة المقريزى وهى :

« وبعث إليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول : أنا فى خمسين ألفاً يطيعوننى ... وكتب إليه مرداويج الجبلى بمثل ذلك . وكتب إليه يوسف بن أبى الساج ... وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه ، فوقع على ظهر كتبهم : « الزموا مراكزكم (لكل أجل كتاب) »[1] .

أجل ! لقد بلغ نفوذ دعاة الفاطميين فى بلاد الدولة العباسية مبلغاً عظيما ؛ كما كان للعلاقات الودية التى سادت بين الفاطميين والقرامطة فى هَجَر فى أيامها الأولى أكبر الأثر فى جذب كثيرين إلى اعتناق مذهب الإسماعيلية فى بلاد الدولة العباسية . يدلك على صحة ذلك هذا الحديث الذى دار بين علىّ بن عيسى وزير القائم العباسى ، ورجل من شيراز نمى إلى الوزير أنه كان يتجسس لقرامطة البحرين ويكاتبهم . وقد دار الحديث فى حضرة الوزير والقاضى والقواد ؛ وناظر هذا الشيرازى الوزير فى هذه الكلمات التى ننقلها بنصها عن مسكويه :

« أنا صاحب أبى طاهر (القرمطى) ؛ وما صحبته إلا لأنه (فى الأصل على أنه) على حق ، وأنت وأصحابك ومن (فى الأصل وما) يتبعكم كفار مبطلون ؛ ولا بد لله فى أرضه من حجة وإمام عدل ، وإمامنا المهدى فلان بن إسماعيل بن جعفر الصادق ؛ ولسنا (فى الأصل وليس نحن) مثل الرافضة الحمقى الذين يدعون إلى غائب منتظر »[2]. أما الطريقة التى لاقى بها هذا الرجل حتفه فإننا نتركها لخيال القارئ .

ويعلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على قصيدة الشريف الرضى ؛ إذ أثارت حنق الخليفة القادر ، وأدت إلى عقد اجتماع الفقهاء وأقطاب العلويين ، وكتب فيه محضر (فى

---

(١) سورة الرعد ١٣ : ٣٨ . المقريزى : المقفى الكبير – المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ب .

(٢) مسكويه (ج ١ ص ١٨١) .

ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م)[١] طعن فيه المجتمعون فى نسب الفاطميين ، وكانوا فى هذا الأمر مدفوعين بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم لهذا المذهب . وقد تلا هذا المحضر محضر آخر يماثله كتب فى سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م)[٢].

وهذه القصيدة و إن لم تظهر فى ديوان الرضى بادئ الأمر ، فإن تناقل الكتّاب لها على اختلافهم يدل على ثبوت نسبتها إلى الرضى .

وقد نقل المقريزى[٣] عن هلال الصابئ وابنه محمد ، أن الرَّضِيَّ لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفاً من الخليفة العباسى و إرضاء لأبيه . أضف إلى ما تقدم امتناع الرضى عن إنكار نسبة هذه القصيدة إليه ، ومماطلته فى التوقيع على المحضر حين طلب منه التوقيع . كل هذه حقائق تاريخيـة لها قيمة عظيمة من حيث إثبات صحة نسبة هـذه القصيدة إلى الرضى .

هذا إلى أن صرف الرضى عن النظر فى المظالم ونقابة العلويين و إمارة الحج[٤] ، وما كان أيضاً من إجماع كثيرين من المؤرخين على نسبة هذه القصـيدة إليه — كل ذلك يدحض قول البعض من أن هذه القصـيدة التى نسبت إلى الرضى لم تكن من نظمه . ولا بأس من إيراد بعض أبيات من هذه القصيدة :

ما مُقامى على الهوانِ وعندى مِقْوَلٌ صـارِمٌ وأنفٌ حمِىُّ[٥]

أَحمل الضيْمَ فى بلاد الأعادى وبمصرَ الخليفـةُ العـلوى

مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا ى إذا ضامنى البعيـد القَصِى[٦]

لفَّ عرقى بعرقه سـيدا النا س جميعاً محمـدٌ وعلىُّ[٧]

---

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ١٥٠ . أبو المحاسن — المجلد الثانى ج ٢ رقم ١ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أبو المحاسن : المجلد الثانى ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ١٦ .

(٤) المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ١٥ و ١٦) نقلا عن هلال الصابئ .

(٥) كناية عن قدرته البلاغية وعزة نفسه ودليلا على تذمره من العيش فى بلاد العباسيين .

(٦) يصرح باعترافه بصحة نسب الفاطميين ويرى أنهم أحبابه لأنه منهم ، وأن العباسيين أعداؤه لأنه غريب عنهم .

(٧) ديوان الشريف الرضى (ص ٩٧٢ و ٩٧٣) . نقل هذه القصيدة من المؤرخين ابن الأثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) ، والمقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٦) وغيرهما .

ولا يزال هناك فريق آخر من المؤرخين لا يتردد فى القول بأن دعوى الفاطميين النسب إلى علىّ قائمة على أساس متين . نذكر من بين هؤلاء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٤ م) ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، والقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أما ابن الأثير فإنه يحمل لقصيدة الرضى أهمية كبيرة . هذا إلى ما كان من امتناعه عن إنكار نظمها ، ومن توقيعه على المحضر الذى طعن فى نسب الفاطميين ، وصرفه عن الوظائف التى تقلدها من قِبَل الخليفة العباسى . وزاد ابن الأثير هذه المسألة بياناً فقال إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد على[1] .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض فى « مقدمته » هذه الأقوال التى أنكر فيها المؤرخون والكتّاب صحة هذا النسب حيث يقول : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات فى العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق ، يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ، تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفنناً فى الشماتة بعدوّهم ... ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التى اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فإنهم متفقون فى حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد ، واشتهر خبره وعُلم تحويمه على عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر ، وأنهما خرجا من الإسكندرية فى زى التجار ... الخ »[2] .

أما القريزى ، وهو ممن يدعون النسب إلى الفاطميين ، فقد شدد النكير على ما كتبه الكتّاب الذين لا يميلون إلى القول بصحة هذا النسب ، بنفس هذه الروح التى سادت

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨ و ٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ .

أقوال ابن خلدون ، حتى إننا إذا وازنّا بين عبارتى هذين الرجلين ، تبين لنا أن المقريزى[1] نقل جزءاً غير قليل مما كتبه ابن خلدون .

أما وقد أوردنا شيئاً غير قليل عما قيل فى نسب الفاطميين ، يجدر بنا ألا نغض الطرف عن عبارات ثلاث أمدنا بها المقريزى فى مخطوطه « المقفى الكبير » نقلاً عن اثنين من الكتّاب المعاصرين للفاطميين : هما أبو حنيفة النعمان المغربى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وقاضى قضاة الخليفة المعز والثقة فى قوانين الإسماعيلية ، والمُسَبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو أيضاً حجة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، ذلك التاريخ الذى لعبت به يد الدهر ، ولم يصل إلى أيدينا منه شىء ، اللهم إلا هذه الشذرات التى نقلها عنه ابن منجب وابن ميسر وابن خلكان والمقريزى وأبو المحاسن وغيرهم .

وتنحصر أهمية هذه الوثائق التاريخية فى إثبات شخصية عبيد الله ، وأنه المهدى من آل علىّ ، الأمر الذى أيده الدعاة الذين كان يلقاهم عبيد الله أنّى سار ؛ كما نقف منها على أن عبيد الله هذا بث معتقدات مذهبه فى طى الخفاء ، ليأمن على نفسه القبض والحبس .

وقد أورد لنا أبو حنيفة النعمان المغربى حكاية نقلها عن أبى القاسم الحسن بن أبى الفرج ابن حوشب ، الذى صار فيما بعد داعياً للدعاة من قِبَل عبيد الله فى اليمن . وكان ابن حوشب ممن يعتقدون أن ظهور المهدى قد آن أوانه ، فذكر ما قاله الفهرى[2] أحد الشعراء فى هذا الصدد . فقد ذكر المقريزى أنه أثر عن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم أنه قال فى سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) أن المهدى سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ؛ فعبّر الفهرى من هذا التصريح بأسلوب شعرى ، حيث قال فى قصيدة ننقل منها هذه الأبيات :

ألا يا شيعةَ الحق ذوى الإيمان والبر
ومَنْ هم نُصرة الله على التخويف والزجر

---

(١) خطط ج ١ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ . اتعاظ الحنفا ص ٢٤ — ٢٦ .

(٢) المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢١٢ ب .
وقد نقل مسيو كترمير هذه الأبيات ، ونشرتها المجلة الأسيوية الفرنسية فى عدد أغسطس سنة ١٨٣٦ (Quatremère : Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123—131).

فعند الست والتسعيــــن قَطْعُ القول فى العذر
لأمرٍ ما يقول النا   س بيـع الدر بالبَعْر

واستطرد أبو حنيفة فى كلامه عن ابن حوشب حيث يقول : « فخرجت إلى دجلة ، ثم أخذت فى قراءة سورة الكهف[1] ؛ فأقبل شيخ يمشى معه رجل ما نظرت إلى أحد يملأ قلبى هيبة قبله ؛ فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب منى ، فقلت : من أنت ؟ فقال حَسَنِىّ (؟) ، فاستعبرت وقلت : بأبى الحسين المضرج (المدرج فى الأصل) بالدماء الممنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر إلىّ ، وتكلم الرجل الذى بين يديه ، فقال لى الرجل : تقدّم إلينا ! فقمت وجلست بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذى دار بينه و بين هذا الرجل الطاعن فى السن ؛ ثم يستطرد فى الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظه عليه من رجاحة العقل ؛ ويصف اليأس الذى تطرق إلى نفسه لجهله المكان الذى رحل إليه . وبينا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقشعت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذى كان فى صحبة الإمام وأخبره بمقره .

بعد ذلك يصف ابن حوشب ما كان من التقائه بمحمد الحبيب[2] أبى عبيد الله المهدى ، وعهده إليه فى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ م) بإقامة الدعوة له فى بلاد اليمن[3] .

وإذا جاز لنا أن نأخذ بعبارة أبى حنيفة النعمان المغربى ، رأينا أن شخصية الإمام كانت ثابتة معروفة لدى أخصائه المقربين إليه ، وأن مكان إقامته كان على الدوام سراً لا يعلم به إلا أنصاره ، لما كان من تشدد الخلفاء العباسيين فى طلبه والقبض عليه .

بيد أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن مسألة مقابلة الإمام مع ابن حوشب ، التى كانت على ما ذهب إليه أبو حنيفة قبل سنة ٢٦٨ هـ (وقد تقابلا لأول مرة فى سنة ٢٦٦ هـ) — وهى السنة التى عين فيها ابن حوشب داعياً للدعاة فى اليمن — مسألة يحوطها الشك ، إذا كان عبيد الله هذا هو الإمام والمهدى حقا .

---

(١) القرآن الكريم سورة ١٨ .

(٢) هذا الشيخ هو محمد الحبيب على ما ذكره ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٢ أ – ٢١٣ ب

وبما لا نشك فيه أن ولادة المهدى كانت فى سنة ٢٥٩ هـ (أو ٢٦٠ هـ)، فلم يكن قد بلغ العاشرة من العمر حين لقيه لأول مرة . وإذا جاز لنا أيضاً أن نجزم بصحة هذه الحكاية ، فإن التفسير الذى يمكن أن نفسر به هذه المسألة ، هو أن هذا الرجل المسن هو محمد الحبيب أبو المهدى ، وأن هذا الصبى من أولاد الحسين وهو المهدى نفسه . ولا شك أن هذه الحكاية لا بد أن يكون قد دخل عليها شىء من التحوير والتبديل منذ وقع هذا الحادث إلى يومنا هذا .

وهنا نذكر أيضاً ما رواه المقريزى مما ذكره المسبحى فى حادث آخر ، نتبين منه كيف أن نسب المهدى عبيد الله كان أمراً لم ينازع فيه أحد من دعاة الفاطميين وغيرهم من عِلية القوم فى مصر ؛ وكان بين هؤلاء طائفة من بلاط الأخشيد . كما نتبين أيضاً أن رجال البلاط هؤلاء قدموا للمهدى كل ما استطاعوا من معونة ، لا لشىء سوى أنه من أولاد علىّ .

وبعد أن يقص علينا المسبحى قصته عن وصول عبيد الله إلى مصر ورحيله عنها مختفياً فى زى التجار ، يروى لنا حكاية أخرى نقلها عن أحد أحفاد أبى علىّ الداعى[1] الذى صحب المهدى أثناء مقامه فى مصر ننقلها للقارئ فيما يلى :

« وأخبرنى ...... بن محمد بن أبى علىّ الداعى أن الإمام المهدى صلى يوماً الصبح فى الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو علىّ الداعى . فلما خرجا من الباب ، ضرب رجل بيده على كم الإمام وقال له : قد حصلت لى عشرة آلاف دينار . فقال له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك الرجل المطلوب ؛ فضحك المهدى ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذى ضرب بيده إلى كمه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أننى إذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه ، كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ؛ فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة »[2] .

---

(١) إذا صحت سلسلة هذا النسب ، فإن اسم حفيد أبى علىّ الداعى يكون على هذا الوجه : مبارك بن علىّ بن محمود — رسائل الحاكم بأمر الله ، دار الكتب المصرية بالقاهرة . مخطوط (كتب الشيعة ٢٠) ورقة ١٢ ب .

(٢) المقريزى — المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٨ ب وما يتبعها .

ويقص المسبّحى حكاية أخرى نقلها عن هذا الداعى نفسه ، نتقلها القارئ أيضاً ، قال : « وكنت يوماً قائماً على الجسر بمصر مع الإمام المهدى ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلا صفته كذا وكذا ، ونعته كذا — ووصف صفة المهدى — ومن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلالا طيباً . فقال [المهدى] : يا أبا على ! المقام بعد هذا عجز ، ثم ركب الجسر ؛ وسرت معه وسألته أن أرحل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : على من أدَع ، من لى ههنا ؟ فبكيت ، فأنشدنى شعر امرئ القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدربَ دونه وأيقن أنّا لا حقان بقيصرا

فقلتُ له : لا تبكِ عَيْنُكَ إنما نحاولُ ملكا أو نموت فنعذرا »

ولسنا نشك فى صحة هاتين العبارتين الأخيرتين اللتين أوردهما المسبحى ؛ إذ يحتمل أن يكون حفيد أبى عبد الله الداعى ، الذى نقل عنه المسبحى ، قد سمع عن هذا الحادث من جده نفسه أو من أبيه الذى عاش بعد وقوعه بزمن قصير .

ليس من شك فى أن غالبية الإسماعيلية يؤيدون نسب عبيد الله إلى على وفاطمة ؛ إلا أن هناك جماعة منهم يقولون إن عبيد الله من الأبناء الروحيين للأئمة المستورين ، وإنه ، وإن كان إماما ، فإن إمامته إنما قامت لأنه استودع لينقلها إلى سواه ، فلم يكن والحالة هذه من الأبناء الحقيقيين للأئمة المستورين ، وإنما انتقلت الإمامة عن طريقه من إمام مستقر إلى إمام مستقر آخر ، وهؤلاء هم الإسماعيلية الذين ينكرون نسب عبيد الله إلى على وفاطمة .

وفى الحق أننا لا نجد عالماً أو مؤلفاً واحداً من الإسماعيلية الذين ألفوا كتب الظاهر لا يربط نسب عبيد الله بمحمد بن اسماعيل ، ولذلك نرى القاضى النعمان المغربى (٣٦٥ هـ) يؤكد صحة نسب عبيد الله ، فى كتبه الظاهرية ، كافتتاح الدعوة الزاهرة ، والداعى جعفر ابن منصور اليمن ، يؤكد بنوة عبيد الله الجسمانية للأئمة المستورين . ويكاد يتفق علماء الإسماعيلية ، الذين يؤيدون نسب عبيد الله ، على أنه ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد ابن عبيد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، كما ذكرنا فى كلامنا على هؤلاء الأئمة المستورين فى الباب الأول من هذا الكتاب . ولكن هؤلاء العلماء يختلفون فيما بينهم فى ذكر ألقاب هؤلاء الأئمة ؛ فقد يلقبون أحدهم بالتقى والوفى وغير ذلك ، مع أن هذا غير ذلك .

والصعوبة التى تعترض الباحث هنا ، أن بعضهم قد يذكر الألقاب ويهمل الأسماء ، مما يثير كثيراً من الغموض . مثال ذلك ما أورده صاحب كتاب دستور المنجمين — وهو من كتب الإسماعيلية[1] — عن الأئمة المستورين الذين يفصلون بين محمد بن إسماعيل وعبيد الله ، فقد اكتفى بذكر ألقابهم ، فقال : هم الرضى والوفى والتقى .

والواقع أن الإسماعيلية الذين يؤيدون صحة نسب عبيد الله ، يكادون يتفقون على أن عبيد الله المهدى هو ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ؛ إلا أن جماعة ممن يدعون الانتصار للفاطميين يغلون فى تأييد نسب عبيد الله إلى على . من ذلك محاولة مامور Mamour[2] إثبات أن محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح ، وأن عبد الله بن ميمون القداح هو نفسه عبد الله الرضى . ولعل لمامور بعض العذر ؛ فقد ألف كتابه فى سنة ١٩٣٤م ، ولم تكن كتب الإسماعيلية السرية خاصة قد انتشرت انتشارها اليوم . ومن ثم لم يقرأ مثلا « كتاب أسرار النطقاء » للداعى جعفر بن منصور اليمن ، أو كتابى عيون الأخبار ، وزهر المعانى ، للداعى عماد الدين إدريس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، كما أنه لم يقرأ كتاب غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسين المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، ليرى أن محمد بن إسماعيل يمثل فرعا من فروع الأئمة ، وأن القداح يمثل فرعا من فروع الحجج أو نواب الأئمة ، وأن هؤلاء غير أولئك ، وأن الإسماعيلية جميعاً لا يوافقون « مامور » على ما ذهب إليه .

ولا نستطيع أن نوافق على ماذهب إليه مامور من القول بأن اضطهاد العباسيين للأئمة العلويين من طائفة الإسماعيلية قد أدى إلى اتخاذ هؤلاء أسماء مستعارة ، وأن اسم محمد بن إسماعيل المستعار هو ميمون . فقد رأينا أن الإمام محمد بن إسماعيل كان فى صحبة ميمون القداح منذ أيام جعفر الصادق ، وأنه استمر معه فى المدينة المنورة ، وهاجر معه أيضاً . ثم هل نصدق مامور ، ومن يرى رأيه فيما زعموه ، ولا نصدق كتب الإسماعيلية الأساسية التى تنقض كل ما قالوه ، والتى تدل على أن مثل هذه الفروض وما ترتب عليها من نتائج لا يقوم على شىء من الصحة ؟ ومع ذلك هل يستطيع هؤلاء أن يفسروا بعض النصوص التاريخية التى تؤكد أن القداحية ليسوا علويين ، وإنما هم جماعة من كبار الدعاة ؟ فهذا الحسن

(١) De Goeje : Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 204.

(٢) Polemics on the Origins of the Fatimids, p. 68.

الأعصم الإسماعيلى القرمطى يعلن من فوق منابر دمشق بأن المعز لدين الله من سلالة القداح[1] ، وأن القداح وأسرته كانوا كالقرامطة يدعون للأئمة المستورين . هذا إلى أن السواد الأعظم من الإسماعيلية ينفون انتساب الفاطميين إلى القداح وأبنائه ، ويذهبون إلى أنهم جميعاً كانوا حججا للأئمة ، والأئمة غير الحجج بالطبع[2] .

وقد أوضحت المراجع الإسماعيلية هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن الأئمة المستورين لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم ، وأن عامتهم لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة . كما أن الدعاة كانوا يختلفون فى ذكر أسمائهم كى يحيطوهم بسياج من المنعة والتخفى ؛ ومع هذا كله فإنهم يكادون يتفقون على ذكر أسماء الأئمة الحقيقيين فى مؤلفاتهم الظاهرية والسرية ، ويتفقون كذلك مع بعض المعتدلين السنيين فى ذكر أسماء أئمتهم المستورين . وهاك أهم سلاسل النسب عند مؤيدى نسب عبيد الله من الإسماعيلية :

محمد بن إسماعيل[3]	محمد بن إسماعيل[4]	محمد بن إسماعيل[5]
عبد الله الأكبر	عبد الله الرضى	عبد الله المستور
أحمد ـ إبراهيم	أحمد التقى	أحمد التقى
الحسين (بن أحمد) ـ سعيد الخير (بن إبراهيم)	الحسين النقى	الحسين الزكى
عبيد الله	عبيد الله	عبيد الله المهدى

ولكن هل كانت عقيدة انتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل ذائعة فى عهده ؟ نعم ! كانت هذه عقيدة الإسماعيلية قاطبة ، مع استثناء حمدان قرمط ومن على شاكلته ، ممن لم يوافقوا على إمامة حجة الإمام ؛ وهؤلاء كانوا قلة إذا ووزنوا بغيرهم . هذا إلى أن كثيراً من

(١) لا نوافق الأعصم على أن المعز من سلالة ميمون القداح إلا إذا تحققنا أن الخليفة القائم ابن لعبيد الله ، وهو ما لم نذهب إليه .

(٢) الدكتور طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ج ١ ص ١٨٨

(٣) النيسابورى : استتار الإمام ص ٩٥

(٤) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٦٤

(٥) Fayzee : A Chronological List (J.B B.R.A.S, 1934) p. 10

مراجعنا ترجع إلى العصر الذى عاش فيه عبيد الله ، أو أن مؤلفيها أخذوا عمن عاصروا عبيد الله ، وهؤلاء جميعاً ، إلا قليلا منهم ، يقولون بانتساب عبيد الله إلى محمد بن إسماعيل وعلى وفاطمة[1] .

ونحن لا نستطيع الجزم بأن هذه الحقائق التى أوردناها قد حلت مسألة نسب الفاطميين وأظهرت أنه يرجع إلى علىّ وفاطمة . ولكنه لما كان من واجبنا أن نزود الموضوع الذى تصدينا للكلام عليه بحقائق جديدة ، فقد حاولنا جهدنا . ولا شك فى أن هذه العبارات قد ألقت قبساً من النور على نسب الفاطميين ، مما يجعل استقصاء هذا الموضوع أكثر سهولة على من يميلون لزيادة استقصائه .

ولم يصل المؤرخون بعد إلى رأى قاطع عن نسب الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابن ميمون القداح . وعلى الرغم من أن تعاليم هذين الحزبين متشابهة من كثير من الوجوه ، فإن انفصال هاتين الطائفتين بعضهما عن بعض ، والعداء الذى تجلى فى هذه الحروب التى نشبت بينهما ، مما يحمل على الظن أن القرامطة مالوا إلى الاسماعيليين وعطفوا على مذهبهم لأغراض سياسية .

(١) حسن ابراهيم حسن ، وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ١٤٩ — ١٥٢

الباب الثالث

الخلفاء الفاطميون فى المغرب

جدول الخلفاء الفاطميين

	هجرية	ميلادية
١ المهدى أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩
٢ القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤
٣ المنصور أبو طاهر اسماعيل	٣٣٤	٩٤٥
٤ المعز أبو تميم معدّ	٣٤١	٩٥٢
٥ العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥
٦ الحاكم أبو على المنصور	٣٨٦	٩٩٦
٧ الظاهر أبو الحسن على	٤١١	١٠٢٠
٨ المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٩ المستعلى أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
١٠ الآمر أبو على المنصور	٤٩٥	١١٠١
١١ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
١٢ الظافر أبو المنصور اسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
١٣ الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
١٤ العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
	٥٦٧	١١٧١

الفاطميون

اسماعيل
|
محمد
|
١ المهدى
|
٢ القائم
|
٣ المنصور
|
٤ المعز
|
٥ العزيز
|
٦ الحاكم
|
٧ الظاهر
|
٨ المستنصر

٩ المستعلى	محمد
١٠ الآمر	١١ الحافظ
	١٢ الظافر
	١٣ الفائز
	١٣ العاضد

عبيد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ)

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة ٢٥٩ هـ[1] في سلمية ، التي اتخذها الإسماعيلية مركزاً لدعوتهم . وكان أبوه قد أرسل في سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه ، ويسمى رُستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي ، إلى بلاد اليمن ، لنشر الدعوة الفاطميين فيها . وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره ، وذلك بفضل جهود ابن حوشب الذي تغلب على معظم أرجاء اليمن ، وبعث دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب . ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية في بلاد المغرب ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي ، وكان من أهل صنعاء ، بنشر الدعوة في بلاد المغرب . ولما استقر به المقام في هذه البلاد وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح ، أرسل إلى سلمية يدعو عبيد الله (المهدي) للحضور إلى إفريقية[2] ؛ فرحب بهذه الدعوة ، ولكن الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) علم بذلك ، وأمر بالقبض عليه .

من ذلك نقف على مدى الصعاب التي لقيها عبيد الله المهدي في طريقه إلى المغرب ، وكيف أفلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زي التجار ، وكيف استغل الأموال الكثيرة التي حملها معه من سلمية في رشوة بعض الولاة في طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع في أيديهم ، وكيف أفلت من أيدي عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذي وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه . ولكن اليسع بن مدرار أمير سجلماسة ، قبض على عبيد الله المهدي وحبسه[3] ، ثم أخذ أبو عبد الله يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب ، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب سنة ٢٩٦ هـ) ، التي اتخذها إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) مقراً لإمارته ، ويستقر في دار الإمارة ، ويزيل نفوذ الأغالبة ، ويبطل اسم الخليفة العباسي من الخطبة[4] .

---

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٢) : وكانت ولادته في سنة ٢٥٩ هـ ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلمية ، وقيل بالكوفة ، ودعي له بالخلافة على منابر مدينة رقادة في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٥٢

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ — ١٤

(٤) راجع كتاب Nicholson, : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa

ظل عبيد الله المهدى فى حبسه بسجلماسة ، حتى أطلقه داعى الشيعة (٧ رجب سنة ٢٩٦هـ) .

قرب المهدى من القيروان ، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة ، وبايعوه على الطاعة ، وذُكر اسمه فى الخطبة ، وتلقب « المهدى أمير المؤمنين » . ولم يلبث أن قسم أعمال هذه الدولة على رؤساء كتامة ، الذين ساعدوه على إقامة دولته ثم دوّن الدواوين ، وجبى الأموال ، واستقرت قدمه فى هذه البلاد . ولم يكتف عبيد الله المهدى بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر ، وما استولت عليه من بلاد ، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر . ووضع ، على أثر تأسيس دولته فى القيروان ، الخُطط لتحقيق سياسته ، كما عمل على مد نفوذه فى جميع بلاد المغرب .

(١) امتداد نفوذ عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب :

كان احتلال الفاطميين إفريقية (تونس) ، وإزالتهم دولة الأغالبة ، خطوة لامتداد نفوذهم شرقاً وغرباً . أما فى الشرق ، فقد أخفقت دولتهم فى الاستيلاء على مصر فى عهد عبيد الله ؛ وأما فى المغرب ، فقد عمل الفاطميون على إدخال هذه البلاد فى قبضتهم ، بحيث لا يحول بينهم وبين المحيط الأطلسى حائل . لذلك اصطدم عبيد الله المهدى بدولة الأدارسة ، وساهم إلى حد كبير فى إزالتها ، كما اصطدم مع الأمويين فى الأندلس ولم يكن بد من أن يخضع عبيد الله القبائل الكبيرة فى المغرب ، كزناتة وسواها . وعلى الرغم من أن عبيد الله لم يستطع أن يخضع جميع بلاد المغرب لسلطانه ، مهد السبيل للمعز لدين الله الذى استطاع أن يوحد كل بلاد المغرب تحت لوائه ، وأن يتم ما بدأه عبيد الله المهدى قبله بنحو نصف قرن .

وقد مرت المحاولات التى بذلها الفاطميون لإخضاع بلاد المغرب فى أدوار مختلفة ؛ وكانت المحاولة الأولى على يد أبى عبد الله الشيعى ، ثم على يد عبيد الله المهدى الذى أخذ يعمل على ضم بلاد المغربين — الأوسط والأقصى — وجزيرة صقلية ، حتى كادت جميعها تقع فى يده .

وفى المرحلة الأولى (٢٩٦ — ٢٩٧هـ) أزال أبو عبد الله دولة الأغالبة عن إفريقية ، ولذلك نراه حين يخرج منها إلى المغرب الأقصى يستخلف عليها أخاه أبا العباس ، كما نرى

جميع البلاد الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى وتونس تخضع له ، أو تظهر خضوعها على الأقل . و بعبارة أخرى « اهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناته ، وزالت القبائل عن طريقه ، وأتته رسلهم ، ودخلوا فى طاعته »[1] ولكن اليسع بن مدرار حارب أبا عبد الله فقتله فى سنة ٢٩٦ هـ . و بقتل اليسع آلت بلاده إلى الفاطميين[2] . والواقع أن عبيد الله لم يجلس على عرش الدولة الفاطمية فى رقادة حتى كان قد « زال ملك بنى الأغلب من إفريقية ، وملك بنى مدرار من سجلماسة ، وملك بنى رستم من تاهرت (بالمغرب الأوسط) ، وملك المهدى جميع ذلك »[3] .

وتبدأ المرحلة الثانية (٢٩٧ — ٣٠١ هـ) باعتلاء عبيد الله المهدى العرش ، وتنتهى بمحاولته فتح مصر للمرة الأولى . وقد عمل المهدى ، منذ جلس على العرش فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٩٧ هـ ، على أن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة وعلى الدعوة ذاتها ؛ فتلقب ، على ما يقوله السنيون ، بلقب « المهدى »[4] ، وأرسل العمال إلى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة بالطبع ، ومن يثق بهم من المغاربة . ومما يلفت النظر حقاً ما نراه من نشاط ولاة المهدى فى ذلك الحين ؛ فقد ولى على صقلية سنة ٢٩٧ هـ والياً يثق به ، واستطاع هذا الوالى أن ينظم شئون هذه الجزيرة ، وأن يهدد جنوبى إيطاليا ، فيهاجم كلابريا (قلورية ، كما يسميها العرب) ، فى سنة ٢٩٩ هـ . وكان من أشهر ولاة المهدى والى طرابلس ووالى برقة ، فى المغرب الأدنى ، ووالى تاهرت فى المغرب الأوسط . ولكى يتمم المهدى إخضاع المغرب بين الأوسط والأقصى ، اعتمد على أبى عبد الله الشيعى ، الذى وقع فى يده كثير من المدن[5] . وفى سنة ٢٩٨ هـ قام أبو عبد الله الشيعى على رأس جيش حارب زناتة جنوبى بلاد كتامة[6] . ولم يقف الخطر المحدق بعبيد الله المهدى عند هذا الحد ، فنرى أهل طرابلس يعزلون الوالى الفاطمى فى سنة ٢٩٨ هـ ، ويسير بعض الزناتيين لاحتلالها . ولولا مهارة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٨

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٨

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٦

(٥) ابن عذارى : جـ ١ ص ١٦٠

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٣

عبيد الله المهدى لوقفت طرابلس عقبة كأداء فى سبيل سيره إلى مصر ؛ فقد استردها وعين عليها أحد زعماء كتامة[١] .

غير أن مقتل أبى عبد الله فى سنة ٢٩٨ هـ حمل المهدى على أن يحدث بعض التبديل فى ولاته ، وإحلالهم بغيرهم ممن يخلصون له . فجعل على المغرب الأدنى — وخاصة برقة — حباسة بن يوسف ، الذى قاد الحملة الأولى على مصر مع أبى القاسم الفاطمى (٣٠٠ — ٣٠١ هـ) ، وقلد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف قاتل أبى عبد الله الشيعى ، وكان مقره « تاهرت » . وكان موقف عبيد الله دقيقاً ؛ فقد ثار أهل زناتة وتاهرت ، كما ثارت كتامة انتقاماً لأبى عبد الله الشيعى سنة ٢٩٩ هـ ، وثار أهل طرابلس فى سنة ٣٠٠ هـ ، وثار أهل صقلية ، وكاتبوا الخليفة العباسى المقتدر ودانوا له بالطاعة . إلا أن عبيد الله المهدى استطاع أن يخرج ظافراً بفضل جهود ولى عهده أبى القاسم (القائم) ، الذى أخضع كتامة ، وغزا طرابلس ، وبفضل إخلاص ولاته الذين عينهم بعد مقتل أبى عبد الله الشيعى وبفضل دهائه هو . وبرغم هذا كله اعتقد عبيد الله ، أنه بقتله أبا عبد الله الشيعى وأنصاره ، وإخضاعه الثورات التى قامت فى وجهه على أثر مقتله ، يستطيع أن يمد نفوذه شرقاً إلى مصر . ولذلك نراه يرسل إليها حملته الأولى .

وتبدأ المرحلة الثالثة من مراحل تنظيم بلاد المغرب (٣٠٢ — ٣٠٧هـ) بحملة عبيد الله المهدى الأولى على مصر ، وتنتهى بحملته الثانية عليها . على أن سياسة عبيد الله قد جرت إلى وقوع الاضطراب فى الولايات الفاطمية فى المغرب وصقلية ، كما جر عليه مقتل حباسة ابن يوسف شيئاً كثيراً من المتاعب . فقد عز على عروبة أن يكون جزاء أخيه ، الذى أحرز كثيراً من الانتصارات فى مصر ، الحبس والتشريد ؛ كما خاف على نفسه وفر من تاهرت — مركز ولايته — فى المغرب الأوسط . ولكن عبيد الله المهدى هم بقتله وتتبع أنصاره وأنصار أخيه . ويظهر أن قتل حباسة وأخيه عروبة قد أثار الاضطرابات فى المغرب ، فامتنعت برقة على عبيد الله المهدى ، ولم تسلم إلا بعد سنة ونصف سنة[٢] .

ويهمنا فى هذه المرحلة أن نقول ، إن عبيد الله المهدى اتخذ من تاهرت بالمغرب

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٣

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤١

الأوسط ، مركزاً رئيساً يوجه منه قواته نحو المغرب الأقصى ، وإنه أخذ يحتك فى هذا الدور بالأدارسة وبالأمويين . ذلك أن المهدى حين قتل عروبة بن يوسف — واليه على القسم المغربى من دولته — ولى مكانه على تاهرت قائده المشهور « مصالة بن حيوس » ، الذى بدأ صراعه العنيف مع قبائل صنهاجة ، فاستولى على حاضرتهم « نا كور » أو « نكور » فى سنة ٣٠٥ هـ . وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارسة ثم مع الصنهاجيين . وليس هذا وحده ، بل لقد بدأ نوع جديد من الصراع السياسى والحزبى بين الأمويين والفاطميين ؛ إذ اتخذ الأمويون بزعامة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) من هرب حكام هذه البلاد إلى الأندلس فرصة لجذبهم إليهم ، ومد يد المساعدة لهم على الفاطميين . وهذا يدل على أن الحرب بين الصنهاجيين والفاطميين إنما كانت فى الواقع حرباً بينهم وبين عبيد الله من ناحية ، وبين الخليفة الفاطمى والخليفة الناصر الأموى من ناحية أخرى . ولا غرو فإن عبد الرحمن الناصر بدأ يلقب نفسه بألقاب الخلفاء ، ويرى أنه لا يقل شأناً عن الفاطميين . وإن من يدرس العلاقة بين الفاطميين وبين الأمويين فى الأندلس فى الدور المغربى خاصة ، يستطيع أن يدرك إلى أى حد أضمر الفاطميون العداء للأمويين ، وخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، لا لأنه يدين بالعقائد السنية فقط ، بل لأنه أخذ ينافس عبيد الله وخلفاءه فى ألقابهم وفى نظم حكمهم ، ولأنه كان يعمل على الوقوف فى وجه الفاطميين ، ولا سيما أنهم كانوا منذ قيام دولتهم فى المغرب يرون أن كل شمالى إفريقية مجال حيوى لمد نفوذهم وتحقيق سياستهم ؛ كما كانوا يرون فى الوقت نفسه أن أى تدخل من جانب الأمويين يتعارض مع مصلحتهم . أضف إلى ذلك ما كان هناك من عداء بين بنى أمية وبنى هاشم ، والعداء بين هذين البيتين قديم باقى الأثر ، لم يزده الإسلام إلا تفاقماً .

وكان الصنهاجيون من القوة بحيث كانوا يهددون نفوذ الأغالبة . وقد خشيهم عبيد الله المهدى ، فأخذ يتودد إليهم حيناً ، ويتوعدهم أحياناً ، ولكنهم لم يعبئوا به . فكان ما قام به مصالة بن حبوس انتقاماً لمولاه عبيد الله المهدى[1] . فقد دخل نا كور حاضرة صنهاجة كما تقدم ، وكتب إلى الخليفة الفاطمى بما أحرزه من نصر وما حاز من غنائم ، وفر بنو صالح

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨١ .

إلى بلاد الأندلس والجئوا إلى عبد الرحمن الناصر[١] . ثم انصرف وعاد إلى تاهرت بعد أن استخلف على نا كور[٢] رجلا يقال له ذلول ، فقصده صالح بن سعيد . . . فقتله وقتل أصحابه ، ولزم نا كور ، « وهادى أمير المؤمنين[٣] بالخيل والجمال[٤] » ، وذلك سنة ٣٠٥ هـ .

أصبح موسى بن أبى العافية صاحب مكناسة خطراً يهدد الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى[٥] ، بل كيان الفاطميين أنفسهم . وقد عمل الخليفة المهدى على إنقاذ ملكه فى هذه البلاد وغيرها ؛ فأرسل إليها ابنه وولى عهده أبا القاسم (سنة ٣١٥ هـ) ، الذى أعاد للفاطميين كثيراً من نفوذهم . وكان عبيد الله المهدى يعتبر عمل القائم هنالك جهاداً فى سبيل الله ، كما يتبين ذلك من قوله : « اللهم إنك تعلم أنى ما أردت بإخراجه إلى المغرب إلا رضاك ونصرة دينك وإذلال أعدائك »[٦] .

ولى المهدى على المغرب الأوسط وتاهرت والياً آخر هو « حميد بن يصال » ؛ وقد عمل هذا الوالى الجديد على أن يشعر موسى بن أبى العافية بقوة الفاطميين فى هذه البلاد ، فأرسل من قبله والياً إلى فاس . وقد شجع موسى الثوار على والى الفاطميين الجديد فقتلوه وحملوا رأسه إليه . فأرسله إلى عبد الرحمن الناصر الأموى : لأن موسى « كان يميل إلى صاحب قرطبة من أمراء بنى أمية »[٧] .

(٢) عبيد الله المهدى والأدارسة :

ولى يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس ، فبايعه أهل فاس ، وخطب له على منابرها ، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى[٨] . ولم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحيى

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٩٤ Fournel, Les Berbers, tom. ii.p.132.

(٢) مدينة ساحلية فى مراكش لها مرسى فيه جزيرة .

(٣) يقصد عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٥) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٢

(٨) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ .

الرابع الإدريسي في سعة الملك و بسطة السلطان ، حتى ظهر الفاطميون في إفريقية في أواخر القرن الثالث الهجرى ، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى في عهد عبيد الله المهدى وخلفائه من بعده[١] . فقد غزا بلاده مصالة بن حيوس قائد عبيدالله المهدى الفاطمى ، وكان صاحب تاهرت والمغرب الأوسط ، سنة ٣٠٥ هـ ، وفتح تاهرت[٢] ، ثم التقى بيحيى ابن إدريس بالقرب من مكناسة ، فحلت الهزيمة بيحيى ، وعاد إلى فاس ، فتبعه مصالة وحاصر هذه المدينة ، واضطر يحيى إلى طلب الصلح ، على أن يؤدى إليه بعض الأموال ، و يبايع للمهدى الفاطمى . وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كما ولى موسى بن أبى العافية ، ابن عم يحيى ، وكان قد أعانه في غزو البلاد الأدارسة ، على سائر بلاد المغرب الأقصى . و بذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الأدارسة . ولما عاد مصالة إلى فاس في سنة ٣٠٩ هـ ، أوغر موسى بن أبى العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه ، واستصفى أمواله ، ثم نفاه ، فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف ، فتصدى له موسى بن أبى العافية وحبسه ، ثم أطلقه بعد عشرين سنة ، فقصد إفريقية ومات في مدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ[٣] .

ولما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ، ولى ريحان الكتامى على فاس . ولكن ولايته لم تطل ، حيث ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام في سنة ٣١٠ هـ ، واستولى على فاس وقتل ريحان ، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته ، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد ، وتفرغ لقتال موسى بن أبى العافية ، ودارت بينهما عدة معارك قتل في إحداها ولد موسى . ومات الحسن في سنة ٣١٢ هـ ، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب[٤] ، فشايع الفاطميين بإفريقية . ولكن دولة الأدارسة ، التى كادت تزول على يد موسى بن أبى العافية من ناحية ، وعلى أيدى الفاطميين من ناحية أخرى ، تحولت إلى بلاد الريف ، وانتظم الأمر لموسى بن أبى العافية في المغربين الأقصى والأوسط »[٥] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨ .
(٣) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٥) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨١ .

ولم يلبث موسى بن أبى العافية أن خلع طاعة الفاطميين ، ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ؛ وكان قد طمع فى امتلاك المغرب الأقصى ، واستولى على سبته ، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده . ولما علم عبيد الله المهدى بذلك أرسل جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حُمَيْد بن يَصَلْ صاحب تاهرت وابن أخى مصالة بن حبوس . وانتهت هذه الحرب بفرار موسى من مدينة فاس ، فولى عليها حميد أحد قواده .

القائم والمنصور

بويع أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدى ، وتلقب القائم بأمر الله ، وكان فى الثالثة والأربعين من عمره . وقد اضطر الخليفة الجديد إلى إخفاء نبأ وفاة أبيه خوفا من أن تنتقض البلاد عليه . فجند الجند فى برقة لغزو المشرق ، كما أرسل إلى تاهرت جيشاً يعمل على تثبيت أقدام الفاطميين فى هـذه البلاد . ولم يكد موسى بن أبى العافية يعلم بنبأ وفاة المهدى حتى أعلن الثورة فى بلاد المغرب فى مستهل سـنة ٣٢٣ هـ . وقتل أحمد بن بكر بن عبد الرحمن الجذامى حامد بن حمدان عامل الفاطميين على فاس ، وبعث برأسه إلى موسى بن أبى العافية ، فأرسـلها بدوره إلى عبد الرحمن الناصر الأموى بقرطبة . كما بسط موسى نفوذه على إقليم فاس وما جاوره من البلاد ، وشن الغارة على الأدارسة فى إقليم الريف وبلاد غُمارة .

ولما علم القائم الفاطمى بذلك سير ميسور الفتى على رأس جيش كبير لقتال ابن أبى العافية ورده إلى طاعة الفاطميين ، فسار إلى فاس فى سنة ٣٢٣ هـ ، وعزل أحمد بن أبى بكر وأسره وبعث به إلى المهدية[1] . وقد حاصر ميسور هذه المدينة سبعة أشهر وتم له الاستيلاء عليها . فلما يئس موسى بن أبى العافية من استرداد فاس ، سار إلى مدينة ناكور واستولى عليها . ولما علم الخليفة القائم بذلك ، أرسل صندل الفتى لاسترداد ناكور وشد أزر ميسور ، وغادر صندل المهدية فى جمادى الآخرة سنة ٣٢٣ هـ واستولى على هذه المدينة فى شهر شوال سنة ٣٢٣ هـ ، وولى عليها عاملا من أهل كتامة يدعى مرْمازو ، ثم لحق بميسور عند مدينة فاس . وفى ذلك الوقت اشتعلت نيران الثورة بمدينتى تاهرت (أو تيهرت) ووهران بزعامة

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

محمد بن خَزَر الزناتى ، فلم يستطع أن يغادر فاس لينقذ المغرب الأوسط ويحول دون سقوطه فى أيدى الزناتيين ، واضطر الخليفة القائم الفاطمى إلى عقد الصلح مع أهل فاس على أن يدفعوا عشرة آلاف دينار ويدعوا للخليفة الفاطمى على منابر بلادهم وأن يضربوا السكة باسمه .

ولما تم الصلح غادر ميسور مدينة فاس ليلقى موسى بن أبى العافية ، الذى حالف عبد الرحمن الأموى وأخذ يدعو له على منابر بلاده[١] . وانضم الأدارسة إلى الفاطميين فى قتال ابن أبى العافية عدوهم المشترك ، وأسر أحد أبناء موسى وبعث به إلى المهدية ، ولحقت به الهزيمة ، واضطر إلى الاعتصام بالصحراء . وأمر الخليفة القائم ميسورا بأن يولى الأدارسة على ما فتحه من البلاد[٢] .

وبعد أن نشر ميسور الفتى السكينة فى ربوع هذه البلاد ، يمم شطر إفريقية واستولى وهو فى طريق عودته على مدينة أَرْشْكول وولى عليها يحيى بن إبراهيم ، ثم سار إلى وَهْران فاستولى عليها ، كما أغار على تاهرت ، وقضى على ثورة أبى القاسم بن مَصَّالة ، ثم عاد إلى إفريقية ودخل القيروان فى سنة ٣٢٤ هـ .

وفى هـذه الأثناء برزت قبيلة صنهاجة وأخذت تقوم بدور بارز فى تاريخ الفاطميين ، ولا سـيما بعد أن تألب الزناتيون على الفاطميين وانحازوا إلى جانب الأمويين ، واضطر زيرى بن مناد زعيم هذه القبيلة المغربية القوية إلى محالفة كتامة والدخول فى طاعة الفاطميين انتقاماً من خصومه الزناتيين ، فمد يد العون إلى الفاطميين فى حرب محمد بن خزر الزناتى زعيم بلاد المغرب الأوسط[٣] . كان هذا فى الوقت الذى بدأ فيه الأدارسة يبسطون نفوذهم فى بلاد المغرب الأقصى ، فيدخلون فى طاعة الفاطميين ويدعون لهم على منابر بلادهم ، فدخل الحسن بن أبى العيش مدينة تِلِمْسان فى سنة ٣٢٥ هـ ، كما استولى على مدينة أصيلة فى السنة التالية .

فى ذلك الوقت الذى كانت فيه جيوش الفاطميين تقاتل فى المغربين الأوسط والأقصى وتقرر الأمن والسكينة فى ربوعها ، أطلت فتنة الخوارج برأسها ، واندلع لهيب الثورة على

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨٢ .

(٢) Fournel, Les Berbers, tome II. p. 193.

(٣) انظر Fournel, Les Berbers, tome II. pp. 204-10

أبي يزيد مُخَلَّد كَيْداد ، من قبيلة زناتة فى مدينة تُوزَر[١] . وكانت أمه جارية تنتسب إلى قبيلة هوارة ، تزوجها أبوه فى السودان وأتى بها إلى توزر حيث ولد أبو يزيد ؛ فنشأ فى هذه المدينة ، وخالطه جماعة من النكارية ، فاعتنق مذهبهم . وكان يقضى بتكفير أهل الدين واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سافر إلى تاهرت ، فأقام بها يعلم الصبية إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعى إلى سجلماسة لإطلاق المهدى من سجنه ؛ فانتقل أبو يزيد إلى نفوس ، واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبية من جديد . وفى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) قوى أمر أبى يزيد وراجت دعوته لدى بعض قبائل البربر فى نفوس والزاب والمغرب الأقصى . وفى عهد خلافة القائم زادت شوكته وكثر أتباعه ؛ فاستولى على بجاية وسرجنه وأوقع الهزيمة بقبيلة كتامة ، ودخل سبيبة واستولى على الأربس ونهبهما وقتل كثيراً من أهلها . وقد أثار استيلاء أبى يزيد على الأربس ، وكان يعدها أهل المهدية باب مدينتهم ، الهلع فى قلوب الأهلين . وبذلك استطاع أبو يزيد أن يعسكر بجنده على بعد خمسة عشر ميلا من المهدية ، وأخذ يباغت المدينة بحملاته ؛ فانتقل كافة أهلها إلى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية[٢] .

انتشرت جيوش أبى يزيد فى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) فى جل أرجاء الولايات الفاطمية فأصبح فى مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها . وكتب الخليفة القائم يستحث زيرى بن مَناد زعيم قبيلة صنهاجة على معونته ، فلحق به فى المهدية[٣] .

بيد أن حسن الحظ ساعد الفاطميين فى ذلك الحين ، بانضمام عدد غير قليل من جند أبى يزيد إلى جيوشهم ولحاقهم بهم فى القيروان . ولم يعد أبو يزيد يعتمد إلا على معونة قبيلتى هوارة وبنى كملان ، واضطر إلى الارتداد عن المهدية ويمم شطر القيروان التى امتنع عليه أهلها وحملوه على الارتداد مع القالة من جنده الذين لم يلبثوا أن هلكوا من الجوع والعطش[٤] .

(١) أكبر مدائن بلاد الجريد التى تنقسم قسمين : قسطيلية ، ويتبعها توزر والزاب (انظر البكرى ص ٤٨ — ٧٤) ، والمراكشى : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨

(٢) انظر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) وابن أبى دينار (ص ٥٥ — ٥٦) والمقريزى ، اتعاظ (ص ٤٥ — ٥٤) . وراجع كتاب المغرب للبكرى لمعرفة مواقع المدن الواردة فى هذه العبارة .

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ٦٧ و ١٥٠ — ١٥٨) . المقريزى ، اتعاظ (ص ٥٤ و ٥٥)

(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) . المقريزى ، اتعاظ (٥٤ — ٥٥) . ابن أبى دينار (ص ٥٥ — ٥٩)

توفى الخليفة القائم فى ذلك الحين (رمضان سنة ٣٣٤) ؛ وقد ولد المنصور فى القيروان سنة ٣٠٢ هـ (وقيل سنة ٣٠١ هـ) . وكان حين ولى الخلافة فى الثانية والعشرين من عمره . وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش ، كما استطاع أن يؤثر فى نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب[1] . وقد أخفى المنصور موت أبيه إلى حين ، حتى لا يؤثر هذا النبأ فى حماس جيوشه ، فيهيئ الفرصة لأبى يزيد لإحراز النصر[2] . وقد قويت جيوش المنصور وزاد عددها بانضمام قوة صنهاجة إليها ؛ فأتاح ذلك الأمر الفرصة للمنصور ، فأوقع بجيش الخارجى فى سنة ٣٣٦ هـ ؛ فقطعت أوصاله ، وطورد أبو يزيد نفسه إلى الصحراء وقبض عليه وبعث به إلى المهدية ؛ وهناك مات متأثراً من جراحه (٣٠ محرم سنة ٣٦٦)[3]

ولقد تركت هذه الثورة شمال إفريقية فى حالة يرثى لها وأثرت فى موارد الدولة الفاطمية . ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب ، لزالت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء هذه البلاد . ولا غرو فإن موارد الخلافة قد أصابها العطل ، فأصبح بيت المال خلواً من الصفراء والبيضاء . ولم يكن بد من أن يدأب المنصور على إصلاح ما أفسده أبو يزيد ؛ فقضى البقية الباقية من خلافته فى إعادة تنظيم البلاد ؛ فعمر البلاد وأعادها إلى ما كانت عليه قبل نشوب هذه الثورة ، وأنشأ أسطولا كبيراً ، وأسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ على مقربة من القيروان ، واتخذها حاضرة لدولته ، واتخذ القاهرة التى بناها جوهر سنة ٣٥٨ هـ حاضرة لدولته .

حكم المنصور سبع سنين وستة أيام ، ومات فى يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ ودفن بالمهدية . وقد قيل فى سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه ، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح ، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ، ومات أكثر من كان معه . ولما دخل المنصورية ، أراد أن يدخل الحمام ، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلى ، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق ، فأعطاه منوماً فمات[4] .

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٧٧)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) . المقريزى ، اتعاظ (ص ٥٤) . ابن أبى دينار (ص ٥٩)

(٣) ابن أبى دينار (ص ٦٠)

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٧٧ .

المعز لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ هـ)

كان المعز مثقفاً يجيد عدة لغات : منها اللغة التليانية التى تعلمها فى صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلية التى كانت منتشرة فى هذه الجزيرة ، كما عرف اللغة السودانية . وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفى عهده دانت له كافة قبائل البربر ، ولا سيما قبيلتا بنى كلان وبنى مليلة من قبائل هوارة ، وقد أبتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله . ويرجع الفضل فى اكتساب الخليفة المعز طاعة قبائل المغرب على اختلافها ، إلى هذه السياسة الرشيدة التى سار عليها ، مما ساعد على إقرار خلافته ، وأتاح له القضاء على دولة الأدارسة ، بعد أن حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين[١] .

لم تكن الأمور قد استقرت بعد للفاطميين فى بلاد المغرب . فلم يكن بد من أن يعمل المعز لدين الله على إخضاعها وإقرار الأمن فى ربوعها ؛ وبذلك يستطيع أن يوجه جيوشه إلى بلاد الأندلس ، ثم إلى مصر ، ومد نفوذه إلى المشرق .

وقد قام المعز لدين الله بجهود جبارة فى سبيل إخضاع جميع بلاد المغرب ، وتم ذلك على مرحلتين ، كان جوهر الصقلى بطل المرحلة الأولى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى بطل المرحلة الثانية . وكانت الأحوال تحتم عليه أن يقوم بعمل جدى فى بلاد المغرب الأقصى ، كى لا تضيع هيبة الفاطميين فيها ؛ فقد استطاع الأمويون أن يخضعوا كثيراً من أمراء تلك البلاد ، بالقوة تارة ، وبالخديعة تارة أخرى ، منتهزين فرصة بُعد تلك البلاد عن حاضرة الفاطميين .

يدل على ذلك هـــذا الوصف الممتع الذى أورده السلاوى[٢] عن طريقة توغل نفوذ عبد الرحمن الناصر فى شمال إفريقية ، فيقول : « وكانت قوات الناصر تجوز من الأندلس إلى العدوة[٣] ، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم ، والناصر محمد مساعد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٥٩ — ٦١ ، ٦٥

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

(٣) العدوة . بضم العين : هى الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى ، وتسمى عدوة المغرب ، وتقابلها عدوة الأندلس .

لمن عجز منهم برجاله ، مقو لمن ضعف منهم بماله ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب ، وبايعته قبائله من زناتة والبربر ، وخطب له على منابره ، من تاهرت إلى طنجة ، ماعدا سجلماسة ؛ وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة » .

ولكى يحفظ المعز هيبته فى شمال إفريقية ، لم يكن بد من أن يجهز الجيوش ، ويقضى على نفوذ الأمويين فى هذه البلاد .

وتتلخص السياسة التى رمى المعز من ورائها ، إلى تسيير تلك الجيوش الضخمة بقيادة وزيره وقائده جوهر فى اشتراك كثير من الأمراء الموالين للفاطميين ، مثل زيرى بن مناد الصنهاجى ، أمير « أشير » ، وجعفر بن على الأندلسى ، أمير « المسيلة » وغيرهما . كما كان يرمى من وراء تلك الحملة إلى إخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمى .

وكانت وجهة هذه الحملة بلاد تاهرت للانتقام من واليها الفاطمى ، يعلى بن محمد الزناتى الذى ظل على إخلاصه للناصر الأموى . لذلك قاوم الجيوش الفاطمية ، فأسره جوهر ثم قتله[1] . وكان القبض عليه وعلى أنصاره من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح جوهر ، وجعل بلاد المغرب الأوسط فى قبضة زيرى بن مناد ، على ما سنرى .

قصد جوهر بعد ذلك إقليم فاس ، وحاصر حاضرته لإخضاع ابن أبى بكر بن سهل الجذامى ، الذى خلع طاعة الفاطميين ، وانضوى تحت لواء الأمويين . ولكن لم يتم لهم فتح هذه المدينة إلا بعد استيلائهم على سجلماسة[2] .

ولم يقل اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على سجلماسة عن اهتمامهم بالاستيلاء على فاس أو تاهرت . ولا غرو فقد استبد بحكمها ابن واسول ، الذى سمى نفسه أمير المؤمنين ، وتلقب الشاكر لله ، وسك النقود باسمه .

أعد المعز لدين الله حملة لقتال ابن واسول ضمت كثيرين من الكتاميين . وكان اهتمام المعز بفتح سجلماسة عظيما ، حتى إنه ضرب النقود فيها باسمه .

ولم يبق أمام جوهر ورجاله سوى أدارسة الريف والبلاد الخاضعة للأمويين . أما أدارسة

---

(١) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٦ — ٤٧ .

الريف فإن زعيمهم الحسن بن القاسم قنون لم يستطع مقاومة جيوش الفاطميين ، ورأى السلامة فى الهرب إلى الأندلس ، والاحتماء بعبد الرحمن الناصر . واستطاع جوهر أن يمد نفوذ الفاطميين إلى سواحل المحيط الأطلسى ، أى على جميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ، ولم يمتنع عليه من بلاد المغرب سوى سبتة وطنجة .

وهكذا انصرف جوهر راجعاً ، كما يقول السلاوى[1] ، بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها ، وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانيين فيها ، وردها إلى العبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب ، وانتهى جوهر إلى المهدية ، دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبى بكر أمير فاس وخمسة عشر من أشياخها ، وحمل أيضا محمد بن أبى الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال ، وجعل على رءوسهم قلانس من لبد مستطيلة ، منبتة بالقرون ؛ فطيف بهم فى بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم ردوا إلى المهدية ، وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها » .

وليس معنى ذلك أن جوهرا قد تغلب بحملته التى شنها فى سنتى ٣٤٧ — ٣٤٨ ﻫ ، على جميع الصعاب التى واجهت الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى خاصة ، فإن الأدارسة لم يلقوا جميع أسلحتهم ، كما أن الأمويين ظلوا على عدائهم للفاطميين ، لم تمسسهم تلك الحملات بسوء ، بل ضاعفوا جهودهم فى الاستعداد الحربى لصد الفاطميين ، إذا حدثتهم أنفسهم بغزو بلاد الأندلس ، أو الاستيلاء على طنجة وسبتة منهم . لذلك كان لزاما على المعز أن يعالج هذا الموقف من جديد .

ويظهر أن الحسن بن القاسم الإدريسى ، الذى فر إلى قرطبة ، عاد لمناوأة الفاطميين ، وإعلان ولائه للخليفة الناصر ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده . وقد ذكر السلاوى سبب هذا التقرب ، فعزاه إلى خوف الحسن بن القاسم من الأمويين فى الأندلس ، لقرب المسافة بين بلاده وبلادهم . وكان من أثر ذلك أن بعث الخليفة المعز الفاطمى قائده بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، الذى استطاع أن يعيد الخطبة للفاطميين فى بقايا دولة الأدارسة ، ويبطل الدعوة للأمويين منها .

ومع ذلك لم يستطع المعز القضاء على الأدارسة ؛ لأن الحكم الثانى فى الأندلس استغل

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ — ٨٧ .

ضعفهم ، فعمل على بسط نفوذه فى جميع بلادهم فى إقليم الريف . وقد أرسل قائده ومولاه غالبا على رأس جيش كثيف لمحاربة الحسن بن القاسم ، فانتصر عليه ، وأسره هو وأهل بيته . وقد أقاموا فى الأندلس طوال عهد المعز تقريباً ، حيث عفا عنهم الحكم الثانى ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وطردهم من قرطبة ، ففروا إلى تونس ، ومنها رحلوا إلى مصر فى عهد العزيز الفاطمى ، الذى رحب بهم ، وأمد الحسن بجيش قصد به إفريقية ، وأعانه زيرى بن مناد بجيش آخر ، لاسترداد بلاده من الأمويين . إلا أن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام الثانى المؤيد الأموى (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا استطاع أن يحل به الهزيمة ، وقتله فى سنة ٣٧٥ هـ ، حيث انقرضت دولتهم ، ولكن جماعة منهم استطاعوا أن يرثوا الدولة الأموية بالأندلس ، وهم بنو حمود (٤٠٧ — ٤٤٩ هـ) .

هكذا زالت دولة الأدارسة بالمغرب ، بعد أن تربعت على العرش نحو قرنين ، وساهم فى القضاء عليهم آل ابن أبى العافية والفاطميون والأمويون أنفسهم .

والواقع أن ملك الفاطميين فى المغربين الأوسط والأقصى ، لم يصف لهم تماما بعد سنة ٣٤٧ هـ ، وأن ما فعله جوهر وزيرى بن مناد لم يقض على ثورات المغاربة ، وخصوصاً على قبيلة زناتة ، وإنما نجح الفاطميون فى إضعاف الأدارسة والقضاء عليهم فى النهاية . فقد انتهز الزناتيون فرصة خروج جيوش المعز إلى مصر ، فثار فى سنة ٣٥٩ هـ أحد زعماء زناتة على المعز ، الذى خرج إليه بنفسه ، إلى أن وصل إلى « باغاية » ، ففر هذا الثائر من وجهه ، فأرسل إليه المعز قائده زيرى بن مناد ، وأرغمه على التسليم . وفى شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، وصل هذا الزناتى إلى المعز مستأمناً ، وطلب الدخول فى طاعته ، فقبل المعز ذلك ، وفرح به ، وأجرى عليه الأرزاق[1] .

ولم يقف خطر زناتة عند ذلك الحد ؛ فقد اتحدوا مع صاحب المسيلة وأعمال الزاب ؛ وكان يحقد على زيرى بن مناد ، قائد المعز لدين الله ، وحارب الفريقان زيرى وقتلوه ؛ وكان لذلك أثره فى ازدياد المنافسة بين الصنهاجيين والزناتيين . وانتقم يوسف لأبيه من زناتة ، فقتل منهم كثيرا وسبى كثيرا . حدث ذلك كله والمعز لا يزال بإفريقية ، فسر لهذا الصراع

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٢١٥ .

الذى تفاقم بين هاتين القبيلتين المغربيتين « وزاد فى إقطاع بلكين المسيلة وأعمالها »[١] . كان الاضطراب يسود بلاد المغرب . وليس أدل على ذلك مما قاله يوسف بن زيرى ابن مناد حين عزم المعز لدين الله على توليته إياها : « يا مولانا ! أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! ما صفا لكم المغرب ؛ فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى ؟ »[٢] .

وكان انتقال المعز إلى مصر (من شوال سنة ٣٦١ إلى رمضان سنة ٣٦٢ هـ) يثير أهالى بلاد المغرب كافة على يوسف بن زيرى بن مناد ، لولا ما أوتيه من صلابة وقوة . فقد انتهز أهالى باغاية وتاهرت خروج المعز واشتغال بلكين بتوديعه ، وثاروا على الوالى كل منهما وطردوه . ولم تقف الحال عند ذلك الحد . فقد هبت قبيلة زناتة وثارت فى تلمسان ، ولكن يوسف بن زيرى استطاع أن يخمد هذه الثورات .

وقد رأى زيرى بن مناد الصنهاجى أن يبين لمولاه إلى أى حد وصل سلطان الفاطميين فى الغرب ، وقد انتشر من حدود طرابلس الغرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلنطى غرباً وما إلى هذه الأرجاء من جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط ، فأمر بعض رجاله أن يصطدوا له من سمكه ، وجعل السمك فى قلال الماء وحمله إلى المعز . ولما عاد جوهر من حروبه إلى القيروان ، كان المعز قد أصبح فى ذلك الوقت الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى كافة أرجاء شمال إفريقية[٣] .

١ — الفاطميون فى صقلية :

كانت جزيرة صقلية مركزاً للصراع بين المسلمين والروم . ففى عهد الخليفة المعتمد العباسى قامت الحرب فى هذه الجزيرة سنة ٢٦٨ هـ بين الروم فى عهد الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) وبين المسلمين الذى حلت بهم الهزيمة أول الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن انتصروا على أعدائهم[٤] ، وأرغموهم على طلب الهدنة فى سنة ٢٧١ هـ[٥] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٤ — ٢٥٣ .
(٢) المقريزى . اتعاظ الحنفا ص ٦٤ . الخطط ج ١ ص ٣٥٢ .
(٣) ابن أبى دينار ص ٦١ .
(٤) ابن الأثير ج ٧ ص ١٣٢ — ١٣٣
(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٥٠ .

(أ) صقلية فى عهد عبيد الله المهدى :

ولم يكد أبو عبد الله الشيعى ينتصر على الأغالبة ، حتى هب أهالى صقلية على واليهم السنى ، الحسن بن رباح ، الذى كان يحكم هذه الجزيرة باسم الأغالبة ، وولوا عليهم علياً ابن أبى الفوارس (٢٩٦ هـ) . ولم يكتفوا بذلك ، بل طلبوا إلى أبى عبد الله أن يقرهم على ما فعلوا ، فأقر هذا الوالى الجديد ، وحتم عليه أن يتم ما بدأه من الفتح والغزو[1] .

غير أن عبيد الله المهدى كان قد وضع لنفسه سياسة الاعتماد على الكتاميين أنصار المذهب الإسماعيلى ؛ لذلك قبض على ابن أبى الفوارس ، وولى مكانه الحسن بن أحمد ابن أبى خنزير الكتامى . وقد تعصب السنيون على الحسن ، وعملوا على طرده من صقلية لاستبداده بالسنيين أولا ، ولاتهامهم إياه إذ كانوا يرون أنهم أرفع منه قدراً ، ويتأنفون أن يحكمهم كتامى بربرى . وقد اتضح لهم أنه يقرب إليه البربر ويهمل شأن العرب ؛ فولى أحد الكتاميين على قضاء الجزيرة ، وأطلق يد أخيه فى أمور البلاد .

وليس هذا كل ما أثار حفيظة السنيين بصقلية على الحكم الفاطمى ؛ فقد عز عليهم أن يخطب على منابرهم للخليفة المهدى الفاطمى ، وأن تنظم الدعاية فيها للمذهب الإسماعيلى الذى كان دعاته يعملون على جذب الناس إليه .

ولى عبيد الله المهدى علياً بن عمر البلوى جزيرة صقلية ، فوصل إليها فى سنة ٢٩٩ هـ . ولم يكن البلوى أقل تعسفاً من سلفه ، على الرغم مما عرف به من اللين وضعف الإرادة ، فثار الناس عليه . وقد يسأل بعض عن السبب الحقيقى الذى حدا بأهل صقلية إلى شق عصا الطاعة على هذا الوالى الفاطمى ، وهل يرجع ذلك إلى لينه وشيخوخته ؟ أو إلى أنه كان يمثل العنصر الشيعى ، مع أن السواد الأعظم من المسلمين بصقلية كانوا يدينون بالعقائد السنية ؟ أم أن ذلك يرجع إلى أنه كان من بين الثائرين جماعة من تلاميذ مدرسة أبى عبد الله الشيعى ، الذين عز عليهم مقتله فثاروا بالمهدى وبواليه البلوى ؟ يبدو أن هذه الأسباب مجتمعة هى التى أدت إلى إشعال نار الثورة فى صقلية . فإن مقتل أبى عبد الله الشيعى قد أثار على عبيد الله المهدى موجة من السخط والغضب شملت المغرب وصقلية[2] (سنة ٣٠٠ هـ) ، مما

(١) أمارى . المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٣٤ .

(٢) ابن خلدون . العبر ج ٤ ص ٣٨ .

يحملنا على الاعتقاد بأن عدداً كبيراً من الثائرين على البلوى ، كانوا من أنصار أبي عبد الله الشيعي . أضف إلى ذلك أن العناصر العربية قد عز عليها أن يرسل الفاطميون ولاة من البربر . لذلك اختار الزعماء في صقلية أحمد بن قرهب ، وكان عربياً ، في سنة ٣٠٠ هـ .

على أن الجند ثاروا على ابن قرهب . بسبب نزعته إلى الاستقلال بصقلية ، وأشعلوا نار الثورة على ابنه ، وكادوا يقتلونه ، لولا أن تصدى لهم العرب من السنيين . ولما أدرك ابن قرهب أن أمره قد افتضح ، وخشى انتقام الفاطميين ، ثار عليهم ، وأعلن ولاءه للعباسيين (سنة ٣٠٤ هـ) ، وقطع الخطبة للمهدى الفاطمى فى صقلية ، وخطب للمقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ)[١] .

وقد علمت الحوادث عبيد الله المهدى أن حكم الفاطميين لن يستقر فى صقلية ، إلا إذا أرسل إليها مع الوالى جيشاً يدفع عنه خطر الثائرين على الحكم الفاطمى . والواقع أن المهدى اتخذ من إرسال هذا الجيش وسيلة لقمع ولاة الفاطميين إذا حدثتهم أنفسهم بالخروج عليه ، والقضاء على أهالى صقلية إذا حاولوا شق عصا الطاعة[٢] . وقد صدقت فراسة المهدى ، فإنه ما كاد واليه الجديد (أبو سعيد) يطأ أرض هذه الجزيرة حتى ثار عليه كثير من الأهالى . ولولا مساعدة جند الفاطميين للوالى ، لما استقر حكم المهدى فى هذه البلاد[٣] . وقد أفاد المهدى من وراء هذه السياسة ، واستطاع ولاته على صقلية أن ينشروا الأمن فى ربوع هذه الجزيرة[٤] .

وقد حرصت الدولة الفاطمية على الاحتفاظ بنفوذها فى صقلية لأسباب سياسية واقتصادية . فقد كانت هذه الدولة ترمى إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، واتخاذ صقلية قاعدة لأسطولها لتأمن شر غارات الروم على سواحل إفريقية ، وتحقق أطماعها فى مصر و بلاد المغرب . وأما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون فى صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥ . كان ذلك فى سنة ٣٠٤ هـ لا فى سنة ٣٠٠ كما زعم ابن خلدون .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٥ — ٢٦
(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٧
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٤ . ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٨

والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها . فلما انقضت فتنة أبي يزيد الخارجي سنة ٣٣٦ هـ ، ولى الخليفة المنصور الفاطمى أبا الغنائم الحسن بن أبى الحسين بن على الكلبى[1] هذه الجزيرة ، فغزا قلورية (Calabria) جنوبى إيطاليا[2] .

(ب) صقلية فى عهد المعز :

وقد سن الخليفة المهدى لمن خلفه من الفاطميين نظاماً جديداً يقضى بأن يكون إلى جانب والى هـذه الجزيرة جيش احتلال فاطمى قوى يدفع خطر الأعداء عنها . وكوّن بعض الولاة لأنفسهم على مر الزمن عصبية قوية ، وتمتعوا بشىء غير قليل من الاستقلال . وخير مثال لذلك الأسرة الكلبية ، فقد ولى الخليفة المنصور « الحسن بن على الكلبى » هذه الجزيرة سنة ٣٣٦ هـ ، وأصبح الحكم فيها مقصوراً على هذه الأسرة . فلما ولى المعز لدين الله الخلافة أقر الحسن فى ولايته ، واستطاع هذا الخليفة أن ينتصر بمساعدة ولاة هذه الجزيرة من الكلبيين على أعدائه من الأمويين أولا ، ثم على الروم ثانياً ، كما استطاع أن يهدد إيطاليا ، وأن يلقى الفزع فى قلوب أهالى الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط .

ولما ولى الحسن الكلبى جزيرة صقلية ، عمل على إخضاع جميع الروم فيها إلى نفوذ الفاطميين ، ولكن النزاع قد تفاقم بينه و بين الأهالى . ولم ير مسيحيو صقلية وقلورية بداً من الالتجاء إلى أباطرة الدولة البيزنطية ، الذين استجابوا إلى ندائهم ، لأنهم كانوا يعملون على مناصبة العباسيين فى المشرق ، وشغل المسلمين فى المغرب والأندلس بمحاربة الفاطميين فى صقلية . لذلك أرسل الإمبراطور قسطنطين الثامن (٣٠٧ — ٣٣٣ / ٩١٩ — ٩٤٤) جيوشه إلى هذه الجزيرة ، واشتبكوا مع جيوش الحسن الكلبى الصقلية وجيوش الخليفة المنصور المغربية ، التى استولت على كثير من أمهات مدن قلورية وصقلية الموالية للروم وأحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى ، وأرغم الإمبراطور على طلب الصلح . وإن قرب صقلية من إيطاليا قد أتاح للحسن الكلبى الفرصة للإغارة على جنوبها ، وفتح قلورية ، وإخضاع هذه الجزيرة للفاطميين ، ولذلك اصطدم مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية[3] .

---

(١) ورد هذا الاسم فى ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٨ الحسن بن على بن الحسين الكلبى .

(٢) Cambridge Meidiaeval History, vol. v. p. 147.

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٧٨ .

على أن الإمبراطور قسطنطين الثامن لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى ؛ وشجعه على ذلك ما أحرزه من الانتصارات على العباسيين والحمدانيين فى المشرق ، وطمع فى أن يحرز فى المغرب ما أحرزه من الانتصارات فى المشرق . وقد عول على أن يشغل المعز بهذه الحروب حتى تتاح له الفرصة للقضاء على الدولة العباسية المتداعية . لذلك أرسل فى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) حملة برية بحرية ، وركز الروم جهودهم فى فتح بلرمو التى كانت موالية للمسلمين ، ففتحوها بعد حصار طويل شاق . وأخذت انتصارات الروم تتوالى فى قلورية وأرسلوا جيوشهم إلى صقلية نفسها ، واستولوا على مدينة ترمينى Termini وتبعد عن بلرمو بأربعة عشر ميلا . غير أن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات وعادوا أدراجهم إلى قلورية .

ونستطيع أن نصور فى إيجاز موقف الفاطميين فى صقلية فى خلال هذه الحروب . على أن الحسن الكلبى استطاع أن يخرج الروم من « ترمينى » ، ثم عبر خليج مسينى (بين صقلية وقلورية) ، وانضم إلى جيوش الفاطميين بقيادة أخيه عمار ، وما زال الحسن وأخوه يغزوان مدن قلورية واحدة إثر أخرى ، وإمدادات الفاطميين تتوالى عليهم ، واضطر الإمبراطور البيزنطى إلى طلبه الهدنة (٣٥٠ هـ) ، وكانت تقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين .

وهكذا انتهى الدور الأول من هذه الحروب التى شنها المعز لدين الله على الروم فى صقلية وقلورية ، وزال خطر الروم عن هذه البلاد إلى حين .

وقد أفاض المؤرخون فى ذكر الحرب التى قامت بين أنصار الفاطميين وأنصار البيزنطيين فى صقلية ؛ فقد استطاع أحمد بن الحسن بن أحمد الكلبى أن يستولى على قلعة طبرمين المنيعة فى صقلية سنة ٣٥١ هـ ، وأقام فيها جماعة من المسلمين ، وطرد أهلها عنها وسماها — كما يقول ابن الأثير —[١] . « المعزية » تيمنا باسم الخليفة المعز لدين الله . وكان لسقوط هذه المدينة أثره فى المدن الأخرى المعادية التى أخذت تفتح أبوابها للجيوش الفاطمية . إلا أن مدينة « رمطة » أبت أن تستسلم للفاطميين الذين حاصروها فى رجب سنة ٣٥٢ هـ ،

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٩ .

وأرغم أهلها على طلب النجدة من الإمبراطور ، « نقفور فوكاس » (٣٥٢ — ٣٥٩ ، ٩٦٣ — ٩٦٩) ، وكان قد انتصر على العباسيين والحمدانيين ثم على الربضيين بجزيرة إقريطش . وقد عمل هذا الإمبراطور على أن يتشبه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين فى الاتجاه نحو الغرب ، لينال ما ناله من شرف الانتصار فى الشرق ، وليشغل الفاطميين خاصة عن التطلع إلى بلاد المشرق ، وأعد أسطولا ضخما وجيشاً يقرب من خمسين ألف جندى مجهزين بأحسن الآلات . وكان الروم يعتقدون أن النصر معقود لهم ، ولا عجب فإن صقلية لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة هذا الجيش البيزنطى .

أما جهود المعز وأنصاره فى صراعهم مع نقفور فوكاس وأنصاره من أهل صقلية ، فتتجلى فى إعداد أحمد بن الحسن الكلبى ، الأسطول الصقلى إعداداً كاملا ، وفى إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانى صقلية الشمالية الشرقية ، وفى ذلك المدد الذى أمد به المعز واليه على هذه الجزيرة . وقد وصل أسطول الفاطميين إلى هذه الجزيرة فى منتصف سنة ٣٥٣ ﻫ (٩٦٤ م) . وقسم الحسن الكلبى وابنه أحمد الجيوش الفاطمية الرئيسة قسمين : قسما بقيادة الحسن بن عمار ، وقد عهد إليه بحصار مدينة رمطة Rametto ، والقسم الأكبر برياسة الحسن الكلبى نفسه ، وقد عسكر فى بلرمو .

وعلى الرغم مما بذله الفاطميون من جهود فى هذه السبيل ، استطاع الروم أن يستولوا على مسينا ، وتبعد عن رمطة بتسعة أميال ، فى شهر شوال من سنة ٣٥٣ ﻫ (٩٦٤ م) ، كما استولوا على ترمينى Termini وغيرها ، وحالوا دون وصول المدد الفاطمى إلى الحسن بن عمار الذى كان يحاصر رمطة .

وكان اهتمام الحملة البيزنطية يتركز حول إنقاذ مدينة رمطة ، والقضاء على جيوش الحسن بن عمار التى كانت على حصارها . لذلك اندفعوا إلى هذه المدينة . وأدرك الحسن خطر اندفاع الروم إلى هذه المدينة ، فاتجه أحمد بن الحسن الكلبى من بلرمو إلى رمطة ، لإنقاذ ابن عمه الحسن بن عمار ، ولكنه لم يستطع أن يسبق الروم إليها ، واشتغل باسترداد ترمينى .

أما الحسن بن عمار فإنه لم يعبأ بكثرة الروم ، وقسم جيشه الصغير أربعة أقسام : جعل

قسما منها على حصار رمطة نفسها ، ليمنع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطى المهاجم ؛ ووضع قسمين آخرين على رأس الواديين الذين يوصلان إلى المدينة ، وكان العدو يستطيع التسلل منهما إليها ، واتجه على رأس البقية الباقية من جنده لمقابلة جيوش مانويل الرئيسة . وقد تمكنت جيوش الحسن المحاصرة لمدينة رمطة من منع أهالى هـذه المدينة من الاتصال بالروم ، وأدرك الحسن ومن معه من الجند أنهم دون العدو عدداً وعدداً ، فاستماتوا فى القتال ، وعقدوا العزم على أن يموتوا كراماً . وهكذا « تقدم الروم إلى القتال ، وهم مدلون[١] بكثرتهم » ، وبما معهم من العدد وغيرها . والتحم القتال ، وعظم الأمر على المسلمين ، وألحقهم العدو بخيامهم ، وأيقن الروم بالظفر ؛ فلما رأى المسلمون ما نزل بهم اختاروا الموت ، وأخذوا يرددون قول الشاعر :

تأخرت أستبقى الحياةَ فلم أجدْ   لنفسى حياةً مثلَ أنْ أتقدما
فلسنا على الأعقاب[٢] تَدْمى كلومُنا   ولـكنْ على أقدامنا تقطُر الدما[٣]

ويظهر أن ثبات المسلمين ، واندفاعهم نحو العدو برغم قلتهم ، كان مفاجأة للروم ؛ الذين أيقنوا أنهم سوف يحيطون بجيوش ابن عمار ؛ ويبيدونها فى زمن قصير ؛ ومن ثم أخذ الهلع يدب إلى نفوسهم .

أما الحسن بن عمار فقد أعمل هو وجنده السيف فى رقاب الروم ، وأحاطوا بقائدهم مانويل ، وعقروا فرسه وقتلوه . وكان ذلك الظفر ضربة قاضية على الروم الذين عز عليهم قتل قائدهم ، فولوا الأدبار ، وحالت الأمطار والعواصف بينهم وبين النجاة ، « وقتل جماعة من البطارقة ، وانهزم الروم ، وتبعهم المسلمون بالقتل ، وامتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى والسبى »[٤] فـكان هذا النصر انتقاما من البيزنطيين الذين عبثوا بجزيرة إقريطش[٥] .

---

(١) أى فخورون

(٢) أى لا نرتد على أعقابنا

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٠٩ . يصف ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٠٠) هذه الهزيمة فى هذه العبارة " انهزم الروم أقبح هزيمة ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة ، فسقطوا فيه من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضا ، حتى امتلأت . وكانت الحرب من بكرة (الصباح) إلى العصر . وبات المسلمون يقاتلونهم فى كل ناحية ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد ، وكان فى جملة الغنيمة سيف هندى عليه مكتوب : هذا سيف هندى وزنه مائة وسبعون مثقالا ، طالما ضرب به بين يدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرءوس .

(٥) Fournel : La Conquête de l'Afrique par les Arabes, pp. 336-7.

وهكذا نال الحسن بن عمار شرف الانتصار على الروم ، وقررت تلك الموقعة مصير رمطة ، بل قررت مصير صقلية نفسها ؛ فقد كانت هذه المدينة مركز المقاومة الرئيس فى وجه الحكم الفاطمى فى الجزيرة ، ومن ثم اندفعت فلول الروم نحو الساحل لاجئين إلى أسطولهم ، تاركين حماة رمطة يلاقون حتفهم . فقد ضيق المسلمون عليهم الحصار ، حتى اضطروا إلى إخراج نسائهم وأطفالهم إلى المسلمين الذين أبقوا عليهم .

واستولى المسلمون على رمطة عنوة ، وغنموا ما فيها . وهكذا سلمت تلك المدينة الحصينة للفاطميين بعد حصار دام ثمانية أشهر . ولو انتصر أهل رمطة وحلفاؤهم الروم ، لتغيير تاريخ الفاطميين فى صقلية .

وما كاد أحمد بن الحسن الكلبى ، ابن عم الحسن بن عمار ، يعلم بهزيمة الروم فى رمطة ، حتى لحق بهم ، وانتصر عليهم فى موقعة تعرف بموقعة « المجاز » ، التى لا تقل خطراً عن موقعة « رمطة »[(١)] .

وكان من أثر انتصار الفاطميين فى هاتين الموقعتين أن أخذت المدن الثائرة فى صقلية تسلم الواحدة تلو الآخر . ولم يقف أثر هاتين الموقعتين عند ذلك الحد ؛ فقد استولى الفزع على أهل قلورية ، فمقدوا الهدنة مع أحمد بن الحسن الكلبى ، وتعهدوا بدفع الجزية للفاطميين .

وكان لهذه الانتصارات المتتالية أثرها فى نفس الحسن بن أحمد الكلبى ؛ فقد سره تدفق الأسرى والغنائم الرومانية ، كما سره قدوم الجيوش الفاطمية المظفرة فى بلرمو ، حاضرة هذه الجزيرة . وقد بلغ من حفاوة الحسن بجند الفاطميين حداً بعيداً حتى إنه لم يلبث أن خر صريعاً ، وذلك فى أواخر سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م)[(٢)] .

هكذا مات الحسن الكلبى بعد أن أسس لأبنائه ملكا قوى الدعائم فى صقلية ، ومد نفوذ المنصور والمعز فى صقلية وقلورية ، وساهم مساهمة فعالة فى هزيمة الروم براً وبحراً ، وهزم أسطول الأمويين فى عقر داره .

وقد تخوف إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من ناحية الفاطميين ، فعمل على تحسين العلاقة بينه وبينهم ، لأن ذلك قد يؤدى إلى بقاء ممتلكاته فى قلورية ، ويحول دون القضاء

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٩

على نفوذ دولته فى إيطاليا . وإذا علمنا أن الإمبراطور جستنيان قد وضع سياسة الاستقرار فى إيطاليا ، وأن أباطرة الدولة البيزنطية كانوا يعتقدون أنهم الورثة الحقيقيون لهذه البلاد ، أدركنا سياسة محاولة هؤلاء الأباطرة التى كانت تهدف إلى طرد المسلمين من صقلية . على أن هؤلاء الأباطرة لما وجدوا أنه لا قبل لهم بطرد جيوش الفاطميين من هـذه الجزيرة ، تجهت سياستهم ، وبخاصة سياسة نقفور فوكاس ، إلى أن يحتفظوا بالبقية الباقية من أملاكهم فى إيطاليا ولا سيما فى قلورية .

على أن هناك خطراً جديداً قد حدا البيزنطيين على محالفة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بعد أن حلت بهم الهزيمة فى موقعتى رمطة والمجاز ، ذلك الخطر هو رغبة الإمبراطور أوتو الأكبر فى توحيد إيطاليا ، والقضاء على النفوذ البيزنطى والفاطمى فيها . فقد كاد أن يقضى على النفوذ البيزنطى هناك بانتصاره على ملك إيطاليا الرومانى فى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) . ونال بذلك إعجاب البابا ، فعينه إمبراطوراً مقدساً .

وقد أخذ أوتو يتطلع إلى ممتلـكات البيزنطيين وخاصـة فى قلورية ، وأصبح يهدد الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية معاً : فعمل نقفور فوكاس ، على الاستعانة بالفاطميين فى دفع الخطر الجرمانى عن ممتلـكاته البعيدة فى إيطاليا .

وصل نيقولا سفير إمبراطور الدولة البيزنطية إلى إفريقية (سـنة ٣٥٧ هـ) فى الوقت الذى كانت جيوش الفاطميين تتأهب لغزو مصر . وقد هاله ما رأى من عظمة المعز ، وما شاهده فى قصره من مظاهر الأبهة ، وعلم أن الروم قد أخطأوا حين أطلقوا عليه « ملك المتبربرين » ، وأيقن أن هذا الخليفة الفاطمى سوف يخلف العباسيين فى إمبراطوريتهم ، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التى وردت على لسان ذلك السـفير الذى بهره ذلك الاستقبال الذى استعد له المعز أحسن استعداد : فقال : « بعثنى إليك الملك[1] ذلك العام ، فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ، ووصلت إلى قصرك ، فرأيت عليه نوراً عظيماً ، غطى بصرى ؛ ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك ، فظننتك خالقاً ، فلو قلت لى إنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلك[2] . »

(١) هو نقفور فوكاس

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٩

وقد أفاد هذا الاتفاق الخليفة المعز ، فلم يعد يخشى خطر غارات الروم على بلاده في المغرب ، في الوقت الذي بعث فيه بجيشه الضخم إلى مصر . ولو لم يكن المعز قد اتفق في ذلك الوقت مع الروم ، لما استطاع أن يعبىء كل قواته البرية والبحرية إلى الشرق ، ولا أن يبعث بذلك العتاد الحربي مع جوهر . وكذا استغل المعز هذا الاتفاق ، وضاعف جهوده في الهجوم على مصر والشام . ثم اتجه إلى تنظيم الحكم في جزيرة صقلية نفسها .

أما عن أثر صقلية في تاريخ العلاقة بين المعز لدين الله الفاطمي ، وعبد الرحمن الناصر الأموي ، فنراها في استعانة المعز بالحسن بن علي الكلبي ، للانتقام من الأمويين الذين عبثوا بإحدى السفن الصقلية الفاطمية . وقد انتصر الحسن بأسطوله الصغير على أسطول الأمويين الضخم في ميناء المرية الأسبانية في سنة ٣٤٤ هـ ، وبرهن على قدرته الحربية ، وإتقانه عنصر المفاجأة . وبهذا نرى أسطول صقلية وولاتها ورجالها يسهمون في القضاء على خطر الروم والأمويين ، وعلى خطر الثوار من أهل الجزيرة الذين ناوءوا الحكم الفاطمي .

تقلد هذه الجزيرة في عهد المعز أربعة من الولاة ، أولهم الحسن بن أحمد الكلبي الذي تقلد ولايتها في عهد المنصور على ما رأينا . فلما ولي المعز الخلافة أقره في ولايته ، ولكنه استدعاه إلى المنصورية ، وأناب عنه في حكم هذه الجزيرة ابنه أحمد بن الحسن . وكان المعز يستعين في حروبه في صقلية بكبار الكلبيين ، مثل عمار الكلبي أخي الحسن ، وابنه الحسن بن عمار بطل موقعة « رمطة » .

وقد أحدث موت الحسن بن أحمد الكلبي في سنة ٣٥٤ هـ اضطراباً كبيراً في هذه الجزيرة ، فيقول بعض إن المعز عمل على إقصاء هذا البيت القوي عن الحكم حتى لا يستبد أفراده بالأمور دونه [١] .

ويظهر أن المعز لجأ إلى إخراج الكلبيين من هذه الجزيرة لأسباب منها : أنه لم يعد بعد تحالفه مع الروم في سنة ٣٥٧ هـ يخشى خطر البيزنطيين ، كما أنه لم يعد بحاجة إلى هذه الأسرة التي تعتمد على عصبيتها في الجزيرة ، لكنه أبقى أحمد بعد موت أبيه من سنة ٣٥٤ إلى سنة ٣٥٨ هـ . ولا يبعد أن يكون المعز قد لمس فيه ميلا إلى الاستبداد بالأمور ، وخشي

Fournel : La Conquête de l'Afrique, p. 338. (١)

أن يستقل بصقلية ، ولا سيما بعد أن خرج جوهر الصقلى إلى مصر ، فعمل على إقصاء الأسرة الكلبية عن صقلية ، حتى لا يكونوا مصدر قلق له .

على أن المعز لدين الله قد برر عمله هذا بأنه يريد أن يصحب رجال هذه الأسرة معه إلى القاهرة ، ليتقلدوا المناصب العالية فيها ، تقديراً لما أسدوه للفاطميين من خدمات . وقد صرح المعز بذلك بعد ثورة صقلية على الوالى الفاطمى الجديد ، وما تهامس به الناس فى المهدية والمنصورية وغيرهما ، ليزيل الأثر السيئ الذى تركته تولية « يعيش » مولى الكلبيين[1] . ولما أدرك المعز استحالة بقاء « يعيش » فى هذه الجزيرة ، ولى الكلبيين عليها ، وأسند إليهم المناصب العالية فى الدولة ؛ فعين أحمد بن الحسن قيادة الأسطول الفاطمى ، وأقره على حكم صقلية ، وأناب عنه أخاه أبا القاسم بن الحسن . كما أبقى المعز محمد ابن الحسن فى قصره بالمنصورية ثم بالقاهرة ، حيث نعم بمركز ممتاز .

ويقول المؤرخون إن محمد بن الحسن كان يتمتع فى عهد المعز بمكانة لا تقل عن مكانة النعمان المغربى ، فقيه الإسماعيلية المشهور .

وقد عاد الهدوء والسكينة إلى صقلية بتولية أبى القاسم بن الحسن الكلبى ، فدخلها فى منتصف سنة ٣٥٩ هـ ، وبقى بها حتى مات سنة ٣٧٢ هـ . فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى . وقد زار ابن حوقل الجغرافى المشهور جزيرة صقلية فى عهد ولاية أبى القاسم وحمل إليه نبأ موت أخيه أحمد بن الحسن فى طرابلس . ومن أهم الأعمال التى قام بها هذا الوالى فى عهد المعز أنه أخذ يرقب أوتو — إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة — ووحد صفوف الجيوش الفاطمية والجيوش البيزنطية أمام الخطر الجرمانى .

غير أن هذه السياسة الحكيمة التى لجأ إليها نقفور فوكاس ، من محاولته الوقوف جنباً إلى جنب مع الفاطميين لصد الخطر الجرمانى ، سرعان ما أصابها الضعف على يد الإمبراطور

---

(١) مما ذكره ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٩ نرى أن يعيش مولى الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى لما ولى هذه الجزيرة " ووقع الشر بين موالى كتامة والقبائل ، فقتل من كتامة كثير ، ومن الموالى جماعة ، وازداد الشر بينهم ، وتمكنت العداوة ، وسعى " يعيش " فى الصلح ، فلم يوافقوه ، وتطاول أهل الشر من كل ناحية ، ونهبوا وأفسدوا ، واستطالوا على أهل المراعى ، واستطالوا على أهل القلاع المستأمنة ؛ فبلغ الخبر إلى المعز ، فعزل يعيش ، واستعمل أبا القاسم بن الحسين بن على بن أبى الحسين نيابة عن أخيه أحمد . فصار إليها ، فلما وصل فرح به الناس ، وزال الشر من بينهم ، واتفقوا على طاعته " ، مما يدل على أن مبعث ثورتهم هو عدم الرضا عن نفى الكلبيين من جزيرة صقلية .

زيمسكس Zimiscés (٣٥٩ — ٣٦٦/٩٦٩ — ٩٧٦) . فقد قبل ما رفضه نقفور فوكاس ، وتحالف مع أوتو الأول ، حتى يستطيع أن يلحق الهزائم بالفاطميين فى الشرق والغرب . ويظهر أن زيمسكس كان يستبعد دوام الصلح بينه و بين الفاطميين ، ولا سيما بعد أن يمموا شطر مصر ، وأغاروا على بلاد الشام التى كان الروم يعدونها « مجالا حيوياً » لإمبراطوريتهم . لذلك حارب زيمسكس الفاطميين فى شمال الشام وفى دمشق نفسها ، وتحالف مع أوتو الجرمانى ؛ ومن ثم أخذ أبو القاسم الكلبى يحصن حدود ولايته الشمالية ويغير على ممتلكات الروم فى قلورية (كالابريا) . ولم تتطور الحرب بين الروم والفاطميين إلا فى عهد العزيز بالله الفاطمى .

بذلك نرى أن المعز لدين الله استطاع أن يستغل موقع صقلية الاستراتيجى ، ويصد جميع الحملات التى كان يوجهها الأمويون والبيزنطيون نحو إفريقية ؛ كما استطاع أن يستغل هذا الموقع لمد نفوذه فى إيطاليا نفسها . وهكذا تم لهذا الخليفة تنظيم القسم الغربى من دولته ؛ ثم بدأ يفكر فى المسير نحو الشرق ، ليتخذ من القاهرة قاعدة لدولته الشاسعة الأرجاء ، ويوجه منها ضرباته إلى العباسيين والروم[١] .

(حـ) صقلية بعد المعز :

وفى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) استطاع الروم أن يطردوا المسلمين من قلورية ، فحاول المعز بن باديس أمير إفريقية من قبل الفاطميين استرداد هذه البلاد ، وأرسل أسطولا يتألف من أربعمائة سفينة ، لكنه غرق بالقرب من سواحل إفريقية[٢] .

ولما ولى أحمد المعروف بالأكحل أمور صقلية جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم فى بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً . ثم صرفهم وأرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك ، فأجابوه إلى ما أراد ، فجمعهم حوله . فكان يحمى أملاكهم ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية . فسار من أهل صقلية جماعة إلى المعز بن باديس وشكوا إليه ما حل بهم وقالوا : نحب أن نكون فى طاعتك و إلا سلمنا البلاد إلى الروم ، وذلك سنة سبع وعشرين وأربعمائة ؛ فسير معهم ولده

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٥٢ وما يليها .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٠

عبد الله فى عسكر ، فدخل المدينة وحصر الأكحل فى الخالصة[1] » .

من ذلك نقف على مدى الانقسام الذى حل بالمسلمين فى هذه الجزيرة ، وكيف سهل ذلك على البيزنطيين التدخل فى شئونها فى عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١ م) الذى أرسل إليها حملتين : الأولى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧ م) ، لكنها لم تلق شيئاً من النجاح ، والثانية فى السنة التالية حيث أرسل القائد الشاب جورج منياكس (George Maniaces) الذى استولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة . ولما عاد هذا القائد إلى القسطنطينية استرد المسلمون كل ما أخذه البيزنطيون سوى سرجوسة ومسينا[2] .

لكن أحوال صقلية لم تلبث أن اضطربت ، وعاد جند المعز بن باديس إلى إفريقية ، واستبد بكثير من النواحى أمراء ثار عليهم أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة وسهلوا لهم الاستيلاء عليها . ولم يغن أسطول المعز بن باديس شيئاً فى احتفاظ الفاطميين بهذه الجزيرة ، وخلفه ابنه تميم بن المعز بن باديس الذى أبطل ذكر الخليفة المستنصر الفاطمى من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ ، ونشر الدعوة للخليفة القائم العباسى . ولم يحل الأسطول الذى أرسله تميم بن المعز بن باديس إلى صقلية دون وقوع الخلاف بين أهالى الجزيرة و بين أمير إفريقية . واتخذ الروم ، الذين كانوا يعملون على الاستيلاء على جميع مدن الجزيرة وثغورها ، من هذا الضعف فرصة ، فضيقوا الخناق على المسلمين وحاصروهم فى كل مكان حتى اضطروا إلى التسليم سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وامتلك رودجر النرمندى جميع أرجاء جزيرة صقلية .

٢ — السيادة الفاطمية فى حوض البحر الأبيض المتوسط :

اهتم الفاطميون بالسيادة على البحر الأبيض المتوسط منذ أن وطئت أقدامهم أرض إفريقية . فقد كانوا يقدرون أثر العامل البحرى فى قصة النضال بين الإسلام والمسيحية ، لذلك عنوا بإنشاء الموانىء البحرية المحصنة : فأسسوا مدينة المهدية ، واتخذوها قاعدة

(١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٤ وما يليها .

(٢) Cambridge Mediaval History, vol. IV. p. 150.

لأسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار ؛ فاستولوا على صقلية ، واتخذوا من موانيها قواعد يغيرون منها على موانى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد استطاع عبيد الله المهدى ، برغم اشتغاله بالتوسع فى بلاده المغرب ومحاولة فتح مصر ، أن يسير فى سنة ٣١٣ هـ أسطولا للإغارة على بلاد الروم[١] ولم تكن أهداف هذه الحملة واضحة ، لأن الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت كانت قد آثرت أن تنحنى أمام العاصفة وتسالم الدول الإسلامية . ففى سنة ٣٠٥ هـ أرادت الإمبراطورة زوى (Zoë) أن توحد قوى الإمبراطورية لقتال سيميون Siméon ملك البلغار ، فعقدت الصلح مع المسلمين بالمشرق والمغرب ، كما توسلت بعاملها على قلورية فى عقد معاهدة مع عبيد الله المهدى ، تعهدت فيها بأن تدفع له جزية سنوية مقدارها ٢٢٫٠٠٠ قطعة من الذهب ، كما أرسلت إلى بغداد رسلا استقبلهم الخليفة العباسى المقتدر استقبالا رائعاً[٢] .

وفى الحق إن الفاطميين والبيزنطيين لم يلتزما احترام هذا الصلح ، ذلك أن رسولى إمبراطورة القسطنطينية قد ألقى القبض عليهما بقلورية وأعيدا إلى بلدهما . كما قبض على مبعوثى البلغاريين ، ولم يجد الخليفة المهدى الفاطمى بداً من أن يعاود نشاطه فى البحر ، فأرسل فى سنتى ٣٠٦ هـ ، ٣١٠ ، ٣١٢ هـ سفنا لمقاتلة البيزنطيين . أما الحملة التى ذكر ابن الأثير[٣] أنها أرسلت فى سنة ٣١٣ هـ ، فقد كانت خاتمة لسلسلة من أوجه هذا النشاط ، فقد أرسل الخليفة الفاطمى أسطولا للإغارة على بلاد الروم بقيادة حاجبه أبى أحمد جعفر بن عبيد .

وقد أقلع هذا الأسطول إلى بلاد أنكبردة (لومبارديا) وأنزلت القوات الفاطمية ، فاستولت على بعض المواقع ، وغنمت غنائم كثيرة ، كما استولت على مدينتى أوزة ووارى Uria[٤] . وقتل فى حصار هذه المدينة ستة آلاف ، وأسر المسلمون عشرة آلاف . كما أرسل المهدى حملة إلى قلورية (Calabria) ، فاستولت على مدينة تارانت Tarente ثم على مدينة أدرنت Otrante ، فأعملوا فيها السيف والنار . ولولا تفشى الوباء بين قوات

---

(١) Fournel, les Berbers, tome IV. p. 150.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) الكامل ج ٨ ص ١١٦ . ابن عذارى ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) Fournel, tome II, p. 153.

المسلمين لواصلوا التقدم . وفى سنة ٣١٥ هـ سير المهدى بقيادة صابن الفتى[١] أسطولا يتألف من ٤٤ سفينة أغارت على سواحل بلاد الروم . كما أرسل فى سنة ٣١٦ هـ حملة أخرى بقيادة صابن أيضاً استولت على ناحية أَلْرِيران والحسب ونهبتها ، ثم سارت إلى مدينة سَلِير ، ولم ينج أهلها من الموت إلا بعد أن قدموا للغزاة كثيراً من التحف والذخائر . ثم سارت القوات الفاطمية إلى مدينة نابُل Neapolis ، فدفع أهلها الجزية .

ولم يقتنع المهدى بالإغارة على قلورية ، فسير بقيادة صابن الصقلبى أسطولا أغار على جنوة واستولى عليها وعاث فى نواحيها ، كما استولى على جزيرة سردانية ، ولم يغادرها إلا بعد أن خرب موانيها وأعمل النار فيها .

وقد سار القائم الفاطمى على سياسة أبيه البحرية ، فأرسل إلى إيطاليا فى سنة ٣٢٣ هـ ، حملة يممت شطر جنوة ، فاستولت عليها ، وعاودت الإغارة على سردانية ، ودمرت أساطيل الفرنجة ، ثم استولت على جزيرة فرسقة . وبذلك استطاع الفاطميون أن يضموا بلاداً ذات قيمة إستراتيجية عظيمة ، وأن يمكنوا لسيادتهم فى حوض البحر الأبيض المتوسط . فلا عجب إذا رجحت كفتهم وارتفع شأنهم فى العالم الإسلامى[٢] .

ويبدو أن انصراف الفاطميين فى عهد المعز إلى الاهتمام بالشرق واتخاذه الأهبة لفتح مصر قد صرفهم عن الاهتمام بأمر الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، فبدءوا من ذلك الحين يتجهون وجهة شرقية ، ولا سيما بعد أن تم لهم فتح مصر ، وأصبحت مقر الخلافة الفاطمية . وقد ورث الزيريون عن الفاطميين عنايتهم بأمر الأسطول والعمل على تثبيت دعائم السيادة الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فاهتم خلفاء بلكين بن زيرى ابن مناد الصنهاجى بالبحرية الإسلامية وعملوا على الإكثار من السفن البحرية حتى سقطت صقلية فى أيدى النرمانديين فى سنة ٤٨٣ هـ ، فكان ذلك نذيراً بانتهاء السيادة الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى[٣] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) Fournal, tome II, pp. 180 - 1

(٣) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ، مخطوط ص ٩٠ .

الباب الرابع

الفتح الفاطمى لمصر

١ — أهمية مصر للدعوة الشيعية

(١) موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب

كانت السنوات الثلاث الأولى من خلافة المهدى عهد نزاع ومشاكل متوالية ، أتيح له فيها القضاء عليها بما أوتيه من نشاط وهمة . وبموت أبى عبد الله الشيعى أصبح المهدى الحاكم المطلق لكافة أرجاء بلاد المغرب .

لم يكتف بشمال إفريقية الخلفاء الفاطميون الذين كانت مجهوداتهم فى سلمية موجهة إلى إقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية ، كما فعل العباسيون مع الأمويين . وإنما كان اختيارهم لتلك البلاد راجعاً — كما أسلفنا — لبعدها عن مركز الخلافة فى بغداد ، ولميل البربر لإذكاء نار الثورة على الأسرة الحاكمة فى بلادهم ، ولضعف هذه الأسرة الحاكمة نفسها .

نعم ! لقد وجه الفاطميون عنايتهم لهذا الجزء من أجزاء الإمبراطورية العباسية ، حين أصبحت الجهود التى بذلوها لإقامة خلافة علوية فى آسيا قاب قوسين أو أدنى من الفشل . ولا غرو فقد كان هذا هو السبب الحقيقى الذى تذرع به المطالبون بالخلافة من العلويين ، الذين كانوا يودعون غياهب السجون أو كان القتل مصيرهم إذا انكشف أمرهم ، مما حدا بهم إلى الاستتار وتفويض إقامة الدعوة لهم إلى دعاة مهمتهم جذبُ الناس لهذه الدعوة ، بل وإخفاء أسمائهم الحقيقية تحت ألفاظ أخرى ، من أمثال المهدى والمكتوم وغيرهما ، ليدرءوا بذلك عن أنفسهم سخط العباسيين وحنقهم .

من هنا نعلم أن بلاد المغرب كانت ميدانا أصلح من آسيا لنجاح الدعوة الفاطمية . بيد أن القيروان أو المهدية لم تكن لتصلح أن تكون حاضرة للامبراطورية الفاطمية ،

لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة فى موضع يسهل معه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانها .

ولهذا لا نعجب إذا رأينا المهدى يضع الخطط لغزو مصر على أثر تأسيس خلافته فى القيروان ، بالرغم من أن سلطان العلويين لم يكن قد توطد فى كافة أرجاء بلاد المغرب قبل سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) — وهى السنة التى استولوا فيها على مصر — ولا غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قد توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض .

عنى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر ، لما لموقعها من عظيم الأهمية سياسياً وحربياً ؛ خصوصاً وأن ولاة هذه البلاد كانت إليهم ولاية الشام والحجاز . فكان امتلاك مصر امتلاكا لهذين البلدين العظيمين ، وتأسيس نفوذ الفاطميين ، السياسى والدينى ، فى ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهى : الفسطاط والمدينة ودمشق .

أجل ! إن تحقيق هذا المطمع الذى قصد إليه أول الخلفاء الفاطميين معناه تمهيد الطريق لتهديد بغداد نفسها ، حاضرة الإمبراطورية العباسية فى ذلك الحين .

هذا ، ونستطيع أن نشير من بين المصادر التى عولنا عليها فى بحث هذا العصر من عصور تاريخ مصر ، إلى ما كتبه الطبرى وأوتيخا وعريب بن سعد ومسكويه .

أما تاريخ الطبرى الذى ينتهى سنة ٣٠٢ هـ ، فإنه يقتصر على الكلام عن الخطوة الأولى التى خطاها المهدى فى سبيل تحقيق هذه الفكرة الجريئة التى كانت ترمى إلى غزو مصر . وأما « صلة تاريخ الطبرى » لعريب بن سعد ، فقد تناولت الكلام على هذه الحملات بشىء من الإسهاب . ويلوح لنا أن مسكويه استطاع أن يحصل على معلومات أوفى من تلك عن هذه الحملات . أما أوتيخا والكندى ، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبرى ، فقد أمدنا كل منهما بمعلومات أكثر تفصيلا وإسهابا عن هذ الموضوع .

فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جمع المهدى جيشاً من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم ، وحباسة بن يوسف[1] ، وهو من زعماء كتامة . ويظهر لنا أن حباسة هذا قد

---

(١) ذكر الطبرى (٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢) أن هذا الجيش كان تحت قيادة حباسة . وخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٥٢) فقال إن أبا القاسم كان على رأس جيش المغاربة الذى دخل الإسكندرية فى سنة ٣٠١ هـ ؛ وهناك ألقى كثيراً من الخطب ، لا يبعد أنه تلمس من ورائها الحصول على معونة المصريين . وقد =

اضطلع بجميع أعباء هذه الحملة. تقدم هذا الجيش نحو الإسكندرية ، فاستولى فى طريقه على برقة ،[١] ثم واصل السير حتى دخل الإسكندرية واستولى عليها ؛ ومن ثم سار إلى الوجه البحرى[٢] . فلما علم المقتدر العباسى بذلك ، بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير قيل إنه بلغ أربعين ألفاً[٣] . وفى مدينة مشتول القريبة من الجيزة التحم الفريقان فى القتال ، فحلت الهزيمة بجيش حباسة[٤] ؛ فأرغم على العودة إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى على أثر رجوعه[٥] .

على أن أهمية هذه الغزوة تنحصر فى أمر تجب ملاحظته ، وهو أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت كثيرون يعطفون على الدعوة الفاطمية . وقد وعدوا بنصرة الفاطميين ؛ يدل على صحة هذا ما ذكره الكندى من أن جماعة من المصريين كاتبوا الفاطميين ودفعوهم إلى غزو مصر . وإلى هـذا يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين لهذه الحوادث فى هذه الأبيات :

وأقبل[٦] جاهلاً حتى تخطَّى ... وجاز بجهله حـدَّ التخطى
بكتب جماعةٍ قد كاتبوه ... مِنَ أقبـاطٍ بمصرَ وغيرِ قبطى
وكلٌّ كاتبـوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له مُوَطِّى[٧]

= قرأ عريب نفسه نص هذه الخطب ، وأحجم ، على ما يقوله لنا ، عن إيداعها تاريخه ، لما فيها من مبالغة تؤدى إلى إفساد العقائد الدينية . أما الكندى (ص ٢٦٩) فلم يرد فى كتابه ذكر البتة عن انضمام أبى القاسم إلى هذه الحملة مطلقاً ؛ ويتكلم عن حباسة بصفته قائد الجيوش الفاطمية . وذكر أوتيخا (ص ١١٠) أن أبا القاسم بعث به الخليفة على رأس المدد الذى لحق بحباسة بعد استيلائه على الإسكندرية والفيوم . ويخالفه فى ذلك ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٥) والمقريزى (اتعاظ ص ٤١) حيث تكلما عن أبى القاسم باعتباره قائد هذه الجيوش بعد مسيرها من برقة .

(١) فى ذى الحجة سنة ٣٠١ هـ ، على ما رواه المقريزى ، اتعاظ الحنفا (ص ٤١) ، والخطط (ج ١ ص ٣٢٧) .

(٢) الكندى (ص ٢٦٨)

(٣) هذا التقدير أتى به مسكويه ج ١ ص ٣٦ . أما أوتيخا (ص ٦٠) فقد ذكر أن هذا الجيش بلغ مائة ألف من الأشداء .

(٤) الكندى (ص ٢٧٠)

(٥) الطبرى (٣ : ٢٢٩٣) . عريب بن سعد (ص ٥٣)

(٦) الضمير يعود على حباسه الذى ذكر اسمه فى البيت الثانى من هذه القصيدة (الكندى ص ٢٧٢) .

(٧) الكندى (ص ٢٧٦)

ولقد حاول ذُكا[١] (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ) والى مصر الجديد ، الذى دخل هذه البلاد فى ١٢ صفر سنة ٣٠٣ ، أن يضع حداً للأعمال التى قام بها الموالون الفاطميين ؛ فتتبع كل من رمى منهم بمراسلة الفاطميين ؛ فسجن منهم كثيرين وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم ، وجلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من غزو الفاطميين بلادهم[٢] .

وفى سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) سار إلى مصر جيش كثيف تحت قيادة أبى القاسم بن المهدى ؛ فاستولى على الإسكندرية[٣] ، ثم سار إلى الجيزة . وفى جمادى الآخرة[٤] من السنة نفسها وقعت موقعة كبيرة بين جند الفاطميين وأهل مصر ؛ وكانت خسائر كل من الفريقين فيها أربعة آلاف[٥] ؛ فأرسل الخليفة مؤنساً إلى مصر ثانية[٦] . فلما وصل كان الفاطميون قد استولوا على الأشمونين والفيوم . ومع هذا فإن الهزيمة قد لحقت بجند الفاطميين كما لحقت بهم فى المرة السابقة[٧] ، وأحرق كثير من مراكب المهدى[٨] ، وقتل وأسر معظم جندها وقوادها[٩] .

وقد دوّن عريب إحدى هذه القصائد التى وجه بها أبو القاسم لأهل مصر ؛ وفيها شاد بذكر بيته والبلاد التى فتحها وأرسلت نسخ من هذه القصيدة إلى الخليفة العباسى

---

(١) ذكر ناشر كتاب الولاة للكندى (ص ٢٧٣) ، حاشية ٢ ، أن هذا الاسم ضبط فى الأصل بالفتح ، وهو فى بعض الكتب بالضم (راجع صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ٥٣) . وقد ذكره ستانلى بنيول فى كتابه " تاريخ مصر فى العصور الوسطى " (Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 80) بالضم ، وأطلق عليه ذكا الرومى ، وزاد أن اسمه بالإغريقية دوكاس (Ducas)

(٢) الكندى (ص ٢٧٤)

(٣) كان ذلك فى صفر سنة ٣٠٧ ، على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٥) .

(٤) ذكر الكندى (ص ٢٧٦) ٤ جمادى الآخرة . ويخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٨٠) حيث يقول إن هذه الموقعة دارت رحاها فى الخامس من هذا الشهر .

(٥) ذكر عريب بن سعد (ص ٧٩) هذا العدد . وقال الكندى (ص ٢٧٧) إن هذه الموقعة وقعت فى الجيزة ، وكان من أثرها أن أرسل مؤنس إلى مصر .

(٦) دخل مؤنس مصر — على ما ذكره الكندى (ص ٢٧٧) — فى ٥ محرم سنة ٣٠٨ هـ .

(٧) الكندى (ص ٢٧٧ و ٢٧٨) وعريب بن سعد (ص ٨٠ — ٨٦) .

(٨) يقول أوتيخا (ص ٨٠) إن عدد المراكب مائة . ويخالفه فى ذلك ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٩) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٧١) والمقريزى (اتعاظ ص ٤٣) فيقولون إن عدد المراكب بلغ ثمانين . ويقول الكندى (ص ٢٧٦) إن هذه الموقعة وقعت فى العشرين من شوال سنة ٣٠٧ هـ .

(٩) عاد أبو القاسم مع القافلة فى صفر سنة ٣٠٩ . عريب بن سعد (ص ٨٦) .

المقتدر ؛ فأمر الصولى[1] الشاعر المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبى القاسم ويدحض قوله ؛ فقام الصولى بما أمر به ، ونظم قصيدة على وزنها ورويها ، وفى أحد أبياتها يقول :

ولو كانت الدنيا مَطية رَاكب[2] لكان لكم منها بما حزتم الذَّنبُ

ويظهر أن غزوة الفاطميين الثانية لمصر (٣٠٧ — ٣٠٩ هـ) قد أوقعت شيئاً غير قليل من الرعب والهلع فى حاضرة الخلافة العباسية ، وفى نفوس الموظفين فى مصر . يتجلى ذلك من الحديث الذى دار بين الوزير ابن الفرات وعلىّ بن عيسى ، وكان يتقلد أعمال الدواوين .

كان تأثير هذه الغزوة فى بغداد والفسطاط كبيراً ، حتى إن الخليفة العباسى لقب مؤنساً « المظفَّر » فى وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم ، إشادة بذكر هذا الانتصار[3].

على أن هذه المجهودات التى قام بها الفاطميون فى سبيل استيلائهم على مصر لم يكن قد حان وقت جنى ثمارها ؛ إذ كان لا بد من تأجيلها طوال عهد المهدى ؛ لأن الخليفة العباسى كان لا يزال من القوّة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ؛ وكان على هؤلاء أن يعملوا للتغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التى كان يثيرها الخوارج حيناً بعد حين .

ويحدثنا الكندى[4] عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، فيقول إن هذه الحملة ظلت

---

(١) من أحفاد إبراهيم الصولى الشاعر المتوفى سنة ٢٤٣ . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ١١ — ١٣)

(٢) نقل عريب بن سعد (ص ٨٣) هذا البيت . أما المقريزى (اتعاظ ص ٤٢) فقد ذكر لنا عند كلامه على غزو مصر على يد الفاطميين فى سنتى ٣٠١ و ٣٠٢ ، أن أبا القاسم نظم قصيدته فى بلاد المغرب ، وأن هذا البيت من قصيدة الصولى حرك همة أبى القاسم وشغفه بفتح هذه البلاد حيث قال : " والله لا أزال حتى أملك صدر هذا الطائر ورأسه إن قدرت ، وإلا أملك دونه " .

أما الدنيا فقد شبهها الصولى — على ما ذكره المقريزى — بطائر ، وبمطية الركوب ، كما جاء فى هذا البيت الذى دوّنه عريب بن سعد . ولا مشاحة فى صحة هذا القول ، لأن الصولى قصد من ذلك أن يقلل من شأن ما فتحه أبو القاسم من البلاد . وهناك تشابه بين ما نقرؤه فى كتاب المقريزى عن هذه المسألة ، وهو الطائر ، وهذه الحكاية التى أثرت عن هارون الرشيد ، الذى وصف بلاد المغرب لجماعة من الرسل جاءوا إليه من هذا الإقليم — وكان أحد الأقاليم التى كانت تابعة للامبراطورية العباسية — كذنب الطائر ؛ فأجاب الخليفة أحد هؤلاء الرسل قائلا : إن أحسن جزء فى الطاووس هو ذنبه . وهذا كله لا يترك مجالا للشك بأن استعمال عريب عبارة " مطية راكب " صحيح لمناسبته لهذه الحالة .

(٣) مسكويه ج ١ ص ٧٦

(٤) ص ٢٨١ — ٢٨٧

زهاء ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وأنه قد حدثت فى سنتى ٣٢١ و ٣٢٢ مناوشات بين جيوش الفاطميين والجيوش المصرية . وفى صفر سنة ٣٢٢ عقدت معاهدة الصلح بين جماعة من المصريين وحبشى بن أحمد قائد جند المغاربة ، وكان معسكراً فى الجيزة[١] .

على أن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ إذ نقرأ فى كتاب الكندى عن نشوب مواقع عدة بين جيوش المغاربة والمصريين فى بعض المدن كالجيزة وبولاق و بلبيس[٢] .

وفى عهد ولاية الإخشيد الثانية[٣] (رمضان سنة ٣٢٣ — جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ — الكندى ص ٢٨٦ — ٢٩٢) ، انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذى دخل الإسكندرية فى ربيع الثانى سنة ٣٢٤[٤] ؛ فبعث إليهم الإخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمة (جمادى الأولى سنة ٣٢٤) ، وأرغمهم على العودة إلى شمال إفريقية[٥] .

هذا ، ولم يقم الفاطميون بمحاولة ما لفتح مصر فى البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ / ٩٣٤ — ٩٤٥) ، وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ / ٩٤٥ — ٩٥٢) ، لأن حالة بلاد المغرب الداخلية قد تطلبت كل جهود هذين الخليفتين ، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية . هذا إلى ما أحدثه الخوارج من ثورات ، كان أجلها خطراً وأشدها بلاء هذه الثورة التى أضرم نارها أبو يزيد .

(ب) صلاحية مصر للدعوة الشيعية

كانت مصر صالحة للدعوة الشيعية من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، مع فقر الشرق

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٤

(٢) شرحه ص ٢٨٤ — ٢٨٥

(٣) اسمه محمد بن طغج . وقد ذكر الكندى (ص ٢٨٨) أن هذا اللقب أطلق عليه فى رمضان سنة ٣٢٧ هـ ؛ والأخشيد هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة . وكانوا يلقبون بالإخشيد كما يلقب ملوك الفرس بالأكاسرة وملوك الروم بالقياصرة . وتفسير طغج — على ما ذكره ابن زولاق — عبد الرحمن .

(٤) الكندى ص ٢٨٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٧

تناول بعض المؤرخين ممن جاءوا بعد الكندى كابن الأثير (ج ٨ ص ٩٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٩) والمقريزى (اتعاظ ص ٤٥) الكلام على الحملة الثالثة بإيجاز ، واتفقوا على أنها وقعت فى سنة ٣٢٢ ، بخلاف ما ذكره الكندى من أنها دامت ثلاث سنين .

واضطراب الأمر فيه ، بتغلب المتغلبين عليه من جهة وإغارة الروم من جهة أخرى . ولا غرو فقد كانت مصر فى ذلك الوقت من القوة بحيث أصبح الأمن مستتباً والهدوء شاملا فى عهد الإخشيد الذى بلغ عدد جيوشه أربعمائة ألف رجل ، عدا حرسه الخاص به . وكانت رواتب هؤلاء جميعاً تدفع بانتظام من الموارد التى هيأتها ثروة هذه البلاد . وإن نظرة واحدة إلى ما بذله خمارويه بن أحمد بن طولون فى جهاز ابنته قطر الندى (أو أسماء) التى تزوجت من الخليفة المعتضد فى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، لتملأ نفس المؤرخ دهشة وعجبا .

فقد كان من جملة صداق قطر الندى وما قدم إليها من هدايا ، سرير من أربع قطع من الذهب ، عليه قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوّم بمال . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب ، وألف حُجْزة [١] ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . أما قيمة بقيه الهدايا فنتركها إلى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره وخياله .

ولسنا نشك فى أن هذا التبذير أفقر خمارويه . فقد أمر ، توفيرا لأسباب الراحة لابنته فى طريقها إلى بغداد ، أن يبنى على رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه ، وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج إليه من فاخر الأثاث وغيره ، لتكون فى سفرها ممتعة بكل وسائل الرفاهة كما لو كانت فى قصر أبيها [٢] .

على أن ثروة مصر وما سادها من طمأنينة وهدوء قد تعرضا للزوال حينا من الدهر ، بعد أن بلغت مصر أوج عظمتها فى الشطر الأخير من أيام كافور . ومما يؤيد تبذير خمارويه الذى أفقره من وراء زواج ابنته ، هذه العبارة التى نقلها عن التَّنُوخى فى كتابه « نشوار المحاضرة » [٣] قال : « ولما حصلت (كذا) قطر النـدى ببغداد ، أضاق خمارويه إضاقة شديدة ، لأنه افتقر بما حمله معها وخرج من جميع نعمته ، حتى طلب شمعة

---

(١) الحجزة معقد الإزار .

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٨) . ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٧) .

ذكر ابن دقماق أن عبد الله بن الجصاص الذى عهد إليه بإعداد الجهاز ، نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس .

(٣) (ص ٢٦٢) Prof. Margoliouth's Translation into English p. 273

فاحتبست عليه ساعة إلى أن احتيلت فقال : لعن الله ابن الجصاص أقرنني في السر » .

وفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ — ٩٤٥ م) انكمشت الدولة العباسية إلى حدود بغداد تقريباً ، وغدت الولايات الإسلامية معرضة لهجمات البيزنطيين ، وتعذّر على بغداد أن تصد الحملة الفاطمية على مصر . ومن الضروري أن نوجز القول فيما جرى في مصر من أمور خلال هذه الفترة القصيرة التي سبقت الفتح الفاطمي ، أي منذ حوالي سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) .

وعلى الرغم من القضاء على هذه المحاولات التي قام بها الفاطميون لغزو مصر في سني ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ — ٣٢١ هـ ، صادفت الدعوة للبيت العلوي نجاحاً عظيماً . فقد كان الفاطميون يدمجون في صفوف جندهم دعاة عهد إليهم أن يختلطوا بالناس ويعلموهم عقائد المذهب الفاطمي[1] ؛ فلم يلبث أن صار في مصر — قبل فتح هذه البلاد على أيدي الفاطميين بزمن طويل — عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويرجو نجاحه .

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب ، بل كان لخلفائهم أيضاً نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة ؛ فقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرسلون كتباً يكتبونها بأيديهم ويذيلونها بإمضاءاتهم .

وقد ذكر ابن سعيد أن أبا القاسم (هو الخليفة القائم ٣٢٢ — ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ — ٩٤٥ م) كتب بيده كتاباً خاصاً بعث به مع رسول من قِبَله إلى محمد الإخشيد ، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل ؛ وإليك هذا الكتاب بنصه :

« قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يَجْرِ لي في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضمّنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتّابي وذوي المكانة عندي . وأرجو أن تردّك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه ؛ فقد شهد الله على ميلي إليك وإيثاري لك ، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي . وليس يتوجّه لك العذر في التخلف عن إجابتي ؛ لأنك قد

(١) ينبغي أن نشير إلى الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون بقولنا " الدعوة الفاطمية " لنميز بذلك بين طائفة الفاطميين وغيرهم من الطوائف الشيعية الأخرى ، لأن هذا التعبير أصح وأدق .

استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك ، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك ؛ لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل الجزاء . وليس ينبغى لك أن تعدل عن مَنهج من نصحك وإيثار من آثرك ، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم . فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فإننى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ، تسكن إليه فى أمرك وتعول عليه بمثل ذلك . وإذا تدبرت هـذا الأمر ، علمت أن الذى يحملنى على التطالى لك وقبول الميسور منك ، إنما هو الرغبة فيك . وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ، والله يريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل »[1] .

على أن هذا الكتاب لم يكن له من تأثير فى نفس الإخشيد الذى دافع رسول الخليفة الفاطمى وسوّف الرد يوما بعد يوم . غير أن أموراً حدثت فبدّلت صلة هذه المودة التى ربطت الإخشيد بالخليفة العباسى ، على أثر ما وصله من الأنباء بمسير ابن رائق[2] إلى مصر بتولية البلاد من الخليفة العباسى نفسه . لهذا ثارت ثائرة الإخشيد ، فأمر بقطع الخطبة لهذه الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمى بدله .

روى ابن سعيد نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر ، حكاية نعلم منها كيف أمر الإخشيد بذكر اسم الخليفة الفاطمى ، وكيف كان ذلك خطوة مهد بها للاعتراف بسلطان الفاطميين ، وقد زاد عدد أتباعهم الذين أخذوا يدعون لهم جهاراً ولا يبالون بذلك . وهاك نص هذه الحكاية :

« دعانى الإخشيد يوما فقال لى : إذا كان يوم الجمعة ، فأتم الدعوة لأبى القاسم صاحب المغرب واسقط الدعوة للراضى حتى يعلم محمد بن طغج ... فقلت : كما يأمر الإخشيد . فغدوت إليه ثانية واستأذنته ، وقلت لعله يرجع . فقال : نعم ! فلم أزل على هذا ثلاثة أيام إلى يوم الخميس ؛ فاتهمت أن يكون أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب — وكان رجلا جزلا جيد الرأى شيعيا — قد حسن له هذا الرأى ؛ لأنه أقام فى اعتقاله سبع سنين ، وكان لما

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٥ و ٢٦) .

(٢) هو محمد بن رائق وكان خزرياً . أنظر صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد (ص ١٢) .

أطلقه اختص به . فجئت إلى ابن عبد الوهاب وخلوت به وحدثته فقال : إن السوداء ربما ثارت به ، أفعاودته ؟ فقلت : قد عاودته أربعة أيام . فقال لى: أنا أخلو به كل جمعة بالغداة ، فارفق به وقل أين أعمل الذى أمرتنى به ، فى جامع أسفل أو فى جامع ابن طولون ؟ وخلنى وإياه . فجئت إليه ورفقت به وقلت : أيها الأمير ! الذى أمرتنى به أين أعمله ، فى الجامع العتيق أم جامع ابن طولون ؟ فقال لى : أنت فى الجامع العتيق وخليفتك فى جامع ابن طولون . فقال له ابن عبد الوهاب : إيش [(١)] هذا الذى فعل ؟ فقال الإخشيد : شيء . فقال ابن عبد الوهاب : الله المستعان ! شيء يعمل على المنبر يكتم ، وبعد ساعة يعلم به الجمهور ؟ فقال له : قد تأذيتُ بالراضى وبهذا الصبى ابن رائق ؛ وقد أمرت الخطيب أن يدعو لأبى القاسم صاحب المغرب . فقال له : وفق الله الإخشيد ! فلقد وضعت الضيعة فى موضعها ؛ ولقد أخبرتُ أنه فى الحزن على أبيه إلى الساعة ، وما جلس فى مرتبته إلا حزيناً كائبا ، ولا جرد سيفاً ، وهو من الشرف والملك على ما سمعت . فالحمد الله الذى جعل رجوع هذا الأمر إلى أهله على يدك وبك . فاستبشر الإخشيد وأسفر وجهه ثم التفت ابن عبد الوهاب إلى الخطيب وقال له : اقرأ الذى عملت . قال : ما عملت شيئاً . فقال ابن عبد الوهاب : تؤمر منذ خمسة أيام بهذا الأمر فلم تعمل فيه شيئاً ؟ فقال الإخشيد: إيش يُعمل ؟ قال يحتاج إلى نحو خمسة آلاف كلاما معمولا فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين ، وأهل البيت عليهم السلام ، ويذكر أنهم أحق بالإمامة ، ويقول ذلك والناس يسمعون ؛ فمن كان يشتهى هذا قويت نفسه ، ومن كرهه انحل . فقال له الإخشيد : اعمله ! فقال لى ابن عبد الوهاب : تلحق اليوم ؟ فقلت : لا ! فقال : الجمعة الأخرى . فقال الإخشيد : الجمعة الأخرى . فانصرفت ؛ فلما كان من الغد دخلت على ابن عبد الوهاب فقال لى : قلت له بعدك إنه رأيى وهواى فيما تعمله . ولكنى أصدقك تكون أنت من أبرك الناس على ابن رائق ، لأنك إذا عملت هذا كاتبه من مصر من يكره هذا ، وكتب بذلك إلى العراق . فإن كان الراضى لم يقلده ، قلده وأنفذ إليه الأموال والعساكر ، وصيرت له شيعة وخاصة ، ولكن دع هذا إلى وقت آخر »[(٢)].

---

(١) بمعنى أى شيء . ولقد نقلنا هذه الحكاية بنصها بالرغم مما فيها من عبارات وألفاظ ركيكة ، وذلك حفظاً لأمانة النقل .

(٢) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٦ — ٢٧) .

على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمى؛ إذ أن الخطيب العباسى الذى تلقى الأمر بتنفيذ هذه السياسة لم يزد هذه المسألة بياناً . بيد أنه ينبغى أن لا يعزب عن أذهاننا أنه ، لو كان اسم الخليفة العباسى لم يذكر فى الخطبة على منابر مصر أيام الإخشيد ، لما ضن علينا المؤرخون بذلك ، على حين أنهم لم يضنوا بموافاتنا بنبأ مسير ابن رائق لتسلم زمام الولاية من الإخشيد ، وظهور العداء بينه وبين الخليفة العباسى .

تولية كافور حكم مصر [1]

فى ذلك العصر الذى استبد فيه الموالى من الأتراك بالسلطة فى بغداد ، وساد الحمدانيون فى الموصل وشمالى بلاد الشام ، فى ذلك العصر الذى انتشر فيه نفوذ الأمويين بالأندلس ، وأسس الفاطميون دولتهم فى بلاد المغرب وصقلية ، والسامانيون فى خراسان ، والإخشيديون فى مصر والشام والحجاز ، انتقلت السلطة فى بغداد إلى بنى بويه فى سنة ٣٣٤ هـ ، ومات الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، وآلت الوصاية على ولده أنوجور [2] إلى كافور [3] ،

(١) اعتمدت فى العبارة التى كتبتها عن تاريخ مصر إلى وفاة الإخشيد ، على ما كتبه الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ . وقد نقل ابن سعيد ما ذكره الكندى وابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ عن الإخشيديين ، وقد شك روفن جست (Rhuvon Guest) ، الذى نشر "كتاب الولاة وكتاب القضاة (E. W. Gibb Memorial, Series XXX, 1912)" ، فى اسم الكاتب الذى ذيل كتاب الكندى . هذا ، وقد نقل ابن زولاق كتاب الكندى الذى ينتهى الجزء الذى تكلم فيه عن ولاة مصر فى سنة ٣٣٤ هـ ، وهى السنة التى مات فيها الإخشيد . والكاتب الذى ذيل كتاب الكندى هو ابن سعيد الذى يقول فى كتاب " المغرب " : " وقد ذيلت هذا الكتاب بسيرة أونوجور وأخيه علىّ وكافور وأحمد بن علىّ بن الأخشيد والقائد جوهر ، إلى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافة الخ " : كتاب المغرب (ص ٥) والكندى (ص ٢٩٣ — ٢٩٨) .

(٢) ومعناه بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٥) .

ذكر ابن خلكان أن خلع الولاية أرسلت لأنوجور فى عهد الراضى الذى مات قبل ذلك بخمس سنوات (أى فى ٧ شعبان سنة ٣٢٩ هـ) .

(٣) أبو المسك (أطلقت هذه الكنية من قبيل التمليح والمشاكلة ؛ لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكثيراً ما يستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسى :

فان أك أسوداً فالمسكُ لونى … وما لسواد جلدى من دواء

ولكن تبعد الفحشاءُ عنى … كبعد الأرض من جوّ السماء

نعم ! الدعابة إنما هى فى إطلاق لفظ كافور عليه ؛ لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون . وكافور كان عبداً خصياً . وكان قبيح الخلقة بديناً ثقيلا ، ورجلاه مشوهتان . وكان مملوكا لأحد أهل مصر ، فاشتراه أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣١٢ هـ ، وكان إذ ذاك من رؤساء الأجناد . ولما آلت ولاية مصر للإخشيد ، ترقى كافور فى بلاطه .

ذلك المملوك الخصى ، الذى قدر له أن يستبد بالسلطة فى مصر وما يليها من البلاد ، زهاء إحدى وعشرين سنة .

وقد قام فى وجه كافور فى مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية : فنجح فى القضاء على ثورة قام بها أهل مصر ، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم[1] . و بعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام ، واستيلاء سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب على دمشق ، وبأنه عول على المسير إلى الرملة لغزو مصر . فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخى محمد بن طغج الإخشيد ، وانتصرا على سيف الدولة انتصاراً حاسماً ، بالقرب من مرج عَذرا ، بجوار دمشق . ودخل الجيش المصرى مدينة حلب ، وعُقدت بين الفريقين معاهدة الصلح ، بنفس الشروط التى عقدت بها فى أواخر أيام الإخشيد ، ما عدا الجزية ، فقد وقف دفعها . وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسى على ولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، كما ضم إلى حكم مصرَ فيما بعد كل بلاد سورية ، حتى مدينتى حلب وطرطوس . بذلك عظم شأن كافور ، وزادت شهرته ، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام ، من غير أن تكون له سلطة تشريعية . وخاطبه علية القوم بالأستاذ ، وذُكر اسمه فى الخطبة ، ودُعى له على المنابر فى مصر والبلاد التابعة لها ، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين[2] .

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه و بين كافور . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية ، وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها ، والكافورية ، وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية فى الدولة . ومع ذلك فقد ظل كافور على ما هو عليه ، يصرف لابن سيده راتباً قدّره المقريزى[3] بأربعمائة ألف دينار فى السنة .

وقد عول أنوجور على المسير إلى الرملة سنة ٣٤٣ هـ ، وربما كان يرمى بذلك إلى إعداد جيش يزحف به على مصر ، للتخلص من كافور بحد السيف . ولكن أم أنوجور سعت

---

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٤ ص ٢ .

(٢) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ .

(٣) الخطط ج ص ٢٧ .

إلى مصالحتهما ، خوفاً على ولدها من بطش كافور ، فتصالحا . وظل أنوجور مسلوب السلطة ، لا يملك من الأمر شيئاً ، حتى مات سنة ٣٤٩ هـ [٩٦٠ م] ، فحملت جثته إلى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه . ويتهم بعضهم كافوراً بأنه سعى إلى موت أنوجور ، فإن كراهته لهذا المغتصب كانت غير خافية . وقد دبر له المكايد والحيل للتخلص منه ؛ ولذا يقال إن كافوراً سقاه السم . على أنه من الصعب أن نقبل هذه التهمة على علاتها ، فقد عرف كافور بالعفة وكرم الخلق . روى ابن سعيد[1] عن ابن زُولاق أن أحمد بن طولون ذُكر في مجلس كافور بأنه أحصى مَن قُتل أو مات في حبسه ، فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ فاستعاذ كافور بالله من هذا الأمر ، ورفع يديه يدعو الله أن يجعل أضعافهم في ديوان إحسانه وصِلاته . على أنه من الجائز أن كافوراً — لما عرف بنيّة أنوجور — رأى أن يعجل بقتله ، حرصاً على حياته ، وإبقاء على مركزه . وإذا أخذنا بهذا الاحتمال ، فمن الجائز أن يكون كافور قد انتحل طيبة القلب سياسة منه ، لاجتذاب قلوب الناس إليه .

ولا شك أن كافورا كان مشغوفا بالإمارة ، ولوعا بالسلطة ؛ فانه لما تولى أبو الحسن على بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور ، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه ، على الرغم من أن الوالى الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره ، بل إنه حرمه كلَّ عمل ، ومنع الناس من الاجتماع به ، فأصبح أبو الحسن أسيراً فى قصره ، لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو ، وعيَّن له كافور — كما عين لأخيه من قبل — أربعمائة ألف دينار فى كل سنة . وبقى أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلة التى مات بها أخوه من قبل .

وكان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبى الحسن على ، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ، وبقيت مصر بغير أمير محواً من شهر . وفى المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسى بتقليده ولاية مصر ، وأظهر الخِلَع التى وصلت إليه من الخليفة ، فنودى به والياً على مصر وما يليها من البلاد ، فلم يغير لقبه « الأستاذ » ، ودُعى له بعد الخليفة على المنابر[2] .

وإن حالة أولاد الإخشيد مع كافور لتشبه فى كثير من الوجوه حالة الخلفاء العباسيين

---

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٤٨

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٤٦ ، ٤٩ .

مع المولى من الأتراك ، وملوك الميروفنجيين Merovingians المتأخرين الذين أصبحوا أشبه شيء بألاعيب في أيدي نظار السراي[(١)] .

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ) . ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود ، توالت فيه المصائب على مصر ؛ فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج (٣٥٥ هـ) ، ووقعت بمصر زلازل مروعة ، وشبت نيران هائلة ، دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط ، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإخميم ، فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهبَ أموالهم .

وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل . ففي أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١—٣٦٠ هـ) ، وبقي حتى أيام الفاطميين . وقد قاست البلاد الأمرّين مما أصابها من القحط والوباء ، واشتد الغلاء ، وندر وجود القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم . وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف ، وأنه كان يُلقى بجثثهم في النيل لكثرتها . وقد تبع انخفاضَ النيل اضطرابُ الأعمال الحكومية ، وانتشار المجاعات والأوبئة . فنُهبت المحاصيل ، وعم السلب والنهب ، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند — وكانوا من الأتراك والروم — فثاروا عليه . ولعل ذلك مما دفع لينپول[(٢)] إلى القول بأن « كافوراً كان بلا شك خادماً موفقاً أكثر منه قائداً ناجحاً » .

وفي عهد كافور حاول المعز لدين الله الفاطمي العودة لغزو مصر ، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية ، ووصل إلى الواحات . فجهز إليه كافور جيشاً أوقف تيار تقدمه وطرده . لكنه تلقى بالقبول الدّعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قِبَل المعز بدعوته إلى طاعته والاعتراف بسيادته ، ووعد كثيرٌ من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي .

---

(١) Thatcher and Schwill : History of Europe., p. 42

(٢) Stanley Lane-Poole ; History of Egypt in the Middle Ages, p. 87

استطاع كافور أن يُبْقِى على النظام الذى ساد مصر منذ عهد الإخشيد . نعم كان كافور خادما موفقاً ، وكانت له شخصية قوية ، فوفّق إلى حد كبير فى استجلاب رضا مولاه الإخشيد ، حتى وصل إلى مركز يحسد عليه . وقد بذل جهده فى الاحتفاظ بهذا المركز ، فتمتعت البلاد بشىء كثير من الرفاهية ، حتى إننا لا نسمع فى ذلك العهد الذى يربو على اثنتين وعشرين سنة ، تذمراً أو سخطا من جانب المصريين مما يدل على أنه كان محبّباً إلى رعيته .

روى أبو المحاسن[1] عن الذهبى : « وكان كافور يُدْنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تُقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء . وكان عظيم الحرمة ، وله حُجّاب ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف . زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد ؛ وكان كثير الخلع والهبات ، خبيراً بالسياسة ، فطناً ذكيا ، جيد العقل داهية . كان يهادى صاحب المغرب ، ويظهر ميله إليه ، وكذا يُذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر » .

ومن هؤلاء الشعراء أبو الطيب المتنبى ، أشهر شعراء عصره ، فقد فارق سيف الدولة الحمدانى مغاضباً ، وقصد مصر ، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح ، طمعاً فى أن يوليه بعض أعمال مصر . فخلع كافور عليه ، وأنزله فى دار ، وعيّن جماعة لخدمته ، وحمل إليه كثيراً من المال ؛ لكنه لم يوله عملا من الأعمال ، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولى رجلا يدعى النبوة ، فانقلب مدح أبى الطيب هجاء ، وأسرف فى ذلك كما أسرف فى مدحه من قبل[2] .

ولكافور شخصية طريفة ، وما أكثر القصص التى تدور حول شخصيته . من ذلك ما يروى من أنه مر بجماعة من السودان ، كانوا يضربون على الطبل المعروف عندهم بالدبدبة ، فطرب كافور ، وحرك أكتافه على نغمات الطبل ، على نحو ما يفعل السودانيون إذا ما أطربهم هذا النوع من الضرب فلما أفاق لنفسه ، وعلم أنه فعل ذلك من غير قصد ،

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٢) شرح ديوان المتنبى لعبد الرحمن البرقوقى ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ج ٢ ص ٥١٤ .

جعل يهزّ أكتافه فى أغلب الأحيان ، دفعاً لما قد تجره هذه الحركة من نقد الناس وسخريتهم به ، حتى لا يعتقدوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذه الدبدبة . وهذه الحكاية — إن صدقت — تدلنا على سرعة خاطره .

وكان كافور عالى الهمة ، عارفاً بأقدار العلماء والوجوه والأشراف . روى أبو جعفر مسلم ابن عبد الله بن طاهر الشريف العلوى ، أنه بينما كان كافور راكباً فى موكبه يوماً إذ سقط سوطه ، فتناوله الشريف إياه[1] ، فقبل كافور يده ، وقال له : « نعيت إلىَّ نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرّف لها » .

وقد ذكر السيوطى فى رواية أخرى أن كافوراً ردّ على الشريف بقوله : « أيها الشريف ! أعوذ بالله من بلوغ الغاية ! ما ظننتُ أن الزمان يبلغنى حتى يفعل بى هذا ! وكاد يبكى . فلما بلغ كافور داره أمر بالبغال والجنائب لترسل إلى الشريف ، فحملت من العطايا ما يربو ثمنها على خمسة عشر ألف دينار »[2] .

ومن الحكايات التى أثرت عن كافور ، أن امرأة وقفت فى طريقه مرة ، وصاحت به : إرحمنى يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً فسقطت ، فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ ، وأمر بقطع يد الرجل ، فشفعت له حتى لا تكون شؤماً عليه ، فأعجب بها كافور ، وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها . فإذا بها عَلَوية ، فشقّ ذلك عليه ، وعزا ما وقع إلى الشيطان ، وإغفاله إياه عن هؤلاء الأشراف ، وأحسن إلى العلوية ، وأدرّ الهبات والأرزاق عليها ، وعلى سائر نساء الأشراف[3] .

ومن هنا يتضح أن عزم كافور على تحويل طاعته من العباسيين إلى الفاطميين كان قد اختمر منذ ذلك الحين . هذا فضلا عن أن حالة مصر الداخلية فى السنين الأخيرة من حكمه قد دلت على أن عهد الإخشيديين قد آذن بالزوال ، مما سهل غزو مصر على أيدى الفاطميين .

---

(١) ذكر السيوطى (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبوجعفر مسلم بن عبيد الله ، من سلالة الحسين بن على ، وأحد الرسل الذين ندبوا لطلب الصلح من جوهر .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٤٧ . وقد وردت هذه الرواية بصورة أخرى فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٤ ص ٣ — ٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨ .

توفى كافور بمصر فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ، (٩٦٨ م) وعاش بضعا وستين سنة . وكانت إمارته على مصر ثلاثا وعشرين سنة ، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور ، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور ، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما ، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به ، وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافـور منفرداً   بالصَّحصَح المَرْتِ بعد العسكر اللَّجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد   كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

مصر بعد وفاة كافور :

فى هذا العهد قاست مصر البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد هذه المحن انخفاض النيل الذى بدأ سنة ٣٥١ هـ ، وما تلاه من قحط ووباء . وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى سنة ٣٦٠ هـ . ويحدثنا المقريزى[١] بما كان متوقعاً ، وهو أن القحط أعقبه الوباء ؛ ففشا الموت بسببه ، حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ، فاضطروا إلى إلقاء جثث موتاهم فى النيل[٢] . وكان من أثر ذلك أن اشتد الغلاء وندر وجود القمح ، وأغار الأشرار على المزارع والحقول ، وعم السلب والنهب .

ومما زاد هـذا البلاء الذى انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ٣٥٢ هـ ونهبوا حجاج مصر فى طريقهم إلى مكة سنة ٣٥٥ هـ ، ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة ، حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى إخميم[٣] وعاد إلى بلاده محملا بالأسلاب والغنائم كما تقدم . يضاف إلى ما تقدم ما كان من عجز كافور عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم ، فثاروا عليه[٤] .

هذه حالة مصر عند وفاة كافور ، وما صارت إليه البلاد من الفوضى والبؤس .

وقد اجتمع رجال البلاط لاختيار وال يحل محل كافور ، على ما جرت به العادة فى هذا العهد . وليس من عجب فى ذلك ، فإن الخليفة العباسى غدا فى عهد بنى بويه أشبه شىء

---

(١) خطط (ج ١ ص ٣٣٠)
(٢) يؤكد لنا ابن خلكان أن ستمائة ألف من المصريين ذهبوا ضحية هذا الوباء .
(٣) مدينة واقعة على الضفة اليمنى للنيل فى مديرية سوهاج .
(٤) المقريزى : خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

بالموبة ، ولم يعد له من أمر تعيين الولاة شيء ؛ وقد وقع الاختيار على أبى الفوارس أحمد حفيد الإخشيد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر (١) .

وقد صادف أن وصل مصر بعد ذلك الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى تركه أخوه محمد الإخشيد فى الشام سنة ٣٢١ هـ ؛ فأقام فيها نحو ثلاثين سنة ، ومرت به أطوار شتى ؛ ففر ابنه من وجه القرامطة ، فتلقاه أمراء الأتراك فى مصر بقبول حسن وولوه قيادة الجيش . لكنه ما لبث أن استبد بالأمر وقبض على الوزير ابن الفرات وصادر أمواله ، ثم عاد إلى الشام (٢) .

و بعد رحيل الحسن بن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، ظلت مصر خمسة أشهر تحت سلطة الإخشيديين الاسمية ، فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب . وكانت إدارة البلاد فى يد الوزير ابن الفرات الذى لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهلين ما أصبحوا فيه من بؤس وشقاء ؛ لهذا لا نعجب إذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين . وكانت هذه الحالة فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمى لغزو مصر . ولم تكن بغداد فى ذلك الوقت قادرة على أن ترسل جيشاً يصد الفاطميين عن هذه البلاد .

عجز بغداد عن إرسال الجيوش :

بينا من قبل ما كان من ضعف الدولة العباسية وانقسام المسلمين إلى شيع وطوائف . والآن نجمل القول عن حالة الخلافة العباسية فى بغداد فى الوقت الذى تم فيه استيلاء الفاطميين على مصر ، لنبين كيف تعذر على السلطة المركزية فى بغداد أن تبعث إلى مصر بجيش يصد الفاطميين عنها ، كما فعلت ذلك مراراً من قبل .

ولا غرو فقد استقل الأمويون بالأندلس ١٣٨ — ٨٩٧ هـ (٧٥٦ — ١٤٩٢ م) على يد عبد الرحمن الأول ١٣٨ — ١٧٢ هـ (٧٥٦ — ٧٨٨ م) ، وتأسست دولة الأدارسة فى مراكش ١٧٢ — ٣١١ هـ (٧٨٨ — ٩٢٣ م) على يد إدريس بن

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٥٧)
انظر حسن إبراهيم حسن : كافور الإخشيد : مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ـ المجلد السادس مايو ١٩٤٢ .
(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٥٥ — ٥٦) .

عبد الله ، ودولة الأغالبة فى تونس ١٨٤ — ٢٩٦ هـ (٨٠٠ — ٩٠٨ م) على يد إبراهيم ابن الأغلب . كذا كانت سيادة الطولونيين ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م) والإخشيديين ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) فى مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتت فى عضد الدولة العباسية بتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها فى الغرب .

١ — الهجوم على بغداد من الشرق :

هذا فى الغرب . أما فى الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت فى بلاد الفرس و بلاد ما وراء النهر دويلات عدة ، يرجع سبب قيامها إلى انتعاش روح القومية التى ظهرت منذ أيام المأمون ١٩٨ — ٢١٨ هـ (٨١٣ — ٨٣٣ م) ؛ فقامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ / ٨٢٠ — ٨٧٢) فى خراسان ، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ / ٨٦٨ — ٩٠٣) التى تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ / ٨٧٤ — ٩٩٩) التى تفرعت منها الدولة الغزنوية (٣٦٦ — ٥٧٩ / ٩٧٦ — ١١٨٣) ؛ لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى .

ولقد تفاقم خطر كثير من هذه الدول ، فقويت شوكة بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ / ٩٤٥ — ١٠٥٥) ، وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . ومما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هذه الدولة التى آل إليها الحكم ، أنه لم يعد للخليفة من الأمر شىء ، سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور .

وقد وصف المؤرخ جبون الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية فى ذلك العصر فقال : « لم تكن حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضاً . فقد نشأت من المذهب الشيعى على مر الزمن مذاهب متعددة ، أهمها المذهب الفاطمى ، والمذهب الدرزى فى لبنان ، والمذهب البابى فى بلاد الفرس ، وقد ظهر فى الأزمنة الحديثة . كذلك ظهرت الاختلافات الدينية فى بغداد ؛ فقام أنصار ابن

حنبـل[1] وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار ، وكسروا أوانى الخمر ، وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين ، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون . ولم يكن من سبيل لقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية ؛ ولـكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من سـلّ الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل فى وجه الآخر ؛ وأصبح فى يد أمير الأمراء[2] حبس الخليفة وخلعه وقتله . فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس ؛ ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء . فكان إنقاذه تحولا عما كان فيـه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه لمعونته وتخليصـه مما هو فيه ؛ فإذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى يدهم »[3] .

٢ — إغارة البيزنطيين على الولايات العباسية :

لم تكن الحالة فى الحدود الشمالية الغربية أقل سوءاً واحتلالا منها فى الجهات التى بيناها . فقد ساد العداء منذ ظهر الإسلام بين المسلمين والإغريق بحكم الجوار . على أنه كثيراً ما كانت كفة المسلمين راجحة إلى أن جاء الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ و ٨٧٠ — ٨٩٢ م) ، فانكمشت الإمبراطورية العباسية فى عهده إلى حدود الجزيرة والعراق ، وفيهما أيضاً قامت الثورات وعم الاضطراب ، مما أدى إلى قيام النزاع بين المسلمين والروم منذ ذلك الوقت ، وإن لم يكن قد أدى إلى نتيجة حاسمة .

كانت حالة الدولة العباسية فى عهد المقتدر مضطربة فى الداخل والخارج : ويرجع السبب

---

(١) ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، ومات بها سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . أنظر ابن خلكان (ح ١ ص ٢٠ — ٢١)

(٢) أول من تلقب بهذا اللقب هارون بن غريب سنة ٣١٦ هـ . مسكويه (ج ١ ص ١٨٨ و ٣٥٠، ٣٥١ ' وقد قلد الخليفة العباسى الراضى محمد بن رائق " الإمارة ورياسة الجيش ؛ وجعله أمير الأمراء وورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك وبأن يكنى " .

أنظر كتاب " تجارب الأمم " لمسكويه (ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، وترجمته إلى العربية الأستاذ مرجوليوث (Prof. Margoliouth) (ج ٤ ص ٣٩٥) بمناسبة كلام مسكويه عن ابن رائق .

(٣) Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire (4th ed.) vol. VI, pp. 54-55

فى ذلك إلى صغر سنه ، وعجزه عن مباشرة أمور الدولة ، وازدياد نفوذ الأتراك ، وتدخل النساء فى الحكم[١].

وقد وصف ميور[٢] الدولة العباسية فى عهد المقتدر فقال : « إن عهد هذا الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض . فقد ضاعت ممتلكاتها فى الخارج : فضاعت إفريقية ، وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا إغاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التى ضعف الدفاع عنها . ومع ذلك بقى شىء من الاعتراف بسلطان الخلافة فى البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولاياتهم . أما فى الأراضى القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخذت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين . وفى بغداد نفسها ، صار الخليفة المقتدر الذى كان آلة فى أيدى رجال البلاط وذوى الأطماع ، تحت رحمة حراسه من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم الذين لا يمتون إلى العباسيين بصلة ، والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين . ولم تعد بغداد المكان الذى يضم رجالا أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحالة إلى ذلك . أما الآن فقد أصبحوا أحزاباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء ، كما فعلوا فى ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص ، وكما حدث أيضاً عندما ثار الحنابلة ورموا الطبرى بالإلحاد وحالوا دون دفنه[٣]. ولم يبق للخليفة الراضى — كما يقول ابن الأثير[٤] — غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق ، ليس للخليفة حكم . وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد ابن رائق ،

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨٣ .

(٢) Muir : The Caliphate, pp. 567—8

(٣) يشير ابن الأثير (ج ٨ ص ٤٥ – ٤٦) إلى ذلك بقوله : دفن الطبرى « ليلا بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الإلحاد ... فليس الأمر كذلك ، وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم . ولذلك سبب هو أن الطبرى جمع كتاباً فيه اختلاف الفقهاء — لم يصنف مثله — ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ؛ فاشتد ذلك على الحنابلة ، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد ، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه — فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها — حسداً وبغضاً إنه لذميم

(٤) ج ٨ ص ١١٢ – ١١٣

وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، والمغرب وإفريقية فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى[1] ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى .

لم تستفد الخلافة العباسية فائدة من هذا النظام الذى أدخله الراضى بإنشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها ، بل ازدادت أحوالها سوءاً . وإن من يستقصى عهد الراضى (٣٢٢—٣٢٩ هـ) والمتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) والمستكفى (٣٣٣— ٣٣٤ هـ) — ذلك العهد الذى انتهى بدخول بنى بويه بغداد ، واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء — فإنه يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تكاد تنقطع بين رجالات الدولة العباسية ، الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولى إمرة الأمراء .

ولقد قويت شوكة الإمبراطورية البيزنطية ، وانتشر الأمن والسلام فى أرجائها منذ اعتلاء باسيل الأول (Basil I) العرش ، فتمكن بكل قوته من مقابلة جيوش بعض الأمراء ، وساعد على انتصار باسيل ما كان من ضعف أعدائه بسبب إغارة خصومهم على مؤخرة جيوشهم .

وفى عهد قسطنطين السابع (Constantine VII.) توطدت صلات السلام بينه وبين ما جاوره من البلاد ، إلا البلاد الإسلامية . فساد هذا السلام بينه وبين أرمينية فى الشرق ، والروسيا وبلغاريا فى الشمال ، والبندقية وألمانيا فى الغرب[2] .

وفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) استولى القائد نقفور فوكاس Nicephorus Phocas على جزيرة كريت . وبعد ذلك بقليل ، انتصر على سيف الدولة الحمدانى . وفى سنة ٣٥١ هـ

---

(١) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموى فى بلاد الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، فأصبح فى العالم الإسلامى وقتئذ ثلاث خلافات . الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، والخلافة الأموية فى الأندلس .

(٢) Vasil'Ev., Cambridge M e æval History, vol. IV. pp. 138, 139

استولى على كثير من مدائن الأناضـول مثل مرعش ودبيق ؛ وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمدانى الشاعر المشهور ، وأخيراً استولى نقفور فى ديسمبر من السنة نفسها على حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق »[١] .

و بعد موت رومانوس (Romanus) رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل فى صـفر سنة ٣٥٢ (مارس ٩٦٣) ، تزوجت أرملته تيوفونيا Theophonia من نقفور فوكاس[٢] ، ثم من قاتله جون زيمسكيس John Tzimisces ، بطلى ذلك العصر ، و إليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وقد امتدت غزوات هذين الإمبراطورين من تلال كپادوكيا Cappadocia إلى صحراء بغـداد . والاثنتا عشرة سنة التى تولى فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية أبهى عصور الإمبراطورية البيزنطية وأزهاها[٣] .

وفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت فى أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس فى سـنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) بعد أن نال منهما القحط والموت ، فلم تقويا بعـد على مواصلة الدفاع : ذلك أنه فى ١٣ يونية سـنة ٩٦٥ م وقعت المصيصة فى أيدى البيزنطيين ، وفى ١٦ أغسطس من السنة نفسها سلمت إليهم مدينة طرسوس[٤] .

وقد عاث نقفور فوكاس فسادا فى البلاد السورية قبل الشروع فى محاصرة أعظم وأشهر مدينتين فى سورية ، وهما أنطاكية وحلب ، حصارا منظما ، حيث سلمت له مدائنهما الواحدة بعد الأخرى[٥] .

أما نتيجة هذه الغزوات فقـد وصفها ڤاسيل إڤ فى هـذه الـكلمات : « لم يبلغ قط إخضاع العرب وإذلالهم فى وقت من الأوقات مثلما بلغه فى عهد نقفور فوكاس . فقد

(١) مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) . يحيى بن سعيد (١١٨)

(٢) ذكر مسكويه (ج ٢ ص ٢٣٩) أن وفاة نقفور كانت فى سنة ٣٥٦ هـ . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٣٧) إنه مات فى المحرم سنة ٣٥٩ . وعدد الذهبى (مسكويه ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ١) انتصارات نقفور فى الشام عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٧ هـ .

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ١٣٩) ، يحيى بن سعيد (ص ١٢٠ و ٢٣٦) ، أبو شجاع (ص١٢ ، ١٣) Vasil' Ev., Cambridge Medieval History, vol. IV, p. 144, Gibbon, vol. VI. p. 58.

(٤) مسكويه (ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١) ، يحيى بن سعيد (ص ١١٨)

(٥) يحيى بن سعيد (ص ١٤٧)

انتزعت من أيديهم كيلكيا[١] من بلاد سورية ، واعترف شطر كبير من بلاد الدولة (العباسية) بالتبعية للإمبراطورية »[٢] .

كان عبور الفرات فى الجهات الواقعة أسفل جبال طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل . ولكن زيميسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن العريقة فى الشهرة ، من أمثال الرُّها وديار بكر وميَّافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديم على مقربة من نهر دجلة[٣] .

ولقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه القالة عن زيميسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع ، حتى إن المطيع العباسى لم يتمالك ، على ما ذكره مسكويه[٤] ، أن أعلن أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه ، وأنه لم يعد قادراً على الدفاع عن بغداد .

على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين ، الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع اللذين تعرضوا لهما فى حربهم فى الصحراء[٥] ، ولم يتمكن العباسيون ، على الرغم مما تكبدوه من المشاق فى حربهم مع البيزنطيين ، إلا من استعادة مدينة كيلكيا وجزيرة قبرس[٦] .

٢ — إعداد المعز الوسائل لفتح مصر :

على أن هذه الحالة التى سادت البلاد الخاضعة لسلطان القاهرة وبغداد قد سهلت — كما بينا من قبل — على الفاطميين القضاء على سلطان العباسيين فى كل من مصر والشام . إذ أنه بتوطيد نفوذهم فى مصر استطاعوا أن يمدوا هذا السلطان إلى الشرق ، أعنى إلى

---

(١) يراد من كيلكليا أو كيلكليا البلاد التى فوق زاوية خليج اسكندرونه ، وهى المعروفة عند العرب بقاليقلا .

(٢) Vasil'Ev. Cambridge Mediæval History, vol. IV, pp. 146-147

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤) يحيى بن سعيد (ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٨ و ١٥٩) أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٨)

(٤) (ج ٢ ص ٣٠٦)

(٥) ابن الأثير (ج ٨ ص ٢١٤)

(٦) يحيى بن سعيد (ص ١٤٣)

الشام والحجاز ، إن لم يكن إلى أبعد منهما ، لأن هذين القطرين كانا فى ذلك الحين خاضعين لحكم الإخشيديين .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ، فقد شرع المعز فى إنشاء الطرق وحفر الآبار ، وإقامة المنازل للاستراحة فى فترات منتظمة ؛ وبدأ فى نفس الوقت يجمع الأموال لينفق منها على حروبه ، ويجزل الأموال على كتامة ليمدوه بجند من أنصارهم مجهزين بما يحتاجون إليه من معدات[1] .

وقد ساعد على فتح مصر ومد سلطان المعز منها إلى المشرق ، ذلك الهدوء الذى انتشر فى أرجاء إفريقية ، على حين ظهر فى مصر الاضطراب وسوء النظام وانتشر فيها القحط والوباء بعد وفاة كافور ، وأصبح بها جماعة من أصحاب المناصب العالية الذين يدينون بمذهب الشيعة ، الأمر الذى لم يَخْفَ على المعز لدين الله .

وقد أورد المقريزى ، ولا ندرى من أى مصدر أخذ ولا من أى تاريخ استقى ، أن المعز كشف عن سياسته فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة ، لا بأس من نقلها هنا ، لأنها بلا شك وثيقة تاريخية تتضمن الخطة السياسية التى اعتزم المعز نهجها من الناحية السياسية والدينية والأدبية قال :

« واستدعى المعز وهو بالمنصورية فى يوم شات بارد الريح ، عدة شيوخ من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم إليه من غير الباب الذى جرى الرسم به . فإذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش بالبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب . وبين يديه مرفع ودواة وكتب حواليه فقال : يا إخواننا ! أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك ، والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم . وإنى لا أفضُلكم فى أحوالكم

(١) ابن أبى دينار (ص ٦٢)

إلا فيما لا بد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم . وإنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق[1] والمغرب ، أجيب عنها بخطى . وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما صان أرواحكم ، وعمر بلادكم ، وأذل أعداءكم ، وقمع أضدادكم . فافعلوا يا شيوخ فى خلوتكم مثل ما أفعله ؛ ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم . وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلىّ كتحننى عليكم ، ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التى تكون لكم ؛ ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم »[2] .

إن هذه السياسة التى جرى عليها المعز لتظهر ظهوراً بيناً من هذه الخطبة البليغة التى عنى فيها عناية خاصة ببعض المسائل . وقد انتهز الخليفة الفاطمى هذه الفرصة ، فأوضح لأشياعه عيشة الزهد والتقشف التى يعيشها ؛ فبين لهم أنه خصص وقته وهمته لبلوغ غاية واحدة ، هى نشر نفوذه الدينى والزمنى فى المشرق . ثم شرح لهم الخليفة الوسائل التى يستطيع بها أن ينفذ سياسته ، حتى يكون لها أثرها ، فتأتى بالغرض المطلوب منها : فصيانة أرواح رعاياه ، وتعمير بلاده ، وإخضاع أعدائهم وإذلالهم (يقصد بذلك قمع الثورات التى قد تذكى نارها الأحزاب المعادية لهم فى شمال إفريقية) — كان هذا كله الخطوات التى لا بد له من أن يدرج فيها لاستتباب النظام ، عسى أن يتمكن بذلك من نشر ألوية السلام والطمأنينة فى كافة ربوع بلاده .

وإذا ما تحققت هذه الغاية ، لم يفت الخليفة الفاطمى معنى المثل المشهور « العدل

---

(١) ذكر أبو المحاسن (طبعة Juynboll ج ٢ ص ٤٤٣) ، نقلا عن ابن عبد الجبار ، أن الشيعيين فى مصر أرسلوا إلى المعز كتباً قالوا فيها "إذا زال الحجر الأسود (هو كافور الذى كان يتولى حكم مصر) ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها " .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٦٠ — ٦١)

أساس الملك » . ولا غرو فقد عرف أن الظلم والاستبداد يثيران كامن السخط و يذكيان روح العصيان ، مما يؤدى إلى القضاء على هذه المجهودات التى يبذلها لاستتباب الأمن والعدل فى بلاده .

ولا يعزب عن أذهاننا أن هذا الخليفة لم يقر أتباعه على التزوج من أكثر من واحدة . « فحسب الرجل الواحد الواحدة » ، عبارة تنطوى تحتها كراهة تعدد الزوجات كراهة تكاد تبلغ التحريم ، مما يؤدى بلا ريب إلى إنهاك أبدانهم و إضعاف عقولهم ؛ و بذلك يكون الخليفة قد أدرك أثره بنفسه . ونحن نستطيع أن نزيد على هذا القول بأن لهذا الأمر أثراً عظيما فى إضعافهم من الناحية الخلقية أيضاً .

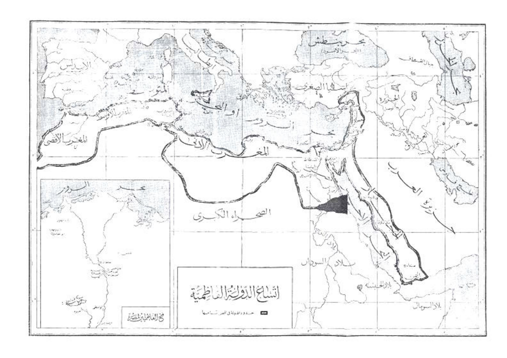
وقد وثق الخليفة من أنهم لو أخلصوا لأوامره ونواهيه ، لسهل عليهم أمر المشرق كما سهل عليهم أمر المغرب من قبل . و إن ما جاء فى آخر هذه الخطبة التى نستطيع أن نعدها وثيقة من الوثائق التاريخية الهامة يمكّننا من أن نوازن — ولو بعض الشىء — بين المعز وعمر بن الخطاب ، من حيث سياسته التى تنطوى على الحزم وسمو الأخلاق والقدرة على تصريف الأمور — هذه الصفات كلها التى سهلت عليه فتح مصر والشام .

وفى الحق ، إن ما جاء فى بيان هـذا الخليفة من أنه كان مشتغلا بما يرد عليه من الرسائل والكتب من المشرق والمغرب ، وأنه كان يجيب عليها بنفسه ، يبين لنا ما كان هنالك من علاقة بين الخلافة الفاطمية و بلاد المشرق حيث انتشرت الدعوة الفاطمية وتمكنت أصولها .

٣ — اختيار مصر مقرا لدعوة الشيعة لوفرة ثروتها وقربها من الأمصار الإسلامية :

لم تكن موارد بلاد المغرب مما يمكن المقارنة بينها و بين موارد مصر ؛ إذ لا شك فى أن مصر كانت تفضلها من حيث ثروتها وموقعها الجغرافى ، و بذلك كانت أكثر صلاحية لتكون مركزاً لسلطان الإمبراطورية الفاطمية . هذا فضلا عن أن مصر أقرب إلى المشرق الذى دأب المعز على إخضاعه كما دأب أسلافه على ذلك من قبل . فكأن نجاحه فى هذا المشروع يؤدى





اتساع الدولة الفاطمية
حدود الدولة في أقصى اتساعها
فتح الفاطميين لمصر
بحر الروم
بحر بنطش
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
المغرب الأدنى
آسيا الصغرى
الروم
الجزيرة
الصحراء الكبرى
بلاد السودان
بلاد الحبشة
بلاد الصومال
جزيرة العرب

إلى استيلائه على المراكز الإسلامية القديمة أو بعضها : وهى المدينة ودمشق ، وعلى بغداد التى قد استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) .

أما السهولة التى لا قاها النفوذ الفاطمى ، وما كان من امتداد هذا النفوذ إلى سورية والحجاز بعد فتح مصر ، فلم قد تحقق بالفعل ؛ على أن الأمل بأن تنحو بغداد منحى دمشق والمدينة أمر لم تحققه الأيام .

نعم ! كان بنو بويه من الشيعيين المتحمسين لمذهب الشيعة كما كان الفاطميون أنفسهم ؛ وكانت مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين من المسائل التى فكر فيها بنو بويه بادئ ذى بدء بعد انتقال السلطان إليهم . ولكن الميول فى اتحاد المذاهب قل أن يكون لها أثر إذا تنازعت مع المصالح السياسية .

وكان معز الدولة كغيره من آل بويه شيعيا متمسكا بمذهب الشيعة ؛ وقد اعتنق هذا المذهب على مبادئ الزيدية التى أدخلها فى بلاده الحسن بن زيد العلوى . وكان من أثر نشر عقائد هذا المذهب أن اعتقد بنو بويه أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من أصحابها وهم العلويون .

بيد أن معز الدولة بن بويه لما فكر فى تنفيذ هذه الفكرة ، أشار عليه أحد أنصاره بالعدول عنها ، كما يتبين ذلك من هذه الكلمات التى جاءت على لسان أحد هؤلاء الأنصار ، ننقلها عن ابن الأثير حيث قال : « فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ؛ ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ؛ فلو أمرهم بقتلك لفعلوه »[1] .

ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصح ، فعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة إلى العلويين . وسنقف من أعمال الفتوح التى قام بها الفاطميون على أنهم جعلوا مصر المركز الذى انتشرت منه دعوتهم فى الشرق والغرب . وسندرك أيضاً أن الفاطميين لم يفكروا فى الاستيلاء على بغداد حتى فى ذلك الوقت التى ذكرت فيه أسماؤهم فى الخطبة على منابر الدولة العباسية .

ويحدثنا المقريزى[2] أن جوهراً لما رحل يريد مصر ، خطب المعز فى المشايخ الذين

---

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٦٢)

(٢) خطط (ج ١ ص ٣٧٨)

انضووا تحت لوائه بهذه الكلمات : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر . ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزل فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

(١) رحيل جوهر إلى مصر — فتح الإسكندرية :

فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ (فبراير سنة ٩٦٩) ، خرج المعز لوداع جوهر وجيشه عند رحيلهم لغزو مصر . وبعد أن قبّل جوهر يد الخليفة وحافر فرسه ، أذن له الخليفة بالمسير . ولما عاد المعز إلى قصره ، بعث إلى جوهر كل ما كان عليه من لباس خارجى عدا خاتمه[١] .

سارت حملة جوهر نحو مصر فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ ، كما سارت بعدها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨ م ، والجيوش الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧ م ، وجيوش ولسلى سنة ١٨٨٢ ، وجيوش روميل فى الحرب العالمية الثانية . وكانت جيوش الفاطميين منظمة تنظيما دقيقاً ، وقد زودها المعز بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن ، حتى لا يتطرق إليها الضعف . ولا غرو فقد أنفق الخليفة الفاطمى على إعداد هذه الجيوش أربعة وعشرين مليون دينار ، عدا ما حمله ألف جمل من الذهب الذى رصد للإنفاق على هذه الحملة .

وتتجلى ضخامة هذه الحملة الفاطمية مما ورد على لسان أحد المصريين ، الذى قال فيها : إنها « مثل جمع عرفات كثرة وعدة »[٢] ، حتى إن جند جوهر كانت تربو على مائة ألف . وقد وصفها ابن هانئ الأندلسى[٣] شاعر المعز خير وصف فقال :

رأيتُ بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفق سُـــد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع[٤]
فلم أدر إذ ودّعت كيف أودّع ... ولم أدر إذ شيعتُ كيف أشيعُ
ألا إن هذا حشــد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٨)
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧١
(٣) ديوان ابن هانىء ص ١٦ وما يليها .
(٤) إشارة إلى كثرة الجند بحيث أظلمت الدنيا بسبب تحركهم نحو الشرق .

إذا حـل فى أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحـل بيوت المـال حيث محله ... وجم العطـــايا والرواق المرفّعُ
وكبّرت الفرســان لله إذ بدا ... وظل الســلاح المنتضى يتقعقــع
وعبّ عُباب الموكب الفخم حوله ... ورقّ كما رق الصـباح الملمعُ
رحلتُ إلى الفسـطاط أول رحلة ... بأيمن فأل بالذى أنت تجمـعُ

لم يكن هذا الجيش بريا وحسب ، بل كان يصحبه بعض القطع الحربية والبحرية . وكانت مدينة الإسكندرية هدف جوهر ، كما كانت هدف نابليون وفريزر ولسلى وروميل . ولكن هناك فرق بين حملة المعز وهذه الحملات الحديثة ؛ فإن جوهراً أتى لينقذ المصريين من ظلم العباسيين وعبث الحكام والولاة ، ويبعد عنهم خطر القرامطة والروم ، على ما ذكره فى منشوره ، وليعمل أيضاً على تكوين دولة مستقلة فى هذه البلاد ، تنافس العباسيين ، وتقف فى وجه مطامع الروم وسواهم[1] .

واستطاع جوهر أن يكبح جماح عساكره الذين أغدقت عليهم الأرزاق ، وكان النظام بين وحدات جيشه يدعو إلى الإعجاب[2] .

ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها ، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر فى الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وأملاكهم ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيد الله — وكان من الأشراف ومن ذوى المكانة عند قومه ، ونسبته إلى الحسين بن علىّ أمر معترف به غير منازع فيه — أن يذهب بنفسه ويفاوض جوهراً فى الصلح . وقد رأوا أن سفيراً من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع الشيعيين أمثاله ، فتجاب مطالب أهل مصر . فأجابهم أبو جعفر إلى ذلك ، وشرط أن يكون معه جماعة من أهالى هذه المدينة[3] .

وتوجّه هذا الوفد فى يوم الإثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٣٥٨ هـ (١٨ يونيه سنة ٩٦٩) ، وتلاقوا مع جوهر فى مدينة تروجة ، وهى قرية على مقربة من الإسكندرية ؛

---

(١) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٨٤ — ٨٥ .
(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)
(٣) الكندى (ص ٥٨٤) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

فأدى الشريف الرسالة عنهم ؛ فأجابه جوهر إلى ما التمسوه وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة ، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة فى النفوس بحماية مصر من المغيرين عليها . وفى السابع من شهر شعبان عاد الوفد ومعه العهد إلى الفسطاط ، فركب الوزير ابن الفرات ولقى الناس وقرأ عليهم العهد ؛ فتناظروا فيه ، واختلفوا على قبوله ورجعوا عن الصلح .

(ب) استيلاء جوهر على الفسطاط — مصر تصبح ولاية فاطمية :

وهنا اضطرب أهل المدينة اضطراباً شديداً ، وعول أنصار الإخشيديين والكافورية وجماعة من العسكر على عدم الإذعان لعهد الصلح وصد جوهر بحد السلاح ، وولوا نحريراً قيادتهم ؛ فسار على رأس جند المصريين إلى الجيزة ، فنزلوا بها وحفظوا الجسور[١] .

وفى الحادى عشر من شعبان وصل جوهر ، وقد علم بما اعتزمه أهل مصر من المقاومة ، وسار إلى منية الصيادين واستولى على المخاضة بمنية شلقان ؛ فلم يجد جماعة من عسكر المصريين بداً من العبور فى القوارب والتسليم لجوهر وطلب الأمان منه ، ووقف غيرهم من العسكر المرابطين فى الجانب الآخر من الفسطاط على المخاضة لحفظها .

فلما رأى جوهر ذلك انتزع ملابسه الخارجية وعبر مع رجاله وهو فى مركب ، وخاض رجاله وأعملوا السيف فى الإخشيدية وأوقعوا بهم ؛ فهربت القلة منهم فى غلس الظلام (١٦ شعبان سنة ٣٥٨ ، أول يوليه سنة ٩٦٩) ، وحملوا من منازلهم كل ما قدروا عليه .

ولم ير النساء بداً من طلب الأمان . فخرج بعضهن مشاة ودخلن على الشريف أبى جعفر ، وطلبن إليه مكاتبة جوهر بإعادة الأمان ؛ فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد . فقبل القائد الفاطمى ملتمسهم ، وأذاع على الجند منشوراً يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال العنف والنهب . فهدأت المدينة وسكن الناس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، وفتحت الأسواق وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه[٢] .

---

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢ و ١٣٣) . ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٣)

ولقد أورد لنا المقريزى شروط الصلح التى عرضها جوهر على المصريين فى بيان واف .
ومع أن جوهراً منح المصريين الحرية التامة فى أمورهم الدينية وإقامة شعائرهم — كل حسب المذهب الذى يدين بعقائده — فإن أغراضه التى كانت ترمى إلى نشر عقائد المذهب الفاطمى قد سُترت مع ذلك وراء ستار من الجهاد السرى الحكيم .

ويجمل بنا أن نورد هنا نص العهد الذى قطعه جوهر على نفسه ؛ لأنه يمدنا بوصف تام لحالة العالم الإسلامى وقت الفتح الفاطمى ، ويرسم لنا صورة واضحة للسياسة التى عول الفاطميون على الأخذ بها من الوجهة السياسية والدينية فى مصر خاصة والشرق عامة . وسنعلم بعد إلى أى حد نجحت سياسة جوهر . والآن نأتى بهذا العهد نقلا عن المقريزى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات لله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ، ومن غيرهم ، أنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى : وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ؛ فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فلتحمدوا لله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العايدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه العساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم[1] ؛ إذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر

(١) قد تكون الإشارة هنا إلى الغارات التى شنتها جيوش الإمبراطورية البيزنطية ، وقد استولت على كيليكيا وقبرس ، وكانوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر . وقد تقدم القول بأن الجيوش البيزنطية استطاعت أن تصل فى غزواتها إلى بلاد الشام تحت قيادة نقفور فوكاس ، الذى وقعت فى يده انطاكية سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) ، وأوقع الهزيمة بعساكر الشام والأساطيل المصرية التى كان قد بعث بها جوهر بعد أن تم له فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ؛ وكان قد عول على إرسالها لمحاربة الخليفة العباسى الذى كان ينظر إليه نظرة الخارج على الدين لاعتناق مذهب السنة ، وكذلك لمقاتلة القرامطة الذين هاجموا الحجاج وسلبوهم أمتعتهم .

من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة ، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصايب وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ؛ فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه ، وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولى عليه الهلل ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل . وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ؛ وإذ لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم وقطع العدوان ، ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة وافتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثهم وأقام أودهم ، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم . وأن أجيركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات

موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لا بإحالة على من يقبض منهم ؛ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا ، من ترسل عنكم أيدم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوهاً التستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ؛ فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم علىّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ؛ فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم علىّ الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه ، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها ، وتخرجون إلىّ وتسلمون علىّ ، وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون

عليها وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به . وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ![١] » .

وإن ما تضمنته هـذه الخطبة التى ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير جوهر إلى مصر ، توضح لنا اشتغال الخليفة بما كان يرد عليه من مكاتبات تأتيه من الشرق . وهى حقيقة يؤيدها الواقع من أن جيوش الفاطميين لم تلاق مقاومة ذات بال من جانب السواد الأعظم من المصريين . فمن الجلى أن جوهراً تقدم فى السير من تروجة إلى الجيزة من غير قتال ولا حرب ؛ بل لم نسمع أيضاً عن أية مقاومة لاقاها جوهر من حامية الإسكندرية التى سلمت إليه بشروط مقبولة لديهم .

أجل ! لقد مهد السبيل أمام جوهر السلطات المصرية برياسة الوزير ابن الفرات ، الذى بعث إلى جوهر بوفد يمثل المصريين جميعاً على اختلاف طوائفهم الدينية ونزعاتهم السياسية . وقد عهد برياسة هذا الوفد إلى أبى جعفر مسلم ، وكان — كما تقدم — ذا مكانة عالية ، ومن سلالة الحسين بن علىّ . وقد دفع الوزير إلى اختياره أنه من العلويين ، مما جعل له شأناً يذكر فى نجاح المفاوضات . ولقد ظهرت الحكمة التى أوحت إلى الوزير باختياره ؛ فسرعان ما تعاقد معهم جوهر على هذه الوثيقة التى نقلناها عن المقريزى .

ويحدثنا ابن خلكان[٢] أن فتح الفاطميين لمصر كان أمراً منتظر الوقوع لدى العساكر المصريين وبعض رجالات مصر من أصحاب المراتب العالية ، وأنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه أن يرسل جيشاً يستولى على الحاضرة .

ولا غرو فإن المقاومة الوحيدة التى تكلم عنها المؤرخون لم يقم بها إلا أشياع الإخشيديين والجند الذين كانوا فى خدمة كافور . على أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا إلا أقلية ضئيلة من العساكر المصريين . وإن اعتزال بعض رجالهم الذين عبروا فى القوارب واستأمنوا لجوهر ، جعل القضاء على مقاومة الجيوش المصرية أسهل وأيسر .

ولم يعارض المصريون فى تحويل طاعتهم من خليفة عباسى إلى خليفة علوى ، لأنهم كانوا يدركون الإدراك كله أن انتقال السلطة من عباسى إلى فاطمى ، أو من سنى إلى

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠ .

(٢) ج ٢ ص ٣٤٨ .

شيعى ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير فى حالتهم السياسية ، لأنهم سيخضعون فى كلتا الحالتين لسلطان هذا الحاكم أو ذاك .

وبذلك زالت مخاوف الأهلين ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً يحمل اسم الخليفة المعز ، وأمنا الناس من جديد ، وأعلنا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مئونة . فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) ، خرج أبو مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة وقابلوا جوهراً وهنئوه بالفتح . ولما غربت الشمس عبر الجنود الفاطميون الجسر ، ثم أقبل جوهر فوضع أساس مدينة القاهرة .

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر ، سر سروراً عظيما ، وأنشد محمد بن هانىء الأندلسى[١] شاعر بلاطه قصيدة جاء فى مطلعها :

تقولُ بنو العباسِ هل فُتحتْ مصرُ   فقلْ لبنى العبـــاس قد قُضِىَ الأمرُ[١]

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر ، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية ، وأصبحت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، ونافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية ، بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وكان لتلك المنافسة أبعد الأثر فى الحضارة الإسلامية »[٢] .

على أن تغيير الحكم قد يصحبه تحسين فى أحوالهم الداخلية . فقد وصلوا تحت حكم العباسيين إلى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء . وقد جمل هذا العهد الذى أعطاه جوهر للمصريين تحقيق هذه الآمال أمراً محتمل الوقوع . ذلك أن تأمينهم على أرواحهم وأموالهم ، وحمايتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن إغارات القرامطة الذين طالما تعدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الإغريق ، الذين وقع فى أيديهم إقليم كيليكيا وكانوا على أهبة المسير إلى الشام — كل ذلك قد أقره الخليفة الفاطمى فى هذا العهد على لسان قائده .

---

(١) ديوان ابن هانىء ص ٨٦ .

(٢) S. Lane-Poole, The Story of Cairo, pp. 119-120.

يضاف إلى ذلك أن المصريين قد رحّبوا بهذه الدعوة التى كانت ترمى إلى إصلاح المساجد وتحسين السكة وإلغاء السخرة ، ومنحهم الحرية التامة — مسلمين كانوا أو ذميين — فى إقامة شعائرهم الدينية ، كل حسب دينه ومذهبه .

وقد قصد من هذه السياسة التى تتجلى من بيان جوهر العمل لصالح مصر ، ودأب جوهر على تنفيذها هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، اللهم إلا إذا استثنينا من ذلك وعده بمنح الحرية التامة فى إقامة شعائر الطوائف الدينية على اختلاف نحلها ومذاهبها ، لأن جوهراً قد أقر فى بيانه ما للعلويين من حقوق حتى إذا تم الفتح أصبحت السيادة للمذهب الشيعى .

الباب الخامس

الخلفاء الفاطميون فى مصر

من المعز إلى الحافظ

٣٦٢ — ٥٤٤/٩٧٣ — ١١٤٩

المعز لدين الله (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ)

١ — رحيل المعز إلى مصر :

رأى جوهر فى ذلك الحين أن الوقت قد حان لحضور المعز بنفسه وتسلم زمام الحكم . ويذكر ابن خلكان[١] أن جوهراً كتب بذلك للمعز غير مرة ، ثم بعث إليه رسولا يحمل إليه خبر خضوع مصر والشام والحجاز[٢] لسلطانه ، وأن الدعوة قد أقيمت له فى كافة أرجاء هذه البلاد . ولما تقررت قواعد ملكه فى مصر ، استخلف المعز بُلُكِّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية[٣] ، « وتوجّه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار ، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله » .

وخرج المعز من المنصورية[٤] دار ملكه يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢) ، ومر فى طريقه على برقة ودخل الإسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢[٥] (٢٩ مايو سنة ٩٧٣) وهو ممتط جواده ، فقدم عليه القاضى أبو الطاهر محمد بن أحمد وأعيان البلاد ، وسلموا عليه .

---

(١) ج ٢ ص ١٣٤

(٢) يعلم مما أورده أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧) أن سلطان الفاطميين لم يستقر فى الشام والحجاز حيث كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى .

(٣) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١١٥) أن ذلك كان يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ (سبتمبر سنة ٩٧٢) . وقد أمر المعز الناس بطاعة بلكين الذى أصبحت له ولاية هذه البلاد ، وجبى باسمه الخراج .

(٤) أطلق إسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين هذا الاسم على مدينة صبرة ، وتتصل بالقيروان . وقد بناها المنصور الفاطمى فى سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية . انظر البكرى ص ٢٥ .

(٥) خالف ابن خلكان فى ذلك ما أجمع عليه المؤرخون ، وهو أن رحيله كان سنة ٣٦٢ هـ .

وجلس الخليفة عند المنارة ذلك اليوم ، وخطبهم خطبة طويلة ؛ فقال إنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج وإعلان الجهاد ضد الكفار ، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم وأطال فى الوعظ حتى استدر دموع بعض الحاضرين ؛ وخلع بعد ذلك على القاضى وبعض من كان فى جماعته ، وحملهم على الخيل المطهمة ، ثم انصرفوا[1] .

ثم غادر المعز الإسكندرية فى أواخر شعبان ، فوصل إلى ساحل مدينة مصر المقابل للجيزة ؛ فخرج إليه القائد جوهر . وترجل عند لقائه وقبّل الأرض بين يديه . وأقام المعز فى الجيزة ثلاثة أيام ؛ ثم أخذت عساكره فى العبور إلى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان ، عبر المعز النيل ودخل القاهرة من غير أن يمر على مصر فى طريقه ، وقد أقام له الأهلون معالم الزينة على جانبى الطريق ، ظناً منهم أنه سيشرفها بزيارته .

ولما وصل إلى القاهرة ودخل القصر الذى بناه له جوهر وصار فى إحدى ردهاته ، خرّ ساجداً لله تعالى ؛ ثم صلى ركعتين ، وانصرف الناس عنه . وقد أطلق على المدينة التى بناها جوهر للمعز اسم القاهرة المعزية ، نسبة إلى الخليفة المعز[2] .

وبعد أن تقبل المعز ما قدم إليه من الهدايا والتحف ، أذن لجماعة المهنئين بالجلوس فى مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين ، وكانوا نحو الألف .

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة ، تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وغدت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء .

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة ، أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) . ذلك أن بُلُكين بن زيرى بن مناد شيخ صنهاجة إحدى قبائل البربر ، سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية فى سنة ٣٦٢ هـ ، وحذا حذوه فى ذلك الحاديون فى سنة ٣٩٨ هـ ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص ظل الحكم الفاطمى عن كل بلاد المغرب ، وذلك فى عهد المستنصر الفاطمى .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٥

وفى يوم الجمعة السابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤ هـ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها . وقد تولى جوهر[١] أمور مصر زهاء أربع سنين وعشرين يوما حتى دخل المعز القاهرة واستقر فى قصره[٢] .

وهكذا ثبتت قواعد الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأصبحت القاهرة ، بدل المنصورية ، مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . وقد نجح الفاطميون فى تأسيس سلطانهم فى القاهرة التى اتخذوها حاضرة لإمبراطوريتهم ؛ فغدت المركز الذى انتشرت منه شعائر المذهب الفاطمى الذى لم يدخر الفاطميون جهداً فى نشره وتأييده .

٢ — استقرار سلطان الفاطميين فى الشام والحجاز :

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل فى أمور الشام السياسية . وكان بعض جهاتها جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية ؛ وكانت تدين لها بالتبعية الاسمية على الأقل . وقد استقل بولاية حلب أمراء من الشيعة ، كما استقل الحسن بن طغج الإخشيد (الذى عاد إلى الشام بعد أن صادر الوزير ابن الفرات) بولاية الرملة .

ويرجع فتح بلاد الشام إلى عوامل نذكر منها :

أولا : لا يبعد أن يكون الفاطميون قد خشوا انتقام العباسيين بسبب فتحهم أخصب وأغنى بلادهم ، وهى مصر . ولهذا عمل جوهر على أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر ، وبذلك يكون قد سبق محمد على ، الذى كان يرى أن خط الدفاع عن مصر يجب أن يكون فى سورية ، لا فى مصر نفسها . ولو أدركنا أن العباسيين والبويهيين كانوا قد تألموا أشد الألم لزوال نفوذهم فى مصر ، حتى ساعدوا القرامطة ، وتآمروا معهم على طرد الفاطميين — لو أدركنا ذلك رأينا بعد نظر جوهر فى الناحيتين الحربية والسياسية . هذا إلى أن الدولة الفاطمية تستطيع بأسطولها الضخم أن تتحكم فى معظم البلاد الإفريقية والشامية التى تشرف على البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) كان جوهر محسناً إلى الناس إلى أن توفى يوم الخميس العشرين من ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ (يناير سنة ٩٩٦ م) ولم يبق شاعر إلا رثاه وذكر مآثره .

ثانياً : ولا يبعد كذلك أن يكون استيلاء الفاطميين على بلاد الشام خطة دبرها هؤلاء للقضاء على القرامطة الذين بدءوا يناوئون سادتهم الفاطميين ؛ فقد أدرك المعز زوال نفوذه عليهم ، وازدياد نفوذ منافسيه من أبناء أبى سعيد الجنابى ، وحزّ فى نفسه احتلال القرامطة دمشق فى سنة ٣٥٧ هـ ، بعد أن كان القرامطة لا يحاربون إلا بوحى من الفاطميين . فكأن فتح جوهر بلاد الشام لون من التحدى للقرامطة . ولو علمنا أن جوهرا الصقلى كان يشيد بالمعز لدين الله ، ويغض من شأن من يقف فى وجه الحُجاج فى أثناء تأديتهم فريضة الحج ، أدركنا أن ذلك الفتح إنما كان مبعثه رغبة الفاطميين فى أن يحققوا للمصريين خاصة ، وللمسلمين عامة ، ما جهروا به من محاولة القضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة .

ثالثاً : ويظهر أن المعز أدرك رغبة الروم فى أن يرثوا الدولة العباسية التى دب إليها الوهن ، فقد عبروا الفرات ، واستولوا على بعض مدن الشام كما رأينا ، فعمل المعز على فتح هذه البلاد لتحول دون تقدم الروم جنوبا ، وهم (أى الفاطميون) إذ يقومون بذلك إنما يثيرون عاطفة عامة المسلمين ، إذ ليس هناك شىء أنبل من إعلان الجهاد على الروم . فكأن المعز وجوهرا أرادا أن يحققا من وراء فتح بلاد الشام غرضين ، أما أولهما فهو جذب قلوب المسلمين ، وخاصة المصريين إليه .

ويؤيد هذا القول ، الحديث الذى دار بين جوهر الصقلى وأبى الطاهر قاضى مصر ، يبرر فيه قتاله جند الإخشيديين والكافوريين ، واعتماده فى ذلك التبرير على رغبة الفاطميين فى قتال الروم ، ووقوف هؤلاء الجنود فى طريق تحقيق هذا الغرض ، كما يدل على ذلك أيضا ما أورده جوهر فى عهده للمصريين ، من أنه إنما أتى لتخليصهم من الروم .

وأما الغرض الثانى فيرجع إلى رغبة الفاطميين فى الوقوف فى وجه الروم ، حتى لا تعود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمالى إفريقية إلى حوزتهم ، كما كان ذلك من قبل . ولا نغلو إذا قلنا إن الروم الذين اتحدوا مع الأمويين فى الأندلس ، وأخفقوا فى هجومهم على بلاد المغرب فى عهد المعز (سنة ٣٤٤ هـ) ، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام ، واتخاذها جسرا يعبرون منه إلى المغرب . وهذا العمل من جانب المعز يدل

على بعد نظره فى السياسة ، لأنه يجعله يحرص على نفوذه فى بلاد المغرب ومصر ، ويحول دون تقدم الروم فى بلاد الشام ؛ وبذلك أمّن المعز حدود مصر من ناحية الشمال . وقد سار على هذا النهج الطولونيون والإخشيديون من قبل ، ثم صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس ومحمد على فيما بعـد ، حين عول كل من هؤلاء على فتح بلاد الشام ، ليؤمن حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى .

رابعاً : كانت بلاد الشام تابعة للدولة الإخشيدية ، ولما آلت مصر إلى الفاطميين ، كان من الطبيعى أن يوحّدوا بينها وبين البلاد التابعة لها ، وخصوصاً أن من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزاً يوجه منه حملاته إلى بلاد العراق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من الواجب أن يظل نفوذ مصر قويا فى بلاد الشام كما كان فى أيام الإخشيديين والطولونيين من قبل .

بعث جوهر إلى الحسن جيشاً تحت إمرة أحد قواده وهو جعفر بن فَلَاح[1] ؛ فشن الغارة على بلاده وأوقع به فى (ذو القعدة سنة ٣٥٨ سبتمبر سنة ٩٦٩)[2] . وقد واصل جعفر مسيره إلى طبرية حيث علم أن الدعوة قد أقيمت للخليفة الفاطمى ، ثم استأنف السير إلى دمشق ، ودخلها فى المحرم سنة ٣٥٩ بعد أن لاقى من الأهلين قليلا من المقاومة . وفى يوم الجمعة التالى حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة ، وأقيمت للخليفة الفاطمى[3] .

على أن استيلاء الفاطميين على دمشق قد أوقعهم فى نزاع مع القرامطة ؛ وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطة ردحاً من الزمن ؛ فغدت هـذه الجزية لا تدفع إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة . وقد سار جعفر إلى الدَّكَّة[4] ، الواقعة على نهر يزيد بالقرب من دمشق ، لملاقاة الحسن القرمطى الملقب بالأعصم ، وكان قد خف للزحف وشن الغارة عليه . ولما دارت رحى الحرب ، أسر جعفر وقتل ، ووقع كثيرون

(١) كان جعفر بن فلاح من قبيلة كتامة من البربر ، ومن قواد المعز ، وقد بعث به فيمن أرسلهم مع جوهر لغزو مصر .

(٢) أسر الحسن وسيق إلى الفسطاط ، ثم حبس فى شمال إفريقية حيث مات بها سنة ٣٧١ هـ .

(٣) ذكر أبو الفدا ج ٢ ص ١١٥ أن أهالى دمشق ثاروا على الخلافة الفاطمية وقطعوا الخطبة للمعز ، وسرعان ما قضى جعفر بن فلاح على الثائرين وأعاد سلطان الفاطميين .

(٤) راجع هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

من أتباعه صرعى فى حومة القتال (الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠ وسبتمبر سنة ٩٧١ م)[١] .

وقد أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد استيلائه على دمشق ؛ فمر بالرملة وانقض على مصر ، وهاجم القلزم (السويس) والفرما على غرة ، وتحكم بذلك على برزخ السويس ، فاعترفت مدينة تنيس بسلطانه . ومن ثم تقدم فى داخل البلاد ، وعسكر برجاله فى عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة .

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن إلى برزخ السويس ، شرع فى إعداد وسائل الدفاع ، وبعث رجالا من عنده إلى معسكر القرامطة ، فاندسوا بينهم وتظاهروا بالسخط على الفاطميين ؛ وما زالوا بهم حتى أوقعوا الفساد بينهم . وبعد قليل حاول الحسن الاستيلاء على الخندق عنوة ؛ ولكنه ارتد على أعقابه وقد تكبد خسائر فادحة ، بفضل ما أظهره المتطوعون من المصريين الذين انضووا تحت لواء جوهر وحاربوا فى صفوفه من بلاء لم يكن يتوقع منهم ؛ وأسر من عساكر الإخشيديين خلق كثير ، وكانوا قد انضموا إلى الحسن وقاتلوا فى صفوفه . وبذلك أرغم القرامطة على الرجوع إلى القلزم ، تاركين المصريين ينهبون أمتعتهم[٢] .

وكانت أخبار القرامطة وما كان من حروبهم فى مصر قد اتصلت بمسامع الخليفة الفاطمى . ولما وقعت الهزيمة بالحسن القرمطى ، وصلت الأمداد من القيروان تحت إمرة ابن عمار ؛ فتقوى بذلك جوهر وزحف إلى تنيس ، وعفا عن أهلها لانضمامهم إلى العدو .

وسرعان ما ارتد أسطول القرامطة من النيل ، تاركا وراءه سبعة مراكب حربية وخمسمائة أسير . وبهذا كله استطاع جوهر أن يقضى على هذه الحروب التى شنها القرامطة على مصر ، وما لبث أن اقتفى آثارهم وخلص يافا من أيديهم ؛ أما الحسن فإنه عاد إلى دمشق وأخذ فى التأهب للقتال من جديد .

---

(١) بعد موت جعفر وجدت هذه الأبيات مكتوبة على باب قصره .

يا منزلا عبث الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة ؟ ... كان الزمان بهم يضر وينفع

ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٢) أبو الفداء ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨

ويحدثنا أبو الفدا[١] أن قَرْعوية ، الذى آلت إليه ولاية حمص وحلب بعد موت مولاه سيف الدولة الحمدانى ، أقام الخطبة للمعز ؛ وأقيمت الدعوة فى المدينة للمطيع العباسى ، وفى مكة للمعز . ويقول المقريزى[٢] إن الحسن بن جعفر الحسنى أقام الدعوة للمعز على أثر فتح مصر على يد جوهر ، فبعث جوهر بالخبر للمعز ، فقلده ولاية مكة وخلع عليه . ويقول ابن الأثير[٣] إن الدعوة كانت تقام فى مكة سنة ٣٦٠ هـ للخليفة العباسى ، وفى المدينة للمعز الفاطمى . هذا ، ولم تقم الدعوة للخلفاء الفاطميين إلا فى عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ « حيث خطب العزيز بمكة والمدينة ، ولم يخطب للطائع » .

قضى المعز القسم الأكبر من خلافته فى بلاد المغرب ، ولم يبق فى مصر أكثر من سنتين إلا قليلا . وفى عهده تأسست مدينة القاهرة ، وبُنى الجامع الأزهر ، وامتدت فتوح الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين ، وإن كان نفوذهم لم يستقر نهائيا إلا فى عهد ابنه العزيز ، وخطب له على منابر الحجاز . وكان المعز ، كغيره من الخلفاء الفاطميين ، مغرما بعلم النجوم ، حتى كان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى أمور الدولة العامة ، كما اعتمد قائده جوهر الصقلى على المنجمين فى تأسيس مدينة القاهرة ، التى قيل إن أساسها شق على طلوع كوكب القاهر الذى اختاره المنجمون لوضع الأساس . وقد ظهر فى عهد المعز طائفة من الشعراء الذين مدحوا الفاطميين ، وإن كان الغلو قد ذاع فى شعرهم . ومن هؤلاء ابن هانئ الأندلسى الذى نظم فى مدح المعز وأسرته قصائد طويلة مدح فيها هذا الخليفة وأشاد بأحقية الفاطميين بالخلافة ، ومهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . ولكنه مات فى شهر رجب سنة ٣٦٢ هـ (٣٠ إبريل سنة ٩٧٣ م) وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، فأسف عليه الخليفة المعز أسفاً شديداً . وكان الخليفة المعز أول من فخم الاحتفال بصلاة الجمعة ، والاحتفال بالأعياد والمواسم وركوب الخليفة فى المواكب الملكية أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع ، وفى شهر رمضان ، ويومى عيد الفطر والأضحى ، وإقامة الأسمطة ، وتوزيع الإنعامات فى المناسبات الدينية والسياسية .

---

(١) ج ٢ ص ١١٧

(٢) خطط ج ١ ص ٣٥٣

(٣) ج ٨ ص ٢٢٠ .

وكان المعز — كما وصفه ابن خلكان[1] — عاقلا ، حازما ، سريا ، أديبا ، حسن النظر فى النجابة . ومن شعره قوله :

أطلعَ الحسنُ من جبينك شمساً فوقَ وَردٍ فى وجنتيك أظلاَّ
وكأنَّ الجمالَ خاف على الورْ د جَفافاً فمدَّ بالشعر ظِلاَّ

وقد توفى المعز فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة .

العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

١ — حياة العزيز :

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله عهد يسر ورخاء وتسامح دينى وثقافة . وهو مشهور فى تاريخ مصر الإسلامية ، لأنه أول من حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن ، بعد أن كان معهداً خاصا بدراسة الفقه الشيعى وإقامة الصلاة .

وُلد العزيز سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهدية التى بناها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، وقدِم إلى القاهرة مع أبيه المعز سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة ، فخلفه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

وكان العزيز رجلا ممتعاً ، يميل إلى الأبهة ، كما كان خبيراً بالجواهر : ابتدع نوعاً جديداً من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده . وشغف كخمارويه بن أحمد بن طولون — بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما بالصيد ، وخاصة صيد السباع[2] . وكان العزيز ذكيا أديباً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كأبيه المعز . وروى الثعالبى[3] أنه قال فى يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للعزاء :

نحن بنو المصطفى ذوو إحَنٍ جُرِّعَها فى الحياة كاظمنا

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤

عجيبـــةٌ فى الأنام محنتنا أوَّلُنا مبتَــلى وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طُرًّا وأفراحُنـــا مآتمنا

وقد ترامت رقعة الإمبراطورية الفاطمية فى عهـد العزيز بالله الفاطمى من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسى غرباً ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً . وفى أيامه تفاقم خطر القرامطة وأفتكين فى الشام ، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز .

٢ — خطر أفتكين والقرامطة :

لما ولى العزيز الخلافة ، كتب إلى أفتكين يستميله إليه ويعده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . وكان أفتكين من الأتراك الذين خرجوا على الدولة العباسية ، واستقل بدمشق فى الوقت الذى وقعت فيه الرملة فى أيدى القرامطة . وقد رد أفتكين على الخليفة العزيز رداً جافاً جاء فيه : « هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً[١] » .

وقد استاء العزيز من ذلك الكتاب ، وحنق على أفتكين ، واستشار وزيره يعقوب ابن كلس فى الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة . ووجد العزيز فى جوهر الرجل الذى يعتمد عليه ويركن إليه فى استقرار الأمور فى بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمى بها ، كما اعتمد عليه المعز فى فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة . فلما علم القرامطة بذلك ، وكانوا فى الرملة ، فروا إلى الأحساء ، فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استثار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التى نقلها عن ابن القلانسى[٢] : « قد علمتم أننى لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم ، وقد طلبنى من هذا السلطان ما لا طاقة لى به ، وأنا منصرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، وأستمد

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ — ١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦

ما أحتاج إليه منه لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ، ما يثقل به الوطأة عليكم ، وتصله به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أفلح فى سياسته ، فقد جدد أهل الشام ثقتهم به . يدل على ذلك ما جاء فى ردهم على خطبته من تلك العبارة « أما اخترناك لسياستنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو نألوك جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ ونفوسنا دونك وبين يديك فى المدافعة عنك » .

وكان جوهر يحمل الأمان من مولاه العزيز لأفتكين ، كما كان يحمل خاتماً ودستاً من ثيابه ، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتكين فى لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له الخليفة العزيز من الأمان وما أعده له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمن إلى نصابه . فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء فى كتابه . ثم سار أفتكين من عكاء إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر ، وجمع الأقوات من بلاد حوران والبثينة ، ثم دخل دمشق وتحصن فيها .

ترك جوهر دمشق فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ ، فبنى سوراً يضم عسكره ، وحفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفتكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتكين فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ برغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطى يطلب منه المسير إليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتكين وسار إلى دمشق . ولا شك أن جوهراً لم ينس مصير جعفر فى حربه مع القرامطة فى سنة ٣٦٠ هـ ؛ فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن موارده قد نضبت وأن المئونة قد أعوزته ، وأن معظم جنده قد هلك . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم فى الحروب ، حتى إن مجرد نبأ مسيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر ومبادرته إلى طلب الصلح .

أجاب أفتكين جوهراً إلى طلبه ، فرحل هذا عن دمشق فى ٣ جمادى الأولى

سنة ٣٦٦ هـ ، وجدّ فى السير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ، سار إليه بعد أن رحل جوهر عنها إلى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ، ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب ؛ ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتكين لقتال جوهر ، وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ؛ وكان المورد الوحيد للماء فى هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن أفتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التى كان يجمعها فى الصهاريج ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء فى هذا المكان ، وأنه لا قِبَل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال ؛ فأذن له العزيز بذلك . وقد وصل جوهر إليها فى آخر الليل فتبعه أفتكين والحسن القرمطى ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المؤن وعزت الأقوات ، فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن إلى جوهر فى البحر . واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزى[1] .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهر وبُعد نظره الفضل فى الخلاص من هذا المأزق الحرج ، فى الوقت الذى كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتكين والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين ، والذى كان يهدف إلى القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام وانتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل باللين والدهاء ما عجز عن بلوغه عن طريق القتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبعث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع ، رأينا جوهراً يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم ، فأتى أفتكين من ناحية الدين ، وطلب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، على حين كان يعمل

---

(١) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .

فى الوقت نفسه ، على التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطى ، حتى إذا ما نجح بعض النجاح فى فصم عرى التحالف بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما جميعاً .

وقد ذكر ابن القلانسى[1] أن جوهراً قال لأفتكين حين اجتمع به : « قد علمتَ ما يجمعنى وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقت فيها الدماء ، ونحن المؤاخذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية ، فأبيت إلا القبول ممن يَشبّ نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة ، فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلّب رأيك على هوى غيرك » ؛ فأجابه أفتكين : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك ، لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه » ؛ فرد جوهر عليه : « إذا كان الرأى والأمر على ذلك ، فإنى أصدقك على أمرى ، تعويلاً على الأمانة وما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر وأريد أن تمنّ علىّ بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتذم (هكذا) لى لأمضى وأعود إلى صاحبى شاكراً . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت علىّ وعلى صاحبى مِنَّةً تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » . فقال أفتكين : « افعل ! وأمنّ على أن أعلق سيفى ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها » . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ خَتْم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . وافترق القائدان ، فعاد أفتكين إلى عسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطى يعلمه بما كان بينه وبين جوهر ، فذهب الحسن إليه وقال له : « لقد أخطأت بما فعلته وبذلته ، وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ؛ وقد استذلك بما عقده معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فيأخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً ، ونأخذهم بالسيف » . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهراً عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما أستجيز الغدر به » . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتهما[2] .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .

(٢) ابن القلانسى ص ١٧ — ١٨ .

ولا شك أن جوهراً لم يكن يجهل المثل المأثور « الغاية تبرر الواسطة » ، فقد رضى أن يمرّ هو وجنـده تحت سيف أفتـكين ورمح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل كان ينطوى على المذلة والمهانة إليه و إلى الفاطميين . بيد أن جوهراً كان يزن عواقب الأمور و يعرف كيف يتلافى الخطر قبـل وقوعه ؛ ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً .

على أن جوهراً إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتيحت له الفرصة ضرب أفتـكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى يغفـل عن هذه الحقيقة حين أخبره أفتكين بما تم بينه و بين جوهر ، تلك الحقيقة التى نتبينها من قول القرمطى : « وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استهلك بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، و يحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال فى بلاد الشام ، واستفحال أمر أفتـكين ومن معه ، فقال له : « ما الرأى ؟ » قال أفتـكين : « إن كنت تريدهم ، فاخرج بنفسك إليهم و إلا فإنهم واردون على أثرى » . فأمر العزيز بإعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر ، وعلى مقدمته جوهر :

ولمـا علم أفتكين والحسن القرمطى بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحمى وطيس القتال[1] ، « وجال أفتكين بين الصفين يكر و يحمل و يطعن و يضرب » . فقال العزيز لجوهر : « أرنى أفتكين » ، فأشار إليه « وهو يطعن تارة بالرمح و يضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه و يتّقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته ، ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلا من عنده ، فقال له : قل « يا أفتكين ! أنا العزيز وقد أزعجتنى عن سرير ملـكى ، وأخرجتنى لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مسامحك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ، فاترك ما أنت عليه ولك بالعفو منى . فلك عهد الله وميثاقه ، أنى أؤمنك وأصطنعك وأنوه باسمك ... وأهب لك الشام وأتركه فى يدك[2] .

مضى الرسول إلى أفتكين و بلغه رسالة العزيز ، فخرج أفتكين بحيث يراه الناس ،

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) ابن القلانسى ص ١٨ .

وترجل ، وقبّل الأرض مراراً ومرّغ خديه عليها معفراً وقال : « قل لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك لسارعت إليه ، وأطعت أمرك ؛ فأما الآن فليس ما ترى » . وعاد الرسول ونقل إلى العزيز ما سمع ، فقال له : « إرجع إليه وقل له يقرب منى بحيث أراه و يرانى ، فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل ، فمضى الرسول وأبلغ أفتكين ذلك ، فقال : « ما كنت الذى أشاهد طلعة أمير المؤمنين وأنابذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدى » . ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين ، فهزمهم وقتل كثيراً من رجالهم . ولما علم العزيز بذلك سار إليه بنفسه واشتبك الفريقان فى القتال ، ودارت الدائرة على القرامطة وأفتكين وذلك فى ١٣ المحرم سنة ٣٦٨ هـ .

و بذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية ، وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يجىء به مائة ألف دينار .

سار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة ، فأحسن إليهم وأمّنهم وكساهم وأسند إليهم الأعمال التى كانوا يلونها أيام أفتكين . أما أفتكين فإنه لم يشك أن الخليفة العزيز سيقتله ، غير أنه استبقاه وعفا عنه .

و يحدثنا ابن القلانسى [1] أن أفتكين لما دخل على العزيز فى سرادقه ، ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه ، وحُمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين ، إزاء ما لقيه من العزيز ، إلى أن رمى بنفسه إلى الأرض وأتى ما على رأسه ، و بكى بكاء شديداً ، وقال : « ما استحققت الإبقاء علىّ ، فصلا عن العفو الكريم والإحسان الجسيم . . » . وامتنع عن الجلوس فى الدّست وقعد بين يدى العزيز ، وألبسه جوهر من ملابس العزيز وهدأ روعه ، فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهراً على ما أظهره نحوه من كرم ونبل ... وبالغ العزيز فى إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل ممتعاً بنعم العزيز حتى مات فى سنة ٣٧٢ هـ .

هكذ توطد سلطان الفاطميين فى سورية ، وأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٩ — ٢٠

وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية حيث استقل محمود نور الدين بن زنكى بدمشق ، واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

كان العزيز كريماً محبا للعفو ، وصنيعه مع إفتكين التركى خير مثل لذلك[١] . فقد عامله معاملة قوامها منتهى العطف والرعاية . وقد جاء به أسيراً إلى القاهرة حين عاد من حربه منصوراً عليه ؛ إذ خلع عليه ووصله بهبات ، وخصص له داراً لإقامته ، ثم أذن له أن يدخل بلاط الخليفة ضيفاً مكرماً حتى لقد كان إفتكين يقول : « لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى إليه ، بما غمرنى من فضله وإحسانه » ، فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حَيْدَرة : « ياعم ! أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى » .

٣ — وفاة العزيز :

مات العزيز ببلبيس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره[٢] ، وقد عزا ابن خلكان[٣] وفاته إلى مرضه من حصاة فى المثانة وقولنج ، وقال إن طبيبه أخطأ فى وصف الدواء الذى شربه وهو فى الحمام ، فمات من ساعته ولما اشتدت على العزيز وطأة المرض ، استدعى إليه القاضى محمد بن النعمان المغربى ، وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة ، واستشارهما فى تولية ابنه المنصور أبى على .

يروى لنا المسبِّحى فى كتابه تاريخ مصر أن الحاكم قال له : « استدعانى والدى قبل موته ، وهو عارى الجسد ، وعليه الخرق والضماد ، وقبلنى وضمنى إليه وقال : واغمى عليك ياحبيب قلبى ! ودمعت عيناه ثم قال : امض ياسيدى فالعب فأنا فى عافية » قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يتلهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل العزيز إليه .

---

(١) هلال الصابى ، مسكويه ج ٣ ص ٣٨٤ ، ٤٠٣ . ابن القلانسى ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) ذكر ابن القلانسى (ص٢٤٢) أنه ولد فى القيروان سنة ٣٤١ هـ وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة ، وهو خطأ واضح .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ .

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ ﻫ)

وُلد أبو علي المنصور يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ ﻫ . وقد عهد إليه أبوه في سنة ٣٨٣ ﻫ ، ثم بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه ، وذلك في شهر رمضان سنة ٣٨٦ ﻫ ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة ، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم .

ولما بلغ أهل القاهرة خبر وفاة العزيز وتولية الحاكم الخلافة ، خرجوا لاستقبال الخليفة الجديد الذي دخل المدينة وبين يديه البنود والرايات ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبي ، فدخل القصر عند غروب الشمس ، وبين يديه جثة أبيه ، فتولى غسله القاضي محمد بن النعمان ، ودُفن مع أبيه المعز في إحدى حجرات القصر الشرقي الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة[1] .

وقد ثار الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية في مصر — على أثر ارتقاء الحاكم العرش ، وطلبوا منه عزل عيسى بن نسطورس وتولية زعيمهم أبي محمد الحسن بن عمار ، وهددوا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، وبالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم ، فلم ير الحاكم بدّاً من إجابتهم إلى ما سألوه ، فأسند الوساطة إلى ابن عمار في ٣ شوال سنة ٣٨١ ﻫ . ولم يلبث أن ظهر سوء إدارته في كثير من الأعمال ، بما أتاه في عهد تقلده الوساطة ، إذ بالغ في محاباة الكتاميين ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أثاروا الأتراك بأعمالهم . وكان برجوان ينافس بن عمار ويناوئه ، مع معاضدة الأتراك له ، فكان من أثر هذا التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء وحل محله برجوان (شعبان سنة ٣٨٧ ﻫ) . ولما شعر الحاكم أن سلطته مسلوبة مع هذا الوزير ، عمل على التخلص منه فقتله في حديقة داره في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ ﻫ .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣

١ — أدوار خلافة الحاكم :

ويمكن تقسيم عهد الحاكم أربعة أقسام :

(الأول) من سنة ٣٨٦ ﻫ إلى سنة ٣٩٠ ﻫ ، وكان الحاكم في هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً ، إذ كانت كل السلطة في يد ابن عمار ، ثم في يد برجوان .

(الثاني) من سنة ٣٩٠ ﻫ إلى سنة ٣٩٥ ﻫ ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة ، أظهر فيها تعصباً شديداً للمذهب الفاطمي ؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية ، والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى .

وكان من أثر هذه السياسة التي جرى عليها الحاكم ، أن قتل فهد بن إبراهيم النصراني ، الذي اتخذه كل من برجوان والحسين بن جوهر كاتباً له ، لمناصرته النصارى وإسناده مناصب الدولة العالية إليهم ، حتى إن العامة شكوا منه واعتبروه آفة على المسلمين وعُدّة النصارى[1] . ولم يمض على قتل فهد تسعة وعشرون يوما حتى قتل ابن العداس الذي أشار بقتله (٦ شعبان سنة ٣٩٣ ﻫ) . ثم أمر الحاكم بالقبض على رؤساء الكتاب من النصارى ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحهم وأعادهم إلى مراكزهم بشفاعة طبيبه أبي سهل بن مقشر النصراني[2] . وفي سنة ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بلبس الشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين . ثم بدأت سياسته العدائية تظهر ظهوراً واضحاً بعد ذلك بثلاث سنين ، فهدم بعض الكنائس ، وبيع ما فيها من الأواني المقدسة في الأسواق[3] . ولكن الحاكم ، على الرغم بما أوقعه بأهل الذمة ، قلد الوزارة بعض النصارى ، كابن عبدون ، الذي تقلدها في سنة ٤٠٠ ﻫ ، ولكنه لم يلبث أن أقيل في المحرم سنة ٤٠١ ﻫ ، وتربع في دستها رجل من المسلمين عُزل بعد عشرة أيام ، وحل محله

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠

(٢) ابن القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨ ، ٤٣٨

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا (بيروت سنة ١٩٠٩) ص ١٨٦ ، ١٩٥

فى الوزارة زرعة بن نسطورس أخو عيسى بن نسطورس ، وظل فيها إلى أن توفى فى شهر صفر سنة ٤٠٣ هـ [١] . وقد أوغر كثرة تقليد النصارى للوزارة صدور المسلمين عليهم ، فعملوا على الإيقاع بهم عند الخليفة الحاكم الذى اشتهر بالتقلب فى أهوائه وميوله .

(الثالث) من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ . ومما هو جدير بالملاحظة أن الحاكم بدّل سياسة التعصب ، مدفوعاً بعاملين هما تهديد حدود مصر من ناحية الغرب ، حين أغار عليها أبو ركوة ، الذى ادعى النسب للأمويين فى الأندلس ، بجيش كبير من المغاربة ، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين . وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة فى القضاء على أبى ركوة ، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة . أما العامل الثانى فهو ما قاسته مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ — ٤٠١ هـ) [٢] .

(الرابع) من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ . وقد بدأت سياسة الحاكم منذ سنة ٤٠١ هـ تظهر بمظهر أكثر تذبذباً وتقلباً ، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطراباً . أما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تابعة لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استيزؤهم راجعاً لنحلتهم الدينية فحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب [٣] .

على أن سياسة الحاكم هذه ، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة ، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة ، وقضت على الفوضى التى كانت سائدة فى أوائل عهده . وفى عهده ظهرت طائفة الدرزية التى دعت إلى الاعتقاد بألوهية الحاكم ، مما أثار النزاع بينه وبين السنيين ، ذلك النزاع الذى انتهى بقتله فى سنة ٤١١ هـ

وقد أنشىء فى عهد الحاكم دار الحكمة التى كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين ، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت كثيراً من أمهات الكتب مما ألف فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ — ١٩٩

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٢٨٧

(٣) حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ص ٢٠٧

٢ — وفاة الحاكم :

اختلفت الروايات فى وفاة الحاكم ، فيقول بعض المؤرخين إن أخته ست الملك هى التى دبرت قتله لسوء تصرفه ، فاتفقت مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة على اغتياله ، وقالت له : « لى إليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك ، فإما تنكرت وجئتنى ليلا أو فعلتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمر لك . فتوجهت إليه ليلا فى داره متنكرة ، ولم تصحب معها أحداً . فلما دخلت عليه قام وقبّل الأرض بين يديها دفعات ، ووقف فى الخدمة ، فأمرته بالجلوس ، وأخلى المكان . فقالت : يا سيف الدولة ! قد جئت فى أمر أحرُس به نفسى ونفسك والمسلمين ، ولك فيه الحظ الأوفر ، وأريد مساعدتك فيه ، فقال : أنا عبدك . فاستحلفته واستوثقت منه ، وقالت له : أنت تعلم ما يقصده أخى فيك ، وأنه متى تمكن منك لم يُبق عليك ، وكذا أنا ، ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الإلهية ، وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه ، وقد زاد جنونه . وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه ، فيقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقت يا مولاتنا ، فما الرأى ؟ قالت : قتله ونستريح منه . فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال ، وكنتَ أنت صاحب جيشه ومدبره ، وشيخ الدولة والقائم بأمره . وأنا امرأة من وراء حجاب ، وليس غرضى إلا السلامة منه . وأنى أعيش بينكم آمنة من الفضيحة ... »[1] ثم اتفقت مع عبدين على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم ، وظلا يرقبانه إلى أن قرب الصباح ، فوثبا عليه وطرحاه أرضاً وقتلاه ، ثم حملاه إلى ابن دواس ، فحمله مع العبدين إلى أخته ست الملك ، فدفنته فى مجلسها . وكان ذلك فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ .

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج فى هذه الليلة راكباً حماراً ، وبصحبته رجلان . وإنه اختفى منهما ولم يعثرا له على أثر . فقام بعض رجال الدولة وقضاتها ، وأخذوا فى البحث عنه ، فعثروا على الحمار الذى كان يركبه مقطوع اليدين . ثم تابعوا السير حتى

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وصلوا إلى بركة شرقى حلوان ، فوجدوا فيها ثيابه : وهى سبع جباب مزررة وفيها أثر السكاكين . . ثم ظهر رجل من الصعيد وادعى أنه قتل الحاكم واعترف بذلك . ولما سئل عن سبب قتله . قال : قتلته غيرة لله والدين . فقيل له وكيف قتلته ؟ فأخذ سكيناً وضرب بها قلبه وقال : هكذا قتلته ، ولم يلبث أن خر صريعاً وتوفى .

ويعتقد الدرزية أن الحاكم احتفى فى سنة ٤١١ هـ ، وأنه سيعود إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم ، فهو إذن الإمام المنتظر عند هذه الطائفة .

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ٤٢٧ هـ)

ولد أبو هاشم الظاهر فى ليلة الأربعاء ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٣٩٥هـ ، وولى الخلافة بعد قتل أبيه بأيام ، وذلك فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ ، إذ « كان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره ، إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر من السنة المذكورة »[1] وكان الظاهر حين ولى الخلافة فى السادسة عشرة من عمره .

وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، فأظهرت كفاية ممتازة فى إدارة شئون البلاد ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت فى سنة ٤١٥ هـ .

وفى سنة ٤١١ هـ استوزر الظاهر : نجيب الدولة على بن الجرجرائى . وأصله من جرجرايا ، إحدى قرى بلاد العراق ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وعهد إليه الحاكم بإدارة بعض الدواوين . غير أنه لم يلبث أن أساء التصرف فيها ، فأمر الحاكم بقطع يديه من المرافق ، ثم عينه والياً على ديوان النفقات فى سنة ٤٠٩ ، وظل يتنقل فى بعض الوظائف الإدارية فى الصعيد ، إلى أن اختاره الظاهر وزيراً له سنة ٤١٨ هـ ، فاتخذ القاضى أبا عبد الله القضاعى كاتباً له ، ونظم شئون الدولة ، كما أظهر حرصاً شديداً على أموالها[2] .

وكان الظاهر سمحاً ، عاقلا ، لين العريكة ، استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له ، فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية ، كما وجه عنايته إلى ترقية شئون

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٢) المصدر نفسه .

البلاد وتحسين حالة الزراعة ، فأصدر قانوناً منع فيه الناس من ذبح البقر ، وأباح ذبح الحيوانات التى لا تصلح لحرث الأرض ، وذلك على أثر الوباء الذى أصاب بعض الحيوانات التى يستخدمها الفلاحون فى فلاحة الأرض ، وكتب إلى الناس كتاباً جاء فيه . « إن الله تعالى بتتابع نعمته و بالغ حكمته ، خلق ضروب الأنعام وعمل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصالح الخلق ؛ فإن فى ذبحها غاية الفساد ، و إضراراً للعباد والبلاد[١] » .

ولم يقم الظاهر ببناء كثير من المنشئات ، لاشتغاله بالعمل على ضبط الأمور فى داخل البلاد وخارجها . وقد بنى فى عهده منظرة اللؤلؤة بالقرب من القصر الغربى الصغير ، وتعد من أجمل المنارات التى أنشئت فى القاهرة فى عهد الفاطميين . وكان الظاهر يتنزه فيها ، كما اتخذها بعض الخلفاء داراً للإقامة فى وقت فيضان النيل[٢] .

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة ، فقد مرض بالاستسقاء ، وتوفى ليلة الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ . ولما علم وزيره الجرجرائى بذلك ، أخذ البيعة لابنه أبى تميم الذى تلقب المستنصر[٣] .

المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ)

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٧ هـ ، وبويع له بالخلافة فى يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . وكان أطول الخلفاء عهداً ، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

---

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٣) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٧

وقد أقر المستنصر على بن الجرجرائى وزيراً أبيه فى الوزارة ، وكان الحاكم قد أمر بقطع يديه من المرافق كما تقدم ، فاتخذ القضاعى كاتباً له . وظل الجرجرائى فى الوزارة إلى أن توفى سنة ٤٣٦ هـ ، فخلفه أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى . وفى عهد هذا الوزير ازدادت سلطة أبى سعيد التُّسترى اليهودى ، وكان يتولى نظارة خاصة أم الخليفة ، حتى إنه لم يعد له معه إلا اسم الوزارة ، فحقد عليه واتهمه بدس السم لريحان زعيم الأتراك حينذاك ، فانقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه فى جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ هـ ومثلوا بجثته . ولكن الخليفة المستنصر لم يرض عن هذا العمل ، كما لم ترض عنه أمه التى كانت قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمة فى بيت التسترى ، فأسند ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين . ولم تنس أم الخليفة للوزير الفلاحى تدبير قتل التسترى ، فأقيل من الوزارة وحبس ، ثم قتل (المحرم سنة ٤٤٠ هـ) . وفى الحق أن الفلاحى اتخذ من شعور المسلمين العدائى نحو التُّسترى فرصة للنيل منه والإيقاع به ، وساعد على ذلك أن التسترى قد أثار كراهة المسلمين ، لإسناده مناصب الدولة إلى بنى جلدته من اليهود الذين اضطهدوا المسلمين اضطهاداً واضحاً ، حتى إن شاعراً من الشعراء المعاصرين ، يسمى ابن البواب ، نظم هذه الأبيات :

يهودُ هــذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملــكوا

العــزُّ فيهم والمــال عنــدهم   ومنهمُ المستشار والملك

يا أهلَ مصر قد نصحتُ لــكم   تهوّدوا قد تهود الفــلك[1]

امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقية ، وكان اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين ؛ فقد خرجت بلاد المغرب سنة ٤٤٣ هـ ، وفى سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى التى استولوا عليها من الأدارسة سنة ٣٤٧ هـ ، واستولى

---

(١) السيوطى . حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

روجر النرمندى على صقلية التى كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم فى سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من المنازعات التى قامت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التسترى والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة فى إدارة شئون الدولة ، فإن مصر قد تمتعت بشىء من الطمأنينة والرخاء ؛ فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت عليه القاهرة فى ذلك الوقت من يسر ورخاء[1] .

غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة ، وعاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين (٤٤٦ — ٤٥٤ هـ) ، ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ، وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضاً . وليس أدل على الفوضى التى سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً الوزارة فى تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك إلى سنة ٤٦٤ هـ . واقترنت هذه الشدة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » ، بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تداركَ مصر بدر الجمالى والى عكاء ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ ، فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين[2] .

المستعلى بالله (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ)

بويع المستعلى بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ دون أخيه أبى منصور نزار الذى ولاه أبوه عهده ، وشرع فى أخذ البيعة له أثناء

(١) Nasir Khusraw : Safar Námeh (ed. Charles Schefer, Paris, 1881), p. 127 et seq.

(٢) ابن ميسر . تاريخ مصر ص ١٣ — ٢٣ ، ٣٤ .

مرضه ، غير أن وزيره الأفضل أخذ يماطله حتى توفى قبل أن تتم مبايعة ابنه نزار . ويرجع السبب فى ذلك إلى ما ترويه لنا بعض المراجع العربية من أن الأفضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة ، فلما رآه نزار ، قال له : إنزل يا أرمنى يا نجس ، فحقد عليه الأفضل ، وانتهز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة ؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة ، وأثار مخاوفهم من نزار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد ، فعارضه فى ذلك محمود بن مصال اللكى[1] ، وكان نزار قد مناه بالوزارة . غير أن الأفضل لم يعبأ به وبادر إلى مبايعة أبى القاسم أحمد ولقبه المستعلى بالله ، كما أخذ قاضى القضاة على ابن نافع الكحال البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها . . ولم يكتف الأفضل بذلك ، بل ذهب إلى إسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر ودعاهما لمبايعة أبى القاسم ، فبايعاه .

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، وابن مصال اللكى ، فتلقاه واليها ناصر الدين أفتكين التركى بقبول حسن ؛ وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ، ولقبوه « المصطفى لدين الله » . فلما علم الوزير الأفضل بذلك ، خرج لقتاله على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة على الأفضل أولا وعاد إلى القاهرة ؛ وهنا أخذ يعد العدة لقتال نزار ، ونجح فى استمالة بعض أتباع نزار من العربان ، ولما تم له ذلك ، خرج إليه ثانية على رأس جيش كبير وحاصره حصاراً شديداً . ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم ، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب . وبعد قليل اضطر كل من نزار وأفتكين إلى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه ، فمات ، كما قتل أفتكين نائب الإسكندرية .

كان الحسن الصباح فى مصر حين توفى المستنصر وأخذت البيعة للمستعلى ، وثار النزاع بين نزار والوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فتبنى الحسن الدعوة لنزار باعتباره أكبر أبناء المستنصر وأحق الناس بالإمامة من بعده ، كما اعتقد أن المستعلى اغتصب العرش والإمامة . ثم انتقل الحسن الصباح بالدعوة النزارية إلى إيران ولا سيما بعد مقتل نزار فى القاهرة فى سنة ٤٨٨ هـ ، وأخذ يدعو إلى الإمام المستور . وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية قسمين : المستعلية ، والنزارية أى الدعوة الجديدة .

(١) نسبة إلى لُك ـ بلدة بنواحى برقة بين الإسكندرية وطرابلس .

وكان المستعلى مسلوب السلطة مع الأفضل . لذلك لا نعجب إذا رأينا هذا الوزير ينتهز فرصة ضعف الخليفة الفاطمى ، فيقبض على زمام الأمور فى مصر .

وفى عهد المستعلى بدأ الصليبيون يغيرون على سواحل بلاد الشام ، فاستولوا على نيقيا ، ثم اتجهوا إلى أنطاكية ، التى دخلت فى حوزتهم ، ثم تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى بيت المقدس . فلما علم الأفضل بذلك خرج إليهم فى عشرين ألف من عساكر مصر ، واشتبك الفريقان فى معركة قتل فيها كثير من أتباعه ، فاضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان ، ثم عاد إلى مصر وأعد جيشاً كبيراً سنة ٤٩٣ هـ تحت قيادة سعد الدولة النواسى ، الذى التقى بالفرنجة فى عَسْقَلان . فدارت بينه وبينهم معركة حامية قتل فيها سعد الدولة ، وظل الفرنجة ، يواصلون فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين[١] .

الآمر بأحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ)

تولى الآمر الخلافة بعد وفاة أبيه المستعلى فى اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٤٩٥ هـ ، وقبض الأفضل على زمام الأمور فى البلاد . وأخذ هذا الوزير منذ ذلك الحين يميل ميل السنيين .

وقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى فى أيام انحلال دولتهم ، حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى لأظهر مثال لتلك العناية ؛ لأن الأفضل كان يميل ميل السنيين ، فألغى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلىّ رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعوام ، وأنهم من سلالة علىّ مما كان موضع شك رعاياهم طوال حكمهم .

وقد شرح لنا ابن القلانسى[٢] (+ ٥٥٥ هـ) الأحوال التى أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً . وابن القلانسى هذا توفى بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ؛ وقد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد الذائع بأن مقتل الوزير كان تدبيراً من الخليفة الفاطمى وأنصاره ، لبواعث

---

(١) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ — ٢٠٤

سياسية وحزبية . أما ابن مُيَسَّر فقد نسب من جهة أخرى مقتل الأفضل إلى عداء جماعة الباطنية . غير أن ابن القلانسى يدحض ذلك ويقرر أنه وإن كان قد شاع أن الأفضل لقى مصرعه على يد الباطنية ، فإن ذلك كله كان بتدبير الخليفة الفاطمى .

وإن من الحق أن نقول إن الخلف بين روايتى هذين المؤرخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا فى أعمالهم يُصدرون عن العقائد الباطنية التى كان قوامها إدعاؤهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

ويحسن بنا أن نأتى بعبارة ابن القلانسى بتصرف وهى : أن الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيراً بتداخل الأفضل ، شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره ، فدبر مكيدة اغتياله فى إحدى زياراته القصر . لكن الأمير عبد المجيد بن أبى القاسم بن المستنصر وابن عم الخليفة — الذى صار خليفة فيما بعد وتسمى بالحافظ (+ ٥٤٤ هـ) — لاحظ أن ذلك العمل سيثير سخط الناس ويكون عاراً يلحق بالبلاط الفاطمى . وذلك أن الناس كانوا يقدرون الأعمال التى أداها الأفضل وأبوه للأسرة الفاطمية حق قدرها ؛ فيكون قتله معناه نكران لهذه الأيادى ، وذلك مما يجلب انتقام أنصاره ويزعزع ثقة الوزراء فى الفاطميين .

لذلك كله رأى الأمير أن يعمل لهذه الغاية بطريقة أخرى ، وهى أن يعهد بذلك الأمر إلى أحد معتنقى المذهب الفاطمى ، ويُعْطَى من العهود ما يضمن له مركز الوزارة إذا نجح فى هذا السبيل . وقد رأى الأمير أن أبا عبد الله المأمون بن البطائحى ، أحد خواص الوزير ، هو ابن بجدتها ، لما كان يعتقده من احتمال موافقته على هذا المشروع ، ذلك أنه :

أولا — كان من معتنقى المذهب الفاطمى الذين أخلصوا فى حب الفاطميين .

ثانياً — لأن نجاح هذا العمل يؤول إلى أن يخلف الأفضل فى مركزه .

وقد رأى الأمير أيضاً أن يختار البطائحى جماعة من الرجال يقومون بذلك ، على أن يُقْتَلوا عقب إتمامه ؛ كما رأى أن يظهر الخليفة ورجال بلاطه أشد مظاهر الحزن ، ويسعوا للانتقام ممن اغتال الوزير ؛ وبذلك لا يتهمهم أحد بأنهم كانت لهم يد فى هذا العمل .

ولا بأس من أن نورد ما ذكره ابن ميسر فى طريقة اغتيال الأفضل . وذلك أن الأفضل كان قد نفى أحد الباطنية ، واسمه البديع ؛ لكنه وجد من ساعده حتى سمح له

بالعودة لمصر ، حيث التف حوله كثير من الأنصار . غير أنه اقترح نفيه مرة أخرى إلى اليمن ، حيث كان يسودها مذهب البديعية بزعامة الحُرَّة بنت الصُّلَيْحى[١] . وحدث أن تقدم عشرة من أتباع هذا المذهب ، وعبروا عن رغبتهم فى اللحاق بالبديع فى سجنه ؛ وسرعان ما انضم إليهم غيرهم من أمثالهم فيما رغبوه .

ولما رفع الأمر للأفضل أمر بقتل عشرين من هذه الطائفة ؛ فأثار ذلك غضب الباقين ، وصمموا على اغتياله انتقاماً منه . وفى اليوم السابق لعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) ، حين كان الأفضل فى طريقه إلى قصره دار الملك فى مدينة مصر ، اعترضه رجلان كانا مختفيين فى حانوت ؛ فقبض عليهما بعض حراسه وقتلوهما على الأثر . وهناك كان خياط يتبع الوزير من القاهرة ، فباغته وأمسكه من طوقه وطعنه بسكين عدة طعنات مميتة . لكنه لم ينج ؛ فقد قبض عليه حرس الوزير[٢] وقتلوه . وقد نال البطائحى الذى نظم اغتيال الأفضل ما كان يرجوه ؛ فخلف ضحيته فى الوزارة ، كما كان ذلك معتاداً فى ذلك الحين .

أما عن أخلاق هذا الوزير ، فيقول ابن ميسر[٣] : « كان من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة ، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً . ولم يعرف أحد صودر فى زمانه . ولما حضر الإسكندرية ، كان بها يهودى يبالغ فى سب الأفضل وشتمه ولعنه . فلما دخلها الأفضل قبض عليه وأراد قتله . . فقال : إن معى خمسة آلاف دينار ، خذها منى وأعتقنى واعف عنى . فقال : والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً . ومحاسن الأفضل كثيرة : وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شىء من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال » .

وقد أعاد الآمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل ، عندما نمى إليه أن رجلين يعتنقان

---

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧) أنه بعد مقتل الصليحى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠م) ، زال الاعتراف بسلطان الفاطميين على بلاد المغرب ، وكانت الخطبة قد أقيمت فيها للخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

(٢) ابن ميسر ص ٢٥٧ .

(٣) تاريخ مصر ص ٥٨ .

عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكى يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب .

الحافظ لدين الله (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ)

ولى الحافظ الخلافة بعد قتل ابن عمه الآمر على يد فريق من النزارية ، بعد أن تخلص من الطفل الذى أنجبه الآمر من إحدى سراريه . ولكن الأمر لم يستتم للخليفة الحافظ ، فقد قامت الدعـوة لذلك الطفل ، ولقب الإمام الطيب ، ونقشت الدنانير باسمه فى سنة ٥٢٥ هـ ، وقد جاء فيها : بسم الله الرحمن ! ضرب هذا الدينار بالإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين .

الإمام

محمد (١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية مركزاً لحركتهم ومستقراً لدعوتهم . وقد خرجت بلاد اليمن عن طاعة الحافظ ، ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة . لأن الملكة الحرة الصليحية كانت قد تلقت من الآمر كتاباً يبشرها فيه بمولد ولى عهده ، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لا حق له فى إمامة الدعوة الإسماعيلية ، التى انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلى ، وطيِّبيَّة نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر وحفيد المستعلى ، كما انقسمت الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر إلى مستعلية ونزارية .

وقد قويت شوكة هذا الوزير ، فقبض على الخليفة وحبسه واستولى على ما فى القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه . وكان هذا الوزير إمامياً فدعا للإمام الثانى عشر ولنفسه على المنابر بهذه الألقاب : ناصر إمام الحق هادى العصاة إلى أتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم ؛ كما أزال عبارة « حىَّ على خير العمل » ، ومحمد

(١) Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes, p. 163, piecè no. 439.

وعلى خير البشر » من الأذان ، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة[1] .

وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو علي أحمد بن الأفضل أن كرهه الشيعة المصريون وصمموا على قتله ، فتمكن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه ، فاتخذ أبا الفتح يانس الحافظي وزيراً له .

ولما قدم بهرام الأرمني والي الغربية إلى القاهرة في شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ وحاصرها يوما ، لم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني ، وعلى الرغم من أنه كان يتحتم على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد ليزرِّر عليه المَزَرّة (الستارة) التي تحجبه عن الناس ، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء منذ أيام بدر الجمالي . وكانت هذه النيابة تُذكر في الوثائق الرسمية ، كما كانت تكتب أيضاً في وثائق الزواج .

على أن بهرام قد تقلد الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه ، وسرعان ما تزايد نفوذه ، فأحضر إخوته وأهله من تل باشر وأرمينية ، وسمح لبني جلدته من الأرمن بالإقامة في مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير .

وقد سلك هؤلاء الأرمن مع المسلمين مسلكا عدائياً ، وصادروهم في أموالهم ، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين ، فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة ، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الولَخْشي والي الغربية يطلبون منه المسير إليهم ليخلصهم مما هم فيه من كرب وبلاء فلبى رضوان طلبهم ، وجمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام ، وبذلك ازدادت قوته ، فاضطر بهرام إلى مبارحة القاهرة والذهاب إلى أخيه الباساك والي قوص .

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة في شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ ، وتلقب بالأفضل ، وظل العداء مُستحكما بين المسلمين والأرمن ، فشدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم . على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ ، فأحضر بهرام وأسكنه في قصره وأحله من نفسه محل الإكرام ، فعظم ذلك على رضوان واضطر

---

(١) ابن ميسر . تاريخ مصر ص ٧٥ .

إلى الخروج من القاهرة والذهاب إلى والى صَرْخد[١] . وهناك جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى مصر وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح ؛ غير أنه لم يلبث أن أرغم على المسير إلى الوجه القبلى حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مَصَّال وانتهى الأمر بحبسه فى القصر . ولم ينته هذا النزاع إلا بعد أن توفى بهرام سنة ٥٣٥ هـ .

ولما تولى أبو علىّ أحمد بن الأفضل الملقب بالأكمل وزارة الحافظ ، عزله وشل يده عن التصرف فى أمور الدولة فى سنة ٥٢٤ ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ؛ ثم استولى على ما فى القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة من الخطبة[٢] .

---

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق .

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ .

الباب السادس

سقوط الدولة الفاطمية

---

١ — تمهيد :

لما ترك الفاطميون حياتهم الفطرية التى كانت شعارهم فى أيامهم الأولى عند ما كانوا يحكمون البربر فى القيروان ، وانغمسوا فى الترف فسكنوا القصور الجميلة بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع الملذات فى الحياة ، وكلوا أمور الناس وشئون الدولة إلى خدامهم كما فعل قبلهم العباسيون مع مواليهم فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئاً فشيئاً ، حتى كانوا يلقبون بلقب « ملك » ، بينما كان ساداتهم معزولين فى بيوتهم وقد أصبحوا ألعوبة فى يدهم ، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم فى بغداد .

ومع أن سلطة الخليفة المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) امتدت (فى الشطر الأول من عهده) حتى شملت شمال إفريقية والشام ، لما قام به دعاته الجريئون فى الإمبراطورية الإسلامية ، حتى كان اسمه يذاع فى خطبة الجمعة فى الجوامع بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر ، وفى اليمن والحجاز والموصل ، بل فى حاضرة العباسيين نحواً من سنة — مع هذا كله ، فإن قوة الفاطميين كانت قد أخذت فى الاضمحلال ، وأخذ نجم الخلافة الفاطمية فى الأفول .

ففى سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالى شمال إفريقية عقائد المذهب الشيعى رفضاً نهائياً[١] ، وتلا ذلك عدم الاعتراف بالخلافة الفاطمية فى بلاد العرب لما توفى الصُّلَيحى سنة ٤٧٣[٢] .

ولقد تولى الوزارة بعد وفاة الوزير اليازورى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أربعون وزيراً فى مدة تسع سنوات ، مما جعل الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين

---

(١) ابن ميسر ص ٦

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦) أن الخطبة أقيمت هناك باسم الخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) . ومن أراد الاستزادة ، فليرجع إلى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧)

أكثر خطراً وشدة فى بعض الأحيان تحت هذا الحكم الضعيف ، وإن كان تقلد بدر الجمالى الوزارة قد وضع حداً ، ولو إلى حين ، لهذا الاستبداد العسكرى .

وتدلنا المباحث التاريخية على أن السبب الحقيقى فى سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع إلى الحروب الصليبية . وسنبين الآن أنه على الرغم من انحلال قوة الفاطميين فى الشطر الثانى من حكمهم ، فإن الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم العظيمة التى سيطرت ردحاً من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء . والكلام فى هذا الموضوع مبسوط فى كتب كثيرة . فقد أمدنا بكثير من المراجع بعض الكتاب الذين عاشوا فى أواخر أيام الفاطميين ، أمثال عمارة اليمنى (+ ٥٦٩ / ١١٧٤) وأسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ / ١١٨٨) الذين شهدا ما كان يجرى فى مصر فى هذا العصر ، كما اشتركا فى أمور البلاد السياسية والحربية .

وعلى الرغم مما عسى أن تتهم به رواية هذين الكاتبين فى هذا الموضوع لما كانا يتمتعان به من تعضيد الوزراء فى مصر ، فإننا نميل بناء على ما أمدتنا إليه مباحثنا ، إلى صدق روايتهما فى وصف هذه البلاد قبل زوال الخلافة الفاطمية بقليل .

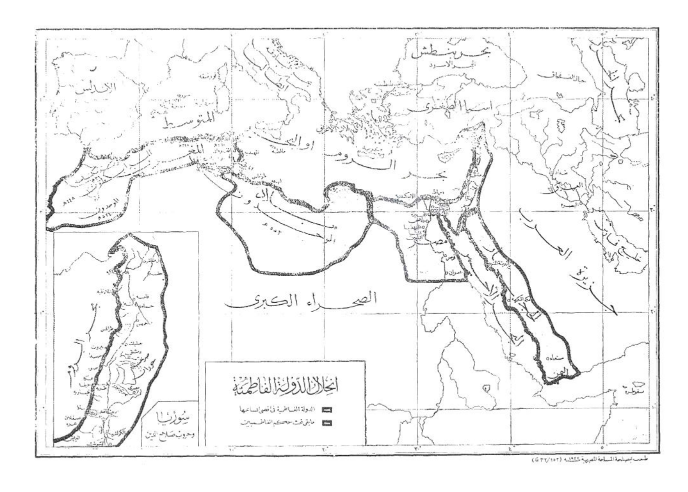
وهناك كتاب آخرون أمثال وليم الصورى (William of Tyre) (نسبة إلى صور) المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبو صالح الأرمنى المتوفى سنة ٦٠٥ — ٦ هـ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤م) ، وأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) — وكلهم من أعلام التاريخ يؤيدون الرواية السابقة .

٢ — حالة مصر منذ عزل رضوان إلى مقتل ابن السلار :

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) فى ذلك العصر إلى تأليف مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التى مزقها الانقسام ، فوقعت فى أيدى المغيرين عليها .

ويقول ستانلى لينپول : « إن أول تدخل لنور الدين فى شئون مصر بقوة السيف




انحلال الدولة الفاطمية
الدولة الفاطمية في اقصى اتساعها
ما بقي تحت حكم الفاطميين
سوريا
وحروب صلاح الدين
بحر بنطش
البحر الاسود
آسيا الصغرى
بحر الروم
المتوسط
الاندلس
الصحراء الكبرى
مصر
بلاد العرب
الخليج الفارسي
العراق
بغداد
البصرة
الاسكندرية
صنعاء
اليمن
سقوطرة
طبع بمصلحة المساحة المصرية

كان من سعى وزير مخلوع »[١] . غير أن بداءة تدخل نور الدين فى أمور مصر يرجع عهده إلى أيام الوزير ابن السلار (رمضان سنة ٥٤٤ — المحرم سنة ٥٤٨ هـ — ١١٥٠ / ١١٥٣ م) . وكان النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية فى الجيش ، سبباً فى وقوع القلاقل قبل ذلك فى أيام الوزير بهرام الأرمنى المسيحى ، الذى كان تعيينه لـكثير من بنى جلدته فى مناصب الدولة سبباً فى إثارة كراهة الناس له ، حتى انتهى الأمر بعزله وعزل ألفين من الأرمن الذين كانوا يستظلون بحمايته ؛ وقد قضى بقية أيام حياته راهباً[٢] .

وقد خلف بهرام فى الوزارة رضوانُ الوَلَخْشى ؛ وكان شاعراً وجندياً مقداماً ؛ تلقب لأول مرة فى العهد الفاطمى بلقب « ملك » ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ؛ ففر إلى الشام ، وهناك طلب إلى زَنكى أتابك الموصل مساعدته .

كان رضوان ينوى غزو مصر ؛ ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة بن منقذ الذى أوفد إليه من القاهرة واسترضاه بثلاثين ألف دينار ؛ فعدل عن ذلك[٣] ، وجاء إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الحافظ على حياته . ولـكن ذلك الخليفة لم يف بعهده ؛ فقد حبسه عشر سنوات تمـكن فى آخرها من الفرار ؛ ثم جمع له أنصاراً كثيرين واستقر فى الجامع الأقمر أمام القصر . غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتتوا شملهم ثم ظفروا به ؛ فقطعت رأسه كما قطع جسمه إرباً ، والتهمه الجند اعتقاداً منهم أنهم بذلك يماثلونه فى بأسه وشجاعته[٤] .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ ؛ فنشب النزاع العنيف بين الجند السودانى والجند التركى ، وولى ابنه الظافر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة من بعده ؛ وقد عادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين فى هذا العهد سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الشاب الأرعن حكمه بطرد الوزير ابن السلار — الذى كان يلقب

---

(١) Saladim and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 80.

(٢) أبو صالح ص ٨٤ .

(٣) أسامة بن منقذ ص ٢٢ و ٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤ .

بالملك العادل — وجعل فى الوزارة نجم الدين بن مصال الذى كان مكروهاً من الأهلين .

أما ابن السلار ، فسرعان ما جمع فرقة من أعوانه المسلمين وسار بهم إلى الجيزة فى الرابع عشر من رمضان سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) . وفى اليوم التالى تمكن من الحلول محل منافسه فى الوزارة — وكان ذلك أمراً مألوفاً فى ذلك الحين — وقد فر عندما رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه فى الوزارة أكثر من خمسين يوماً(١) .

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف . وهناك تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة حوله ؛ ثم استقر فى الوجه القبلى ، فاتبعه العباس ربيب ابن السلار . وفى مدينة دلاص — الواقعة جنوب الواسطى فى الوجه القبلى — التقى الجندان ؛ فدارت الدائرة على ابن مصال ، وتفرق جنده أيدى سبأ ؛ أما هو فقد قتل وحمل رأسه إلى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار ممن ينافسه ، واعترف الخليفة له بالوزارة مرغماً ؛ لكنه ما برح يعمل على الكيد له لطرده من الوزارة(٢) .

وقد وصف لنا أسامة إحدى المكائد التى كادها له الخليفة الظافر . من ذلك أن جماعة من حرس الخليفة اختبأوا فى دار تجاور دار الوزير ، وظلوا حتى انصرف أنصار الوزير فى منتصف الليل . غير أن ابن السلار علم بذلك ، وكان معه فى داره أسامة بن منقذ ؛ ولذلك فشلت المؤامرة وتشتت جمع المتآمرين(٣) .

أما ابن السلار فقد أرسل أسامة بن منقذ — وهو مرجعنا فى هذا الموضوع — فى بعثة إلى الشام ليطلب من نور الدين العون فى غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر ؛ وفى تلك الأثناء يسير الوزير بنفسه إلى غزة وعسقلان(٤) .

وقد كان معنى هذا الرجاء طبعاً هو تدخل نور الدين فى شئون مصر ، أو على الأقل إفهامه أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها فى وجه الصليبيين ؛ وذلك ما أتاح أخيراً الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد .

(١) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦) . أما الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات (Laud) القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٠٥ ا) . أبو الفدا (ج ٣ ص ٢٣) قد ذكرا أنه لم يمكث فى الوزارة إلا أربعين يوماً .

(٢) أسامة بن منقذ ٥ و ٦

(٣) المصدر نفسه ص ٦

(٤) المصدر نفسه ص ٧

ثم سافر أسامة إلى الشام وتقابل مع أسد الدين شيركوه فى بُصْرى[١] ، ومنها صحبه إلى دمشق . أما نور الدين فقد أبى امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين ، فقد كانوا هم وأهل دمشق أعداءه على السواء ، ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل فى حرب مع أحد الفريقين .

ومع هذا فقد أباح لأسامة أن يجند تحت لوائه أكثر ما يمكن تجنيده من المتطوعين . وقد انضم إليه ثلاثون من حرس نور الدين وأمير من الأكراد ليشترك نور الدين فى ذلك اشتراكا فعلياً ، فينسب إليه ما قد يحوزه جند أسامة من نصر . وقد حاصر أسامة عسقلان نحوا من أربعة أشهر بجند كبير من الغز المرتزقة . غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام العدو من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره من جهة أخرى — كما يقول أسامة نفسه .

وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب ، ثم جاءته أوامر الوزير ابن السلار فعاد إلى القاهرة من غير أن ينال أى نجاح حربى[٢] . ومع ذلك فقد كان لطلب أسامة المساعدة من نور الدين نتيجتان :

الأولى — ظهور مصر بمظهر الضعف وعدم قدرتها على صد هجمات الصليبيين ؛ ومن هنا طمع نور الدين فى الإغارة عليها . غير أن عدم إخلاص السوريين له حمله على تأجيل ذلك حتى تتوطد أقدامه فى سورية ويقوى أمره .

الثانية — أن الصليبيين أصبحوا على علم تام بحال البلاد المصرية .

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك ، فقد كان ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمى) سنياً مغالياً . وربما كان ذلك سبباً فى تدبير الخليفة المكائد له حتى يتخلص من شره . غير أن ما كان لابن السلار من أنصار كثيرين قد آذن بزوال سلطة الفاطميين الدينية . يضاف إلى هذا أن النزاع الذى كان بين ابن السلار ، وهو كما علمنا من غلاة السنيين ، و بين ابن مصال

---

(١) يسمى بهذا الاسم موضعان : أحدهما ببلاد الشام ، وهى حاضرة إقليم حوران ، والآخر قرية من أرباض بغداد (انظر هذا اللفظ معجم البلدان لياقوت) .

(٢) أسامة بن منقذ ص ٧ — ١٣

المغربى الأصل ومن أهالى لكُ (قرية قريبة من برقة) كان فى الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعيين . وقد كان ابن السلار يطمع فى مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السنى المتعصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة فى مصر بدل مذهب الشيعة ، كما دللنا على ذلك مباحثنا المستفيضة فى حياة ابن السلار والياً ووزيراً .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة الزَّرْزَارِى[1] . نشأ فى قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة فى الوجه القبلى ، وتدرج فيها حتى ولى الوزارة فى عهد الخليفة الظافر فى رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفبر — ديسمبر سنة ١١٤٨ م) .

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه المذهب السنى ، وصار شافعى المذهب (وهو المذهب الذى كان يتبعه أيضاً أسد الدين شيركوه وصلاح الدين) . ولما ولى الإسكندرية بعد وصول الحافظ السِّلَفى الفقيه الشافعى فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨م) ، عامله بكل تجلة وإكرام ، وأنشأ فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة الشافعية أسند إليه إدارتها[2] . وبهذا هيأ ابن السلار السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر . وقد اعتمد الخليفة الظافر فى الكيد لابن السلار واغتياله على نصر بن عباس ، وهو شاب فى سن الخليفة ومن أخص خواصه ، وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة والوزير معاً .

وفى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ — ١١١٠ م) وصلت إلى مصر بُلَّارة[3] زوجة أبى الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس مع ولدها أبى الفضل عباس بن أبى الفتوح ، وكان طفلا إذ ذاك . وقد تزوجت بُلَّارة ابن السلار ، وأقامت معه ردحاً من الزمن . وتزوج عباس ، وولد له ولد أسماه نصراً ، فتربى فى كنف جدته فى دار ابن السلار الذى حاطه برعايته وعطفه العظيم . ولما شب عباس أنفذه ابن السلار إلى الشام ليشترك فى حرب الصليبيين ، فصحبه أسامة بن منقذ . ولما وصل إلى بلبيس ليتولى قيادة الجند ، أظهر لأسامة تألمه من

(١) انظر Quatremère : "Notices sur les Curdes," in "Notices et Extraits," Vol. XIII, p. 316.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧ و ٤٦٧ و ٤٦٨

(٣) جاء فى ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٨ ، والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٤٤٧) أن جدة نصر بلارة (بالواو) . انظر أيضاً ابن ميسر (ص ٩٢)

مغادرة مصر الجميلة ذات المناخ البديع التى تركها لا لشىء إلا لمقابلة الأعداء ، كما أظهر له تألمه أيضاً من عبء الحياة العسكرية .

ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه فى مكنته أن يتجنب كل هذا بقتل ابن السلار ، وتقلده الوزارة بدله . وقد اتفق بعد ذلك أسامة وعباس فيما بينهما على أن يقوم نصر بتنفيذ ذلك المشروع الشائن ؛ وتمكن نصر من قتل ابن السلار وهو نائم فى سريره فى ٦ المحرم سنة ٥٤٨ هـ (أبريل سنة ١١٥٣ م) .

ذكر أسامة[١] أن نصراً عاد إلى القاهرة بعد أيام قليلة من سفره إلى بلبيس مع والده عباس بدون إذن الوزير ابن السلار ، الذى أمره بالرجوع ثانياً إلى الجيش والاشتراك فى الغزاة .

وكان الوزير يعتقد أن نصراً إنما عاد إلى القاهرة سعيا وراء أهوائه ؛ لكن الحقيقة أنه أرسل بالاتفاق أبيه لاغتيال الوزير ، فكان له ما أراد بفضل ما لقيه من تعضيد الخليفة . وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة ، وخلع عليه الخليفة[٢] .

٣ — مقتل الخليفة الظافر :

لقد صدق لينبول فى قوله « إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة ، يعتبر من أخفى حوادث التاريخ فى مصر » . ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ ، ذلك الرجل المظلم الذى اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة ، وكان صديقا حميما وضيفا لابن السلار . وكان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله .

وقد وضع الخليفة الذى تملكه الفرح لمقتل ابن السلار ، رأس القتيل فى بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠٫٠٠٠ دينار ، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك . لكن عباسا استشعر الخطر ، فأعد العدة لسم ابنه . وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر فى إصلاح ما بينهما ، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره فى داره .

وفى اليوم التالى ، بينما كان أسامة جالسا فى الدهليز ، إذ سمع صليل السيوف . ذلك أن

---

(١) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣ — ١٤ .

صديقه عباسا ذهب إلى القصر يصحبه ألف سياف من أتباعه متظاهرين بالاستفسار عن الخليفة . ولما علم عباس بقتله ، أخذ فى قتل إخوة الخليفة واتهمهم بأن لهم يداً فى الجريمة[١] .

أثار قتل الخليفة أهالى القاهرة ؛ فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم . ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه . ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم ، ففر هو وابنه إلى سورية[٢] . غيرأنه لقى حتفه بغتة فى طريقه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فى إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ و١١٥٤ م) . أما نصر ابنه فقد باعه الفرنجة فى عسقلان ، وأرسل للقاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) فى قفص من حديد . فعذبه نساء البلاط وطيف به فى المدينة بعد أن جُدع أنفه وصُلمت أذناه ، وصلب حيا على باب زويلة ، وترك معلقا هناك شهوراً كثيرة[٣] ؛ ثم أحرقت جثته فى العاشر من المحرم سنة ٥٥١ (١١٥٦ م)[٤] .

ترك الخليفة المقتول طفلا فى الرابعة من عمره ؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ . وكاد هذا الطفل يموت رَوعاً يوم استخلافه . وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداداً عليه ، ثم أرسلوها إلى الأمير طلائع بن رُزّيك والى الأشمونين ، « وذلك أقصى ما يمكن فى التوسل عند المرأة المسلمة »[٥] ، وتضرّعن إليه أن يجىء لتخليصهن .

ولما وصل هذا التوسل إلى رزيك سار إلى القاهرة . ولما قاربها جعل الشعور فى رأس رمحه واستولى على دار المأمون (قصر عباس)[٦] .

وقد دُفن جثمان الخليفة المقتول مع آبائه فى وسط مظاهر الحداد العام ، وأخذ الوزير

---

(١) أسامة بن منقذ ص ١٦ — ١٨

(٢) من أراد التفصيل فلينظر أسامة بن منقذ (ص ١٩ وما يتبعها) .

(٣) أسامة بن منقذ ص ١٩ و ٢٠

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠

(٥) Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 173

(٦) هذا القصر بناه الوزير المأمون ، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة للأحناف ، وتعرف بالمدرسة السيوفية .

ابن رزيك فى إعادة الأمن إلى نصابه ومعاقبة الجناة ، وقتل القواد المناوئين الذين حل الدمار فى أيامهم بالقاهرة سنين كثيرة ، وأعاد لمصر سيادة القانون[١].

وكان ابن رزيك — الذى تلقب بالملك الصالح — قوى الشكيمة ؛ فكان هو الرجل الذى تحتاج إليه مصر فى ذلك الحين . أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم فى فلسطين ، التى استولى الصليبيون عليها وقد دب التنافس بين الأحزاب فى مصر ، إذ تركت من غير حامية بعد عودة عباس على أثر مقتل ابن السلار . وبذلك سقط فى أيدى الصليبيين آخر حصن للفاطميين فى هذه الولاية سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٣ م)[٢].

أما الصليبيون فلم يستمروا فى سيرهم إلى مصر ، إذ فت فى عضدهم وزعزع ملكهم فى بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها ، وفشل الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد Conrad ولويس السابع ، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره فى حلب شمالا ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م) ، وكان فى حلف دفاعى مع الصليبيين[٣].

وقد قُتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ / ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذى زالت الخلافة الفاطمية فى أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته من أطرافها ، وقد كان لمقتله ضجة فى القاهرة . ويجمل هنا أن نأتى بما أمدنا به عمارة اليمنى ، وكان شاهد عيان لما حدث فى مصر فى عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاوَر ويتجنب خلعه من منصبه . وقد دلت الأيام على أن تلك النصيحة كانت لخير ابنه . كان شاور عربى الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حُظوة لديه ، فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفى ابن رُزيك خلفه ابنه

---

(١) ابن ميسر ص ٩٤ وابن خلكان ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها .

(٢) ابن ميسر ص ٨٦

انظر .Prof. Margolouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦

العادل فى الوزارة ؛ غير أنه لم يكد يأتى عليه عام فى الوزارة حتى خلعه شاور وقتله ابنه طى ابن شاور فى ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م) .

وصار شاور بفعلته هذه غير محبوب من الناس ، مما سهل لأنصار سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة . وكان من مظاهر خُرْق شاور فى سياسته أن أطلق لابنه طىّ عنان التدخل فى شئون الدولة . ولم تقتصر أعماله السيئة على بنى رزيك ، بل تناول أذاها الأهلين عامة ، فاستئثار شاور بذلك — كما يقول عمارة — بغض الناس[1] .

ويقول أبو شامة فى عرض كلامه على مقتل العادل بن رزيك ، أن طىّ بن شاور هو الذى فعل تلك الفعلة دون رضى أبيه . ويقول ابن أبى طىّ الذى نقل عنه أبو شامة ذلك : « أشار بعض أقارب العادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله ؛ فأبى الوزير ذلك بادئ الأمر ، ولكنه عزله أخيراً . فثار عليه وعضده قوم من الأعراب وأهل الصعيد ، فتمكن من دخول القاهرة . ثم غادر العادل بن رزيك المدينة واختفى ؛ ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحملوه إلى شاور » .

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد ؛ وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة . بيد أن أفاعيل أولاده مع الأهلين جعلته مكروهاً عندهم ، حتى إن ضرغام أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند من برقة) وأخاه مُلْهما ، وهما من خواص طلائع ابن رُزّيك ، تفاوضا مع العادل — وكان محبوساً فى ذلك الوقت — فى أن يثير ثورة علّهم يتمكنون من إعادته للوزارة .

ولما اتصل ذلك بطى بن شاور ، حذر أباه عواقب تلك المؤامرة ونصح له بأن يقتل ابن رزيك . غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك ، فلم يذعن لرأى ابنه .

ذهب طىّ بن شاور بعد ذلك إلى السجن وقتل العادل بن رزيك ، فجاب لنفسه بذلك سخط أبيه . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل الثورة وهزم جند شاور . ففر شاور إلى سورية ؛ وبعد فراره قُتل ولداه طى وضرغام . أما ابنه الثالث الكامل ، فقد كانت له يد على ملهم أخى ضرغام أمين الباب ، فلم يقتله ، بل اقتصر

(١) عمارة اليمنى ، كتاب « النكت العصرية » (ص ٨٨)

على اعتقاله . وبهذا انتهت وزارة شاور الأولى وحل محله فيها ضرغام ، وذلك فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م)[1] .

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلاً جديا فى شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، وإسراف ضرغام فى قتل قواد مصر — كان من هذه الأحوال مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية[2] .

وقد هرب شاور فى رمضان من هذا العام إلى نور الدين بدمشق وطلب منه النجدة ، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية[3] . وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسى الخاص ، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد ، وأنها معين خصب الخراج .

وهنا قد يكون لينپول مصيباً فى ظنه ، وهو أن عدم ثقة نور الدين بشاور ، وتخوفه من الأخطار التى تستهدف لها حملته فى اجتيازها الصحراء ومرورها على الصليبيين — كل ذلك جعله يتردد فى هذا المشروع . غير أنى أميل إلى الظن بأن لينپول تسرع فى حكمه ، فأسند عدم ثقة نور الدين بشاور إلى أشياء جاءت بعدُ ، وذلك لعدم فهمه عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠) هذه : « وتخوف أن شاور إن استقرت قاعدته ، ربما لا يفى » ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد تزعزع أخلاق شاور فى الوقت الذى كان يحاول الاتفاق مع هاتين القوتين الأجنبيتين .

وقد أوردنا لنا ابن شدّاد (ص ٤٣) وأبو شامه (ص ١٠٧ — ١٠٨) وابن خلكان

---

(١) أبو شامه : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥ .
Recueil des Histoires des Croisdes, Historiens orientaux, tome IV. p. 165
النكت العصرية (ص ٦٧ و ٧٨) ، وابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٢) عمارة . النكت (ص ٨٨) ، وابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢١ .
ذكر ابن الأثير عن ابن أبى طىّ من جهة أخرى ، أن شاور أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه أن يعود إلى الشام . غير أن شيركوه أجابه اتباعاً لتعليمات نور الدين ، بأنه يجب أن يعطيه ثلث الخراج ، وأن ينفق الثلث الثانى على جيش شاور ، ويخصص الثلث الأخير لنفقات القصر . فأنكر شاور اتفاقه على ذلك مع نور الدين ، وذكر له أنه إنما اتفقا على أن يساعده نور الدين ، ثم ترجع الجنود السورية إلى بلادها متى صارت له السلطة ؛ فألح شيركوه فى ضرورة تنفيذ أوامر نور الدين ؛ فكانت نتيجة ذلك أن أمر شاور بإغلاق أبواب القاهرة ، وبدأ فى مفاوضة الفرنجة (أبو شامة ، شرحه ص ١٦٦) .

(ج ٢ ص ٤٩٩) وغيرهم الأسباب التي جعلت نور الدين يصمم على إرسال هذه الحملة إلى مصر ، هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولا — رغبته في إجابة شاور إلى طلبه ، وقد تضرع إليه ورغب في الاستعانة به .

ثانياً — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر ، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً ، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد .

٤ — حملات شيركوه على مصر :

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين . وذلك أن ضرغام اختلف مع عمورى في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه : فسار ملك بيت المقدس الجديد (عمورى) إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ليفرض عليها الجزية كرهاً . ولحقت الهزيمة المنكرة بضرغام في بلبيس ، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية . فأوحى له قصر نظره وغباوته فتح سدود النيل — وكان في إبان فيضانه — فأغرق البلاد . على أنه قد تم له ما أراد من رجوع عمورى إلى فلسطين .

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاور ونور الدين ؛ فأدرك خطأه في عدم اتفاقه مع عمورى ، وسارع بعقد حلف معه ، وزاد فيه مقدار الجزية . وسرعان ما ظهر نور الدين في ساحة القتال حين اتصل به ذلك . وقبل أن يتمكن عمورى من المسير إلى مصر (جمادى الثانية سنة ٥٥٩ ، إبريل سنة ١١٦٤ م) ، سار شاور إليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين قائد المقدمة . والتقى ذلك الجند مع المصريين في بلبيس ؛ فانهزم المصريون ، غير أنهم لموا شعثهم ثانية واجتمعوا تحت أسوار القاهرة[١] .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة أيام ، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء على الفسطاط ، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة . وأراد ضرغام أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده على أموال الأوقاف ، فأخذ الناس ينفضون عنه . وقد امتنع الخليفة والجيش عن

---

(١) عمارة ، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ، ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١) ، Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 177

مؤازرته ، فتدهور حتى رؤى راكباً مخترقاً باب زويلة سائراً فى طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ونصرة دعوته ، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء وتزويده باللعنات . وقد استمر فى سيره حتى جفل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض فى جوار ضريح السيدة نفيسة .

وسرعان ما قطع رأس ضرغام وطيف به فى الطرقات وسط مظاهر الفرح بهذا النصر[١] . وهنا يقول لينبول : « هكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام ، والشاعر البطل الحسن الخَلْق والخُلُق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذى كان فارس عصره ، وأحسن من نَبَل بالقوس فى مصر »[٢] .

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فقلد الوزارة ، وتوطدت أقدامه وأضحت قوته ثابتة الأساس . ولوثوقه بقوة مكانته وأنه قد أمن ما كان يتخوفه ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وهزأ بمحالفه ولم يف بما عاهده عليه ، وأبى دفع ما فرضه على نفسه من جزية ؛ ومد له الفرنجة يد المساعدة حين طلب شاور إليهم ذلك ، فحاصروا شيركوه فى بلبيس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ نوفمبر سنة ١١٦٤ م) . وانتهز نور الدين ذهاب عمورى إلى مصر فهزم قواته فى فلسطين ، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده[٣] .

ولكن شيركوه لم يحقق تماما فى حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى ، فأطمعه ذلك فى امتلا كها . لذلك بقى فى الشام مدة يعد العدة فى تجهيز حملة ثانية أملاً فى تأسيس إمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين[٤] .

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية فى غضون وزارته الثانية . ويؤخذ من قول عمارة أن شاور لم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر فى مركزه ، وفى اليوم التالى من وصوله القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبيس حين علم بخيانة شاور له ، وهزم الجيوش المصرية .

ابتدأ نجم شاور فى الأفول فى هذا الحين بسرعة ، فجرح أخوه صُبْح جرحاً بليغاً ،

(١) [illegible]نكت ص ٧٣

(٢) Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 8[illegible]

(٣) [illegible]بن شداد ص ٤٣

(٤) [illegible]مصدر نفسه .

وحاصر الفرنجة بلبيس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضاً إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً ؛ فقد كان لزاماً على شاور أن يقمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك[١] (عمارة ص ٦٧) ، الذى قام يطلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لَوَاتة ومن لفّ لفّهم من العرب . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى[٢] .

طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطناً ثابتا فى مصر ؛ فأرسل نور الدين جيشا إلى هذه البلاد تحت قيادة شيركوه ، إذ رأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة من شأنه أن يكسبهم قوة فى مصر ، وذلك يهدد مركزه فى الشام . وغادر جيش شيركوه الشام فى ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر — يناير ١١٦٦ — ١١٦٧ م) ؛ ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة ، كما يخبرنا بذلك عمارة وابن شداد وغيرهما من المؤرخين . وكان الفرنجة — كما ذكر أبو شامة عن ابن أبى طىّ — قد أعلموا شاور بسير الحملة السورية تحت قيادة شيركوه إلى مصر[٣] .

سار الجيشان بحذاء شاطىء النيل حتى وصلا إلى القاهرة . فضرب عمورى سرادقه قريبا من الفسطاط ، وعسكر شيركوه فى مواجهته تماما بالجيزة ؛ ووقعت موقعة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة ، وجيوش شاور والمصريين الذين اتحدوا مع الفرنجة من جهة أخرى . والتقى الفريقان ثانيا فى موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبى المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصراً مبينا ، وبذلك توطدت أقدامه فى الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث تمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمرين ، وذهب فى الصحراء شمالا حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة

أقام شيركوه بعد ذلك صلاح الدين والياً على الإسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش وعاد بالنصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يجبى الأموال فى الصعيد . أما قوى الفرنجة

---

(١) قتله شجاع بن شاور (حياة عمارة ص ٣٤٨) .

(٢) عمارة ص ٦٧ و ٧٥ — ٧٨ .

(٣) أبو شامة : Receuil des Histoires des Croisades, tom. IV. p. 168.

والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً ، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً . ولم يكن مع صلاح الدين لصد هؤلاء إلا ألف من أنصاره ؛ فأسرع شيركوه السير إليه ، واصطلح الفريقان آخر الأمر على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار.

عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه — كما يقول ابن شداد — قد ضعف كثيراً في حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار[١] . إلا أن شيركوه صار ملماً أكثر من قبل بأحوال مصر الداخلية ، ولذلك صمم كل التصميم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة .

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور . غير أن الأيام أظهرت أن أمنه هذا لم يكن إلا حلماً من الأحلام . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد ؛ وكان ذلك — كما يذكر عمارة[٢] — نذيراً باندحار شاور وقتله .

لقد كان سبب حملة شيركوه الثالثة ما رآه من جمع الفرنجة قواتهم كافة وزحفهم بها على مصر من جديد ؛ إذ قد حملهم الأمل في امتلاك مصر على نقض ما عاهدوا المصريين وشيركوه عليه . لهذا خشي نور الدين أن تقع البلاد في أيديهم ؛ فأرسل هذه الحملة تحت قيادة شيركوه ، يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين المعظم ، وغيرهم من ذوي قرباه وجيوشه[٣] .

وقد تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ؛ فقد أرسل لأسد الدين شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولا من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة ، وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبيس في صفر سنة ٥٦٤ (نوفمبر سنة ١١٦٨ م) . وهناك كانت مذبحة عامة ، إذ لم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري

(١) ابن شداد ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) النكت العصرية ص ٨١ .

(٣) ابن شداد ص ٤٥ و ٤٦ .

William of Tyre — على أحد ممن كان بهذه المدينــة من الناس على اختلافهم شباناً وشيباً ، ذكراناً وإناثاً[١] . وقد أسخط عمل عمورى هذا جمهـم المصريين ، فانحازوا إلى شيركوه ، كما بعث فيهم روح البطولة ؛ وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط ، حتى يكون ذلك حائلاً بينه وبين الفرنجة . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً ؛ ولا تزال آثار الحريق باقية إلى يومنا هــذا فى التلال الرملية التى تغطى القُمامة المدفونة فى الفضاء الممتد عدة أميال جنوبى القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لا تذين بالقاهرة التى ساد أهليها الحماس استعداداً لصد هجوم الفرنجة[٢] .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، وذلك بفضل ما أبداه شاور من الحذق فى مفاوضاته معهم كى يبعد عمورى عن مصر ببذل مقدار من المال له . لــكن سياسته معهم لم يكن يسودها الإخلاص ؛ فقد راسل نور الدين فى دمشق يطلب منه المعونة . وكتب الخليفة العاضد الشاب نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع فى رسالته خُصلاً من شعور النساء إمعاناً فى الضراعة ، حتى لا يسعه أن يرد توسله بعد ذلك[٣] .

على أن ما رواه الذهبى يختلف عما رواه ابن الأثير وابن شداد . فقد روى الذهبى[٤] أن شاور هو الذى كاتب نور الدين وأرسل إليه شيئاً من شعور النساء فى خطاباته ، كما روى أن تأثر نور الدين كان عظيما ، حتى إنه جعل شيركوه يقطع المسافة بين حمص وحلب فى ليلة واحدة ، فى جند يبلغ سبعين ألفاً سار به إلى مصر . وهاك عبارة الذهبى : « وكاتب شاور فى غضون ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به ، وسوّد كتابه ، وجعل فى طيه ذوائب النساء داخل كتبه يستحثه . وكان بحلب فساق أسد الدين من حمص إلى حلب فى ليلة ، فجمع أسد الدين وسار إلى دمشــق ... ثم سار إلى مصر فى جيش عرمرم ، فقيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل » .

---

(١) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) ما فعله الفرنجة فى عبارة أقل مبالغة فقال ، إن عمورى قتل عدداً كبيراً من الأهلين ، وأتلف معظم المدينة ، وأحرق أكثر مبانيها ، وجعل الناس فيها فريقين . قتل أحدهما بحد السيف ، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ ، أبو شامة ص ١١٥ .

(٣) شرحه .

(٤) مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud القسم الشرقى ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا — ١٣٥ ب .

وكان نور الدين قد صمم فى هذه الآونة على غزو مصر ، وكان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشتغل البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة . فأرسل فى الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه ، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يد عمه اليمنى ، الذى قبل تلك المهمة على مضض لما لاقاه من المصاعب فى حصار الإسكندرية[1] .

رحل شيركوه فى آخر صفر من السنة نفسها ، ووصل القاهرة فى السابع من جمادى الثانية . وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها ينتظر أكثر مما ناله من الأموال المصرية . فباغته شيركوه وانضم إلى المصريين متجنباً جيش الفرنجة ، وقد سار إليه ليحول دون تقدمه . أما عمورى الذى خدعه شاور ، والذى رأى تفوق شيركوه عليه فى الحرب ، فقد عاد إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال . ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر ، ورأى الناس فيه بطلاً منقذاً لهم ، فقابلوه بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعه وخلع عليه[2] .

٥ — مقتل شاوَر وتقلد شيركوه الوزارة :

لم يكن الغرض الحقيقى من حملة شيركوه الثالثة على مصر مساعدة شاور ، بل كان ذلك تمويهاً . وفى الواقع أن الغرض الذى انطوى تحت هذه الحملة يخالف عن ذلك اختلافاً تاماً ، إذ كان يراد بها القضاء على شاوَر واحتلال مصر . وقد كان شاور وشيركوه يعلمان ذلك حق العلم ، كما كان كل منهما يعرف أيضاً أن خصمه يكيد له كى يتخلص منه .

وقد صدق ابن خلكان فيما ذهب إليه من أن شيركوه كان واثقاً من أن الفرصة بامتلاك مصر لن تتاح له ما بقى شاور فيها . لذلك قرر أخيراً أن يقبض عليه فى إحدى زياراته له ، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة . فذهب راكباً جواده ، حيث التقى شاور وهو مقبل عليه يدعوه إلى وليمة دبر فيها أمر اغتياله ، فأمسك بطوقه ، وقاده إلى فسطاط منعزل ، وقطع رأسه بأمر من الخليفة الذى ولّى شيركوه الوزارة فى ١٧ ربيع الثانى

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ .

(٢) شرحه ص ١٣٦ و ١٣٧ .

سنة ٥٦٤ هـ (١٨ يناير سنة ١١٦٩ م) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات فى ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)[١]

بهذا انتهى أول فصل من فصول مأساة سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر . وقد أصاب عمارة إذ يقول : « ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجالَ الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك ، ولا أفنى أعيانَهم مثل ضرغام ، ولا أتلف أموالَهم مثل آل شاور . وشاور هو الذى أطمع الفرنجة والغز فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها »[٢] .

الآن يجدر بنا أن نبين كيف كان من سياسة نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمى ، وكيف سقطت الدولة بعد ذلك على يد صلاح الدين .

٦ — صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية :

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما سادها من الأحوال السيئة دهراً طويلا ، وما مُنيت به من التطاحن الحزبى والمنافسات بين الوزراء المصريين ، حتى غدت فى مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد .

وقد أيدت وفاة شيركوه مركز صلاح الدين ؛ فابتدأت منذ ذلك عظمته . فقد وطد العزم فى هذه الآونة على تأسيس إمبراطورية واسعة الأرجاء . ولكى يصل إلى بغيته ، خصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد . وفى ذلك يقول صلاح الدين : « لما يسر الله لى فتح الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل » (فلسطين)[٣] . وقد كان لنجاحه فى هذا المشروع ما جعله يلقّب بحامى الإسلام .

ولم يَعْجَل صلاح الدين إلى تقوية مركزه فى مصر ، بل عمل على توطيده تدريجيا ، كى

(١) ابن شداد ص ٤٧ و ٤٨ . ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .
ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذى قتل شاور . وذكر الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud. ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا) أن شركوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

(٢) عمارة . النكت ص ٨٨ .

(٣) ابن شداد ص ٤٨ و ٤٩ .

لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . وكانت هذه هى السياسة الحازمة التى كان لزاماً عليه أن ينتهجها . وقد أراد إضعاف حزب الخليفة ، فعمل أولا على اكتساب ثقة الأهلين ؛ وكان له من كرمه — كما يقول ابن شداد — ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون إلى طاعته . ولم يخيّب رجاء قاصد له ، وبذلك نجح فى اكتساب محبة الشعب[1] . وأسند مهام الدولة إلى أناس من أنصاره ، وما فتىء يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة .

وكان رجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين ، والخليفة يعلم حق العلم أنه ولّى الوزارة إمّعة لا سيداً مستقلا برأيه . لذلك قامت المكائد على قدم وساق للقضاء على هذا الوزير الجديد . وقد ترأس المؤامرة عليه « نجاح » كبير الخصيان السود . وكان من تدبيرهم أن يصلحوا ذات البين بينهم وبين الفرنجة ، فيجىء هؤلاء لغزو مصر ، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ؛ وبذلك يقع بين نارين ، فيُقضى عليه وعلى جنده من التركمان .

وقد علم صلاح الدين بما دبره أعداؤه له ؛ فأمر بمراقبة كبير الخصيان ، وقبض عليه وقُطعت رأسه (ذو القعدة سنة ٥٦٤ ، يوليه سنة ١١٦٩) كما قتل كثير من بنى جلدته . فأثار ذلك حنق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بثأره . واشتبكوا مع جند صلاح الدين فى معركة عنيفة فى المكان المعروف ببين القصرين ، أحرق فيها كثير من المنازل والشوارع . ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية ، وطردوا إلى الجيزة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا فى ثورتهم عدة سنوات ، إلى أن قُضى عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)[2] .

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

(٢) ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) . ذكر ذلك التاريخ الذهبى (مكتبة بودلان بأكسفورد ، مخطوطات .Laud ، القسم الشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤٦ ا) عن سبط ابن الجوزى ، الذى أمدنا بمعلومات عن ثورة السودانيين تحت قيادة زعيمهم الكَنْز ، الذى ثار فى الصعيد سنة ٥٧٢ هـ ، ثم سار إلى القاهرة لإعادة الخلافة الفاطمية ؛ فنشب القتال بينهم وبين الأيوبيين ، وانتهى بهزيمة السودانيين . وقد قُتل زعيمهم ونحو من ثمانين ألفاً معه فى الحرب ، وبذلك ضاعت آمالهم فى استرجاع خلافة الفاطميين . وفيما يلى نص عبارة الذهبى . " وفيها (سنة ٥٧٢ هـ) كانت واقعة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع خلقاً عظيما وساروا إلى القاهرة ليعيدوا الدولة . . . . فقتل الكنز ، وقتل خلق كثير من جموعه ، حتى قيل إنه قتل منهم ثمانون ألفاً . هكذا قال أبو المظفر فيزوغلى " .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٥١٠) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٩) أن ذلك كان فى ٧ صفر سنة ٥٧٠

ولما توطدت أقدام صلاح الدين فى مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة . فبعث فرقاً لغزو ولايتى الـكَرَك والشَّوبك وغيرهما مما أثار مخاوف الفرنجة . ولا غرو فقد كان ذلك نذيراً بذهاب سلطانهم فى فلسطين .

واتحد الفرنجة مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر ؛ فنزلوا أولا على مقربة من دمياط . وقد ذهب جماعة منهم فى ذلك الوقت ، فاستولوا فى ربيع الثانى سنة ٥٦٥(١١٦٩ — ١١٧٠م) على قصر عكاء ، وكان يحتله خُطْلُخ نائباً عن نور الدين ، وكان لقبه « علم دار » (أى دار السلطان) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط ، أسرع بحصار الـكرك (شعبان سنة ٥٦٥ هـ ، ١١٧٠ م)(١) .

أما صلاح الدين الذى كانت له السلطة المطلقة حينذاك ، فقد أعد جيوشه وملأ دمياط بالذخائر ، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة ليخلص أهلها مما حاق بهم من هلع ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين فى احتلاله جزءاً من مملـكة النصارى فى فلسطين ، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذى كان يعضده الخليفة العاضد أيضاً طوال مدة الحصار الذى استمر خمسين يوماً ، وأمده بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار(٢) بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيما من رجالاتهم(٣) .

و بعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه ؛ فـكان له ما أراد ، ووصلت أسرته فى جمادى الثانية ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م)(٤) . فجعل أباه على بيت المال ، وعضده إخوته بإخلاص ؛ وأقطعهم أملاك المصريين الذين نفاهم إلى حيث لا يمكنهم أن يثوروا ضده(٥) .

---

(١) ابن شداد ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢ .

(٣) ابن شداد ص ٥٢ .

(٤) ذكر الذهبى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات لود ، القسم الشرق ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٧ ب) أن الخليفة العاضد استقبل بنفسه نجم الدين والد صلاح الدين خارج القاهرة . وفى ذلك يقول : " وفى سنة خمس وستين وخمسمائة ، دخل نجم الدين أيوب مصر ، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه.

(٥) ابن شداد ص ٥٢ .

كان إخفاق الفرنجة فى غزوهم دمياط — ذلك الإخفاق الذى يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » — مشجعاً لصلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزوهم فى دارهم ؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التى لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعاً . وشجعهم على ذلك ما شاهدوه فى القاهرة من الأسلاب التى غنمها صلاح الدين[١] . ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين واتفاق تام بينه وبين المصريين ، أسند المناصب الدينية فى مصر إلى الفقهاء المتضلعين فى المذهب السنى .

إن ما ذكره ابن الأثير عن سقوط الخلافة الفاطمية وإحلال نفوذ العباسيين محلها فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) يعتبر مرجعاً لما سنذكره عن الخطوات التى اتخذها صلاح الدين لإبراز هذا الانقلاب إلى حيز العمل .

توطدت سلطة صلاح الدين فى مصر فى ذلك الحين ؛ وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة ، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأزال من الجيش بعض العناصر التى لم يكن يثق بإخلاصها . فكان لنور الدين — وهو من غلاة السنة — أن يرغب فى إحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى .

غير أن صلاح الدين تردد فى تنفيذ رغبة نور الدين ، لما كان يخشاه من أن يثير هذا العمل ثورة أهالى مصر ، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين . بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين ؛ فكتب إلى صلاح الدين يأمره أمراً لا مناص لواليه من تنفيذه[٢] .

وكان الخليفة العاضد مريضاً فى ذلك الوقت . فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى . فوافقه بعضهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٧ .

(٢) شرحه ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

وأخذوا على عاتقهم تعضيده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتى لا تطاع .

وكان فى هذا المجلس رجل فارسى يعرف بالأمير ، حل بمصر منذ عهد قريب ؛ فلما رأى ترددهم ، اعتزم أن يتولى هذا الأمر بنفسه . فصعد المنبر قبل الخطيب فى أول جمعة من المحرم ، ودعا للمستضىء العباسى . ولما لم يحتج أحد على ذلك ، أمر صلاح الدين فى الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا باسم الخليفة العباسى . وهكذا تم ذلك التغيير بدون أن يلقى أية مقاومة . وفى ذلك يقول ابن الأثير : « فلم ينتطح فيها عنزان »[1] .

لم يخبر العاضدَ — وكان مريضاً جداً — أحدٌ من أسرته بذلك الحدث وقالوا : « إن عوفى فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته » . وتوفى فى العاشر من المحرم من غير أن يعلم بهذا التغيير العظيم الذى تم ؛ فجلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما احتواه .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الطواشى بهاء الدين قراقوش[2] على القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته فى جناح منه . أما الموالى من الذكور

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩ .

(٢) معنى قراقوش باللغة التركية طائر أسود . وقد تولى بهاء الدين إنشاء عدة من الآثار غيرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل ، وقناطر الجيزة ؛ وسور القاهرة العظيم . ولما فتح صلاح الدين عكاء سنة ٥٨٣ ﻫ (١١٨٧ م) عينه والياً عليها فى السنة التالية . وقد أسر لما استولى عليها الفرنجة فى سنة ٥٨٧ ﻫ (١١٩١ م) ؛ لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش فى القاهرة حتى توفى سنة ٥٩٧ ﻫ (١٢٠١ م) .

انظر عبد اللطيف البغدادى (طبعة دى ساسى ص١٧١ و ١٧٢ و٢٠٧ و ٢١٣)،(طبعة أكسفورد سنة ١٨٠٠ ص ٨٨ و ٩٠) ، وابن الأثير (طبعة القاهرة ص ١٤٨ و ١٤٩)، وابن شداد (مؤرخو الحروب الصليبية الشرقيون (Historiens orientaux des croisades) ج ٣ ص ١٢٠ و ١٣٥ ، ١٧٦ و ١٨٣ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٣٠٤ و ٣١٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٣ و ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٢٦،٥٠٥) ، وأبا الفدا (ج ٣ ص ٥٣ و ٧٤ و ٨٧ و ٨٨) : Derenbourg Vie d'Ousâma, pp. 432,343,n.1

هذا وينبغى ألا نخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمنى ، الذى خدم الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح وسلب ونهب ؛ وبذلك ألقت أعماله فى قلوب الناس الهلع الذى لا تزال ذكراه باقية إلى اليوم .

انظر Derenbourg : Vie d'Ousâma, p. 450. n. 4

والأثاث فقد أخرجوا من القصر، وأعتق صلاح الدين بعضهم وأعطى البعض لأنصاره وباع الآخرين .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلا كان عصر يسر ورخاء، وتسامح ديني وثقافة، لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة، وإعادة الخطبة للخليفة العباسي، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثماني سنوات تقريباً — هو انتصار السنة على الشيعة .

الباب السابع

سياسة الفاطميين الداخلية

١ — سياسة الفاطميين مع النصارى واليهود

كانت سياسة الفاطميين موجهة إلى غاية واحدة ، هى العمل بكل جد لحمل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمى سائداً فى كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت حكمها .

كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله . ولكن العزيز كان أكثر عطفاً على النصارى لما كان بينه و بينهم من صلة النسب ؛ فإنه تزوج بنصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريقين ملكيين — أعنى بطريقين للكنيسة التابعة للكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية المخالفة لكنيسة اليعاقبة — وجعل أحدهما فى الإسكندرية ، والآخر فى بيت المقدس (١) .

ولقد توالى عطف الخليفة على الكنيسة القبطية ، كما توالى أيضاً على جماعة الملكيين التى كانت تتبعها زوجته ، وسمح للبطريرق القبطى إفراهام بإعادة كنيسة أبى سَيْفَيْن الخربة بظاهر الفسطاط (٢) .

ورفع العزيز عيسى بن نَسْطُورِس إلى كرسى الوزارة ، كما عين مِنَشَّا اليهودى والياً على الشام . فأظهر ابن نسطورس ومنشا محاباة جلية لبنى ملتهم ؛ فعينوهم فى مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها (٣) ؛ ومن ثم عاد شعور الكراهة نحو أبناء الطائفتين اليهود والنصارى . ولقد تجلى ذلك الشعور ، فقدّم المسلمون الاحتجاجات على تلك المحاباة التى أظهرها الخليفة لغير المسلمين . وبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) أبو صالح ص ٤٥ و ٤٦

(٣) أبو شجاع ص ١٨٦ Mann : The Jews in Egypt, etc., pp. 19, 20.

وأعطاها امرأة[١] ، ورغبها بالمال لتقف فى سبيل الخليفة العزيز[٢] وتقدمها إليه ، وفيها : « بالذى أعزّ النصارى بعيسى بن نسطورس ، واليهود بمنشا بن إبراهيم القزّار ، وأذل المسلمين بك ، إلاَّ نظرتَ فى أمرى » ؟

ويقول أبو شجاع إن العزيز أمر بالبحث عن هذه المرأة ، فلم يعثروا عليها . فأمر فى الحال بالقبض على ابن نسطورس[٣] وسائر الكتّاب من النصارى ، وكتب إلى الشام بالقبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود ؛ وأمر برد الدواوين والأعمال إلى الكتّاب المسلمين ، وعيّن القضاة للإشراف على أعمالهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية الفاطمية . ولكن الأميرة ست المُلك إبنة الخليفة شفعت له ، فرد العزيز الوزارة إلى ابن نسطورس ثانياً ، وشرط عليه استخدام المسلمين فى دواوين الحكومة[٤] .

غير أن رد ابن نسطورس إلى الوزارة لم يجز رضى المسلمين ، بل زاد فى كراهتهم ؛ فسرعان ما انفجر بركان هذه الكراهة عند ما ارتقى الحاكم عرش الخلافة .

وعلى الرغم مما أظهره الكتاميون من الكراهة الشديدة للنصارى واليهود ، قلد الحاكم

---

(١) روى أبو الفدا (ج ٢ ص ١٣٨) وابن اياس (ج ١ ص ٤٧ و ٤٨) عن المسبحى ، أن هذه المرأة التى اعترضت العزيز لم تكن امرأة حقيقية ، وإنما هى صورة مصنوعة من الورق على هيئة امرأة . . يقول ابن اياس إن الصورة كانت عبارة عن مبخرة حديدية فى زى امرأة، ويدها ممتدة بالشكوى؛ وهذا يخالف ما ذكره أبو شجاع وغيره من الكتاب الذين عاشوا قبله ، بل وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده كالسيوطى (ج ٢ ص ١٧) .

(٢) ذكر أوليرى (ص ١٤٣) أن هذه الحادثة كانت فى خلافة الحاكم ؛ وربما كان ذلك لأن أبا الفدا ، الذى روى أوليرى عنه هذه الحكاية ، قد ذكرها عند كلامه على سنة ٣٨٦ ﻫ ، وهى السنة التى توفى فيها العزيز وتولى الحاكم . ويظهر لنا أن رواية أبى الفدا لا تعتمد على مرجع صحيح ؛ لأن هذه الحادثة وقعت في سنة ٣٨٠ ﻫ (انظر « أبو شجاع » ص ١٨٦ وابن القلانسى ص ٣٣) .

(٣) ذكر ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٠ ا) أن العزيز « أرسل من وقته وساعته وصلب النصرانى على باب القصر ، وأرسل اليهودى بدمشق ، وصلبه على باب المدينة » . ولكن ابن زولاق لم يبين لنا إن كانت هذه المدينة هى القاهرة أو دمشق . على أنه يظهر من كلام ابن زولاق أن الصلب كان على باب القاهرة ؛ لأن قوله « أرسل اليهودى بدمشق » (رسولا يحضره) تقرب إلى الذهن أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ، وأن صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، لأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنين . وموته مع ابن زولاق فى سنة واحدة ، وهو عمدتنا فى هذه المسألة ، مما يجعل هذه الرواية أقرب إلى الصحة من غيرها ؛ فإن رواية ابن إياس (ج ١ ص ٤٩) التى نقلها عن المسبحى بأن ابن نسطورس ومنشا شنقاً ، وأن الأول شنق على باب القصر والثانى على أحد أبواب دمشق ، بعيدة عن الصحة ؛ لأن ابن نسطورس عاش بعد ذلك عدة سنوات .

(٤) أبو شجاع ص ١٨٧

ابن نسطورس ديوان الخاصة . ويغلب على الظن أن ذلك كان بسعى برجوان ونفوذ ست المُلك أخت الخليفة التى كانت السبب فى حفظ حياته وإعادته إلى مركز الوساطة . ويحدثنا ابن ميسر[1] أن ابن نسطورس قتل فى المحرم من سنة ٣٨٧[2] ، أى بعد تقلده هذه الوظيفة الجديدة بعدة أشهر .

والعبارة التى أوردها أبو شجاع[3] عن قتل ابن نسطورس تشوبها شائبة الغموض . فإنه ذكر أن ابن عمار قتله (ابن نسطورس) وهو فى الوزارة . وفى ذلك يقول : « وكان عيسى بن نسطورس على حاله فى الوزارة ، فبلغه عنه ما أنكره فضرب عنقه . »[4] .

يضاف إلى ذلك ما قاله يحيى بن سعيد من أن ابن نسطورس لم يكن حين وفاته فى دست الوزارة حيث يقول : « وكان عيسى بن نسطورس قد رسم أيام نظره رسوما جائرة ، وأحدث مكوساً زائدة ... فحذف ابن عمار جميع ذلك ورد الأمور إلى ما كانت عليه ، وقبض على ابن نسطورس واعتقله ثم قتله »[5] .

ولقد ظل الخليفة الحاكم تحت إشراف برجوان إلى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ ، وهو اليوم الذى قتل فيه برجوان[6] . وفى الشطر الثانى من خلافة الحاكم (٣٩٠ — ٣٩٥ هـ) ، حين أصبح عقله مختلا وسياسته مضطربة ، أظهر تعصباً شديداً للمذهب الفاطمى . وفى الشطر الثالث من خلافته (٣٩٦ — ٤٠١ هـ) ، اضطر إلى أن يغير سياسة التعصب المذهبى ، لما كان من اضطراب حبل الأمور فى داخل البلاد ، بسبب ما نزل بها من المجاعة والضنك وتهديد الأعداء بالإغارة على حدودها الغربية ؛

---

(١) ص ٥١ و ٥٤

(٢) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) إن وفاة ابن نسطورس كانت فى سنة ٤٠٣ ، وهو خطأ واضح .

(٣) يظهر أن ابن القلانسى (ص ٣٣) قد نقل هذه العبارة .

(٤) ص ٢٢٣

(٥) ص ١٨٠

(٦) ذكر هذا التاريخ ابن منجب (ص ٢٧) . وقال أبو شجاع (ص ٢٣٠ و ٢٣١) بعد أن أدلى بالأسباب التى أفضت إلى قتل برجوان ، إن وفاته كانت فى سنة ٣٨١ ، أى قبل ولاية الحاكم الخلافة بخمس سنين . وذكر ابن القلانسى (ص ٥٥) أن الخطوات التى اتخذت لقتل برجوان بدأت فى سنة ٣٨٩ . واتفق الذهبى مع ابن منجب (شرحه ، حاشية ١) ، فذكر كل منهما أن وفاة برجوان كانت سنة ٣٩٠ هـ .

فكان لا بد له من القضاء على الثورة الداخلية وصد هؤلاء الأعداء المهاجرين .

ففي سنة ٣٩٣ هـ نشط في عمارة المساجد وفي إغداق الإحسان على المساجد . « واهتم مع ذلك بتشجيع مبادئ المذهب الفاطمي ، وقسا على اليهود والنصارى في المعاملة ، ولو أنه في ذلك كان مسوقاً بضغط الرأي العام الذي لا يشك في أنه قد هاجه ما رآه من الخلفاء الفاطميين من محاباة غير المسلمين »[1] .

كانت نتيجة هذه السياسة أن قتل فهد بن إبراهيم في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٣٩٣ . وقد بينا من قبل أن برجوان تقلد الوساطة في ٢٧ رمضان سنة ٣٨٧ هـ ، وجعل فهداً كاتباً له ، وتلقب بالرئيس ، وعهد إليه بفض الشكايات والإشراف على غلمان القصر ، ومعاونة برجوان في إدارة شئون الدولة والنيابة عنه إذا غاب . فلما مات برجوان وحل محله الحسين ابن جوهر ، كان فهد معه كما كان مع سلفه ، وبقي كذلك إلى أن قتل في أيامه[2] .

وكان لتعصب الجمهور وتعصب الكتاميين بوجه خاص ، وروح التبرم التي أثارت عليه حفيظة رجال الدولة ، وشعور الكراهة التي سادت النفوس ضد النصارى تأثير كبير في قتل فهد بن إبراهيم .

وقد لقي أبو طاهر النحوي متولي ديوان الشام ، الخليفة الحاكم وقال له : « يا مولانا ! إن كنت تؤثر جمع الأموال وإعزاز الإسلام ، فأرني رأس فهد ابن إبراهيم في طست ، وإلا لم يتم من هذا شيء » . فقال الحاكم : « ويحك ! ومن يقوم بهذا الأمر ؟ » فاقترح اسم ابن العداس ؛ فرضي الحاكم على كره منه ، كما يظهر ذلك من ملاحظه على كلام النحوي[3] . ثم أعلم النحوي ابن العداس بما كان من موافقة الخليفة ، فلم يشك هذا في أن الحاكم سوف يثأر لقتل فهد وقال له : « ويحك ! قتلتني وقتلت نفسك » .

وإن هذا الرأي الذي أبداه ابن العداس ، يبين بوضوح أن الحاكم شعر بشيء من التبرم لارتكاب هذا العدوان على رعاياه من غير المسلمين . وعلى كل ، فقد خلف

---

(١) O' Leary. 143.

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٨٥ . ابن القلانسي ص ٥٦ .

(٣) ابن القلانسي ص ٥٩ و ٦٠ . والمقريزي خطط ج ٢ ص ٣١ .

ابن العداس نهداً فى مركزه ؛ ولم يمض تسعة وعشرون يوماً حتى قتل وأحرق (٦ شعبان سنة ٣٩٣) .

وفى الخامس عشر من رجب — أى بعد مقتل فهد بأسبوع واحد — لحق به أبو طاهر[١] . أما فهد ، فإن الحاكم أحضر أولاده على أثر مقتله ، وخلع عليهم وكتب لهم سجلا بحمايتهم ومنع الأذى عنهم[٢] .

وكانت الخطوة الأولى التى اتخذها الحاكم لتنفيذ سياسته أن اشتد على كبار موظفيه وحملهم على الإسلام ، ليزيل بذلك التهم التى اتهموا بها ؛ فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتّاب من النصارى . ولكن الحاكم أطلق سراحهم وأعيدوا إلى مراكزهم بشفاعة أبى الفتح سهل بن مُقَشَّر النصرانى ، طبيب الخليفة الخاص الذى كان مقرّباً منه كما كان مقرّباً من أبيه العزيز[٣] .

وفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بشد الزُّنّار ولبس الغِيَار[٤] . وفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) بدأت سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى واليهود ؛ فهدم بعض الكنائس ونهب البعض ، واستولى المسلمون على ما فيها من الأوانى المقدسة والأثاث ، وبيعت الأوانى فى الأسواق[٥]

وقال يحيى بن سعيد (ص١٨٦) إنه سمح للنصارى بأن يبنوا ثلاث كنائس فى مقابل الكنائس التى هدمت . وقد يكون السبب الذى دعا إلى ذلك أن موقع الكنائس التى بنى على أطلالها مسجدا الحاكم وراشدة قد اعتبر من المنافع العامة ، فهدمت لذلك لا لشىء آخر .

وفى سنة ٤٠٠ هـ تقلد الوزارة منصور بن عَبْدون النصرانى خلفاً لصالح بن علىّ

---

(١) ابن القلانسى ص ٦٠ و ٦١ .
لقد تناول كل من أبى شجاع (ص ٢٢٦ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٦) ويحيى بن سعيد (ص ١٨٥) الكلام على هذه المسائل بإيجاز .

(٢) ابن القلانسى ص ٦٠ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٨٥ و ١٨٦ ، القفطى ١٧٨ و ٤٣٨ .

(٤) هو الشارة التى يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين التابعين للحكومة الإسلامية .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨٦ و ١٩٥

الروذَبارى[١] (١١ صفر سنة ٤٠٠) ، فى وقت كان الاضطهاد قائماً على قدم وساق : ولقد أطلقت يد ابن عبدون وأصبحت له السلطة التامة فى إدارة البلاد ، حتى إنه كان يوقّع نيابة عن الخليفة . وعهد تقلد ابن عبدون الوزارة أمر جدير بالملاحظة ، لما كان من إشارته على الخليفة بوجوب هدم كنيسة القُمامة[٢] فى بيت المقدس[٣] .

اتسع نطاق اضطهاد النصارى الذى قام به الحاكم . وربما كان ذلك راجعاً إلى إسناده مركز الوزارة إلى بعض النصارى واليهود ؛ فقد كان ذلك يوغر صدور المسلمين عليهم . ولما غضب عليهم الحاكم ، اشتدت حكومته عليهم فى تنفيذ الأوامر التى تقضى بلبس الغيار .

ففى المحرم سنة ٤٠١ أقيل ابن عبدون من الوزارة بعد أن تقلدها أحد عشر شهراً ، وتربع فى دستها رجل من المسلمين ، هو أحمد بن محمد القُشَيْرى[٤] . ولكن هذا عزل بعد عشرة أيام[٥] ، ثم قتل وحل محله فى الوزارة زُرعة أخو عيسى بن نسطورس ، وتلقب بالشافى ، وظل يطلق عليه هذا اللقب إلى حين وفاته فى صفر سنة ٤٠٣[٦] .

وفى ذلك الوقت بدأت سياسة الحاكم تظهر بمظهر أكثر تقلباً وتذبذباً ، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطرابا . أما سياسته مع غير المسلمين وخاصة النصارى فقد كانت تابعة

(١) هذا اللفظ مشتق من روذبار وهى ، على ما ذكره السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ٢٦١ ب) ، أماكن معينة تقع فى جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة . ويطلق هذا اللفظ كذلك على قرى كثيرة تقع على مقربة من أصبهان ، وعلى قرية قريبة من بغداد .

(٢) إطلاق لفظ القمامة على الكنيسة المعروفة فى بيت المقدس ، لأن موضعها كان قد اتخذه اليهود مزبلة ، حتى جاءت هيلانة أم قسطنطين وسألت عن المكان الذى يزعمون أن المسيح صلب وغسل ودفن فيه ؛ فدلت على القمامة . فأزالت منه القمامات وبنت فى موضعها الكنيسة . ويطلق هذا اللفظ أحياناً على الكنيسة بغير أداة التعريف .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٤ ؛ ابن القلانسى ص ٦١ و ٦٧

(٤) قد أورده يحيى بن سعيد (ص ١٩٨) القسورى . ويحتمل أن يكون هذا اللفظ محرفا عن لفظ القشيرى (انظر كتاب الأنساب للسمعانى ، ورقة ٤٥٥ ب) . وذكره ابن منجب (ص ٢٨) قشورى ، وصحته كذكره السمعانى (كتاب الأنساب ، ورقة ٤٥٣ ا وما يتبعها) قشيرى ، منسوب إلى بنى قشير وهى قبيلة كانت تقيم فى البصرة ، ينتسب إليها المحدث المشهور مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح .

(٥) أو تسعة أيام على ما ذكره يحيى بن سعيد ص ١٩٨

(٦) يحيى بن سعيد (ص ١٩٨ و ١٩٩) . وقد وافانا ابن منجب (ص ٢٨) بتاريخ وفاته .

لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استياؤهم راجعا لنحلتهم الدينية فحسب ، بل لأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب .

وفى سنتى ٤٠٠ و٤٠١ هـ لم يقتصر الاضطهاد على غير المسلمين ، بل تعداهم إلى بعض ذوى المناصب العالية من الفاطميين ، ثم انتهى بأن شمل جميع السكان على اختلاف طبقاتهم . فهرب من البلاد الحسين بن جوهر وأولاده ، وعبد العزيز بن النعمان قاضى القضاة من قبل ، وأبو القاسم الحسين المغربى[1] ، من الوزراء السابقين ، وقتل كثير من كتاب « البلاط » والدواوين وخدام القصر . وفى شوّال سنة ٤٠٠ قتل صالح بن علىّ الروذبارى الذى كان قد أقيل وحل محله ابن عبدون . وقتل أيضا أحمد بن محمد القَشُورى (١٤ المحرم سنة ٤٠١) ، ولحق به بعد قليل ابن عبدون وصودرت أملاكه . كذلك قتل الحسين ابن جوهر والحسين بن النعمان وصودرت أموالهما ، بعد أن أخذا من الحاكم أمانا عادا على أثره إلى القاهرة[2] .

ومن الصعب علينا أن نحدد الوقت الذى انتهى فيه الاضطهاد تحديداً تاما . ولكنا نظن — كما يظن دى ساسى — أن وطأته أخذت تخف حول سنة ٤٠٠[3] . وزادنا دى ساسى أنه حول سنة ٤٠٤ اجتمع النصارى واليهود وقابلوا الحاكم ، كما يعلم ذلك من كتب الدروز .

وبينما كان الحاكم يسير يوما فى مقبرة قباب الطير ، إذ قابله جماعة من ممثلى الطائفتين ، وكانوا فى انتظاره ، واستأذنوه فى الكلام والتعبير عما خالج نفوسهم من أحزان وآلام . فأذن لهم وأمّنهم ، وأعطاهم الحرية فى القول ؛ فتكلموا وقالوا له إن سلوكه معهم يغاير ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، وسألوه كيف يبرر هذه السياسة التى تناقض العهد والميثاق الذى أعطى لهم . فأمرهم بالانصراف والحضور لمقابلته فى نفس المكان من الليلة التالية مع علمائهم ، وأكد لهم أنه لا ينالهم منه ضرر إذا ما تكلموا هما بأنفسهم .

---

(١) قتل ابنه محمد بعد مقتل ابن النعمان والحسين بن جوهر (أبو شجاع ص ٢٣٣) .

(٢) ابن القلانسى ص ٦١ .

(٣) Vie de Khalife Hakem-Biamr—Allah, Vol. I, p. 376.

وفى الليلة التالية ، أخبرهم الحاكم بأن هذا السلوك الذى كان فى عهد النبى ، كان القصد منه الترغيب فى الدخول فى الدين الإسلامى ؛ ولكنه لم يؤت ثمرته المنتظرة . والآن وقد مضى على الإسلام أربعة قرون ، وكان فى مكنتهم الدخول فيه ، لأنه فى متناول كل إنسان ، وكانت مبادئه تحت أنظار الجميع ، وفى قدرتهم أن يفحصوها ويمحصوها ، « فليس لكم الآن عندى إلا اختيار واحدة من اثنتين : إما اعتناق الإسلام بعد كل هذا التأخير ، وإما العقوبة العاجلة إذا أبيتم الدخول فيه » . فلم يجسر المندوبون على الاحتجاج على ما فاه به الخليفة وانصرفوا من حضرته[1] .

ويحدثنا يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا فى الإسلام ولم يخضعوا لقوانينه بالهجرة إلى بلاد الإغريق[2] . فهاجر كثير منهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، وإلى بلاد النوبة والحبشة ؛ ومن بقى منهم دخل فى الإسلام[3] .

فنى سنة ٤١١ هـ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١٠٢٠) رجع جماعة ممن اعتنقوا الإسلام خوفا إلى دينهم القديم . يقول ابن زولاق[4] إنه ارتد أكثر من سبعة آلاف يهودى إلى دينهم القديم فى يوم واحد . وفى هذه السنة أمر الحاكم بإعادة بناء الكنائس التى كان قد هدمها . وأعاد إليها أملاكها . وكان من أثر هذا التغير الجديد فى سياسة الحاكم إزاء النصارى واليهود ، أن عاد إلى مصر كثير ممن كانوا قد هاجروا إلى البلاد الأجنبية — وذلك فى سنة ٤١١ هـ ، وهى السنة التى انتهى فيها الاضطهاد[5] .

هكذا كان مسلك الحاكم طوال حياته فى منتهى الغرابة . وبعد وفاته ، أو بعبارة أدق بعد انتهاء اضطهاده الذى دام تسع سنين (٣٩٨ — ٤٠٧ هـ) ، تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية فى عهد الخلفاء من بعده ؛ وأخذ الشعور العدائى الذى كان فى نفوس

---

(١) المصدر نفسه (ج ١ ص ٣٧٦) وما يتبعها .

(٢) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) أن كافة النصارى واليهود أمروا بالهجرة إلى بلاد الإغريق . ويظهر أن دى سامى (Vie de Khalife Hekem, etc. Vol. I. p. 376) أخذ عبارته عن يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) .

(٣) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب ، وابن إياس ج ١ ص ٥١

(٥) يحيى بن سعيد ص ٢٣١ و ٢٣٢ .

المسلمين نحو مخالفيهم فى الدين يقل ويضعف ؛ وما كان يظهر له أثر إلا فى فترات قصيرة ، وبخاصة عند ما يتقلد نصرانى أو يهودى منصباً من مناصب الدولة ، ولا سيما الوزارة ؛ فإن انتقالها إلى يد رجل من غير المسلمين يترتب عليه تقوية نفوذهم واستئثارهم بكثير من هذه المناصب .

وقد أمدنا ابن ميسر بأمثلة كثيرة من هذا النوع ، حيث يصف لنا وفاة أبى سعيد التُّستَرى اليهودى عند كلامه عن سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ، وقال إن أم الخليفة المستنصر كانت من قبلُ أمَةً فى بيت التسترى ، وأنه أهداها إلى الخليفة الظاهر . وبعد وفاة الظاهر ارتفع قدر التسترى وتقرّب إلى الخليفة المستنصر ، وإن كان لم يستطع أن يناوئ سلطة الوزير أبى القاسم الجَرْجَرَائى[١] .

ولكن بعد وفاة الجَرْجَرَائى عظمت سلطة التسترى ، لأنه تولى نظارة الخاصة لأم الخليفة المستنصر ، وقبض على أزمة الأمور فى عهد الوزير أبى منصور صَدَقَة بن يوسف الفلاحى[٢] ؛ فحقد عليه الوزير ، لأنه لم يكن له من الوزارة معه إلا الاسم فقط[٣] .

أما الأسباب التى أدت إلى قتل التسترى فقد وافانا بها ابن ميسر ، وأخبرنا أن بنى قُرَّة من سكان البحيرة قاموا بثورة عظيمة اشتد وقعها على الدولة . فأنفذ المستنصر إليهم عزيز الدولة ريحان ، على رأس قوة كبيرة لقمعها . وكانت نتيجة انتصاراته عليهم أن نال الحظوة عند الخليفة ، وشمله بعطفه ورعايته ، وقرّبه إليه . واجتذب ريحان المغاربة إليه بزيادته فى أعطياتهم وتقليله من أعطيات الأتراك واشتداده عليهم ؛ فكان من نتيجة هذه السياسة أن وقع الخصام والتطاحن بين الفريقين . ومات ريحان فى ذلك الوقت من مرض ألمّ به على حين غفلة ؛ فانتهز الوزير الفلاحى هذه الفرصة ونال من خصمه التسترى الذى كان يحقد عليه لاستئثاره بالسلطة دونه ، وعزا موت ريحان إلى أنه سقاه سماً ونشر ذلك بين الجنود .

(١) ذكر ابن منجب (ص ٣٦) أن الجرجرائى تقلد الوزارة فى ذى الحجة من سنة ٤١٨ ؛ وأتى لنا ابن القلانسى (ص ٨٠ — ٨٤) بنص سجل تقليده الوزارة التى بقى فيها إلى حين وفاته فى ٦ رمضان سنة ٤٣٦ .

(٢) أطلق عليه ابن القلانسى (ص ٨٤) أبا نصر صدقة بن يوسف .

(٣) ابن منجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن ميسر ص ١ و ٢

وفى ٣ جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م)، بينما كان التسترى فى طريقه إلى القصر، انقضّ عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه؛ ثم مثّل الأتراك بجثته، فقطعوها إرباً، وأحرقوا بعضها، ثم دفنوه فى التراب. وقد أخذ أهله ما بقى من جثته ووضعوه فى نعش وأحاطوه بالشموع الموقدة، وتركوه فى مكان منعزل؛ فامتدت النار إلى النعش فأحرقته بما فيه[1].

و بعد مقتل التسترى أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية. ولكن قتل التسترى قد آلم أم الخليفة، ولم يكن بالحادث الذى تتناساه. فأثار هذا الحادث حفيظتها على الفلاحى، فأقيل وحبس، ثم قتل فى المحرم سنة ٤٤٠[2].

والحقيقة أن شعور المسلمين المعادى نحو التسترى وأهل ملته كان من الشدة بحيث أعطى الفلاحى فرصة للإيقاع به. ويحدثنا ابن ميسر أن التسترى كان مكروها لدى المسلمين، وأن أبناء دينه الذين كانوا بعيدين عن مناصب الحكم بدءوا يشغلون فى عهده كثيراً من مناصب الدولة، و يضطهدون المسلمين إلى درجة أن شاعراً من الشعراء المعاصرين يسمى الرضى[3] كتب هذه الأبيات:

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغــوا غايةَ آمالهم وقد ملـكوا
العزُّ فيهم والمالُ عندهمُ ومنهـمُ المستشارُ والملكُ
يا أهلَ مصر إنى قد نصحتُ لكم تهوَّدوا، قد تهــوَّدَ الفلكُ[4]

وقد وصف ابن ميسر[5] عند كلامه على حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ — ١١٢٩م) سبب موت أبى نجاح، وهو نصرانى يعرف بالراهب؛ وكان موته على يد المقداد والى مدينة

(١) انظر ابن ميسر ص ٢
(٢) ابن منجب ص ٣٧ و ٣٨، وابن ميسر ص ٢
(٣) يظن أنه الرضى بن البواب. وقد ورد فى تاريخ ابن ميسر لفظة «البواب» من غير نقط، الأمر الذى يعوق صحتها. والمخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس لا يحل هذه الصعوبة، فإن ناشر هذا الكتاب لم يستطع أن يبين صحة هذا اللفظ.
(٤) السيوطى ج ٢ ص ١١٦
(٥) تاريخ مصر ص ٧١.

مصر فى ذلك الوقت . وقد أمر بجثمانه فصُلب ، ثم أنزل وربط على لوح من الخشب ، ثم قذف به فى النيل . وأصدرت المنشورات إلى الأقاليم داعية الناس إلى التفرج عليه ؛ وكان جثمانه كلما جذبه التيار إلى جهة من الجهات ، خرجوا لرؤيته ، وكانوا يضعون فى طريق الجثة شيئاً يرفعها إلى الأعلى ؛ فإذا تم لهم غرضهم من التفكه برؤيتها ، رفعوا هذا الحاجز ، فتنحدر الجثة إلى النهر . وهكذا دواليك ، حتى سار جثمانه إلى البحر الأبيض المتوسط ، فكان مقره الأخير .

ويزيدنا ابن ميسر أن أبا نجاح كان فى مبدأ أمره فى خدمة أبى البركات يوحنا ابن الليث . ويظهر لنا أنه نصرانى كما يدل على ذلك اسمه هذا . وقد اتصل أبو نجاح بخدمة الخليفة الآمر بعد وفاة المأمون البطائحى (٢٠ رجب سنة ٥٢٢) ، وبُذل له فى مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ؛ فأطلقت يده فيهم ، وامتد بلاؤه على كبار الموظفين ومن بينهم القضاة والكتاب ، بل وسائر الناس عامة .

وكان يجلس بالجامع العتيق ويستدعى من أراد مصادرته . وقد طلب يوما رجلا من العدول المتازين يعرف بابن الفرس ، وهو ممن نال إجلال الناس واحترامهم ، فأهانه . فخرج من عنده ووقف فى الجامع فى يوم الجمعة حيث يشتد ازدحام الناس ، وعبّر عما شعر به من آلام وأحزان فقال : « يا أهل مصر ! انظروا عدل مولانا الآمر فى تمكينه النصرانى من المسلمين » . فهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب فى النفوس ، وكادت تُفضى إلى نشوب الفتن والاضطرابات ، لولا أن تداخل خواص الخليفة فى الأمر ، وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان الوزير ، وخوّفوه سوء العاقبة[1] . فبعث الخليفة فى طلب أبى نجاح ؛ فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان فى حضرته ، فأنشده هذا البيت :

إنّ الذى شُرِّفتَ من أجله   يزعم هـــذا أنه كاذبُ

وعندئذ التفت الخليفة إلى أبى نجاح وقال له : ما تقول يا راهب ؟ فسكت ؛ فأمر به فقتل[2] .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٧١ ، ٧٢ .

ويزيدنا ابن ميسر على ما تقدم أن نفوذ بهرام سرعان ما تزايد ، وأنه سأل الخليفة أن يأذن له بإحضار إخوته وأهله وكانوا فى تل باشِر وأرمينية ، وما لبث أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفاً بعد زمن قصير ؛ فسلكوا مع المسلمين مسلكا عدائيا وصادروهم فى أموالهم وجاروا عليهم ، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين وخوفتهم عاقبة هذا وطغيانَ المسيحية على الإسلام .

لم يجد المسلمون بدّاً من رفع شكاياتهم إلى الخليفة من بهرام ومن أهله . وزاد فى غضب المسلمين ما لاقاه أهل قوص من أخى بهرام المعروف بالباساك واليهم من الجور والظلم واستباحة الأموال . وقد ظلت الحال على ما وصفنا حتى نفد صبر المسلمين ؛ فبعث الأمراء إلى رضوان بن الوَلَخْشِى[1] والى الغربية يستحثونه على المسير إليهم وتخليصهم مما هم فيه من كرب وبلاء[2] .

ولما وصلت إلى رضوان استغاثة الأمراء اتجهت آماله إلى الوزارة . وفى سخا — إحدى مدن الغربية — صعد المنبر وخطب فى الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ؛ ثم جمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة . فلما دنا رضوان من هذه المدينة خرج بهرام على رأس جيش كثيف لصد هجماته .

ولما تقارب الجيشان ، أمر رضوان برفع المصاحف على رءوس الرماح ؛ فلم يكن من عسكر المسلمين إلا أن اعتزلوا بهرام وانضووا تحت لواء رضوان . ويحدثنا ابن ميسر أن هذا الأمر كان على أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان[3] . وهذه الخدعة الحربية تشبه من بعض الوجوه الخطة التى ابتدعها عمرو بن العاص فى موقعة صفين المشهورة .

---

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٧٩ — ٨٠) أن رضوان كان يلى حجابة باب ابن الخليفة الحافظ وقت تقلد بهرام الوزارة ؛ وكان من الأمراء ، عرف بالشجاعة والإقدام ، كما كان شوكة فى جنب بهرام الذى كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله ؛ فجد بهرام فى التخلص منه ، فولاه عسقلان فى آخر رجب من سنة ٥٢٩ ولم يكد يستقر برضوان المقام فى مركزه الجديد ، حتى علم بوصول جماعة من الأرمن إلى عسقلان قاصدين مصر ؛ فوضع العراقيل فى سبيلهم وأرغم كثيرين منهم على الرجوع إلى بلادهم . وكان من أثر هذه الإجراءات التى اتخذها ضد هؤلاء القوم أن صرف عن هذه الولاية ، واستدعى إلى القاهرة ، وولى الغربية فى صفر سنة ٥٣١

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨١ .

ولما وقف بهرام على حقيقة الحال أرسل إلى الحافظ يعلمه بكل ما حدث ؛ فأمره الخليفة بالمسير إلى ولاية قوص بالوجه القبلى ، والإقامة مع أخيه حتى يرى رأيه ويقرر ما ينبغى اتباعه فى هـذا الأمر . فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ معه ماخفّ حمله وغلا ثمنه ، وسار فى الحادى عشر من شهر جمادى الأولى ؛ فأتاح مسير بهرام فرصة للغوغاء لنهب دور الأرمن فى حى الحسينية — الواقع فى ظاهر باب الفتوح — وبعض كنائسهم ، وبنبش قبر أخيه الذى كان بطريركاً للأرمن . وفى هـذا الوقت ثار أهالى قوص المسلمون على الباساك أخى بهرام وقتلوه ، وجعلوا فى رجله كلباً ميتاً ، ورموا بجثته فى صندوق القُمامة .

ثم وصل بهرام إلى قوص بعد قتل أخيه بيومين فى جماعة من أهله وجنـده ؛ فثأر له ونهب المدينة وقتل الكثير من أهلها ؛ ثم رحل إلى أسوان ، فأقام فى الموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض[1] .

أما رضوان فقد خلا له الجو بمبارحة بهرام القاهرة ، فتقلد الوزارة فى الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١ ، وخُلع عليه ولقب بالأفضل . وكان أول ما بدأ به رضوان أن أنفذ أخاه ناصر الدين على رأس جيش كثيف ، فوصلوا إلى الأديرة البيض . غير أنه لم يدر بين الفريقين قتال ؛ وتم الاتفاق على أن يبقى بهرام فى هذه الجهة ، وأن يُطْلِقَ من كان معه من الجند ليعودوا إلى القاهرة ، ومنها يُسرَّحون إلى بلادهم[2] .

ولكن هذا الاتفاق لم يطل أمده . فقد ذكر لنا ابن ميسر أن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والأرمن إلى سنة ٥٣٥ ، وأنه فى سنة ٥٣٢ شـدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ؛ وأدى به ما كان يجيش بنفسه من حقد لبهرام إلى العمل على إبادة الأرمن . ويظهر أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ ، بدليل أنه بعث فى سـنة ٥٣٣ من أحضر بهرام ، فأسكنه فى قصره وأحله من نفسه محل الإكرام والتعظيم[3] . فعظم ذلك على رضوان ، وأخذ الحافظ يثير الجند على هذا الوزير ؛ فنشب التطاحن بين الفريقين . وطلب رضوان من الخليفة أن ينزله فى القصر ؛ فلم يجب طلبه ولم يعره التفاتاً ؛ فأدى ذلك إلى ازدياد الوحشة والنفور بينهما .

(١) ابن ميسر ص ٨١ . (٢) المصدر نفسه ص ٨٢ . (٣) المصدر نفسه

بذلك ضعف أمر رضوان ، فلم يقو على منازلة خصمه ؛ وخرج فى الخامس عشر[١] من شهر شوال من هذه السنة هاربا من القاهرة ، ولحق بوالى صَرْخَد[٢] ؛ فتلقاه بالإكرام وأقام معه إلى آخر المحرم سنة ٥٣٤ ، حيث عاد إلى القاهرة على رأس جيش كثيف[٣] ، وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . ولكنه أرغم على المسير إلى الوجه القبلى ؛ وهناك طارده الأمير أبو الفضل بن مَصَال ، فلحق به وأمنه . وفى اليوم الرابع من شهر ربيع الثانى مَثَل رضوان بين يدى الخليفة ؛ فأمر به فحبس فى القصر[٤] ، على حين عفا عن الجند الأتراك الذين حاربوا معه ؛ ولكنه فرّ فى سنة ٥٤٢ هـ[٥] .

وكانت سنة ٥٣٥ نهاية هذ النزاع الطويل الذى قام بين بهرام ورضوان ؛ وفيها انتهت حياة بهرام . ويحدثنا ابن ميسر أن بهرام عاش فى القصر مع الخليفة يشاوره فى أمور الدولة من غير أن يخلع عليه أو يقلده عملا من الأعمال الرسمية .

وقد ظلت الحال على ما وصفنا إلى أن توفى بهرام فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٥٣٥ ؛ فحزن عليه الخليفة حزناً شديداً ، وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، وبعث فى طلب بطريرق الأرمن ، وأعدت معدّات المأتم . فلما حان وقت صلاة الظهر ، أخرج النعش من القصر يجلله الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر ؛ وشيّعه الأشراف وغيرهم من علية القوم مشاة . وسار الخليفة الحافظ فى الموكب راكباً بغلة ، وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر . وما زال الناس فى سيرهم ، والقسس يرتلون الإنجيل ، حتى وصلوا إلى دير الخندق ؛ فنزل الخليفة وجلس على حافة القبر ، وبكى بكاء شديداً[٦] .

وبالجملة ، فقد عامل الفاطميون النصارى معاملة تنطوى على العطف والرعاية . وما كان الاضطهاد الذى قام به الحاكم إزاءهم إلا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذى حاق

---

(١) خالف ابن ميسر ذلك فذكر اليوم الثالث عشر من شوال .

(٢) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق — أنظر لفظ صرخد فى « معجم البلدان » لياقوت .

(٣) ابن القلانسى ص ٢٧٠ .

(٤) ابن القلانسى ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . ابن ميسر ص ٨٣ و ٨٤ .

(٥) ابن القلانسى ص ٢٩٦ .

(٦) ابن ميسر ص ٨٤ .

بالمصريين عامة . والحق ، أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة لهؤلاء القوم[1] .

ولقد تقلدوا أرقى المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز ٣٦٥—٣٨٦ هـ (٩٧٥— ٩٩٦ م) ، وشغلوا فى عهد المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضاً ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ؛ وهو أمر نستطيع تحقيقه بما كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادتها إلى ما كانت عليه .

ولم تقتصر هذه المعاملة على ما تقدم ؛ فقد ولع بعض الخلفاء الفاطميين — كالحافظ مثلا — بزيارة أديرة النصارى . وكان الأمر يعطى الرهبان فى دير نهيا الواقع إلى القرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[2] . ويحدثنا أبو صالح النصرانى أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة فى عهد الفاطميين[3] .

وليس أدل على حرص الخلفاء الفاطميين على توفير وسائل الأمن والطمأنينة لرعاياهم من أهل الذمة ، من هذا المنشور الذى أصدره الخليفة الفائز الفاطمى إلى رجاله فى جزيرة طور سينا يأمرهم فيه أن يشملوا الرهبان بالرعاية والملاحظة والمعونة والموافدة والمبالغة فى إعزاز جانبهم وتسهيل مطالبهم وتحقيق رغباتهم و إبعاد الحيف عنهم . وإليك نص هذا المنشور عن وثيقة قام بنشرها الأستاذ أحمد محمد عيسى أمين مكتبة جامعة القاهرة[4] الذى ساهم فى أعمال البعثة المصرية الأمريكية لتصوير مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين :

بسم الله الرحمن الرحيم
منشور مقدم بكتبة فى مولانا
(الحمد لله على نعمه)
وسيدنا الإمام الفائز بنصر الله
أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى
آبائه الطاهرين وأبنائه المنتظرين ،

---

(١) أبو صالح ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٧ و ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٧ و ٧٨ . ناصر خسرو ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) انظر لفظ "Kibt" فى دائرة المعارف الإسلامية ،Encyclopaedia of Islam : Mann, The Jews in Egypt and in palestine under tqe Fatimid Caliphs).

(٤) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ص ١١٩ — ١٢١ سنة ١٩٥٦ .

السيد الأجل الملك الصالح ناصر الأئمة
كاشف الغمة ، أمير الجيوش سيف الإسلام
غياث الأنام كافل قضاة المسلمين
وهادى دعاة المؤمنين أبو الغارات
طلائع الفايزى وتضمينه :
إنه لمـــا كان من شيمنا إزالة المحدثات
وتعفية آثارها والمنع من الاستمرار
عليهـــا وتأكيد أفكارها ، بدعائه من
يحتوى عليه نطاق مملكتنا من أهل الذمة
واعتمادهم بمـــا نسبغ عليه ملابس
الحنو والرحمـــة ، ليتساوى فى عدلنا
الصغير والــكبير ، ونشملهم من حسن
مطــرنا ما يسهل عليهم من المطالب
كل مـــستصعب عســير . وأنهى
إلى حضرتنا اســتضرار اسطوانة أسقف
طور سينا بما يقصده به الولاة من
الأجحاف ، ويعتمدونه من الحيف والاعتساف
ويلتمسونه من جهته من رسم أحدثوه وهو
عشرة دنانير . . . ؟ . . . وإن ذلك
قد قضى له ولمن معه من الرهبان بالإضرار ،
واجحف به وبهم التمادى عليه والإصرار ،
أنكرنا ذلك على معتمديه ، وذممناه من
قصد قاصديه ، وخرج أمرنا بإيداع هــذا
المنشور ، الآمر بإزالة هــذا الرسم وتعفيته
والمنع من التماسه من هذا الأسقف ، والحذر
من تناوله من جهته ، واعتماده بالرعاية
والملاحظة والمعونة والمرافدة ، والمبالغة
فى إعزاز جانبه وتسهيل مطالبه
والتحذير من تكليفه أو أحد من رهبانه مغرما
أو خسارة ، وإجرائه على الأوامر المرضية
والأوضاع المختارة .
فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة الأمرا
الولاة بالحصون الطورية أدام الله . . . ؟
فليعمل بالمثل فيه وليتناى ما يوجبـــه
حكمه ويقتضيه ، وليحذر من تجافيه
وتعديه و . . . . ؟

(التاريخ)

(إمضاءات رجال الديوان)

٢ — سياسة الفاطميين مع أهل السنة

حمل الفاطميون على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة ، إذ عدُّوهم أعداء لعلىّ ؛ ونقشت فضائل علىّ وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد . ويحدثنا ابن زولاق[1] أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر .

ولقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وَفق قوانين هذا المذهب . ويلوح لنا أن الرغبة فى الحصول على مناصب الدولة هى التى دفعت بفريق من المسلمين إلى التحول إلى المذهب الشيعى ، كما دفعت تلك الرغبة أيضاً بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهباً لهم .

وفى سنة ٣٧٩ هـ كانت أكثر أمور الدولة المدنية والحربية والدينية قد تحولت إلى أيدى الشيعيين ، وكان لزاماً على الموظفين السنيين الذين ظل فى أيديهم بعض المناصب الصغيرة ، أن يسيروا وفق أحكام مذهب الإسماعيلية . وأصبح عزل كل من رمى منهم بالتقصير فى مراعاة هذه الأحكام أمراً لا مفر منه ؛ وقد يكون ذلك خشية العزل أو الاضطهاد ، أو لرغبة الناس فى تقلد مناصب الحكومة أو الترقى فى سلكها ، مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين وغيرهم إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمى .

وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى غير المسلمين من النصارى واليهود ؛ فقد دفع بهم الخوف من سوء معاملة الحكومة إلى سلوك الطريق الذى سلكه غيرهم من المصريين .

وكانت العقوبة الصارمة تنزل بمن يتمدح بذكر الخلفاء السنيين . ويحدثنا المقريزى[2] أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح[3] فى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) من جميع

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب .

(٢) خطط ج ٢ ص ٣٤٠

(٣) التراويح (جمع ترويحة) هى سنة كان يفعلها النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء فى رمضان ، ولكنه أبطلها بعد ذلك خشية أن تصير فرضا . ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة ، وجمع الناس على إمام واحد ، ووافقه المسلمون على ذلك ؛ فكان إجماعا سكوتيا . والسر فى امتناع الشيعيين عن صلاة التراويح هو ما يعتقدونه من أن عمر بن الخطاب هو أول من سنها .

مساجد الديار المصرية . ويظهر أنها قد أبطلت فى سورية قبل ذلك بعدة سنوات . ويدلنا على ذلك ما ذكره الذهبى عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ — ٩٧٤ م) ، وهو أنه فى أوائل شهر رمضان أصدر المعز الأوامر بإبطال التراويح . وما كاد أبو القاسم الواسطى يرفع صوته احتجاجاً على هذا القانون ، حتى قبض عليه أعوان الفاطميين وأودعوه غياهب السجون . وكان من أثر رفع هذا الحادث إلى السلطات فى القاهرة أن صدر الأمر بقطع لسان أبى القاسم وضربه خمسمائة سوط وصلبه بعد ذلك[1] .

واشتد الفاطميون فى ذلك الوقت على أهل السنّة ومنعوهم من إقامة مراسمهم . ففى سنة ٣٨١ هـ — فى عهد الخليفة العزيز — ضُرب رجل من أهل مصر وطيف به فى المدينة ، لأنهم وجدوا عنده كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس[2] . وفى صفر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) أمر الخليفة العزيز بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه ، وكذا على أبواب الحوانيت والحجرات وعلى المقابر ، ولوّن ذلك كله بالذهب فى كثير من أحياء القاهرة وفى غيرها من المدن . ولقد كان لهذه السياسة أثرها فى تحويل كثير من السنيين إلى المذهب الشيعى[3] .

ولدينا كثير من الأدلة على أن تعصب الفاطميين لمذهبهم زاد فى أيام الحاكم عما كان

---

(١) ونحن نشك فى صحة ما أورده لنا الذهبى ونراه بعيداً عن الحقيقة التاريخية . ويتبادر إلى الذهن من سياق هذه العبارة أن أبا القاسم كان مؤذنا فى بعض مساجد سورية ؛ ويحتمل أنه بيت المقدس ، بالرغم من أن لفظ المقدس لم يذكر . أما عبارة الذهبى فهى كما يأتى : " قال مشرف بن مرجى المقدسى : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن قال : كنت مجاورا ببيت (هكذا ذكر) ؛ فأمروا فى أول رمضان بقطع التراويح ؛ فصحت ، أنا وعبد الله والإسلام ، واحمداه ! فأخذنى الأعوان وحبست ؛ ثم جاء الكتاب من مصر بقطع لسانى فقطع . وبعد أسبوع رأيت النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى فى بريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد زال عنى الألم . فتوضأت وصليت ، وعدت إلى المأذنة فأذنت : الصلاة خير من النوم ! فأخذونى وحبست وقيدت ، وكتبوا إلى مصر ، فورد الكتاب بقطع لسانى ويضربى خمسمائة سوط ، ويصلبى ، ففعل بى ذلك " .

المكتبة الملكية بالقاهرة مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٠٥ ا .

وإن ما أورده لنا الذهبى من قطع لسان أبى القاسم وعدم استطاعته أداء الأذان ، وأنه هو الذى حدث بما ناله بعد قطع لسانه للمرة الثانية ، وضربه خمسمائة سوط ثم صلبه — كل ذلك يظهر لنا أنه بعيد عن الصحة كل البعد . أما أنه قد ناله بعض العقوبة على هذه الحادثة ، فأمر محتمل الوقوع ؛ لأن هذا هو مسلك الفاطميين ضد من يجهر بمخالفتهم فى عقائدهم .

(٢) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٤١ .

(٣) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٦ .

عليه فى عهد الخلفاء من قبله . ذلك أنه فى جمادى الأولى من سنة ٣٩١ هـ ، ألقى القبض على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل علىّ ، وحبسه قاضى القضاة وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه ؛ فبذلوا قصارى جهدهم فى حمله على الاعتراف بإمامة علىّ . ولكن هذا الرجل ظل على إبائه على الرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر فى الأمر وعمله على إقناعه . ولما لم يفلح رُفع أمره إلى الحاكم ، فأمر به فقتل وصلب[(١)] .

وفى سنة ٣٩٣ هـ قبض فى مدينة القاهرة على ثلاثة عشر رجلا ، لأنهم صلوا صلاة الضحى ، وهى من السنن التى ينبغى إقامتها مع الصلوات الخمس ، وإن كان الشيعيون لا يعترفون بها . وقد شُهِّرَ بهؤلاء المذنبين فى الشوارع وضُربوا وحُبسوا ثلاثة أيام[(٢)] .

أضف إلى ذلك ما ذكره أبو المحاسن والمقّرى ، من أن رجلا من أهل دمشق يدعى الأسود الحَكَمِى حلّت به العقوبة فى شهر ربيع الثانى من السنة نفسها (٣٩٣ هـ) لارتكابه جريمة لم يأت لنا هذان المؤرخان بتفصيلها . ولكن يظهر لنا أنها كانت من أجل محبة هذا الرجل للخليفتين أبى بكر وعمر ، بدليل أنهم طافوا به فى شوارع المدينة ونادوا عليه : « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر » ؛ ثم أمر به فضربت عنقه[(٣)] .

وفى شهر صفر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم أيضاً بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ، وفى الأسواق والشوارع ؛ وصدرت الأوامر بذلك إلى سائر العمال فى البلاد المصرية[(٤)] .

ولقد اشتملت القوانين الكثيرة التى عاد الحاكم فأصدرها ضد النصارى واليهود فى سنة ٣٩٥ هـ ، وكذا المراسيم التى صدرت بالتشدد فى مراعاة هذه القوانين ، على كثير من عبارات الطعن فى أبى بكر وعمر[(٥)] .

وفى هذه السنة أمر الحاكم بأن تقام صلاة الظهر فى الساعة السابعة ، والعصر فى الساعة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٩١ . المقرى : " نفح الطيب " ج ٢ ص ٦٦٥ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

التاسعة[1] (من التوقيت العربي) . ولو قارنا بين ما جرى عليه الحاكم وما يجرى عليه المسلمون الآن ، لوجدنا أن الحاكم قد راعى في التوقيت الساعات ، ولم يراع التقاليد الإسلامية في التوقيت بالشمس . فإن الظهر يدخل وقتها بالزوال ، والعصر يدخل وقتها بأن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال ، وحينئذ تكون صلاة العصر حاضرة إذا وقعت في الزمن الذى تأخذ فيه الشمس في الانحراف عن كبد السماء ، وصار ظل كل شيء مساوياً له بعد اعتبار ظل الزوال . وكذلك العصر تكون حاضرة إذا وقعت في الزمن الذى بين هذا الوقت وغروب الشمس . ونحن نرى أن الحاكم قد بدّل بهذا العمل ما كان يجرى عليه المسلمون وما كان معمولا به إلى هذا الوقت ، وألزمهم بالصلاة في ساعات معينة مستعينين بالمِزْولة .

ولا شك في أن هذه الأوامر قد أساءت إلى أهل السنة ، الذين كانوا لا يزالون يكونون السواد الأعظم من الأهلين . وتعتبر الفتنة التى أثارها أبو رَكْوة[2] (٣٩٦ — ٣٩٧ هـ) دوراً هاما من الأدوار التى مرت بها سياسة الحاكم إزاء رعاياه السنيين .

ففي سنة ٣٩٧ هـ خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمى ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأبطل بعض ما قام به من الأعمال الموجهة ضد هؤلاء الرعايا ، كلعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ، وسلك مسلكاً أكثر شدة مع النصارى واليهود . وفي شهر ربيع الثانى من هذه السنة أمر بمحو ما نقش في لعن هؤلاء الخلفاء ، وعوقب كل من أقدم على منهم وعنّف في الشوارع على مرأى من الناس[3] .

وفي هذه السنة صدر مرسوم يجيز للناس صوم رمضان وفطره بمقتضى حساباتهم الفلكية ، بدون أن ينتظروا رؤية الهلال . كذلك أجازت القوانين الجديدة للمؤذنين أن يستعملوا العبارات المعتاد ذكرها في الصلاة حسبما يرون ، وألا تقدم شكاوى لسبب من الأسباب التى تتعلق بذكر هذه العبارات ، وألا يُسَبّ أحد من الخلفاء الأول ، ولا يمنع

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٤١ .

(٢) نظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨ — ١٩٢) ، وابن القلانسى (ص ٦٤ — ٦٥) ، وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٤٠) لمعرفة الثورة التى قام بها أبو ركوه .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٢ .

أحد من أن يقول هذه العبارة التي تنطوي على احترامهم و إجلالهم وهي : « اللهم ارحمهم ! » إذا ما ذكر أسماءهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الأبرار . وإذا أراد أحد أن يستعمل هذه العبارة التي تدل على أسمى مراتب التعظيم لعليّ وهي : « اللهم ارحمه ! » فلا حرج عليه . وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنيّة أو الشيعية[1] .

وقد أبطل الحاكم بعد ذلك استعمال كثير من الرسوم الشيعية البحتة ، فأمر بإعادة القنوت في الصلاة ، وكان قد أبطل في سنة ٣٧٠ هـ . ومنع كذلك المؤذنين من إضافة عبارة « حي على خير العمل » إلى الأذان ، وسمح بصلاة الضحى ؛ وهذه من الصلوات التي تؤدى في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى الزوال ؛ وكان قد منعها منعاً باتاً في سنة ٣٩٣ هـ[2] .

وقد أنشأ الحاكم في هذه السنة نفسها مدرسة لتعليم المذهب السنّي ، الذي كان يدين بعقائده السواد الأعظم من المصريين قبل وصول الفاطميين إلى هذه البلاد ، وأهدى هذه المدرسة دار كتب ، وعيّن أبا بكر الأنطاكي ناظراً لها ، وخلع عليه وعلى مدرّسي هذه المدرسة وأجلسهم في مجلسه[3] .

وكان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند المتشيعين الذين وفدوا على القاهرة ، حيث وجدوا أنفسهم في مدينة تسير في اتجاه عادات المذهب السني[4] . ولكن الحاكم عوّدنا التقلب في سياسته وأهوائه .

نعم ! لقد جعلته بعض الحوادث الأخرى مُبَغَّضاً حتى عند الشيعيين في تلك الآونة . وذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ أرسل بعض الموظفين إلى المدينة المنورة ليفتحوا المنزل الذي كان لجعفر الصدق ويحضروا منه ما قد يعثرون عليه . فلما فُتح المنزل ، وجد فيه هؤلاء الموظفون نسخة من القرآن الكريم وسريراً وحصيراً وبعض الأثاث . وقد حمل هذه الأشياء الداعي خَتَكين الذي كلف بالإشراف على فتح هذه الدار ، وأخذ الموظفون في الوقت نفسه الضرائب التي كان يدفعها الأشراف .

(١) المقريزي خطط ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) المقريزي خطط ج ١ ص ٤٥٨ وما يليها .

(٣) أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ١٠٥ .

(٤) المصدر نفسه .

ثم عاد ختكين إلى مصر و بصحبته عدد كبير من الأشراف كانوا يؤملون أن ينعموا بكرم الحاكم وحسن معاملته لهم . ولكنهم لما مثلوا بين يديه ، لم يعطهم غير جزء يسير من المال الذى عاد به ختكين ، وأبقى أكثره لنفسه قائلا إنه أحق به منهم ، لأنه كان رأس الأشراف باعتباره وريث علىّ حقا . فعاد هؤلاء الأشراف إلى المدينة ، وألسنتهم تنطلق بالسخط والدعاء عليه[1] .

وظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم إزاء السنيين ثلاث سنوات ، غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة . ففى سنة ٤٠١ هـ أمر بإعادة الأذان إلى النحو الشيعى ؛ كذلك أعاد التثويب وعبارة « حى على خير العمل » إلى ما كان عليه من قبل ، كما أبطل صلاتى الضحى والتراويح . ولما اتصل بالحاكم ما كان من صلاة التراويح فى شهر رمضان فى الجامع العتيق ، أمر بإمام هذا المسجد فضربت عنقه . وقد أعاد فى الوقت نفسه مجالس الحكمة فى القصر ، كما أمر بأن تجمع النجوى ، وهى التبرعات التى كانت تؤخذ من كل من يتعلم أصول المذهب الإسماعيلى ، ثانية ، وكانت قد أبطلت منذ سنة ٤٠٠ هـ .

واعتزم الحاكم بعد ذلك نبش قبر أبى بكر وعمر بالمدينة ؛ فرشا الرسل الذين أنفذهم لتأدية هذه المهمة رجلا من العلويين كان يسكن فى منزل قريب من مدفن الخليفتين ؛ ومن ثم شرعا بمعاونته يحفران طريقاً يوصل إلى ما يريدون . إلا أن عاصفة شديدة ثارت ، وبلغ ثورانها درجة أدخلت الخوف والهلع فى قلوب الأهالى ؛ فتلمس كثير منهم ملجأ فى الحرم حيث يوجد الجسد الشريف وأجساد الخلفاء الأوّل . ولما لم تهدأ هذه العاصفة ، خشى ذلك العلوى وأبلغ الأمر لوالى المدينة ؛ فأحل به عقوبته وحال دون إتمام ما كان يريده الحاكم[2] .

وجملة القول أن لعن السنيين كانت تفيض به ألسنة الناس من على المنابر فى كافة أرجاء مصر طوال الحكم الفاطمى تقريباً . ويحدثنا ابن خلكان أن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين كان من غلاة الشيعة ؛ فكان له ولع خاص بلعن الصحابة ، حتى إنه كان لا يتردد فى قتل أى سنى تقع عليه عيناه .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ . المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٣٨ .

٣ — سياسة الفاطميين مع المصريين وغيرهم بوجه عام

أقام الفاطميون فى مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين ؛ فتقدمت البلاد نحو الرقى بفضل هذه النظم الرشيدة التى احتذاها من جاء بعدهم من الملوك . غير أن سياسة الفاطميين (التى كانت ترمى أولا إلى نشر مذهبهم) كثيراً ما كانت تتعارض مع مصالح الأهلين وسعادتهم ، لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنيين .

ولقد تطلب نجاح تلك السياسة أن يحل أنصار الفاطميين — حتى من غير المسلمين — محل السنيين فى مناصبهم . من ذلك نرى أن السنيين كانوا من أول حكم الفاطميين ينظر إليهم بعين السخط والكراهة ؛ فتحملوا لذلك كثيراً من جور القوانين التى كان يسنها الفاطميون . وذلك أنه كان لزاماً على أبناء الطوائف الثلاث (السنيين والنصارى واليهود) الذين كان منهم المصريون ، أن يطيعوا تلك القوانين ، حتى ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية .

ولقد أضاف الفاطميون إلى النقوش التى كانت تنطق بسب السنيين ، كتابة أخرى كلها إشادة بمدح علىّ وأهل بيته . وقد كان من أثر تعاليم دعاة الشيعة والقوانين الجائرة التى كانت تسنّ لمن عداهم ، أن تحوّل كثير من غير الشيعيين إلى هذا المذهب . ولقد حفز ذلك التحول الكبير إلى ناحية الشيعة قاضى القضاة علىّ بن النعمان — الذى كان يطلق عليه أيضاً داعى الدعاة — فأملى على مجتمع حافل فى الجامع العتيق فى شهر صفر سنة ٣٦٥ خلاصة الكتاب الذى قد صنفه أبوه أبو حنيفة النعمان المغربى فى أصول للمذهب الشيعى [1] .

ولقد أدت هذه الأعمال إلى تحول كثير من المصريين — كما قدمنا — إلى المذهب الفاطمى . كما كانت نتيجة هذه القوانين الجائرة أن دخل كثير من الناس فى القاهرة وفى الجهات الأخرى فى المذهب الإسماعيلى ؛ ومعنى هذا دخولهم فى المذهب الشيعى .

ولقد شُغل الحاكم فى سنتى ٣٩٦ و ٣٩٧ بقمع ثورة أبى رَكْوَه ، كما اضطرته تلك الثورة إلى مصانعة السنيين ، وإلى القسوة على غير المسلمين . على أنه سبق أن أشرنا إلى القوانين

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٠٦ . ابن ميسر ص ٧٥ والمقريزى خطط ج ٢ ص ٣٤١ وأبو المحاسن المجلد الثانى ج ١ رقم ١ ص ٣ و ٤ .

الأخرى التى سنها الحاكم فى سنة ٤٠١ ، والتى كانت وليدة التقلبات الفجائية فى سياسته حيال السنيين .

وكانت سياسة الحاكم تمتاز بعنف كثير تناول جميع المصريين ، وخاصة من لم يكن شيعياً . وظهرت تلك السياسة جلية واضحة بعد أن شعر بأنه صار خلواً من كل رقابة ؛ وذلك بعد وفاة برجوان ، وحينما بدأ الاضطراب ينال من عقله ، ذلك الاضطراب الذى كان مصدراً لتقلباته فى سياسته .

وبعد وفاة الحاكم (٤١١ هـ) وتولية ابنه الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ هـ) تمتع المصريون مدة ولايته بالسلام والطمأنينة . وهذا ما كان مرجوا ، لأن الظاهر كان رجلا عاقلا حليما دمث الأخلاق عادلا ؛ فألغى القوانين التى كان قد أصدرها أبوه ؛ وتشتهر هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية[1] .

وفى أواخر عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ظهرت روح العداء والكراهية إزاء أهل السنة ، عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى مقاليد الحكم وحكم البلاد حكما مطلقاً ؛ فأمر بإضافة « حى على خير العمل » إلى الأذان ، ونقش لعن الصحابة على الجدران ، كما أمر بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط[2] .

واستمرت الحال على ذلك إلى سنة ٥٢٦ هـ ، وهى السنة التى قتل فيها الآكل . وبذلك عادت السلطة ثانية إلى الاسماعيلية ، وبقيت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين ؛ فعمل فى سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وحبس الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، واضطهد الأمراء وكبار رجال الدولة ، وأسس فى سنة ٥٦٦ مدرستين لتعليم الفقه : إحداهما على مذهب الإمام الشافعى ، والأخرى على مذهب الإمام مالك .

كان الخلفاء الفاطميون قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة ، وبما اشتهروا به من مظاهر الكرم والأبهة والعظمة فى كل العهد الفاطمى . من ذلك هداياهم النفيسة من النقود ، وجوائزهم للشعراء وكتاب القصر ، والعلماء وغيرهم من الموظفين ، وكذلك الإحسان للفقراء ، وإقامة الولائم فى المناسبات المختلفة من الأعياد الدينية وغيرها من الأعياد العامة ؛ وكل هذا كان حقيقا بأن يستميل كثيراً من الناس إلى اعتناق مذهبهم .

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٣٤ و ٢٣٥ ، وابن القلانسى ص ٨٠ ، وأبو المحاسن المجلد الثانى رقم ٢ ص ٣٠ Corpus Inscriptionum Arabicarum, Tome II. Egypte, p. 86

(٢) أبو المحاسن المجلد الثانى ج ٢ رقم ٢١ ص ٢٧٦ .

الباب الثامن

سياسة الفاطميين الخارجية

١ — مع بنى بويه والسلاجقة :

لاشك فى أن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلاءهم على هذه البلاد قد يساعدهم على بسط نفوذهم فى مصر وفى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية فى ذلك الحين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر ؛ ثم يحذو بنو بويه الشيعيون حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم فى بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة فى حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسى لحولوا الخلافة إلى العلويين ، إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية لذلك نرى سلاطين بنى بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمى فى البلاد التى خضعت لنفوذ بنى بويه .

وقد ظهرت أغراض الفاطميين التى كانت ترمى إلى مد نفوذهم إلى بلاد المشرق من هذه القصيدة التى أنشدها ابن هانئ الأندلسى[1] للمعز فى بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مصرُ ؟	فقلْ لبنى العباس قد قُضِى الأمرُ
وقد جاوزَ الإسكندريةَ جوهرٌ	تُطالعه البُشْرَى ويَقْدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليــه وفودها	وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فـا جاء هذا اليوم إلا وقد غدتْ	وأيديكم منها ومِنْ غيرها صِفْــر

(١) ديوان ابن هانئ (طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) ص ٨٦ — ٨٧ .

وقد أشرفت خيلُ الإله طوالعاً على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وذا ابن نبي الله يطلب وتره وكان حَرِى[1] ألا يضيع له وتر
فإنْ تَتْبعوه فهــو مولاكم الذى له برسـولِ الله دونَكمُ الفخر

على أننا نرى هذه السياسة التي كانت تنطوى على التودد وحُسن النية تتبدل في أواخر عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه فقد ذكر البغدادى[2] أن عضد الدولة « تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين . ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وقد قيل إن ما قام به عضد الدولة كان نتيجة لشكه في نسب الفاطميين ، حتى إنه عقد مجلساً حضره العلويون الذين أقروا بطلان هذا النسب . ويقول المقريزى[3] : « ثم ملك فناخسرو بن الحسن الديلمى بغداد ، فقرب ما بينهما (أى بين العزيز وعضد الدولة) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذى بمصر يقول إنه علوى منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضعوا خطوطكم بأنه ليس بعلوى ولا من ولد أبى طالب . ثم أنفذوا إلى نزار بن معد رسولا يقول له : نريد أن نعرف من أنت ، فعظم ذلك عليه » .

فقد ذكر ابن الأثير عند كلامه عن حوادث سنة ٣٦٩ هـ : « في هذه السنة ورد رسول العزيز بالله صاحب مصر إلى عضد الدولة (بن بويه) بمسائل أداها » . وإننا لا ندرى حقيقة هذه المسائل ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من القول بأن العلاقة بين الفاطميين والعباسيين لم تكن على شيء من الصفاء ، لا سيما بعد أن اقتطع الفاطميون عن جسم الخلافة السنية في بغداد كافة أرجاء بلاد المغرب ومصر والشام وفلسطين والحجاز .

وقد روى سير توماس أرنولد[4] عن قطب الدين[5] أن رسول العزيز بالله الفاطمى

---

(١) حرى يعنى جديراً .
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .
(٣) اتعاظ الحنفا ص ١٥ .
(٤) The Caliphate (Oxford, 1924), pp. 66-67.
(٥) Chroniken der Stadt Mecca, ed. Wüstenfeld, vol. iii. pp. 168-9

لما وصل إلى بغداد استقبل استقبالا حافلاً . فقد اصطفت الجند على جانبى الطريق ، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أماكنهم كل على حسب مكانته ، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر . حتى إذا ما رفع هذا الستر ، رأى الحاضرون الخليفة جالساً على عرش مرتفع ، يحيط به مئات الحراس ممتشقين سيوفهم ، مرتدين أبهى حللهم . وأمام الخليفة مصحف عثمان ، وعلى كتفيه بردة الرسول صلى الله عليه وسلم ، و بيده قضيب الملك . وتقدم عضد الدولة البويهى وقبّل الأرض . هنا سأل رسول الخليفة الفاطمى وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ : من هذا الذى يُسجد له و تُقبَّل الأرض بين يديه ؟ أهو الإله العظيم ؟ فأجابه عضد الدولة : إنه خليفة الله وظله على الأرض . وتقدم عضد الدولة وقبّل الأرض سبع مرات ، وأخذ يظهر آيات احترامه و إجلاله ، فقال له الخليفة : تقدم ! ومد إليه يده اليمنى فقبّلها . وأمره بالجلوس ؛ فطلب أن يعفيه من ذلك ، ثم جلس بعد أن كرر عليه الخليفة الطلب ، وقبل المكان المعد لجلوسه . ثم قال له الخليفة الطائع : عهدت إليك برعيتى الذين هم ودائع مُلكى ؛ ثم سأله : أتقبل الاضطلاع بهذا الأمر ؟ فرد عليه عضد الدولة : ساعدنى الله على طاعة مولاى أمير المؤمنين . و بعد أن خلع عليه الخليفة سبع خلع ، قبّل الأرض عند تسلم كل خلعة ، ثم طلب الإذن بالانصراف ، وانصرف سائر الناس »[1] .

ولم يدخر الفاطميون وسعاً فى سبيل نشر دعوتهم فى بلاد العراق ، فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز فى الموصل على يد أميرها أبى الدرداء محمد بن المُسَيَّب بن رافع بن المُقلّد العقيلى (٣٨٢ هـ) . كذلك نجح الخليفة الحاكم الفاطمى فى استمالة قرواش العقيلى الذى خرج على طاعة الخليفة العباسى القادر سنة ٤٠١ هـ[2] ، وقام بنشر الدعوة الفاطمية فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة ، كما أحلّ اسم الخليفة الحاكم الفاطمى فى الخطبة محل اسم الخليفة العباسى[3] وقد أثار نشر الدعوة الفاطمية فى بعض بلاد العراق حنق الخليفة القادر العباسى ، فلجأ فى محاربتهم إلى سلاح التشهير بسمعتهم فى العالم الإسلامى . فعقد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤ . ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٣) راجع هذه الخطبة فى أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .

الخليفة اجتماعا دعا إليه الفقهاء والقضاة و بعض زعماء الشيعة ، وأصـدروا فى سنة ٤٠١ هـ محضراً يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين . و إليك طرفاً من هذا المحضر :

« ... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، اصطفاه واختاره لهداية الخلق و إقامة الحق ... حتى قامت حجج الله وآياته وتمت بالتبليغ كلماته ؛ صلى الله عليه وعلى أوّل مستجيب إليه علىّ أمير المؤمنين وسيد الوصيين ، أساس الفضل والرحمة ، وعماد العلم والحكمة ، وأصل الشجرة الكرام البررة الثابتة فى الأرومة المقدسة الطاهرة ، وعلى خلفائه الأغصان البواسق [من تلك الشجرة] ، وعلى ما خلص منها وزكا من الثمرة ... اللهم وصلّ على وليك الأزهر وصديقك الأكبر ، علىّ بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين . اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين . وعلى الأئمة الأبرار ، والصفوة الأخيار ، من أقام منهم وظهر ، ومن خاف فاستتر . اللهم وصل على الإمام المهدى بك ، والذى بلّغ بأمرك ، وأظهر حجتك ، ونهض بالعـدل فى بلادك ، هادياً لعبادك . اللهم وصل على القائم بأمرك ، والمنصور بنصرك ، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك ، وجاهدا أعداءك . اللهم وصل على المعز لدينك ، المجاهد فى سبيلك ، المظهر للآيات الخفية ، والحجج الجلية . اللهم وصل على العزيز لدينك ، الذى مهدت به البـلاد ، وهديت به العباد

« اللهم اجعل نوامى صلواتك ، وزواكى بركاتك ، على سيدنا ومولانا إمام الزمان ، وحصن الإيمان ، وصاحب الدعوة العلوية والملة النبوية ، عبدك ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الراشـدين ، وأكرمت أجداده المهديين . اللهم وفقنا لطاعته ، وأجمعنا على كلمته ودعوته ، واحشرنا فى حزبه وزمرته . اللهم وأعِنْه على ما ولّيته ، واحْفَظْه فيما استرعيته ، و بارك له فيما آتيته ، وانصر جيوشه ، وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنك على كل شىء قدير » .

و يعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التى عقدت ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، وأنكر فيها نسب العبيديين إلى علىّ وفاطمة ، لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمى

فى بلاد الموصل ، فكروا فى القضاء على مذهبهم بالطعن فى نسبهم إلى على وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل فى هذا النسب فى نفوس المسلمين .

ويروى أبو المحاسن فى تاريخه أنه « فى سنة ٤٠٢ هـ فى شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسى محضراً فى معنى الخلفاء المصريين ، والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية ؛ قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ، ونُطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس . فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حَكَمَ الله عليه بالبوار والخزى والنكال — ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد — لا أسعده الله — فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء . وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب ، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار وزنادقة . ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية . وكتب فى [شهر] ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة »[1] .

« وكتب خلق كثير فى المحضر المذكور منهم الشريف الرضى والمرتضى أخوه ، وابن الأزرق الموسوى ، ومحمد بن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضى أبو محمد عبد الله بن الأكفانى ، والقاضى أبو القاسم الجزرى ، والإمام أبو حامد الإسفراينى[2] ، والفقيه أبو محمد

---

(١) أبو المحاسن جـ ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه فى الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس فى مسجد عبد الله بن المبارك فى قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩ — ٢٠) .

الـكشفلى[1] ، والفقيه أبو الحسين القدورى[2] الحنفى ، والفقيه أبو على بن حكان ، وأبو القاسم التنوخى[3] ، والقاضى أبو عبد الله الضيمرى . فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان فى أعين الناس لـكتابة هؤلاء العلماء الأعلام فى المحضر »[4] .

على أن ما رواه أبو المحاسن فى هذا الـكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه فى هذا المحضر الذى نفى فيه نسب الفاطميين ، يعارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضى ، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعه بهم صلة النسب ، قال :

ما مُقامى على الهوانِ وعنــدى	مِقْولٌ صــارمٌ وأنفٌ حمى
ألبس الذلَّ فى بلاد الأعادى	وبمصرَ الخليفةُ العــــلوىّ
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا	ىَ إذا ضامنى البعيدُ القصىّ
لفّ عرقى بعرقه سيدا النا	س جميعاً محمــــدٌ وعلىٌّ

ولم يكن هذا كل ما فعله العباسيون فى سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضاعفون جهودهم فى نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم ، ويصادفون كثيراً من النجاح فى هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هــذا المحضر من أثر فى نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون فى سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم[5] ، كما يكتبون فى سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر أيضاً « لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين »[6] .

على أننا نلاحظ تبدلا ظاهراً فى سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبى كاليجار

---

(١) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٢) بضم القاف والراء ، انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب فى الفقه يسمى مختصر القدورى .

(٣) هو على بن المحسن بن على بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعرى ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحى كالمدائن وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) الذى ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

(٦) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

(٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذى اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه، حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الفاطميين فى فارس، الذى تقلد فيما بعد منصب داعى الدعاة فى مصر، واتهم باعتناق عقائد الاسماعيلية مذهب الفاطميين.

لكن المستنصر لم يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين. ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم، ويتعهد له بإمداده بالمال والرجال. ومن ثم يبعث داعيته الجرىء هبة الله الشيرازى سفيراً من قِبَله لإثارة حماسة جند البساسيرى، وحثهم على إذكاء الثورة فى وجه الخليفة العباسى. ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمى وسعاً فى إمداد البساسيرى بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإنفاذهم إليه من بلاد الشام، وأرسل إليه كتاباً يقول فيه: «ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى بلاد العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضائل الآفاق، المشمرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة العود، مغسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان، مقصورة غرفها[1] على الثناء منها على أهل العدل والإحسان، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك، لمزية التقدمة، راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكل إليك عقدها وحلها[2]».

ولم يكتف المستنصر الفاطمى بذلك بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيرى، والعرب بزعامة دبيس بن على بن مَزْيد أمير عرب الفرات، ولقبه بألقاب منها الأمير، وسلطان ملوك العرب، وسيف الخلافة، وصفى أمير المؤمنين، كما منحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقى نهر الفرات[3]. وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمى أن انتصر البساسيرى وأنصاره على جيوش الخليفة العباسى فى موقعة سَنجار سنة ٤٤٩ هـ. وفى ذلك يقول ابن

(١) فى الأصل فرقها ولعله تحريف عن غرفها.

(٢) السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول، ورقة ١٨٤.

(٣) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد فى كتاب السيرة المؤيد المؤيدية فى الدين، ص ١٩١ — ١٩٣.

منجب الصيرفي[1] : « فأقام اليازوري أبا الحارث البساسيري مناصباً له ، وأمده بالمؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى (الشيرازي) ، وأصحبه الأموال ، فبعث إليه طغرلبك ألفين وخمسمائة فارس إلى سنجار . فكانت الوقعة المشهورة التي ظفر بها البساسيري ، ولم يفلت من هذه العدة إلا مائتا فارس أو دونها ؛ وعمل الشعراء في ذلك ، فمن مامدح ما قيل قول ابن حيوس الشاعر الذي توفي بحلب سنة ٤٧٣ هـ[2] .

عجبتُ لمدعى الآفاق مُلكا وغايتـه ببغـــدادَ الركودُ
ومن مستخلَف بالهُون يرضى يُذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجب منهما سيفٌ بمصر تُقامُ به بسنجار الحدود »

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد استطاع هبة الله الشيرازي أن يضم إبراهيم أخا طغرلبك إلى الفاطميين ، على أن « تكون الخطبة لهم (أي الفاطميين) بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته »[3] . وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك ، وانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن مسلمة . لكن الخليفة « استذم بذمام[4] قريش فحماه من القتل » . وفي ذلك يقول أبو المحاسن[5] : « دخل أبو الحارث البساسيري بغداد في ثامن ذي القعدة بالرايات المستنصرية ، وعليها ألقاب المستنصر هذا صاحب مصر ؛ فمال إلى البساسيري أهل الكرخ ، وفرحوا به لكونهم رافضة ، وانضموا إلى البساسيري وكشفوا عن أهل السنة ، وشمخت أنوف الرافضة المنافقين ، وأعلنوا بالأذان حيّ على خير العمل ببغداد . . وخطب يوم الجمعة ببغداد للمستنصر بجامع المنصور ، وأنشأ بعضهم يقول :

---

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ .

(٢) انظر ترجمته في ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠ — ١٢ .

(٣) السيرة المؤيدية ص ٢٦٣ .

(٤) الذمام الحرمة : يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل . في الأصل واستزم بزمام قريش وهو تحريف

(٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

يا بنى العباس صُـدُّوا ملكَ الأرضَ مَعَـــدُّ
مُلْـكُـكُمْ كان معاراً والعوارى تُـــــــرَدُّ

على أن زعزعة الحالة المالية فى مصر ، وعودة هبة الله الشيرازى إليها ، وقيام المنافسة بين المنصرين العربى والتركى فى جيش البساسيرى ، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال — كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة .

٢ — مع الحمدانيين والمرداسيين والعقيليين :

وعلى الرغم من أن الحمدانيين كانوا ، كبنى بويه ، يعطفون على الشيعيين ويميلون إلى مذهبهم ، كانوا يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسى ، لأن فى ذلك تهديداً لسلطانهم . لذلك نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام والخروج على الفاطميين ، بعد أن كانوا يدينون لهم بالطاعة ويعملون على نشر مذهبهم . فقد ذكر أبو المحاسن[1] أن القرامطة بعثوا إلى سيف الدولة « يستهدونه حديداً ، فسير إليهم كثيراً ، وحمل ذلك إليهم فى الفرات ثم فى البرية إلى هجر » .

كذلك نرى الحمدانيين يساعدون الحسن الأعصم القرمطى فى حروبه التى شنها على المعز لدين الله الفاطمى ثم على ابنه العزيز بالله . ولا غرو فإن جعفر بن فلاح القائد الفاطمى بعد أن استولى على دمشق ، هدد الحمدانيين فى حلب بالاستيلاء على بلادهم إذا لم يقيموا الدعوة الفاطمية على منابرها . على أن هذا التهديد أثار سخط الحمدانيين ، فعملوا على مساعدة القرامطة بزعامة الحسن الأعصم بالمال والرجال ليبعدوا خطر الفاطميين عن بلادهم . ويقول النويرى[2] إن بختيار بن معز الدولة بن بويه طلب إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة ابن حمدان (٣٥٨ — ٣٦٩ هـ) أن يدفع إلى الحسن الأعصم « أربعمائة ألف درهم ؛ فرحل الحسن (الأعصم) حتى أتى الرُّحبة ، وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فحمل إليه المال المسبب

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٩٥ .
ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٣١) هذه المسألة باختصار كبير ، على حين تناولها النويرى فى شىء كثير من التفصيل .

له به عليه ، وحمل إليه العلوفة ، وأرسل إليه يقول : هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسي ، وأنت تقوم مقامي فيه . وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إليّ خبرك ، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك » .

ولم تكن علاقة الفاطميين بالحمدانيين في عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ — ٣٨٤ هـ) على شيء من الصفاء ؛ فقد رأينا كيف أساء سعد الدولة معاملة رسول الخليفة العزيز الفاطمي حين طلب إليه الكف عن إيذاء أبناء بكجور ، وكيف أرسل إليه يتوعده بالمسير إلى بلاده . وعمل العزيز على الاستيلاء على حلب من يد أبي الفضائل سعيد ابن سيف الدولة (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) ، الذي لم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة إمبراطورهم باسيل الثاني . ولولا موت العزيز في مدينة بلبيس وهو في طريقه إلى حلب ، لخضع الحمدانيون لسلطان الفاطميين قبل خضوعهم نهائياً لابنه الحاكم[٢] .

ذلك أنه لما صفا الجو لسعد الدولة الحمداني ، وأمن شر بكجور ، سار إلى الرقة ، وكان بها أبو الحسن بن المغربي ، الذي كان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور كما تقدم . كما كان بها أولاد بكجور ، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعد قتل أبيهم . وقد كتب هؤلاء إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمي يسألونه التدخل لدى سعد الدولة رجاء الكف عن أذاهم ، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإنفاذهم إلى مصر . ولما وصل هذا الكتاب إلى سعد الدولة ، وكان قد بلغ ظاهر حلب ، أساء معاملة رسول الخليفة الفاطمي ، حتى إنه لما مثل بين يديه ، أمر بإعطائه الكتاب ولطمه وأرغمه على أن يأكله . فلما مضغه ، قال له سعد الدولة : « عد إلى صاحبك وقل له : لستُ ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه ؛ وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى ، فإنني سائر إليك ليكون اللقاء قريباً منك ، وخبري يأتيك من الرملة » . ثم أخذ سعد الدولة يعد العدة ، لولا أن عرضت له علته التي مات منها في سنة ٣٨١ هـ ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها[١] .

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه سعد الدولة ، وكان قد عهد إليه وهو في مرضه الأخير ، وأوصى لؤلؤ الخادم به وبابنه الآخر أبي الهيجاء وبأخته ست الناس . وقد أخذ لؤلؤ البيعة

---

(١) ابن القلانسي ج ١١ ص ٣٨ — ٣٩ .

لسعيد الدولة الذى امتاز عهده بوقوع عدة مواقع بين جيوش الحمدانيين وجيوش الفاطميين ، الذين طمعوا فى الاستيلاء على حلب والثأر لما لحق بهم من إهانة رسول الخليفة العزيز . وكان أبو الحسن بن المغربى قد كتب من الكوفة إلى العزيز يهون عليه فتح حلب ؛ فأرسل جيشاً بقيادة منجوتكين الذى دخل دمشق ، حيث أخذ يعد العدة للاستيلاء على حلب من أبى الفضائل سعيد الدولة ولؤلؤ ، اللذين استعانا بباسيل الثانى إمبراطور الروم . وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم ومطاردتهم إلى أنطاكية وإحراق ضياعها ، لم يتمكن من أخذ حلب بسبب قلة الأقوات ، وارتد إلى دمشق ؛ فأرسل الخليفة العزيز الجيوش لحصار حلب من جديد ، واستنجد لؤلؤ بباسيل إمبراطور الروم ، وكان مشغولا بحرب البلغار ، ليحول دون وقوع حلب فى أيدى الفاطميين ولحاق أنطاكية بها ، فسار باسيل بنفسه واستولى على حمص وشيزر وطرابلس ، وعاد منجوتكين إلى بلاده[1] . وعظم ذلك على الخليفة العزيز ، فخرج بنفسه لفتح حلب ، ولكنه مات فى بلبيس سنة ٣٨٦ هـ[2] .

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور ، حتى وقع ابنه سعيد الدولة فى شر لؤلؤ الذى آلت إليه الوصاية عليه ، فطمع فى ولايته وقتله هو وابنته ، وكان قد تزوج منها ، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدى سعيد الدولة : أبى الحسن على ، وأبى المعالى شريف . ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة ، وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ) . ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (سنة ٣٩٩ / ١٠٠٨) ، فخلفه ابنه منصور الذى لقبه الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٨٦ — ٤١١ هـ) « مرتضى الدولة » واعترف بسلطان الخليفة الفاطمى ، وذكر اسمه فى الخطبة . ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلك الحين ، ولكنه قد توطد بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه ، الذى انضم إلى جانب الحاكم الفاطمى ، فأقطعه صيدا وصور وبيروت ، ولقبه « مبارك الدولة وسعدها » ، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم[3] . وبذلك قضى الفاطميون فى عهد الحاكم على حكم الحمدانيين فى حلب .

---

(١) Vasil' Ev. : Cambridge Mediaeval History, vol. IV p. 149

(٢) ابن القلانسى : ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ .

أما عن علاقة الفاطميين بالمرداسيين ، الذين ينتسبون إلى صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، فإن الفاطميين لم يتمكنوا من توطيد سلطانهم فى حلب فى عهد الخليفة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) . فقد ناوأ صالح بن مرداس النفوذ الفاطمى واستولى على حلب بعد زوال نفوذ الحمدانيين فيها . وظل هذا الأمير يتولى حكمها إلى سنة ٤٢٠ هـ ، حيث أعد الخليفة الفاطمى جيشاً كبيراً لقتاله ، وتمكن من التغلب عليه . وبذلك أتيح للفاطميين استرداد نفوذهم فى حلب[1] .

على أن هذا النفوذ لم يتوطد بسبب تطلع المرداسيين لاسترداد سلطانهم على هذه المدينة ، فعهد الخليفة المستنصر الفاطمى إلى القائد التركى أنوشتكين باسترداد هذه المدينة من نصر بن صالح بن مرداس . ولم يستقر سلطان الفاطميين فى حلب حتى أرسل الخليفة المستنصر (٤٢٠ هـ) حملة بقيادة أبى عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، وضيّقت الجند المصريون على حلب حتى سئم أميرها وعجز عن القيام بشئونها ، واضطر إلى طلب الصلح من الخليفة الفاطمى ، فأجابه إلى طلبه ، وولى مكين الدولة بن ملهم حلب سنة ٤٤٩ هـ . وعلى الرغم من أن أمراء بنى مرداس حاولوا استرداد نفوذهم فى هذه المدينة ، ما لبث الفاطميون أن ردوهم على أعقابهم . وكان لضعفهم أثر كبير فى عدم استقرار الأمور فى ولايتهم ، مما عجّل بزوال نفوذهم منها بعد أن ظلوا على حكمها نحو ستين سنة[2] .

٣ — مع أشراف مكة والمدينة :

بدأ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم فى بلاد الحجاز ، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين يتمتع بالزعامة الروحية فى العالم الاسلامى كله ، ويكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامى من ناحية ، وأمام الشعوب التى يحكمونها من ناحية أخرى . هذا إلى أن فى هذا الأمر تقليلا من شأن الخلافة العباسية ، لأن أمير المؤمنين حقا هو الذى يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين فى مكة والمدينة[3] .

---

(١) كمال الدين بن العديم الحلبى : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ص ٢٢٧

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٠ .

انظر محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق (دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٧) ص ٥٥ — ٥٧ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٥٠) ص ١٤ .

وقد اتخذ المعز من النزاع الذى نشب بين بنى الحسن و بنى جعفر بن أبى طالب فرصة للتدخل فى شئون الحجاز ، فأرسل الرسل سراً ومعهم الرجال والأموال ليعقدوا الصلح بين الفريقين المتنازعين . وكان من أثر ذلك أن بادر الحسن بن جعفر أمير مكة إلى الدعاء للمعز على منابر مكة فى سنة ٣٥٨ هـ [١] . ولما اتصل هذا النبأ بمسامع المعز بعث إلى والى مكة تقليداً بالحرم وما يليه . كما أقيمت الخطبة للمعز الفاطمى بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسى منها . وعمل هذا الخليفة الفاطمى على توطيد أركان هذه السيادة ، فأنفذ فى سنة ٣٥٩ هـ « عسكراً وأحمال مال عدتها عشرون جملاً للحرمين وعدة أحمال متاع » [٢] . وبذلك انتشر النفوذ الفاطمى فى بلاد الحجاز جميعاً ، وظلت الخطبة تقام للمعز حتى توفى سنة ٣٦٥ هـ ؛ وخلفه ولده العزيز . وفى عهده انقطعت الخطبة للفاطميين ، فولى إدريس ابن زيرى الصنهاجى إمارة الحاج فى سنة ٣٦٧ هـ ، فاستولى على الحرمين وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى [٣] . ويظهر أن السيادة الفاطمية ظلت مزعزعة الأركان حتى سنة ٣٨٠ هـ حين اضطر العزيز إلى إرسال حملة حاصرت مكة والمدينة ، وأعادت الخطبة للفاطميين ، وقطعت الدعوة للعباسيين [٤] . وظل بنو الحسين أمراء مكة يدينون بالولاء للفاطميين ويعترفون بنفوذهم على مكة ، برغم ما بذله العباسيون فى عهد الخليفة القادر بالله من جهود ، وما أنفقوه من أموال لكسب وده وقطع الخطبة للفاطميين .

ولما أحس الحاكم الفاطمى أن أمراء مكة تحدثهم أنفسهم بالخروج عن طاعته ، أرسل إلى مكة حملة ثبتت أركان السيادة الفاطمية ، وعزلت بنى مُهنّى من إمارة هذه المدينة [٥] . وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ ، حين استطاع الوزير أبو القاسم بن المغربى أن يحرض أمير مكة على خلع طاعة الفاطميين ، وزين له الخروج وإقامة الخطبة لنفسه ، فأصغى إليه شريف مكة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب الراشد بالله [٦] ، وبايعه العرب بالخلافة .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ١٧ .

(٦) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٥٧ .

فلم يجد الحاكم بدأ من أن يكتب إلى أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح بتوليته الحرمين و بعث إليه بخمسين ألف دينار عيناً ، عدا الهدايا والخلع . ونجح أبو الطيب فى صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح والدخول فى طاعة الحاكم . فلم يجد أبو الفتوح بدأ من أن يكتب إلى الحاكم يعتذر إليه ويدخل فى طاعته . فعفا عنه وأعاده إلى إمارته ؛ وأقيمت الخطبة من جديد للحاكم الفاطمى ونقش اسمه على السكة[1] . وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة الفاطميين فى عهد الظاهر والمستنصر . وأقام شكر بن أبي الفتوح الدعوة للخليفة المستنصر فى الحرمين حتى توفى فى سنة ٤٥٣[2] .

ولما ولى محمد بن جعفر بن أبي هاشم مكة ، بعد أن دال ملك بنى سليمان ، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسى ؛ فسير المستنصر على بن محمد الصليحى إلى مكة فى سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمى إلى الحرمين . على أن مصر قد شغلت فى أواخر عهد المستنصر بما انتابها من أزمات اقتصادية لم تستطع أن تحتفظ بالسيادة على بلاد الحجاز ، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من مصر من أموال . فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسى ، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقى فى سنة ٤٦٢ هـ . فبعث إليه ثلاثين ألف دينار وخلعا نفيسة[3] . وبذلك انتهى نفوذ الفاطميين ببلاد الحجاز كما انتهى من بلاد المغرب ، وكان ذلك نذيراً بضياع نفوذهم من صقلية .

٤ — مع الصليحيين فى اليمن :

أما فى بلاد اليمن فقد راجت الدعوة الإسماعيلية على يد على بن محمد الصليحى (ت ٤٥٩ هـ) . وكان أبوه من القضاة السنيين فى هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الرواحى داعى دعاة الإسماعيلية فى اليمن ، على بن محمد الصليحى ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيى الدعوة الإسماعيلية القديمة وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع على بن محمد الصليحى أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضى على مناوئيه

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١ .

(سنة ٤٣٩ هـ) . ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه فى هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية[1] » (سنة ٤٥٣) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان على بن محمد الصليحى قد ملك معظم بلاد اليمن ، واتخذ صنعاء حاضرة لدولته .

ولما اتسعت رقعة دولة الصليحى وقضى على مناوئيه ، أعاد الدعوة الإسماعيليــة إلى ما كانت عليه فى بلاد اليمن قبل وفاة ابن حوشب ، وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر ولعلى الصليحى وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، وزالت الدعوة للعباسيين فى هذه البلاد[2] .

وكان علىّ الصليحى فى الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة المستنصر ، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين فى مصر . ومما يدل على هذه التبعية التى كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التى تبودلت بين على بن محمد الصــليحى والخليفة المستنصر الفاطمى . فقد بعث المستنصر إلى على بن محمد الصليحى فى عيد الفطر من سنة ٤٥١ هـ برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاده . ومما جاء فى هذه الرســالة : « هذا سجل أمير المؤمنين وارد عليك فى يوم عيــد الفطر من سنة إحدى وخمــين وأربعمائة . ونَصْر الله تعالى عليه متظاهر ، وجميل صنعه لديه متتابع متواتر . وقد أعانه على قضاء فريضة شهر رمضان الذى شرّفه على الشهور ونزّل فيه القرآن المستور ، فبرز إلى مُصَلاّه فى شيعته وأنصار حقه ودعوته ، محفوفاً بأوليائه وجنوده ، وجيوش دولته وعبيده ، وهم فى أكمل عُدة وأوفر عدد »[3] .

وقد بلغ من ثقة المستنصر بعلى الصليحى واطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب الأمير الأجل شرف المعالى تاج الدولة سيف الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين » ، كما لقبه أيضاً « منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين منجب الدولة وغرسها ذا السيفين نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين »[4] . كما عهد إليه المستنصر أمر إقرار الأمور فى مكة والمدينة وإعادتهما إلى

(١) الحادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

(٢) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٦٣ .

(٣) سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم ، مخطوط رقم ٢٧١٥٥ ، مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن ، نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (دار الفكر العربى ، القاهرة سنة ١٩٥٤) .

(٤) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٣ ص ٣٤ .

حظيرة الدعوة الفاطمية . وقد استطاع على الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها ، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب «عمدة الخلافة»[1] . وقال : « ورد إلى أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة ، حرسها الله ! يذكر أنك شددتَ معه حيازيم الجد بالتقوية من أمره والشد ، وشهرتَ في نصرته حساما ماضي الحد ، حتى عاد جموح مراكب مراده ذَلولا ، وغربُ (سيف) من انتصب لعناده (قتاله) مفلولا . فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره ، وامتيار (من الميرة وهي المدد أو المئونة) سحابه من محرك ، وأفاض في ثناء جميل وشكر جزيل أعجب أمير المؤمنين بهما ... وعهد إلى صاحب مكة بأن يتخذك ردءاً في صلاح ما هو له مُلابَس ، وعهد إليك بأن لا تنزع عنك لباس إيالته (الولاية) الذي أنت لابس»[2] .

وقد كتب على الصليحي إلى المستنصر ينهي إليه نبأ ما أحرزه من نصر في بلاد الحجاز، فرد عليه المستنصر برسالة جاء فيها : « وإنه عُرض بحضرة أمير المؤمنين كتابان وردا منك ، أحدهما صدر عنك من صنعاء بتاريخ شعبان من سنة خمس وخمسين وأربعمائة والآخر من مدينة الهجر[3] بتاريخ شوال من هذه السنة ، يتضمن الأول منهما ذكر ما انتهى إليك عند قفولك من مكة ، حرسها الله ! من حال الخارجي الذي استهواه شيطانه ودعاه إلى مصرعه جبنه وخذلانه ، وقيامه في قبائل مذحج والنَّخَع وعَبْس ، فأطلق لسان الغَي ، ودعا دعوة الإفك والبغي ... وما كان من دلوفك إليه في حزب الله المفلحين وأنصار دينه المخلصين . فاستبحتَ حماه وأبدتَ غَضْراه[4] ، وجعلته عظة للظالمين وعبرة للمعتبرين[5] .

وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى على الصليحي بأنباء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليذيعها على الناس ويعلنها من فوق منابر البلاد . فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حَيْدُران ، بعث المستنصر إلى على الصليحي بنبأ هـذا

---

(١) جاء في الرسالة رقم ٢ (ص ٣٢) وقد خوطب رسلك بما يذكرون لك مما يقوى نفسك ويشرح صدرك ويشد أزرك . وزاد أمير المؤمنين في نعوتك « عمدة الخلافة » لاعتماده عليك .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٣ ص ٣٧ .

(٣) وصحتها هجر .

(٤) أي الأرض الخضراء ، أي اكتسح أرضه .

(٥) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٤ ص ٣٩ — ٤٠ .

النصر ، فقال : أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه العارفة الطارفة لتنشره على المنابر وتذيعه فى البوادى والحواضر إن شاء الله تعالى . . . وكتب فى شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة[١] .

وقد بلغ من تعلق على الصليحى بالخليفة المستنصر الفاطمى أن كتب إليه يستأذنه فى السفر إلى مصر ليحظى بلقائه ، وبعث إليه بكتابه مع الداعى لَمَكْ بن مالك ، فأرسل الخليفة إليه كتابا فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٩ هـ ، يأذن له بالمجىء إلى مصر . ولكن الصليحى ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخلف ابنه المكرّم بصنعاء ، واغتيل على الصليحى على يد سعيد الأحول بن نجاح[٢] وهو فى طريقه إلى مكة[٣] .

ولم تفتر العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاة على الصليحى ، بل توثقت فى عهد ابنه أحمد المكرم . ذلك أن المستنصر ما كاد يسمع بنبأ مصرع على الصليحى ، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزيه فى وفاة أبيه ويقره على ملكه ، ويعهد إليه بشئون الدعوة الفاطمية فى اليمن ، وينصح له بأن يسير سيرة أبيه فى بسط العدل وحسن السيرة[٤] . يتضح ذلك من رسالة المستنصر إلى المكرم يقول فيها : « وكان والدك الأمير الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الإمامة ، تاج الدولة شرف المعالى ، سيف الإمام المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين على ابن محمد الصليحى . . . ممن خدم الدين ، فأخدمه الله سبحانه الدنيا . . . هذا ولما عرف أمير المؤمنين أنك نجيب ، وابن نجيب ، وفرع من شجر سُقى من ماء تهذيب ، رأى ، وبالله توفيقه ، أن يمد إليك بالاصطناع يداً ، هى الباسطة ليد أبيك ، ويُطمح نحوك بجميل الازدراع عيناً يُقرّ الله بها عينه[٥] فيك ، وأن يجعلك خليفة لدينه ودنياه ، وخلفاً صالحاً فى

(١) المصدر نفسه رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٢) من بنى نجاح باليمن .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التى تبودلت بين المستنصر الفاطمى وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ .
راجع سجلات المستنصر فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن The Letters of Al-Mustansir (B.S.O.S.), p. 323.

(٤) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢١٦ .

(٥) أى عين الإمام .

يومى مماته ومحياه ، وأن يشرفك من خاص ملابسه ما تباهى بمفاخره وتختال فى فاخره ، وأن يزيد فى ألقابك الزيادة الباقى جمال ذكرها فى أعقابك ، لتُنْشَر فى المحاضر ، وتتلى من فوق[1] المنابر . فعليك بتقوى الله سبحانه وطاعته فى سر أمرك وجهره »[2] .

ولم يفت المستنصر أن يغدق على المكرم الألقاب والنعوت التى تقربه من الخليفة وتحببه فيه ، وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه ، فلقبه بهذه الألقاب الضخمة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر . ومن هذه الألقاب : « أمير الأمراء شرف المعالى عز الملك منتجب[3] الدولة وغرسها ذى السيفين أبى الحسن أحمد بن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالى تاج الدولة سيف الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين[4] » .

وقد رد المكرم على هذه الرسالة برسالة أخرى يعلن فيها ولاءه للفاطميين وتمسكه بدعوتهم . فقد أشار المستنصر إلى هذه الرسالة بقوله : « وإنه عُرض بحضرة أمير المؤمنين كتابُك : كتاب خير خلف لخير سلف . نبت فى منبت الولاء والبَراء ، وغُدِىَ من شجرة طيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء »[5] . . . فاعلم أنك خليفته فى بلاد اليمن وعماده وعدته وسناده . . . واعتمد شرائط ما نفذ إليك من سجل التقليد . يرفع الله به منارك »[6] .

وكان المستنصر يهتم بما كان يجرى فى بلاد اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر وتوفيق . فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الأحول بن نجاح ، كتب إليه يعلن سروره بذلك النصر ويعرب عن اغتباطه بقوله : « فأما ما ألقيته من ذكر الوقائع العظيمة التى توَقَّلتْ شواهقها وشمّتْ[7] بوارقها[8] ، فردّاك[9] الله رداء النصر والظفر ، حتى كان

(١) وردت فى المخطوط المنشور فروق ولعلها فوق .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٢ ص ٣٣ .

(٣) وردت فى المخطوط المنشور منتجب ، ولعلها منتخب .

(٤) المصدر نفسه رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ .

(٥) هذا اقتباس من سورة إبراهيم : ١٤ : ٢٥ .

(٦) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ و ١٩٨ .

(٧) توقل وشم بمعنى ارتفع .

(٨) من بارقة أمل .

(٩) ردّاك بمعنى ألبسك .

آخرها أن أمكنك من ناصية الملعون الذى فتك بأبيك . وقد عرف أمير المؤمنين ذلك معرفة فَرِح به مسرور »[1] .

وهكذا تتابعت كتب المستنصر الفاطمى إلى المكرم الذى ظل على ولائه للفاطميين ، حتى لقد ولاه الخليفة الفاطمى ولاية عمان فى سنة ٤٦٩ هـ ، كما أمره بأن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية فى بلاد الحجاز ، وأن يؤيد الأمير عبد الله بن على العلوى أمير الأحساء . وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٤٧٠ هـ ، بعث المستنصر ينبئه بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالى والى عكاء منصب الوزارة ، وما بذله من جهود فى سبيل إقرار الأمن والسكينة فى ربوع البلاد . ومما جاء فى هذه الرسالة :

« قد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رمما ، ونصر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما . لم يكن لأمير المؤمنين فى أن يرقيه فى الرفع والإعلاء فوق الفراقد ، ويحله منه محل الوالد ، ويجعل له مقام الملك ، وينزله فى عقد خلافة الإمامة مكان السلك ، فنص عليه فى كفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين نص حق ، ونقلها منه إلى محق مستحق ، إذ كان مبرزاً فى ميدانها ناطقاً بلسانها عالماً بأحكامها » ، وطلب المستنصر فى نهاية رسالته إلى المكرم أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته فقال : « فولِّ وجهك نحو هذا السيد الأجل ، واجعله قبلة دينك فى مصادرك ومواردك »[2] .

توفى المكرم فى سنة ٤٨٤ هـ ، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر . ولكن زوجته السيدة أرْوَى الحرة لم ترض بهذا الاختيار ، لأنها كانت تريد أن تولى ابنها عبد المستنصر ، وكان لا يزال طفلاً . وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن[3] ، ووافق الخليفة الفاطمى على هذا الطلب ، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر . ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام ، ومن ثم احتدم النزاع بين الداعى أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى وأبى ربيع سليمان بن الأمير

---

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨ .

(٢) راجع .Al-Hamdânî, Letters of Al-Mustansir Billah, B.S.O.S. (1934), vol. vii. part II. p. 317-318.

(٣) حسن سليمان محمود : الملكة أروى ص ٢٤ — ٢٥ .

الزواحى ، وهدد هذا النزاع بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن تهديداً خطيراً ، فأرسل المستنصر إلى طرفى النزاع ينهاهم عن هذا الخلاف ، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر ، ويشيد بالخدمات التى أداها على الصليحى وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة ، فقال : « فهو يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأوحد المنصور العادل المكرم ، عمدة الخلافة ، تاج الدولة ، سيف الإمام ، المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين ، عماد الملة ، غياث الأمة ، شرف الإيمان ، ومؤيد الإسلام ، عظيم العرب ، سلطان أمير المؤمنين ، وعميد جيوشه — عبد المستنصر ... كما قد فرض الله عليكم من طاعة أمير المؤمنين ، ويأمركم أن تعتمدوا الجد والتشمير فى متابعته ومناصرته ... وأن تخلصوا النيات فى موافقته وطاعة والدته الحرة الملكة السيدة السديدة المخلصة المكينة ذخيرة الدين عمدة المؤمنين »[1] .

ويظهر أن النفوذ الفاطمى كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه . يدل على ذلك أن طرفى النزاع استجابا لنداء الخليفة ولبيا رجاءه وأيدا السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر . وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمى تزف إليه هذا النبأ . فرد عليها برسالة يبدى فيها سروره واغتباطه فقال : « وأما ما كان شجر بين السلطانين الأجلين أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى ، وأبى الربيع سليمان بن عامر الزواحى ، أعزهما الله ! فقد عرف أمير المؤمنين ما تكررت به مكاتباتك ... بما كان من تسدد[2] السلطان أبى حمير سبأ فى جميع ما جرى بينه وبين السلطان أبى الربيع ... وما قرظته به من حسن الطاعة ولين قيادة فى الموافقة والمبايعة ، وإيفائه[3] على ما طلب منه من المسامحة والمساعدة ولو كان مهضوما فيه »[4] .

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلا ، فقد وافته المنية ، واحتدم النزاع بين الداعى سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة ، لأنه كان يريد أن يؤول إليه حكم بلاد اليمن وأن

---

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣٨ ص ١٣١ .

(٢) أى أنه عاد إلى الرأى السديد .

(٣) أى وفائه .

(٤) المصدر نفسه ، رسالة رقم ٣٦ ص ١٢١ .

يتزوج منها . ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك . وطلب سبأ بن أحمد معونة الخليفة الفاطمى وطلب إليه أن يتدخل فى أمر هذا الزواج ، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه ، وقال لها رسوله : « وقد زوّجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد المنصور المظفر ، عمدة الخلافة أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطاف »[1] . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلبى نداء الإمام الفاطمى ، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ روحى فى بلاد اليمن ، لأن السيدة أرْوَى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين .

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر ، تراسله وتراسل أمه وأخته ، حتى وثق بها هذا الخليفة كل الثقة ، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية فى الهند وفى عمان ، وأن تعين من قِبَلها دعاة ينشرون الدعوة فى هذه البلاد[2] . كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر فى سنة ٤٨٧ هـ . فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلى برغم أنه لم يفز بإجماع أنصار الفاطميين فى مصر . فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالى على إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش ، وبايع أخاه أبا القاسم أحمد ، ولقبه المستعلى ، بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده . وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة ، يرجع تاريخها إلى ٨ صفر سنة ٤٨٩ ، يصف فيها ثورة أخيه نزار وتغلب وزيره الأفضل عليه ، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته[3] .

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية فى اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر ، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلى وتدين له بالولاء ، وذلك برغم

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢ — ٣٣ . حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٥٧ .

(٢) Al-Hamdani, Letters of al-Mustansir Billah, B.S.O.S. (1939), vol. vii. part ii p. 321.

(٣) Al-Hamdani, Ibid., p. 318.

جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ٨٥ .

تفشى النزارية وتأييـد الخولانيين لهم ، مما هدد بلاد اليمن بمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع . ولما علم الخليفة الآمر (٤٩٥ — ٥٤٤ هـ) بذلك ، أرسل الداعى على بن إبراهيم ابن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن فى سنة ٥١٣ هـ ليقف إلى جانب السيدة الحرة ويُعينها فى صراعها مع أعدائها . وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة فى تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها[1] . كما أرسل المأمون البطائحى وزير الآمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان ، تشد أزره فى نضاله مع أمراء اليمن . ولكن هذا الداعى الفاطمى خرج على الفاطميين وانحاز إلى النزارية ؛ فأرسل الخليفة الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩) يطلب منها تسليم ابن نجيب الدولة ، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل[2] .

وقد حفظ الآمر للسيدة الحرة إجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره ، فأرسل إليها فى شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولى عهده أبى القاسم الطيب ، ويطلب إليها أن تذيع هذا النبأ فى بلاد اليمن[3] . ولما قتل الخليفة الآمر فى سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد الحميد ابن محمد بن المستنصر نفسه أمر ابن الآمر الذى ولد فى هذه السنة وبويع بولاية العهد « إلى أن تنكشف أحوال نساء الآمر هل فيهن حامل أم لا » . وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب بن الآمر ، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة ، فاعتبرت إمامة الحافظ باطلة ، برغم ما بذل من جهود فى سبيل استمالته إليها ، لأنها كانت قد تسلمت رسالة الآمر الذى بشرها فيها بولاده ابنه الطيب ، ونظرت إلى الحافظ نظر المغتصب وقالت : حَسْبُ بنى الصليحى ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب »[4] ، وظلت تدعو للطيب على منابر بلادها ، بل عملت على إقامة الدعوة له فى بلاد الحجاز . ولم يجد الحافظ بداً من أن يرسل إلى آل زرَيع فى اليمن يطلب إليهم أن يدعوا له ، وقلد على بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه « الداعى لمعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين » .

---

(١) حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ١٦٨ وما يليها

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٣ — ٤٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٢ ، انظر أيضاً حسين الهمدانى وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٢١٨ .

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٢ .

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين : فريق يؤيد الطيب ، وفريق يؤيد الحافظ . ولم يكن بد من أن تسوء أحوال بلاد اليمن بسبب هذا الانقسام ، ولا سيما بعد وفاة السيدة الحرة فى سنة ٥٣٢ هـ ، فى الوقت الذى آذنت الخلافة الفاطمية نفسها بالزوال ، وما لبث الأتابك نور الدين محمود بن زنكى أن تدخل فى شئون مصر ، وتقلد صلاح الدين الوزارة ، وقضى على الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وتطلع إلى بلاد اليمن ، فأرسل حملة بقيادة الأمير توران شاه ، الذى استولى على هذه البلاد ، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها ، كما قُضى على النفوذ الفاطمى فى مصر نفسها .

٥ — مع الأمويين فى الأندلس :

كان العداء بين بنى أمية وبنى هاشم قديماً باقى الأثر فى الجاهلية والإسلام ، وكان العلويون يعتقدون أن الأمويين اغتصبوا حقهم فى الخلافة . فلما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، زاد حقد الأمويين فى الأندلس على هذه الدولة الشيعية ، بسبب اختلافهم وإياهم فى المذهب الدينى ، وبسبب العداء التقليدى الذى استمر بين البيتين الهاشمى والأموى ، وقرب الدولتين بعضهما من بعض .

وكانت بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) يحيط بها الأعداء من كل جانب : فكان الفرنجة فى الشمال يطمعون فى توسيع أملاكهم جنوبا ، ولا سيما بعد استيلائهم على برشلونة ، وكانت الإمارات المسيحية فى الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده . أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين . وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر حيث خلع موسى بن أبى العافية الذى استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط طاعة عبيد الله المهدى الفاطمى ، ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى استولى على سبتة وخطب له على منابر المغرب . ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام الجيوش الفاطمية ، ثم أعيدت مرة أخرى فى عهد القائم الفاطمى

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدبياً ، فبنى أسطولا من مائتى سفينة ، وتلقب بلقب خليفة . ومن ثم أصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : الخلافة

العباسية فى المشرق ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، والخلافة الأموية فى بلاد الأندلس ، وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية ، وازدهار دولته ، وارتفاع شأنها فى الداخل والخارج . ويقول المقرى[1] عن عبد الرحمن : « وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التأث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة[2] ، فتلقب بألقاب الخلافة » .

وقد أورد المؤرخون طرفا من الرسائل التى تبودلت بين العزيز بالله الفاطمى والحكم المستنصر الأموى (٣٥٠—٣٦٦ هـ) . ذكر ابن خلكان[3] أن العزيز كتب إلى الحكم المستنصر يسبه ويهجوه ، فرد هذا عليه بقوله : أما بعد ، قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك . ويقول ابن خلكان أيضاً إن العزيز لم يرد على الحكم وأنه تألم لذلك أشد الألم . ولكن العينى[4] ذكر أن الحكم كتب « إلى العزيز صاحب مصر كتابا حجاه فيه وفى أهله ، وأنه دعىٌّ فى نسبه ، وأن جده القداح باطنى وكتب فى أول كتابه :

ألسنا بنى مروانَ كيف تقلبت ... بنا الحال أو دارتْ علينا الدوائر ؟

فلما وقف العزيز عليه كتب فى أوله :

إذا وُلد المولود منا تهللت ... له الأرضُ واهتزتْ إليه المنابر

عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك ، والسلام » .

كذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغربين الأقصى والأوسط ، وخطب له على منابره ، وأبطلت الخطبة للفاطميين ، كما قضى على نفوذ الأدارسة بنواحى الريف[5] .

وفى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٨٦ — ٤١٠ هـ) ظلت العلاقة متوترة بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الأموية فى الأندلس التى كانت تتحين الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر . وقد ظهر ذلك واضحاً فى الثورة التى قام بها أبو ركوه[6] الذى

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ص ١٦٦

(٢) هذ خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠ هـ

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٤) عقد الجمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٦) سمى بذلك لركوة كان يحملها فى أسفاره على سنة الصوفية .

ينتمى إلى هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى ؛ وكان يدعو لعمه هشام بن الحكم المستنصر الأموى بالأندلس . وتبعه كثير من الناس ، وعظم أمره وسار على رأس جيش كبير إلى برقة ، واستولى عليها بعد أن هزم جيوش الحاكم . ولم يقتصر أمره على ذلك ، بل ضرب عملة جديدة واستحوذ على كل ما كان بدار الإمارة من الأموال .

ولما علم الحاكم بما قام به أبو ركوة اضطرب اضطراباً شديداً ، وأعد العدة لمحاربته ، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة « ينال الطويل » أحد قواد الأتراك . غير أن هذا الجيش كان معظمه من قبيلة كتامة التى لم تسكن راضية عن هذا القائد التركى . لذلك لم يلبث أبو ركوة أن أوقع بجيش ينال الهزيمة وأسره . وقال له : إلعَن الحاكم ! ، فبصق « ينال » فى وجه أبى ركوة ؛ فأمر هذا به فقطع إرْباً ، واستولى على مائة ألف دينار كانت معه ، فقوى بذلك أمره وزاد خطره على مصر ، فجهز جيشاً كبيراً من الشآميين والغلمان الحمدانية . فحلت الهزيمة بجيش الحاكم أولا ، ثم التقوا بأبى ركوة فهزموه وقتلوا نحو ثلاثين ألفاً من جنده ، وسيروا رأس أبى ركوة إلى الحاكم ، فأمر بصلب جسده ، وأقطع الفضل بن عبد الله إقطاعات كثيرة مكافأة له على قضائه على ثورة أبى ركوة . ولم يلبث الحاكم أن جزاه جزاء سنمار ، فقبض عليه وقتله[1] .

٦ — مع المغرب وصقلية :

ذكرنا من قبل ما كان من تأييد صنهاجة ، أعظم قبائل البرانس وأوفرها قوة وأشدها خطراً ، للدعوة الفاطمية ووقوف أفرادها إلى جانب كتامة حليفة الفاطميين ، ومساهمتها فى الجهود التى بذلها الفاطميون فى سبيل تأسيس دولتهم ، وبسط سلطانهم على كافة أرجاء بلاد المغرب ومناضلة الأمويين فى الأندلس . فقد أيد زيرى بن مناد زعيم صنهاجة وصاحب الكلمة الأولى فيها الخليفة الفاطمى الثالث ، وهو المنصور بن القائم ، فى صراعه مع أبى يزيد مخلد بن كيداد . ولولا جهود زيرى الموفقة لما استطاع الفاطميون أن يقهروا ذلك الخارجى الذى كاد أن يديل دولتهم ويقضى على جهودهم[2] .

---

(١) أبو المحاسن : ج ٤ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ٢٥ — ٢٦ .

فلما آلت الخلافة إلى المعز ، عظمت ثقته بزيرى بن مناد وقربه إليه ، وولاه على المغرب الأوسط ؛ فبنى مدينة أشير التى أضحت حاضرة الزيريين فى هذه البلاد . ولما اشتبك الفاطميون مع الزناتيين بالمغرب الأوسط كان زيرى وصنهاجة من خلفه أول من خف إلى شد أزره انتقاماً من زناتة عدوهم التقليدى . فلما انتصر الفاطميون على الزناتيين وبدأت كتائبهم تطأ أرض المغرب الأقصى كان زيرى بن مناد ساعد جوهر الأيمن فى حصار فاس وفتحها ، واستطاع الفاطميون بمعونة الكتاميين والصنهاجيين أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأقصى حتى بلغوا المحيط الأطلسى ، وأصبحوا بحيث يستطيعون أن يقفوا بالمرصاد للأمويين الذين لم يجاوزوا مدينة سبتة .

ولما تم الفاطميين فتح مصر ، وأحبوا أن ينقلوا مقر خلافتهم إلى القاهرة ، لم يكن بد من أن يستخلفوا صنهاجة التى وقفت إلى جانبهم فى أحلك الأوقات . ولما كان زيرى ابن مناد قد قتل فى صراعه مع زناتة وخلفه ولده بلكين ، لم يجد المعز بداً من أن يولى بلكين بلاد المغرب ، فبعث فى طلبه فجاء إلى القيروان حيث خلع عليه ، وسماه يوسف ، وكناه أبا الفتوح . وفى يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ ، غادر الخليفة المعز مدينة المنصورية حاضرة خلافته استعداداً للرحيل إلى مصر ، فولى بلكين مقاليد إفريقية وقال له : « يا يوسف ! إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البلاد ، ولا ترفع السيف عن البربر [١] ، ولا تولّ أحداً من أهل بيتك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك » [٢] . وهكذا تمت البيعة لبلكين ، وانتقل الفاطميون إلى مصر ، وقامت دولة بنى زيرى بإفريقية .

ولكن سيادة الفاطميين لم تزل عن بلاد المغرب برحيلهم إلى مصر ، لأن بنى زيرى أسسوا دولة تمتعت باستقلال ذاتى ، ودخلت فى دائرة الإمبراطورية الفاطمية ، ودانت بالتبعية للخليفة الفاطمى بالقاهرة . وخطب للفاطميين على منابر المغرب ، وضربت السكة بأسمائهم . وقد أورد لينبول [٣] طائفة من الدنانير التى ضربت بأسماء الخلفاء الفاطميين

---

(١) يقصد بذلك الزناتيين ، لأن صنهاجة كانت تنتسب إلى العرب وتتبرأ من البربر .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٧ .

(٣) Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library, pp. 152—187.

بمدينتي المهدية والمنصورية ، وبين أن النقود ظلت تضرب بأسمائهم حتى سنة ٤٢٩ هـ . ومن هذه الدنانير مثلا دينار ضرب في عهد الخليفة المعز لدين الله كتب على الوجه الأول : « محمد رسول الله وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعلى الثاني : باسم الله ضرب هذا الدينار بالمنصورية سنة ثلثمائة و إثنان وستون دعا الإمام معد لتوحيد الإمام الصمد ، المعز لدين الله أمير المؤمنين » . وثمة نقود أخرى ضربت بإفريقية في عهد بني زيري ترجع إلى عهود العزيز والحاكم والظاهر تعترف بهذه التبعية الروحية للفاطميين . ولم تكن هذه التبعية مقصورة على نقش اسم الخليفة الفاطمي على السكة ، أو ذكر اسمه في الخطبة ، بل كان بنو زيري يرسلون الجزية إلى مصر في كل سنة[1] .

وكانت السيادة الفاطمية على إفريقية في عهد بلكين بن زيري تكاد تكون تامة ، والتبعية إلى الخليفة الفاطمي في القاهرة تكاد تكون مطلقة . فقد ذكر ابن الأثير[2] أن الخليفة المعز ولى زيادة الله بن القديم على جباية الأموال ، وولى عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف الموحدي الخراج . ولم تكن هذه الإجراءات مما يضيق به بلكين ، لأن الفاطميين كانوا أصحاب الفضل فيما وصل إليه بنو زيري من عزة وسلطان . وكان بلكين يصدر أوامره إلى عماله « بوصفه خليفة السلطان ونائبه »[3] . وكانت السجلات ترد على بلكين من القاهرة فتصله على البريد في فاس ، « ثم يرجع بها إلى عامل إفريقية[4] ، فتقرأ بعد مدة من تاريخها »[5] . وكانت الجزية ترسل من إفريقية إلى مصر . فقد ذكر ابن عذارى[6] أن عامل القيروان كان يجمع الأموال ويبعث بها إلى مصر .

وكان الخلفاء الفاطميون يقرون الأمراء على ولايتهم ويبعثون بسجلات إلى ولاة

---

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٦ .
(٢) الكامل ج ٨ ص ٢٤٦ .
(٣) ابن أبي دينار : المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٣٧ .
(٤) لأن بلكين كان يحارب في منطقة فاس وكان له نائب في القيروان .
(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٦ .
(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٨ .

العهد ، وتؤخذ البيعة لهؤلاء الخلفاء فى بلاد المغرب . وكان أمراء بنى زيرى يلبون أوامر الخليفة بالقاهرة دون غضاضة أو ملل . فقد كتب الخليفة العزيز إلى بلكين يأمره بمساعدة الحسن الإدريسى(١) فى حربه مع الأمويين بالمغرب . كما أرسل إلى المنصور بن بلكين يطلب إليه عزل أحد القضاة ، فلم يتوان فى تنفيذ أمره وحمل القاضى إلى مصر وهو على فراش المرض(٢) . وكان الخلفاء الفاطميون يرسلون إلى بنى زيرى يطلبون النجدة كلما أعوزتهم الحاجة إلى الرجال .

وقد استمرت هذه التبعية للفاطميين حتى ولى المعز بن باديس الذى خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلى ، وشد أزر أهل السنة(٣) ، ودخل فى طاعة الخليفة العباسى ، فدعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة . ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذى ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه : الوجه الأول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . لا إله إلا الله وحده لا شريك له . محمد رسول الله . الوجه الثانى : باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله »(٤) .

كما خطب للخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان ، وجاء فى الخطبة : « اللهم العن الفسقة الكفار والمارقين الفجار ، أعداء الدين وأنصار الشيطان ، المخالفين لأمرك والناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، والمبدلين كتابك . اللهم العنهم لعناً وبيلا واخزهم خزياً عريضاً طويلا ، اللهم إن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس بن المنصور القائم لدينك والناصر لسنة نبيك ، والرافع لواء أوليائك ، يقول مصدقاً لكتابك وتابعاً لأمرك مدافعاً لمن غير الدين وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون(٥) . كما أمر المعز بلبس السواد شعار العباسيين ، فصنع أعلاما سودا وملابس سوداء لرجال الدولة(٦) .

---

(١) السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٥٧ .

(٣) حسن أحمد محمود ، بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٧٤ .

(٤) Katalog der Orientalis chen Munzen, vol. ii, p. 210.

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩٠ .

هكذا انتهت السيادة الفاطمية على بلاد المغرب . وإن من يتتبع العوامل التى أدت إلى هذه النتيجة ، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية فى القيروان على أمور الدولة الزيرية ، فى الوقت الذى شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمى بالفتن والثورات والمجاعات .

ولم يقف المستنصر الفاطمى من هذه الأحداث الخطيرة التى تمخضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج ، فقد عمل على الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عليه برغم ما أسداه إليهم من مآثر ، « فأطلق نحوه (المعز بن باديس الصنهاجى) من أعنة قبائل الرياحية والزُّغبية[1] من منعه أن يَبُلَّ ريقاً ، وسد لأنفاسه طريقاً ، ورمى به فى أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقا » . وقد خرجت قبائل هلال وسُلَيْم وزُغبة ورياح وعَدى والأثبج من مضاربهم بصعيد مصر ، وانقضوا على إفريقية ، وأوقعوا بالمعز ابن باديس فى موقعة حيدُران[2] ، ودخلوا القيروان وخربوها ، وأتوا على تراثها الزاهر ، وضعف ملك بنى زيرى بعد ذلك حتى لم يعد ملكهم يجاوز أسوار مدينة المهدية[3] .

وقد طرب المستنصر الفاطمى لهزيمة الزيريين ، لأنه استطاع أن ينتقم لنفسه منهم ، وعبر عن سروره فى هذه الرسالة التى بعث بها إلى على بن محمد الصليحى صاحب اليمن . وقد جاء فيها : « وإنه حلَّ ابن باديس اللعين محصوراً فى منفاه[4] من الأرض ، محمولا على شفا جُرُف [من] الأخذ والقبض . قد فغر[5] الردى له فيه ، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه . وأمير المؤمنين يسأل الله جلّت عظمته معونته على شكر نعمه التى هو عن القيام بواجب أقلها محصور ، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ، ويقول : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن ، إن ربنا لغفور شكور أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه المارقة الطارقة لتنشره

---

(١) من بطون بنى هلال الذين استقروا بصعيد مصر فى عهد الفاطميين .

(٢) قطعت الخطبة للفاطميين فى إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر فى طريقهم إلى بلاد المغرب فى سنة ٤٤٠ هـ . ووقعت موقعة حيدران فى سنة ٤٤٣ هـ ، أى أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ — ٤٤٣ هـ) .

(٣) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٤) أى منى .

(٥) فغر فاه أى فتحه .

على المنابر وتذيعه فى البوادى والحواضر إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[1] .

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين فى المغرب ، حتى قامت دولة الموحدين على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت ، الذى تلقب بلقب المهدى . ولما توفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) ثم خلفه عبد المؤمن بن على ، الذى قطع الخطبة للخليفة العباسى المقتفى ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين[2] . والآن ننتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية :

ظل ولاة صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجرى فى نزاع متصل مع الروم . وكان لهذا أثره فى إضعاف نفوذ الفاطميين فى هذه الجزيرة . فلما ولى الاكحل أمور هذه الجزيرة ، جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أمرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم فى بلادكم . والرأى إخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً »[3] . على أن الأكحل لم يعبأ بذلك ، وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية ، فلبوا طلبه . وظل يحمى أملاكهم ، ويأخذ الخراج من أملاك أهل الجزيرة . غير أن هذه السياسة التى اتبعها هذا الوالى أساءت إلى أهالى صقلية : فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجى أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم ، وقالوا له : « نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم » . فسيّر معهم ابنه عبد الله[4] . فلما دخل المدينة ، حاصر الأكحل وقتله . وثار فريق من الأهالى وولوا عليهم حسنا الصمصام أخا الأكحل . ولكن هذا الوالى لم يكن حسن السياسة ، فثار عليه أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على الجزيرة ، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة ، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم . فأرسل إليهم أسطولا لم يقم رجاله بالمهمة التى أوفدوا من أجلها ، وغرق أكثرهم . ولم يلبث أن توفى ابن باديس ، وخلفه ابنه تميم ، فأبطل ذكر

---

(١) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٣ وما يليها .

(٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

اسم الخليفة المستنصر الفاطمى من الخطبة سنة ٤٤٣ هـ ونشر الدعوة للقائم العباسى . و بذلك تقلص نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب وصقلية . وظلت الدعوة تقام لبنى العباس فى هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم .

أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولا لمساعدة المسلمين فى صقلية على طرد الروم منها . ولم يكد هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها و بين تميم بن المعز . وانتهز النرمنديون هذه الفرصة ، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة وثغورها ، وضيقوا الخناق على المسلمين حتى ضاقت بهم سبل المعيشة . وظلت الحرب مشتعلة بينهم و بين النرمنديين زمناً طويلا حتى اضطر المسلمون إلى التسليم وتم لروجر النرمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ[1] .

وهكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها فى صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الإصلاحات فيها ، ونشروا فى بلادها ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت فيها الخيرات ، وافتن أهلها فى ضروب الترف والنعيم . وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى فى شيء : يتمتع كل منهم بعقيدته وأسلوب معيشته . وقد تشبَّه نساء النصارى بنساء المسلمين ، فانتقبن النقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، وتزيّن بكل ما يتزيّن به المسلمات . ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب وصقلية . ويرجع ذلك إلى انشغاله بإخماد الفتن الداخلية التى صحبها الغلاء والوباء وأدى إلى ضعف مصر . كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحى فى اليمن سنة ٤٧٣ هـ .

ولم يكتف الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية ، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية الشمالى ، فاستولوا على المهدية ، حاضرة الدولة الفاطمية الأولى ببلاد

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢ .

المغرب[1] . وظلوا بها إلى أن أجلاهم الموحدون عنها على يد عبـد المؤمن بن على ، الذى حشد فى سنة ٥٤٠ هـ جيشاً غزا به شمال إفريقية ، فاستولى على المغربين الأقصى والأوسط ، واشتبك مع النرمنديين فى تونس وأجلاهم عنها ، ثم تابع سيره شرقاً حتى بلغ حدود مصر الغربية ، فضم طرابلس وبرقة ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى حيث حانت منيته سنة ٥٥٨ هـ

شهد عهـد المستنصر زوال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب وصقلية فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى على ما تقدم . كما قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة لهذا الخليفة سنة ٤٦٢ هـ على أثر انقطاع الأموال التى كانت ترد إليهما من مصر وخطبا للقائم العباسى ، وبعثا إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى ببغداد بهذه الأنباء ، فبعث إلى كل منهما بالأموال . كما قطعت الدعوة للمستنصر الفاطمى على أثر وفاة الصليحى فى اليمن سنة ٤٧٣ هـ .

٦ — مع البيزنطيين :

أما علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية فإن الخليفة العزيز أرسل فى سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم ؛ غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذى أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها . ثم قدم إلى مصر رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح ، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها :

١ — إطلاق سراح أسرى المسلمين فى بلادهم

٢ — الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة

٣ — حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم

٤ — عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين[2] .

وقد علق ستانلى لينبول[3] على هذا الصـلح بقوله : « ويظهر أن العلاقات السياسية بين البيزنطيين والفاطميين كانت على شىء من الصفاء فى أواخر خلافة العزيز بالله

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢

(٣) History of Egypt in the Middle Ages, pp. 147—8

الفاطمى » . ودلل على هـذا القول بأن إمبراطور الروم أهدى إلى العزيز هدية فيها ثمان وعشرون صينية من الفضة وأطباق محلاة بالذهب .

وكانت بلاد الشام التى كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزاً للصراع بين هؤلاء و بين البيزنطيين ، فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوباً فى هذه البلاد ، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحراً بالقرب من طبرية ، وانتصرت الأخرى براً بالقرب من فامية .

ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولا من قِبَله لمفاوضة الخليفة الفاطمى فى الصلح ، فأعد الحاكم العدة لاستقبال هذا الرسول ، فأمر بتزيين القصر ، وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضى بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين[1] .

ولما ولى الخليفة الظاهر الفاطمى الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين . ففى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) عقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن ، وتقضى بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى مساجد بلاد الروم ، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم قد هدمها ، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام فى عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم[2] .

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين فى القسطنطينية إلى استغلال هذا المظهر الإسلامى فى علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطميين تارة وللعباسيين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى ، تبعاً للظروف والأحوال التى تلائم مصلحتهم ، ويهددون بذلك المسلمين ، إذا تعرضوا لكنيسة القيامة ببيت المقدس .

ولكن على الرغم من عقد هذه الهدنة التى قامت على أساس حسن التفاهم بين الدولتين ، نجد البيزنطيين ينقضونها ، وينضمون إلى أعداء الفاطميين ويغيرون على بلاد الشام . ويقول أبو الفدا[3] : « فى سنة ٤٢٢ هـ سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ ، Lane—Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 136

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٥٥

(٣) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥٨ .

الطائى ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من عسكر الظاهر العلوى ، فسار مع الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا إلى قامية فكبسوها ، وغنموا ما فيها وملكوا قلعتها ، وأسروا وسبوا » .

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية فى أوائل عهد المستنصر على شىء من الصفاء ؛ ففى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١) على أن يطلق الروم « خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة قمامة التى كان قد خرّبها الحاكم فى أيام خلافته : فأطلق الأسرى ، وأرسل من عمّر قمامة وأخرج ملك الروم عليها أموالا جليلة »[1] : كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤ م) فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) الذى تعهد أن يمده بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التى حلت بمصر فى هذه السنة غير أن هذا الإمبراطور توفى قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) ، فاشترطت لمعونة مصر شروطا أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمى بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، فلم يوافق المستنصر على ذلك ، واشتبك الفريقان فى معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين فى مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم ، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة ، وأرسل فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الإمبراطورة تيودورا القاضى أبا عبد الله القضاعى لتسوية الخلاف .

بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة . وهاك ما ذكره المقريزى[2] عن محاولة المستنصر التقرب إلى البيزنطيين . « بعث الخليفة المستنصر بالله ... إلى ملك الروم بقسطنطينيه أن يحمل الغلال إلى مصر ، فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر ، فأدركه أجله ومات قبل ذلك ، فقام فى الملك بعده امرأة ، وكتبت إلى المستنصر تسأله أن يكون عوناً لها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد . فأبى أن يسعفها فى

(١) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢

(٢) خطط ج ١ ص ٣٣٥

طلبها ، فجردت لقتاله وعاقت الغلال عن المسير إلى مصر . فحنق المستنصر وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وسارت إلى اللاذقية فحاربتها بسبب نقض المدنة وإمساك الغلال عن الوصول إلى مصر . وأمدها بالعساكر الكثيرة ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو ؛ فنزل ابن ملهم قريباً من قامية وضايق أهلها ، وجال فى أعمال أنطاكية فسبى ونهب ، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة فى البحر ، فحاربها ابن ملهم عدة مرار ، وكانت عليه ، وأسر هو وجماعة كثيرة فى شهر ربيع الأول منها » .

و بعد ذلك بقليل تفاقم خطر السلاجقة وهددوا أملاك الدولة البيزنطية من جهة أرمينية وفى شرق آسيا الصغرى ، كما هددوا أملاك الفاطميين فى بلاد الشام وعملوا على القضاء عليهم نهائيا . كما عمل كل من الفاطميين والسلاجقة على التقرب من البيزنطيين . ومما أورده ابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ عن رسالة القضاعى ، نستطيع أن نقف على مدى الصراع الذى قام بين الفاطميين والسلاجقة وانحياز البيزنطيين إلى الأخيرين . يقول ابن ميسر[1] : « وفيها سير المستنصر فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة . وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه برسالة من مصر إلى قسطنطينية فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية . فأذن له بذلك ، فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم العباسى (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) ، فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فأخذ ما كان بقمامة ، وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد بين المصريين والروم » .

ولا غرو فقد كان السلاجقة يومئذ أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين ، الذين ضاعت أملاكهم فى المغرب وأصبحوا يعانون من الفتن والشدائد وندرة الأقوات ما جعلهم عاجزين عن مواصلة الغزو والفتح فى بلاد الدولة البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية فى عهد القائم تسعى إلى القضاء على الفاطميين ، حتى إنها أرسلت فى سنة ٤٤٣ هـ رسولا إلى المعز ابن باديس فى شمال إفريقية يحمل إليه الخلع والعهد من قِبَل الخليفة العباسى ، فوقع هذا الرسول « فى أيدى الروم فحملوه إلى قسطنطينية ، وحمله هذا إلى المستنصر ، وشرط ألا

(١) أخبار مصر ص ٦ وما يليها .

يؤذيه ، فشهره المستنصر بمصر على جمل ورده إلى الملك ، فلامه الملك قسطنطين ، واعتذر إلى القائم والمعز ورده إلى بغداد[١] » .

و بعد ذلك بقليل نرى العباسيين يضاعفون جهودهم للقضاء على الفاطميين ، فيحثون البيزنطيين على انتزاع بلاد الشام منهم . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى[٢] : « ورد من حيز الروم نسخة كتابها (بغداد) إليها وتحملها على التجرد معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار ، فيجعلون الشام من نصيب إخوانهم شياطين الروم الكفار » .

وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن فسدت العلاقات بينهم و بين الفاطميين منذ ذلك الحين حتى قامت الحروب الصليبية . و يقول المقريزى[٣] : « وفسدت من حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها وحاصروا القاهرة » .

٨ — مع الغزنويين :

لم تقتصر جهود محمود الغزنوى على فتح البلاد فى فارس وخراسان وغيرها ، بل إنه اهتم أيضاً بالقضاء على أهل البدع والأهواء ، فصلب عدداً كبيراً من الباطنية ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم . ففى سنة ٤٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجد و يحارب هؤلاء فى غير هوادة . يقول الذهبى[٤] : « وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله ، و بث كلمته فى عماله بخراسان وغيرها فى قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، وصلبهم ونفاهم ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم » .

ولما وجد الفاطميون فى مصر ما يلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية فى بلاد المشرق على

(١) العينى : عقد الجمان ، مخطوط ج ٢٠ ورقة ٨٥ .
(٢) السيرة المؤيدية : مخطوط بجامعة القاهرة ورقة ١٤١ .
(٣) خطط ج ١ ص ٣٣٥ .
(٤) تاريخ الإسلام : مخطوط ج ٣ ورقة ٢٧٩ .

يد محمود الغزنوى ، عملوا على استمالته إليهم ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم . وفى ذلك يقول ابن كثير[١] : « وكانت رسل الفاطميين فى مصر تفد إليه بالكتب والهدايا لأجل أن يكون فى جهتهم ، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم » . ومن هذا الكتاب الطويل الذى أرسله محمود الغزنوى إلى الخليفة القادر بالله فى سنة ٤٢٠ هـ ، نستطيع أن نتبين كيف كان محمود ينصر أهل السنة ويحارب الفرق الدينية الأخرى ، التى كان يعتبرها خارجة على الدين والدولة . وإليك هذا الكتاب عن الذهبى :

« سلام على سيدنا ومولانا الإمام القادر بالله أمير المؤمنين : إن كتاب العبد[٢] صدر من معسكره بظاهر الرى غرة جمادى الأولى (سنة ٤٢٠ هـ) ، وقد أزال الله[٣] فى هذه البقعة أيدى الظلمة ، وطهرها من أيدى الباطنية . وقد تناهت إلى الحضرة[٤] حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه[٥] واجتهاده ، وغزو أهل الكفر والضلال ، وقمع من نبغ من الفئة الباطنية . وكانت الرى محصورة بالتجائهم إليها وإعلانهم بالدعاء إلى كفرهم ؛ فيها يختلطون بالمعتزلة والرافضة ، ويتجاهرون بشتم الصحابة ، ويرون الكفر ومذهب الإباحة . وكان زعيمهم رستم بن على الديلمى ، فعطف العبد بالعساكر عليه ، فطلع بجرجان وتوقف بها إلى انصراف الشتاء ثم إلى دامغان ... وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم . فرجع إلى الفقهاء فى تعرف أحوالهم ، فأفتوا بأنهم خارجون عن الطاعة ، داخلون فى أهل الفساد ، يجب عليهم القتل والقطع والنفى على مراتب جناياتهم ، إن لم يكونوا من أهل الإلحاد ، فكيف واعتقادهم لا يخلو من التشيع والرفض والباطن ؟ وذكر هؤلاء الفقهاء أن هؤلاء القوم لا يصلون ولا يزكون ولا يعترفون بشرائط الدين ، ويجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، والأمثل منهم معتقد مذهب الاعتزال والباطنية ، فهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... فخلت هذه البقعة من دعاة الباطنية ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) يقصد السلطان محمود الغزنوى .

(٣) فى الأصل أنزل .

(٤) يعنى الخلافة العباسية .

(٥) فى الأصل سعته .

وأعيان الروافض ، وانتصرت السنية . فطالع العبد بحقيقة ما يسَّره الله تعالى لنصر الدولة القاهرة » .

ولما علم الظاهر أن يمين الدولة محمود بن سُبكتكين صاحب غَزْنة قد عظم أمره ، كتب إليه كتاباً يدعوه إلى طاعته ، وأرسل إليه الخلع — وكان أبوه الحاكم قد أرسل إليه قبل وفاته كتاباً فى ذلك ، فمزقه محمود ولم يعره أى اهتمام . فحاول الظاهر استمالته إليه فلم يعبأ به ، و بعث بالكتاب والخلع إلى الخليفة العباسى القادر ببغداد ؛ فجمع القضاة والأشراف والجند ، وأخرج الخلع التى أرسلها الظاهر الفاطمى إلى محمود الغزنوى — وكانت سبع جبب وفرجية ومركب ذهب ، وأضرم النار فيها ، وسبك المركب الذهب ، وضرب منه ٥٠٠ر٤٠ دينار ، تصدق بها على ضعفاء بنى هاشم [1] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥١ .

الباب التاسع

النظم الفاطمية

١ – النظام السياسى

(ا) الخلافة :

كانت الخلافة الفاطمية التى قامت بالمغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين المسلمين والشيعيين . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد علىّ ، ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة . وظل هؤلاء العلويون يناضلون فى سبيل هذه الزعامة ، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب التى أصبحت تنافس الخلافة العباسية فى المشرق . وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ومن ثم نرى الشيعيين يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يوصف به خلفاء بنى العباس . ولا غرو فقد خاطب أحد الشعراء عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بهذه الأبيات :

حلّ برقادةَ المسيحُ   حلّ بها آدمُ ونوحُ
حل بها أحمد المصطفى   حل بها الكبش والذبيحُ
حلّ بها الله ذو المعالى   وكل شىء سواهُ ريحُ[1]

وكانت أيمان أهل إفريقية : « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة » ، حتى كتب بعض أحداث القيروان هذين البيتين وتلطفوا فى وصولهما إلى عبيد الله من حيث لا يعلم :

(١) ديوان ابن هانئ ص ٩٦ .

الجورَ قد رضينا لا الكفرَ والحماقهْ
يا مدّعى الغيوبَ مَن كاتبُ البطاقهْ ؟

من هذا يتبين مركز الخلفاء الفاطميين فى أعين شعراء بلاطهم ؛ وكان من أثر ذلك أن صار الخلفاء يعتقدون فى أنفسهم أنهم أعلى من سائر البشر ، وأنهم لم يختصوا ببعض الحقوق الإلهية فحسب ، بل بصفات الله أيضاً . ومن الحق أن نقول إن هؤلاء الخلفاء لو لم يكونوا يخشون ثورة شعوبهم ، لكشفوا للناس حقيقة معتقداتهم ، التى كان يدين بها خواصهم وحاشيتهم وغيرهم ممن كانوا يحضرون مجالسهم الشيعية فى القصر . وطالما قاوم الأهلون آراء بعض الخلفاء وصادموهم باحتجاجات كانت تأخذ فى بعض الأحيان مظهر التهديد ، كما حدث فى حادث الدَّرَزى والأخْرَم .

وقد قيل إن الخوارج فى بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة الغالية ، فثاروا فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهد القائم والمنصور بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد . ويقول الذهبى(1) إن الخليفة القائم الفاطمى أمر بلعن الأنبياء وأطلق منادياً ينادى بلعن الغار ومن لاذ به ، وأن ذلك أثار سخط الخوارج فثاروا تحت لواء ابن كيداد .

ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة . وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى كمصر واليمن وفارس والهند ، بل توغلت هذه التعاليم فى بلاد الأندلس نفسها التى كانت إذ ذاك تحت نفوذ الأمويين السنيين(2) .

ولم يكن استيلاء الفاطميين على مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ومد نفوذهم نحو الشرق إلا وسيلة للقضاء على نفوذ العباسيين السياسى وجعل السيادة للمذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين . ويقول أدم متز(3) إن الخليفة الفاطمى وقف من الخليفة العباسى موقف

---

(1) تاريخ الإسلام : دار الكتب المصرية ، مخطوط ٤٢ ورقة ١٦٩

(2) Dozy : The Moslems in Spain, pp. 406, 413-15

(3) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبى ريدة ، ج ١ ص ٤

المنافس العنيد ، وإن نفوذه انتشر فى كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر فى المغرب ومصر ، وفى بلاد اليمن والشام .

وقد لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد آل ساسان ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين . وأصبح الإمام فى نظر الناس ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً ، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمراً أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة من الله الذى أملاها على الإمام الملهم ، لأنه تلقى علمه من الله عن طريق الوحى .

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة فى مصر . فقد ادعى المعز لنفسه كثيراً من صفات التقديس التى تظهر فى عبارته التى وجهها إلى الحسن الأعصم القرمطى ، حيث يقول : « إنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيّرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشئات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » . ناهيك بادعاء الحاكم الألوهية التى شغلت كل حياته تقريباً .

وتمتاز الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة التى كانت تتمثل فى الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفى توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيدى الفطر والأضحى ، وفى جلوس الخليفة بقاعة الذهب .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمى أو العلوى وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة له فى صلاة الجمعة : السلام على أمير المؤمنين « الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته » . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيديين » نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على بن أبى طالب ، و « الفاطميون » نسبة إلى فاطمة الزهراء . كما

كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فنجد مثلا المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يستر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه . فقد أخفى القائم موت أبيه عبيد الله المهدى ، وأخفى المنصور موت أبيه القائم سنة ٣٣٤ ه حتى قضى على ثورة أبى يزيد سنة ٣٣٦ ه ، فأعلن نبأ وفاة أبيه . وكذلك أخفى المعز موت أبيه المنصور ، وأخفى العزيز موت أبيه المعز فى ١١ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ه ، ولكنه لم يعلنه إلا فى ١٠ ذى الحجة من هذه السنة . ولما تطرق الضعف إلى الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه ، كما فعل بدر الجمالى وابنه الأفضل من تفضيل المستعلى على أخيه نزار الذى كان أبوه المستنصر قد عهد إليه لأنه أكبر أبنائه ، فجر ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية ومستعلية . ولا يزال أغا خان وأتباعه من الخوجات فى الهند يمثلون النزارية ، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية فى الهند أيضاً يمثلون المستعلية .

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمى باعتباره إماماً يرث آباءه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولى عهده قبل وفاته حتى لا يخلو العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزاتها إذا كان ولى العهد كبير السن واسع التجربة كفؤاً لتولى ذلك المنصب الخطير . فالقائم بن عبيد الله المهدى كان قبل توليته الخلافة ماهراً فى الحرب حاذقاً فى السياسة ، استطاع فى حياة أبيه أن يغزو مصر غير مرة ويخمد الثورات التى قامت فى وجه الدولة الفاطمية ، كما استطاع العزيز أن يقود الجيوش الفاطمية وينتصر على القرامطة فى حياة أبيه وبعدها . وأما الحاكم مثلا فقد كان صغر سنه وقلة تجاربه ونقص كفايته من العوامل التى أثارت المتاعب فى وجه الخلافة الفاطمية فى عهده ، كما كان ذلك من عوامل ضعف هذه الخلافة فيما بعد . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى الظاهر والمستنصر وغيرهما من الخلفاء الفاطميين .

(ب) الوزارة :

كان جوهر ينوب عن الخليفة الفاطمى فى حكم بلاد دخلت فى حوزة الفاطميين منذ أمد قريب ؛ وكانت سياسته تنطوى على كثير من الحكمة و بعد النظر . ولقد رمى جوهر من وراء هذه السياسة إلى إفساح المجال أمام المغاربة ، ليلموا بالنظم الإدارية التى كانت تسير عليها الحكومة المصرية . ولكنه رأى بصائب نظره أن يكون تنفيذ هذه السياسة تدريجياً ؛ لأن العلاقات التى كانت بين السنيين والشيعيين ، و بين المغاربة والمصريين ، لم تكن على صفاء دائماً .

وكانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٠٨ — ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ[1] ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يدبروا أمور الدولة بأنفسهم . ولما كان السنيون يشغلون أكثر وظائف الدولة فى العهد السابق ، كان من شأن كل تغيير فجائى فى حالة الموظفين كافة أن يحدث ارتباكا فى سير الأعمال الإدارية . ولقد فطن جوهر نفسه إلى هذه السياسة ؛ فأقر جعفر بن الفرات فى وزارته .

بيد أنه يلوح لنا أن ابن الفرات لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم فقط . يدلك على ذلك ما ذكره المقريزى من أن جوهراً عين خادما فرض عليه أن يلازم الوزير فى

(١) ذكر الماوردى الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : « ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما فى النظرين ، وذلك من أربعة أوجه :

أحدها : أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثانى : أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والثالث : أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

والرابع : أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها . . . ولهذه الفروق الأربعة بين النظرين افترق فى أربعة من شروط الوزارتين :

أحدها : أن الحرية معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ .

والثانى : أن الإسلام معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والثالث : أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ .

والرابع : أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ . فافترقا فى شروط التقليد من أربعة أوجه ، كما افترقا فى حقوق النظر من أربعة أوجه ، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط » .

كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٦ .

داره ، وأن يسير فى ركابه أنى سار ، ليكون عينا عليه يراقب حركاته وسكناته . وهذه العبارة التى أدلى لنا بها المقريزى لا تترك مجالا للشك فى أن سلطة الوزير قد زالت أو كادت ، وأنه إنما سمح له بالبقاء فى مركزه لإرضاء شعور السنيين لا غير .

ولم يكن سلوك الوزير ابن الفرات إزاء هذه الدولة الشيعية أقل أثراً من سلوك غيره من المتعصبين السنيين . فلقد أبى فى بادئ الرأى أن يستقبل المعز فى الإسكندرية ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنيين جميعاً من اضطهاد الحكومة الفاطمية . ولكن تدخل كبار السنيين من المصريين ، ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة . فقد أتوا إليه فى الليلة السابقة ليوم وصول المعز القاهرة ، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهيئة الأسباب للفاطميين لحملهم على الانتقام والتشفى .

فلم يكن بد إذاً من أن يذعن الوزير لهم ؛ حتى إذا ما بزغ صبح اليوم التالى ، دخل فيمن دخلوا على الخليفة المعز . وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للايقاع به واتخاذ الشدة والعنف معه ، فسأله قائلا : « أحَجَّ الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟ » وكان الوزير ذكى الفؤاد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور : « شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ؛ السلام عليك يا ولى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » .

وقد زادنا ياقوت[1] أنه كان من أثر هذا الحديث أن عرض المعز على ابن الفرات أن يستمر فى الوزارة ، فاعتذر . وبذلك انتهت مدة وزارته فى عهد الدولة الفاطمية بدخول المعز .

وكان لعسكر المغاربة قاض يدعى علىّ بن الوليد ، وكل إليه النظر فى قضاياهم . ولا شك فى أن هذا القاضى كان إليه النظر أيضاً فى كثير من القضايا التى نشأت من هذا العداء الذى ظهر بينهم وبين المصريين .

(١) إرشاد الأريب ج ٣ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

ومع ذلك فقد بقى اسم ابن الفرات ذائعاً بعد هذه السنة[١] ، كما ذكر ابن خلكان فى عبارته التى أوردها عن الوزير يعقوب بن كلس أن ابن الفرات هذا كان يغدو إليه ويروح ، وأن الوزير قد أولاه ثقته ، وكان يعوّل عليه فى محاسبة العمال ؛ ويجالس الوزير ، فيدعوه إلى تناول الطعام معه[٢] . ومن المدهش أن تكون هذه العلاقة بين الرجلين على هذا النحو الذى ذكره ابن خلكان ، على الرغم مما كان بينهما من العداوة القديمة التى كان منشؤها التنافس على الوزارة .

ويتضح لنا مما ذكره ابن منجب[٣] عن وزراء العزيز الفاطمى ، أن ابن الفرات تقلد الوزارة فى عهد هذا الخليفة ، وأن وزارته فى عهد الفاطميين لم تدم أكثر من سنة واحدة ، وأنه تقلد بعض المناصب الحكومية مرتين فى عهد العزيز : فقد تقلد الخراج فى سنة ٣٨٢ هـ بعد أن قبض على الوزير أبى الحسن على بن عمر العداس لاتهامه بتبديد أموال الدولة ؛ ثم أسندت إليه الوزارة فى ربيع الأول من السنة التالية .

ويقول ابن ميسر[٤] إن ابن الفرات بقى فى دست الوزارة سنة واحدة . وفى سنة ٣٩١ هـ[٥] توفى هذا الوزير العظيم ، بعد أن تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين .

ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس ، وكان يهوديا وُلد فى بغداد ونشأ بها ، وسافر مع أبيه إلى الشام ، فأنفذه منها إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، فاتصل ببعض خواص كافور ، فعهد إليه بعمارة داره ، ورأى فيه النجابة والنزاهة ، فعينه فى ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد مع كافور حتى أمر أصحاب الدواوين ألا يصرف

---

(١) ١٨ رمضان سنة ٣٦٨ (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٠) . وقد ذكر لنا ياقوت أن أبا العباس الفضل ابن الوزير ابن الفرات تزوج بابنة الوزير ابن كلس . وقد كان لهذا الزواج أثر كبير فى تمكين أواصر الصداقة بين هذين الوزيرين .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤١ .

(٣) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٤ و ٢٥ .

(٤) تاريخ مصر ص ٥١ .

(٥) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٣ ص ٤٠٥ . وقد ذكر ابن خلكان ج ٣ ص ١٣٩ أنه توفى فى يوم الأحد الثالث عشر من صفر ؛ وذكر فى رواية أخرى أن وفاة هذا الوزير كانت فى شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقد أورد ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٨٧) أنه توفى فى صفر سنة ٣٩١ ، وفى رواية أخرى فى سنة ٣٩٢

شيء من المال إلا بتوقيع ابن كلس (سنة ٣٣٦ هـ) . وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ أظهر ابن كلس إسلامه وصلى فى الجامع ، فزادت حظوته عند كافور . بعد ذلك لزم ابن كلس الصلاة وقراءة القرآن ، ورتب لنفسه شيخاً من أهل العلم يعرف القرآن ويجيده ، ويحفظ كتاب السيرافى فى النحو[1] ، فكان يبيت عنده ويصلى به ويقرأ عليه . وظل ابن كلس على حظوته عند كافور إلى أن مات . وكان الوزير ابن الفرات يحسد ابن كلس ويحقد عليه فحبسه ، فتدخل بعض الناس فى الأمر ، وبذل ابن كلس له الأموال حتى أطلق من اعتقاله ، فاقترض من أخيه وغيره مالا ، ثم سار مختفياً يريد بلاد المغرب . وقيل إنه لقى جوهراً وهو فى طريقه لغزو مصر فعاد معه ، وقيل أيضاً إنه سار إلى بلاد المغرب واتصل بخدمة المعز ، ثم عاد معه إلى مصر . ومهما يكن من الأمر فإن ابن كلس ظل فى خدمة المعز واكتسب حظوة ابنه العزيز وتولى أموره ، ثم ولى الوزارة فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ (١٩ أبريل سنة ٩٧٩ م) ، وأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وهمة إلى أن مات سنة ٣٨٠ هـ[2] .

وقد ذكر ابن خلكان ، نقلاً عن أخى محسن : « رأيت يعقوب بن كلس قائماً يسارّ كافوراً . فلما مضى قال لى : أى وزير بين جنبيه[3] ؟ ويزيدنا ابن عساكر أن كافوراً قال : لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً ، فأسلم طمعاً فى الوزارة[4] » .

وقد وصف ابن منجب الصيرفى[5] علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمى المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة ، وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح ، كما وصف أثره فى العلم والأدب فى هذه العبارة فقال :

« وخدم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلى الله عليه ، وخص بخدمته وتولى أموره . وفى شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة ، لقبه بالوزير الأجل ، وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به . وخلع عليه وحُمل ورسم له فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة أن يبدأ فى

(١) ياقوت : إرشاد ج ٣ ص ٨٤ . ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١ .

(٢) ابن منجب : الإشارة ص ١٩ — ٢٢ . ابن ميسر ص ٤٥ ، ٥١ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٤) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط رقم ٢١٣٧ ورقة ١٨ (ا) وما يليها .

(٥) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢١ — ٢٢ .

مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة منه . وخرج توقيع العزيز عليه السلام بذلك . وفى هذه السنة اعتقله فى القصر وردّ الأمر إلى جبر بن القاسم ، فأقام معتقلاً شهوراً ، ثم أطلقه فى سنة أربع وسبعين وثلثمائة ، وحمله على الخيل بالسروج واللجم والثقال ، وقرئ له سجل برده إلى ما كان له من تدبير الدولة ، ثم قرئ له سجل يهبه خمسمائة من الناشئية وألف غلام من المغاربة ، لا رجعية فيهم ولا مثنوية[1] ، وإنا ملكناه أعناقهم وحكمناه فيهم ، فمن أراد أن يبيعه باعه ، ومن أراد أن يعتقه عتقه . وكان الوزير أبو الفرج فى سنة سبعين وثلثمائة أحضر جماعة من الفقهاء وأهل الفتيا ، وأخرج لهم كتاب فقه عمله ، وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام . وقرأ عليهم رسالته ، وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية » .

وكان ابن كلس يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم . واتخذ فى قصره عدة دواوين ، جعل إلى بعضها النظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين[2] .

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى « الوساطة » خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء . ففى أوائل عهد الحاكم (٣٨٦—٤١١ هـ) عزل عيسى بن نسطورس — وكان نصرانياً — لمحاباته أهل ملته وتقليدهم مناصب الدولة العامة ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين « الوساطة » ، وتلقب بلقب « أمين الدولة »[3] (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ) . ولكنه حابى الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك . « ونفذت أوامره فى الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء ، حتى على جوارى القصر هبة وعتقاً ، واستولى أصحابه وقلت مبالاتهم ، وأشاروا عليه بقتل الحاكم ، فلم يعبأ به استصغاراً لسنه واستهانة لأمره »[4] .

وقد تقلد الوساطة بعد ابن عمار « برجوان » أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ) . وكان يستعين فى إدارة شئون الدولة بكاتبه أبى العلاء فهد بن إبراهيم —

---

(١) أى بلا استثناء .

(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٧٢ .

(٣) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٢٢٢ .

(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٢٢٢

وكان نصرانياً . وظل برجوان يدبر شئون الدولة الفاطمية و يشرف على الخليفة الذى ضاق بأستاذه ذرعاً ، فأمر بقتله فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ[١] ، فحل محله الحسين بن جوهر القائد الذى استعان بفهد بن إبراهيم ، وكان يلقب « الرئيس » . « وكانا يدبران و ينفذان فى القصر ، واستمرا على ذلك إلى أن زال أمر الرئيس فى جمادى الآخرة من سنة ٣٩٣ هـ (حيث) قتل وأحرق ، وأقام قائد القواد (يعنى الحسين بن جوهر) على أمره . ثم خاف وهرب هو وابن النعمان ، وكتب لهما أمانان ، و بطل أمر قائد القواد فى النظر (ثم) قتل »[٢] .

و إن من يستقصى تاريخ الوزارة فى عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيراً من الوزراء كانوا من أهل الذمة ، وأنهم كانوا لا يستقرون فى الحكم طويلا ، لمحاباتهم أبناء جلدتهم وتذمر المسلمين منهم . ففى المحرم سنة ٤٠١ هـ أقيل ابن عبدون النصرانى من الوزارة ، وخلفه أحمد ابن محمد القشيرى ، ولكنه عزل بعد عشرة أيام ، ثم قتل وحل محله فى الوزارة زُرعة أخو عيسى بن نسطورس وتلقب بالشافى[٣] . وفى سنة ٤٠٣ هـ تقلد « الوساطة » الحسين ابن طاهر الوزان وتلقب « بأمين الأمناء » ، وخلع عليه الحاكم « خلع الرساطة والتوقيع عن الحضرة » . واستمر فى دست الوزارة إلى أن قتل فى شهر جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ[٤] . وقد بلغ من ضعف شأن الوساطة أن بعضهم كان لا يستقر فيها أياما معدودات ، كما كان يتولى الوساطة أكثر من واحد . ففى شهر شعبان سنة ٤٠٥ هـ تقلد هـذه الوساطة الحسن وعبد الرحمن ابنا أبى السيد فى وقت واحد وخلع عليهما ، إلا أنهما لم يلبثا أن قتلا ولما يستقرا غير شهرين . وكذلك تولى الوساطة أبو العباس الفضل بن الوزير جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يستقر فى منصبه وخلع بعد خمسة أيام فقط[٥] .

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمى الأول أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح ، الذى لقب « وزير الوزراء ذى الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة » . وقد وصفه ابن منجب

(١) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٤) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٩

(٥) المصدر نفسه ص ٣٠

الصيرفى[1] فى هذه العبارة فقال : إنه « كان من أول الكتاميين بيتا وأجلهم قدراً . . . وكان أوجه الأمراء فى الدولة الحاكمية ، وقاد الجيوش السائرة إلى الشام ، ومرض فى سنة ست وأربعمائة ، فركب الإمام الحاكم إلى داره لعيادته ، وحمل إليه مرتبة ديباج وخمسة آلاف دينار . وكانت هذه عادته إذا عاد أحداً . وفى رجب سنة ثمان وأربعمائة بعث بما تقدم ذكره . وكتب له سجل بذلك ، فكان الناظر فى جميع رجال الدولة ؛ وجمل له فى سجله ولاية الإسكندرية وتنيس ودمياط والشرطتين العليا والسفلى والحسبة والسيارتين والعرض[2] والإثبات[3] والنظر فى الواجبات[4] . وفى شوال سنة تسع وأربعمائة ركب على رسمه[5] من داره إلى القاهرة ؛ فلما صار بقرب البرك التى تلى الخليج ، لقيه فارسان متنكران ، فرماه أحدهما برمح جرحه ، وولى هاربا ، ولم يدرك ، فعاد إلى داره مجروحا ، ومات من جراحته غد يومه ، فركب ولى العهد وصلى عليه وواراه وحضر معه قاضى القضاة » .

ومن أشهر رجال هـذا العصر الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى[6] وقد تقلد بعض المناصب المالية فى عهد الحاكم ، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبى عبـد الله محمد بن العداس ، وذلك فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ، فبقيا معا فى الوساطة سبعة أشهر . ولكن الجرجرائى لم يتقلد « الوزارة » إلا فى سنة ٤١٨ هـ ، وبقى فيها حتى مات الخليفة الظاهر فأقره ابنه المستنصر فى منصبه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ[7] .

سجل تقليد الجرجرائى الوزارة :

وقد دون ابن القلانسى[8] سجل تقليد أبى القاسم الجرجرائى الوزارة . ومما جاء فيه :

(١) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣٢

(٢) أى عرض أمور الدولة على الخليفة

(٣) يريد إثبات توقيعات الخليفة فى الأوراق والقصص التى تعرض عليه

(٤) يريد النظر فيما يجب تنفيذه من أمور الدولة

(٥) أن على ما جرت به العادة

(٦) ينسب إلى جرجرايا ، إحدى قرى سواد العراق ، وقد وصل إلى مصر ودخل فى خدمة الحاكم . وشهد الاضطهادات التى حدثت فى عهده ، فسجن (٤٠٣ هـ) ثم قطعت يده فى السنة التالية . ولكنه لم يلبث أن أسند إليه ديوان النفقات فى سنة ٤٠٦ هـ ، ولقب نجيب الدولة (٤٠٧ هـ) .

(٧) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ — ٣٧ .

(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ — ٨٤ .

« أما بعد . . . وإن أحق من عول عليه فى الوزارة وأسند إليه أمر السفارة ، ونصب لحفظ الأموال وتمييزها وسياسة الأعمال وتدبيرها وإيالة طوائف الرجال كبيرها وصغيرها ، من كان حفيظا لما يستحفظ من الأمور ، قووما بمصالح الجمهور ، عليما بمجارى السياسة والتدبير . ولذلك قال يوسف الصديق عليه السلام : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم . ولو استغنى أحد من رعاة العباد عن وزير وظهير يكاتبه عن أمره ويظاهره ، لكان كليم الله موسى صلى الله عليه ، وهو القوى الأمين عنه مستغنيا ، ولم يكن له من الله جل جلاله طالبا مستدعيا . وقد قال : (ربِّ اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى أشدُد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً[1]) . ولما كنتَ بالأمانة والكفاية علما ، وعند أهل المعرفة والدراية مقدما ، وكان الكتاب على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم يسلمون إليك فى الكتابة ، ويقتدون بك فى الإصابة ، ويشهدون لك بالتقدم فى العناء ، ويهتدون بمحلك اهتداء السَّفْر بالنجم فى الليلة الظلماء ، ولا يثنيا كرون الانحطاط عن درجتك فى الفضل لتفاوتها فى الارتفاع ، ولا يَرُدُ ذلك راد من الناس أجمعين إلا خصمه وقوع الإجماع . هذا مع المعروف من استقلالك بالسياسة ، واستكمالك لأدوات الرئاسة ، وتدبرك أمور المملكة ، وما ألف برشد وساطتك من سمو اليمن والبركة — رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ، أن يستكفيك أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته ، ويرفعك على جميع الأكفاء بتام تكرمته ، وينوه باسمك تنويها لم يكن لأحد قبلك من الظهراء فى دولته . فسماك بالوزير لمؤازرتك له على حمل الأعباء ، ووكد هذا الاسم بالأجل ، لأنك أجل الوزراء ، وعزز ذلك بصفى أمير المؤمنين وخالصته ، إذ كنتَ أعز الخلصاء والأصفياء ، وشرفك بالتسمية تسميقا بك فى العلياء ، ودعا لك بأن يمتعه الله بك ويؤيدك ويعضدك دعاء يجيبه فيك رب السماء . فأنت الوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته المحبو بالمن الجسيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وأمر أمير المؤمنين بأن تدعى بهذه الأسماء وتخاطب وتكتب بها عن نفسك

---

(١) سورة طه ٢٠ : ٢٥ — ٣٤ .

وتكاتب . ورسم ذكر ذلك فيما يجرى من المحاورات وإثباته فى ضروب المكاتبات ، ليثبت ثبوت الاستقرار ، ويبقى رسمه على مر الليالى والنهار . فاحمد الله تبارك وتعالى على تمييز أمير المؤمنين لك بتشريفه واختصاصه ، وإحلاله إياك أعلى محال خواصه . واجر على سَنَنك الحميد فى خدمته ومذهبك الرشيد فى مناصحته ، إذ كان قد فوض إليك أمر وزارته ، وجعلك الوسيط بينه و بين أوليائه وأنصار دعوته وولاة أعمال مملكته وكتاب دواوينه وسائر عبيده ورعيته شرقا وغربا وقربا وبعداً ، وأمضى توقيع من تنصبه للتوقيع عن أمير المؤمنين فى الإخراج والإنفاق والإيجاب والإطلاق ، وناط بك أزمة الحل والعقد والإبرام والقبض والبسط والإثبات والحط والتصريف والصرف ، تفويضاً إلى أمانتك التى لا يقدح فيها معاب ، وسكونا إلى ثقتك التى لا يلم بها ارتياب ، وعلما بأنك تورد وتصدر عن علم وحزم تفوق فيهما كل مقاوم ، ولا تأخذك فى المناصحة لأمير المؤمنين والاحتياط له لومة لائم ، وجميع ما يوصى به غيرك ليكون له تذكرة وعليه حجة ، فهو مستغنى عنه معك لأنك تغنى بفرط معرفتك عن التعريف ، ولا تحتاج مع وقوفك على الصواب ، وعلمك به إلى توقيف . غير أن أمير المؤمنين يؤكد عليك الأمر بحسن النظر لرجال دولته دانيهم وقاصيهم ، بارك الله فيهم ، وأن يتوفر على ما يعود بصلاح أحوالهم وانفساح آمالهم وانشراح صدورهم وانتظام أمورهم ، إذ كانوا كتائب الإسلام ومعاقل الأنام وأنصار أمير المؤمنين المحفوفين بالإحسان والإنعام ، حتى تحسن أحوالهم بجميل نظرك ويزول سوء الأثر فيهم بحسن أثرك . وكذلك الرعايا بالحضرة وأعمال الدولة ، فأمرهم من المعنى به والمسئول عنه . وأمير المؤمنين يأمرك بأن تستشف خبرة الولاية فيهم . فمن ألفيته من الرعية مظلوما ، أوعزت بنصفته ، ومن صادفته من الولاة ظلوما تقدمت بصرفه وحسم مضرته ومعرته » .

خلف الجرجرائى فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ، ولقبه الخليفة المستنصر « تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين[1] » . وكان الفلاحى يهوديا ثم أسلم . وقد أشار الجرجرائى قبل موته بتقليده الوزارة . ولكن الفلاحى لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم ، بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى ، وكانت أم الخليفة

---

(١) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٨ .

المستنصر من قبلُ أمة فى بيته ، فأهداها إلى الخليفة الظاهر . فلما مات هذا الخليفة ارتفع قدر التسترى وتقرب من المستنصر ، وأخذ « يتولى ما يخص السيدة الوالدة ، وعظم شأنه إلى أن صار ناظراً فى جميع أمور الدولة ، فلا يخرج شىء عما يرسُمه[1] ، ولا يعمل الوزير إلا بما يحده له ويمثله[2] . فكره الفلاحى ذلك وأنف منه ، فدبر عليه ، وحمل جماعة من الأتراك على قتله ، ففتكوا به عند دخوله من باب القنطرة متوجهاً إلى القصر ، وقطع لحمه وطيف به . وظن الفلاحى أن الدنيا قد صفت له ، وأنه قد أمن ما يكرهه . فما تهنأ بعمره ، ولا استمتع بنهيه وأمره ، وقبض عليه فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، واعتقلَ وقتل » . وقد ذكر ابن ميسر سبب مقتل الفلاحى فقال إن أم المستنصر حقدت عليه لعمله على قتل التسترى ، فقبض عليه ثم قتل فى المحرم سنة ٤٤٠ هـ .

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة ، كأبى محمد الحسن بن عمار الكتامى ، الذى تلقب بلقب أمين الدولة . وتلقب الحسن ابن صالح بن على الروذبارى بعميد الدولة ، وتلقب زرعة أخو عيسى بن نسطورس بالشافى ، وتلقب الحسين بن طاهر بأمين الأمناء ، وتلقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح بوزير الوزراء ذى الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة ، وتلقب أبو القاسم الجرجرائى بالوزير الأجل صفى أمير المؤمنين وخالصته ، وتلقب أبو منصور صدقة الفلاحى بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين .

كانت سلطة الوزير فى الصدر الأول من أيام الفاطميين محدودة ، إذ كان يتوقف بقاؤه فى مركزه على تمتعه بتعضيد الخليفة ورضاه ؛ وهذا ما يطلق عليه وزارة التنفيذ كما تقدم . لذلك نرى المقريزى[3] يذكر لنا أن ابن كلس صُرف عن الوزارة فى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ — ٩٨٤ م) ، واعتقل فى القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق بعدها ، وألقيت إليه مقاليد الأمور من جديد ، ووهبه الخليفة بهذه المناسبة خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من الموالى المغاربة .

(١) يرسمه أو يأمر به .
(٢) أى يرسمه له ويقدره .
(٣) خطط ج ٢ ص ٦

الوزارة فى العصر الفاطمى الثانى :

غير أنه فى العهد الأخير من أيام الفاطميين (٤٦٦ — ٥٦٧ / ١٠٧٣ — ١١٧١) ، عند ما صار الوزير رب السيف والقلم ، ضعف نفوذ الخلفاء كثيراً ، بحيث أصبحوا طوال هذا العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم وقد أصبحت الوزارة فى هذا العصر وزارة تفويض .

وعند ما عدّد ابن ميسر[1] أسماء من تقلدوا الوزارة للمستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، ذكر أسماء عدة من الوزراء غير المسلمين ؛ ومن هؤلاء الوزراء أبو على الحسن بن أبى سعيد ابن سهل التُّسْتَرى ، وأصله يهودى ثم أسلم . ولكن ابن ميسر لم يذكر لنا إذا كان التسترى قد اعتنق الإسلام قبل تقلده الوزارة أم بعده . كذلك تكلم ابن ميسر عن أبى منصور بن أبى اليُمْن[2] بن مَهْرَوَاه بن زُنْبور — وكان نصرانياً — فاتخذ الإسلام ديناً ، وذكر أن النصارى قد أنكروا إسلامه[3] .

ومن وزراء هذا العصر : أبو محمد الحسن اليازورى بن علىّ بن عبد الرحمن ، من أهل يازور : وهى قرية من كورة الرملة . وقد عهد إليه بالوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ (١٠٥٠م) ، وسمح له بالبقاء فى منصبه الأول ، وهو مدير خاصة أم الخليفة . وكان يلقب بهذا اللقب المركب : وهو الناصر للدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، داعى الدعاة . وبقى فى منصبه حتى قبض عليه المستنصر فى أول المحرم سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر . وأبعد اليازورى مع زوجاته وأولاده وخدمه إلى تنيس ، حيث ظل محبوساً بها ، حتى أنفذ إليه الخليفة سيافاً قطع رأسه (٢٢ صفر سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨) . ثم أرسلت جثته إلى القاهرة ، فألقيت فى مزبلة ثلاثة أيام ، أخرج بعدها وغسل وحنط وكفن ودفن[4]

---

(١) تاريخ مصر ص ٣٢

(٢) ذكر ابن ميسر (ص ٣٣) أن هذا الاسم " أبواليم " .

(٣) ابن منجب ص ٥٤ . ابن ميسر ص ٣٣

(٤) ابن منجب : الإشارة ص ٤٠ — ٤٥ . ابن ميسر ص ٥ — ٨ و ٣٤ .

وإن ما ذكره ابن منجب وابن ميسر يختلف عما ذكره لينبول[1] من ناحيتين : (١) أن اليازورى مات مسموما (ب) وأن موطنه الأصلى بلد من كورة يافا .

وكان هذا النزاع الذى قام بين الخلفاء والوزراء من المميزات التى امتاز بها العهد الفاطمى الأخير ؛ وربما كان ذلك نتيجة تولى الأطفال عرش هذه الدولة . وقد يكون الأستاذ مرجوليوث مصيبا فيما يراه من أن تسنم أطفال للعرش كان مبعثه حب إطلاق الحرية للوزراء ، مما كان سببا لمصائب كثيرة نزلت بالوزير والخليفة جميعا[2] .

وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير فى العصر الفاطمى الأخير أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى . فقد ذكر ابن ميسر أن أبا على حفيد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر منع ذكر اسم الخليفة فى الخطبة . ولما كان هذا الوزير يدين بمذهب الإمامية الاثنا عشرية ، أمر بالدعاء للإمام المنتظر فى الخطبة ؛ وبذلك قضى على شىء من تقاليد المذهب الإسماعيلى أو مذهب السبعية الذى كان منتشراً إلى عهده . كذلك أمر الخطباء بذكر اسمه فى الخطبة ، وبتلقيبه بألقاب اختارها لنفسه ، مثل « ناصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، مُولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم »[3] .

كذلك ذكر أسامة بن منقذ[4] أن رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ لقب سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ — ١١٣٦ م) بلقب السيد الملك الأفضل . وقد ظل الوزراء يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين[5] .

(ج) الكتابة والحجابة :

لم تعرف الوزارة فى مصر قبل عهد الإخشيديين ، فإن أحمد بن طولون اتخذ

---

(١) The Story of Cairo, p. 147.

(٢) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus p. 39.

(٣) تاريخ مصر ص ٧٥ .

ويلقب أيضاً بكتيفات أو كتيفات . ويرجح الأستاذ فييت (G. Wiet) أن اسمه كتيفات ، لأنه كان فى بغداد زمن البساسيرى طبيب اسمه كتيفات (القفطى ص ٢٦٧) .

(٤) كتاب الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩) ص ٢٢ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٦٦٠ ، المقريزى خطط ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٨٣ — ٤٨٥ . Ravaisse, Essai sur la Topobraphie du Caire d'après Maqrizi (Mémoires publiées par les Membres de la Mission Archéologique française du Caire, tome III, Paris, 1887, pp. 470—471).

أحمد بن محمد الواسطى كاتبا ، واتخذ بعده جعفر بن عبد الغفار المصرى . على أنه يظهر لنا أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب ، فأشار أحمد ابن خاقان على ابن طولون بصرفه ، فقال له : أنا أحتمله لأنه مصرى . فقال له ابن خاقان : « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى ، قال : لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له فى ذلك البلد أمور صالحة منها : أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته فى ذلك البلد فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته فى اعتقاد المستغلات به فيكون صفاقا[1] لجناياته . وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون فى خدمتى . والكاتب العراقى ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات فى بلده النائى عنه وعنى ، ويستبطن الرقاع ، ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذى يعمل فيه ، وهو فى كل وقت متطلع إلى بلده . فبهذا السبب زهدت فى كتاب سر من رأى ، مع علمى بتقدمهم فى الكتابة والرجاحة ، فصوبت رأيه ورأيت عذره »[2] .

وكانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فإذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة فى أى وقت .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمى فى المغرب جوهرا الصقلى كاتباً له سنة ٣٤١ هـ .

وقد عُنى الفاطميون عناية عظيمة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب لنشر مذهبهم وإذاعة ما بلغته خلافتهم من أبهة وسلطان . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ومن طبقة الموظفين المتصلين بديوان سر الخليفة (السكرتارية) أو بدار العلم ؛ وكان الخلفاء يجزلون لهم الأموال الكثيرة ويجودون عليهم بالخلع . وعلى رأس هؤلاء الكتاب صاحب الإنشاء ، وكان يطلق عليه أيضاً اسم صاحب الدست الشريف ؛ ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ، فيعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها . ويستشيره الخليفة

---

(١) ضمانا

(٢) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ١٥ .

فى أكثر أموره . وقد ذكر ابن ميسر (ص ١١٣) أن كاتب الإنشاء كان يطلق عليه كاتب السر ، وأن أبا الفرج محمد بن جعفر المغربى كان أول من تلقب بهذا القب فى عهد المستنصر الفاطمى سنة ٤٥٤ ﻫ (١١٥٩ م) .

ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة صاحبُ القلم الدقيق الذى كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة فى خلوته ، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويعلمه تجويد الخط . وكان راتبه مائة دينار فى كل شهر . وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ؛ فإذا انتهى المجلس ألقى فى هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند (ممزوج بالمسك) ليتبخر به عند دخوله على الخليفة فى المرة التالية .

وفى الشطر الأخير من الخلافة الفاطمية ، حين أصبح الوزير صاحب السيف والقلم ، كان يجلس الوزير للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق يقوم مقام كاتب السر ، وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل والنظر فى الشكاوى قبل انعقاد الجلسة[1] .

ويلى صاحبَ القلم الدقيق فى الرتبة صاحبُ القلم الجليل ، ومهنته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها فى الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها[2] . ولو أن عبارة القلقشندى تدل على أن هذا الموظف كان أعلى فى المرتبة من صاحب القلم الدقيق ، إلا أن مرتبته كانت فى الواقع أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، إذ كانت تسمى الخدمة الصغرى .

وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب ، ويمتازون بالمقدرة فى فن الإنشاء ، كما كانوا من كبار رجال الدولة الذين تُجرى عليهم الصلات والهبات .

وفى عهد الفاطميين نبغ أبو عبد الله القضاعى (+٤٥٤/ ١٠٦٢) فى الكتابة حتى أصبح من كتاب البلاط . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجرائى فى أن يكتب العلامة

---

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٤٩٠–٤٩١ . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ص ١٠٤ – ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ – ٤٩٢ .

أو الإشارة التى تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العبارة : الحمد لله شكراً لنعمته .

ولم يكن للحاجب فى الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ فى العصر العباسى الثانى . ويقول ابن خلدون إنه لم يكن فى دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم . وربما يوجد فى دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها ، إلا أنه لقليل . ولكن الحاجب كان — بلا شك — من رجال البلاط الفاطمى ، بدليل ما يقوله القلقشندى[1] عن انعقاد مجلس الملك فى عهد الفاطميين : إن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذى تمتع به الحاجب فى البلاد الإسلامية الأخرى : ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين ، بل اتخذ كل من قاضى القضاة والوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم .

٢ — النظام الإدارى

(ا) الإمارة على البلدان :

اتسعت رقعة الدولة الفاطمية حتى شملت بلاد المغرب ومصر والشام وفلسطين وبلاد الحجاز واليمن . وكان بعض هذه البلاد يدين بالتبعية المطلقة للخلفاء الفاطميين ، فيولون عليها العمال ويجبون الخراج ، ويعاملون أهلها معاملة المصريين أنفسهم كما حدث فى بلاد الشام وفلسطين بعد أن فتحت على يد جعفر بن فلاح . ولم تكن الحالة فى سورية وفلسطين مستقرة . بمعنى أن أمرها لم يستقم للفاطميين طوال عهدهم ، فقد كان أهلها لا يفترون عن إذكاء نار الفتنة والخروج على الخلفاء الفاطميين ، حتى كانوا يدعون للعباسيين تارة

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

ذكر القلقشندى أنه كان يجلس بباب قاضى القضاة خمسة حجاب : اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم . وكان من عادة الوزير أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب — ج ٣ ص ٤٩٠ .

والفاطميين تارة أخرى . كما غزاها القرامطة الذين نازعوا سيادة الفاطميين على هذه البلاد ، ودخل بعضها فى طاعة الحمدانيين ، وأصبح بعضها الآخر مجالا للصراع بين الفاطميين والسلاجقة حين استولى أتسز على دمشق فى ١٧ ربيع الثانى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ، ثم بينهم وبين الصليبيين .

وهاك أسماء ولاة دمشق من قبل الفاطميين نقلا عن معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى لزامباور[1] :

أولا : عمال دمشق .

اسم العامل	سنة الولاية
أبو على جعفر بن فلاح الكتامى	٣٥٨ هـ
ظالم بن موهوب العقيلى	١٠ رمضان ٣٦٣ هـ
ناصر الدولة الحمدانى (عامل فاطمى)	٤٥٠ – ٤٥٢
حوصرت حلب ووليها ثلاثة ولاة فى ثلاثة أيام	شعبان ٤٥٢
رشيد الدولة محمود	٢ شعبان ٤٥٢
ثمال (للمرة الثالثة ، توفى فى نهاية ٤٥٣ هـ)	المحرم ٤٥٣
أبو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس	٢٥ ذو القعدة ٤٥٤
رشيد الدولة محمود (للمرة الثانية توفى ٤٦٦ هـ)	٤٥٧
إقامة الخطبة للعباسيين	٤٦٢
حاصرها ألب أرسلان واستولى عليها	٤٦٣
جلال الدولة نصر (قتل ٤٦٨)	٤٦٦
أبو الفضل سابق (أخوه)	٤٦٨
وثاب بن محمود (مرداسى ثائر)	٤٦٨
حاصرها تتش وشرف الدولة مسلم	٤٧٢
سلم سابق المدينة لمسلم	
شرف الدولة مسلم (العقيلى)	٤٧٥ هـ
استولى تتش عليها	٤٧٨[2]

ثانياً : عمال حلب[3] .

الفاطميون :

عزيز الدولة فاتك الواحدى	٤٠٧ هـ

(١) - ١ ص ٤٤ – ٤٦ . وقد أورد القلقشندى ج ٤ ص ١٦٤ أسماء بعض هؤلاء العمال ، ولكن ما ذكره زامباور أكثر ضبطاً لاعتماده على مراجع مادية ككتب السكة والنقوش إلى جانب المصادر التاريخية .

(٢) زامباور ج ١ ص ٥١ – ٥٢ .

(٣) زامباور : ج ١ ص ٥١ . راجع القلقشندى ج ٤ ص ١٦٤ .

اسم العامل	سنة الولاية
صفى الدولة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الكتامى (بالمدينة)	١٠ ربيع الأول ٤١٣
يمن الدولة سعادة	٤١٤
سند الدولة أبو محمد الحسن بن محمد بن طعبان الكتامى (بالمدينة)	٤١٣ هـ
منصوف الخصى (بالقلعة)	٤١٣
مرتضى الدولة (للمرة الثانية)	٤١٥

بنو مرداس :

صالح بن مرداس	١٤ ذو القعدة ٤١٥
شبل الدولة أبو كامل نصر (صاحب المدينة)	٤٢٠
معز الدولة أبو علوان ثمال (صاحب القلعة)	٤٢٠
شبل الدولة (احتل القلعة) .	٤٢١
أنوشتكين (استولى على المدينة باسم الفاطميين)	٤٢٩
ولى ثمال للمرة الثانية ولكنه أقصى فى رمضان	٤٢٩
حاصرها ناصر الدولة الحمدانى	جمادى الآخرة ٤٤٠
احتلها الفاطميون	٤٤٤
اعتزل ثمال	ذو القعدة ٤٤٩
مكين الدولة أبو على الحسن بن على بن ملهم (عامل الفاطميين)	٤٤٩ — ٤٥٠

وثمة ولايات أخرى كانت تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال الذاتى مع التبعية الاسمية للخليفة الفاطمى التى تتمثل فى ذكر اسمه على الخطبة ونقشه على السكة . وكان أمراء هذه الولايات يتوارثون الملك ويتخذون ولاة العهود . فإذا تولى أمير جديد بعثوا إلى الخليفة الفاطمى فى القاهرة يطلبون منه سجل التقليد والاعتراف بشرعية حكمه ويلتمسون الخلع والألقاب . ومن هذه الولايات ولاية إفريقية التى ظلت وراثية فى أعقاب بلكين بن زيرى ابن مناد الصنهاجى من سنة ٣٦٢ إلى سنة ٥٤٣ هـ حين استولى النرمانديون على مدينة المهدية ، وظل أمراء بنى زيرى يدينون بالتبعية للخليفة الفاطمى حتى سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١م) حيث قطعت الخطبة للمستنصر الفاطمى . وإليك ثبتاً بأمراء بنى زيرى الذين تعاقبوا على ولاية إفريقية[1] :

١ — بنو زيرى بافريقية .

اسم الأمير	سنة الولاية
١ — أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى	المحرم ٣٦٢ هـ .

(١) زامباور ج ١ ص ١٠٩

اسم الأمير	سنة الولاية
٢ – المنصور بن يوسف (لقب عدة العزيز بالله)	٢١ ذو الحجة ٣٧٣ هـ
٣ – أبو منال باديس بن المنصور ، ناصر الدولة .	٣ ربيع الأول ٣٨٦
٤ – المعز بن باديس ، شرف الدولة (استقل بالأمر سنة ٤١٧ هـ)	٣٠ ذو القعدة ٤٠٦
٥ – أبو طاهر تميم بن المعز (استولى الفرنجة على المهدية ٤٨٠ هـ)	مستهل شوال ٤٥٣
٦ – أبو طاهر يحيى بن تميم (قتل فى ١٠ ذى الحجة ٥٠٩ هـ)	١٥ رجب ٥٠١
٧ – على بن يحيى	١٠ ذو الحجة ٥٠٩
٨ – أبو يحيى الحسن بن على (حكم المهدية من قبل عبد المؤمن ٥٥٥ هـ)	ربيع الثانى ٥١٥(١)

٢ — الكلبيون بصقلية .

الحسن بن أحمد بن أبى خنزير		٣٣٦ هـ
على بن عمر البلوى	٢٩ ذو القعدة ٢٩٩ هـ	
أحمد بن زيادة الله بن قرهب (أعلن طاعة العباسيين)		٣٠٠
أبو سعيد موسى بن أحمد ، يدعى الضيف	المحرم	٣٠٤
إسحق بن أبى منهال		
سالم بن راشد	حول سنة	٣١٣
أبو العباس خليل بن إسحق		٣٢٥
عطاف الأزدى		٣٢٩
الولاة الكلبيون (مقرهم مازر)		
الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى		٣٣٦
أبو الحسين أحمد بن الحسن		٣٤١
عاد الحسن بن على ليضع الأمور فى نصابها		٣٥٣ هـ
يعيش (مولى الحسن بن على)		٣٥٩
أبو القاسم على بن الحسن العلوى		٣٥٩
الحرب فى قلورية (Calabre,Pouille)		٣٦٥
جابر بن أبى القاسم على	ذو القعدة	٣٧١
جعفر بن محمد بن أبى القاسم على		٣٧٣
عبد الله (أخوه)		٣٧٥
أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن (اعتزل ٣٨٨)		٣٧٩
جعفر بن يوسف (تاج الدولة) غادر صقلية ٤١٠)		٣٨٨
أحمد الأكحل بن يوسف (تأييد الدولة) (الثائر)		٣٨٨
على بن يوسف (الثائر) (أسر وقتل فى ٧ شعبان ٤٠٥)		٤٠٥ هـ
الثورة فى بلرم ، يوسف وولده جعفر يغادران الجزيرة		٤١٠ هـ
أحمد الأكحل بن يوسف (من جديد)		٤١٠
غزو النرمنديين .		٤١٦ هـ
الحسن الصمصام بن يوسف		٤١٦
محمد بن الثمنة ، القادر بالله ، المنتصب (استدعى الزيريين ثم النرمنديين)(٢)		٤٢٧ هـ

---

(١) زامباور ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) زامباور ج ١ ص ١٠٨

اسم الأمير	سنة الولاية
أول غزو نرمندى	٤٤٤ هـ
تدخل تميم بن المعز	٤٦١ هـ

٣ — النرمنديون .

روبرت الأول (الدوق)	٤٦٤ هـ
الاستيلاء على قصر يانه ، الفتح النهائى	٤٨٤ هـ
روجو الثانى (الكونت)	٤٩٤
روجر الثانى (الملك) (توفى ١١ ذى الحجة ٥٤٨ / فبراير ١١٥٣)	٥٢٥
جيوم (Guillaume) الأول(١)	١١ ذو الحجة ٥٤٨
جيوم الثانى	٥٦١
تنكريد (Tancrid)	٥٨٥
هنرى السادس السوابى (de Souabe) (الإمبراطور)	٥٩٠
فريدريك الثانى السوابى (الإمبراطور) حتى سنة ٦١٧	٥٩٤(٢)

٣ — الصليحيون باليمن .

اسم الوالى	سنة الولاية
١ — أبو كامل على بن محمد الداعى (الاستيلاء على مكة ٤٥٥ هـ)	٤٢٩ هـ
٢ — المكرم أحمد بن على	٤٧٣
٣ — المنصور أبو حمير سبأ بن أحمد بن مظفر بن على (توفى ٤٩٢)	٤٨٤
الهمدانيون	٤٩٢

فلان

موسى — على الصليحى

جعفر — الفارع — المظفر — محمد القاضى

أحمد — الرداح — أحمد (توفى حول سنة ٤٥٤ هـ) — على الداعى — عبد الله

سيدة (ولدت سنة ٤٤٤ هـ) — (تزوج أسماء بنت شهاب)

٣ — المنصور سبأ — ٢ — المكرم (تزوج سيدة الحرة) — أسعد — على

شمس المعالى على — أروى

أم حمدان — فاطمة (ماتت سنة ٥٣٤ هـ) — على — محمد

---

(١) وقد تداولت نقوده المؤرخة ٥٤٩ هـ بعد قدومه بأيام قليلة .

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

الهمدانيون بصنعاء

اسم الوالى		سنة الولاية
حاتم بن الغشيم الهمدانى		٤٩٢ هـ
عبد الله بن حاتم		٥٠٢
معن بن حاتم		٥٠٤
هشام بن قبيت	حول سنة	٥١٠
الحماس بن قبيت		
حاتم بن الحماس		
حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل (هزمه المتوكل الرسى)		٥٤٥ هـ
على الوحيد بن حاتم (حتى سنة ٥٦٩ هـ)		٥٥٦ هـ(1)

٤ — أشراف مكة .

بنو فليته	
أبو محمد جعفر بن محمد بن الحسين	٣٥٦
عيسى بن أبى محمد جعفر	٣٧٠
أبو الفتوح الحسن بن أبى محمد جعفر	٣٨٤
أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن عبد الله بن داود (سليمانى)	٤٠١
أبو الفتوح الحسن (للمرة الثانية)	٤٠٣
محمد شكر بن أبى الفتوح الحسن	٤٣٠
حمزة بن وحاس بن أبى الطيب داود	٤٥٣
أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد ، تاج المعالى	٤٦١
أبو فليتة القاسم بن محمد بن جعفر	٤٨٧
فليتة بن القاسم بن محمد بن جعفر	٥١٧
هاشم بن فليتة بن القاسم	٥٢٧
القاسم بن هاشم بن فليتة	٥٤٩ هـ
عيسى بن فليتة بن القاسم	٥٥٦
داود بن عيسى بن فليتة	٥٧٠
مكثر بن عيسى بن فليتة	٥٧١
داود بن عيسى (للمرة الثانية)	٥٧٢
مكثر بن عيسى (للمرة الثانية)	٥٨٤
المنصور بن داود بن عيسى	٥٩٣(2)

٥ — الحسينيون أمراء المدينة(3) .

اسم الأمير	سنة الولاية
مسلم بن طاهر بن الحسن (توفى ٣٦٦ هـ)	٣٥٨ هـ

(1) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج ١ ص ١٨٣

(2) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ . زامباور ج ١ ص ٣٠ — ٣١ .

(3) القلقشندى ج ٤ ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .

اسم الأمير	سنة الولاية
طاهر بن مسلم (توفى ٣٨١ هـ)	٣٦٦ هـ
الحسين بن طاهر بن مسلم	٣٩٧
أبو على داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر	؟
تولى أمراء مكة أمر المدينة من قبل الحاكم بأمر الله	سنة ٣٩٠
هانئ بن داود بن القاسم	؟
مهنا بن داود بن القاسم	؟
هاشم بن الحسن بن داود (من قبل المستنصر)	٤٢٨ هـ
منصور بن عمارة الحسينى	٤٩٥ هـ

وقد ذكر ابن الأثير[1] الصفات التى يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدبير شئونها والعمل على إسعاد أهلها ، فقال إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا « رجل قد تكاملت فيه خصال أربع : حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصدرها ، وعلم يحجزه عن التهور والتغرير فى الأشياء إلا مع إمكان فرصتها ، وشجاعة لا تنقضها الملمات مع تواتر جوائحها ، وجود يهوّن تبذير الأموال عند سؤالها ، وسرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان ، وثقل الوطأة على أهل الزّيغ والعدوان ، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان . وأما الاثنتان : فإسقاط الحجاب عن الرعية ، والحكم بين القوى والضعيف بالسوية ، وأما الواحدة فالتيقظ للأمور . وقد اخترت لهم رجلا من موالى أحدهم ، شديد الشكيمة ماضى العزيمة ، لا تبطره السراء ، ولا تدهشه الضراء ، ولا يهاب ما وراءه ، ولا يهوله ما يلقاه . . إن حرّك حمل ، وإن نهش قتل ، عدته عقيدة ونقمته شديدة . يلقى الجيش فى النفر القليل العديد بقلب أشد من الحديد ، طالب للثأر لا تفلّه العساكر ، باسل الباس ، ومقتضب الأنفاس ، لا يعوزه ما طلب ، ولا يفوته من هرب ، وارى الزناد ، مضطلع العماد ، لا تشرهه الرغائب ولا تعجزه النوائب . وإن ولى كفى ، وإن قال وفى ، وإن نازل فبطل ، وإن قال فعل . ظله لوليه ظليل ، وبأسه فى الهياج عليه دليل . يغرق من ساماه ، ويعجز من ناواه ، ويتعب من جاراه ، وينعش من والاه » .

ولم يغير العرب نظم الحكم فى مصر تغييراً يذكر بعد الفتح ، حتى جاءت الدولة الفاطمية ، فأدخلت عليه كثيراً من التغيير . فقد عمل جوهر الصقلى على إحلال المغاربة

(١) ج ٧ ص ٦٩ .

الشيعيين محل المصريين السنيين فى المناصب الهامة ، ليفسح المجال أمام هؤلاء المغاربة . ويقول المقريزى[1] « إن جوهرا لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربياً شريكا لمن فيه » . ومن أهم الأعمال الإدارية التى أسندت إلى الشيعيين : الوزارة ، وجباية الخراج ، والقضاء ، والحسبة . ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين فى الأندلس اختلافا يذكر عنه فى عهد العباسيين .

وكانت مصر وهى قاعدة الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات كبرى هى :

(أولا) ولاية قوص ، وكانت أعظم ولايات مصر ، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد ، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلى .

(ثانيا) ولاية الشرقية ، وتلى ولاية قوص فى الرتبة ، وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقليوب وأشموم .

(ثالثاً) ولاية الغربية ، وتلى ولاية الشرقية فى الرتبة ، ويلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار .

(رابعاً) ولاية الإسكندرية ، وتلى ولاية الغربية فى الرتبة ، ويلى عاملها إقليم البحيرة كله .

وكان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة الكسوة بالبدنة ، وهو الثوب الذى يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج[2] .

وكانت هذه الولايات الأربع تضم كورا أخرى صغرى فصلها ابن مماتى فى الباب الذى عقده لتقسيم الإدارى فى أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين ، وهى : الشرقية ، والمرتاحية ، والدقهلية ، وجزيرة قويسنا ، والغربية ، والسمنودية ، والدنجاوية ، والمنوفية ، وجزيرة بنى نصر ، والنستراوية ، والبحيرة ، وحوف رمسيس ، والكفور الشاسعة ، وفوة ، والزاحمتين ، والجيزية ، والإطفيحية ، والبوصيرية ، والفيومية ، والبهنساوية[3] ، والأشمونين ، والأسيوطية ، والإخميمية ، والقوصية[4] .

(١) اتعاظ الحنفا ص ٧٨ .
(٢) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .
(٣) وهى مديرية المنيا الآن .
(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٨٥ — ١٠٨ .

وقد أورد أبو صالح الأرمني [١] بياناً يشتمل على النواحي والكفور بكل كورة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وهو كما يلي :

الوجه البحري

الكورة أو المديرية	عدد نواحيها	عدد كفورها	المجموع
الشرقية	٢٩٤	١٥٨	٤٥٢
المرتاحية	٤٨	٤١	٨٩
الدقهلية	٣٩	٣١	٧٠
جزيرة قوسنيا	٦٨	٦	٧٤
الغربية	١٤٩	١٦٥	٣١٤
السمنودية	٩٧	٣٢	١٢٩
المنوفيتين	٦٩	٣٢	١٠١
فوة والمزاحمتين	١٠	٣	١٣
النستراوية	٦	—	٦
رشيد والجديدية وإدكو	٣		٣
جزيرة بني نصر	٤١	٢٣	٦٤
البحيرة	٨٧	٨٩	١٧٦
حوف رمسيس		١٠١	١٠١
المجموع	٩١٧	٦٨١	١٥٩٨

الوجه القبلي

الكورة أو المديرية	عدد نواحيها	عدد كفورها	المجموع
الجيزية	٧٠	٢٧	٩٧
الإطفيحية	١٣	٤	١٧
البوصيرية	١٣	١	١٤
الفيومية	٥٥	١١	٦٦
الأشمونين	٨٤	٢١	١٠٥
البهنساوية	٥٤	٥٧	١١١
الأسيوطية	٢٢	٣٢	٥٤
المجموع	٣١١	١٥٣	٤٦٤

جملة النواحي والقرى بالوجه البحري والقبلي

الجهة	عدد النواحي	عدد القرى	المجموع
الوجه البحري	٩١٧	٦٨١	١٥٩٨
الوجه القبلي	٣١١	١٥٣	٠٤٦٤
المجموع	١٢٢٨	٨٣٤	٢٠٦٢ [٢]

(١) كتاب كنائس وأديرة مصر ص ١٠ وما يليها .

(٢) انظر أيضاً : عمر طوسون : كتاب مالية مصر ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

دور الضرب :

وتبين لنا كتب السكة نواحى أخرى من التقسيم الإدارى ، ونعنى بها دور الضرب ، وهى البلاد التى كانت الحكومة تتخذها مراكز لسك النقود وضرب العملة . وليس من شك فى أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التى يقيم بها أمراء الولايات ، حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية . وهناك ناحية أخرى تبينها كتب السكة ، وهى السنة التى ضربت فيها النقود لأول مرة : فهى تبين التاريخ الذى أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة للإقليم ، كما تبين السنة التى انقطع فيها ضرب النقود بمدينة من المدن ، وهى تدل أيضاً على التاريخ الذى انتهت فيه أهمية المدينة كحاضرة لهذا الإقليم . و إليك ثبتاً بأسماء دور الضرب فى مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية ، مثل صقلية و إفريقية و بلاد الشام .

دار الضرب Place of Uint	الإقليم	السنة التى بدأت فيها السكة	نهاية السكة	ملاحظات
الإسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥	
أيلة	فلسطين	٥١٤	—	
تيماء	فلسطين	٥١٤	—	
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤	
دمشق	الشام	٣٦٨	٤٤٦	
زويلة	إفريقية	٤١٤	—	
صقلية	صقلية	٣٤٣	٤٥٦	
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤	
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠	
طرابلس	الشام	٣٦٧	٤٧٥	
عسقلان	الشام	٥٠٧	—	
عكا	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥	
فلسطين	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤	
القيروان	إفريقية	٣٠٣	٣٣٥	
مصر (الفسطاط)	مصر	٣٦١	٥٦٤	
المنصورية	إفريقية	٣٤١	٤٥٤	
المهدية	إفريقية	٣١٥	٤٢٠ (١)	

(١) Henri Lavoix, Cat. des Mon. Musulmane, pp. 517-31.

(ب) الدواوين :

وفى عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين ، على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم وما إلى ذلك ، وديوان الكسوة والطراز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استمارات الرواتب ويعرضها فى كل سنة على الخليفة . وقد أورد القلقشندى[1] عبارة شائقة عن الطريقة التى كانت تقدم بها رواتب الموظفين للخليفة المستنصر لاعتمادها فقال : إن الخليفة لم يغير شيئاً فى القائمة التى اشتملت على الرواتب ، ووقع فوق إمضائه بخط يده : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم فى الإطلاق (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)[2] .

وكان بقصر الوزير ابن كلس عدة دواوين ، بعضها للعزيزية[3] ، والبعض الآخر للجيش والمالية والكتاب (السكرتيرية) والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ؛ وقد جعل لكل ديوان ما يلزمه من الكتاب .

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام[4] وديوان الحجاز ، وقد تولاهما فى عهد العزيز الفاطمى أبو طاهر النحوى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكانت مهمته إخبار الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى[5] . وكذلك ديوان الخاصة للخليفة ، وقد تولاه ابن نسطورس[6] .

ومع ذلك فإن ما أورده يحيى بن سعيد يناقض ما ذكره ابن ميسر[7] ، من أن ابن

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٢) سورة النحل ١٦ : ٩٦ .

(٣) يقصد بديوان العزيزية كما يظهر من اللفظ ، الديوان الذى ينظر فى الأمور التى تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرس وشئون معيشته .

(٤) ابن القلانسى ص ٥٩ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٤ .

(٧) تاريخ مصر ص ٥٤

نسطورس تقلد ديوان الخاصة الخليفة إلى أن قتل بعد شهور قلائل .

وإنا نميل إلى صحة عبارة ابن منجب ونراها أرجح من رواية يحيى بن سعيد ، ولو أن وفاته (٥٤٢ هـ) كانت بعد وفاة يحيى بن سعيد (٤٥٨ هـ) بما يقرب من ثمانين سنة . فإنه فضلا عن كونه مصرىّ المولد والدار ، فقد تقلد أيضاً ديوان الرسائل ؛ ولا يبعد أن يكون قد حصل على هذه الأخبار من وثائق رسمية . لذلك نرجح أن ابن نسطورس نقل إلى ديوان الخاصة الخليفة عند صرفه من الوزارة ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنه اتهم بالتلاعب فى أموال الدولة ، فأعطى بذلك خصمه زعيم الكتاميين سلاحا للتخلص منه بقتله .

وكان عدد الموظفين فى أيام الفاطميين كبيراً : منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين ، وصاحب بيت المال ، وهو أشبه بوزير المالية الآن ، وقاضى القضاة ، وينظر فى الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها . ويلى قاضى القضاة فى الرتبة داعى الدعاة ، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى المساجد ودار العلم ؛ والمحتسب ، وله النظر فى الأسواق ، والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة . ومن كبار الموظفين فى العهد الفاطمى وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، ويستقبل سفراء الدول وينزلهم فى الأماكن اللائقة بهم ، ويرتب القراء الذين يقرءون القرآن بحضرة الخليفة ، وهم الذين يعرفون بقراء الحضرة[1] .

وكان القبط عادة أعرف من مواطنيهم المسلمين بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير فى ديوان الخليفة ، وكانوا هم وبعض النصارى الملكيين يستخدمون فى كافة فروع الإدارة ، وتدرجوا فى المناصب حتى أسندت إليهم الوزارة . ولقد حازت هذه السياسة القبول من الوجهة العملية . إلا أنه قد دبت الكراهة لهم فى النفوس عندما أصبح منهم كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة .

ويقول أوليرى (O'Leary)[2] : « إن النظام الإدارى للشئون المالية فى الشرق قد أمد القبط واليهود بفرصة أظهروا فيها ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة ، تلك

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٢) A Short History of the Fatimid Khalifate, p. 114.

العواطف التى لم يستطيعوا كبح جماحها ، حتى لقد قام الدليل على صحة ما رُموا به من التهم الكثيرة . على أن استخدام النصارى واليهود فى المناصب المدنية هو عُرف شائع قليلا أو كثيراً فى البلاد الإسلامية ، فقد بالغ الفاطميون أنفسهم فى استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل » .

ففى جمادى الثانية من سنة ٣٩٣ هـ أشار ابن العداس — وكان من وزراء العزيز الفاطمى — على أبى طاهر النحوى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكان يتولى ديوان الشام[1] ، أن يخبر الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى ومناصرة فهد لهم وتفويضه إليهم الأموال والدواوين[2] ، وأن يضيف إلى ذلك أن فهداً « آفة على المسلمين وعدة للنصارى » .

(ج) البريد :

كان البريد من الوسائل التى تذرع بها أحمد بن طولون فى مناوأة الخلافة العباسية ، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملا للبريد فى حاضرة الدولة العباسية ليكون عيناً له ، يوافيه بما يجرى فى العراق وبما يحيكه له أعداؤه من مؤامرات فى هذه البلاد . واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه فى مصر ممن كانوا يشون به عند الخليفة ، ويطهر البلاد منهم . وقد اطمأن بفضل هذه الجاسوسية التى أقامها فى بغداد على مركزه فى مصر . ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسى المعتمد ، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر ، وألب القواد عليه ، أخبر عامل البريد ، ابن طولون بهذا ، فاحتاط لنفسه وأحبط هذه المؤامرة[3] .

وكان لطرق البريد أثر كبير فى تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه .

---

(١) كان أبو طاهر يتقلد ديوان الحجاز على ما ذكره ابن القلانسى (ص ٥٩) .

(٢) ابن القلانسى ص ٥٩ .

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

ومما ذكره أبو المحاسن[١] نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعا اللؤلؤى ، ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد . وإننا لا نعرف كثيراً عن إدارة البريد فى عهد الإخشيديين ولا فى عهد الفاطميين اللهم إلا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل . فقد ذكر القلقشندى[٢] أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . « وحافظ عليه (الحمام) الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام » . وقد ذكر هذا المؤرخ فى مكان آخر[٣] . « أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس ، أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من بمصر وبمصر حمام من دمشق . فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ، ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها إلى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به إلى العزيز فى يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه . . . وذكر أيضاً أن الوزير اليازورى المغربى ، وزير المستنصر بالله الفاطمى ، وجه الحمام من تونس من إفريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مصر ، والعهدة عليه فى ذلك » .

(ى) الشرطة :

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى ، وانقسمت الشرطة بذلك قسمين :

١ — الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط .

٢ — والشرطة العليا ومقرها العسكر . وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمالى الفسطاط . ومن ثم سميت الشرطة العليا[٤] . ولما فتح

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣٩١ .

(٤) ابن مهسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

جوهر الصقلى مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة . وذكر ابن دقماق[١] أن صاحب الشرطة توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر إلى مصر ، فأسند عمله إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضى[٢] .

كما قسمت الشرطة قسمين : (أ) الشرطة العليا[٣] ، ومقرها القاهرة ، وقد أسندت إلى جبر (ب) والشرطة السفلى ومقرها الفسطاط ، وقد أسندت إلى عَروبة بن إبراهيم وشبلى المعرضى[٤] .

ونستطيع أن نفهم من قصر هذه الأوامر على مصر القديمة ، أن القاهرة كانت لا تزال صغيرة جداً بالنسبة إلى الفسطاط ؛ إذ كانت تشمل قصر الخليفة والجامع الأزهر وبعض المساكن الأخرى . أضف إلى ذلك أن سكان القاهرة كانوا من الشيعة قلوا أو كثروا ، فقد كانوا يؤلفون حرس الخليفة ورجال الحاشية .

٣ — النظام المالى

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر الذى لجأ إلى القسوة فى جباية الخراج ، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحاً ، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت « مال المراعى » ، كما قرر على ما يصاد فى البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها « مال المصايد » . وكان مال الضرائب ينقسم فى ذلك الوقت قسمين : خراجى وهلالى .

١ — فالخراجى : ما يؤخذ على الأرض التى تزرع حبوبا ونخلا وعنباً وفاكهة ، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج .

٢ — والهلالى : ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك . وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون .

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا ص ٩٥ .

(٣) بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، كانت دار الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على دار الشرطة الأولى الشرطة السفلى . وفى أيام الفاطميين انقسمت الشرطة قسمين .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا (ص ٩٥)

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة ، ويتصرف فيما بقى تصرفا لا يتفق ومصلحة البلاد ، مما أدى إلى تأخرها ، ونقص خراجها إلى ٨٠٠,٠٠٠ دينار مع أنه بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى عهد عمرو بن العاص، و١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار فى عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وقد عمل أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ ﻫ) على التخلص من ابن المدبر ، فصرف عن مصر ، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن (٢٥٧ ﻫ) . ولما ولى ابن طولون شئون مصر كلها ، زاد الخراج فى عهده حتى بلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة . ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العسف فى جمعه . على أن الخراج لم يلبث أن نقص فى عهد ابنه خمارويه لما عرف به من التبذير والإسراف[١] .

وقد تولى جباية الخراج فى مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة واحدة هى أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطتهم فى هذه البلاد . ومن مشهورى هذه الأسرة أبو بكر محمد ابن على المادرائى الذى قدم مصر فى سنة ٢٧٢ ﻫ ، وبقى فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ ﻫ ، فعاد معه إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسى المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى وأبى القاسم بن عبيد الله المهدى .

اشتهر أبو بكر المادرائى بالورع والتقوى ، حتى إنه كان يكثر من تلاوة القرآن والصلاة وأداء فريضة الحج . قيل إنه حج سبعا وعشرين مرة كان يبذل فى كل منها مائة وخمسين ألف دينار . وقيل أيضاً إن خراج ضياعه بلغ أربعمائة ألف دينار فى السنة . ولكن هذه الثروة الضخمة أثارت حسد منافسيه وأدت إلى إلحاق الأذى به ، حتى أحرقت دوره وصودرت أملاكه أكثر من مرة . ولما تقلد الإخشيد مصر المرة الثانية حال أبو بكر المادرائى دون دخوله إليها ، وعزم على قتاله ، ولكنه هزم واختفى . ثم أطلقه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، ولكنه لم يلبث أن صادر أملاك المادرائى فى مصر والشام[٢] .

---

(١) كان خمارويه يرسل إلى دار الخلافة ٢٠٠,٠٠٠ دينار مقابل ما تأخر من الخراج فى عهد أبيه ، و٣٠٠,٠٠٠ دينار فى كل عام ، نظير تعيينه هو وأولاده فى حكم مصر وما يليها من الأراضى الممتدة من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٤ — ١٦

بيد أن الإخشيد عفا عنه وأطلقه فى سنة ٣٥٨ هـ ، واستوزره وخلع عليه وفوض إليه الأمور ، ثم اعتقله بعد قليل ، فظل فى معتقله حتى مات الإخشيد ، ثم عاد نجمه إلى الظهور فى عهد وصاية كافور ، وتوفى فى شهر شعبان سنة ٣٤٥ هـ .

وقد ذكر المقريزى[١] أن خراج مصر بلغ فى عهد الإخشيد ٢٠٠٠ر٢٠٠٠ دينار ، سوى ضياعه التى كانت ملكا له ، وأن هذا الوالى كان أول من عين رواتب لمستحق الصدقة . وقد بلغت هـذه الرواتب فى عهد كافور الإخشيد ٥٠٠٠٠٠ دينار فى السنة ، « لأرباب النعم والمستورين وأجناس ، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال » .

بذل كافور الإخشيد جهده فى تنمية موارد الدولة ، حتى زاد خراج مصر فى عهده على ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ دينار فى السنة . ولم يكتب اسمه على السكة ، بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسى وحده .

ولما فتح الفاطميون مصر ، أقر جوهر على بن يحيى بن العرمرم على جباية الخراج ؛ ولـكنه لم يلبث أن اشترك معه رجاء بن صولاب . ثم حل محلهما فى الإشراف على جباية الخراج يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، وجعلت جباية الخراج قسمين : أسند أحدهما إلى على بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وأسند الثانى إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى .

وقد ذكر المقريزى[٢] أن خراج مصر بلغ فى السنة الأولى من ولاية جوهر ٠٠٠ر٤٠٠ر٣ دينار ، بعد أن انحط كثيراً فى أواخر عهد كافور الإخشيد .

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمى مصر فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، أمر يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب ؛ فجمعت أقسامه المختلفة فى مكان واحد ، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التى تفرض على كل منها . فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التى قضت بفحص الشكايات ،

---

(١) خطط ج ١ ص ٩٩

(٢) خطط ج ١ ص ٩٩

و بفضل ما سلكته الدولة من حزم فى تنفيذ هذا النظام الجديد . وقد ذكر ابن ميسر[١] أن الضرائب التى كانت تجمع من الفسطاط تتراوح بين ٥٠٠٠٠ ، ١٢٠٠٠٠ دينار فى اليوم ، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠٠٠٠ دينار فى اليوم . ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ فى بيان هذه الضرائب ، فذكر لفظ دنانير بدل دراهم .

وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية فى عهد وزارة الحسن بن على اليازورى ٢٠٠٠٠٠٠ دينار فى السنة . وتقدم « إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه وما عليه من النفقات ؛ فعمل ذلك وسلمه إلى متولى ديوان المجلس ، وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جامعاً وأحضره إياه ، فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار ، ونفقاته بإزاء ارتفاعه ، وباقى الدولة ألف ألف دينار ، يقف منها من معلول ومنكسر على موتى وهرّاب ومفقود مائتا ألف دينار ، ويبقى ثمانمائة ألف دينار ، يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلثمائة ألف دينار ، وعن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار ، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار ، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة[٢] يحملها كل سنة إلى بيت المال المصون ، فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه »[٣] .

وقد جعلت جباية الخراج قسمين : أحدهما فى يد على بن محمد بن طَباطَبا وعبد الله ابن عطاء الله ، وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذَبارى[٤] . وكان صاحبَ بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ؛ ولم يمض قليل من الزمن حتى أدخل على إدارة المناصب الحكومية تغيير كبير .

فقد ذكر ابن ميسر[٥] أن يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن قد عهد إليهما سن

(١) تاريخ مصر ص ٤٦

(٢) أى زائدة بعد النفقات .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٠

(٤) كان هؤلاء الموظفون تحت إشراف يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، ينوبون عنهما فى جباية الخراج .

(٥) تاريخ مصر ص ٤٥ .

نظام جديد للضرائب ، وقلدهما الخليفة فى منتصف المحرم سنة ٣٦٣ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة[١] .

وقد بقى علىّ بن يحيى بن العَرَمْرَم قائماً على جباية الخراج ؛ ولـكنه لم يمض شهر حتى شاركه فى ذلك رجل آخر ، هو رجاء بن صُولاب[٢] . ومع أن المقريزى لم يذكر لنا إن كان هذا العامل الجديد مصريا سنياً أو شيعياً ، أو مغربياً ، فإنه من المحقق لدينا أنه كان مغربياً ، كما يؤخذ من العبارة التى ننقلها عن المقريزى[٣] وهى : « أن جوهرا لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه » . وقد تقلد يعقوب وعسلوج جميع الأعمال والحسبة والسواحل والأعشار[٤] والجَوَالى[٥] والأحباس[٦] والمواريث والشرطتين وكل ما يضاف إلى ذلك فى مصر وسائر الأعمال[٧] .

وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم ، وأنشئ نظام جديد فى تقدير الأملاك وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره فى مركز واحد . وفحصت مصادر الضرائب على اختلافها ، وتشددت الحـكومة الجديدة فى تحصيل ما تأخر منها ، كما اهتمت

---

(١) سنتكلم على أعمال المحتسب المتعددة فى العبارة التى أفردناه للكلام على النظام القضائى فى هذا الباب .

(٢) أورد القضاعى (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٧ ب) هذا اللفظ " رجا " . وقد أتى لنا نفس مؤلف هذا المخطوط على أسماء خمسة من الموظفين تقلدوا هذا المنصب فى عهد جوهر فقال : " متولى الخراج منذ دخل جوهر على بن العرمرم ، أبو محمد الروذبارى ، رجاء بن صولاب ، عبد الله بن عطاء الله ، أبو الحسن الكرخى " . على أن هذه العبارة لا تدل على أن هؤلاء الموظفين الخمسة تقلدوا هذا المنصب فى وقت واحد ، فإن المؤلف أو الناسخ لم يضع علامة العطف الدالة على الترتيب بين كل اسم وآخر . هذا إلى أن لفظ " منذ " يقرب إلى الذهن أن هؤلاء الخمسة قد تقلدوا هـذه الوظيفة بالتعاقب ، أو شغلها واحد منهم أو اثنان أحياناً ، وذلك منذ استولى جوهر على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، إلى أن وصل المعز إلى هذه البلاد سنة ٣٦٢ هـ ، وأسند كافة أمور الدولة إلى يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

(٤) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من فرضها على التجار من غير المسلمين ، لأنهم كانوا يأخذون فى بلادهم عشر ما مع المسلمين من التجارة ؛ ففرض عليهم عمر العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ، وعلى المسلمين ربع العشر .

(٥) انظر ما ذكرناه عن الجوالى فى الباب الثالث عشر .

(٦) الأحباس هى كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ، وما يحصل من أموالها يصرف فيما أراده الواقف .

(٧) ابن ميسر ص ٤٥

بالنظر فى كل ما تقدم إليها من الالتماسات والشكاوى . وسلكت الحكومة فى تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ، وحمت من فرضت عليه الضرائب من دفع الأموال كرهاً وعسفاً .

٤ — النظام الحربى

(١) الجيش :

وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدتهم وقت الحروب ، وكان هذا الجيش يتكون من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ؛ فالأمراء كان يخلع على بعضهم بأطواق الذهب فيحملونها حول أعناقهم ، والبعض الآخر يركب فى المواكب بالقُضُب الفضية التى يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمل . أما طوائف الجند فكانت تتكون من عدة عناصر ، كالمغاربة والأتراك والأكراد والغُزّ والدَّيلم والمصامدة[١] والسودان . ولكل طائفة من هؤلاء قائد يراقبهم ويقوم بترتيبهم فى مواقفهم ، وكان بعض هذه الطوائف ينسب إلى الخلفاء كالحافظية[٢] والآمرية[٣] ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية[٤] والأفضلية[٥] . وكان قائد الجيش يسمى أسفهسلار العسكر كما تسمى وظيفته الأسفهسلارية[٦] .

ومن الوصف الذى أورده ناصر خسرو عن الاحتفال بجبر الخليج فى عهد المستنصر نستطيع أن نقف على ترتيب الجند . يقول هذا الرحالة الفارسى : إن الجند كانوا يسيرون فى صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ؛ فيسير فى المقدمة البربر ويليهم المغاربة ، ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ويتبعهم الحجازيون والسودان وكان يطلق عليهم عبيد الشراء .

---

(١) المصامدة : قبيلة من البربر بالمغرب أهل شوكة وعدد .

(٢) نسبة إلى الحافظ لدين الله الفاطمى .

(٣) نسبة إلى الآمر بأحكام الله الفاطمى .

(٤) نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى .

(٥) نسبة إلى الأفضل بن بدر الجمالى ، راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ .

(٦) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ج ١ ص ١٩٣

وكان الخلفاء يجلسون بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلا منها إلى بلاد الشام وفلسطين التى كان أهلها فى ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين الشيعيين . وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التى كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم تشتمل على محتويات هذه الصناديق ، وكانت نوافذ المنظرة تفتح ، فإذا رأى الجند وجه الخليفة خروا له مقبلين الأرض ، ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير وبركب إلى منظرة المقس . وبعد أن يفرغ من استعراض المراكب الحربية يأذن لأمير الأسطول بالمثول بين يديه فيخلع عليه خلعة ويودعه ، فيبدأ الأسطول بالمسير[1] .

(ب) البحرية :

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ، ومحاولة فتح القسطنطينية . وقد ظهر ذلك واضحاً منذ عهد عثمان بن عفان وفى عهد الدولة الأموية التى استقرت فى بلاد الشام . على أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولاتها أنفسهم . وقد بلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين . وكان للمسلمين فى كل مرفأ منار لهداية السفن ، أطلق عليه اسم « الخشب » ، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدّم » يرأس من يعمل فيها من الجند ويقوم بتدريبهم وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط . أما القائد العام للأسطول فيدعى « أمير الماء » أو « أمير البحر » ، الذى اشتق منه الأوربيون لفظ Adm al .

وقد اشتهرت مصر فى العصر الإسلامى بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت أيضاً بصناعة السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

المصرى ، والتى كانت تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

ويرجع إنشاء « الصناعة » فى مصر إلى هذه الغزوة التى شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة ، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس فى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣م) . وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عنبسة بن إسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) والى مصر فى ذلك الوقت بتحصين سائر الموانىء المصرية ، كما قام فى الوقت نفسه بإنشاء « الصناعة » التى ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية ، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولا كبيراً من السفن الحربية . ولكن بقاء « الصناعة » فى هذا المكان أصبح مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار فى سنة ٣٢٣ هـ ثم استولوا على الأسطول المصرى فى الفيوم واستخدموه فى الحرب إلى الإسكندرية ثم إلى برقة . ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٣٢٥ هـ) ، ثم أقام فى موضعها بستانه المعروف « بالمختار »[(١)] .

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التى كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم فى حاجة ماسة إلى أسطول قوى[(٢)] ؛ فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، وفى الإسكندرية ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير المرابطة فى الموانىء الشامية مثل عكاء وصور وعسقلان .

وأنشأ المعز فى المقس داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وصفها المسبِّحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً . وقد قام الأسطول المصرى فى عهد الفاطميين بدور هام فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر ، توقيع رقم ٦ ص ٩٧ ، وتوقيع رقم ٢٤ ص ١٠٢ ، وتوقيع رقم ٢٨ ص ١٠٣ .

(٣٦٠ — ٣٦٧ هـ) . فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر ويهدد دلتا النيل ، ويغرق كثيراً من سفن الفاطميين فى البحر الأبيض المتوسط ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة فى الشام[1] .

كذلك كانت عيذاب إحدى القواعد الحربية الهامة فى العصر الفاطمى كما كانت الإسكندرية ودمياط وعسقلان وبعض المدن السورية الأخرى . وقد بلغ من أهمية عيذاب أن اتخذها الفاطميون قاعدة بحرية على البحر الأحمر .

وقد ذكر القلقشندى[2] أنه كان على رأس الأسطول المصرى عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ، ويسمى فى عصر الفاطميين « أمير الجيش » ، وفى عهد المماليك « ناظر الجيش » . ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين ديناراً فى الشهر . وكان للأسطول المصرى ميزانية ضخمة من مستغلات الإقطاعات المحبوسة عليها . ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين ، حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين ، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول

وقد ذكر ابن خلدون[3] ما قامت به البحرية الإسلامية من الأعمال المجيدة ضد البيزنطيين وسائر الشعوب الأوربية فى البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح بحق بحيرة عربية فى ذلك العصر ، فيقول : « وكانت أساطيل إفريقية والأندلس فى دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادهما فى سبيل الفتنة ، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها ، وأسطول إفريقية[4] كذلك مثله أو قريباً منه . وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم . . . وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المعلومة من

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٣ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ . انظر كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٣) مقدمة ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٤) يقصد بذلك أسطول الفاطميين فى المغرب .

الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه « مثل : ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرس ، وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعي[1] وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة . وافتتح مجاهد العامري دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصارى لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم ، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا على البيزنطيين هذه الفنون أصبحوا أساتذة أوربا لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . ومما يدل على صحة هذا القول أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوربا لا تزال تحتفظ بمر بنها إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من غيرهم من شعوب أوربا . ويقول فون كريمر[2] : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوب أوربا . ومن بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة من « حبل » العربي ، arsenal (و بالإيطالية darsonsl) المأخوذة من « دار الصناعة » ، corve te المأخوذة من «غراب » ، admiral المأخوذة من « أمير البحر » .

---

(١) هو القائم الفاطمي ثاني الخلفاء الفاطميين بالمغرب (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ)

(٢) Von Kremer : Orient Under the Caliphs, p. 356

٥ — النظام القضائي

(أ) القضاء :

اكتسب قضاة مصر فى العصر العباسى خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامى ، واشتهروا بالاستقامة . ويكاد يكون القاضى فى ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفى الدولة . وقد بلغ من محبة الناس القاضى أن أصبح الولاة فى مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور . ولا غرو فإنه لم يعد للوالى فى العصر العباسى سلطة عزل القضاة ، بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة ، وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه .

ولم يكن القضاة فى عهد الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) والإخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) تابعين لمذهب واحد ، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذى ينتمى إليه . واشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة .

وقد نبغ فى عهد الطولونيين القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامى . ولما عقد أحمد بن طولون مجلساً فى دمشق حضره القضاة والفقهاء والأشراف من أهل مصر والشام والثغور ، وشهد المجتمعون على خلع أبى أحمد الموفق أخى الخليفة العباسى المعتمد من ولاية العهد ، لمخالفته الخليفة وحصره إياه ، شهد على ذلك جميع من حضر إلا ثلاثة من رجالات مصر ، منهم القاضى بكار الذى أبى إقرار الخلع (١٢ ذو القعدة سنة ٢٦٩ هـ) . وقد ذكر الكندى[1] أن بكاراً وافق على خلع الموفق وسماه الناكث ، ولكنه لم يوافق على لعنه . ويقول الكندى[2] : « وسماه بكار الناكث ، وأشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور ؛ فطلب منهم أحمد (بن طولون) أن يلعنوا الموفق . فامتنع بكار ، فألح عليه ، فأصر على الامتناع حتى أغضبه . وكان قبل ذلك مكرماً معظماً له عارفاً بحقه ، وكان يجيزه فى كل سنة بألف دينار . فلما غضب عليه أرسل إليه : أين

---

(١) كتاب القضاة ص ٥١٢

(٢) راجع سيرة بكار فى كتاب القضاة ص ٥٠٩ — ٥١٤

جوائزى ؟ فقال : على حالها ، فأحضرها من منزله بخوانيمها ستة عشر كيساً ، فقبضها أحد » .

وكان قاضى القضاة فى مصر وقت الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ ﻫ أبو الطاهر . وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ ﻫ . فرأى جوهر الصقلى أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين ؛ فأقره فى منصبه لغرض سياسى فحسب ، وعمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه[1] .

ظل أبو الطاهر — الذى تقلد القضاء قبل وصول الفاطميين — فى منصبه حتى سنة ٣٦٦ ﻫ . ولكن سلطة القاضى قد ضعفت ضعفاً شديداً على أثر وصول المعز إلى القاهرة ؛ وكان فى ذلك أشبه بالوزير الذى أقر فى منصبه لاعتبارات سياسية لا غير .

وأولى هذه الاعتبارات هى أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارعوا إلى اعتناق المذهب الشيعى . لذلك كان بقاء أبى الطاهر رغم كونه سنياً من الأمور السياسية التى لا مندوحة عنها ، وإن كان ذلك صورياً ، ولا سيما أن جوهراً أخذ على نفسه العهود والمواثيق بأن يطلق للمصريين الحرية التامة فى اعتناق مذهبهم . فكان عزل هذا القاضى الذى ظل فى منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ وإحلال قاض من الشيعة محله ، مما يثير شعور الجمهور .

وإن سلوك أبى الطاهر عند وصول المعز ليدل على مقدار ما كان يضمره المتعصبون من السنيين من عداء للمتشيعين فى شخص هذا الحاكم الشيعى ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبّلوا الأرض بين يديه ما عدا أبا الطاهر . يدلك على ذلك ما أورده لنا المقريزى فى مخطوطه المقفى الكبير حيث يقول :

« لما ورد المعز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة ؛ فلما رأوه ، قبلوا الأرض بين يديه كلهم ، سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكباً . ولما قرب ترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت المعز إلى خواص حجابه وقال : من هذا الذى خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضى مصر ، وهو من أهل العلم والدين . ثم لامه أحد الحجاب سراً (هكذا) فيما

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٨٤

فعل ؛ فرفع صوته وقال جهراً بحيث يسمع المعز : وما (هكذا) هذا ؟ (أ) هو الشمس التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ؟ ، فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ؛ فرجع وهو قاض وعلت منزلته »[١].

وليس ما يمنعنا من أن نظن أن هذا القاضى إنما بقى فى منصبه طبقاً لهذه السياسة العامة التى جرى عليها الفاطميون ؛ لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه الذى نتبين من ثناياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فإن سلطة أبى الطاهر ما لبثت أن اضمحلت ، وألزم فى أواخر عهده فى القضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعى[٢] .

تضاؤل نفوذ القاضى :

ظل القضاء والإمامة والخطابة فى يد رجال من السنيين الذين تقلدوا هذه الوظائف فى أواخر أيام الإخشيديين . ثم تضاءل نفوذ القاضى فى سنة ٣٦٣ هـ ، بل ألزم — كما قلنا — أن يصدر أحكامه طبقاً لأصول المذهب الشيعى الذى ساد البلاد فى ذلك الوقت ، كما اشترك معه فى منصبه قاضيان من المغاربة .

ويحدثنا ابن ميسر[٣] أن أبا سعيد عبد الله بن أبى ثوبان ، الذى صحب المعز إلى مصر ، تقلد فى شوال سنة ٣٦٢ النظر فى المظالم[٤] الخاصة بالمغاربة . ولم تلبث أن ازدادت سلطة ابن أبى ثوبان هذا ، فلم تقتصر على النظر فى قضايا المغاربة وحدهم ، أو فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، بل آل إليه النظر أيضاً فى قضايا المصريين أنفسهم ، وغدا يطلق عليه اسم قاضى مصر والإسكندرية[٥] .

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ١٨٢ .

(٢) الكندى : كتاب القضاة ص ٥٨٤

وقد خالف ذلك ابن زولاق ذلك فقال ، إنه بعد أن وصل الخليفة المعز إلى الإسكندرية ، خلع على أبى الطاهر الذى سار معه إلى القاهرة وهو ممتط جواده ، وقد سأله المعز وهو فى الطريق : "كم رأيت يا قاضى خليفة ؟" فقال القاضى : "واحداً والباقى ملوك !" » .

(٣) تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٤) هى محكمة عليا كانت تعقد من قبل برياسة الخليفة نفسه .

(٥) الكندى : كتاب القضاة ص ٣٨٧ .

كذلك نُصِّب من المغاربة قاض آخر — صحب المعز إلى مصر أيضاً — وشارك القاضي أبا الطاهر في سلطته . وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر ، حيث أصبح القضاء يقلد لاثنين من الموظفين ، أحدهما سني والآخر شيعي . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السني تدريجاً فحسب ، بل ذلك إيذان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنيين منصب القضاء[1] .

ولم يذكر لنا المؤرخون تاريخ تقلد علي بن النعمان القضاء . غير أنه يظهر مما ذكره ابن ميسر (ص ٤٤) أنه بدأ حياته في القضاء منذ سنة ٣٦٣ هـ ، أي بعد أن تقلد ابن أبي ثوبان منصبه بأشهر قلائل .

ولما اقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر ، كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم في أحكامه . وجلس أولهما للحكم في الجامع العتيق ، وثانيهما في الجامع الأزهر[2] ؛ وظلت الحال على ذلك إلى شهر صفر سنة ٣٦٦ ، وفيه اضطلع عليّ بن النعمان بالقضاء عامة .

وتظهر لنا صحة ما رواه ابن حجر عن استقالة هذا القاضي . وهو يختلف عما ذكره القضاعي[3] والمقريزي ؛ فقد أيد كل منهما القول بأن القاضي قدم استقالته إلى الخليفة العزيز[4] لأسباب صحية . وزاد المقريزي أن العزيز ركب في صفر سنة ٣٦٦ إلى الموضع المعروف بالجنان في جزيرة الرَّوْضة على مقربة من جامع عمرو ، حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم . وهناك استقبل أبو الطاهر وشهوده الخليفة العزيز ، وسأله أن يأذن له في استخلاف ولده[5] بسبب ضعفه . ولقد قبلت استقالة القاضي على الفور ، وكأن الخليفة كان ينتظرها بتلهف .

ونحن نعلم أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السنيين تدريجيا ، بحيث

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، مخطوط ، ورقة ٢١٤ ب .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٢١٥ ورقة ١٩٤ ب .

(٣) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٩ ب .

(٤) ذكر المقريزي (المقفى الكبير ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ورقة ٨١ ا) أنه الخليفة المعز (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) ويرجح عندنا أن ذكر لفظ العزيز خطأ من الناسخ ، بدليل إيراده بعد ذلك في سياق أقوال هذا المؤرخ .

(٥) قد أورد ابن زولاق هذه الحقيقة التاريخية (الكندي ص ٥٨٧) .

لا يقف معها دولاب الأعمال الحكومية أو يتكدر صفاء البلاد بتذمر السنيين وسخطهم .
ولم تنقض ثلاثة أيام على تقديم القاضى استقالته ، حتى قلد العزيز على بن النعمان الشيعى المذهب[1] .

ويحدثنا الكندى[2] أنه قرئ على منبر الجامع العتيق سجل بتقليد ابن النعمان القضاء . وزاد ابن حجر[3] فقال إنه « ولى القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة والإمامة والقيام فى الذهب والفضة » . ويستطرد هذا المؤلف الكلام فيقول إن أبا الطاهر امتنع عن العمل مع ابن النعمان ، فاستخلف هـذا أخاه محمدا والحسن بن خليل الفقيه الشافعى ، وشرط عليه أن يصدر أحكامه وَفْق المذهب الشيعى الذى يدين بعقائده الفاطميون .

ولقد ظل القضاء فى يد الشيعيين من الاسماعيلية ، وبقى أولاد النعمان يتقلدون هـذا المنصب إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ففى صفر سنة ٣٩٣ ، تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر وما يتبعها من الأعمال ، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضى القضاة ؛ فغدا يطلق على ابن النعمان لقب « قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

وكان منصب القضاء يعهد به لبعض السنيين أحياناً ، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . ولنضرب لذلك مثلا ما كان من إسناد الحاكم بأمر الله هـذا المنصب فى العشرين من شعبان سنة ٤٠٥ لرجل من أهل السنة ، بقى فيه إثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، ثم مات فى عهد الخليفة الظاهر . ويحدثنا ابن حجر[4] أن القاضى مالك بن سعيد الفارقى قتل لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ ، فخلا منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، أى إلى العشرين من شعبان ، فتقلده أبو العباس بن العوام الحنبلى المذهب . وأن خلو هذا المنصب طوال هذه المدة يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أنه لم يكن من السهل العثور على فقيه من الشيعيين يصلح لتولى هـذا المركز . ولقد أدلى لنا ابن حجر[5] بالظروف التى أدت إلى تقلد ابن العوام أعباء هذا المنصب فقال :

---

(١) الكندى ص ٥٨٥
(٢) المصدر نفسه .
(٣) رفع الإصر ورقة ١٩٤ ب .
(٤) رفع الإصر ورقة ٢١٤ ب .
(٥) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب وما يليها .

« وكان قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، من أهل العلم بالنحو واللغة ، قدم على الحاكم فأعجب به وخلع عليه ، وأقطعه إقطاعاً ولقبه عالم العلماء ، وجعله بمجلس فى دار العلم التى أنشأها ، ليدرس للناس اللغة والنحو . فخلا به الحاكم فجعل يسأله عن الناس واحداً واحداً ، من يصلح منهم للقضاء ؛ وكان الحاكم عارفاً بهم ...... فلم يزل يذكر ، حتى وقع الاختيار على أبى العباس ، فقيل للحاكم : ليس هو على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك ، فقال : هو فقيه مأمون مصرى ، عارف بالقضاء و بأهل البلد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره » .

ومن المهم أن نلم بما ذكره ابن حجر[١] من أن ابن العوام قد شهد عند القاضى محمد ابن النعمان[٢] فى سنة ٣٨٤ ﻫ . ومن هنا يتضح ما كان لمنصب القضاء من حرمة وقداسة ، حيث يقف رجل سبق له تولية هذا المنصب أمام القاضى . و يغلب أن يكون ذلك فى القضايا الهامة التى قد يكون هذا القاضى أعلم بها من غيره .

و يزيدنا ابن حجر[٣] أن ابن العوام تقلد القضاء وخلع عليه ، «وأضيف إليه فى الأحكام مصر و برقة وصقلية والشام والحرمان ، ما عدا فلسطين ، فإن الحاكم كان قد ولاها أبا طالب ابن بنت الزيدى الحسينى ، وجعل للعباس النظر فى العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع» بسبب ما كان لأبى الفضل من نفوذ لدى الخليفة الحاكم . ولكنه لما لم يكن هذا القاضى يدين بعقائد المذهب الشيعى ، اشتمل سجله الذى قرئ فى القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من القضاة (الشيعيين بلا مراء) يعينون من قبل الخليفة . ومن ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا حدوثه ، وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة .

سجل تقليد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى عهد الحاكم :

ومن السجل الذى كتبه الخليفة الحاكم الفاطمى لقاضى قضاته الحسين بن على بن

---

(١) ابن حجر ، ورقة ٤٥ ا .

(٢) الكندى (طبعة رومة سنة ١٩٠٨) ص ١٦٢ .

(٣) رفع الإصر ورقة ٤٤ ب .

النعمان[١] ، نرى أن سلطته شملت رياسة القضاء فى مصر والحجاز وبلاد الشام والمغرب ، وأن عمله تعدى ذلك إلى النظر فى موظفى المساجد من الأئمة والقوامين عليها والمؤذنين بها وغيرهم ، كما أصبح له الإشراف على دور الضرب . ورسم له الخطة التى يسير عليها ، فأمره بتقوى الله فى السر والعلانية ، والمحافظة على شعائر الدين ومراعاة حدوده ، وأمره أن يجعل الحكم فى المواضع الضاحية[٢] للمتحاكين ، ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه[٣] ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه قسمة لا يحابى فيها قويا لقوته ، ولا يُردى فيها ضعيفا لضعفه . بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضرًا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه[٤]) .

وأمره أن يتم النظر فى الشهود الذين إليهم يُرجع وبهم يُقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا ، ويتعرّف دخائلهم تعرفا كافيا ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم . فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى ، أبقاه ، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى . وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدِّله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون فى الأمرين على ما يَحدُله ويمثله[٥] ، ويأمن فيا هذه سبيله كل خلل يَدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام ، وإليها يرجع الحكام ، والنظر فيمن يوهَّل لها أحق شيء بالإحكام . قال الله تقدست أسماؤه : (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين[٦]) .

---

(١) راجع هذا السجل فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥ — ٣٨٨

(٢) يريد المواضع الظاهرة التى لا تخفى على المتخاصمين ولا يشق عليهم الوصول إليها .

(٣) يوصى القاضى بأن يتفرغ لعمله ولا يتشاغل عن لقاء من يريد لقاءه من الخصوم بقضاء مصالح أو بقراءة الكتب أو بالحديث مع الأصدقاء أو نحو ذلك مما يجعل وجوده قليل الفائدة .

(٤) سورة آل عمران ٣ : ٣٠ .

(٥) أى يرسم له ويبين

(٦) سورة النساء ٤ : ١٣٥

وقال تعالى : (والذين لا يشهدون الزورَ وإذا مروا باللغو مروا كراما[1]) .

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا ، وأولى الخلل فى عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه : من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم (تركهم) لما يحرم ولا يحلُّ أكله منها ؛ فيتبوأ عند الله بعدا ومقتا ، آكل الحرام والموكل له سُحتا (حراما) . قال الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا[2]) .

وفى سنة ٥٢٥ هـ عين الأكل حفيد بدر الجمالى أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إماميا والآخر إسماعيليا . أما السنيان ، فكان أحدهما شافعيا والآخر مالكيا . وأعطى لكل السلطة المطلقة فى إصدار أحكامه على وَفْق مذهبه . وقد حدثنا المقريزى أن هذه السياسة التى انتهجها أبو علىّ الأكمل أثارت غضب دعاة الشيعيين وحنقهم ، وكذلك الأمراء وغيرهم من أعيان المتشيعين ، حتى دبروا مؤامرة لاغتياله .

وفى اليوم السادس عشر[3] من المحرم سنة ٥٢٦ ، بينما كان الأكمل سائرا فى طريقه ممتطيا جوادا لمشاهدة لعبة الكرة ، كمن له جماعة من أنصار الخليفة . ولما اقترب منهم هجم عليه أحد غلمان الخليفة وقتله ، واحتز الباقون رأسه . بعد ذلك أطلق هؤلاء الغلمان سراح الخليفة ، ودانوا له بالطاعة والعبودية ، وهاجم الناس بيت الوزير وانتهبوه[4] .

ويحدثنا ابن ميسر عند كلامه على سنتى ٥٢٩ و٥٣٥ ، أن بهرام الأرمنى والى الغربية لما قدم إلى القاهرة فى ١٦ جمادى الثانية[5] من سنة ٥٢٩ وحاصرها يوما ، رأى الخليفة

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ : ٧٢

(٢) سورة النساء ٤ : ١٠

(٣) ويقول أبو المحاسن (المجلد الثالث ، ج ٣ رقم ١ ص ٤) إن هذه الحادثة كانت فى العشرين من هذا الشهر . ويخالفه فى ذلك ابن ميسر (ص ٧٥) والمقريزى (خطط ج ١ ص ٤٩٠) ، الذى يقول إن إطلاق سراح الحافظ كان فى السادس عشر من هذا الشهر ، وإن الحكومة اتخذت هذا اليوم عيداً سنوياً تقام فيه الاحتفالات بخلاص هذا الخليفة .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٩ و ٣٨٠

(٥) أورد ابن ميسر هذا التاريخ فى محل آخر ، وهو اليوم الحادى عشر من نفس هذا الشهر .

الحافظ أن يوليه الوزارة ؛ فأشار عليه بعض خاصته أن يعدل عن هذا الرأى :

(أولا) لأنه نصرانى ، فلا يرضى عنه المسلمون إذا تقلد هذا المنصب .

(ثانيا) أن الوزير كان حتما عليه أن يصعد المنبر مع الإمام فى الأعياد ليزرِّر عليه المَزَرة (الستارة) التى تحجبه عن الناس .

(ثالثا) أن القضاة كانوا نواب الوزراء منذ أيام أمير الجيوش . وكانت هذه النيابة تذكر فى الوثائق الرسمية التى تنفذ إلى الآفاق ، كما كانت تكتب أيضاً فى وثائق الزواج[١] .

فلم يُصغ الحافظ لقول النصحاء ، وتقلد بهرام الوزارة بالرغم من نفور رضا الناس من هذا التقليد الذى لم يدم طويلا[٢] .

و بسعى قاضى قضاته صدر الدين عبد الملك بن درباس ، صرف صلاح الدين جميع قضاة الشيعة (٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦) ، وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم . وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئا فشيئا إلى المذهب السنى ، وهو المذهب الذى كانت له السيادة من قبل الدولة الفاطمية ، وأخذ المذهب الشيعى بنوعيه الإسماعيلى والإمامى يضمحل من الديار المصرية ، إلى أن قضى عليه نهائيا[٣] .

أما عن الخطابة ، فقد أقيل بنو عبد السميع بعد أن تقلدوها نحو أربع وستين سنة ، وأسندت إلى جعفر بن الحسن الحسينى فى الجامع العتيق ، و إلى أخيه فى الجامع الأزهر[٤] .

---

(١) كانت الخصال التى يتحتم توافرها عند تعيين القاضى ، على ما أورده الماوردى كما يأتى :

١ — أن يكون ذكراً بالغاً . بيد أن أبا حنيفة يرى أنه يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيه شهادتها ؛ أما الطبرى فيرى أنه يجوز أن تتولى القضاء مطلقاً .

٢ — العقل ، بمعنى أن يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيداً عن السهو والغفلة .

٣ — الحرية . ولكن الرق لا يمنع من الفتيا ؛ لأن مركز الافتاء لم يكن معتبراً فى ولاية الحكم .

٤ — الإسلام . ولا يجوز أن يقلد الذمى القضاء على المسلمين .

٥ — العدالة .

٦ — السلامة فى البصر والسمع . ولا يعتبر مالك العمى مانعاً من القضاء .

٧ — أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية ملماً بأصولها وفروعها .

وبمقتضى قوانين الشريعة الغراء لم يتحقق فى بهرام الشرط الرابع . ويبعد أن يكون متحققاً فيه الشرط السابع (الماوردى ص ١١٤) .

(٢) ابن ميسر ص ٩٧ .

(٣) أبو شامه (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١

(٤) ابن دقماق ج ٤ ص ٦٤ ، والمقريزى خطط ج ٢ ص ٢٤٨ . كان ذلك فى سنة ٣٧٩ ، على ما ذكره ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) .

قانون الوراثة فى عهد الفاطميين :

ذكر لنا ابن حجر قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجده ، وكان ينبغى أن ينتقل إلى أمه حسب قانون الشيعة . وكان القاضى أبو الطاهر قد حكم فى هذه القضية بأنه لم يكن لهذا الشخص حق فى ادعاء الملكية ، لأن جده قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية . ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السنى والشيعى ، وهذا الأخير قد حكم للمدعى ، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ؛ لأنها أفضت إلى الخلاف فى وجهة نظر كل من القاضيين اللذين حكم كل منهما حسب قانون المذهب الذى يدين بعقائده . ويحدثنا ابن حجر نقلا عن ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) أن المدّعى شكا إلى الخليفة المعز ، فأمر قاضيه الشيعى بأن ينظر هذه القضية ثانية[١] .

ولقد ذكر ابن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور التمرد فى نفوس الشهود الذين كانوا يعملون مع ابن أبى ثوبان ، حتى إن الخليفة المعز أمر أخيراً بإبطال الحكم الذى أصدره ابن أبى ثوبان ، ليزيل السخط الذى دب فى نفوس الشهود السنيين فى ذلك الوقت على الأقل[٢] .

وكانت نتيجة هذه الحوادث أن امتنع الشهود عن حضور مجالس الحكم التى كانت تعقد برياسة ابن أبى ثوبان ؛ فبدلهم هذا بشهود آخرين ، ولعلهم كانوا من الشيعيين . على أن هؤلاء اضطروا إلى الاستقالة . وكان غضب أبى الطاهر والشهود سببا فى علة ابن أبى ثوبان التى أودت بحياته[٣] .

ونستطيع مما أدلى به ابن حجر أن نقول إن العلاقات بين أبى الطاهر وابن أبى ثوبان لم تكن تنطوى على شىء من الود والصداقة . وهذا أثر الخلاف المذهبى الذى أدّى بهذين الرجلين إلى الحالة التى وصفناها . فقد أصدر القاضى الشيعى أحكامه طبقا لعقائد مذهب

---

(١) الكندى ص ٥٨٧ و ٥٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٨ .

(٣) المصدر نفسه .

الشيعة الذى يخالف مذهب زميله السنى الذى يدين به القاضى السنى طبعا .

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها ، إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقد تمسك القاضى الشيعى بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا فى استطاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

وقد عدّت القاعدة التى تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة التى يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث . والسر فى أن الشيعة يورثون البنت كل المال و يجعلونها حاجبة للأعمام أمران : أحدهما أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . ثانيهما أن بنى العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه هم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحرز كل المال ، وعلىّ أنزل من العباس . فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث ، ليمنعوا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

« وكان الداعى لحضور الطرطوشى أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربع العشر ، وتوريث البنت نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطائحى) بأن هــذه قضية لم يقل بها ، وأن أمير الجيوش بدرا هو الذى ابتكرها . . . . . واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقيه : أنا لا أرى مخالفتك . . . . . ، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

١ — يخلّص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاجُ القويم لقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم)[1] .

---

(١) سورة الأنفال ٨ : ٧٦ .

٢ — إن كل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . . . . ويحمل من سواهم على مذهب مخالفيهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويُحمل إليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم .

٣ — إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال .

٤ — أن يعوّض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحَشْرية .

٥ — من لا وارث له ، حاضراً أو غائباً ، فوجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقه زَوْجٌ أو دَيْنٌ عليه .

٦ — وإن كان للمتوفى وارث غائب ، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه فى مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب ، فليخرج الأمر بتسليمه إليه .

٧ — يعتمد القاضى ذلك بالباب ، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين[1] ، بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رءوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه فى البلاد ؛ وليُخلّد فى مجلس الحكم بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الآمرى .

لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ[2] »

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع فى حكم العباسيين قبل هذا التغيير الذى حصل فى عهد الفاطميين ، وذلك أنه فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولداً ، فآلت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به فى ذلك الحين[3] .

حدث ذلك فى خلافة المعتمد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩ — ٨٩٢ م) ، فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بارجاع القانون إلى ما كان عليه من

---

(١) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٢) المقفى الكبير للمقريزى ، ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١٩٥ ا — ١٩٧ ب .

(٣) هلال الصابئ ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ .

قبل . وظلت الحال على ذلك إلى عهد المكتفى ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ (٩٠٢ — ٩٠٨ م)[١] ، فصدرت الأحكام فى الميراث على حسب التعديل الذى أدخل على هذا القانون من قبل[٢] .

ولقد أنكر الوزيرُ أبو الحسن علىّ بن محمد بن الفرات هذا التعديل ، وعدّه مخالفاً لما جرى به قانون مذهب السنة ، فحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة ، وصدر مرسوم مذيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضى[٣] :

١ — بأن يصْرَف القائمون بأعمال المواريث فى سائر النواحى و يبطل أمرهم ، و يرد النظر فى أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله .

٢ — وبأن يُرَدَّ على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على إذاعة ما أمر ، و إظهاره وقراءته على الناس فى المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليكون مشهوراً متعارفاً ، والخبر به إلى الأدانى والأقاصى واصلا[٤] .

راتب القاضى :

كان القضاء من أهم مناصب الدولة فى هذا العصر ، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التى يجب أن يتنزه عنها القاضى . فلما تولى مصر عبد الله ابن طاهر قلد عيسى بن المنكدر القضاء فى سنة ٢١٢ هـ ، وأجرى عليه سبعة دنانير فى كل يوم . وفى عهد أحمد بن طولون كان القاضى بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار فى الشهر . وذكر القلقشندى[٥] أن راتب قاضى القضاة بلغ مائة دينار فى الشهر عدا المخصصات الأخرى . وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة و بين أخذ الأموال بغير حق ،

---

(١) هلال الصابئ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٨

(٤) المصدر نفسه ٢٤٨ ص — ٢٥٣

(٥) صبح الأعشى ٣ ص ٥٢٦ .

فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن على بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية .

وقد تقلد على بن المحسن التنوخى المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء فى عدة نواح ، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً فى الشهر ، مما يدلنا على أن راتب القاضى أخذ فى العصر العباسى الثانى يقل شيئاً فشيئا ، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحيانا أن لا يأخذوا راتبا عن قيامهم بأعمال هذا المنصب .

وبعد أن كان الالتزام مقصوراً على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة به إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغا معينا ، تعدى هذا النظام إلى القضاء ، فأصبح القاضى يلتزم القضاء على أن يؤدى لبيت المال مبلغا من المال مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا . وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة عن قضاء بغداد[1] .

وقد ذكر ابن حجر العسقلانى[2] أن قاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان تقلد القضاء والمظالم والدعوة فى سنة ٤١٨ هـ ، ثم عزل فى السنة التالية ، فحل محله عبد الحاكم ابن سعيد بن مالك الفارقى وأضيفت إليه الأحباس . وقد قيل إن دخله زاد على عشرين ألف دينار فى السنة بسبب تشدده فى الأحكام وابتزازه الأموال . وقد مات رجل من ذى اليسار وترك مالا جزيلا ولم يخلف سوى بنتاً واحدة ، آل إليها جميع الميراث طبقاً لمبادىء المذهب الشيعى الذى يقضى بأن تحوز البنت كل الميراث إذا لم يكن لها أخ . وقد رغب بعض الناس فى الزواج من هذه المرأة طمعاً فى مالها ، ومن هؤلاء قاضى القضاة ولما امتنعت أقام القاضى أربعة شهود شهدوا بأنها سفيهة ، ووضع الفارقى يده على أموالها فرفعت شكواها إلى الوزير أبى القاسم الجرجرائى الذى قامت البينة لديه على بطلان حكم القاضى ، فأهانه وأمر بإحصار المال منه بعد أن تصرف فيه أربع سنين ، وقبض على الشهود فأودعوا السجن ، وصرف القاضى عن منصبه مهاناً . وقد أنشد بعض الشعراء فى هذا القاضى وفى قاسم بن عبد العزيز قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٢ وآدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٦ .

(٢) الكندى : كتاب القضاة ص ٦١٣ — ٦١٤ .

ولما تولى ابن عبد العزيز قضاء القضاة تولى القضا
وأعقب من بعده الفارق فأدبر إقبـــاله وانقضى
وعاد القضــاء إلى قاسم فأصبح عن رشــده معرضا
فلا ذا بســيرته يُرتضى ولا ذا بتــدبيره يستضا
فهــذا رئيس به لوثة وهذا وضيع بعيد الرضا
فلا بارك الله فيمن أتى ولا بارك الله فيمن مضى

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية[١] ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذى أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة الاستسقاء[٢] .

(ب) المظالم :

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى . يقول ابن خلدون[٣] عن المظالم : « وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة . تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى ، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ، « ويكون نظره فى البينات (الحجج) والتقرير[٤] واعتماد الأمارات والقرائن[٥] ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضى » .

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . ويعين

---

(١) أنشىء هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاة يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، وجعل من هذه القضايا سجلا عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

(٢) كان قاضى القضاة يشرف على الصلاة أيضاً ، ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً ، ولقضاة القضاء شخصاً آخر .

(٣) مقدمة ص ١٩٣

(٤) التقرير استقصاء البحث من الخصوم فى المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضى .

(٥) يعنى الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التى يتبينها القاضى من حال الخصمين عند فقــد الأدلة الشهود .

صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد كما تقدم ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جماعاته إلا بحضورهم :

١ — الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم ، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، ويرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويدونون أقوال الخصوم وإثبات ما لهم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ، ويقررون أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

وفى الحق أن الضرورة تحتم وجود مثل هذا النظام ، إنصافا للمظلومين وإغاثة للمستضعفين ، فكان من اختصاص هذه الجماعة :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد[1] .

ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ص ٧٣ — ٨١

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى فى أحكامه . وقد بين الماوردى[1] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء ، ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ، بكف الخصوم عن التجاحد[2] ، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب ، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الأمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل ، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا[3] إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض[4] . وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد ، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم ، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك ، وأنه يجوز له أن يبتدئ باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم . ومن عادة القضاة تكليف المدعى أن يحضر بينة ، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله » .

وكان الأمير أو أحد كبار موظفيه يرأس مجلس النظر فى المظالم ويحكم فى القضايا . ومما دعا إلى إنشاء هذا المجلس ما كان يعترض تنفيذ أحكام القاضى من مصاعب ، ولا سيما إذا كان المدعى عليه من أصحاب المراتب العالية ، أو كان يشغل وظيفة من وظائف الدولة . فلم يكن أحد يجرؤ على عدم الخضوع لما يصدره هذا المجلس من أحكام ، ولم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلص من بطشه وشدة أحكامه[5] .

(ح) الحسبة :

كانت سلطة القاضى موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب . وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٧٩ — ٨٠

(٢) المبالغة فى إنكار الحق من كلا الخصمين

(٣) أعضلوا استعصى التوفيق بينهم

(٤) بمعنى أن القاضى إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحاً

(٥) انظر الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٨ — ١٦٤ . Ibn Khallikan's Dictionary, vol. i, pp. 346-, n.14

واحد ، مع ما بين العملين من التباين ، فعمل القاضي مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فبنى على الشدة والسرعة فى العمل[١] .

كان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب ، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) . وقد رؤى عمر يضرب جمالا ويقول له : « حمّلت جملك مالا يطيق » ، فالمحتسب إذا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة ، وينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمكاييل تجنباً للتطفيف[٢] . ويعاقب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان ، ويمنع التعدى على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . وقد أجمل ابن خلدون[٣] أعمال المحتسب فى هذه العبارة فقال :

« ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين . ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[٤] ، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه . وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها ، وفى المكاييل والموازين . وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم . وكأنها أحكام

---

(١) راجع الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ – ٧٢ .

(٢) كان لها دار خاصة ، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها ، فإن وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية — المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

(٣) مقدمة ص ١٩٦

(٤) أى طلب رد عدوان الغير .

ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء . وقد كان في كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس ، داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره » .

وكانت أعمال المحتسب ، على ما ذكره الماوردي[1] ، متعددة مختلفة . فكان إليه النظر في الأسواق ، والمحافظة على الآداب والفضيلة ، وإدارة الشرطة . وكانت وظيفته واسطة بين القاضي وصاحب النظر في المظالم[2] . ومن أهم أعماله المحافظة على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة ، وإيقاف مضايقة الجمهور ، والإشراف على الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ؛ فكان المحتسب ، على ما رواه المقريزي عن ابن الطُّوَيْر[3] ، يختار من وجوه المسلمين وأعيان المُعَدِّلين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير . وكان ينوب عنه في القيام بهذه الأعمال نواب في القاهرة ومصر وغيرها من المدن . وكان يجلس للحكم في جامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم ، ويطوف نوابه على أرباب الحرف وعلى التجار ، ويفتشون قدور الأطعمة ويختمون اللحوم ، ويباشرون محال الجزارة والمطاعم ، ويحولون دون مضايقة الجمهور ، ويلزمون رؤساء المراكب بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع . وكانوا كذلك يشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ، ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة ، ويراعون عيار القرب (وهو أربعة وعشرون دلوا) ، ويمنعون معلمي الكتاتيب من ضرب صغار الأولاد ضرباً مبرِّحاً ، ويحولون دون تغرير معلمي السباحة بالصغار ، وينظرون الموازين والمكاييل . وللمحتسب النظر في ضرب العيار . وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة على المنبر ؛ فغدت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد ؛ كما كان

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٢٧ — ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٣) المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه للمحافظة على الآداب والنظام . وكان يتقاضى مرتباً قدره ثلاثون ديناراً فى كل شهر[١] .

وقد عرض الشيزرى[٢] للشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة ، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان على علم بالموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل ، ويشرف على جميع نواحى الإنتاج والسلع المعروضة فى الأسواق . مثال ذلك إشرافه على الفرائين أى بائعى الفراء ، وصناع الحلوى ، وعلى الشوائين أى شوائى اللحوم ، وعلى الرواسين أى بائعى الروس والأكارع ، وعلى قلائى السمك ، والمرائسيين أى صانعى المريسة ، وهى طعام من خليط القمح والمحم . كما كان يشرف على الشرابيين أى صناع الأشربة ، وهى الأدوية السائلة ، وعلى البزازين أى بائعى الملابس ، وعلى الحاكة وهم الذين ينسجون الغزل قماشا ، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل ، وعلى الصباغين والدلالين والمنادين ، وعلى الصاغة ، والصيارف ، وعلى الحمامات وقومتها .

وقد ذكر المقريزى[٣] أن الصيارفة أثاروا الشغب بعد الفتح الفاطمى ، وأن جوهرا فكر فى إحراق رحبة الصيارفة . وكان المحتسب إلى عهد الفاطميين مصريا ، فأقيل (ربيع الثانى سنة ٣٥٩) على أثر الفتح وحل محله رجل آخر من المغاربة .

أما سليمان بن عَشْرَة الذى حدث هذا الشغب فى عهد ولايته الثانية على الخراج ، فقد أعيد إلى الحسبة بعد موت المحتسب المغربى . ونستطيع أن نستخلص من أقوال المقريزى أن المحتسب كان مصريا سنيا ؛ لأنه لو كان شيعيا لأقره جوهر فى منصبه .

---

(١) وقد ذكر ابن خلدون (مقدمة : طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢٢٥ و ٢٢٦) كثيراً من أعمال المحتسب الذى أوردها المقريزى .

(٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٤٦)

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

الباب العاشر

الدعوة الفاطمية

١ — الدعوة الفاطمية فى الدور المغربى

(ا) فى عهد الفاطميين :

قامت الدولة الفاطمية — كما رأينا — على أسس مذهبية بحتة ، تتلخص فى أن آل بيت الرسول من على وفاطمة أحق الناس بزعامة المسلمين ؛ إلا أن كثيراً من الرعايا السنيين لم يتفقوا معهم فى دعوتهم . أضف إلى ذلك عدم اغتباط جميع مفكرى الإسماعيلية بظهور العقل الكلى[١] فى شخص الإمام الفاطمى . فمن عقائد الإسماعيلية حلول الله فى رؤسائهم ؛ فلما استقر عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب ، وظهر بعد استتار ، رأى أن يقرر فى أذهان رعيته — على ما يقوله السنيون — كثيراً من مبادئ الإسماعيلية المتطرفة ، فأظهر التشيع ونشر بعض أمور تخالف قواعد الإسلام فى كثير من الأحيان .

والآن نعرض لآراء السنيين فى سياسة عبيد الله مع رعاياه ، ثم نوازن بينها و بين آراء الإسماعيلية أنفسهم .

يقول ابن عذارى[٢] : « أظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبى وأزواجه حاشا على بن أبى طالب ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسى ، وأبى ذر

(١) Goldziher : Le Dogme et la Loi de l'Islam, p. 205·
يعتقد الإسماعيلية بنظرية الحلول ، ويقولون ، إن العقل الكلى . . . يمكن أن يحل فى أشخاص الأنبياء أو الرسل الذين يسميهم الاسماعيلية " النطقاء " فالناطق عندهم حلول للعقل الكلى ، ويرون أن آدم عقل كلى ، ومحمداً ، صلى الله عليه وسلم عقل كلى كذلك . ويعتقدون مثل ذلك فى النفس الكلية Ame Universelle ؛ فيرون أن النفس الكلية تحل فى أشخاص الأئمة ، وأن هاتين الصفتين النطق والإمامة ، قد اجتمعتا فى أشخاص أئمتهم . وقد تركزت فى محمد بن إسماعيل ناطقهم السابع ، الذى ورث أبناءه الأئمة المستورين صفتىّ النطق والإمامة معاً ، فأصبحوا جميعاً رمزاً لحلول العقل الكلى والنفس الكلية . ويتمتع عبيدالله الإمام المستودع ، بهذه الصفات .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

الغفارى ؛ وزعم أن أصحاب النبى ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين سميناهم . ومنع المروزى الفقهاء من أن يفتى أحدهم إلا بمذهب . . . منه إحاطة البنات بالميراث ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها . وقد مدح الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه ؛ وكان فيما مدح به شعر لمحمد البديل كاتب أبى قضاعة ، وفيه :

حــل برقادة المسيح ... حل بهــــا آدم ونوح

حــل بها أحمد المصفَّى ... حل بها الكبش والذبيح

حــل بها الله ذو المعالى ... وكل شىء ســـواه ريح

ويدعى السنيون أن عبيد الله قطع صلاة التراويح ، وأحدث فى الصلاة أموراً لم يألفها المسلمون السنيون ، مثل القُنوت فى صلاة الجمعة قبل الركوع ، وزيادة « حى على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر » مرتين مرتين ، وقول المؤذن : « أحياك الله يا مولانا حافظ نظام الدنيا والدين ، جامع شمل الإسلام والمسلمين ، وأعز بسلطانه جانب الموحدين ، وأباد بسيوفك كافة الملحدين ، وصلى عليك وعلى آبائك الطاهرين . وأبنائك الأكرمين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »[1] .

كذلك ذهب السنيون إلى أن عبيد الله كان يعمل على هدم الإسلام متستراً بالتشيع[2] ، وهذه التهمة نفسها هى التى رموا بها عبدالله بن ميمون القداح ، ولكننا لا نستطيع أن نصدق كل ما رمى به عبيدالله المهدى . ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان يخلص لقواعد المذهب الإسماعيلى ، ويعتقد أنه حركة إصلاحية شاملة ، وأنه بفضل هذه الحركة يمكن أن ينتشل الإسلام من الهوة التى تردى فيها ؛ فحاول إدخال هذه القواعد بين السنيين ، فعدوها كفراً وإلحاداً .

ومما لا نزاع فيه أن المهدى ودعاته كانوا يعملون على أن يحل المهدى من قلوب رعاياه أسمى مكانة ، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيراً من الصفات التى تحوطه بهالة من التقديس وأسرف الدعاة فى ذلك ، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض : هو المهدى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحجة الله على خلقه ، ويقول بعضهم لبعض : هو رسول الله ، ويقول

(١) ابن حماد : أخبار بنى عبيد وسيرتهم ص ١٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ .

بعض لبعض آخر : « هو الله الخالق الرازق[1] » .

ويرى ابن الأثير[2] أن عبيد الله حاول نشر المذهب الإسماعيلى قسرا بين الناس ، فيقول : « وأمر عبيد الله يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى مذهبهم : فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أبى حبس ؛ فلم يدخل فى مذهبهم إلا بعض الناس ، وهم قليل ، وقتل كثيراً ممن لا يوافقهم على قولهم » . ويرى عبيد الله أيضاً بأنه قتل جماعة من العلماء السنيين لم يعترفوا بأنه رسول الله .

وإذا كانت هذه نظرة العلماء السنيين إلى عبيد الله ، وعلاقته المذهبية برعاياه السنيين ، فإن المراجع الإسماعيلية تؤكد غير ذلك ، وتبين أن المهدى وغيره من الخلفاء الفاطميين كانوا يسيرون وفق الشريعة الإسلامية ، على ما أنزل الله ، وشرعة الرسول ، دون زيغ ، ويضربون الأمثلة الكثيرة التى تنقض دعاوى السنيين[3] .

وهذا من غير شك يبطل ما أتى به السنيون فى الطعن على عبيد الله ، بل إن الإسماعيلية يرون أنه أنقذ العالم بإزالة الضلال ، ونشر الدين الحق ؛ لأنه « استأنف دعاء جديداً إلى الله ، لما غيرت السنن ، وكثرت البدع ، وتغلب أئمة الضلال ... فلما أظهر الله بالدعاء الأئمة ما وهدم به من ظهور مهديهم ، احتاج أن يدعوهم دعاء جديداً ، كما ابتدأهم صلى الله عليه وسلم بالدعاء أولا »[4] .

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإسماعيلية يرون أن مذهبهم إنما قام ليحل محل الإسلام ، حتى قالوا فى عبيد الله المهدى : إنه « قائم الزمان ... الذى يجمع الله له أمر العباد ويظهره على الدين كله[5] » . ولو أخذنا بما أورده هؤلاء الإسماعيلية فى المهدى ، لكان كثير مما وصف به السنيون المذهب الإسماعيلى غير صحيح . لكن ينبغى أن نفهم أن كتابى المجالس والمسايرات ، وشرح الأخبار وغيرهما ، هى من كتب الظاهر

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) الكامل ج ٨ ص ١٨ .
(٣) النعمان : المجالس والمسايرات (مخطوط) ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ .
(٤) كتاب شرح الأخبار (نشره إيفانو) ص ١ .
(٥) المصدر نفسه ص ٧ .

Exoteric Works التي تتفق مع التشريعات السنية ؛ ولا يبعد أن يكون كثير مما ذهب إليه السنيون صحيحاً ، كما لا يبعد أيضاً أن يكون الحال على عكس ذلك في كتب الباطن Esoteric Works . وخير مثل لذلك ما نقرؤه في مخطوط « عقيدة الإسماعيلية » الذي نشره جويار ، فقد وردت فيه فصول قيمة عن حقيقة المذهب الإسماعيلي ، وعلى الأخص ما أورده عن تأليف المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن كثيراً من كتب الإسماعيلية التأويلية الرمزية ، تدل على أن كتب الظاهر الإسماعيلية ، إنما وضعت للرد على السنيين ، وأنها كثيراً ما تتغاضى عن ذكر حقيقة المذهب الإسماعيلي .

ومن أهم ما ترمي إليه الدعوة الإسماعيلية ، المحافظة على المذهب الإسماعيلي ، ثم مناصرة الدولة الفاطمية[1] ؛ وهذا يحملنا نعتقد أن المذهب الإسماعيلي قد نهض على يد الفاطميين نهضة بعيدة كل البعد عن ذلك الروح الوثاب الذي أوجده عبد الله بن ميمون وأبناؤه في جماعة الإسماعيلية : فبينما يرى الفاطميون ، وعلى رأسهم عبيد الله ، استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة ، كان مؤسسو المذهب الإسماعيلي الأوائل ، أئمة وحججاً ، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم العباسيين ، وبسط نفوذها على أنقاض دولتهم ، وذلك بحمل السيف ، وإراقة الدماء ، وإذاعة عقائد المذهب الإسماعيلي في صراحة مطلقة . وقد سار القرامطة على هذه السياسة بعد قيام الدولة الفاطمية نفسها ، مخالفين في ذلك سياسة عبيد الله المهدي ، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، تلك السياسة التي كانت تقوم على الدهاء والمكر ، مما حدا بعض المؤرخين على أن يعزو أسباب النزاع الذي قام بين القرامطة والفاطميين إلى هذا الأمر وحده .

وإذن فقد رأى عبيد الله بعد أن أخفق في تعميم مذهبه بين رعاياه ، ونشر مبدأ تقديس لأئمة بين المغاربة خاصة ، أن لا ينشر خصائص الدعوة الإسماعيلية بين العامة ، كما رأى وجوب إخفاء حقيقة مذهبه ، والاعتماد على هذه المدارس التي أطلق عليها اسم مدارس الدعوة ، لبث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الأشياع سراً ، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أشياعه ، لا بينه وبين رعاياه عامة ، حتى

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p. 366.

تظل زعامته عليهم قائمة ، ويظل المذهب الإسماعيلي رائجاً بينهم . وبعبارة أخرى ، بدأ عبيد الله بإنشاء مدارس الدعوة ، في تنفيذ سياسته المزدوجة ، حتى يظهر أمام رعاياه ، علويا صريحاً يأخذ بناصر العلويين ، ويبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه في الوقت نفسه ، ويشجع هذا المذهب سراً عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال مع الأشياع البعيدين خاصة .

وإنما فعل عبيد الله ذلك ، لأن المغاربة وعامة أهالي شمالي إفريقية كانوا ، كما يقول دوزي[1] ، أصعب مراساً من المشارقة في فهم أسرار المذهب الإسماعيلي . فكان يتعذر عليهم فهم تأويل القرآن والحديث والفقه ومظاهر السكون على أساس تأويل الإسماعيلية ؛ فلا يستطيعون مثلا أن يفهموا بأن الشيطان المقصود بقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر[2]) هو عمر بن الخطاب . وأن « الإنسان » هو أبو بكر ، وأن معنى « اكفر » : لا تقل بإمامة علي بن أبي طالب ، كما لا يستطيعون أيضاً فهم قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)[3] ، بأن هناك موتا عرضيا وموتا أبديا ، وأن الموت العرضي يقصد به عدم نشاط الحجج مع وجود الإمام الظاهر . وأما الموت الأبدي فهو عدم الهداية إلى المذهب الإسماعيلي ، إلى غير ذلك . كما لا يستطيعون فهم عدد الحجج بعدد فقرات الظهر (١٢) ، ولا عدد الأئمة بعدد فقرات الرقبة (٧) وفتحات الوجه ، إلى غير ذلك مما لم يكن يألفه المغاربة . وهذا وحده يفسر لنا لماذا أمحى المذهب الإسماعيلي في شمال إفريقية ، على حين ظل قويا منتشراً في بلاد المشرق ، وانبعث اليوم على يد أغا خان وأنصاره الأغاخانية أو الخوجات ، وعلى يد البُهرة أنصار الإمام الطيب ابن الخليفة الآمر وأبنائه .

على أن هناك أمراً آخر قد حدا بعبيد الله المهدي إلى إيجاد مدارس الدعوة ، ذلك أنه بقيام الدولة الفاطمية وتربعه على عرشها ، انتهى دور من أدوار التاريخ الإسماعيلي ،

---

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. iii. p. 124.

(٢) سورة الحشر ٥٩ : ١٧ .

(٣) سورة الزمر ٣٩ : ٤٢ .

هو دور الستر ، و بدأ دور آخر هو دور الظهور . ولكل دور من هذين الدورين نظامه الخاص فى نشر الدعوة ، كما أن لكل منهما فلسفته الخاصة : فبينما يدعو الدعاة فى الدور الأول لإمام مستور ، إذا بهم يدعون فى الدور الثانى لإمام ظاهر ؛ و بينما هم فى الدور الأول يثيرون حماسة أشياعهم لنصرة هذا الإمام المستور بحد السيف ، حتى يظهر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، إذا بهم فى دور الظهور يحوطونه بهالة من التقديس والإجلال ، ولا يلجئون إلى إثارة حماسة الأشياع على حمل السيف إلا عند الضرورة القصوى . ولن يستطيع عبيد الله المهدى أن يحوّل أشياعه عن تلك السياسة إلا عن طريق مدارس منظمة ودعاة مرنوا على هذا .

ومهما يكن من شىء فإن مدارس الدعوة قد راجت فى المهدية — حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة — فى عهد عبيد الله ، ثم راجت فى المنصورية فى عهد حفيده المنصور ، ثم فى القاهرة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ؛ وعرفت هذه المدارس فى مصر باسم « مدارس الحكمة » ، التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس كانت دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله ؛ ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة ، بل تجاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسة ، أو بحارها وجزرها ، كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين . وكانت الدولة الفاطمية تهتم فى هذه المدارس بتخريج دعاة ينبثون فى عامة البلاد الإسلامية لينشروا المذهب الإسماعيلى بين الناس ، ويكونوا أداة اتصال بين رياسة الدعوة والدولة و بين أشياعهم المسيحيين . وليس معنى ذلك أنه لم تكن ثمة مدارس فى الدور القداحى ، أى دور الستر ، بل كانت هناك مدارس كثيرة فى سلمية والأهواز وغيرهما من نواحى العالم الإسلامى . والفرق بين هذين النوعين من المدارس هو أن الأولى كانت تتجه دائماً نحو السياسة الهدامة ؛ فكانت تعمل على قلب حكومة بغداد وشغلها عن الإمام الإسماعيلى المستور . وأما المدارس الفاطمية فقد أخذت تندفع فى تيار السياسة العسكرية ، و بعبارة أصح ، كان الغرض الأول الذى ترمى إليه تعاليم تلك المدارس، هو مناصرة الفاطميين والدفاع عنهم . ونرى ذلك واضحاً جلياً فى مؤلفات الدعاة فى هـذا العصر . ويرى الدكتور حسين الهمدانى أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الدعوة الإسماعيلية فى

ذلك الحين ، كانت ترمى إلى عبادة الأئمة ورؤسائها ، وإنما كانت على العكس ترمى إلى وضع نظام دينى على رأسه أهل البيت[١].

وفى الحق أن عبيد الله وأنصاره ، من كبار الإسماعيلية خاصة ، رأوا أن يروجوا تلك الحركة الإصلاحية الخطرة ، التى تنادى بالإصلاح الشامل ، والتى انتشرت فى معظم بقاع العالم الإسلامى وخاصة الشرق منه . وتتصف هذه الحركة — على ما يقوله ماسنيون[٢] — من الناحية العلمية بانتشار اصطلاحات وتعاليم وآراء هلينية ، كما تتصف من الناحية السياسية بنشر آراء سرية تنادى بأحقيـة العلويين والغض من شأن العباسيين ؛ وأما من الناحية الدينية فتتصف باستخدام تعاليم ذات طابع خاص يتفق مع اعتقادات جميع الناس . وكان هذا الاتجاه الدينى السياسى الأدبى من أخطر الأشياء على الإسلام والمسلمين فى القرن الرابع الهجرى خاصة[٣] .

وقد اعتمد عبيد الله المهدى فى ترويج تلك الحركة الإصلاحيـة الشاملة على مدارس دعوته التى قامت بمهمتها خير قيام ، والتى أنجبت فيما بعد دعاة من الأفذاذ ، مثل جعفر بن منصور اليمن ، صاحب المؤلفات الـكثيرة فى الدور المغربى ، وأبى حاتم الرازى وغيره ممن ذكرنا . والخلاصة أن عبيد الله الفاطمى بذر بذور مدارس الدعوة الفاطمية الجديدة ، ثم جنى خلفاؤه ثمار ما بذر .

(ب) فى عهد بنى زيرى :

رحل الفاطميون إلى مصر بعد أن قضوا نحوا من ستين سـنة فى بلاد المغرب يوسعون رقعة أملاكهم وينشرون مذهبهم ويبثون دعوتهم . وقد تركوا أمر هذه البلاد لبنى زيرى ، فترسّموا خطاهم فى مناضلة أعدائهم من الأمويين والزناتيين من ناحية ، وفى إعلاء كلمة المذهب الإسماعيلى من ناحية أخرى . ولا غرو فقد ظل الزيريون يدينون بالتبعية للخليفة الفاطمى ، باعتباره الإمام الإسماعيلى الذى تجب طاعته ؛ فظفر المشارقة[٤] وأنصار الدعوة

(١) Some Unknown Ismaili Authors (JRAS, 1933), p. 366.

(٢) عجب نامه ص ٣٢٩ .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٥٧ — ٢٦٣ .

(٤) أطلق أهل المغرب على الإسماعيلية اسم المشارقة نسبة إلى الداعى أبى عبد الله الشيعى الذى كان يلقب بالمشرقى لأنه جاء من المشرق ، فسمى أنصاره المشارقة .

وتأييدهم وشد أزرهم وتسخير الجند والشرطة فى خدمتهم . وكان الأمير نفسه يحضر مجالس هؤلاء الدعاة ويستمع إلى محاضراتهم ويرقب جهودهم[١] .

ويذكر ابن عذارى[٢] أن أحد هؤلاء الدعاة ، ويدعى أبا الفهم ، خرج عن المهمة التى أسندت إليه ، فاتصل بالثائرين من كتامة على المنصور بن بلكين ، رغبة فى الإبقاء على السيادة الفاطمية ، ومحاولة صرف المنصور عما كان يرمى إليه من الظفر بالاستقلال . فقد أثر عن المنصور أنه قال : « وما أنا فى هذا الملك مَنْ يُولَّى بكتاب ويُعْزل بكتاب ، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْير »[٣] . ويبدو أن المنصور قد حقق أمنيته ، فقد قضى على ثورة كتامة ، ووضع حداً لتدخل الفاطميين ، وأخذت الدولة الزيرية تبرز شخصيتها وتتخذ لنفسها سياسة مغربية خالصة[٤] .

وعلى الرغم من أن باديس بن منصور (٣٨٦ — ٤٠٦ / ٩٩٦ — ١٠١٦) ترسم خطا أسلافه فى إعلان ولائه للخليفة الفاطمى وعمله على نشر المذهب الإسماعيلى ورفع لوائه ومحاربة أهل السنة وتسخير الجند والشرطة فى النيل من فقهاء المالكية والتنكيل بهم ، على الرغم من هذا نشب النزاع بينه وبين الحاكم بأمر الله بسبب تدخل هـذا الخليفة فى شئون طرابلس ومحاولة انتزاعها من الزيريين ، وهكذا ساءت العلاقة بين هذا الخليفة والأمير الزيرى . فقد كان ولاء الزيريين للمذهب الإسماعيلى يتوقف إلى حد كبير على علاقتهم بالخلافة الفاطمية ، فكلما سادت المودة أمعن الزيريون فى إخلاصهم وولائهم . وإذا ساءت العلاقة فتر ولاء الزيريين ولم يشددوا النكير على أهل السنة أو يهتموا بنشر المذهب الإسماعيلى كما كانوا من قبل .

وكان من أثر سياسة الحاكم بأمر الله أن بدأ أهل السنة فى القيروان ينشطون فى نشر دعوتهم سراً ، وكانت العامة تفد إلى مساجدهم ومجالسهم للاستزادة من فقه الإمام مالك ، كل ذلك يجرى فى غفلة من الدولة ومن المشارقة الذين كانوا يتربصون الدوائر بأهل السنة .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب (طبعة مدريد) ج ٢٢ ص ١١٨ .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٧٢ .

وكان من مظاهر ازدياد نفوذ أهل السنة فى عهد باديس أن عهد إلى فقيه سنى يدعى أبا الحسن ابن على الرَّجَّال بتربية ولى عهد باديس وتنشئته[1]. وكان أبو الحسن سنيا مالكى المذهب، معروفا بالورع والتقوى والتقشف والتفقه فى الدين[2]. فأخذ يحبب إلى الأمير الصغير عقائد المذهب السنى، ويثير كراهته للمذهب الإسماعيلى وللخلفاء الفاطميين. وكان اختيار هذا الفقيه لتربية ولى العهد فوزاً بعيد المدى للمذهب السنى فى إفريقية، ظهر أثره فى مذبحة الشيعة بإفريقية التى وقعت فى عهد المعز بن باديس فى سنة ٤٠٧ هـ[3]. فقد خرج المعز بعد أن عقدت له البيعة إلى المسجد الجامع بالقيروان فى موكب حافل يحف به الجند من السودان وفرسان صنهاجة وكبار رجال دولته. وقد روى المؤرخون أن جواده كبا به، وأنه استنجد بالشيخين أبى بكر وعمر. كما قيل إنه سمع طائفة من المشارقة يسبون الصحابة فقال: رضى الله عن الصحابة. فما كادت العامة تسمع ذلك القول حتى انفجر غيظهم المكبوت وساروا إلى الحى الذى ينزل به المشارقة فى القيروان فانقضوا عليهم وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، حتى قيل إنهم قتلوا ثلاثة آلاف[4]. وأخذ الفقهاء السنيون يحرضون العامة على الأخذ بثأرهم، واندلع لهب الفتنة فعم أغلب مدن إفريقية. فنكل بالمشارقة فى المهدية[5] وفى المنصورية وقابس وغيرها[6].

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل الأسباب التى أدت إلى مذبحة الشيعة فى إفريقية. وذكر بعض أن ثمة نزاعا نشب بين صنهاجة وبين الجند السودان وأن هذا النزاع لم يلبث أن انتقل إلى العامة، واندلع لهب الفتنة ونال المشارقة منه ما نالهم من الأذى[7]. وذكر بعض آخر أن عامل القيروان كان يحقد على الأمير الزيرى ويريد أن يوقع بينه وبين الفاطميين ويظهر هذا الأمير بمظهر المتقاعس عن نصرة الدعوة وحماية أرواح المشارقة. ولما

---

(١) ابن رشيق : العمدة (القاهرة ١٩٠٧ م) ج ١ ص ٢

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٢ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٢ .

(٦) الدباغ : معالم الإيمان ج ج ٣ ص ١٩٢ .

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٥ .

رأى العامة يغلى مرجل غضبهم تغافل عنهم وتركهم يتمادون فى غيهم ويمعنون فى عدوانهم[1].

ومهما يكن من شىء ، فإن هذه المحنة قد نالت من الإسماعيلية بالمغرب ، فأضعفت شأنهم ، وفرقت كلمتهم ، وشتتت شملهم ، فى الوقت الذى علت فيه كلمة أهل السنة واشتد ساعدهم ، بانضمام الأمير إليهم وتشجيعه لهم . ويبدو أن مذبحة القيروان لم تقض على الدعوة الإسماعيلية بالمغرب قضاء مبرما فى أوائل عهد المعز بن باديس . فقد كانت الدولة الزيرية لا تزال من الناحية الرسمية تدين بالطاعة الفاطميين . يدل على ذلك أن هذه الدولة قد حرصت على حماية المشارقة وتجنيبهم شر الفتنة والحيلولة بين أهل السنة وبين القضاء على هؤلاء المشارقة الذين اعتصموا بقصر المعز[2] . كما نكل المعز بأهل السنة الذين حرضوا على هذه الثورة وأشعلوا نارها . فقبض على الشيخ أبى على الحسن بن خلدون ، ونكل به[3] . كما أرسل الخليفة المستنصر الفاطمى إلى المعز بن باديس يطلب إليه أن يحمى المشارقة ، وأن يوضح الأسباب التى أدت إلى وقوع هذه الكارثة ، فألقى المعز اللوم على العامة ، محاولا أن يبرئ نفسه من المسئولية[4] .

ومما يفسر إبقاء المعز على مظاهر التبعية للخليفة الفاطمى ما ذكره الدباغ من أن المعز أبقى على الخطبة للفاطميين مخافة أن يصيب حجاج بيت الله من المغاربة مكروه ، فروى أن المعز قال : « ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين »[5] .

ذلك أن المعز وإن كان قد أظهر الولاء للفاطميين ، كان يبطن العطف على أهل السنة. فقد أضاف الدباغ أن المعز أرسل إلى فقيه من أئمة أهل السنة بالقير وأن يسأله الفتوى « فى هذه الطرز التى فيها أسماء الفاطميين وغيرها مما يلبس ، أو يُصَلَّى فيها ؟[6] » . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على أن المعز بدأ يفكر فى التخلص من هذه المظاهر الرسمية ، بعد أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٢٢ .

(٢) ابن أبى دينار : المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٨١ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٩٣ .

(٤) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٧ .

(٥) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٦) المصدر نفسه

اشتد لوم الفقهاء على إبقائه عليها . فلم يجد بدا من أن يقطع الخطبة للفاطميين ، وأن يدخل في طاعة العباسيين . فكان إقدامه على هذا الأمر نهاية للدعوة الإسماعيلية بالمغرب . فقد خرّب المعز دور الإسماعيلية ومدارسها بالقيروان وغيرها من مدن إفريقية ، وانقض على المشارقة فنكل بهم وشردهم فى البلاد . وضاعت جهود دعاة الإسماعيلية والأئمة الفاطميين سدى[1] .

وقد تم قطع الخطبة للفاطميين على مرحلتين : المرحلة الأولى فى سنة ٤٣٥ هـ حين أقيمت الخطبة للعباسيين بمسجد القيروان للمرة الأولى ، والمرحلة الثانية فى سنة ٤٤٠ هـ حين لعن الفاطميون على منابر البلاد ، وأمر المعز بن باديس بلبس السواد شعار العباسيين[2] .

ومن الأسباب التى أدت إلى قطع الخطبة للفاطميين وانتصار أهل السنة بإفريقية والمغرب ، أن المعز بن باديس انصرف إلى تأييد أهل السنة بتأثير مربيه أبى الحسن بن الرجّال . أضف إلى ذلك ضعف الخلافة الفاطمية بسبب ما انتاب مصر من فتن ومجاعات صرفت عناية الفاطميين عن الاهتمام بشئون بلاد المغرب . هذا إلى ما ذكره بعض المؤرخين من أن الوزير بن الفاطميين الجرجرائى واليازورى قد عملا على إذكاء نار العداء بين الخليفة المستنصر الفاطمى وبين المعز بن باديس وتسببا فى هذه القطيعة[3] ، على الرغم من أن بعض المؤرخين فسر اتصال هذين الوزيرين بالمعز بن باديس بأنهما كانا يحاولان أن يرداه إلى حظيرة المذهب الإسماعيلى بالحسنى ، ويذكراه بما كان للخلفاء الفاطميين من أياد على آبائه وأجداده[4] . ولما عجزت الخلافة الفاطمية عن التدخل المباشر فى شئون المغرب ، سخرت عرب بنى هلال فى تحقيق مآربها والانتقام من المعز بن باديس كما تقدم .

وصفوة القول إن الدعوة الإسماعيلية قد قضى عليها فى بلاد المغرب فى سنة ٤٤٣ هـ . وعلى الرغم من أن العرب قوضوا ملك بنى زيرى ، لم يفلحوا فى رد المغرب إلى طاعة الفاطميين .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٥ .

(٢) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٨٠ .

(٣) ابن أبى دينار : المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٨٧ .

(٤) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome iv. pp. 220

٢ — الدعوة الفاطمية فى الدور المصرى

(١) مراتب الدعوة :

رأينا من قبل أن ابن حوشب (منصور اليمن) بعث الدعاة لنشر عقائد المذهب فى اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب[١] ، وأن عبيد الله المهدى استطاع أن يفر من سلمية إلى بلاد المغرب بمعونة دعاة ابن حوشب فى مصر ، وأن يفلت من أيدى عمال العباسيين أنفسهم وهو فى طريقه إلى المغرب . ونستطيع أن نتبين مدى نشاط الخلفاء الفاطميين لنشر دعوتهم فى مصر مما أورده الكندى[٢] عن الحملة الفاطمية الأولى على مصر فى سنة ٣٠١ هـ ، من أنه قد أصبح فيها فى ذلك الوقت كثير من الأهلين تأثروا بالدعوة الفاطمية وعطفوا عليها ، ووعدوا بنصرة الفاطميين ، بل لقد دفعوهم إلى غزو هذه البلاد .

كان الإسماعيلية يخفون ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه ، ويتظاهرون أمامهم بأمور أخرى تحبب إليهم المذهب الإسماعيلى ، الذى يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . لذلك ابتدعوا دعوة منظمة قسموها منذ نشأتهم إلى سبع درجات ، ثم أصبحت تسعا فى أيام الفاطميين . وهاك ملخص هذه الدرجات :

الدرجة الأولى : كان عبد الله بن ميمون ودعاته يعاملون الناس كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه ، وكانوا يجتذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين ، وإظهار بعض مشكلات القرآن والمسائل الشرعية والطبيعية . فإذا وجد الداعى أن المدعو ملم بما يقوله سلم له ، وإلا تركه يعمل فكره فيما يلقيه عليه من الأسئلة وقال له : « يا هذا إن الدين لمكتوم وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون . ولو علمت هذه الأمة ما خصص الله به الأئمة من العلم لم تختلف » . وبهذا يثير الداعى حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم . فإذا آنس اطمئنانا إلى كلامه قال له : إن سبب ما نزل بالمسلمين من تفريق الكلمة ذهابهم عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ... ولكن الناس صاروا إلى أنواع الضلالات . فإن

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧ .

(٢) كتاب الولاة ص ٢٧٦ .

دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحلي ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ، ولكنه صعب مستصعب وعلم خفي غامض ، وهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى . ومن الأسئلة التي يوجهها الداعي إلى المدعو في هذه الدرجة :

ما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن ؟[1] وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج[2] وهاروت وماروت[3] وأين مستقرهم ؟ وما سبعة أبواب النار[4] وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم الثابتة في الجحيم ؟[5] وما معنى « الم »[6] و « المص »[7] ؟ وما معنى « كهيعص » ،[8] « حمعسق[9] » ؟ ولم جعلت السموات سبعا والأرضون سبعا[10] والمثاني من القرآن سبع آيات ؟[11] ولم فجرت العيون اثنى عشر عينا[12] ، ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ؟[13] ثم يقول الداعي لمن حوله: فكروا أولا في أنفسكم . أين أرواحكم ؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها ؟ وما أول أمرها ؟ وما معنى قول رسول الله

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى في فاتحة الكتاب (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم) .

(٢) يظهر أنهم قبائل الهون Huns ، وقد ذكر يأجوج ومأجوج في قوله تعالى (إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) — سورة الكهف ١٨ : ٩٤ .

(٣) يشير إلى ما ورد في سورة البقرة (٢ : ١١٢) وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت)

(٤) يشير إلى ما ورد في قوله تعالى في وصف جهنم في سورة الحجر ١٥ : ٤٤ (لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم) .

(٥) وقد وصفها الله تعالى في قوله : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فالئون منها البطون) — سورة الصافات ٣٧ : ٦٣ — ٦٦ .

(٦) تبدأ بعض السور بكلمة الم مثل البقرة وآل عمران (٢ ، ٣) .

(٧) يشير بذلك إلى أول سورة الأعراف (رقم ٧)

(٨) يشير بذلك إلى أول سورة مريم (رقم ١٩)

(٩) يشير بذلك إلى أول سورة الشورى (رقم ٤٢) .

(١٠) يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الطلاق ٦٥ : ١٢ (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) .

(١١) يشير إلى أن فاتحة الكتاب تتكون من سبع آيات .

(١٢) يشير بذلك إلى انبجاس الماء لبني إسرائيل من اثنى عشرة عيناً ، سورة الأعراف ٧ : ١٥٩ .

(١٣) يشير بذلك إلى قوله في سورة التوبة ٩ : ٣٦ (إن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً)

صلى الله عليه وسلم . خلقت حواء من ضلع آدم ؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات ؟ ولم كان في وجهه سبع ثقب وفي سائر بدنه ثقبان ؟ ولم كان في ظهره اثنتا عشرة عقدة ؟ وفي عنقه سبع عقد ؟ ولم جعل عنقه صورة ميم ويداه حاء وبطنه ميما ورجلاه دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد ؟ ولم جعلت قامته إذا انتصب صورة ألف ، وإذا ركع صارت صورة لام ، وإذا سجد صارت صورة هاء ، فكان كتابه يدل على الله . ولم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا وأعداد أسنانه كذا والأعضاء الرئيسة كذا ؟

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل هذه الرموز ، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة ، وأن يدافع عنها ، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام . وفي ذلك يقول المقريزي[١] « أليس الله تعالى يقول : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا[٢] . فإذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب عنها ، قال له حينئذ : لا تعجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ويجعل غرضا للعب . وجرت عادة الله وسنته في عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده . ولذلك قال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً)[٣] ... وقال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً)[٤] .

ومن أمثال هذا ، فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك أن لا تفشي لنا سراً ، ولا تظاهر علينا أحداً ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحاً ، ولا توالي لنا عدوا . فإذا أعطى العهد قال له

---

(١) خطط ج ١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .

(٢) سورة الإسراء ١٧ : ٧٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ : ٦

(٤) سورة النحل ١٦ : ٩١ — ٩٢ .

الداعى : أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها . والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى . فإن امتنع المدعو أمسك عنه الداعى ، وإن أجاب وأعطى نقله إلى الدعوة الثانية .

الدرجة الثانية : وإذا تم للداعى ما أراد ، دخل بالطالب فى الدرجة الثانية ، ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدى إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم يكاشف المدعو بقوله إن الناس قد ضلوا ، لأنهم لم يأخذوا عن أئمة نصبهم الله لهم . ويستدل على ذلك بأمور مقررة فى كتب الإسماعيلية حتى يتثبت ذلك فى نفسه . فإذا ثبت نقله الداعى إلى الدرجة الثالثة ، وبذلك يضمون أساس مبدأ الإمامة فى نفس المدعو ، فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم .

الدرجة الثالثة : وفيها يكشف الداعى عن العقيدة بأن الأئمة سبعة ، وأن الإمام الحقيقى هو السابع الذى يعلم كل رموز الدين وسرائره . ويستدل بذلك على أن الله جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السماوات سبعاً ، وجعل الأرضين سبعاً ، وهؤلاء الأئمة هم أيضاً سبعة أولهم على ، ويليه الحسن ، فالحسين ، فعلى زين العابدين ، فمحمد الباقر بن زين العابدين ، فجعفر الصادق ، فإسماعيل بن جعفر . وبعضهم يتخطى إسماعيل ويلحق بالإمامة ابنه محمد . وهذا الإمام السابع هو صاحب الزمان ، وأن عنده علم الباطن ، وعلم التأويل ، وأنه يعرف الأسرار ، وأن دعاته هم الوارثون . عند ذلك يذهب اعتقاد المدعو فى الأئمة الاثنا عشر (من بين طوائف الشيعة) ، لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رووا . فإذا انقاد المدعو لما ألقاه عليه الداعى فى هذه الدرجة نقل إلى الدرجة الرابعة .

الدرجة الرابعة : وإذا وصل الطالب إلى هذه المرتبة اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين . وفى ذلك يقول الداعى : حيث أن عدد الأئمة سبعة ، كذلك عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة[1] . ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويكون ظهيراً له فى حياته ، وخليفة له بعد وفاته[2] . وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو

---

(١) ويسمونهم النطقاء ، ويرون أنهم حلولات العقل الكلى La Raison Universelle

(٢) ويسمى الأساس أو السوس ، وهو عند الإسماعيلية حلول النفس الكلية Ame. Universelle

المساعدون هم الأساس والصامتون[1] لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم . ولا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاد دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبي ينسخ شرع من مضى من قبله ، ويكون الخلفاء من بعده ، ثم يكون بعدهم نبي ناسخ ، يقوم من بعده سبعة صمت[2] أبداً . وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التي كانت قبله ، ويكون صاحب الزمان الأخير .

ومعنى ذلك أن النبي الذي يأتي بشريعة هو الناطق : فالناطقون سبعة هم الأنبياء . ولـكل ناطق أو نبي سوس وستة أصحاب صمت . مثال ذلك آدم جاء بتشريع فهو نبي ناطق وصاحبه وسوسه ابنه شيث الذي يليه ستة أئمة صمت ؛ ونوح ناطق أتى بشريعة نطق بها ، وصاحبه وسوسه ابنه سام ويليه ستة صمت ؛ وإبراهيم الخليل نبي ناطق صاحبه وسوسه ابنه إسماعيل ويليه ستة صمت ؛ وموسى نبي ناطق ، صاحبه وسوسه أخوه هارون الذي يليه ستة أئمة صمت ؛ وعيسى نبي ناطق صاحبه وسوسه بطرس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي ناطق أتى بشريعة هي الإسلام ، وصاحبه وسوسه علي بن أبي طالب . وإنما يقصد الداعي من وراء ذلك أن يغير عقيدة المدعو ، ويدخل في نفسه أنه لا وحي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجعله يعتقد أن الوحي مستمر مع توالي الأجيال . ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لاتمت للإسلام بشيء ، حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد ابن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى أو بمنزلة علي من محمد .

الدرجة الخامسة : وفي هذه المرتبة يقول الداعي للمدعو : إن لـكل إمام قائم ، حججاً[3] متفرقين في الأرض عددهم اثنا عشر رجلا . ويستدل على ذلك بأن البروج اثنا عشر ، وأن نقباء بني إسرائيل اثنا عشر ، ونقباء النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر . ويستدل على أن عدد الأئمة سبعة بأمور منها أن الله تعالى خلق النجوم التي هي قوام العالم سبعة ،

---

(١) يعني الأساس ويليه ستة أئمة صامتون .

(٢) أولهم الإمام الأساس ويليه ستة أئمة صمت .

(٣) أحدث الإسماعيلية في هذه الدرجة مبدأ الحجج المشهور ، وأعطوا الحجة من التقديس ما كانوا يعطونه للإمام . ومن أشهر حجج الإسماعيلية عبد الله بن ميمون القداح — حجة محمد بن إسماعيل ، وناصر خسرو (ت ٤٨٠ هـ) حجة المستنصر ، والحسن الصباح (ت ٥١٨ هـ) حجة المستنصر وابنه نزار . وقد قام كل من هؤلاء بدور هام في تاريخ الإسماعيلية .

وجعل أيضاً السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً . ثم يقول الداعى للمدعو إن شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ستنسخ . وإذا كان فارسياً ذكره بإذلال العرب له ، وحثه على التخلص من نيرهم ، وإن كان عربياً أثار حفيظته على الفرس ، وإن كان يهودياً أو نصرانياً حدثه بما يوافق عقيدته وميوله .

الدرجة السادسة : وفيها يفسر الداعى معانى شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك ، ويقول إن هذه الفروض وضعت لتشغل العامة عن خلافاتهم وتبعدهم عن الفساد . وإذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول ، ضعف اعتقاده فى الدين وأركانه . وإذا ينتقل الداعى إلى الكلام فى الفلسفة ، فيقول إن فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل فى شرح كل المسائل . وعلى كل مسلم أن يحكم العقل فى كل شىء ؛ وبذلك يحبب إلى نفسه أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث وغيرهم من الفلاسفة الذين يعتمدون على تحكيم العقل . وإذا أخذ المدعو بهذه الآراء أصبح أهلا للنقل إلى الدرجة السابعة . ولم يتعد هـذه المرتبة إلا القليل ، حتى إن كثيرين من مشهورى دعاة الإسماعيلية كأبى عبد الله الشيعى لم يتجاوزها[1] .

الدرجة السابعة : وفيها يعلم المدعو أن الناصب للشريعة ، وهو النبى ، لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب يكون أحدهما الأصل ، ويكون الآخر صدراً له . ويستدل الداعى على ذلك بقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[2]) إشارة إلى الأول فى الرتبة ، والآخر هو القدر الذى قال فيه (إنا كل شىء خلقناه بقدر[3]) ، كما يستدل أيضاً بقول الفلاسفة : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد . وبذلك يؤول الداعى هذه الآيات تأويلا يناسب ميول المدعو .

الدرجة الثامنة : وفيها يقول الداعى للمدعو إن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق . وإن الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء ، وإن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس . فإذا اعتقد المدعو بذلك قال له الداعى :

(١) De Sacy : Recherches sur l'initiation à la Secte des Ismaeleens, Journal Asiatique, 1824, p. 326.

(٢) سورة يس ٣٦ : ٨٢ .

(٣) سورة القمر ٥٤ : ٤٩ .

إن معجزة النبى الصادق الناطق ليست غير أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ... فينتظم بذلك النبى شريعة يتبعها الناس ، ثم يقرر الداعى أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها غير مايفهمه العامة وما يتبادر إلى الذهن ، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها ، من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة فى كتبهم . وعلى ذلك فليست معجزة النبى سوى أشياء تُنظم بها سياسة الجمهور . وإنما يقصد الداعى بذلك إزالة كل اعتبار عن كل مايسمى نبوة ولم يعد للإسلام أى تأثير على نفسه[1] .

الدرجة التاسعة : وإذا انتقل المدعو إلى الدرجة التاسعة ، أصبح جديراً بالتعمق فى أصول المذهب الإسماعيلى . عند ذلك يحيله الداعى إلى كتب الفلاسفة وما جاء فيها عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وعن العلم الإلهى ، واعتقد أن الوحى هو صفاء النفس ، وأن النبى يجد فى فهم ما يلقى إليه ويتنزل عليه ، فيظهره للناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، ذلك الكلام الذى ينزل به النبى شريعته . فكأن النبى لا يعمل شيئاً ، إذ أن الوحى ينزل عليه فيظهره للناس ، وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع ، إنما هم لسياسة العامة ، على حين أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . وهكذا يبرهن دعاة هذا المذهب لتلاميذهم ومريديهم أن ظهور الإمام بظهور أمر الله ، وأن نهيه إنما يكون على لسان أوليائه الذين هم الدعاة أنفسهم ، والذين يصح لهم أن يحلوا محل الأنبياء ، ويجتهدوا حتى يصلوا إلى منزلة الناطق[2] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الدرجات كانت رائجة فى دورى الستر والظهور ، وأن الفاطميين أولوها كثيراً من العناية ، فعقدوا لها المجالس فى القصور والمكتبات والمساجد على ما سنرى .

(ب) داعى الدعاة :

وقد أسندت رياسة الدعوة الإسماعيلية فى عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعى الدعاة » ؛ وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه . وكثيراً ما كانت وظيفتا

(١) Goldziher : le Dogme et la Loi de l'Islam p. 204

(٢) انظر هذه الدعوات التسع فى كتاب الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٩١ — ٣٩٥ ، وراجع العهد الذى يؤخذ على المدعو فى المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ ، وفى كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب النويرى : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ص ٦٥ — ٦٦ .

قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان إلى رجل واحد . ويساعد داعى الدعاة فى نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، وله نواب ينوبون عنه فى البلاد ، وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وبين أتباعه من الإسماعيلية ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند كلامه على داعى الدعاة القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان فى عهد المستنصر الفاطمى : « وتوجهت بعد ذلك إلى الموسوم بالقضاء والدعوة الذى كان باب حظنا ، ونحن بالبعد والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة[١] » .

ومن أهم أعمال داعى الدعاة رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين إما مباشرة أو بواسطة نوابه فى مصر وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها ، وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذييلها بإمضائه ، وإلقاء هذه المحاضرات بنفسه فى الأماكن المخصصة لها . ومن خصائص داعى الدعاة جمع النجوى[٢] من المؤمنين والمؤمنات (يعنى الإسماعيلية) ، وتدوين اسم من يدفع أكثر من المال المقرر . وكان يجمع فى عيد الفطر مال كثير يودع بعضه بيت المال[٣] . ولخطورة مركز داعى الدعاة ، أسند إليه الفاطميون رياسة دار الحكمة ودار العلم الملحقة بها .

ومن أشهر الذين ولوا وظيفة داعى الدعاة أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

(ج) مجالس الدعوة :

وقد خصص لداعى الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة ، هو دار العلم . وكان دعاة الإسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الإسماعيلى . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسى الدعوة فى الإيوان الكبير ، فيحاضر الرجال ،

---

(١) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١

(٢) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٩١) أن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلثا ، ومن سراة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثى دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره فى المحول ، ويعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها : بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك ، فيدخر ذلك ويفخر به .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١ .

ويعقد للنساء مجلساً خاصاً يسمى « مجلس الدعوة » ، حيث يلقنهن أصول المذهب . ذكر المقريزى ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقته : فكان لآل على مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر .

وإذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى عليه إمضاء الخليفة .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعى الدعاة مكاناً كبيراً فى القصر ؛ ففى عهد العزيز بالله الفاطمى قُلد قاضى القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة إلى مذهب آل البيت فى القصر ، كما كان أخوه الحسين فى القاهرة وأبوه أبو حنيفة النعمان المغربى فى المغرب . وقد اشتد الزحام بالناس حتى مات منهم أحد عشر رجلا . وبذل الحاكم بأمر الله جهداً كبيراً فى نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرغم كثيراً من الناس على اعتناق المذهب الفاطمى ، كما كان من كثرة دخول الناس فى هذه الدعوة أن خصص لهم يومان فى الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب .

وكان داعى الدعاة يتسلم كتب الدعوة التى تقرأ على الناس فى القصر من سلفه المباشر . أما هذه الكتب فهى من غير شك الكتب التى ألفها رجال من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى ،[1] ويعقوب بن كلس[2] ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وغيرهم من كبار دعاة الإسماعيلية . ومن أشهر هذه الكتب كتاب « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » ، وتتناول الكلام على الدروز .

(د) العقائد الفاطمية :

كان أنصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية . ويرجع

---

(١) من أشهر كتبه كتاب دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وكتاب الهمة ، وكتاب المجالس والمسايرات ، وكتاب الينبوع ، وكتاب الإيضاح ، وكتاب مختصر الإيضاح ، وكتاب أساس التأويل ، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة .

(٢) ومن أشهر كتبه الرسالة الوزيرية ، وقد نهج فيها نهج أبى حنيفة النعمان فى كتبه .

ذلك إلى أيام عبيد الله المهدى الذى كان يعتبره بعض رجال الشيعة الخالق الرازق ، كما كانت تعتقد جماعة أخرى أنه نبى . وهناك طائفة ثالثة كانت تزعم أنه النبى حقاً[1] . يدلنا على هذا ما رواه الذهبى عن ابن عبد الجبار حيث يقول : « كانت طائفة تزعم أنه الخالق الرازق ، وطائفة تزعم أنه نبى ، وطائفة تزعم أنه النبى حقيقة » .

ويستطرد الذهبى فى الكلام نقلا عن ابن عبد الجبار ، حتى يذكر أن أبا القاسم ابن عبيد الله أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الغار ومن لاذ به ، وأنه كان يكاتب أبا طاهر القرمطى ، ونصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف . وقد أثارت أفاعيل أبى القاسم هذه سخط جماعة من الخوارج ، فثاروا تحت لواء ابن كيداد[2] . هذا ما رواه الذهبى . ولكنه كان يبغض الشيعة ؛ فدس عليهم ذلك وكذب فى نسبة هذا إليهم .

إن من السهل أن نصدق أن الفاطميين كثيراً ما نقموا على السنيين . لكن ما يروى عنهم من أنهم لعنوا الأنبياء ، وأنهم أشاروا على أبى طاهر القرمطى بحرق الكعبة والمصاحف ، يكذبه بعض الكتاب الأقدمين كمسكويه (ج ١ ص ١٦٦و١٦٧) ، وهو حجة فى ذلك العصر ، وتاريخه خال من التحيز والهوى .

وقد عضد سياسة الفاطميين السابقة وبثها شعراء الشيعة الذين درسوا العلوم الفلكية التى انتهت بهم إلى نسبة بعض القوى الإلهية إلى الخلفاء . ومن ذلك نصح بعضهم للمعز بأن يقضى يوما خاصا محتجبا عن الناس ؛ لكنه ظل مختفيا تحت الأرض سنة كاملة[3] ، فاعتقد الناس أنه صعد إلى السماء ؛ وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندى كان إذا رأى سحابة فى السماء ، ترجل وقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين ! »[4] .

---

(١) الذهبى ، مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٦٩ أ

(٣) ذكر ابن زولاق أن المعز ظل مختفياً نحواً من أربعة أشهر . غير أن ذلك ينقضه ما ذكره غيره ، كابن القلانسى وابن الجوزى وابن الأثير الذين اتفقوا على أن مدة اختفاء المعز تحت الأرض كانت نحو سنة .

(٤) ذكر ذلك ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب) وابن القلانسى (ص ١٤) ، وسبط بن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك (Pocook) ، القسم الشرقى رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٨٦) ، وابن الأثير (ج ٨ ص ٢٣٩) ، وأبو المحاسن طبعة جوينبول (Juynboll) (ج ٢ ص ٤٤١ و ٤٤٢) .

وقد غلا فى ذلك فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية . وبهذا مهد ابن هانى السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التى أنشدها فى حضرة المعز ، ننقل منها هذه الأبيات :

٣١ هو علةُ الدنيا ومن خُلقت له ولعلة ما كانت الأشياء
٦٨ ولك الجوارى المنشآتُ مواخرا[١] تجرى بأمرك والرياح رُخاء[٢]
٨٦ فعنتْ لك الأبصارُ وانقادت لك الـ أقدارُ واستحييت لك الأنواء
٩٩ لا تسألنّ عن الزمان فإنه فى راحتيك يدور حيث تشاء[٣]

هذا ، ولم يفتر ابن هانى عن مواصلة مدحه للمعز ؛ ولكنا رأيناه يُغرق فيجعله فى منزلة عيسى ومحمد ، بل ينُسب إليه بعض صفات الألوهية ، كما يتضح ذلك فى قصيدة أخرى حيث يقول :

١٩ ندعوه منتقماً عزيزاً قادراً غفّارَ موبقة الذنوب صَفوحا
٥٨ أقسمتُ لولا أن دعيتَ خليفةً لدعيتَ من بعد المسيح مسيحا
٥٩ شهدتْ بمفخرك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مسيحا[٤]

وفى قصيدة أخرى يصف المعز فيشبهه بمحمد ، ويشبه أشياعه بأنصار النبى حيث يقول :

١ ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ
٢ وكأنما أنت النبىُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصار
٦ هذا الذى تُجدى شفاعته غداً حقاً وتخمُدُ أن تراه النار[٥]

ولقد بلغ تمجيد ابن هانى المعز أقصى حد يمكن أن نتصوره ، حيث ينسب إليه القدرة على إتيان المعجزات فيقول :

---

(١) مقتبسة من القرآن سورة الرحمن ٥٥ : ٢٤ .
(٢) المصدر نفسه سورة الصافات ٣٧ : ٣٦ .
(٣) ديوان ابن هانىء ص ٧ — ١١
(٤) ديوان ابن هانى ص ٣٤ — ٣٦
(٥) المصدر نفسه ص ٩٦ .

١٤ فقد شهدتْ له بالمعجزات كما شهدتْ لله بالتوحيد والأزل[١]

ويغلب على ظننا أن ابن هانئ تأثر فى عقائده بآراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به فى سبيل نشر دعوتهم . كما يتجلى ذلك فى هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو بمصر فيقول :

٣١ وروحُ هدًى فى جسم نور يمُــده شُعاعٌ من الأعلى الذى لم يُجسَّم

٣٦ فأُقسمُ لولم يأخذ الناسُ وصفَه عن الله لم يُعقَــل ولم يُتوهم[٢]

إن الخلفاء الفاطميين الأول لم يفلحوا فى استمالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات وأمثالها ؛ ولذلك نرى أن عقيدة تأليه الحاكم الجديدة قد أثارت أخيراً سخط الأهلين ، إذ كان لا يزال هناك كثيرون يناوئون سياسة الفاطميين ؛ فقد كتب أحد الشعراء بيتين من الشعر فى ورقة وضعت على المنبر ، فوقعت فى يد الخليفة العزيز ، وقرأها فإذا فيها :

بالظلم والجــور قد رضينــا وليس بالـكفر والحماقــة

إن كنتَ أعطيتَ علمَ غيبٍ فقلْ لنا كاتبَ البطاقة[٣]

كانت سياسة الحاكم مضطربة لا تستقر على حال . ففى سنة ٤١١ هـ تأثر بتعاليم الدَّرَزى الذى كان ينادى بأن روح الإله حلت فى الحاكم[٤] ؛ وكذلك تأثر بتعاليم الأخرم الذى نادى بكل جسارة فى المسجد العتيق وبحضرة قاضى القضاة ، « باسم الحاكم الرحمن الرحيم ! » ؛ وبذلك أعطاه الصفات التى هى من صفات الله سبحانه . كما أنه تأثر بتعاليم حمزة الذى كان أصحابه يركعون[٥] عند ما يرون الحاكم فى الشوارع ويصيحون قائلين له : « أنت الواحد الأحد والمحيى المميت » . وبذلك انصرفت الحـكومة الفاطمية عن تأييد المذهب الفاطمى إلى تأييد هذه العقائد الجديدة .

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ . ابن أبى دينار ص ٦٥ .

(٤) يحيى بن سعيد ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(٥) ذكر أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩٧) أن عادة الركوع كانت شائعة منذ سنة ٣٩٦ هـ ، حين أقيمت الخطبة للحاكم ، لا فى مصر وحدها ، بل وفى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وسائر الولايات الفاطمية .

انتهى فى ذلك الوقت اضطهاد النصارى واليهود تماماً ؛ وزاد اختلال عقل الحاكم ، فاعتقد أنه الشخص الأعلى والخلوق الأعظم ، وأن الإسلام ليس بأرقى من الأديان الأخرى . وهذا التغيير الفجائى فى سياسة الحاكم كان فى غضون المدة من سنة ٤٠٨ إلى ٤١١ هـ . ولا شك فى أن هذا الانقلاب كان راجعاً إلى التعاليم الإسماعيلية التى تلقاها فى أرقى درجاتها من الغلو[1] .

وقد أمعن الحاكم فى هذه الدعوى ، حتى إن ابن زولاق[2] قص علينا فى هذا الصدد حكاية ، وإن كان من البعيد تصديقها ؛ إذ يقول إنه كان على التجار أن يتركوا حوانيتهم مفتوحة ؛ فإذا سرق منهم شىء ذهبوا إلى القصر يشكون ما حل بهم . ففى ذات مرة ذهب جماعة منهم ورفعوا شكواهم إلى الحاكم من سرقة بعض سلعهم . وكان عنده تمثال يدعى أبا الهول يجلس فى داخله رجل ؛ فجلس الحاكم أمام التمثال ، وقد أذن للشاكين أن يمثلوا بحضرته ، فوصفوا ما فقدوه من متاع . فتكلم أبو الهول ذاكراً أسماء اللصوص واسم المكان الذى خبأوا فيه المتاع ؛ فكان كما أخبر به ، وقبض على اللصوص وصلبوا . وأضاف ابن زولاق إلى هذا أن هـذه الأعمال ساعدت على استتباب الأمن والنظام ، حتى إن التجار كانوا يتركون حوانيتهم غير مغلقة كسائر الناس الذين لم يكونوا يحفلون بإغلاق أبواب دورهم طوال الليل . ولننقل للقارئ فيما يلى عبارة ابن زولاق بنصها :

« . . . . ونادى فى الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته . . . . وأصبح الناس يستغيثون ؛ فأحضر صنما كان عنده يسمى أبا الهول ؛ فكان كل من ضاع له شىء يجلس

(١) أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٦٨ .

(٢) يلاحظ أن مخطوط ابن زولاق الذى عنوانه « فضائل مصر » (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧) ، هو موجز لهذا السفر الضخم الذى ألفه فى تاريخ مصر ؛ غير أن ذلك المخطوط قد أمدنا بمعلومات هامة عن تاريخ الخلفاء الفاطميين الأول إلى سنة ٣٨٦ هـ . وقد ذكرت فى هذا الباب أن هذا المخطوط قد أكله أحد الأتراك ؛ ومن المحتمل أن يكون قد أدخل عليه معلومات استقاها من المؤرخين المتأخرين ، أمثال القضاعى ، وأبى الفرج بن الجوزى ، وسبط بن الجوزى ، والذهبى . ومن المعلومات التى فى هذا الكتاب ما يتناول الكلام على سنة ٣٨٧ (أى سنة وفاة ابن زولاق) وما تلاها من السنين . ومع هذا فذلك كله منسوب إلى ابن زولاق تتمة للعمل الذى بدأ فيه ، كما هو الحال فى كتاب الكندى (كتاب القضاة) ، الذى بدأه الكندى (حتى وصل إلى سنة ٢٤٦ هـ) ، فجاء ابن زولاق وابن حجر فأكملاه . ومع ذلك فالحقائق التى وردت فى الكلام على سنة ٢٤٧ وما تلاها تنسب أيضاً إلى الكندى ، مع أنه لم يكتب إلا الجزء الأول من ذلك الكتاب الذى ينسب إليه ويعرف بنفس هذا الاسم .

بين يديه و يقول له : يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ، فيقول له شخص داخل الصنم (إن ضايمك — هكذا وردت فى الأصل) ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه فى المكان الذى يقول عليه الصنم ، فَيُحْضَر لصاحبه ؛ ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأر بابه .
ثم صلب اللصوص ، وعادت الناس فى أمان ينامون فى بيوتهم وأبوابهم مفتوحة وحوانيتهم كذلك ، لم يسرق لهم شىء ، حتى إذا وقع من أحد درهم (يستمر — هكذا وردت فى الأصل) ، يبقى فى مكانه لا يجسر أن يأخذه أحد ، حتى يأتى إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره ! »[1] .

وذكر نفس هـذا المؤرخ حكاية أخرى يقول فيها : « . . . . إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون ، واستمر فى مكانه أسبوعاً كاملا لم يجسر أحد على أخذه ، حتى مر به صاحبه » وأقام الدليل على ملكه له[2] .

والظاهر أن هذه الحكاية لا تخلو من المبالغة ؛ إذ من الممكن جداً أن يكون رجال الشرطة قد أخذوا هذا الكيس أمانة لديهم ، حتى يستطيع صاحبه العثور عليه . على أن ما رواه ابن زولاق من أنه لم يكن هناك أحد يجسر على أخذ مثل هذا الشىء ، يمكن تصديقه ، لا سيما فى عهد الحاكم الذى كان يعاقب على هذا بالقتل .

وبهذه المناسبة نقول ، إنه ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يثبت أنه كان عند العرب ما يسمى الآن « مكتب الأمانات » . ومع هـذا فقد كان ذلك موجوداً فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم الذى شرّع أحكام اللُّقَطَة .

ففى البخارى ما معناه أن رجلا وجد صرة فيها مائة دينار ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن ذلك فقال له : « عرّفها حولا » . لـكنه لم يجد من يعرفها ؛ فأمره النبى بتعريفها حولا آخر ؛ فلم يحصل لها على صاحب أيضاً . فجاء الرجل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره بتعريفها سنة ثالثة ، وبعدها تصير ملكا له . وفى البخارى فى موضع آخر أن رجلا سأل

---

(١) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ ا وما يتبعها .
ذكر ابن زولاق أن هذا التمثال سرق وكسر ، فارتاع الرجل الذى بداخله حتى فقد حاسة النطق . ولو صحت تلك الحكاية ، لكانت تلك السرقة من صنيع أحد اللصوص العاديين ، أو أحد المسلمين المتحمسين الذين لم يكونوا يرضون عن سلوك الحاكم .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٤ ب .

النبى صلى الله عليه وسلم عما يصنعه فى اللقطة فقال له : « عرّفها سنة فإن لم يظهر لها صاحب ، فشأنك بها[1] » .

هذا ، وقد تكلم ابن زولاق على ادّعاء الحاكم للألوهية ، ذلك الخليفة الذى كانت تملك نفسه تلك الرغبة التى استولت على كاليجولا من قبل فى أن يجعل نفسه فى مصاف الآلهة . فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض أناس مخصوصين ؛ وكان من واجبهن أن يكتشفن ما يحدث فيها ، ثم يقدمن تقاريرهن عن ذلك إليه فى اليوم التالى . فإذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للمثول بحضرته ، فيخبرهم بتفصيل كل ما حدث فى دورهم . ولم ينس أيضاً أن يتخذ جواسيس آخرين ، مهمتهم أن يقدموا له تقارير بكل ما يحدث فى الطرقات ؛ وكانت نتيجة هذا وذاك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم الغيب[2] .

لم يترك الحاكم ادّعاء الألوهية الذى شغل كل حياته إلا فترة لم يطل أمدها ، ثم سرعان ما ادّعى تجسيم الإله فى شخصه — وإن لم يصرح علناً بذلك — فقد كان يوافق على آراء أنصاره كالأخرم والدّرزى[3] ، الذين نسبوا إليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله ؛ لهذا اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت[4] . ولهذا كان إذا بدا للناس فى الطرقات ، خروا له سجداً وقبلوا الأرض[5] ؛ ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت[6] .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إلى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته . فقد أمدنا ابن خلكان

---

(١) صحيح البخارى ، ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥ .

(٢) ذكر هذا ابن زولاق (شرحه ورقة ٥٦ ب ، وابن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرقى رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٣٠ ا) نقلا عن هلال الصابى ، وقال ابن زولاق إنه كان يبعث بهؤلاء الجواسيس إلى دور الأمراء ، وأنهن كن يتناولن مرتبات وفيرة .

(٣) تكلم ابن سعيد (ص ٢٢٠ — ٢٢٤) عن الدرزى ، وذكر (ص ٢٢٤) خلافاً لكثير غيره من المؤرخين أنه قتل بمدينة مصر . أما غيره من المؤرخين فيزعمون أن الدرزى أرسل إلى لبنان ، حيث نجح فى بث عقائد مذهبه فيما يختص بالحاكم .

(٤) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ ا .

(٥) القضاعى ، المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ ا .

(٦) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ ا .

بوثيقة عن الحافظ السلفي[1] بخط يده ، وهاك نصها : « إن الحاكم المذكور كان جالساً فى مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته . فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)[2] ؛ والقارئ فى أثناء ذلك يشير إلى الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر ، وكان رجلا صالحاً : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز)[3] . فلما انتهت قراءته ، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئاً . ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر قال له : أنت تعرف خلق الحاكم وكثرة استحالاته (تقلباته) ؛ وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك فى هذا الوقت ، ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى منه ؛ ومن المصلحة عندى أن تغيب عنه . فتجهز ابن المشجر للحج ، وركب فى البحر وغرق[4] » .

وعلى الرغم من حالة العداء التى كانت تملأ الناس من سياسة الحاكم الخرقاء ، استطاع أن يدعى الألوهية . فابتدأت الدعوة التى تقول بأن الله تجسم فيه . وعلى ما جاء فى مخطوط القاهرة الذى عنوانه « رسائل الحاكم بأمر الله » ، نرى أن الحاكم ادّعى أن له طبيعة إلهية ، بعد أن كان بشراً كسائر الناس[5] . ومن المحتمل كثيراً أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيراً هو نتيجة تعاليم الدرزى للعقائد الفاطمية فى أشد درجاتها غلوا .

---

(١) هو أبو طاهر أحمد بن محمد . . . السلفى من أهالى أصبهان ، وكان يلقب بصدر الدين ؛ وكان حافظاً غزير العلم شافعى المذهب . رحل إلى بلاد كثيرة طلبا للحديث الذى أخذه عن أساتذته المبرزين ؛ ومر فى رحلاته بأصقاع مختلفة ، وساح فى بلاد كثيرة ؛ فركب البحر من صور إلى الإسكندرية ، فوصلها فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) . ولما استقر به المقام ، انتجعه كثير من أهالى البلاد النائية يستمعون دروسه . وفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ العادل بن السلار كلية فى الإسكندرية ، وحمله عميدها ، وكانت وفاته بهذه المدينة فى الخامس من ربيع الثانى سنة ٥٧٦ هـ (أغسطس سنة ١١٨٠ م) ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨) .

(٢) سورة النساء ٤ : ٦٨

(٣) سورة الحج ٢٢ : ٧٣ و ٧٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) ورقة ٦١ ا .

منذ هذا الوقت أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من « عبادته وتوحيده وتنزيهه »[١] ، وأنه « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[٢] ، وأن « كافة الشرائع الأخرى باطل وزور »[٣] . وكان لما فعله الحاكم خطر عظيم ، حتى لقد أرغم من لم يصدع بقوله على دفع الجزية كأهل الذمة[٤] .

لكن تلك المعتقدات أثارت سخط أهالى القاهرة الوادعين ؛ وكان من أثر ذلك أن اغتيل كثير من الدعاة وأنصار المذهب الفاطمى . أما الحاكم المجنون — كما يقول الأستاذ مرجوليوث[٥] — فقد ثار لنفسه ، فأطلق العنان للسودانيين ، فأسرفوا فى الاعتداء على الأهلين ؛ وسببت المناوشات بين السودانيين والأهلين خسائر لا يستهان بها .

غير أن سخط الأهالى كان ذا أثر . فقد كانت كتب الأمان التى أعطاها الحاكم لرعاياه المسيحيين سنة ٤١١ هـ — وهى عام وفاته — مفتتحة بما يفتتح به الخلفاء كتبهم . فقد كان فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ! من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر الله ابن العزيز ...... الخ[٦] .

(هـ) الدّرزية[٧]

١ — وعاة الدرزية :

قامت فى العصر الفاطمى طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألّهوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقامت هذه الحركة على أيدى الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق

---

(١) المصدر نفسه

(٢) سورة الجمعة ٦٢ : ٣ و ٤ ، ومخطوط ورقة ١١ ا .

(٣) مخطوط ورقة ٢١ ب .

(٤) المصدر نفسه ورقة ٣٥ ا .

(٥) Prof. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 30

(٦) يحيى بن سعيد ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٧) الدرز (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه ، وهو فارسى معرب . ويقال درز بالدال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحاكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزى (بالفتح) : الخياط . والعامة تضم الدال فتقول درزى ، وفى الجمع دُرْزِىٌّ ، والصواب دَرزى فى المفرد ودرزية فى الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

للملكي المقدس The Divine Right of Kings . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن على الزوزني والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخارى الدرزى ، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم .

وفد حمزة بن علي على مصر في سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ . وأخذ ينشر في الخفاء الدعوة إلى تأليه الحاكم ، ثم جهر بهذه الدعوة بعد أن لقى قبولا من ذلك الخليفة الفاطمي . وقد وصف النويري[1] الدور الذي قام به حمزة في بث عقيدة تأليه الحاكم في هذه العبارة ، قال : إنه ظهر من دعاة الحاكم رجل يقال له حمزة بن اللباد الأعجمى الزوزني ، ولازم الجلوس في المسجد الذي بناه خارج باب النصر ، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم ، وأن الإله حل فيه . واجتمع إليه جماعة من غلاة الإسماعيلية ، وتلقب بهادى المستجيبين . وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة ، خرج إليه حمزة من المسجد وانفرد به ، وتمادى على ذلك وارتفع شأنه . واتخذ لنفسه خواص لقب بعضهم بسفير القدرة ، وجعله رسولا له . وكان يرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم ، فلم يمكنهم مخالفته خوفا على نفوسهم من بطشه .

وفي سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن على بدعوة ألوهية الحاكم ، وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى على بن أبي طالب ، وأن روح على انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، أى أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلها عن طريق الحلول (Incarnation) .

ويظهر أن دعوة تأليه الحاكم التي قام بها حمزة بن على قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر . ولا غرو فقد عمل على أن يحل في رياسة هذه الدعوة محل ختكين داعى دعاة الإسماعيلية في هذه البلاد . ولولا مقاومة السنيين والمعتدلين من الإسماعيلية لآلت رياسة الدعوة الإسماعيلية إلى حمزة منذ سنة ٤٠٨ هـ . وقد شجع الحاكم هذا الداعى وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما يلتقى بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم وتودده إليهم ،

---

(١) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٥٩ .

ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه فى هذه الحركة من نجاح[1] . وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة بن على فى تلقيب نفسه بألقاب متعددة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعى إلى توحيد الله ، والناطق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ... وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم) والطريق إلى توحيده، والحجة إلى عبادته[2] ».

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم فى سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم . وكان الأخرم مشهوراً بالجرأة والإقدام .

ويقول النويرى[3] : « ظهر رجل يقال له حسن بن حيدرة الفرغانى الأخرم ، يرى حلول الإله فى الحاكم ، ويدعو إلى ذلك ، ويتكلم فى إبطال النبوة ... فاستدعاه الحاكم وخلع عليه خلعاً سنية ، وحمله على فرس مسرجة ... وركبه فى موكبه فى ثانى شهر رمضان . فبينما هو يسير فى بعض الأيام ، تقدم إليه رجل كرخى فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله . وأمسك الكرخى ، فأمر الحاكم بقتله ، فقتله لوقته ؛ ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . وكان بين الخلع عليه وقتله ثمانية أيام » .

ويظهر أن الأخرم قُتل بعد أن أثار هذه الاضطرابات فى جامع عمرو . فقد ذهب على رأس خمسين رجلا من أنصار حركة التأليه ، ودخلوا الجامع راكبين دوابهم ، وسلموا إلى القاضى السنى ابن أبى العوام فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم ؛ وأثار الأخرم بذلك حنق المصريين السنيين فانقضوا عليه وعلى رجاله وفتكوا بهم ، وتمكن هو من الهرب ، ولكنه قتل بعد قليل[4] .

وقد أثار قتل الأخرم وأنصاره حنق الخليفة الحاكم ، حتى إنه « أمر بعد قتل الأخرم

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢) كتاب النقط والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهى (١) الرسالة الموسومة ببدء الخلق ، (٢) نبذة من شرح البيان ومجرى الزمان (ج) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق، نشره سيبولد الألمانى (١٣١٩ — ١٩٠٢) .

(٣) نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ص ٥٩

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣

ألا يركب معه أحد إلا الركابية فقط ، ولا يدخل إلى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلا أسماهم ، وأن يدخل أيضاً الكتاب والقراءون ، والأطباء والمؤذنون وخدام القصر ، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس »[1] .

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من عزيمة غلاة الإسماعيلية . فقد ظهر على أثر مقتله فى سنة ٤٠٩ هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى[2] ، وكان قد وصل إلى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزى فى سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك شتى ، فألف الكتب فى ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم فى نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين . ويقول أبو المحاسن[3] : « وقرّبه وفوض الأمور إليه ، وبلغ منه أعلى المراتب ، بحيث أن الوزراء أو القواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده ، وكان قصد الحاكم الانقياد إلى الدرزى المذكور فيطيعونه » .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزى فى سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادى (حمزة بن على) وحذا حذو أستاذه فى نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعى دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولى عهد المسلمين عبد الرحمن بن إلياس الذى كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوه إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغلغل نفوذ أنصار المذهب الدرزى . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك ، حتى مع السنيين فى القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزى وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً فى التقرب إلى الخليفة الذى ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزى فى قراءة كتابه الذى صنفه فى عقائد المذهب الدرزى فى الجامع الأزهر ، مما أثار سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين ، وكادوا يقتلونه لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادى تيم الله بن ثعلبة غربى دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة فى تأليه الحاكم ويقرأ على أهالى هذه الجهات كتبه التى لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٢٣٣

(٢) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزة بن على يعتبر المؤسس الحقيقى للمذهب الدرزى .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤

استياءه من دعوته خوفاً من الرعية . وقد استطاع الدرزى أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشراً فى جبال لبنان وحوران .

وليس من شك فى أن الحاكم كان يناصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية فى مصر أولا وفى الشام ثانياً ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه فى اليوم التالى . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور المثول بحضرته وأخبرهم بما حدث فى دورهم ، كما اتخذ جواسيس عهد إليهم أن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث فى الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

وقد ادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ؛ وهو وإن لم يصرح بذلك ، كان يوافق على آراء أنصاره كحمزة بن على والدرزى الذين نسبا إليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى . كذلك اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت ؛ وإذا ظهر فى الطرقات خروا له سجدا وقبلوا الأرض بين يديه ، ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت .

وقد أعلن الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من عبادته وتوحيده وتنزيهه ، وأرغم من لم يقل بألوهيّة الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة .

٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية فى أوائل القرن الخامس الهجرى كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلى . ولا يزال كثير من الأسس التى وضعها حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأول قائماً إلى اليوم . ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً جديداً يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن على وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها فى وجه كل من لا ينتمى إليها ، أى من لا يكون درزيا ، أو موحداً على حد تعبيرهم .

ويبررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فمن لم يؤمن بقى كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلا ردّة[1] . ومن ثم نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الأولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد . فالرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هى طائفة الجثمانيين ، وتنقسم إلى قسمين : الأمراء الجثمانيين ، والعامة أو الجهال . فالأمراء الجثمانيون بيدهم شئون الحرب والزعامة الوطنية ، والعامة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولا يحق لطبقتى الجثمانيين الدخول ، بحال من الأحوال ، فى مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالا مهما علا كعبهم فى التعليم والثقافة[2] .

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجثمانيين بالانتظام فى طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعداده لتلقى أصول المذهب الدرزى والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقها فى عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يتبرأ فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن على صيغة هـذا العهد الذى أسماه « ميثاق ولى الزمان » ، وهاك نصه عن دى ساسى[3] .

« توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعـدد . أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه فى صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعاً غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان

---

(١) حمزة بن على الدرزى : التاليف فى مذهب أهل التوحيد (نشره ميخائيل شاروبيم) ص ٢٣

(٢) راجع Hiti: The Origins of the Druze People and Religion (Columbia, 1928) p. 43.

(٣) Chrestomathie Arabe, Vol. II. p. 52

والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة فى العبادة ، وأنه لا يُشرك فى عبادته أحداً مضى أو حضر أو ينتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشىء من أفعاله ، ساءه ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره ، الذى كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، وأشار به على غيره ، أو خالف شيئاً من أوامره ، كان بريئاً من البارى المعبود ، وحرم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من البارى العلى جل ذكره ... ومن أقر أنه ليس فى السماء إله معبود ، ولا فى الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين . وكتب فى شهر كذا وكذا من كذا وكذا ، ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ، ومملوكه حمزة بن على بن أحمد ، هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده » .

وقد خلف حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التى كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب ، ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلى فى جوهره . وقد أوضح الأستاذ فيليب حتّى [1] أن الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا ظفرت بكثير من هذه المخطوطات فى خلوات الدرزية ، أى فى الأماكن التى كانوا يتخذونها مركزاً لعبادتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية فى وجه حكم محمد على سنة ١٨٤٨ م :

(و) رسائل الحاكم بأمر الله :

ويجب أن نشير هنا إلى وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة ، وهى الرسائل المخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة [2] وعنوانها : « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » .

وأنا أشك فى أن هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة هى نسخة

---

(1) Hitti : The Origins of the Druze People and Religion, p. 48

(٢) هذا المخطوط الذى يحتوى على ٦٤ ورقة يشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مخطوطات الشيعة) رقم ٢٠

ثانية من المجلد الأول للمخطوطات الأربعة التى اعتمد عليها دى ساسى فى كتابيه Exposé de la Religion des Druzes و Chrestomathie Arabe . فقد ذكر لنا دى ساسى فى الكتاب الأول أنه لم يطلع من المخطوطات التى تتناول الكلام على الدروز إلا على ما يوجد منها بمكتبات أوربا فقط[١] .

وليست هذه المسألة مما يحط من قدر بحث هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ؛ لأننى اقتصرت فى بحثها على اقتباس بعض العبارات التى لم يتصد دى ساسى ولا غيره من المؤرخين لترجمتها أو بحثها بشىء من الإسهاب . والمخطوط الذى اطلع عليه دى ساسى هو بالمكتبة الأهلية بباريس تحت أرقام ١٥٨٠ و١٥٨١ و١٥٨٢ و١٥٨٣ (Ancien fonds, ie. 1408, 1415, 1419, 1427) على التوالى ؛ وعنوانه : « كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا [الحاكم] »[٢] .

والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ؛ ويكاد يتفق فى ست عشرة منها مع مثيلاتها من رسائل المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة . على أن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل[٣] ؛ أما الأخرى فإنه تناول الكلام عليها بشىء كثير من الإيجاز ، فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دونت فيه[٤] .

وسنبحث الآن فى الأساليب التى اتخذها الخلفاء الفاطميون فى سبيل تأييد عقائدهم ، والطرق التى انتهجها أشياعهم فى هذا السبيل ، معتمدين فى ذلك على مخطوط القاهرة ؛

---

(١) De Sacy, Exposé, Tome I. pp. cccc. Liv.

(٢) Ibid, Tome I. pp. cccc. LIX.

(٣) Chrestomathie Arabe, Tome II. pp. 209-226

(٤) Exposé, Tome I. pp. ccccXDII—ccccXXXII

قد ذكرت هذه التواريخ حسب تقويم حمزة بن على ولى الزمان وقائم الزمان (De Sacy : Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 246, n. 71).

والسنة الأولى من تقويم حمزة توافق سنة ٤٠٨ هـ (Tome II. p.246, n. 73) . ويسمى حمزة أيضاً الإمام حمزة بن على . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢١ (ب) . وهذه الألقاب الخاصة بقائم الزمان ووليه ، أعنى حمزة بن على ، قد ذكرت بوضوح فى الرسالة التاسعة عشرة من المخطوط الموجود بالقاهرة (ورقة ٤٩ ب) حيث يقول : " توسلت إليه بوليه قائم الزمان حمزة بن على " .

ومنها يتجلى للقارئ ما ادعاه الحاكم من صفات الألوهية . ولا غرو فقد أصبح قسم كبير فى القصر مركز حركة الدعوة الفاطمية . وفى هذا المكان كان داعى الدعاة وأعوانه يلقنون الناس تعاليم هذا المذهب فى أوقات منتظمة .

أما اللهجة التى كتبت بها هذه الرسائل ، فإنها تدلنا على ما توقعه الفاطميون من مقاومة الأهلين ، وما تنبأوا به أيضاً من معارضة من الجانب الأعظم من المصريين . يؤيد هذا القول ما جاء بهذه الرسائل عن الحاكم وأهل مصر : « وتنزه عن سوء الظنون ؛ إشارة ذلك أنه لما غاب ، ظنوا به ظن السوء من العجز والعدم والظلم »[1] .

وقد قرئت هذه الرسالة بعد أن قام الدرزى (حمزة بن على) بتعليم العقائد الجديدة التى انتحلها الحاكم الذى ظهر سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) بصورة التوحيد ، على ما يتبين من هذه العبارة : « فلما غاب مولانا الحاكم بصورة التوحيد انكشف المكنون : الإشارة إلى قيامه فى الكشف سنة ثمان وأربعمائة ، انكشف المكنون ، يعنى التوحيد ، واستمر مكنوناً من غيبة البارى »[2] .

وهذه الرسائل قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة ، وهى أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت فى عهد الحاكم محل القرآن والسنة . ومما تختص به هذه الرسائل ما جاء فيها من أن داعى الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعياً ، فضلا عما قام به المؤذنون وخطباء المساجد فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية[3] .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ؛ ولكنها بمثابة تمهيد لما تلاها من الرسائل ؛ تعرض الكلام على ما استجد فى عهد الحاكم من عقائد . ويقول كاتب هذه الرسالة : « العالِمُ ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام ؛ وهو مبدع الكل ، يعنى

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، مخطوطات الشيعة ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٤٣ ا

(٢) يدل لفظ " كشف " على الفترة التى كانت بين اختفاء الحاكم إلى وقت دعوته وإظهار دينه الجديد للناس . وقد ذكر دى ساسى (Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 275, n. 144) أن هذه الفترة يعبر عنها بمقتضى كتب الدروز بالكشف .

(٣) المصدر نفسه ، ورقة ٤ (ب) .

العشرة : الخمسة[1] حدود[2] الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة » ، وعالّ علتهم[3] ؛ والعلة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية[4] .

« أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار فى إبطال قول من قال أن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التى هى السجلات »[5] .

بعد ذلك يفسر لنا الداعى كلمة إمام التى تقوم مقام « ذو معة » ، وهو العقل الكلى

(١) كان الخمسة حدود الحق عبد الرحيم ولى عهد الخليفة ، وعباس ، وختكين الداعى ، وجعفر ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢ (ب) . وذكر دى ساسى عن الرسالة السابعة عشرة (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٠٨) ، وعنوانها " التنزية " ، أن الخمسة حدود هم : عبد الرحيم بن الياس ، وعباس بن شعيب ، والداعى ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (Exposé, Tome I, pp. CCCCLXXII seq.)

(٢) ذكر دى ساسى أن كلمة " حدود " فى اصطلاحات الدروز الدينية تشير — بطريق المجاز لمـا جاء فى القرآن — إلى الحدود التى لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك ، فإن " إقامة الحدود " معناها الشرائع التى أوجدها الأئمة (الحدود) فى طائفة الدروز (Chrestomathie. Tome II. pp. 199, 242, n. 45) . وقد أوضح دى ساسى فى كتابه (Chrestomathie Arabe, Tome II. 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله " شرح الحدود " إلى الرسالة الثامنة عشرة من المخطوط الموجود بالمكتبة الملكية (إذ ذاك) بباريس تحت رقم ١٥٨١ (Ancien fonds, No. 1415. Bibliothèque Nationale) ، وعنوانها : " ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانياً وجسمانياً " .

(٣) ذكر دى ساسى (Chrestomathie, Tome II. pp. 219, 274, n. 136) أن حمزة بن على هو علة الوجود . ويسمى فى شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بعلة العلل ؛ وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ويزيد دى ساسى هذه المسألة بياناً فيقول : إن الحاكم هو الإله الأعلى ، ويسمى أحياناً العلة الفعالة لعلة العلل (La cause efficiente de la cause des causes) . بيد أن دى ساسى لم يجزم بذلك حيث يقول : " إن هذه الآراء ليست خاصة بالدروز ، بل قال بها الإسماعيليون أيضاً ؛ وأعتقد أنها شائعة عند من يقولون بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الإسماعيلية " .

(٤) دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١ أ .

(٥) قال دى ساسى إن النبى أو الناطق يخلفه سبعة من الأئمة ، أولهم يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه فى الزهد . والناطق والأساس هما محمد وعلىّ ، وهما خادماً الحاكم ليس غير . وينوب عنهما عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب . ويزيد دى ساسى هذا الموضوع بياناً فيقول : ونقرأ عبارة تستحق الذكر فى كتاب آخر ألفه حمزة فى نفس هذه السنة (٤٠٩ هـ) وعنوانه رسالة التنزيه (أى تنزيه الحاكم) . ويريد هذا الكاتب أن يدلل على أن مولانا — أى الحاكم — لا يشترك فى شىء مع الناطق والأساس ، وهما محمد وعلىّ ، بل ولا فى عقائدهما ، أى الإسلام أو التنزيل ، وعقيدة مولانا المجازية التى يمثلها عبد الرحيم بن إلياس وعباس بن شعيب (Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 238, n. 23)

ويشير المؤلف فى رسالة النساء (المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ١٠ (ب) إلى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس . المصدر نفسه ورقة (١ ب) .

الذى يربى الدعاة ، وعنه يتلقون العلم (لأن السابق الحقيقى هو الإمام الأعظم ... الذى هو العقل الكلى ... إن الإمام الكلى هو الذى يربى الدعاة ... يأخذون العلم ، يعنى الدعاة) .

وفى الرسالة الثانية (رسالة النساء) يؤكد الداعى خطر تعدد الآلهة ، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحاكم (الخالق الرازق)[١] و (علام الغيوب)[٢]؛ ثم يستطرد الداعى فى الكلام فيقول : « والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات »[٣] . ومن هذا يتبين أن الدين الإسلامى قد عطل فى عهد الحاكم ، وعمل بدين جديد مبنى على التعاليم التى قام بها دعاته ، والتى شرحها الشراح فى مجالس الحكمة ، وفى الوثائق التى قامت مقام القرآن والحديث .

والرسالة الثانية تبين لنا أيضاً أن مجالس الحكمة إنما كانت تنعقد لتعليم طائفة من الناس أصول مذهب الباطنية ، لكى يتجنبوا بذلك معارضة السواد الأعظم من المصريين . ومع ذلك فإنه يظهر لنا من نفس هذا الكتاب أن روح السخط قد ظهرت بين المصريين ، بل ولم تلاق هذه السياسة قبولا عند قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، فكان نصيبه أن عزله الخليفة سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، وأقر مكانه مالك بن سعيد .

وكان من أثر عزل ابن النعمان أن لعن فى هذه الرسالة . على أن الفارق لم يصادف من النجاح شيئاً ، فلحق بسلفه بحجة أنه لم يعتقد بصحة مذهب الحاكم ، ولأنه اغتصب أموال اليتامى . ويتبين ذلك مما جاء فى هذه الرسالة حيث يقول الداعى الذى كتبها :

« لأن المجالس الباطنية لا تقرأ على كل الناس » ... وعبد العزيز كان قاضى مصر ، ثم بعده تولى مالك بن سعيد قضاء مصر ... فنظرنا إلى قولهم تيس من تيوس بنى أمية ... وجدناه عبد العزيز محمد بن النعمان ... ولد عبد العزيز فى أيام العزيز أيضاً إلى أيام الحاكم ، وعزله سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وولى مكانه مالك بن سعيد آكل أموال اليتامى والمتبرئ من دين الرحمن »[٤] .

---

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ورقة ١٢ (ب) .
(٢) المصدر نفسه ورقة ١١ (ب) .
(٣) المصدر نفسه ورقة ١٠ (ب) .
(٤) المصدر نفسه ورقة ٨ (ب) .

كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن أبطلت مجالس الحكمة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)[١] . نعم ! قد حال دون نجاح الفاطميين ما كان من مقاومة السواد الأعظم من الأهلين واستهجان فريق من علية القوم لهم . ولا عجب في ذلك ؛ فقد بلغت الجرأة بالحاكم أن أبطل الأديان كافة ، وطلب إلى الناس اعتناق مذهبه الذي بنى عليه هذه الكتب التي كانت تتلى في مجالس الحكمة .

وقد جاهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد وانقطعت المجالس ... أهل التأويل والأقاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب ...[٢] وهذه الفصول التي تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس[٣] . . . والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات[٤]) .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها « المناجاة » ، فهي تحتوي على الدعاء الذي كان يقوله المؤمنون في مجلس الحكمة . أما الداعي فإنه يبث الدعوة بين الناس ، مؤكداً ألوهية الحاكم وسرمديته (سرمدي الثبات)[٥] ، وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه .

فكأن الحاكم في نظر هذا الداعي هو رب العرش[٦] (فأنت صاحب العاجلة ، أي الدنيا ، وإليك حكم الآجلة ، أي الآخرة)[٧] ، و (باري البرايا)[٨] . ولا شك في أن غرض الداعي كان حث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب (التي هي باطل وزور)[٩] .

---

(١) المقريزي خطط ج ١ ص ٤٥٨ .
(٢) دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ٨ (ب) .
(٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٠ (ا) .
(٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٠ (ب) .
(٥) المصدر نفسه ، ورقة ٢٠ (ا) .
(٦) المصدر نفسه ، ورقة ٢٢ (ا) .
(٧) المصدر نفسه ، ورقة ٢٥ (ا) .
(٨) المصدر نفسه ، ورقة ٢٧ (ب) .
(٩) المصدر نفسه ، ورقة ٢١ ا وما يليها .

والرسالة الرابعة عشرة ، وعنوانها « الدعاء » ، كتبت بنفس الأسلوب والروح الذى كتب به ما سبقها من الرسائل ، وفيها يوضح الداعى الاصطلاحات التى كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم . وبحذف هذه الشروح المطولة التى لا حاجة إلى نقلها لطولها يصبح الدعاء كما يأتى :

« سبحانك يا مبدع الأشياء ، يا مخترع العالمين ، يا صفوة العالمين ! سبحانك يا من تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يا من تعاظم أن يكون كمثله شىء ، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يا من تعالى عن المساوىء ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنك بارى لا بارى لك ، وخالق لا ضدّ لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسألك يا مولانا بأول شىء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفى التشبيه عنك ، أن تمنّ علىّ بخالص معرفتك وحميد طاعتك ، والبلوغ إلى مرضاتك والثبات على أمرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ما ينالنى فى عبادتك من شدائد المحن والبلوى . يا أرحم الراحمين ! بحقك على من يصرف هويته عن تسبيحك وتمجيدك إلى سواك . لا أصرف ذاتى إلى غيرك ، تائب إليك معترف بألوهيتك ، متبرىء من كل عدو لك ؛ لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عنى واغفر ذنبى ، واجعل معرفتك التى التى مننت بها علىّ مخلدة فى نفسى . لا إله غيرك ولا معبود سواك[1] » .

وهكذا كان الدعاء الذى قام به الداعى فى القصر والمؤمنون بوحدانية الحاكم . ومع ذلك فقد أنكر كثير من الناس هذه الصفات ، على ما يشير إليه كاتب هذه الرسالة . بيد أن هذا الكاتب قد ذكر أن الحاكم ظهر فى صورة إنسان ، وتسمى باسم إنسان ، وقام بأفعال البشر ، ثم تجرد عن صفاتهم . وأخيراً دعا الناس إلى الاعتقاد بألوهيته وتنزيهه ، إذ صار البرهان المطلق . ويتضح ذلك من هذه العبارة التى ننقلها بنصها :

« يعنى أنهم أنكروا بعد أن ظهرت الصورة عند الإثبات المحض ، يعنى وجوده فى صورة مرئية ظاهرة مكشوفة حيث صورنا ؛ وتسمى بأسمائنا وظهر بجميع أفعالنا ، ثم تجرد

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ص ٢٧ (ب) — ٣١ (ا) .

عن صفات البشر ، ودعا الخلق إلى معرفته ووجوده وتنزيهه ، فصار إثباتاً محضاً ، أى خالصاً[1] » .

(ز) الدعوة النزارية :

انقسمت الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر الفاطمى فى سنة ٤٨٧ هـ قسمين : ذلك أن فريقا نادى بإمامة المستعلى فسموا المستعلية ، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للمستنصر ، فسموا نزارية . وقد أيد الحسن الصباح الدعوة النزارية ومهد الأمور فى فارس وخراسان للإمام نزار ، وجعل أنصاره يعتقدون أن نزارا هو الإمام الحق ، وأن المستعلى اغتصب منه العرش والإمامة معاً . وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد فى تاريخ هذه الدعوة . فقد ابتدع نظرية جديدة هى نظرية الإمام المستور والدعوة إليه ، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة لا على المستورة . وقد استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال ، فأصاب نجاحاً بعيد المدى ، وأفلح فى تكوين نظام جديد ، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة فى وسط دولة العباسيين السنيين .

وقد تركزت جهود الحسن بعد موت المستنصر فى نشر الدعوة لنزار ، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية فى فارس ، وخراسان ، فالتفوا حوله ؛ كما عمل على ضم عناصر جديدة إلى دعوته . ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر فى أماكن حصينة ، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم . فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية فى أقاليم رود بار وقوهستان والطالقان وغيرها . كما وجه دعاته نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعلية والصليبيين . ومن ثم أصبح فى كل إقليم أتباع ، وفى كل مدينة أنصار .

وقد امتازت دعوة الحسن فى ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم .

---

(١) المصدر نفسه ، ورقة ٣١ (ب) .

فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه . وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان . وكان هذا المبدأ من العوامل التى شجعت الحسن على حمل السيف فى وجه الدولة العباسية السنية . كما لجأ إلى التأويل ، فأول القرآن للنزارية تأويلا يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم ، وقدسه المستجيبون . كما استغل عقيدة الإمام المعصوم ليحمل الناس على طاعته ، لأن طاعة الإمام ونائبه وحجته شرط أساسى للدين الحق .

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن ، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه . فألف أبو حامد الغزالى كتابه « المستظهرى » أو فضائح الباطنية ، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم فى الإمام المعصوم .

وقد عمل الحسن على تنظيم جماعته تنظيما دقيقاً يضمن لها البقاء . ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات ، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة ، الرباط الذى يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها ، وجعل للأعضاء شروطاً ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم . ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليشهروا السلاح فى وجه أعدائه ، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها ، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة ، فسموا الفداوية ، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة فى سبيل إمامهم ونائبه . أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهى :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل ، وعدد أفرادها سبعة ، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة . فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ولا سيما بعد أن احتل قلعة ألَموت فى سنة ٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل . وكان هو وحده الذى يعين الدعاة ويعزلهم ، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعى الدعاة . وكان سلطانه لا يحد : يصدر أوامره من ألموت فيطيعها النزارية فى كل مكان . وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى . ولم يجعل لمبدأ الوراثة أى اعتبار . كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة ، فقتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ، ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، لأنه قسم العالم أقساما ثلاثة : جعل على رأس كل قسم واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة . على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية ، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر . ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيازرك أميد ، والحسين القيني ، وأبو طاهر .

المرتبة الثالثة وهى مرتبة الدعاة ، وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة فى ألموت أو من كبار الدعاة فى الأقاليم الثلاثة . وكانوا يتلقون العلم فى مدارس القاهرة أول الأمر ، ثم ينتقلون إلى ألموت ليتعلموا أسرار الدعوة . وقد اشترط الحسن الصباح فى الداعى أن يكون بارعا فى التشكيك ، ماهراً فى التلبيس ، ليخدعوا العامة ويدخلوهم فى عقيدتهم .

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق ، وهم طبقة تفقهت فى أصول المذهب ، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم ، ويتفانون فى المحافظة على المذهب ، متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة .

المرتبة الخامسة : الفداوية ، وهم الذين كانوا يستخدمون فى قتل الأعداء غدراً ، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم . ولا يشترط فى الفداوى أن يتعمق فى دراسة أسرار المذهب ، إنما يشترط فيه التفانى فى طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود ، فأصبحوا آلات انتقام فتاكة ، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع . وكانوا يتصفون بالشجاعة النادرة وحب المخاطرة والعزيمة التى لا تقهر ، والصبر ؛ يظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه . ويشترط فى الفداوى أيضاً أن يكون من الشبان الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات .

المرتبة السادسة : اللاصقون ، وهم ينتسبون إلى الدعوة ، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية ، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة . ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا فى فهم أصول المذهب .

المرتبة السابعة : المستجيبون ، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون ، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلى . إنما عملهم الرئيسى زعزعة عقائد الناس ، وبث الذعر فى نفوسهم .

وكانت الدعوة النزارية تتسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس . فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ — التفرس ، ويقصد به إدراك مكنونات النفس ، ويطلق على ذلك الاستبطان ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده .

٢ — التأنيس وهو بعث الأمن والطمأنينة فى نفوس المدعوين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه ، كلٌ حسب نزواته .

٣ — التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعويين ، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات ، يستطيع به الداعى أن يصل إلى قلب المريد ، فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه .

٤ — التعليق وهو ترك المريد بعد تشككه متأرجحاً فى عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلى ، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته .

٥ — التدليس ، وهو أن يلجأ الداعى الى التمويه ، ويدعى ادعاءات كاذبة تزيد فى إغراء المريد وتشويقه وإلهاب رغبته فى الدخول فى الدعوة .

٦ — التأسيس وهو تثبيت المعلومات والحقائق التى أدلى بها الداعى للمستجيب حتى تستقر فى ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

٧ — الخلع ويقصد به إقصاء المريدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية فى الإسلام ، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع .

توفى الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور ، وأقام دولة فريدة فى نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة فى أقاليم مختلفة ، تقوم على نشر مذهب النزارية ومحاربة أهل السنة وتناهض المستعلية بوجه خاص .

وقد اتبعت هذه الطائفة طرقاً غريبة لنشر دعوتهم ، فكانوا يأتون بنوع من النبات ويغلونه ثم يسقونه بعض الناس الذين يأنسون فيهم الميل إلى الباطنية والذين يشتركون معهم فى فكرة أحقية نزار بالإمامة . . . فإذا شرب أحدهم عصير هذا النبات ، غاب عن الوجود ، فينتهز الدعاة هذه الفرصة ، وينقلونه إلى جهة بعيدة بها حدائق غناء . وعندما

يفوق يقولون له « إن هذه هى جنة المؤمنين » . وبهذه الطريقة استطاعوا أن ينشروا دعوتهم بين فريق كبير من الناس .

وقد امتد نفوذ طائفة الإسماعيلية فى بلاد الفرس ، ومما ساعد على انتشار دعوتهم عدم عناية السلاجقة منذ أيام ألب أرسلان بتتبع الجواسيس والدعاة الذين كانوا يفدون على البلاد الإسلامية ، كما أن هذا السلطان قد ألغى نظام البريد الذى كان شائعاً فى الدولة الإسلامية ؛ وبذلك لم يتيسر له مراقبة عماله بالأقاليم ؛ فانتهزت طائفة الباطنية ، هذه الفرصة وأخذوا يواصلون العمل على بث دعوتهم . غير أن هذه الحالة لم تدم طويلا ؛ فسرعان ما قام نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى وحال بينهم وبين نشر عقائدهم . ولا تزال هذه الطائفة فى إيران وأفغانستان وباكستان وسورية وشرق إفريقية ولاسيما فى كينيا وتنجانيقا ، وفى الهند حيث يتولى زعامتها اليوم أغا خان .

وقد أطرى الإدفوى محاسن أهل بلده إدفو ، فقال إنهم معروفون بالعفة ، موصوفون بالصدق والتحرز فى القول ، مشهورون بإكرام الضيف وإغاثة الملهوف وإسداء المعروف . كما قال إن التشيع كان فاشياً بها فى زمانه وإن أهلها كانوا طائفتين : إمامية وإسماعيلية .

وذكر الإدفوى أنه اجتمع بإسنا بصعيد مصر أيضا سبعون شاعراً فى وقت واحد ، وأن التشيع كان فاشياً فيها .

(ح) وسائل نشر الدعوة الفاطمية فى مصر :

١ — خطوات الفاطميين الأولى لنشر دعوتهم

لقد آل الملك الفاطميين ونجحوا فى تأسيس خلافة علوية مستقلة باسم الدين وبفضل انتسابهم إلى النبى ، مؤيدين دعواهم بما نشروه من عقائد ذات صبغة دينية بحتة ؛ ودللوا على صحة هذه الدعوة بأنهم خلفاء النبى حقاً ، وأن حقهم المقدس فى الخلافة قد اغتصب منهم اغتصابا .

ومنذ النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة تأثر مذهب الشيعة الأول بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة ؛ وذلك من تأثر بعض هؤلاء بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد

المبنية على الرجعة والتناسخ ؛ ومن ثم غدا مذهب الشيعة فى عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة . وكان من نتيجة هذا المظهر الجديد أن نشأ من الشيعة مذاهب أخرى كالدروز والحشاشين ، لكل منهما عقائده الخاصة .

وقد حدث هذه الأمور كلها بدعاة الفاطميين وغيرهم ممن دخل هذا المذهب إلى رفع أئمتهم ونسبة صفات التقديس إليهم ، هذه الصفات التى رفعتهم إلى مستوى الخلود والألوهية .

ولم يكد يستقر سلطان الفاطميين فى مصر حتى رأينا جوهراً لا يدخر وسعاً فى بث الدعوة للمعز خاصة وللعلويين عامة . بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يحمل المصريين جميعاً يعتنقون المذهب الفاطمى ؛ لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السنى على اختلاف درجاتهم فى الإخلاص له . أما الشيعة فإنهم كانوا بالنسبة إلى المصريين أقلية صغيرة ، تحملت قبل فتح الفاطميين لهذه البلاد شيئاً غير قليل من الاضطهاد وسوء المعاملة . ولا غرو فإن المصريين قاموا فى وجه نفوذ الإخشيديين ودانوا بالطاعة للفاطميين ، لأسباب سياسية لا غير .

نعم ! لقد ساعدوا على إحداث هذا التغيير ورغبوا فيه ، لما حاق بالبلاد فى أواخر أيام الاخشيديين من مصائب متتابعة ، فى وقت لم تتمكن فيه السلطة المركزية فى بغداد من صد غزو الفاطميين .

وبعد أن وضع جوهر أساس مدينة القاهرة حاضرة هذه البلاد الجديدة ، بعث إلى مولاه المعز بكتاب ينبئه فيه بفتح مصر ؛ ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين على كافة منابر مصر ، وأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى دون الخليفة العباسى ؛ فضرب على أحد وجهيها « باسم مولاى المعز » . وذكر المقريزى أنه ضرب على أحد وجهيها « دعا الإمام معدّ بتوحيد الإله الصمد » ، وفى السطر الثانى « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفى السطر الثالث « (بسم الله !) ضرب هذا الدينار[1] بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » ؛ وضرب على الوجه الآخر « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٤٥) أن قيمة الدينار المضروب باسم الخليفة العباسى الراضى نزلت الثلث ، وأن الدينار المضروب باسم الخليفة الفاطمى المعز بلغت قيمته خمسة عشر درهماً ونصفا .





جامع عمرو بن العاص ـ منظر عام للأيوان الشرقي

الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين »[١] .

كذلك أمر جوهر بالكف عن لبس السواد شعار العباسيين[٢] ؛ وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيضاء ، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات المألوفة عند السنيين[٣] . وكان جوهر يعقد فى أيام السبت مجلساً للمظالم يحضره الوزير والقاضى وكبار الفقهاء[٤] ، وكان يصدر الأحكام بنفسه[٥] .

٢ — الدعوة الفاطمية فى المساجد

(ا) الدعوة الفاطمية فى الجامع العتيق :

دخل الإسلام مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . ولم يكن الباعث على بناء المساجد منذ ذلك الوقت مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها ، بل كان ذلك راجعاً أيضاً لأسباب سياسية واجتماعية . « وكانت هذه الأمكنة وأمثالها تستخدم منذ ظهر الإسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام »[٦] .

بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين[٧] . ومن الأمثلة الصادقة على ذلك الجامع الأزهر ، الذى كان مركزاً لتعاليم الإسلامية قروناً عدة ، ولا تزال شهرته باقية إلى اليوم .

---

(١) المقريزى : اتعاظ ص ٧٦

(٢) كان يلبس هذا الزى أعضاء الأسرة العباسية وغيرهم من كبار الموظفين .
انظر دى ساسى De Sacy : Chrestomathie Arabe, Tome II. pp. 263-266

(٣) المقريزى : اتعاظ ص ٧٦

(٤) لا بد أن يكون الفقهاء من الشيعيين ، اللهم إلا إذا استثنينا القليل من الفقهاء السنيين الذين كان يعهد إليهم بالمناصب العالية فى الدولة .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

(٦) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

(٧) كانت بعض المساجد بمثابة قلاع محاطة بأسوار عالية سميكة .

وأقدم هذه المساجد جامع عمرو[1] . وقد بنى عام ٢١ هـ ، بعد أن فتح مصر عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط العاصمة الإسلامية . وقد زاد عدد سكان الفسطاط أيام فتح الفاطميين لمصر عما كانت عليه مدينتا العسكر[2] والقطائع[3] ، حيث أقيم فيهما مسجدا العسكر وابن طولون .

وقد أقيمت صلاة الجمعة فى المسجد العتيق ، وخطب فيه للمعز فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ؛ وبذلك تحققت الفكرة التى كانت ترمى إلى بث الدعوة الفاطمية باسم الفاطميين[4] . وقد خطب فى هذا اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل العبارة الآتية فى الخطبة بدل ما كان يقال عن العباسيين :

« اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهدية ، عبد الله (الإمام) معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين . اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته . واجعل الرشاد فى موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها ؛ فإنك تقول وقولك الحق (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون[5]) . فقد امتعض لدينك ، ولما انتهك من حرمتك ، ودرس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه

---

(١) لما كان هذا المسجد أقدم المساجد التى بنيت ، أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع – ابن دقماق (ج ٤ ص ٥٩)

(٢) أسس هذه المدينة سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ – ٧٥١ م) صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، بعد أن تعقب مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقبض عليه وقتله . وكان موضع هذه المدينة فضاء قاحلا ، أطلق على جزء منه جبل يشكر . وقد استقر فيه صالح بعسكره ؛ ومن هنا هنا اشتق لفظ العسكر . ابن دقماق ج ٤ ص ٣٤ .

(٣) أسس القطائع أحمد بن طولون (٢٥٤ – ٢٧٠ / ٨٦٨ – ٨٨٣) سنة ٢٥٤هـ فى سفح جبل المقطم ، حين قضت عليه زيادة عساكره من النوبيين والإغريق وغيرهم بإقطاعهم إقطاعات خاصة . وقد بدأ ابن طولون فى بناء مسجده سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ – ٨٧٧ م) ؛ وخطب فيه لأول مرة فى رمضان سنة ٢٦٥ هـ (ابن دقماق ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢) .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) سورة الأنبياء ٢١ : ١٠٥ .

وسلم ؛ فأعد للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهبته ؛ فسير الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال فى طاعتك ، وبذل المجهود فى رضاك ؛ فارتدع الجاهل وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التى سيرها ، وسراياه التى ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم وبسط العدل فى الأمم . اللهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصورة ؛ وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه »[١] .

وفى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) زيد فى الأذان « حى على خير العمل » ، وقرئت البسملة بصوت مرتفع ؛ وذلك فى الجامع العتيق ، بعد أن انقضى ثمانية شهور على فتح الفاطميين مصر وقراءة الخطبة باسم الخليفة الفاطمى المعز . وفى رمضان سنة ٣٥٩ أمر جوهر بأن تنقش جدران الجامع العتيق باللون الأخضر شعار العلويين[٢] .

وكان ذكر اسم المعز فى خطبة الجمعة فى التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨ هـ بدل اسم الخليفة العباسى حادثاً هاماً فى تاريخ الخلافة الفاطمية فى مصر . وهذا يبين لك ما كان من رواج الدعوة الفاطمية فى عهدهم ؛ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى هى صورة موجزة من هذا البيان الذى أذاعه جوهر على المصريين ، يعرض فيه عليهم السلام والطمأنينة .

ولقد ألقى الخطيب خطبته بصورة شاد فيها بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك الخارجون من السنيين حقهم ، على ما جاء فى كلام الخطيب ، وكان ينتمى لمذهب السنى . أما كلمة الجهاد التى وردت فى الخطبة ، فإنه ينطوى تحتها ما عقد الفاطميون النية عليه من فتح المشرق والمغرب .

هذا الدعاء للخليفة الفاطمى يبين لنا ذلك المظهر الدينى الجلى الذى تذرع به العلويون للوصول إلى أغراضهم الدنيوية . ولقد بدأ النزاع الدينى بين الشيعيين والسنيين — كما تقدمت الإشارة إلى ذلك — فى عصر متقدم ؛ ولكن هذا النزاع ظهر بصورة أشد عداء فى الأجيال التالية ، حين أخذ كل حزب يلعن الحزب الآخر ويحط من قيمته ، حتى إن

---

(١) المقريزى : اتعاظ ص ٧٥ — ٧٦

(٢) المصدر نفسه : اتعاظ ص ٧٦ .

الشيعيين أرغموا أحياناً على دفع الجزية[1] ، كما أرغم السنيون على دفعها حيناً آخر فى عهد الفاطميين[2] .

وقد وجدت العقائد الشيعية فى مصر مرعى أكثر خصباً ونماء منه فى شمال إفريقية ؛ وسرعان ما ترعرعت وعم أثرها . وفى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة من السنة نفسها ، دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد فى الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ؛ اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين[3] » .

كان من أثر سيادة المذهب الفاطمى أن عزل بنو عبد السميع ، وكانت إليهم الخطبة زهاء ستين سنة ؛ فحل محلهم جعفر بن الحسن الحسينى ، وعهد إليه بإقامة الخطبة فى جامع عمرو كما عهد إلى أخيه بإقامتها فى الجامع الأزهر[4] .

(ب) الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون

فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، أى بعد ثمانية شهور من إقامة أول خطبة فى جامع عمرو ، تطوّرت الدعوة الشيعية فى أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات فى جامع ابن طولون ؛ وذلك بأن أدخل المؤذنون على الأذان « حى على خير العمل » ، وهى من العبارات التى يمتاز بها الأذان عند الشيعيين ؛ ومن ثم زيدت هذه العبارة فى الأذان فى مساجد العسكر ، ومنها انتقلت إلى جامع عمرو فى شهر جمادى الأولى من السنة نفسها .

كانت هذه الأمور كلها مما أرضت جوهرا ؛ فبعث للمعز يزف إليه هذه الأنباء وقد

---

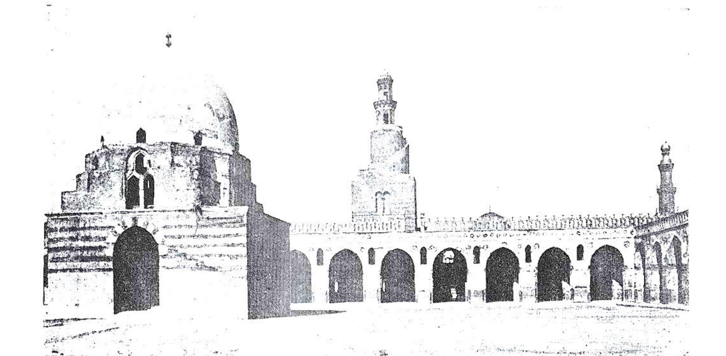
(١) رسائل بديع الزمان الهمذانى ص ٤٢٤ .

(٢) رسائل الحاكم بأمر الله ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، مخطوطات الشيعة ، رقم ٢٠ ، ورقة ١١ ا . انظر العبارة التى كتبّها عن الدعوة الفاطمية فى مكتبة القصر .

(٣) المقريزى : اتعاظ ص ٧٧ . أبو المحاسن (طبعة Juynboll) ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٤ .

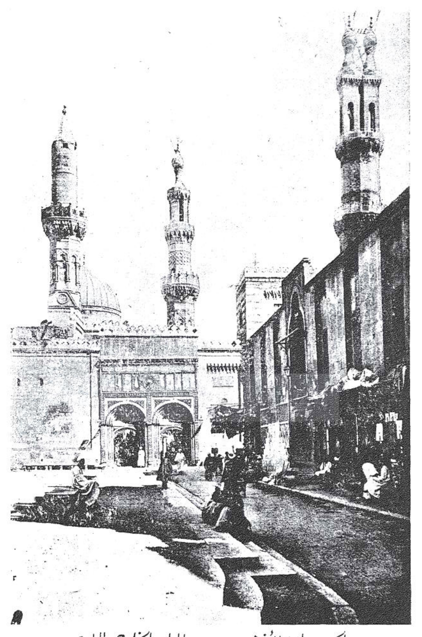
ذكر ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) أن أولاد عبد السميع عزلوا نهائياً سنة ٣٧٩ هـ ، عزلهم الخليفة العزيز .



جامع ابن طولون — إيوان الجامع وصحنه ، تعلوه المناره ، ويظهر فيه قبه الميضاه







الجامع الأزهر ـ الباب الخارجي للجامع

حضر الصلاة فى جامع ابن طولون فى ذلك اليوم عدد غير قليل . وقد أشاد عبد السميع فى خطبته بذكر أهل البيت وعدّد مآثرهم ؛ كما أنه دعا للقائد جوهر[١] ، ولم يجهر بالبسملة[٢] فى الخطبة . وقرأ بعد سورة الفاتحة سورة الجمعة[٣] وسورة المنافقين[٤] ، ثم قرأ القنوت[٥] بعد الركعة الثانية . ولما هم بالسجود كان قد فاته أن يركع ، فصاح به علىّ بن الوليد قاضى عسكر جوهر : « بطلت الصلاة ، أعدظهرا أربعا »[٦] .

(ج) الدعوة الفاطمية فى الجامع الأزهر :

كان بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون للجمعة أول ما كانت ترمى إليه سياسة أمراء المسلمين ، وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة لما يفتحوته من بلاد . وكان الفاطميون قد رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنيين على غرة فى المساجد فى مبدأ حكمهم ، بإضافتهم إلى الخطبة هذه العبارة وهى : « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » .

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع فى بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمى ؛ وقد شرع فى بناء الأزهر فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة فى اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ[٧] .

أما ما كان هنالك من زيادة فى الأذان والخطبة منذ أقيمت الصلاة فى الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، فشىء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه . ويلوح لنا أن ما زيد

---

(١) لم يقر جوهر ذكر اسمه فى الصلاة ، وقال إن مولاه المعز لم يأمر بشىء من ذلك . المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) لا يجهر الحنابلة والحنفية بالبسملة لأنهم لا يعتبرونها جزءاً من كل سورة من القرآن . أما الشافعية والمالكية والشيعة فكانوا على العكس يجهرون بها . ولم يرض جوهر أن تحذف البسملة من كل سورة ؛ والمعروف أنها مكتوبة قبل كل سورة منذ كتب المصحف .

(٣) القرآن سورة الجمعة رقم ٦٢ .

(٤) القرآن سورة المنافقون رقم ٦٣ .

(٥) يقرأ الدعاء الذى يطلق عليه القنوت بعد الركعة الأولى ، أو قبل الركوع مباشرة ، أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر بعد صلاة العشاء . ويتركب القنوت فى أبسط صورة منه من هذه الكلمات : « إنا لك قانتون » .
Muhammad 'Ali : The Holy Qur'ân, Preface, pp. XXIV,XXV.

(٦) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٠ . اتعاظ الحنفا ص ٧٩ .

(٧) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ .

فى الخطبة والأذان فى الجامع العتيق ومسجد ابن طولون هو الذى أدخل على الخطبة والأذان فى الأزهر ؛ وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، ومن ثم تطورت الحالة تطوراً محسوساً من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية على يد الخلفاء أنفسهم .

وقد ذكر لنا المقريزى أن المعز والعزيز كانا يقيمان الخطبة فى الأزهر إلى أن فتح مسجد الحاكم سنة ٣٨٠ هـ ؛ ومن ثم أصبحت الخطبة تقام بانتظام فى مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر على التوالى .

وفى خلافة المعز تطورت الدعوة الفاطمية فى الأزهر تطوراً عظيما ؛ فقد أمر هذا الخليفة على أثر وصوله إلى مصر بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهى : « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب »[1].

(د) الدعوة الشيعية فى المساجد الأخرى :

أسس مسجدَ الحاكم الخليفةُ العزيزُ أبو الحاكم سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس . وقد وضع أساسه العزيز فى العاشر من شهر رمضان من هذه السنة خارج باب الفتوح ؛ ولكنه أصبح داخل القاهرة بعد أن وسع بدر الجمالى هذه المدينة . ولما كمل بناء هذا المسجد ، انتقلت إليه الخطبة وقراءة القرآن بعد أن كانت مقصورة على الجامع الأزهر ؛ فكان يطلق عليه جامع الخطبة .

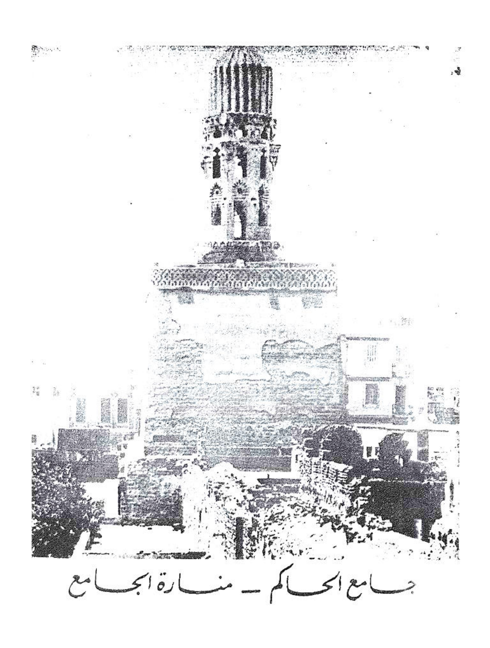
ويحدثنا المقريزى[2] عن المسبحى أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب فى هذا المسجد فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ هـ ، وذلك قبل أن يتم بناؤه ؛ وسار فى ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان و بيده الصولجان .

وزاد المسبحى أن الحاكم أمر سنة ٣٩٣ هـ (٩٠٥ م) بإتمام بناء هذا الجامع . فتم ذلك

---

(١) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧١) نقلا عن النسابة الشريف محمد بن سعد ، أن على بن محمد بن على بن إسماعيل بن الحسن الزيدى هو الذى زاد فى الأذان العبارة الآتية : "محمد وعلى خير البشر" ؛ وهى تشبه العبارة التى أمر العزيز بزيادتها ، وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) . وقد زيد فى الأذان فيما بعد على منابر حلب " حى على خير العمل " و " محمد وعلى خير البشر " المألوفة لدى الشيعيين . وظلت الحال على ذلك إلى أيام نور الدين محمود صاحب حلب ، فأمر بإلغائها ، وأمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم : " مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبوه على رأسه " .

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٧٧



جامع الحاكم ـ منارة الجامع





جامع الجيوشي – منظر خارجي للجامع على سفح جبل المقطم

فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ؛ وعلق على سائر أبوابه الستور، ووضع فيه أربعة تنانير من الفضة وكثيراً من القناديل الفضية أيضاً، ونصب فيه المنبر وفرش بالحصر . وفى يوم الجمعة السادس عشر من رمضان من هذه السنة أذن فيه المؤذن أذان الصبح ، وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة ، وهى أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه . وفى سنة ٤٠٤ هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى، فخصه الشىء الكثير منها(١) .

وفى سنة ٧٠٢ هـ تخرب هـذا المسجد مع ما تخرب من المساجد من جراء الزلزال الذى حدث بمصر فى ١٣ ذى القعدة من هذه السنة ؛ فأعاده إلى ما كان عليه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤ م)(٢) الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ووقف عليه أوقافا، وعين فيه فقهاء لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع ؛ وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم ، وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلماً يعلم أولاد المسلمين ، وجعل فيه خزانة كتب جليلة(٣) .

ومن أعجب ما حدث بجامع راشدة ما كان من إقامة خطبتين على منبره فى يوم الجمعة ١١ جمادى الآخرة سنة ٤١٤ هـ ، وذلك أن أبا طالب علىّ بن عبد السميع العباسى استقر فى الخطابة بأمر قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد العوام ، بعد سفر خطيب هذا الجامع إلى الشام ؛ فعهد الخليفة الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ / ١٠٢٠ — ١٠٣٥) إلى ابن عصفورة أن يقيم الخطبة فيه .

وكان من تعيين رجلين على هذه الصورة لإقامة الخطبة فى هذا الجامع أن صعدا المنبر فى آن واحد ، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معاً . ولما علم بذلك الخليفة وقاضى القضاة أقرا أبا طالب فى إقامة الخطبة ، وجعلا ابن عصفورة خليفة له(٤) .

لقد أتينا عند كلامنا على تطور الشعائر الفاطمية فى المساجد على طائفة من هذه المساجد التى كانت تقام فيها هذه الشعائر وبينا أن هذه الشعائر كانت تقام فى جميع المساجد . على أنه

---

(١) المصدر نفسه

(٢) ذكر المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٨) أنه سقط فى هذا الزلزال كثير من بدنات الجامع ، وخرب أعالى المئذنتين وتشققت سقوفه وجدرانه .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٢ .

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٢ .

ينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أنه كانت هناك فترات من الزمن أبطل فيها بعض عبارات من هذه الشعائر ، أي من الخطبة أو الأذان .

ذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) أبطلت عبارة « حَيَّ على خير العمل » التي أمر جوهر بأن تزاد على الأذان بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر . وقد دعا الحاكم في نفس هذه السنة (٤٠٠ هـ) المؤذنين في قصره وفي المساجد الأخرى إلى اجتماع حضره قاضي القضاة ، وأصدر مرسوما يحرم ذكر هذه العبارة في الأذان ، وأن يقول مؤذنو القصر بدلها عبارة « الصلاة خير من النوم » ، فيذكرها المؤذنون عند ذكر عبارة « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

وفي ربيع الثاني سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) عاد المؤذنون إلى ذكر « حي على خير العمل » ؛ وفي سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أمر هذا الخليفة مؤذني الجامع الأزهر بألا يستعملوا عبارة « السلام على أمير المؤمنين » في الأذان ، وأن يقولوا بدلها عبارة « الصلاة رحمك الله »[١].

وقد أبطل الحاكم عادة تقبيل الأرض بين يديه ولثم يديه وركابه[٢] ؛ وعلل المقريزي سبب العدول عن هذه العادة بأنها كانت من عادات البيزنطيين[٣] . كذلك أمر هذا الخليفة ألا يزاد على السلام « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! »[٤] ، وأن يقتصر في مكاتبته على هذه الكلمات « سلام الله وتحياته ونوامي بركاته على أمير المؤمنين ! » وأن يقتصر الخطباء على ذكر العبارة الآتية : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين عليّ المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك »[٥] .

وقد قال المقريزي عند كلامه على الدعوة الفاطمية أيام الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي : « وكان الأفضل أبطل الموالد الأربعة : النبوي والعلوي والفاطمي والإمام

---

(١) انظر ماذكرته عن ألقاب الخليفة في كتابي : « تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٥٧) ج ١ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٢) يحيى بن سعيد ص ٢٠٥ . ابن ميسر ص ٧٥

(٣) خطط ج ٢ ص ٢٨٨

(٤) يحيى بن سعيد ص ٢٠٥

(٥) المقريزي : خطط ج ٢ ص ٢٨٨ .

الحاضر ، فأعيدت فى سنة ست عشرة وخمسمائة »[١] .

وفى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) تقلد أبو علىّ بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة فى خلافة الحافظ ، فقبض على الخليفة وحبسه ، واستولى على ما فى القصر من الأموال والذخائر ، وقبض على زمام الأمور . وكان إماميا مغاليا ؛ فأظهر الدعاء للإمام المنتظر ، وأزال من الأذان « حى على خير العمل » وقولهم « محمد وعلىّ خير البشر » ، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الذى تنسب إليه الإسماعيلية . ولما قتل فى السادس عشر من المحرّم سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ ، وعاد الأذان إلى ما كان عليه[٢] .

ولما استبد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالأمر فى مصر أبطل شعائر الفاطميين ، فأعاد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) إلى أذان الفجر « السلام عليك يارسول الله ! » .

(ط) الدعوة الفاطمية فى القصور :

رغب الفاطميون فى الحصول على أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم . وقد حمل المهدى معه ، على ما ذهب إليه ابن الأثير[٣] ، من سلمية جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه ؛ ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه إلى سجلماسة ، فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس . ويزيد هذا المؤرخ على ما تقدم أن أباالقاسم بن المهدى استعاد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

أما كون هذه الكتب أو بعضها قد حملها المعز معه إلى القاهرة ، فشىء لا يمكننا الجزم به . ولقد كان مذهب السنة هو المذهب السائد فى مصر قبل أن يتم فتحها على يد الفاطميين ؛ ولهذا نشك فيما إذا كان فى مكاتب الفسطاط والقطائع شىء من الكتب التى تتناول الكلام عن المذهب الشيعى ، إذ ليس هناك دليل واضح يشير إلى أنه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجح أن المعز قد حمل معه إلى مصر عدداً عظيما من الكتب التى

---

(١) المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ٢٠٦ ب . انظر كتاب "تاريخ الخلافة الفاطمية" لوستنفلد Geschichte der Fatimiden — Chalifen, pp. 270-289.

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ . أبو الفدا ج ٣ ص ٥ و ٦ . المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٧١ .

(٣) ج ٨ ص ١٤ .

كانت فى مكتبته الخاصة بالقيروان مع ما حمله من الأثقال عند رحيله إلى هذه البلاد .

وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى بإغلاقها ، إذ نمى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب .

وقد اعتنق هذا المذهب شيخان من الأساتذة المحنكين فى القصر . لهذا وذاك أمر الأفضل بإغلاق هذه المكتبة ، لأن وجودها أصبح لا يتفق والغرض الذى أنشئت من أجله ، وهو بث عقائد المذهب الشيعى لا غير ، وكانت نتيجة ذلك أن قتل نفر ممن دانوا بعقائد هذا المذهب[1] .

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) أمراً بإعادة دار العلم إلى ما كانت عليه ؛ فتردد عليها حامد القصار أحد زعماء البديعية ، وادعى الربوبية ؛ ونمى إلى الخليفة أنه دان بمذهب أبى الحسن الأشعرى[2] ، ثم انسلخ عن الإسلام . ويقول المقريزى[3] إن حامداً هذا سلك طريق الحلاج[4] فى التمويه ، فاستهوى من ضعف عقله وعميت بصيرته .

(ى) الدعوة الفاطمية فى دور العلم :

ومهما يكن من شىء ، فلا شك فى أنه كان فى القصر وفى دار العلم مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها تعضيد نشر عقائد الفاطميين وتلقينها الناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول على النسخ الفريدة النادرة كما قلنا ،

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٠

(٢) وهو إمام من أئمة التوحيد ، ومن أساطين مذهب السنة .

(٣) خطط ج ١ ص ٤٦٠

(٤) وهو أحد المتصوفين . ويروى عنه أنه قال ما فى الجبة غير الله — يعنى جبته — وقد قتل من أجل ذلك .

حتى أتيح لمكتبة القصر فى القاهرة أن تنافس وتبذ غيرها من المكتبات فى العالم الإسلامى[١] .

على أن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على الباحثين فى تاريخ الفاطميين فى مصر أن يقفوا وقوفاً تاماً على تاريخ الإمبراطورية الفاطمية العظيمة . فالأيوبيون السنيون الغلاة ، الذين كانوا أعداء ألداء للشيعة ، لم يحاولوا القضاء على الشعائر الشيعية فحسب ، بل عملوا على إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها .

وكان فقهاء الدولة تحت نفوذ داعى الدعاة ، ولهم مكان خاص بالقصر ، هو دار العلم ؛ فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون إليه فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المحاضرات كانت تعرض قبل إلقائها على الخليفة ، فيقرها ويذيلها بإمضائه ، ثم تبلغ إليهم عن طريق داعى الدعاة الذى كان يعرضها بنفسه[٢] .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسى الدعوة فى الإيوان الكبير فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً هو مجلس الداعى وفيه يلقنهن أصول مذهب الإسماعيلية .

لم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون فى هذا السبيل . فقد ذكر لنا المقريزى نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقته : فكان لآل علىّ مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس . وللحرم خواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن فى الجامع الأزهر[٣] .

---

(١) ذكر الأستاذ نيكلسون فى كلامه عن مكتبة الحكم الثانى فى أسبانيا : " كان القرن العاشر الميلادى مصر ازدها وبهاء فى تاريخ الأندلس ...... وكان الحكم محباً للكتب شغوفاً باقتنائها . وكان يرسل عماله إلى مختلف النواحى لابتياع المخطوطات ، فجمع من وراء ذلك أربعمائة ألف مجلد أودعها قصره الذى غص بخازنى الكتب وبالنساخ والمجلدين " .
(Literary History of the Arabs, p. 419).

انظر أيضاً ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ والمقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٩١

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٩١ .

وإذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضرته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة . ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى[1] من الإسماعيلية ، وأن يدوّن اسم من يدفع إليه أكثر من المال المقرر ؛ وفي عيد الفطر كان يجمع مال كثير يودع بعضه في بيت المال[2] .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعي الدعاة مكاناً كبيراً في القصر : ذلك أنه في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) في خلافة العزيز ، قُلِّد قاضي القضاة محمد بن النعمان وظيفة الدعوة إلى مذهب آل البيت في القصر ، كما كان أخوه الحسين في القاهرة وأبوه في بلاد المغرب . ويحدثنا المقريزي عن المسبحي أن الزحام اشتد بالناس فمات منهم أحد عشر رجلا[3] .

وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية منها والدينية نجاحا عظيما في خلافة الحاكم بأمر الله ؛ فقد بذل مجهوداً كبيراً في سبيل نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرغم كثيراً من الناس على اعتناق المذهب الفاطمي بما سنه من القوانين الجائرة . كما كان من أثر إقبال الناس على الدخول في هذه الدعوة أن جعل لهم يومان في الأسبوع لتلقي تعاليم هـذا المذهب . وفي السادس عشر من رجب سنة ٣٩٧ هـ (٩٣٨ م) صرف قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وأقر في الدعوة مكانه مالك بن سعيد الفارقي ؛ فتسلم منه كتب الدعوة التي كانت تقرأ على الناس في القصر[4] .

أما كتب الدعوة التي يشير إليها المقريزي ، فهي من غير شك الكتب التي ألفها رجال من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي ويعقوب بن كلس ؛ وقد وصف لنا المقريزي نسخة من كتاب ابن كلس كانت في حوزته .

---

(١) زاد المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٩١) على هذا فقال : إن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلث ؛ ومن سراة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثي دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره في الحول ، ويعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة ، وفيها ما يأتي : " بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ! " ، فيدخر ذلك ويفخر به .

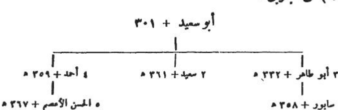
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩١

(٣) المقريزي خطط ج ١ ص ٣٩١ و ج ٢ ص ٣٤١ — ٣٤٢

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٦

٣ — الدعوة الفاطمية فى المشرق

(ا) فى البحرين :



أرسل عبدالله بن ميمون ، وهو فى الأهواز أحد دعاته وهو الحسين الأهوازى ، الذى يقول دى غويه[1] إنه ابنه ، إلى سواد الكوفة حيث لقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط[2] ، الذى لم يلبث أن دخل فى الدعوة وساعد على نشرها ، كما ساعد الحسين الأهوازى على جذب كثير من الناس إلى دعوته بفضل ما كان يظهره من التقشف والورع ؛ فكان يأخذ من الرجل إذا دخل فى دينه ديناراً ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام . فكث بذلك يدعو أهل القرى (فى سواد الكوفة) فيجيبونه . واتخذ منهم اثنى عشر نقيباً أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينهم ، وقال لهم : أنتم كحوارىى عيسى بن مريم »[3] .

وقد ترك الحسين الأهوازى أمر الدعوة فى سواد العراق إلى حمدان قرمط ، الذى اتخذ كلواذا إحدى ضواحى بغداد ، مركزاً لنشر هذه الدعوة . ولم يلبث أن زاد عدد أتباعه الذين أمرهم فى سنة ٢٧٦ هـ بشراء الأسلحة ، وأنشأ أول دار للهجرة فى السنة التالية .

ويقول النويرى[4] :

---

(١) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, p. 18

(٢) اختلف المؤرخون فى أصل كلمة قرمط ، فقال المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٠١) إن حمدان ابن الأشعث كان قصير القامة والسير ، وكانت خطواته متقاربة ، فأطلق عليه اسم قرمط . وفى القاموس ما يوضح هذا الاشتقاق إذ يقول : القرمطة دقة الكتابة ومقاربة الخطو » . وقيل أيضاً إنه كان فى القرية رجل أحمر العينين يحمل على أثوار له ، يسمونه كرميتة لحمرة عينيه (ومعناه بالنبطية أحمر العين) ، فسمى باسم الرجل الذى فى دار كرميته ، ثم خفف اللفظ فصار قرمط . وقال المنصورى (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة : مخطوط بجامعة القاهرة ج ٥ ورقة ٣٦) إن لفظ قرمط ينسب إلى محمد الوراق الذى يعرف بالمقرمط . وقد تم على يديه انتشار المذهب الإسماعيلى بين القرامطة .

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٣٣٨

(٤) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٦٩.

« وظهر فى كثير منهم الفجور ، وبسط بعضهم أيديهم لسفك الدماء ، وقتل جماعة ممن أظهر خلافا لهم ، فخافهم الناس واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم . فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم جزعاً منهم . ثم إن الدعاة اجتمعوا واتفقوا على أن يجعلوا لهم موضعاً ، يكون وطناً ودار هجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها ، فاختاروا من سواد الكوفة ... قرية ... فحازوا إليها صخراً عظيما ، وبنوا حولها سوراً منيعاً ، عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وفرغوا من ذلك فى أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم . وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان ، وسميت دار الهجرة ، وذلك فى سنة سبع وسبعين ومائتين . فلم يبق حينئذ أحد إلا خافهم ، ولا بقى أحد يخافونه ، لقوتهم ولتمكنهم من البلاد » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان قرمط رواجا عظيما بين العرب ، حتى إنه عهد إلى بعض العرب فى نشر الدعوة بين العناصر العربية . كما سن حمدان قرمط نظاماً ماليًا متقناً ، ففرض على كل من الرجال والنساء درهما سماه « الفطرة » ، ثم فرض « الهجرة » ، وهى دينار على كل شخص بالغ . واستند فى فرض هذه الأموال إلى ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة التوبة[1] (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) . ثم فرض عليهم « البُلغة » ، وهى سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول فى السابقين المذكورين فى قوله تعالى (والسابقون السابقون أولئك المقربون)[2] . ووضع حمدان طعاما حلواً لذيذاً على قدر البندق ، أعطى واحدة منها لكل من أدى إليه سبعة دنانير ، وزعم أن ذلك طعام أهل الجنة ، نزل إلى الإمام من ولد على بن أبى طالب . فكان يعطى كل داع مائة بلغة ويطالبه بأداء سبعمائة دينار عنها ، لكل واحدة منها سبعة دنانير . ثم تدرج من ذلك كله إلى أن فرض خمس ما يملكه أتباعه ويربحونه ، معللا ذلك بقوله تعالى فى سورة الأنفال[3] (واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين

(١) سورة التوبة ٩ : ١١٢ .

(٢) سورة الواقعة ٥٦ : ٩ — ١٠

(٣) سورة الأنفال ٨ : ٤٠ .

وابن السبيل)[١] . ولم يلبث أن فرض على الناس « الألفة » . يقول النويرى[٢] :

« ثم فرض عليهم « الألفة » ، وهى أن يجمعوا موالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة ، لا يفضل أحد منهم صاحبه ولا أخاه فى ملك يملكه ، وتلا عليهم : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[٣] وقوله : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[٤] . وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون . وطالبهم بشراء السلاح و إعداده ، وذلك كله فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة فى كل قرية رجلا مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال أهل قريته ، من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيراً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ؛ وأخذ كل رجل منهم بالانكماش[٥] فى صناعته والكسب جهده ، فيكون له الفضل فى رتبته . وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبى أجرة نظارته الطير ، وأتوه بها ؛ فلم يتملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه » .

وكان عبدان صهر حمدان قرمط من أكبر دعاته[٦] ؛ وكان مشهوراً بعلمه وتشيعه . ويقول النويرى[٧] : « كان فطناً خبيثاً ، خارجاً عن طبقة نظرائه من أهل السواد ، ذا فهم وحذق . فكان يعمل عند نفسه على حد قد نصب له ، من غير أن يجاوزه إلى غيره من خَلع الإسلام ، ولا يظهر غير التشيع والعلم ، ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ، محمد ابن إسماعيل بن جعفر » .

وقد صادفت الدعوة الإسماعيلية على يد عبدان كثيراً من النجاح ، حتى إن أبا سعيد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ — ١٠٥
(٢) نهاية الأرب : مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٥٨
(٣) سورة آل عمران ٣ : ١٠٢
(٤) سورة الأنفال ٨ : ٦٢ .
(٥) الاجتهاد والتشمير .
(٦) قد قيل إن كلا منهما تزوج من أخت الآخر .
(٧) نهاية الأرب : ج ٢٣ ورقة ٢٦ .

الجنابى ، مؤسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين ، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أى شمال غربى بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام ، قد أخذوا الدعوة عنه .

ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط ، وقتل عبدان ، على أثر انتقاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ، ونحو الجنوب على يد أبى سعيد الجنابى كما سيأتى :

كان زكرويه بن مهرويه من أكبر دعاة حمدان كما رأينا ؛ وقد نشأ فى إحدى قرى سواد الكوفة ، حيث أخذ يدعو إلى إمامة محمد بن إسماعيل . وبانتقاض حمدان وعبدان على رياسة الدعوة انضم زكرويه إلى أبناء القداح وقتل عبدان . ولما أخذ قرامطة السواد والعباسيون أنفسهم يضيقون عليه الخناق ، اختفى فى مطمورة[1] ، وبدأ يوجه دعوته فى الخفاء ، وبعث أبناءه لنشر الدعوة الإسماعيلية فى بنى كلب على مقربة من الرقة ، ونجح ابنه يحيى بن زكرويه فى جذب طائفة من هؤلاء العرب إليه .

وامتد نشاط هـذا الفرع فى شمال العراق الغربى وبادية السماوة وبعض مدن الشام . وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام (The Syro - Meso - potamian Movement)[2] . ويقول الطبرى[3] : « فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوه وخالطوهم ، وانتموا إلى على بن أبى طالب ، وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان ، وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلوهم على ذلك . ثم دبوا فيهم بالدعاء[4] إلى رأى القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم ، أعنى من الكلبيين ، إلا الفخذ المعروفة ببنى العُليص ابن ضمضم بن عَدى بن جَناب ، ومواليهم خاصةً ، فبايعوا فى آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ، ابن زكرويه المسمى بيحيى والمكنى أبا القاسم ، ولقبوه الشيخ ، على أمر احتال فيهم ولقب به نفسه ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد

---

(١) المطمورة الحفيرة التى تحت الأرض ، وتستخدم لخزن الغلال ، كما تستخدم أيضاً لحبس الأشخاص الخطرين .

(٢) Bernard Lewis : The Origins of Ismailism, pp. 73 — 4

(٣) ج ١١ ص ٣٧٧ — ٣٧٨

(٤) يريد أنهم نشروا فيهم مذهب القرامطة شيئاً فشيئاً بالحيلة والدهاء أى تدرجوا معهم

ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ... وقيل إنه لم يكن لمحمد بن إسماعيل ابن يسمى عبد الله ، وزعم لهم أن أباه المعروف بأبى محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمشرق والمغرب مائة ألف تابع ، وأن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى مسيرها ظفروا . وتكهن لهم ، وأظهر عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آية . وانحازت إليه جماعة من بنى الأصبغ وأخلصوا له ، وتسموا بالفاطميين ، ودانوا بدينه » .

ولم تلبث دعوة يحيى بن زكرويه أن انتشرت فى بلاد الشام ، حتى إنه حاصر دمشق نفسها فى سنة ٢٨٩ هـ ، وضيق الحصار على طغج بن جف أبى محمد بن طغج الإخشيد ، وكان يلى بلاد الشام من قبل الطولونيين . ولم ينقذه إلا بدر الكبير الذى أرسله إليه هارون بن خارويه . وقتل يحيى على أبواب دمشق ، فانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين بن زكرويه الذى ادعى ، كأخيه يحيى ، الانتساب إلى محمد بن إسماعيل[1].

وقد استمرت حركة الحسين بن زكرويه مصدراً للقلق والانزعاج فى بلاد الشام ، حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى فى سنة ٢٩١ هـ . ومن ثم تحول مركز نشاط قرامطة الشمال نحو الكوفة نفسها . وخرج زكرويه من مخبئه وحارب ضد العباسيين ، وفتك بقوافل الحجاج انتقاما لقتل ابنيه ورغبة فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، إلى أن قضت عليه جيوش العباسيين فى سنة ٢٩٤هـ[2].

انتشرت الدعوة الإسماعيلية فى القطيف على يد الحسين بن بهرام ، ويكنى أبا سعيد الجنابى[3] ، وكان فارسى الأصل . وقد التف حوله جماعة من الأعراب والنبطيين الذين رحبوا بدعوته ، لأنه مناهم « ملك الأرض كلها »[4] . وما لبث أن استفحل أمره وقويت شوكته ، وقتل من وقف فى طريقه من أهل القطيف .

وفى سنة ٢٨١ هـ سار إلى القطيف رجل من كبار دعاة الإسماعيلية ، يدعى يحيى بن المهدى ، وادعى أنه رسول المهدى من بيت على بن أبى طالب . فأجاب دعوته أهل هذه

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٢٢

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٢٣ — ١٢٤

(٣) نسبة إلى جنابة ، وهى بليدة على ساحل الخليج الفارسى شرقاً

انظر القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد (طبعة جوتنجن) ص ١٢١

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٨

المدينة وسائر بلاد البحرين . ولم يلبث يحيى أن غاب عن الناس مدة ، ثم عاد يحمل كتاباً ادعى فيه أنه من المهدى إلى شيعته ، يأمرهم فيه بأن يدفع كل منهم إلى يحيى ستة دنانير وثلثين ، ففعلوا . ثم غاب مدة أخرى ، وعاد ومعه كتاب يبلغهم فيه أن المهدى يريد منهم أن يدفعوا إلى يحيى خمس أموالهم ، ففعلوا أيضاً[1] .

وممن أجاب يحيى بن المهدى ، أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى الذى قوى أمره وانتشرت دعوته وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة . وأغار فريق من القرامطة بقيادة أبى سعيد على هجر ، ولم يلبث أن أتم فتح بلاد البحرين واليمامة ، وحاول فتح عمان ، ولـكنه لم يستطع ، وترك ذلك لابنه أبى طاهر . وقد خشى الخليفة المعتضد تفاقم خطر أبى سعيد ، وخاف أن يقع فى يده جنوبى بلاد العراق ، فعزل العباس بن عمرو الغنوى عن ولاية فارس ، وأقطعه اليمامة والبحرين ، وعهد إليه بحرب القرامطة .

سار العباس إلى البصرة حيث انضم إليه كثير من المتطوعين ، ثم واصل السير إلى البحرين ، فهزمه أبو سعيد الجنابى ، واستولى على ما كان معه من سلاح وكُراع ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، حتى إنه لم ينج منهم سوى قائدهم العباس الغنوى ، الذى لقب بعد هذه الموقعة « قائد الشهداء » . وقد أرسل أبو سعيد مع العباس كتاباً طويلا حاول فيه أن يثير مخاوف الخليفة العباسى حتى لا يفكر فى غزو بلاده[2] .

على أن المعتضد لم يعر هذا الـكتاب اهتماماً ، بل صمم على حرب أبى سعيد والقضاء على دعوته فى بلاد البحرين ، وعبر عن ذلك بهذه العبارة : « والله لئن طال بى عمر ، لأشخصن بنفسى إلى البصرة ، وجميع غلمانى ، ولأجهزن إليهم جيشاً كثيفاً ، فإن هزمهم ، خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه ، حتى يحكم الله بينى و بينه »[3] .

وقد أثر عن المعتضد أنه قال وهو فى مرضه الأخير : والله لقد كنت وضعت فى نفسى ، أن أركب ثم أخرج إلى باب البصرة ، متوجهاً نحو البحرين ، ثم لا ألقى أحداً أطول من

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٥

(٢) راجع نص هذا الكتاب فى De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, pp. 210—12 نقلا عن كتاب العيون المخطوط بمكتبة برلين

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ٧٣ — ٧٤

سيفى إلا ضربت عنقه . وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة »[1] .

لم تقع بين أبى سعيد الجنابى والدولة العباسية حروب فى عهد الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) لعاملين هامين :

الأول : رغبة أبى سعيد نفسه فى عدم الدخول فى حرب مع العباسيين لاشتغاله بتنظيم شئون بلاده الداخلية .

الثانى : اشتغال العباسيين عن أبى سعيد بصراعهم مع قرامطة الشمال بزعامة زكرويه ابن مهرويه وأبنائه كما تقدم .

وقد عمل أبو سعيد على تكوين مجتمع إسماعيلى يدين له بالطاعة والولاء وطارد من جاوره من بنى ضبة ، وكانوا قد انضموا إلى جيوش العباس الغنوى ، حتى لا يكونوا عيوناً عليه . وقد وصف لنا هذا المجتمع النويرى[2] ، وعنه أخذ المقريزى[3] ، فى هذه العبارة ، قال :

« وأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العباس على جمع الخيل وإعداد السلاح ، واتخاذ الإبل ، وإصلاح الرجال ، ونسج الدروع والمغافر[4] ، ونظم الجواشن[5] والمزاد (لحمل الزاد) والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية . وطرد الأعراب عن قُربه ، وسد الوجوه التى يتعرف فيها أمر بلده وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضى المزارع وأصول النخل وعمارته ، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها ، ونصب الأمناء على ذلك وإقامة العرفاء[6] على الرجال ، والاحتياط على ذلك كله ، حتى بلغ من تفقده واحتياطه أن الشاة كانت تذبح ، ويسلم اللحم إلى العرفاء ليفرقوه على من يرسم لهم ، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرق على من يغزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه عبيا وأكسية ، وغرائر وجوالقات[7] ، ويفتل منه حبالا ، ويسلم الجلد إلى الدباغ . فإذا

(١) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٧٤
(٣) اتعاظ الحنفا ص ١١١ — ١١٢
(٤) جمع مغفر وهو زرد ينسج على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة
(٥) جمع جوشن وهو الدرع
(٦) جمع عريف وهو من يكون على النفير ، والنفير عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة كما يكون المنكب على خمسة عرفاء ، والأمير فوق هؤلاء ، أو من يعرف أصحابه ويقوم بأمرهم .
(٧) الجوالقات والغرائر شىء واحد وهو العدل من الصوف أو الشعر

خرج من الدباغ ، سلم إلى خرازى القرب والروايا والمزاد ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفافا[1] عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن . فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه ، ويوجه فى كل مدينة بخيل إلى ناحية البصرة ، فتأخذ من وجدت ، فتصير بهم إليه ، فيستعبدهم ، فزادت بلاده وعظمت هيبته فى صدور الناس .

وهكذا استطاع أبو سعيد أن ينظم مجتمعه ويكون من أبناء الأسرى وأبناء أتباعه جيشاً لا يعرف غير الطعن والنزال حرفة ، وطاعة الرئيس دينا ، لجمع « الصبيان فى دور ، وأقام عليهم قواداً ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسمهم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم ، وعرّف عليهم عرفاً ، وعلم من صلح لركوب الخيل والطعان : فنشأوا لا يعرفون غيره ، وصارت دعوتهم إليهم »[2] .

وصفوة القول أن القرامطة فى دور الستر قد أقلقوا العباسيين ؛ فأشعلوا الفتن فى سواد الكوفة ، وفى العراق العربى وبادية السماوة ، وفى أكثر أرجاء سورية ، وكان لهم أثر كبير فى سقوط الدولة الطولونية أضف إلى ذلك ما لقيه أبو سعيد من نجاح فى القطيف وفى بلاد البحرين واليمامة .

رأينا كيف استطاع أبو سعيد الجنابى تأسيس دولة فى بلاد البحرين . وقد نهج فى آخريات حياته سياسة التقرب من العباسيين ، الذين استمعوا لنصيحة على بن عيسى وزير الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وعملوا على استمالة أبى سعيد إليهم . ولذلك نرى أبا سعيد لا يقوم بأية محاولة جدية لمساعدة الفاطميين حين غزوا مصر المرة الأولى فى سنتى ٣٠٠ ، ٣٠١ هـ . ولم يقتصر أبو سعيد على ذلك ، بل غلا فى عقائده وادعى لنفسه من مظاهر التقديس ما لم يدعه أئمة الإسماعيلية أنفسهم[3] . ولما قتل أبو سعيد فى الحمام بيد أحد خدمه فى سنة ٣٠١ هـ ، اعتقد بعضهم أن ذلك كان بتدبير عبيد الله المهدى ، كما فعل مع ابن فضل بعد ذلك بسنتين .

---

(١) الخفاف جمع خف وهو ما يلبس بالقدم

(٢) النويرى نهاية الأرب ج ٢٣ ورقة ٧١

وقد ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١٠٩) العبارة الأخيرة على النحو الآتى « فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعا لهم »

(٣) De Goeje : Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, p.69.

ولما تولى ابنه سعيد (٣٠١ — ٣٠٥ هـ) سار على سياسة أبيه التى تنطوى على التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين ، مما حزّ فى نفوسهم ونفوس فريق من القرامطة ، الذين كانوا لا يزالون على ولائهم للفاطميين بعد قيام دولتهم فى بلاد المغرب ، فأثاروا الفتن فى وجه سعيد وخلعوه وولوا أخاه أبا طاهر ، وأقرهم عبيد الله المهدى على ذلك (سنة ٣٠٥ هـ)[١] . وقد أخذ أبو طاهر على عاتقه تنفيذ سياسة الفاطميين ، وتحقيق أغراضهم التى كانت ترمى إلى القضاء على العباسيين . ومن ثم نرى أبا طاهر يوجه حملاته الإرهابية إلى العباسيين فى الوقت الذى كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر . ففى سنة ٣٠٧ هـ نرى أبا طاهر يحاول الاتصال بجيوش الفاطميين فى مصر بزعامة أبى القاسم بن عبيد الله المهدى ؛ ولكن مؤنسا الخادم قائد الخليفة العباسى المقتدر يحول دون اتصال جيوش أبى طاهر وجيوش الفاطميين[٢] . كذلك نرى أبا طاهر يشن إغاراته البحرية على جنوب غربى بلاد فارس فى الوقت الذى تتوجه فيه جيوش الفاطميين حين غزوتهم لمصر فى سنة ٣٢١ هـ . وإنما فعل أبو طاهر ذلك ، ليشغل جيوش العباسيين ويتيح الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر ، وتحقيق غرضهم الأساسى ، الذى كان يرمى إلى امتداد نفوذهم إلى هذه البلاد واتخاذها جسراً يعبرون منه إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين[٣] .

وقد ذهب ابن الجوزى[٤] إلى وجود علاقة بين أبى طاهر القرمطى ، وابن أبى الساج قائد العباسيين ، وقد بعث به لمحاربة أبى طاهر ، الذى ظل على ولائه للفاطميين إلى أن توفى سنة ٣٣٢ هـ ، والذى أعلن غير مرة تبعيته للفاطميين . فنراه يشيد فى إحدى قصائده بأحقيتهم بالخلافة ، ويقرر هذه التبعية فى قصيدة أنشدها بعد عودته من العراق دون أن يحقق أمنيته فى فتح هذه البلاد ، وفيها يعلن فى صراحة أنه من أتباع المهدى ورعاياه ، وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين :

---

(١) بن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٩ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ص ٩٣ .

(٤) دى غويه : Les Carmathes du Bahrain, pp. 216—8 ، نقلا عن ابن الجوزى : مخطوط شيفر Schefer ص ١٤٣ أ .

ابن أبي سعيد ، وانتهى الأمر بقتل سابور بن أبي طاهر في سنة ٣٥٨ هـ ، ونفي أنصاره إلى جزيرة أوال[1] . وقد أثار قتل سابور حنق الفاطميين ، لأنهم كانوا ولوه العهد بعد عمه أحمد ، وعدوا قتله خروجاً على طاعتهم . وقد ذهب دى غويه[2] إلى القول بأن غزو القرامطة لبلاد الشام سنة ٣٥٨ هـ كان بإيعاز الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، ليسهل عليه الاستيلاء على ممتلكات الإخشيديين ، والقول بأن أحمد بن أبي سعيد وأنصاره هم الذين أوحوا بإبرام الصلح مع الحسين بن عبيد الله بن طغج الإخشيد والى بلاد الشام دون الرجوع إلى الفاطميين ، واتفقوا معه على أن يدفع إليهم ثلثمائة ألف دينار في السنة . وقد أغضب هذا الاتفاق الفاطميين ، كما أغضب سابور الذى كان يناصرهم ، واعتبروا هذا العمل تحدياً لهم ، وافتئاتاً على رياسة الدعوة الإسماعيلية . وزاد قتل سابور الخليفة الفاطمي حنقاً على بيت أحمد بن أبي سعيد وانقسم القرامطة بسبب ذلك فريقين :

فريق بزعامة بيت أبي طاهر ، ظل على ولائه للفاطميين ، وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم ، أصبح يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب إلى العباسيين[3] .

ولم يكن بد إذاً من نشوب الحرب بين القرامطة المعارضين وبين الفاطميين . فلما مات أحمد بن أبي سعيد استبد ابنه الحسن الأعصم بالأمر من بعده ، واستهل عهده بطرد جميع أنصار سابور ليصفو الجو له ، وعمل في الوقت نفسه على التقرب إلى العباسيين ، واتخذ من استيلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هـ ، ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة من قبل ، ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، والمسير إلى بلاد الشام ، والاستيلاء عليها وأخذ هذه الجزية بالقوة .

وقد حاول الحسن الأعصم ، محالفة الخليفة العباسي المطيع والوقوف معه في وجه سادته الفاطميين . على أن هذا الخليفة لم يرحب بهذه المحالفة ، لاعتقاده أن القرامطة ملاحدة

---

(١) أوال بوزن سحاب جزيرة كبيرة بالبحرين عندها مغاص اللؤلؤ .

(٢) De Goeje : Les Carmathes du Bahrain, p. 186.

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة ليدن سنة ١٨٧٢ م) ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ .

خارجون على الإسلام . وفى ذلك يقول أبو المحاسن[1] : « وسار القرمطى ، واسمه الحسن ابن أحمد بن أبى سعيد بن بهرام القرمطى ، إلى بغداد ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) ، أن يمده بمال ورجال ، ويوليه الشام ومصر ليخرج المعز منها ؛ فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها وقال : كلهم قرامطة وعلى دين واحد : فأما المصريون — يعنى بنى عبيد — فأماتوا السنن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء — يعنى القرامطة — فقتلوا الحاج وقلعوا الحجر الأسود » .

أما البويهيون ، فعلى الرغم من ميلهم إلى العلويين ، كانوا يخشون امتداد نفوذ الفاطميين إلى ما وراء بلاد الشام وتعريض نفوذهم للضعف والزوال . ولذلك أوحت إليهم العوامل السياسية بمد يد المساعدة إلى القرامطة والوقوف معهم جنباً إلى جنب فى وجه الدولة الفاطمية الناشئة . ومن ثم نرى بختيار بن معز الدولة بن بويه يمد القرامطة بالأموال ، ويطلب إلى الحدانيين إمدادهم[2] .

سار الحسن الأعصم القرمطى بعد ذلك إلى الشام ، واشتبك مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة على نهر يزيد بمقربة من دمشق ؛ فدارت الدائرة على جعفر بن فلاح ، فأسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذو الحجة سنة ٣٦٠ هـ) ، ومثل بجثته محمد بن عصودا ، فصلبه على حائط داره انتقاما لأخيه إسحق ، وكان جعفر قد قتله وصلبه[3] .

وهكذا استولى الحسن القرمطى على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمى المعز على منبر المسجد الأموى . وقد علق أوليرى دى ليسى[4] على هذه الحادثة بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهى للامام الفاطمى ؛ ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً . وقد يرجع ذلك إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين مغالين فى عدائهم للشيعة والقرامطة[5] ، الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل على ، والذين كانوا لا يهتمون بالعلاقات المذهبية أيا كانت » .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ .

(٤) O'Leary de Lacy : A Short History of the Fatimid Khaliphate, p. 108

(٥) يقصد من القرامطة هنا الذين ينتمون إلى الحسن الأعصم .

عزم القرامطة على غزو مصر بعد استيلائهم على بلاد الشام ؛ فسار الحسن بن أحمد إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيدية والكافورية ، وكان واليها سعادة ابن حيان المغربي غلام المعز قد هرب منها في شوال سنة ٣٦٠ هـ وقصد إلى يافا ، ثم استأنف الحسن السير إلى مصر ، فاستولى على الفرما في المحرم سنة ٣٦١ هـ ، وفتحت له تنيس أبوابها ، واعترفت بسلطانه وخرجت على واليها ، ووزعت المنشورات في جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط لحض الناس على عصيان جوهر الصقلي . ثم أمعن الحسن القرمطي في السير في داخل البلاد ، وعسكر بجنده في عين شمس ، وهدد مدينة القاهرة . ولما علم جوهر بوصول القرامطة إلى القلزم ، وهي مدينة السويس الآن ، أعد العدة للوقوف في وجههم والحيلولة دون وصولهم إلى القاهرة ، فحفر حولها خندقا أقام عليه بابين من حديد ، ثم أرسل فريقاً كبيراً من جنده تظاهروا بالانضمام إلى القرامطة والسخط على الفاطميين ، وأوقعوا الانقسام في صفوفهم . وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ بدأ القتال بين الفاطميين والقرامطة عند باب مدينة القاهرة ، وانتهت المعركة بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم[1] .

ولما سمع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة لمصر ، أرسل إليها جيشاً بقيادة أبي محمد الحسين بن عمار ، فازدادت قوة جوهر الحربية ، وعول على إخضاع مدينة تنيس التي انضم أهلها إلى القرامطة ، فسار إليها وأخضعها ثم عفا عن أهلها . وعاد الحسن القرمطي إلى دمشق ، ورجع أسطوله من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الأحساء لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر .

ويظهر أن هذه الصعاب التي صادفها جوهر في حرب القرامطة ، واعتقاده أن مصر لا تزال معرضة لخطرهم قد بعثه على أن يطلب إلى الخليفة المعز الحضور بنفسه إلى مصر وتسلم زمام الحكم فيها ، والتأهب لحرب هؤلاء القرامطة وإبعاد خطرهم . وفي أواخر سنة ٣٦٢ هـ قدم المعز إلى مصر ، واتخذ مدينة القاهرة قاعدة لدولته ، وأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطي كتاباً طويلاً[2] يهدده فيه ويتوعده ، ويعرض عليه في نهايته أن يختار لنفسه

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٨٦ ، خطط ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) راجع هذا الكتاب في المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ — ١٤٣ .

إحدى ثلاث خصال ، وإلا أصبح الحكم بينهما السيف وحده :

« ونحن عارضون[1] ثلاث خصال ، والرابعة أردى[2] لك وأشق لبالك . وما أحسبك تحصل إلا عليها ، فاختر : إما قُدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة[3] من عقال ناقة وخِطام بعير وهى أسهل ما يُرد عليك . وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار . وإما سرت بمن معك بغير ذمام[4] ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمتُ ، وأجريكم على (إحدى) ثلاث : إما قصاص ، وإما منّ بعد ، وإما فداء ، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك . وإن أبيت إلا فعل العين ، فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا سماء تُظلك ولا أرض تُقلك ولا ليل يجنك ولا نهار يكنك ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك . قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فلا ملجأ لكم إلى الله يومئذ ، ولا مَنجى منه ... فلا تجد فى السماء مصعداً ، ولا فى الأرض مقعداً ، ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجاً ، ولا فى الجبال مسلكا ، ولا إلى الهواء سلماً ، ولا إلى مخلوق ملتجأ ، حينئذ يفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحبابك ، ويخذلك أترابك ، فتبقى وحيداً فريداً ، وخائفاً طريداً ، وهائماً شريداً ، قد ألجمك الفرق[5] ، وكظمك القلق ، وأسلمتك ذنوبك ، وازدراك خزيك (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسانُ يومئذ بما قدم وأخر)[6] » .

وقد رد الحسن القرمطى على هذا الكتاب بهذه الكلمات القصيرة التى تدل على عدم

(١) فى الأصل معرضون .
(٢) أفعل تفضيل بمعنى أشد إرداء وإهلاكا .
(٣) يعنى إلى آخر شيء أخذتموه ولو كان حبة .
(٤) يعنى عهداً نؤمنك به .
(٥) فى الأصل العرق ، ولعله تحريف عن الفرق بفتح الفاء والراء وهو الخوف والفزع .
(٦) سورة القيامة ٧٥ : ١١ — ١٣ .

مبالاته بتهديد المعز ووعيده ، وعلى مضاء عزيمته وشدة رغبته فى محاربة الفاطميين فقال : « وصل كتابك ، الذى قل تحصيله وكثر تفصيله . ونحن سائرون إليك على إثره والسلام »[1] .

من ذلك نرى أن الحسن كان ينوى إعادة غزو مصر ، فظهر القرامطة للمرة الثانية فى عين شمس فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ ، ثم اجتمعوا أمام الخندق الذى حفره جوهر الصقلى وحاولوا اجتيازه . على أن الخليفة المعز استطاع أن يستميل الطائيين ، وكانوا من أشد جند الحسن القرمطى بأساً ، فأرسل إليهم مائة ألف دينار . وقد قيل إنه لم يكن فى بيت المال من الدنانير ما يفى بهذا الغرض ، فأمر المعز بأن تضرب نقود من الرصاص مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، ووضعت هذه الدنانير فى صناديق ، فى أعلى كل منها عدد قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص[2] . فلما استعرت الحرب بين الفريقين ، خرج الطائيون ، وتشتتت قوة الحسن .

وبذلك تغلب الفاطميون على هذه الصعوبة التى هددت كيانهم من ناحية القرامطة ، وزادت قوتهم باسترداد دمشق . فقد استغل الخليفة المعز النزاع الذى قام بين أبى المنجى القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم ، وظالم بن موهوب العقيلى أحد أنصار الحسن ، فكتب إلى ظالم يطلب إليه أن يقبض على أبى المنجى ويرسله إلى مصر . ولما تم للمعز ما أراد فى سنة ٣٦٣ هـ ، قلد ظالم بن موهوب ولاية دمشق ، « فأقيمت الدعوة فى مصر وديارها ، والشام والحجاز مع إفريقية والمغرب باسمه »[3] .

٢ — فى عهد العزيز :

وفى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى ثار أهل دمشق وطردوا عاملها ظالم بن موهوب العقيلى ، وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركى[4] واستبداده بأمورها وإقامة الخطبة

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) وقد أدرك بنو طى هذه الحيلة بعد فوات الفرصة .

(٣) ابن حماد : ملوك بنى عبيد وسيرتهم (الجزائر سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٤٦ .

(٤) كان أفتكين الشرابى مولى معز الدولة بن بويه . وقد انضم إلى الخليفة المطيع والطائع فى الحروب التى قامت فى وجه عز الدولة بختيار بن بويه . فاستنجد بختيار ابن عمه عضد الدولة ، وانتصر على أفتكين الذى خلف سبكتكين فى رياسة الترك ، وقدم دمشق فى ثلثمائة رجل من الأتراك ، واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة أهلها الذين رغبوا فى التخلص من العيارين (العيار الرجل الكثير المجىء والذهاب متردداً بلا عمل والذى يخلى نفسه وهواها) — ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

العباسيين . وقد حاول المعز استمالة أفتكين إليه ، ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته . وحاول أفتكين الاستعانة ببنى بويه فلم يسعفوه ، فولى وجهه شطر القرامطة فى البحرين ، فأرسلوا إليه جيشاً وصل إلى دمشق ، ثم رحل إلى الرملة واستولى عليها . ولما مات المعز ، عمل ابنه العزيز على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين والقرامطة ، وأرسل جوهرا الصقلى على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطى ، الذى استنجد أفتكين ، ويمما شطر عسقلان ، وحاصرا بها جوهرا ، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التى دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين جيوش الفاطميين بقيادة العزيز نفسه وبين جيوش القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذى سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم ، وعلى رأسهم اثنان من إخوة بختيار وابنه المرزبان[١] . وبذلك عادت دمشق إلى أيدى الفاطميين الذين أقيمت الدعوة باسمهم على منابرها .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم ، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى جزيرة أوال ، حيث انتقم منهم أبناء أبى طاهر[٢] . واتخذ الخليفة العزيز ، الذى كان اليد المحركة التى أوقعت الاضطراب فى صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادتهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون[٣] : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بنى العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون فى سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة المستنصر

(١) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٨ — ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

(٣) المصدر نفسه .

الفاطمى ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ . وفى ذلك يقول ابن الأثير[١] « وزال من حينئذ ناموسهم » .

(ب) فى اليمن :

يرجع نجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن إلى أبى القاسم الحسن بن أبى الفرج ، ويعرف بابن حوشب ، وبمنصور اليمن[٢] . وقد ولد ابن حوشب بالكوفة . وأمدنا أبو حنيفة النعمان المغربى ، الذى تفقه فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، وعاصر من الخلفاء الفاطميين المهدى والقائم والمنصور والمعز ، بمعلومات طريفة عن حياة ابن حوشب ، وعن أثره فى نشر عقائد هذا المذهب ، فيقول إنه نشأ فى أسرة اشتهرت بالعلم ، وخاصة الفقه والحديث . وكان يدين فى مستهل حياته بعقائد مذهب الإمامية الاثنا عشرية كسائر أفراد أسرته ، ثم تحول إلى الإسماعيلية على يد محمد الحبيب أبى عبد الله المهدى ، وأخذ عنه عقائد هذا المذهب ، وأصبح من خواصه المقربين إليه . وما زال كذلك حتى أرسله محمد الحبيب بصحبة ابن فضل الجدنى[٣] إلى بلاد اليمن حيث أقامه على رياسة الدعوة فى هذه البلاد .

وقد وصف ابن حوشب نفسه كيف اتصل برياسة الدعوة الإسماعيلية ، وكيف تحول من مذهب الاثنا عشرية واعتقد عقائد المذهب الإسماعيلى فيقول : إنه بينما كان يفكر ذات مرة تذكر القول المأثور عن على بن محمد بن على بن موسى الكاظم فى سنة ٢٥٢ هـ « ٨٦٨ م » من أن المهدى سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أى فى سنة ٢٩٦ هـ « ٩٠٨ م » وأنشد قصيدة الفهرى التى ردد فيها تنبؤ على بن محمد بن على بن موسى فقال :

ألا يا شيعةَ الحقِّ ذوى الإيمانِ والبرِّ
ومَنْ هم نُصرة الله على التخويف والزجر

---

(١) ج ٩ ص ١٦ .
يستدل مما ذكره ناصر خسرو فى كتابه سفر نامه Safar Nameh, pp. 226—8 أن دولتهم كانت لا تزال قائمة فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، كما وصف نظام الحكم حالتهم الاجتماعية وصفاً دقيقاً .

(٢) سماه المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ١١٣) : أبا القاسم الحسن بن فرج الصناديقى النجار .

(٣) جدن مفازة باليمن . وذو جدن الملك الحميرى .

فلا تدعوا إلى الداعيـــــن أهل النكث والغدر
فلو قـد فقـد العاشـــــر أو زيد على العشر
لدارت عقب الضر عـلى الدائر بالشر
فعند الست والتسعيـــن قطع القول فى العذر
لأمر ما يقول النا س بيع الدر بالبعـر
وصـار الجوهـر المكنـــون علقا غير ذى قدر

واعتقد ابن حوشب قرب ظهور المهدى ، كما يتضح من قوله : « فخرجت إلى دجلة ، ثم أخذت فى قراءة سورة الكهف ؛ فأقبل شيخ يمشى ، ما نظرت إلى أحد يملأ عينى هيبة قبله . فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب منى ، فقلت : من أنت ؟ فقال حسينى ، فاستعبرت وقلت : بأبى الحسين المضرج بالدماء الممنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر إلى ، وكلم الرجل الذى بين يديه ، فقال لى الرجل : تقدم إلينا ! فقمت وجلست بين يديه » .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذى دار بينه و بين هذا الرجل الطاعن فى السن ؛ ثم يستطرد فى الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظه عليه من رجاحة العقل ، ويصف ذلك اليأس الذى تطرق إلى نفسه لجهله المكان الذى رحل إليه . و بينا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقشعت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذى كان فى صحبة الإمام وأخبره بمقره[1] .

وقد قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذى استمال ابن حوشب إليه ، و بعث به إلى بلاد اليمن ، وقال له : « يا أبا القاسم ! إن الدين يمان ، والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من قِبل اليمن ، فإنه يكون ثابتاً لثبوت نجم اليمن ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى أقاليم الدنيا »[2] .

وفَد على بن فضل اليمنى فى سـنة ٢٦٦ هـ لزيارة بيت الله فى مكة ، وعرج منها على

(1) Quatremère, Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123—131

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٣

الكوفة ، وأظهر إخلاصه للحسين بن على وأبنائه وتمسكه بعقائد المذهب الشيعى . ويقول ابن خلدون[1] : « كان محمد بن الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وكان دعاتهم فى كل ناحية يدعون الرضا من آل محمد ، و يرومون إظهار الدعوة بحسب ما عليهم ، وأن الشيعة من النواحى يعملون مكنتهم فى أكبر الأوقات لزيارة قبر الحسين ، ثم يعرجون على سلمية لزيارة الأئمة من ولد إسماعيل . وكان باليمن قوم يُعرفون ببنى موسى ، ورجل آخر يعرف بعلى[2] بن الفضل ، أصله من جَنَد . وجاء على بن الفضل إلى زيارة الإمام محمد الحبيب ، فبعث معه رستم » .

وقد عرف محمد بن الحبيب قدر ابن فضل ، وتنبأ بما سيكون له من أثر فى نشر الدعوة ببلاد اليمن ، وعمل على استمالته لعقائد المذهب الإسماعيلى ، وقال له : « الحمد لله الذى رزقنى رجلا نحريراً مثلك ، أستعين به على أمرى ، وأكشف له مكنون سرى . ثم كشف له أمر مذهبه ، وأصغى إليه ، واشرأب قلبه ، وتلقى كلامه بالقبول[3] » .

وقد وجد محمد الحبيب فى ابن فضل الشخص الذى يستطيع أن يعتمد عليه فى نشر عقائد مذهب الإسماعيلية فى بلاد اليمن ، فعول على إرساله بصحبة ابن حوشب الذى كان قد أعده لهذه المهمة وقال لابن فضل : « الله الله بصاحبك ، وقره واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، إنه أعرف منك . وإنك إن خالفته لم ترشُد »[4] ، وقال لابن حوشب : « وثَم باليمن خلق من الشيعة ، فاخرج وعرفهم أنك رسول المهدى ، وأنه فى هذا الزمان يظهر باليمن . واجمع المال والرجال ، والزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن وقل : لكل شىء باطن . وإن ورد عليك ما لا تعلمه ، فقل لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره[5] » .

سار ابن حوشب وابن فضل إلى بلاد اليمن ، وعرجا فى طريقهما على مكة ، فوصلا إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٢٦٧ هـ ، ثم قصدا إلى بلاد اليمن ، ونزلا ببلدة تسمى غُليفقة

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٣ ص ٣٦١

(٢) وردت فى الأصل بمحمد وهو خطأ

(٣) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٣

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٤

على البحر الأحمر . واتجه ابن حوشب جنوباً حتى بلغ مدينة الجَند الجبلية جنوبي صنعاء وعلى مسيرة ستة أيام منها ، وقصد ابن فضل جيشان ويافع الجبلية المنيعة ، القريبة من الجند . وكان لبعد بلاد اليمن عن مركز الدولة العباسية ، ومناعتها ووعورة الطريق إليها ، وما صادفته عقائد الخوارج والمذاهب الشيعية كالزيدية والاثنا عشرية من رواج فيها ، وضعف ولاة العباسيين وعجزهم عن قمع الفتن والثورات التى كانت تقوم فيها من حين إلى حين — كان لذلك كله أثر كبير فيما صادفته الدعوة الإسماعيلية من نجاح فى هذه البلاد . فقد تمكن ابن حوشب من الوصول إلى « لاعة » ، وهى مدينة على جبل جنوبى صنعاء ، وعلى مقربة منه قلعة يقال لها « عدن لاعة » . وهنا ألقى ابن حوشب رحاله ، واتخذ هذه القرية الحصينة مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه . ولم يلبث أن جذب إليه أهالى هذه البلاد الذين التفوا حوله بفضل ما أظهره من الورع والزهد والتقشف ، وأقام الحصون والمعاقل ، وانتصر على والى العباسيين وعلى أمراء اليمن . وفى سنة ٢٧٠ هـ بنى جنوبى صنعاء دار هجرته بجبل مسور الذى أصبح مركز الدعوة الإسماعيلية ونواة الجيوش التى اعتمد عليها فى نشر هذا المذهب . ومن ثم عرف ابن حوشب بمنصور اليمن ، بفضل ما أحرزه من الانتصارات فى هذه البلاد التى لم تلبث أن خضعت لنفوذه ، وأصبحت مركزاً يمد منه دعوته فى البلاد الإسلامية . ولا غرو فقد « فرق الدعاة فى اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب »[1] .

أما على بن فضل فقد تمكن بدهائه من أن يجمع القلوب حوله ، واتخذ جيشان ويافع مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه ، وحارب بعض رؤساء اليمن ، حتى صفت هذه البلاد له ولابن حوشب . على أن ابن فضل لم يلبث أن خرج على المذاهب الإسلامية قاطبة ، وادعى النبوة . ويقول البهاء الجندى فى ذلك :

خُذى الدُّفَّ يا هذه والعبى وغَنِّى هَزَارَيْكِ[2] ثم اطرَبى

تولَّى نبىٌّ بنى هاشمٍ وهــذا نبى بنى يَعْرُب[3]

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٢ — ١٤٣ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧

(٢) الهزار العندليب ، يعنى غنى نغمتين من نغمات الهزار

(٣) يعنى على بن فضل اليمنى

لكل نبي مضى شِرْعَةٌ   وهذى شريعة هـذا النبي[1]
فقد حطَّ عنا فروضَ الصلاة   وحط الصيـام ولم يتعب
إذا الناسُ صلّوا فلا تنهضى   وإن صَوَّموا فـكُلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا   ولا زَورة القبر فى يثرب[2]

وليس أدل على ما بلغه ابن فضل من نفوذ من أنه حين « حلق رأسه بصنعاء ، حلق له موافقة مائة ألف نفس » . ولم يلبث أن ثار ابن فضل على رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وقام الصراع بينه و بين ابن حوشب على ما سيأتى :

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن على يد على بن محمد الصليحى (ت٤٥٩هـ). وكان أبوه من القضاة السنيين فى هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الرواحى داعى دعاة الإسماعيلية فى اليمن ، على بن محمد الصليحى ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيى الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع على بن محمد الصليحى أن يحتل بعض قلاع اليمن و يقضى على مناوئيه (سنة ٤٣٩ هـ) . ولما اشتد ساعده وقوى أمره واستقرت قدمه فى هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية[3] » (سنة ٤٥٣) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان على بن محمد الصليحى قد ملك معظم بلاد اليمن .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلى بن محمد الصليحى فى إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز ، وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد نشر العدل وقضى على الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولـكنه لم يلبث أن قتل فى سنة ٤٥٩ هـ[4] وهو

(١) هذه الشريعة الجديدة هى الإباحة
(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٤٥ .
(٣) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٢١٥ .
وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقال بعضهم إنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر إنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التى تبودلت بين المستنصر الفاطمى وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ .
راجع سجلات المستنصر فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن The Leitters of Al-Mustansir B.S.O.S p. 323.

فى طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المكرم بن على الصليحى (ت٤٧٨هـ)، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ، تلك الدعوة التى لا تزال منتشرة على أيدى البهرة فى الهند .

(حـ) فى العراق :

لاشك فى أن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب أثار مخاوف العباسيين ، لأن استيلاءهم على هذه البلاد قد يساعدهم على بسط نفوذهم فى مصر وفى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التى كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين ، بل قد يسهل لهم هذا الفتح الاستيلاء على بغداد نفسها قاعدة الدولة العباسية فى ذلك الحين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يعملون على القضاء على محاولات الفاطميين لامتلاك مصر . ثم يحذو بنو بويه الشيعيون حذو الخلفاء العباسيين السنيين ، حتى لا يتعرض سلطانهم فى بلاد العراق للخطر إذا استولى الفاطميون عليها . وذلك يعلل مساعدة البويهيين القرامطة فى حروبهم مع الفاطميين على ما رأينا . ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسى لحولوا الخلافة إلى العلويين ، إذ كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية . ولذلك نرى سلاطين بنى بويه على اتصال بالفاطميين ، حتى إنهم سمحوا لدعاتهم بنشر عقائد المذهب الفاطمى فى البلاد التى خضعت لنفوذ بنى بويه .

وقد ظهرت أغراض الفاطميين التى كانت ترمى إلى مد نفوذهم إلى بلاد المشرق من هذه القصيدة التى أنشدها ابن هانئ الأندلسى[1] المعز فى بلاد المغرب عند فتح مصر ، وفيها يقول :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصر ؟	فقل لبنى العباس قد قُضى الأمر
وقد جاوز الإسكندريةَ جوهر	تطالعه البشرى ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر إليه وفودها	وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت	وأيديكم منها ومن غيرها صفر

(١) ديوان ابن هانئ (طبعة بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) ص ٨٦ — ٨٧ .

وقـــد أشرفت خيل الإله طوالعاً على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وذا ابن نـــبي الله يطلب وتره وكان حَرَى[1] ألا يضيع له وتر
فإن تتبعوه فهـــو مولاكم الذى له برســـول الله دونكم الفخر

وكان بنو بويه من الشيعة الغالين فى عقائد هذا المذهب ، وكانوا — كما يقول سير توماس أرنولد[2] . — « لا يعترفون بحق الخليفة العباسى السنى فى السيادة على جميع العالم الإسلامى » ، ولذلك لم يسلم الخلفاء العباسيون من عسف بنى بويه وسوء معاملتهم .

وقد أصبح بنو بويه فى عهد هؤلاء الخلفاء مطلقى التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا عن التعدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم[3] . فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر فى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر ، بسبب وجود خلافة علوية ، يطيعها الجند ، ويعترف بها الديلم ، ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء[4] .

وقد ذكر ابن الأثير[5] أن معز الدولة بعد أن أهان الخليفة المستكفى ، وقبض عليه وسمل عينيه ، وأجلس المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) على العرش من بعده ، أصبح هذا الخليفة الجديد ألعوبة فى يده ، « فازداد أمر الخلافة إدبارا ، ولم يبق لهم من الأمر شىء البتة . وقد كانوا يراجَعون ويؤخذ أمرهم فيما يفُعل ، والحرمة قائمة بعض الشىء . فلما كانت أيام معز الدولة زال ذلك جميعه ، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعه وإخراجاته لاغير ، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد . وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة ، حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه

(١) حرى يعنى جديراً .
(٢) The Caliphate, p. 61
(٣) Hitti, History of the Arabs, p. 411
(٤) Noëldeke, Sketches from Eastern History, p. 88.
(٥) ج ٨ ص ١٦٢

بذلك ، ما عدا بعض خواصه فإنه قال : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلستَ بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ... فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها . وتسلم عز الدولة العراق بأسره ، ولم يبق بيد الخليفة منه شىء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته » .

« ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصح ، فعدلوا عن تحويل الخلافة إلى العلويين » . ولكن مما لا ريب فيه أن بنى بويه كانوا على اتصال بالفاطميين ، وأنهم سمحوا لدعاة خلفائهم بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه .

وقد حاول العزيز الفاطمى أن يجذب إليه البويهيين الذين كانوا يعتنقون المذهب الشيعى ، فأرسل فى سنة ٣٦٩ هـ — على ما ذكره ابن الأثير[١] — إلى عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) بن ركن الدولة رسولا من قبله ، « وما زال يبعث إليه برسالة بعد رسالة ، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية »[٢] .

على أننا نرى هذه السياسة التى كانت تنطوى على التودد وحسن النية تتبدل فى أواخر عهد عضد الدولة ، بل نراه يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه . فقد ذكر البغدادى[٣] أن عضد الدولة « تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية . وكتب على أعلامه بالسواد : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين الطائع لله أمير المؤمنين . ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وقد قيل إن ما قام به عضد الدولة كان نتيجة لشكه فى نسب الفاطميين ، حتى إنه عقد مجلساً حضره العلويون الذين أقروا ببطلان هذا النسب . ويقول المقريزى[٤] : « ثم

---

(١) ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٤) اتعاظ الحنفا ص ١٥ .

ملك فناخسرو بن الحسن الديلمى بغداد ، فقرب ما بينهما (أى بين العزيز وعضد الدولة) من المسافة ، فجمع العلويين ببغداد وقال لهم : هذا الذى بمصر يقول إنه علوى منكم ، فقالوا : ليس هو منا ، فقال لهم : ضعوا خطوطكم بأنه ليس بعلوى ولا من ولد أبى طالب . ثم أنفذوا إلى نزار بن معد رسولا يقول له : نريد أن نعرف من أنت ، فعظم ذلك عليه » .

و يعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التى عقدت ببغداد فى القرن الخامس الهجرى ، وأنكر فيها نسب العبيديين إلى علىّ وفاطمة . لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمى فى بلاد الموصل ، فكروا فى القضاء على مذهبهم بالطعن فى نسبهم إلى على وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل فى هذا النسب فى نفوس المسلمين .

و يروى أبو المحاسن فى تاريخه أنه « فى سنة ٤٠٢ هـ فى شهر ربيع الآخر ، كتب الخليفة القادر العباسى محضراً فى معنى الخلفاء المصريين ، والقدح فى أنسابهم وعقائدهم ، وقرئت النسخ ببغداد ، وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية ؛ قالوا : وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى إخوان الكافرين ، ونُطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس . فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال — ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن سعيد — لا أسعده الله — فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ، هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء . وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب ، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم ، أو يذهب وهم إلى تصديقهم ؛ وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار وزنادقة ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون ؛ فقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية . وكتب فى [شهر]

ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة »[١] .

« وكتب خلق كثير فى المحضر المذكور منهم الشريف الرضى والمرتضى أخوه ، وابن الأزرق الموسوى ، ومحمد بن محمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضى أبو محمد عبد الله ابن الأكفانى ، والقاضى أبو القاسم الجزرى ، والإمام أبو حامد الإسفراينى[٢] والفقيه أبو محمد الكشفلى[٣] والفقيه أبو الحسين القدورى[٤] الحنفى ، والفقيه أبو على بن حمكان ، وأبو القاسم التنوخى[٥] ، والقاضى أبو عبد الله الصيمرى . فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان فى أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام فى المحضر »[٦] .

على أن ما رواه أبو المحاسن فى هذا الكتاب من أن الشريف الرضى كتب خطه فى هذا المحضر الذى نفى فيه نسب الفاطميين ، يعارضه هذه القصيدة المشهورة للشريف الرضى ، وفيها اعتراف صريح بأن الفاطميين تجمعه بهم صلة النسب ، قال :

ما مُقامى على الهوان وعندى ... مقولٌ صارم وأنفٌ حمِىٌ
ألبس الذلّ فى بلاد الأعادى ... وبمصرَ الخليفةُ العلوى
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القَصِى
لفّ عرقى بعرقه سيدا النا ... س جميعاً محمدٌ وعلىٌ .

ولم يكن هذا كل ما فعله العباسيون فى سبيل مناوأة الفاطميين والقضاء عليهم . ومن ثم نرى الفاطميين من ناحية أخرى يضاعفون جهودهم فى نشر دعوتهم عن طريق دعاتهم ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه فى الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس فى مسجد عبد الله بن المبارك فى قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعمائة متفقه : الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ — ٢٠) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والراء ، انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة . وله كتاب فى الفقه يسمى مختصر القدورى .

(٥) هو على بن المحسن بن على بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعرى ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحى كالمدائن وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) الذى ترجمه إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفى سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

ويصادفون كثيراً من النجاح فى هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر فى نفوس بعض المسلمين . ولذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون فى سنة ٤٤٤ هـ محضرا آخر يطعنون فيه على الفاطميين وينفون نسبهم[1] ، كما يكتبون فى سنة ٤٨٨ هـ محضرا آخر أيضاً « لتنفير القلوب من الفاطميين وجمع القلوب حول العباسيين[2] » .

على أننا نلاحظ تبدلا ظاهراً فى سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبى كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذى اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه ، حتى إن أبا كاليجار تقرب من المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الفاطميين فى فارس ، الذى تقلد فيما بعد منصب داعى الدعاة فى مصر ، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين.

ولكن المستنصر لم يفتر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين . ولذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم ، ويتعهد له بإمداده بالمال والرجال . ومن ثم يبعث داعيته الجرىء هبة الله الشيرازى سفيراً من قبله لإثارة حماسة جند البساسيرى ، وحثهم على إذكاء الثورة فى وجه الخليفة العباسى . ولم يدخر الخليفة المستنصر الفاطمى وسعاً فى إمداد البساسيرى بالأموال الضخمة والجند الذين أمر بإنفاذهم إليه من بلاد الشام ، وأرسل إليه كتاباً يقول فيه : « ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى بلاد العراق ، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضائل الآفاق ، المشمرين عن ساعد الجد بما يحمل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود ، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة العود ، مغسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان ، مقصورة غرفها[3] على الثناء منها على أهل العدل والإحسان ، رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطوقك طوق ولاية رجالها ، ويقيم على رأسك ، لمزية التقدمة ، راية جمالها ، وينوط بك أمورها كلها ، ويكل إليك عقدها وحلها »[4] .

---

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

(٣) فى الأصل فرقها ولعله تحريف من غرفها .

(٤) السيرة المؤيدية للمؤيد فى الدين ، مخطوط بمكتبة القاهرة الأولى ، ورقة ١٨٤ .

أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسى الذى طلب من أبى كاليجار تسليم هذا الداعى الجرىء إليه ، فلم يحفل السلطان البويهى بذلك . وهناك عبارة المؤيد فى الدين[1] التى تبين لنا حجة العباسيين على أبى كاليجار وتهديدهم إياه : « أنه إن كانت دعوة تعزى إليهم (الفاطميين) فى الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت فى الخفاء والستر ، مثل خبيّات الصدور ومكنونات القلوب . و إن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هـذا الرجل (يعنى هبة الله الشيرازى) الفاعل الصانع من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره و إشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة ، و إزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سومح فى بابه وأهمل الاستيثاق وتسليمه فى يد صاحبنا ، فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم (أى بين العباسيين والبويهيين) ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم (يعنى التركمانية) .

إذن فقد كانت هناك علاقات مودة ووفاق بين أبى كاليجار والفاطميين ، يعمل على توثيقها مؤيد الدين الشيرازى داعى دعاة الفاطميين ، وأن أبا كاليجار اتخذ من تقربه إلى هبة الله الشيرازى والى الفاطميين سلاحاً يشهره فى وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين ما يبتغونه من التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه فى ذلك الحين[2] . وكان من أثر ذلك أن تقرب أبو كاليجار من المؤيد ، وأخذ يسمع محاضراته و يدرس كتب الاسماعيلية[3] .

وقد نقل هارولد باون[4] عن كتاب fârs-nâmeh أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السّبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية فى ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة فى فارس على يد ذلك الداعى القدير ، الذى نجح حتى فى تحويل هـذا الأمير (أبى كاليجار) إلى عقائد هذا المذهب .

وفى الحق أن الديالمة قد أصبحوا — كما يقول المؤيد فى الدين[5] — « إلى صاحب

---

(١) السيرة المؤيدية ص ٩٥ — ٩٦

(٢) السيرة المؤيدية ، مخطوط ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥

(٤) Harold Bowen : The Last Buwaybids, J.R.A.S. (1929), p. 234.

(٥) السيرة المؤيدية ص ٤

مصر داعين و باسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً ، واتخذه الكل سراً ومَفْزَعاً فى كل شىء »[١] . ولو أن أبا كاليجار « استقصى الأمر ، لوجد ندماءه أكثرهم بذلك « دائنين (أى آخذين بمذهبه) و بشعاره منادين »[٢] .

وكان من أثر ذلك أن ثار إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك ، وانتهز البساسيرى فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير ابن مسلمة ، لكن الخليفة « استذم بذمام[٣] قريش فحماه من القتل[٤] » .

كان أبو الحارث البساسيرى من قواد بنى بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره فى عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه مسلوبىَ السلطة ضعيفى الجانب . ويقول الخطيب البغدادى[٥] : « إن أرسلان التركى المعروف بالبساسيرى كان قد عظم أمره واستفحل شأنه ، لعدم نظرائه من مقدّمى الأتراك المسمون بالأسفهسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره وطار اسمه ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من المنابر العراقية ، و بالأهواز ونواحيها ، وجبى الأموال ، وخرب الضياع . ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع أمراً دونه ولا يحل و يعقد إلا عن رأيه » .

وقد عزا ابن الأثير[٦] تبدل العلاقة بين الخليفة القائم و بين أبى الحارث البساسيرى إلى تقريب الخليفة أبا الغنائم وأبا سعد صاحبا قريش بن بدران المُقيلى اللذين وصلا إلى بغداد سراً ، فامتعض البساسيرى من ذلك وقال : هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابى ، ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا فى إهلاك الناس ، وأراد أخذهم فلم يمكن منهم . . . وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته ، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) . واجتازت به

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٩

(٣) الذمام الحرمة ، يريد أنه تمنع منه بذمة قريش فحماه من القتل . فى الأصل واستزم بزمام قريش وهو تحريف .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢

(٥) كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ — ٤٠٠

(٦) ج ٩ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء ، فنهبها وطالب بالضريبة التي عليها . وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب ، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء وحواشي الدار . . . وقال : ما أشكو إلا من رئيس الرؤساء الذي قد خرب البلاد ، وأطمع الغز[1] » ، وهم فرع من السلاجقة .

أما الخطيب البغدادي[2] فيرى أن الخليفة القائم قد صح عنده سوء عقيدته (يعني البساسيري) . وشهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيري عرّفهم ، وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة طغرلبك يستنهضه على المسير إلى العراق .

وأما الذهبي[3] فيرى أنه قد « تحقق عند القائم بأنه (البساسيري) يكاتب المصريين (يعني الفاطميين في مصر) ، وكاتب الملك الرحيم بأمر بإبعاد البساسيري فأبعده . وكانت هذه الحركة من أعظم الأسباب في استيلاء طغرلبك على العراق » .

والواقع أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي و بين البساسيري كان في حقيقة الأمر عداء بين العباسيين والبويهيين ، و بعبارة أخرى بين السنيين والشيعيين . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين هبة الله

---

(١) كان ابن مسلمة المعروف برئيس الرؤساء قد وزر للخليفة القائم ، وكان يكره بني بويه لتشيعهم ، ويسعى جهده في إحلال السلاجقة السنيين محلهم في حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بعث بها المؤيد هبة الله الشيرازي ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق ، إلى وزير طغرلبك . ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة : « يعلم سيدى الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندري) أنى كنت خاطبت حضرته وهو يومئذ مقيم بالرى ، خاطباً لمودته وطالباً لانتشاج الحال (الانتشاج الاشتباك والمعنى المراد هنا الائتلاف) بيني وبينه ، لما كان يبلغني من محاسن أوصافه وجميل خلاله وخصاله ، ولأن يكون التعارف بيننا سلماً إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأكد سبب المودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (سورة النساء ٤ : ١١٤) واتفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالى (السلطان طغرلبك) ببغداد . وانبثت الكتب يميناً وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر » . السيرة المؤيدية ، مخطوط ص ٢٣٢ — ٢٣٣

(٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠

(٣) تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢

الشيرازى ، وأدرك الخطر الذى يهدد الخلافة العباسـية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك فى أنه كان بين صفوف جند بنى بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل على رأسهم البساسيرى ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين ، فعمل الخليفة العباسى القائم على الحد من نفوذ أبى الحارث البساسيرى وأنصاره و إبعادهم عن بغـداد ، وتمهيد السبيل بذلك لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجاد الخليفة العباسى بالسلاجقة أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة فاستعانوا بالفرس على العرب فى تأسيس دولتهم ، ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا « بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى لينتشلهم من تحكم البساسيرى (وأنصاره) ، حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين فى مصر ، بل أوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التى دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجاد ببنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه ، هى نفس العوامل التى دفعتهم إلى الاستنجاد بالتتار »[١] .

ومهما يكن من شىء فقد أرسل الخليفة القائم إلى طغرلبك ، أبا محمد هبة الله بن محمد ابن الحسن بن المأمون يدعوه إلى بغداد[٢] . ويقول ابن الأثير[٣] فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرلبك « أظهر أنه يريد الحج و إصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، و إزالة المستنصر العلوى صاحبها » . وقد أعد طغرلبك لذلك الأمر الخطير عدته . . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربيها ، وعسكر الأتراك بظاهرها . « وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها ، وفارقه البساسيرى فى الطريق لمراسلة وردت من القائم فى معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيرى خلع الطاعة وكاتب الأعداء ، يعنى المصريين ، وأن الخليفة له على الملك عهود ، وله على الخليفة مثلها . فإن آثره فقد قطع ما بينهما ، و إن أبعده وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدبير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعنى البساسيرى) منفصلون »[٤] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية ص ١٠٤

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ — ٩

(٣) ج ٩ ص ٢٢٧ (٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيرى ، أدركوا أن الخليفة لم يقصد بعمله هذا إلا إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرلبك ؛ وأظهر هؤلاء تذمرهم للخليفة ووزيره . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد فى منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرلبك . فكان الملك الرحيم فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاعتضاد بالسلاجقة وإزالة سلطان بنى بويه . فأشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يبذلوا الطاعة ويخطبوا لطغرلبك ، الذى استطاع بذلك أن يدخل بغداد دون كبير عناء[1] .

على أن زعزعة الحالة المالية فى مصر ، وعودة هبة الله الشيرازى إليها ، وقيام المنافسة بين العنصر العربى والتركى فى جيش البساسيرى ، وعودة طغرلبك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم ينال — كل ذلك ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد سنة كاملة .

وقد ذكر نظام الملك[2] أن السعيد نصر بن أحمد السامانى دان بعقائد الإسماعيلية ، وأن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله ؛ فلما أدرك نصر الخطر المحدق به ، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذى عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلى وأنصاره فى بلاده .

وذكر المقريزى[3] أن نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدى بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة : « أنا فى حسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدى بهم كلفة ولا مئونة ، فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ، ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره » .

(و) فى فارس :

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله بن ميمون القداح ، الذى أرسل الدعاة إلى هذه البلاد ، كما أرسل الحسين الأهوازى إلى سواد الكوفة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٨

(٢) Siyasset Nâmeh, vol II. pp. 278 8

(٣) المقفى الكبير ، مخطوط ٢١٤٤ ، المكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٢٢٣ أ ، ب .

والحلوانى وأبا سفيان إلى المغرب ، وابن حوشب إلى اليمن . ومن أشهر دعاته فى بلاد فارس « خلف » الذى قام بنشر الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الرى وقمّ وقاشان ، الواقعة بين أصبهان والجبل ، وطبرستان ، وتسمى أيضاً مازندران ، وتقع بين الرى وقومس و بحر قزوين و بلاد الديلم . وكان خلف يشتغل فى بدء أمره بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن من أن يجمع حوله لفيفاً من الإسماعيلية ، عرفوا باسم الخلفية نسبة إليه ، وأن يجذب إليه طائفة من رجال العلم من أمثال الداعى غياث الذى أصبح فى عهـد ابنه أحمد بن خلف نائبا عنه فى رياسة الإسماعيلية أو الخلفية ، كما كانت تسمى أيضا فى فارس[1] .

وكذلك عمل غياث على جذب كبار الأمراء فى هذه البلاد إليه . ومن هؤلاء الأمير الحسين بن على المروروذى ، الذى كان يتمتع بنفوذ كبير فى الطالقان وهراة والغُور ، كما عمل على جذب كثير من العلمـاء ، حتى إنه جعل أبا حاتم معروف النيسابورى الشاعر (٣٢٢ هـ) نائبا عنه فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى خراسان[2] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدعوة الإسماعيليـة فى فارس اصطبغت بالصبغة العلمية والفلسفية ، بخلاف ما كانت عليـه فى المغرب . ففى فارس يستطيع أهلها فهم الدعوة الإسماعيلية بدرجاتها المختلفة الصعبة ؛ ولا عجب فى ذلك فقد تأثروا منذ عهد بعيد بنظريات التناسخ والحلول من سُمَنية الهند وفلاسفة اليونان ، وخاصـة الذين هربوا من اضطهاد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٧ هـ) إلى بلاد فارس حيث تلقاهم كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٠ م) ورحب بهم وفتح لهم جامعة فى جنديسابور . أضف إلى ذلك ما تركته مدرسة حران من أثر فى نشر الفلسفة اليونانية ، وتعلق الفرس بالعلويين ، واعتقادهم أحقيتهم بالملك دون الأمويين والعباسيين ، ولا سيما بعد أن ارتبطوا مع العلويين بالمصاهرة . و يقول دى جوبينو[3] : « كانت العقيدة الثابتة عند الفرس ، أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

(٢) Nizam el-Mulk : Siasset Nàmeh, vol. II. pp. 271—2.

(٣) De Gobineau : Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale, p. 275.

« بيبى شهر بانوه » ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس ، ووارثى الأئمة رؤساء الدين الإسلامى حقاً » .

ومن أكبر دعاة الإسماعيلية فى الدور المغربى فى فارس ، أبو حاتم الرازى (+ ٣٢٢ هـ) الذى قام بدور هام فى طبرستان والديلم ، وفى أصبهان والرى ، حيث تبعه جماعة من كبار رجال الدولة مثل الأصفر بن شيرويه أمير قزوين ، وقائده مرداويج بن زيار الديلمى ، وكانا من قبل تحت رياسة يوسف بن أبى الساج أمير الرى من قبل العباسيين[١] . ويظهر أن تأثير أبى حاتم الرازى كان كبيراً بين هؤلاء الأمراء ، حتى إن يوسف بن أبى الساج فكر فى خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) والدخول فى طاعة الإمام العلوى فى القيروان ، وهو عبيد الله المهدى (٢٩٦ — ٣٢٢ هـ) ، كما عزم على شق عصا الطاعـة للخليفة العباسى ، وإظهار الدعوة للخليفة الفاطمى إذا تم له جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات[٢] .

كذلك بعث مرداويج بن زيار إلى عبيد الله المهدى الهدايا والأموال الكثيرة ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته .

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية محمد بن أحمد النسفى (ت ٣٣١ هـ) ، وكان عالما أديباً ، اشتهر بحرية الرأى . وقد أوصاه أستاذه الحسين بن على المروروذى داعى الإسماعيلية فى خراسان ، والذى كان قد استجاب إلى دعوة الداعى غياث كما تقدم ، بأن يعمل على جذب نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٣١ هـ) أمير خراسان وما وراء النهر إليه . وقد وفق النسفى فى ذلك إلى حد كبير . وذكر ابن النديم أنه « لما تمكن الحسين بن على المروزى من بلاد خراسان ، حبسه نصر بن أحمد ، فمات فى حبسه ، فخلفه النسفى ، واستغوى نصر ابن أحمد وأدخله فى الدعوة ، وأغرمه دية المروزى مائة وتسعة عشر ديناراً ، فى كل دينار ألف دينار ، وزعم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالأمر » ، وكان ذلك حوالى سنة ٣٣٠ هـ . ومات نصر بعد ذلك بقليل[٣] .

(١) كان مرداويج بن زيار أحد قواد الأصفر أمير قزوين ، إلا أنه طرده ، واستولى على بلاده ، ثم فتح الرى وأصبهان .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ .

من ذلك نستطيع أن نقول إن نصر بن أحمد أخلص للفاطميين ، وإن اتصاله بعبيد الله المهدى ، وتقديم مساعدته الحربية له ، كان يستند إلى شيء كثير من الصحة ، كما يؤيد هذا الرأى ما ذكره نظام الملك عن نهاية نصر بن أحمد ، من أن قواده سخطوا عليه لاعتناقه عقائد الإسماعيلية ، ودبروا مؤامرة لاغتياله ، فنزل عن الإمارة إلى ابنه نوح الذى عمل للقضاء على هذا المذهب وعلى أنصاره فى بلاده .

الباب الحادي عشر

الثقافة الفاطمية

١ — مراكز الثقافة الإسلامية :

انتشرت الثقافة الإسلامية فى هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب ؛ بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، إلى العربية ، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم فى البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ، رجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ولا غرو ، فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ، أن نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدى هذه النهضة فى بلاط كل من السامانيين والغزنويين والبويهيين والحمدانيين فى الشرق ، وفى بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر ، وفى بلاط الأمويين فى الأندلس .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية . وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التى خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هـذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية التى يتميز بها العصر الفاطمى ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن . ولـكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم نتيجة لذلك .

يقول ابن خلدون[١] فى الفصل الذى تكلم فيه على « أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر

---

(١) مقدمة ص ٣٧٩ — ٣٨٠

العمران وتعظم الحضارة » : « إن تعليم العلم من جملة الصنائع ... و إن الصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش . فمتى فضلت زادت أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة ، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي ، لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (زادوا) على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وابذعر (تفرق) سكانها ، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام » .

كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :

١ — أصبهان أو الري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد . وكان بلاط بني بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ — البلاط الساماني في بخارى حيث كانت مكتبة نوح بن نصر الساماني — كما يقول ابن خلكان —[1] عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه ، فضلا عن معرفته » .

٣ — بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين ؛ وقد وصفه الثعالبي[2] فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان ، ينبوع العدل والإحسان ، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم » .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧

٤ — بلاط خُوارَزم فى خِيوة ، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثانى بن مأمون الذى آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ — بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة ؛ وقد تمتع بشهرة واسعة ، فنقل كثيراً من المؤلفات إلى غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلا إلى الأدب ، على الرغم من إساءته لرجاله . وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتاباً مع أحد أشراف دولته ، يقول فيه : قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم فى فنه مثل فلان وفلان ، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطى ليكون لهم شرف المثول بين يدى ، ونقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم ؛ وأرجو من أمير خوارزم أن يسدى إلينا هذا الجميل »[1] .

ولكن فى العشرين سنة التى تخللت سنتى ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م) ، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، زالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) ، واغتيل شمس المعالى على أيدى الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) . كما قتل مأمون الثانى على أيدى الثوار ، وضم السلطان محمود الغزنوى بلاده إلى أملاكه فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب فى بلاد منافسيه .

٦ — بلاط الحمدانيين فى الموصل وفى حلب خاصة : فقد كانت حضرة سيف الدولة « مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح[2] . فلو أدرك ابن الرومى زمانه لما احتاج إلى أن يقول :

ذهب الذين تهزّهم مُدّاحهم ... هزّ الكماة عوالى المران[3]

٧ — بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . نذكر منهم على سبيل المثال : القاضى بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصرى المتصوف ، والربيع ابن سليمان تلميذ الإمام الشافعى ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وأول مؤرخى مصر

(١) Browne: Lit. Hist. of Persia, vol II. pp. 103-4.

(٢) المران الرماح والكماة جمع كمى ، وهو البطل اللابس درعه ، وعالية الرمح ما يركب فيه السنان ، وهى ضد سافلته ، والجمع العوالى .

يقول : ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهز البطل عالية الرمح حين يختبره . أى من الأريحية للثعالبى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ١١

الإسلامية . و بلغ الأدب بمصر فى عهـد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم . فقد روى المقريزى[1] عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى ، الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » أنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة ، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسـة ، فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال ؟[2] .

وقد عاد للفسطاط رونقها و بهاؤها بعـد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ فى عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء . وكان مسجد عمرو وجامع أحمد بن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع فى عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر فى سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية . وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات . فنرى فى مكتبة القصر الشرقى عدداً من الرفوف مقسما إلى أقسام لـكل قسم منها باب . وكانت هذه المـكتبة ، على ما رواه المقريزى[3] ، تحتوى على مائتى ألف مجلد ، عدا الـكتب الأخرى ، وفى اللغة العربية ، والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والـكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف ومجموعة ابن البواب .

٨ — بلاط الأمويين فى قرطبة : وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين فى العراق والفاطميين فى المغرب ومصر ، نافست قرطبة بغداد والقاهرة و بخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقا نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب حتى جذبت مساجدها الأور بيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلمـاء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم . وكانت قرطبة — كما يقول المقرى[4] — الغاية ، ومركز

(١) خطط ج ١ ص ٣٢٦
(٢) حسن ابراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٢
(٣) خطط ج ١ ص ٤٠٩
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨

الراية ، وأم القرى ، وقرارة (مستقر أو مركز) أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ،[١] وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح . ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة . والسبب فى تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبى لم يشتمل إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » .

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات فى مختلف العلوم والفنون . فقد جمع الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) أربعمائة ألف مجلد[٢] .

ومما يدل على كثرة هذه الكتب أن فهارس دواوين الشعر التى حوتها مكتبة المستنصر بلغت ٤٤ كراسة ، كل منها فى عشرين ورقة . فإذا كان هـذا العدد الكبير مقصوراً على الدواوين ، فكم يكون عدد فهارس المؤلفات فى العلوم والفنون الأخرى[٣] ؟ .

ولم يكن اقتناء الكتب فى الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء ، بل اهتم الأفراد باقتناء الكتب فى مكتباتهم الخاصة ، واعتبر ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار[٤] .

وقد أصبحت قرطبة مركزاً هاماً للثقافة الأوربية ، حتى إن الطلبة كانوا يفدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا العلم على أساتذتها الأعلام ، ولم يكن تشجيع العلم والعلماء مقصوراً على الخلفاء والأمراء وذوى اليسار ، بل كان للوزراء أثر كبير فى ذلك ، فقد كان ابن أبى عامر الذى تولى الحجابة فى عهد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر محباً للعلوم والآداب ، مكرماً المشتغلين بها . وكان يعقد فى كل أسبوع مجلساً بقرطبة يجتمع فيه العلماء والأدباء للمناظرة بحضرته[٥] .

---

(١) يعنى الدار التى تصب فيها سحائب العقول ما فيها من علم وفضل

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ – ١٨٧

ذكرنا قول المقرى هذا بما رأيناه عياناً فى مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا ، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية ، وكلما رأينا كتاباً نفيساً أو مخطوطاً نادراً منها وجدنا له عليه تعليقاً قيماً وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء . هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها محافظة نادرة .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٦

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٨

(٥) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ ، ٢٤ .

٣ — مراكز الثقافة فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية :

(ا) القصور والمساجد :

و إن فى وصف قصر الوزير ابن كلس و بيان ما تركه من الثروة ما يكفى لأن يبين ثروة البلاد فى ذلك العصر . ولقد سبق أن ذكرنا أن ابن كلس كان يشجع العلوم والفنون ، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة فى بيته فى كل يوم خميس ، ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته . وكان يحضر هذه المجتمعات القضاة والفقهاء ، وأساتذة القراءات والنحاة ، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتازة ، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهى الاجتماع فينشدونه مدائحهم .

وكان يجمع فى قصره عدداً كبيراً من الموظفين : يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن ، و بعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والأدب و بعض كتب العلوم حتى الطب . وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ، و يضيفون إليه علامات الشكل والنقط ؛ وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم ، يلقب بالزلازلى ، وهو صاحب كتاب الأسجاع .

وجعل ابن كلس فى قصره جماعة من القراء والأئمة ، وعين لهم الرواتب الخاصة ووكل إليهم إقامة الصلاة فى المسجد الذى بناه فى هذا القصر .

وكانت المساجد مَثَابة للعلماء ، وخاصة فقهاء المذهب الشيعى الذين كان عليهم أن يحاضروا الناس فى عقائد المذهب الاسماعيلى ؛ وكان بعض الوزراء والقضاة يشتركون فى تأليف كتب فى هذا المذهب يدرسها الأساتذة فى تعليم الناس . ومن أعظم تلك الكتب الكتاب الذى ألفه يعقوب بن كلس فى الفقه الشيعى ؛ وكان على القضاة أن يصدروا عنه فى أحكام محاكمهم التى كانت تعقد فى المساجد عادة ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوه فيما بينهم . ولا ننسى أن نذكر فى هذا المقام ما كان من تحويل الأزهر إلى جامعة فى عهد العزيز[1] .

---

(١) انظر العبارة التى أوردناها من الرسوم الفاطمية فى المساجد والمكاتب .

وأهم خصائص الأزهر أنه ، وإن بدأ كغيره من المساجد ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون . وأول من فكر في تحويل هذا الجامع إلى جامعة هو يعقوب بن كلس ، وكان يدين باليهودية أولا ، ثم تحول عنها إلى الإسلام ؛ وهو الذي أشار على المعز الفاطمي بفتح مصر .

ولما صارت الوزارة إلى ابن كلس ، سار على ما كان عليه الوزراء من قبله من حيث تشجيع العلوم والآداب[1] . وفي سنة ٣٧٨ هـ وقف العزيز الجامع الأزهر على العلم ، وأصبح نبراساً للجامعات الإسلامية . ولقد رغب الخلفاء الفاطميون في جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية . ولكي يشجع الطلاب وطنيين وأجانب ، كان يقدم إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية إلى الآن . فقد خلفوا لمصر تُراثا هاما هو الجامعة الأزهرية . ويمكننا أن نقدر المجهودات التي بذلها الفاطميون في أيامهم من نظم التعليم التي بقيت في الأزهر حتى الآن .

حقا لقد فقدت هذه الجامعة إلى وقت ما شيئاً من أهميتها بسقوط الفاطميين . ولا غرو فقد عنى الأيوبيون — وهم السنيون الغلاة — بتخريب ما تركه الفاطميون من آثار لتعليم عقائد الشيعة الفاطمية . وقد مضى على الأزهر نحو من قرن قبل أن يسترد شيئاً من عطف الحكومة ورجالات الدولة .

ولما جاء الظاهر بيبرس زاد فيه وشغف بما يدرس هناك من العلوم ، وأعاد إليه الخطبة . ومن هذا الحين ابتدأ الأزهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرقي ، حتى صار الطلاب يُهْرَعون إليه إلى يومنا هذا من كل أرجاء العالم الإسلامي لإتمام دراساتهم .

أما العلوم التي تدرس في الأزهر ونظم التعليم فيه ، فمن الممكن أن نقول إنها بقيت تقريباً كما كانت عليه في عهد الفاطميين . فقد كان يدرس فيه التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، كما بينا ذلك أثناء الكلام

---

(1) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

عن التعاليم الفاطمية فى الأزهر وفى مكتبة دار العلم ودار الحكمة . ومع أننا لا نعلم إلا القليل عن نظم التعليم وأكثر المواد التى ذكرناها آنفا ، فما لا شك فيه أن الفاطميين كانوا أول من أدخل ذلك فى الأزهر .

(ب) المكتبات :

ولم تكن المكتبات أقل أهمية من المساجد فى بث عقائد المذهب الاسماعيلى بين الناس ؛ لهذا بذل الخلفاء ووزراؤهم مجهودات عظيمة فى زيادة عدد الكتب التى تتناول شتى فروع العلم ، حتى فاقت مكتبة القصر كل المكتبات الإسلامية فى العالم فى ذلك الحين .

وقد كان الخلفاء الفاطميون ذوى شغف بتشجيع من يميل إلى عقائد المذهب الشيعى . ففى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أسس الحاكم دار الحكمة ، وألحق بها عددا من أساتذة العلوم النقلية كالتفسير والفقه ، وكالعلوم الطبيعية أو العقلية ، وكانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التى أمدت بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة . وكان يباح للناس الانتفاع بها ، فيأخذون ما يحتاجون إليه من المداد والأقلام والأوراق والمساند . وكان مشهورو الأساتذة المتصلين بدار الحكمة يقيمون مناظرات يحضرها الحاكم ، فيصلهم لأجلها بالهبات ويخلع عليهم الخلع .

ويحدثنا المقريزى عن مؤلف كتاب "الذخائر" الذى زار هذه المكتبة فيقول : "وكنت بمصر فى الفسطاط فى العشر الأول من المحرم سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا مرسلة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ؛ فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى الدين[1] مما يستحقانه وغلمانهما" . ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول : "إن الكتب التى نقلت إلى دار الوزير وقاء لخمسة آلاف دينار ، بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار" .

أضف إلى ذلك أن الكتب التى كانت بدار العلم وغيرها من الكتب التى صارت

(١) يحدثنا ابن ميسر أن أبا غالب عبد الظاهر بن فضل بن الموفق فى الدين تولى الوزارة ثلاث مرات ، وقتل فى نفس اليوم الذى قتل فيه ابن حمدان .

إلى عماد الدولة بن أبى الأفضل بن المحترق والتى حملها معه إلى الإسكندرية[١] ، وكذا الـكتب التى ظفرت بها بنو لَوَاتة ، كان خسارة فادحة لحقت بدور الـكتب .

ذلك أن عددا عظيما من هذه الـكتب قد بيع أو نهب ، أو حمل فى النيل إلى الإسكندرية سنة ٤٦١ ﻫ (١٠٦٨ — ١٠٦٩ م) وما بعدها . ويقول هذا المؤرخ إن عددا غير قليل "من الـكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليدا وغرابة" ، قد اتخذ من جلودها عبيدهم وإماؤهم نعالا وأحذية ، ثم أحرقوا أوراقها ، زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم[٢] (يعنى أهل السنة) .

وقصارى القول ، فإن الـكتب التى كانت بمكتبة القصر ودار العلم ، إما أن تكون قد سرقت أو أغرقت فى النيل ، أو حملت إلى سائر الأقطار ، أو آلت إلى الإحراق . أما ما تعرض منها للجو فقد سفت عليه الرياح التراب ، فصار تلالا عرفت بتلال الـكتب[٣] .

وقد بدأت هذه المحن التى حاقت بمجموعتى الـكتب (بمكتبة القصر ودار العلم) سنة ٤٦١ ﻫ ، وتوالت عليها سنون عدة . على أنه فى الوقت الذى سقطت فيه الدولة الفاطمية ، أى بعد هذه الفترة التى تخللت سنتى ٤٦١ و ٤٦٥ ﻫ بنحو قرن ، كانت لا تزال هناك مكتبة كبيرة فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

ويظهر أن هذه المـكتبة قد استعادت شيئاً من سابق عظمتها ورونقها ، إما باسترجاع بعض كتبها التى ضاعت فى هذه المحن ، أو باضافة كثير من الـكتب الجديدة . يؤيد هذا القول ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت هناك سنة ٥٦٧ ﻫ (١١٧١ م) مكتبة عظيمة فى قصر آخر الخلفاء الفاطميين ، وأن هذه الـكتب قد تم بيعها شيئاً فشيئاً على يد رجل خبير يدعى ابن صورة ، واستغرق هذا البيع بضع سنين .

ولم يبق من هذه الـكتب شىء كثير ؛ فمنها ما حمل إلى المدرسة الفاضلية التى أسسها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البَيْسانى[٤] سنة ٥٨٠ ﻫ . ويحدثنا المقريزى أن المـكتبة

---

(١) نقلت هذه الكتب إلى بلاد المغرب بعد وفاته .

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٠٩

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كان شافعى المذهب . تقلد أبوه قضاء بيسان (وهى بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين) ، ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (البيسانى) نسبة إلى هذه المدينة . قدم القاهرة ، وخدم فى ديوان الإنشاء فى =

التى كانت بهذه المدرسة قد اشتملت من الكتب على ما قدر بمائة ألف مجلد ، آلت كلها إلى الضياع سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م) فى غضون المجاعة التى أصابت البلاد فى ذلك الوقت ، إذ باع طلبة هذه المدرسة جميع ما كان فيها من الكتب ، وكانوا يبيعون كل مجلد برغيف[١] .

وقد اختلف المؤرخون فى مسألة عدد الكتب التى كانت بمكتبة القصر فى ذلك الوقت . فذكر أبو المحاسن[٢] أنها بلغت مليون مجلد ، وقال ابن واصل إن هذه المكتبة اشتملت على مائة وعشرين ألف مجلد[٣] ؛ وبذلك خالف ابن واصل وأبو المحاسن وغيرهما من المؤرخين من أمثال ابن أبى طىّ وابن الطوير وعماد الدين الأصفهانى[٤] ؛ فقد ذكروا أن هذا العدد بلغ مائتى ألف (٢٠٠,٠٠٠) وستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) ومليونين (٢,٠٠٠,٠٠٠) على التوالى .

و بعد سقوط الدولة الفاطمية ، حمل من مكتبة القصر مائة ألف مجلد إلى المدرسة الفاضلية التى تأسست سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م)[٥] على ما تقدم . وهذا يجعل ذلك التقدير الذى أتى به ابن واصل غير صحيح . بيد أن العدد الذى ذكره ابن الطوير هو ثلاثة أمثال العدد الذى ذكره ابن أبى طىّ ، على حين أن العدد الذى أورده عماد الدين الأصفهانى يبلغ عشرة أمثال ما أتى به ابن أبى طىّ .

= أيام الخليفة الحافظ الفاطمى (سنة ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ و ١٠٣٠ — ١٠٤٩ م)، وترقى حتى صار صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه الديار المصرية ، اتخذه كاتباً له (سكرتيراً) . فلما مات أسد الدين وآلت الوزارة إلى صلاح الدين ، استخلص البيسانى واستعان به فى إزالة الدولة الفاطمية ، ثم جعله وزيراً له ومشيراً ؛ فظل فى الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، حيث مات وهو فى طريقه لقتال الملك العادل بن أيوب ، وكان إذ ذاك يسير لأخذ مصر . (ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٧)

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) طبعة جوينبول ج ٢ ص ٤٨٢

(٣) ابن واصل ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٧٠ ، ورقة ٣٢ ب .

(٤) ذكر أبو شامة ، نقلا عن عماد الدين الأصفهانى ، أن بيع مقتنيات القصر استغرق عشر سنين ، وأنه قد خصص يومان فى الأسبوع لبيع الكتب بطريق المساومة ، فبيعت بأبخس الأثمان . وتبعثرت المجلدات — وبعضها يشتمل على خمسين جزءاً فى شتى الأماكن — حتى استحال جمع كل أجزاء الكتاب الواحد . ويزيدنا عماد الدين الأصفهانى أن هذه الكتب كانت تباع بالوزن (أبو شامة ، طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٦٨)

(٥) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٦٦

لكننا لو طرحنا عدد الكتب التي حملها البيساني من هذه المكتبة ، وهو ١٠٠,٠٠٠ مجلد من مجموع الكتب الذى ذكره ابن أبى طيّ ، وهو ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، لما بقى لابن صورة إلا عدد قليل جداً يتولى بيعه على مر السنين ، وكيف يعقل هذا إذا علمنا أن مدرسة واحدة وهى الفاضلية كان نصيبها نصف مجموع هذه الكتب ؟ أضف إلى ذلك ما ذكره ابن ميسر[1] ، وهو أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، صادر الخليفة الآمر كافة ممتلكاته ، فكان من بينها خمسمائة ألف مجلد (٥٠٠,٠٠٠)[2] نقلت كلها إلى مكتبة القصر .

وليس من السهل أن نأتى بإحصاء دقيق لهذه الكتب ، إذا عرفنا أن هذا التقدير الذى أتى به المؤرخون على اختلافهم يشير إلى ظروف عدة ، أى قبل هذه المجاعة التى انتابت البلاد فى أيام الخليفة المستنصر (٤٦١ — ٤٦٥ هـ) وبعدها ، وكذا قبل سقوط الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وبعده .

ويظهر أن العدد الذى أورده ابن الطوير : وهو ٦٠٠,٠٠٠ ، يقرب من العدد الحقيقى لهذه الكتب ، التى كانت فى هذه المكتبة فى هذه الظروف كلها .

أما المكتبة الكبرى التى كانت فى القصر وما أودع فيها من الكتب الجليلة المقدار ، فقد كان لها أن تعانى ما عاناه غيرها من المصائب والبلايا التى حلت بالخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤) وانتهت بسقوط الفاطميين .

ولقد ضاع أغلب الكتب التى كانت فى القصر وفى دار العلم فى غضون الشدة التى حلت بالبلاد سنين طويلة فى عهد المستنصر ؛ ونزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة « ختمة » مكتوبة بخط محلى بالذهب والفضة ؛ وذهب ذلك كله فيما أخذه الأتراك فى مقابل ما كان متأخراً لهم من الأرزاق ، فلم يبق فى خزائن القصر الخارجية شىء مطلقاً . أما الخزائن الداخلية التى يتعذر الوصول إليها ، فقد عثر

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٧

(٢) أورد ياقوت فى كتابه إرشاد الأديب (ج ٥ ص ١٥٠) أن مكتبة الوزير أبى القاسم بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ابن خلكان (ج ١ ص ٩٣ — ٩٥) اشتملت على ٢٠٦,٠٠٠ مجلد .

فيها على صناديق ملأى بالأقلام ، براها وشذب أطرافها ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من الخطاطين[١] .

وقد ولع الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم منذ العصر الأول من خلافتهم باقتناء الكتب الخطية النادرة فى مختلف العلوم . وقد تحققت أغراضهم ، ففاقت مكتبة القصر فى القاهرة غيرها من مكتبات العالم الإسلامى .

وكان للوزير يعقوب بن كلس نصير العلوم والآداب مركز رفيع بين وزراء الفاطميين ، فقد كان يحب العلم ويجمع بداره العلماء ؛ وكان يعقد مجلساً فى كل ليلة جمعة ، يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث . وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون ينسخون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ، وكانوا يعارضونها[٢] و يشكلونها و ينقطونها .

وقد صنف يعقوب نفسه كتاباً فى الفقه أخذه عن المعز وابنه العزيز ، يتناول فيه الكلام على العقائد الفاطمية ، و يعرف بالرسالة الوزيرية . وفى رمضان سنة ٣٦٩ (مارس — أبريل سنة ٩٨٠) ، دعا ابن كلس الناس على اختلاف مراتبهم إلى اجتماع وقرأ عليهم من تصانيفه ؛ وكان يعقد المجالس بالجامع العتيق ، فيقرر المسائل الفقهية على حسب المذاهب التى وضعها[٣] .

ولا غرو فقد استفادت مكتبة القصر أيما استفادة من غيرة ابن كلس وولعه بجمع الكتب ، هذا إذا صح القول بأن عددا عظيما منها قد نقل من داره إلى هذه المكتبة بعد وفاته .

وقد روى المقريزى عن ابن الطوير أن المكتبة كانت فى المارستان العتيق فى القصر الشرقى ؛ وكان بها عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام ، لكل قسم منها باب . وزاد هذا المؤرخ أن هذه المكتبة كانت تحتوى على مائتى ألف كتاب مجلد ، عدا الكتب الأخرى

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٠٨

(٢) يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد .

(٣) ابن منجب ص ٢٢

وقد أتى المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) ببيان موجز عن هذا الكتاب الذى صنفه ابن كلس ، وقال إنه كان فى حوزته ، وإنه يتكلم عن أصول المذهب الإسماعيلى .

وقد اشتملت هذه الكتب على مصنفات فى الفقه فى جميع المذاهب ، واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والدين والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف التى احتوتها المكتبة ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب[١] وغيرهما من مشاهير الخطاطين .

وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل ، ثم يسير إلى دكة مرتفعة فيجلس عليها ؛ فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم ، وبكتب أخرى فى مواضيع مختلفة لمصادقة الخليفة على اقتنائها[٢] .

وقد روى المقريزى عن مؤلف كتاب « الذخائر » أنه كان فى القصر أربعون خزانة من جملتها خزانة بها ١٨٫٠٠٠[٣] مجلد فى العلوم القديمة[٤] . وذكر أبو شامة ، نقلا عما أورده ابن أبى طىّ عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التى باعها الأيوبيون فى عهد صلاح الدين .

وقد وصف هذا المؤرخ مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : « ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ؛ ويقال إنها كانت تشتمل على ٦٠٠٫٠٠٠ كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة[٥] » .

ولقد دأب الخلفاء الفاطميون فى جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد ، حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه الكتب . لذلك نجح الفاطميون فى جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التى لم يكن لها وجود فى المكاتب الأخرى .

---

(١) ذكر ياقوت (إرشاد ج ٥ ص ٤٤٥ — ٤٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٥ و ٤٣٦) وأبو الفدا (ج ١ ص ١٦٠) ترجمة علىّ بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ؛ وهو شاعر وخطاط مشهور مات ببغداد سنة ٤١٣ هـ

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٩

(٣) لا بد أن يكون هذا العدد أكثر من ١٨٫٠٠٠ مجلد ، لأن بعض هذه الكتب كان يقع فى أكثر من مجلد واحد .

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٩

(٥) كتاب الروضتين لأبى شامة (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٢٠٠ . وقد روى هذا الكاتب عن عماد الأصفهانى أن عدد كتب هذه المكتبة يبلغ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كتاب .

ويحدثنا المسبحى أن كتاب العين للخليل بن أحمد[1] ذكر عند الخليفة العزيز ؛ فأمر خازن مكتبته فأخرج من خزانته نيفاً وثلاثين نسخة من هذا الكتاب ، منها نسخة من خط الخليل نفسه .

وفى مناسبة أخرى أحضر رجل إلى الخليفة نسخة من تاريخ الطبرى كان قد اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر الخليفة خازن مكتبته أن يحصل على نسخ أخرى من هذا الكتاب ، فحصل على أكثر من عشرين ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وذكر عنده أيضاً كتاب الجمهرة لابن دريد ، فأحضر فى الحال أكثر من مائة نسخة منه[2] .

أما ما كان من مقتنيات المكتبة الملحقة بقصر الخلفاء الفاطميين ، وما كان لها من شهرة فى أنحاء العالم الإسلامى ، فقد دلل عليه أسامة بن منقذ فيما أورده لنا من حقائق رواها عن أبيه فقال ما نصه : « وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علىّ بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدثنى أنه لما توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه رحمه الله ، وهو إذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضى الإمام الصدر العالم أبا يوسف القزوينى رحمه الله ، عائداً ومسلماً بمعرفة قديمة كانت بينهما ، وبدكانت عنده لجد سديد الملك ذى المناقب أبى الحسن علىّ بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضى المذكور سافر إلى مصر فى أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية ، فاستعفى منها وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خزانة كتبه ، فأجابه إلى ذلك ؛ فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب ، ثم ركب فى مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الإسلام التى فى الساحل ؛ فتغير عليه الهواء ، فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فبعل بأمره وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدى سعيد الملك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعى كتب الاسلام ، وقد وقعت لك رخيصاً ، فهل أجدك حريصاً ؟ فسير إليه من يومه ولده عمّى عز الدولة أبا المرهف

---

(١) انظر ترجمته فى إرشاد الأريب لياقوت (ج ٤ ص ١٨٠ — ١٨٢) وابن خلكان ج ١ ص ٢١٦ — ٢١٨ . وقد مات الخليل سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ على ماذهب إليه ياقوت (إرشاد ج ٢ ص١٨٠) وأتى لنا ابن خلكان بتاريخين لوفاته هما ١٧٠ و ١٧٥ هـ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٨

نصرا رحمه الله ، وسير معه خيلا كثيراً من غلمانه وجنده وظهرا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه ؛ فأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة »[(١)] .

(ﺣ) دار العلم :

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغلين بنشر المذهب الشيعى ؛ فكان من ذلك أن جعل العزيز الجامع الأزهر مقراً للطلاب تحت إشراف وزيره الكبير يعقوب بن كلس ، فنقل إليه وإلى غيره كثيراً من المصاحف والكتب .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥ م) أنشأ الحاكم جمعية علمية « أكاديمية » على مثال « الأكاديميات » الموجودة ببغداد وغيرها من البلاد ، وأطلق عليها دار الحكمة . فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء ؛ وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت ما لم يجتمع مثله فى مكتبة من المكاتب . وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على خدامها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق[(٢)] .

وفى سنة ٤٠٣ ﻫ عقد الحاكم فى قصره مجلساً من مشاهير العلماء فى الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم ، فتناظروا فى شتى المسائل . وعند ارفضاض هذا المجلس منح الخليفة هؤلاء العلماء الخلع والجوائز الثمينة[(٣)] .

ولقد أمر الخليفة الحاكم بنقل الكتب التى كانت بدار الحكمة[(٤)] إلى مساجد الأزهر والحاكم والمقس ، فخص الأزهر منها بما يقرب من النصف .

٣ — العلوم التى اشتغل بها الفاطميون

(١) التفسير :

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علماؤهم بين العلوم التى

---

(١) Derenbourg : Vie d'Ousâma, pp. 503 504.

(٢) المقريزى : (خطط ج ١ ص ٤٥٨ و ج ٢ ص ٣٤٢) ، عن المسبحى .

(٣) لم تلبث أن انقطعت هذه الاجتماعات من دار الحكمة فى القصر . وهذا التغيير من جانب الحاكم مما لا ندهش له ، إذا علمنا أن موظفيه توقفوا عن تنفيذ أوامره بعد ما أصاب عقله من خبل وسياسته من اضطراب .

(٤) وتسمى دار العلم أيضاً . وقد وزعت معظم الكتب التى كانت بدار العلم ، على ما ذكره المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥) على المساجد الثلاثة التى ذكرناها قبل .

تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافية .

اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل غير المشروع ، أى الذى لا يوافق العقائد الإسلامية ، فنراهم يفسرون قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً)[1] بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطنى ، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) بأن السماء هى الإمام ، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم ، ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هى العلم والبنين هم المستجيبون ، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) أن الجنات هى الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هى العلم الباطنى[2] . وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى فى سورة الحشر (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين)[3] ، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب ، والإنسان هو أبو بكر الصديق . ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبى طالب . وتفسيرهم قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)[4] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وأن إبليس وآدم المشهوران فى القرآن هما أبو بكر وعلى ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر[5] .

---

(١) سورة نوح آية ٧١ : ١٢

(٢) Guyard : Frágments rèlatifs à la Doctrine des Ismaèlis (Paris, 1874), p. 209.

(٣) ٥٩ : ١٦ .

(٤) سورة الرحمن ٥٥ : ٥ .

(٥) الغزالى : فضائح الباطنية (نشره جولد تسيهر — ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى هذا العصر ، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية ، كما اعتمد الفقهاء فى أحكامهم الفقهية على القرآن وألفوا كتباً كثيرة أسموها « أحكام القرآن » ، واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه .

(ب) اللغة والنحو :

وممن نبغ فى اللغة والنحو قبيل الفتح الفاطمى لمصر بقليل أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوى المصرى . رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أبى الحسن على بن سليمان الأخفش النحوى ، وأبى إسحاق الزجاج ، وابن الأنبارى ، ونفطويه ، ومشهورى أدباء العراق . وكان من علماء عصره ؛ فقد نبغ فى التفسير ، واللغة ، والنحو ، والأدب ، والشعر ، فمن كتبه : كتاب إعراب القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ : وكتاب التفاحة فى النحو ، وكتاب الكافى فى النحو أيضا ، وكتاب أدب الكتاب ، وكتاب فى الاشتقاق ، وتفسير أبيات سيبويه ، وكتاب طبقات الشعراء .

وعلى الرغم مما أخذ عليه من الشح والتحامل على زملائه من علماء عصره ، تهافت الناس على درسه . وأخذ العلم عليه كثير من الناس ، وأفادوا من علمه وسعة اطلاعه . وقد توفى أبو جعفر النحاس فى شهر ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة[1] .

وكان أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى لغويا نحويا . وقد اتصل بالخليفة العزيز الذى طلب إليه أن يؤلف كتابا « يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى الحرف الذى جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم »[2] . وقد وقع هذا الكتاب فى ألف ورقة . ومن كتب القيروانى كتاب التعريض .

وممن اشتهر بالنحو فى العصر الفاطمى أبو طاهر النحوى . وكان يتولى ديوان الشام فى عهد الخليفة الحاكم . وقد ذكرنا من قبل أن أبا طاهر وجه نظر هذا الخليفة إلى ما كان

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٩

يعانيه المسلمون من محاباة فهد بن إبراهيم النصرانى ، الذى اتخذه الحاكم وزيراً له ، مما أدى إلى قتله . ولكن يظهر أن الخليفة قد ندم على قتله بدليل قتل أبى طاهر بعد ذلك بقليل (١)

وكان أبو الفضل جعفر لغويا نحويا ، وفد على الخليفة الحاكم ، فأعجب به ، وخلع عليه ، وأقطعه إقطاعا ، ولقبه « عالم العلماء » وجعله يجلس فى دار العلم يقوم بتدريس اللغة والنحو . وكان الحاكم يرجع إليه فى كثير من أمور الدولة (٢) .

ومن علماء اللغة والنحو فى العصر الفاطمى أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى (٣) .

ولد بها سنة خمس وأربعين وثلثمائة . وتوفى بمصر سنة ٤٢٣ هـ ، وذلك فى عهد الخليفة الظاهر . وكان من أهل البصرة ، وقد نشأ فى بيت اشتهر بالعلم والأدب . وكان النجيرمى من أمثل أهل بيته ، وعن طريقه روى فى مصر أكثر الكتب القديمة فى اللغة والشعر وأيام العرب . وكان راوية للغة والشعر وأيام العرب ، وقد أخذ أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ اللغة عن أصحاب النجيرمى (٤) .

ومن علماء هذا العصر أبو الحسن على بن إبراهيم النحوى . وكان من أهل الحوف (٥) . وقد أخذ العلم على أبى بكر الإدفوى ، كما أخذ العلم على أيدى جماعة من علماء المغرب ، وصنف كتاباً كبيراً فى النحو لم يذكر لنا اسمه ابن خلكان الذى رجعنا إليه فى ترجمته ، كما صنف فى إعراب القرآن كتاباً يقع فى عشر مجلدات ، كذلك كان أبو الحسن عالما باللغة والتفسير ؛ وقد أخذ العلم عليه كثير من الطلاب . وتوفى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٣٠ هـ (٦) .

ولد أبو القاسم على بن جعفر بن على بن إبراهيم بن الأغلب السعدى بجزيرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ، ثم وفد إلى مصر حول سنة ٥٠٠ هـ ، واتخذها مقرا له . وقد اشتهر باللغة ، وكان

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٩ — ٦٠ . انظر هذا الكتاب ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ورقة ٤٣ ب . انظر ص ٣١١ من هذا الكتاب .

(٣) بفتح النون وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الراء ، نسبة إلى نجيرم (ويقال نجارم) ، وهى محلة أو قرية بالبصرة .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٧٣ — ٧٥ .

(٥) بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وكسر الفاء ، نسبة إلى الحوف . وذكر ياقوت أنه ولد بشبرا النخلة من أعمال الشرقية بمصر .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

من أئمة الأدب فى عصره . وقد صنف كتاب الأفعال ، وكتاب أبنية الأسماء ، وكتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة (يعنى جزيرة صقلية) ، وكتاب لُمَح المُلَح جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس . وتوفى بمصر سنة ٥١٥ هـ[1] .

(ج) الأدب :

١ — الشعراء فى الصدر الأول من عهد الفاطميين

(٣٦٢ — ٤٦٦ / ٩٧٢ — ١٠٧٣)

(ا) الشعراء فى عهد المعز :

أكثر رجال الأدب فى قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ، لما كان يغدقه هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة فى الحصول على هذه الجوائز والحباة بالشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين ، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين ، وإن كانوا فى مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين كابن هانئ وغيره ، فقد انتشر الغلو فى شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين . وكثيرا ما دفع بهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد فى رأى أهل السنة . ولكن الإسماعيلية أنفسهم ينفون الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، كما ينفون أسماء الله الحسنى ، ويخلعون صفات السابق ، وهو الله ، وأسماء الله الحسنى ، على الإمام ، مع اعترافهم بأن الإمام من البشر . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين : « إن أولياء الله (الأئمة) من طينة الأرض معجونون ، وللسكون والفساد من حيث أجسامهم مضمونون ، يمسكهم الشراب والطعام ، وتلحقهم الأمراض والآلام ، ويقضى عليهم عند استيفاء أيامهم الحِمام »[2] .

ولما كان ابن هانئ أول من ضرب المثل فى ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده ، رأينا أن نأتى بشىء من سيرته ، عسى أن نتبين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ١١ — ١٢ .

(٢) المؤيد فى الدين : المجالس المؤيدية ج ١ ص ٦١ نقلا عن مقدمة الرسالة الواعظة للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين ص ٩ .

كانت تظهر لدى الخلفاء الفاطميين فى نشر دعوتهم ونجاح سياستهم . ويلقب أبو القاسم محمد بن هانئ بأبى الحسن أيضا ، وكان من قبيلة أزد . وقد ولد فى إشبيلية فى بلاد الأندلس فقضى بها أيام صباه . وكان أبوه هانئ من قرية من قرى المهدية فى شمال إفريقية (فى بلاد تونس الآن) . وقد تجلت مواهبه فى الشعر والفلسفة ، وانتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد الذى اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، وانهمك فى الملاذ واتهم بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر عنه ذلك ، نقم عليه أهل هذه المدينة وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه ، حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب هانئ ، فأشار عليه الملك بالبعد عن هـذه المدينة ريثما ينسى الناس ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (سنة ٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ ، ٩٥٨ أو ٩٦٤ م) ، فلقى جوهرا القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابنى على بن أحمد بن حمدان الأندلسى أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا فى إكرامه والإحسان إليه ، فنمى خبره إلى المعز فطلبه منهما . فلما وفد عليه بالغ فى الإنعام عليه . ثم توجه المعز إلى الديار المصرية ، فشيعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بمولاه . وقد أعد ابن هانئ معداته للرحيل وسار يريد مصر . فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجالس الأنس والطرب . ويقول ابن خلكان إنهم عربدوا عليه فقتلوه . وفى رواية أخرى أنه خرج سكران ، فنام فى الطريق فوجد ميتاً فى الصباح ، فلم يقف الناس على سبب وفاته . وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ (٣٠ إبريل سنة ٩٧٣) ، وعمره ست وثلاثون سـنة ، وقيل : اثنتان وأربعون[1] .

ولقد ناط المعز بابن هانئ الآمال الكبار ، عساه أن يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم ، يؤيد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانئ وهو بمصر ، أسف عليه أسفاً شديداً وقال : " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك "[2] .

ولا شك فى أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانئ الذى يقع

---

(١) ياقوت — إرشاد (ج ٧ ص ١٢٦ و ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٥) ، المقرى — نفح الطيب (ج ٢ ص ١٠١٠) ، أبو المحاسن — طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٢٧ — ٤٣٨)

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٥

فى مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخى على أن ابن هانئ قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعى فى صباه . غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد ؛ يدلك على هذا ما كان من إظهار هذه العواطف حال وصوله إلى بلاد المغرب .

ويظهر لنا أن ابن هانئ أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرمهم ، لا حبا فى عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هـذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك فى هذين البيتين :

لى صارم وهو شيعىٌ كحامله   يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعزُّ معز الدين سلّطه   لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[1]

وربما كان أمر اعتناقه المذهب الشيعى راجعا إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه ، كما يتبين لنا من إحدى قصائده فى مدح المعز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل إلى المعز طمعا فى صِلاته وعطاياه ، فيقول :

٢٧ وطفقتُ أسأل عن أغرَّ[2] محجَّلٍ[3]   فإذا الأنامُ جِبِلّةٌ[4] دهماء[5]
٢٨ حتى دُفعتُ إلى المعز خليفـــةً   فعلمتُ أن المطلب الخلفـــاء
٢٩ جودٌ كأن اليم[6] فيــه نفاثة[7]   وكأنما الدنيا عليـــه غثاء[8]

ويقول ابن هانئ فى قصيدة أخرى رائعة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان فى مدح المعز :

٢١ قد كان رَشّحَ حديده أجلا وما   صاغتْ مضاربَهُ الرقاقَ قيونُ[9]

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٨٢
(٢) الأغر السيد فى قومه .
(٣) التحجيل بياض يكون فى قوائم الفرس ، وقيل هو أن يكون البياض فى ثلاث منهن دون الأخرى فى رجل ويدين .
(٤) الجبلة بمعنى الطبيعة والخليقة والغريزة .
(٥) من الدهمة وهى السواد .
(٦) اليم البحر .
(٧) النفاثة البصقة .
(٨) الغثاء الزبد — ديوان ابن هانئ ص ٧
(٩) القيون الحدادون .

ملاحظة : الأرقام التى على يمين الأبيات تشير إلى ترتيبها فى قصائدها .

٢٢ وكأنما يَلقَى الضريبـــةَ دونه   بأسُ المعز أو اسمُـــــه المخزون
٢٣ هـــذا مَعَدُّ والخلائقُ كلُّها   هـــذا المعز متوَّجا والدين
٢٤ هـــذا ضميرُ النشأة الأولى التى   بدأ الإله وغيبهـــــا المكنون
٢٨ وصواهلٌ ، لا الهُضْب يومَ مغارها   هُضب ، ولا البيض الحزون حزون
٤٢ عُرفت بساعة سَبْقها لا أنهـــــا   عَلِقَت بها يوم الرِّهان عيـــون
٤٣ وأجَلُّ عـــــلم البرق فيها أنها   مَرَّتْ بجانحتيه وهى ظنـــون
٤٤ فى الغيث شِبْهٌ من نداك كأنما   مسحتْ على الأنواء منك يمينُ
٤٥ أما الغِنى فهو الذى أوليتَنـــــا   فـكأنَّ جودَكَ بالخلود رهينُ
٥١ وأذنْ له يغُرقْ أميـــةَ معلناً   ما كلُّ مأذون له مأذونُ
٧٦ النورُ أنت وكلُّ نور ظلمـــة   والفَوْقُ أنت وكل فوق دون
٨٣ فارزُقْ عبادَكَ منك فضلَ شفاعة   واْقرُبْ بهم زُلفى فأنت مَكين(١)

وعلى هـذا النحو نظم ابن هانئ مدائحه فى المعز معليا مآثره مشيدا بأحقية الفاطميين بالخلافة .

ولم يفت ابن هانئ أن يعلى من شأن الانتصار الذى حازته جيوش المعز على جند البيزنطيين فى سورية حيث يقول :

١ يومٌ عريضٌ فى الفَخَار طويل   ما تنقضى غررٌ له وحجولُ
٢٠ لو أبصرتك الرومُ يومئذ درتْ   أن الإله بما تشاء كفيل
٢١ ياليتَ شعرى عن مقاولهم إذا   سمعتْ بذلك عنك كيف تقول
٢٢ ودُّوا ودادا أن ذلك لم يكنْ   صـــدقا وكلٌّ ثا كلٌ مثكول
٢٥ قلْ للدمُسْتُقِ مُوردِ الجمع الذى   ما أصدرته له قَنًا ونُصـــول

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٢١١ — ٢١٦ .

صدر ناشر ديوان ابن هانئ هذه القصيدة بمقدمة ننقلها فيما يلى : " وقيل إن هذه القصيدة أول ما أنشده بالقيروان ، وأنه (المعز) أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! مالى موضع يسع الدست إذا بسط " ، فأمر له ببناء قصر ، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار " .

٢٦ سلْ رَهط منويلٍ وأنت غررته ... فى أى معركة ثوى منـــويل

٢٧ منع الجنودَ من القفول رواجعا ... تبًّا له بالمثنيات قُفـــول

١٠٣ مَنْ يهتدى دون المعز خليفـــةً ... إن الهداية دونها تضليل(١)

ومما قاله فى عيد النحر يمتدح المعز ويذكر هذا العيد :

١٩ هذا ابن وَحْىِ الله تأخذُ هَدْيَها ... عنه الملائكُ بكرةً وأصـــيلا

٣٠ ذُعِرت مواكُبه الجبالَ فأعلنت ... هضباتُها التكبيرَ والتهليلا

١٠٨ وعلمتَ من مكنون سر الله ما ... لم يُؤْتَ فى الملكوت ميكائيلا

١١٢ لو كان آتى الخلقَ ما أوتيته ... لم يَخلق التشبيهَ والتمثيلا(٢)

(ب) الشعراء فى عهد العزيز والحاكم (٣٦٦ — ٤١١ / ٩٧٥ — ١٠٢١) :

لقد قدمنا ما كان من أثر الأموال التى كان يغدقها الوزير ابن كلس والخليفة العزيز على الشعراء ، مما دفع بهم إلى نظم القصائد الرائعة . والآن نأتى بأمثلة قليلة تبين أعمال الشعراء فى هذا السبيل :

من هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبى الجرْع ، وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن العزيز الفاطمى . ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم فى يده ، فنظم ابن أبى الجرع قصيدة يُظهر فيها شديد حزنه لمرض الوزير ، ويصف ما كان لمنح العزيز عليه من أثر . وفى ذلك يقول :

يدُ الوزير هى الدنيا فإن ألمت ... رأيتَ فى كل شىء ذلك الألما

تأمّلِ الملكَ وانظر فَرْط علته ... من أجله واسأل القرطاسَ والقلما

وشاهدِ البيضَ فى الأغماد حائمةً ... إلى العدا ، وكثيراً ما رُوينَ دما

وأنفسُ الناس بالشكوى قد اتصلت ... كأنما أشعرت من أجله سَقما

هل ينهضُ المجدُ إلا أن يؤيده ... ساقٌ تقدّم فى إنهاضه قدما

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٤٧ — ١٥٣ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ١٥٣ — ١٦٠

لولا العزيزُ وآراء الوزير معا — تحيَّفتنا خطوب تشعبُ[1] الأمما

فقلْ لهذا وهذا أنتما شرفٌ — لا أوهن اللهُ رُكنيه ولا انهدما

كلا كما لم يزلْ فى الصالحات يدا — مبسوطةً ولسانا ناطقا وفما

ولا أصابكما أحداثُ دهركما — ولا طوَى لـكما ما عشتما علما

ولا انمحتْ عنك يا مولاى عافيةٌ — فقد محَوتَ بما أوليتنى العدما[2]

يضاف إلى ذلك ما أورده لنا ابن خلكان[3] ، وهو أنه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره ، فرثاه مائة شاعر ، فأجيز كل منهم .

ولم تقتصر هذه المنح على الخلفاء والوزراء ، بل كان لغيرهم من كبار رجال الدولة يد فى ذلك أيضاً . ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح ، وكان من الأمراء الذين يسيرون فى ركاب الخليفة العزيز إذا خرج فى الموكب . ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الحاكم قصيدة يمدح فيها الفضل ، نذكر منها هذه الأبيات :

إنما الفضلُ غُرةٌ — فى وجـوه المدائح

أرَيحىٌّ رياحُـه — عبقـاتُ الروائح

كعبةُ الجود كفه — بين غاد ورائح

إنما تصـلح الأمو — ر برأى ابن صالح[4]

ومع ذلك فإن ما أظهره الوزراء من جود وكرم لم يكن إلا صورة مصغرة لهبات الخلفاء أنفسهم ، وعلى الأخص فى الصدر الأول من أيام الفاطميين ، حين كانت سطوة الخلفاء لا تزال فى أشدها . يدلك على صحة ما نقول هذه الأبيات التى نوردها من هذه القصيدة التى أنشدها الشاعر المشهور أبو حامد الأنطاكى يمتدح فيها العزيز ووزيره ابن كلس .

كان أبو حامد أحمد من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ، وكان من مشهورى

---

(١) تشعب بمعنى تصدع .

(٢) المقريزى خطط ج ٢ ص ٧

(٣) ج ٢ ص ٤٤٣

(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٤٧

الشعراء . وقد تكلم عنه الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » (ج ١ ص ٢٣٨) فقال : « هو نادرة الزمان وجملة الإحسان . . وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين ، هو بالشام كابن حجاج بالعراق » . وذكر ابن خلكان أنه أقام بمصر زمانا طويلا ، وأن معظم شعره قد نظم فى مدح أمرائها ورؤسائها ، فمدح من الخلفاء الفاطميين المعز والعزيز والحاكم ، وشاد بذكر جوهر وابن كلس وغيرهما . وقد ذكره المسبحى فى كتابه « تاريخ مصر » فقال إن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ — ١٠٠٩ م[1]) . ومن هذه الأبيات نتبين أن الوزير كان يستمد نفوذه من نفوذ مولاه وتعضيده :

لم يدعْ للعزيز فى سائر الأر	ض عَدوًّا إلا وأخمد نارَهْ
كلَّ يوم له على نُوَب الدهـ	ـر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يدٍ شأنُها الفِرار من البخـ	ـل وفى حومة الندى كراره
قد أقلَّت عن العزيز عداه	بالعطايا وكثَّرت أنصاره
هكذا كلُّ فاضل يده تُمـ	ـسى وتُضحى نقاعةً ضراره
فاسـتجرْه فليس يأمنُ إلا	من تفيَّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيتـه مطرقا يعـ	ـمل فيما يريدُه أفكاره
لم يدعْ بالذكاء والذهن شيئاً	فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ، ولا موضعا من الأرض إلا	كان بالرأى مُدركا أقطاره
زاده الله بَسْـطة وكفاه	خوفه من زمانه وحذاره[2]

(ج) الشعراء فى عهد الظاهر (٤١١ — ٤٢٧/١٠٢٠ — ١٠٣٥) :

هكذا كان تشجيع الشعر والشعراء على يد الفاطميين ، مما دفع بكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار فى مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم . ولا غرو فإنهم لم يلقوا من تشجيع فى بلاط الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وقد ذهب ما كان لهم من

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) الثعالبى ، يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٩

حول وطول . بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يفد عليه من الشعراء النابهين ، سنيين كانوا أو شيعيين .

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكى من أهل بغداد ، وكان فقيهاً مالكياً مبرِّزاً، كما كان أديباً وشاعراً . وقد وصفه أبو بكر البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » فقال إنه كان ثقة فى الحديث ، وانه لم يلق من المالكيين أحداً أفقه منه[1] . وكان عبد الوهاب هذا من كبار الشعراء الذين تركوا بغداد وارتحلوا إلى القاهرة .

ولقد تولى ابن نصر القضاء ببادرايا وباكُسايا ، وهما مدينتان تقعان على مقربة من النهروان . وقد روى ياقوت عن ابن بسّام ، أنه تولى القضاء أيضاً بمدينة إسْعِرْد الواقعة فى أرض الجزيرة ، على مقربة من نهر دجلة ، على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبى مَيًّا فارقين . وخرج فى أخريات أيامه إلى مصر بعد أن نبذته بغداد[2] .

ويحدثنا ياقوت أنه فى اليوم الذى رحل فيه ابن نصر المالكى عن بغداد ، خرج كبار رجالها يودعونه ، فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير ، معبراً عما كان يشعر به من ألم الفراق ، إنه ما فارق هذه المدينة « عن كره لها ، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه » ، ثم ختم كلامه بهذه الكلمات : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية »[3] .

ولقد أصاب ابن بسّام حيث يقول هذه الكلمات التى تنطوى على غاية الاحتقار : « والخبز يومئذ كل ثلثمائة رطل بدينار . وهذا فى غاية الذم لهم ، لأنه أراد أن يخبرهم بسقوط (بسقاطة فى الأصل) همتهم وخسة نفوسهم »[4] ،

وقد أظهر ابن نصر ما كان يخالج نفسه من حزن لمفارقة بغداد فى إحدى قصائده ، وفيها يودع بلده ويشير إلى هذه الأحوال التى أحاطت برحيله حيث يقول :

سلامٌ على بغداد من كل منزل وحقٌّ لها منى السلامُ المضاعَفُ

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢ والكتبى ج ٢ ص ٢٧

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٢

(٤) ابن الجوزى ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٦ (١)

فوالله ما فارقتها عن قِلًى لها   وإني بشطَّيْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقتْ عليَّ برُحبها   ولم تكن الأرزاقُ فيها تساعف
وكانت كخِلٍّ كنت أهوى دنوه   وأخلاقُه تنأى به وتخالف[1]

ويصف لنا ابن نصر فى قصيدة أخرى معيشته فى بغداد فيقول :

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبة   وللمفاليس دار الضنك والضيق
أصبحتُ فيها مُضاعا بين أظهرهم   كأننى مصحفٌ فى بيت زنديق[2]

هكذا كان ما عاناه هذا الفقيه الكبير ، والقاضى والشاعر المشهور ؛ فقد بلغت معاملة الناس له إلى هذا الحد من الإهمال ، حتى هام على وجهه فى شوارع حاضرة العباسيين ، حيران لا يلوى على شىء . وقد لجأ فى النهاية إلى القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية الشيعية واتخذها مقراً ووطناً ثانياً له .

رحل ابن نصر إلى مصر[3] ، واجتاز فى طريقه معرة النعمان[4] ، وبها يومئذ أبو العلاء المعرى ؛ فأضافه عنده ، ثم أشار إلى هذا الحادث فى قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمالكى ابنُ نصرٍ زار فى سفرٍ   بلادنا فحمِدنا النأىَ والسفرا
إذا تفقـه أحيا مالكا جدلا   وينشر الملكَ الضِّلِّيل[5] إن شعرا[6]

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٨٣

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

(٣) أيد ابن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات پوكوك ، القسم الشرقى ، مخطوطة ٣٧٠ ، ورقة ١٠ « ا ») هذا القول ، مستنداً إلى ما ذكره ابن عساكر من أن ابن نصر وصل إلى دمشق فى طريقه إلى مصر سنة ٤١٩ هـ . ويظهر لنا عدم صحة هذا القول وهو أن ابن نصر وصل إلى مصر سنة ٤٢٢ قبل وفاته بقليل . وغير محتمل أن يكون قد أقام سنتين فى دمشق والمعرة ، لأن عبارة « مجتازاً إلى مصر » تفيد أن إقامته كانت قصيرة الأمد . « وذكره الحافظ ابن عساكر وقال : قدم دمشق سنة تسع عشرة وأربعمائة مجتازاً إلى مصر » .

(٤) هى مدينة من أعمال حمص ، تقع بين مدينتى حلب وحماه .

(٥) الملك الضليل لقب لامرئ القيس الذى عده النبى صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكتبى (ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التى ذكرها فى كلامه عن ابن نصر .

(٦) أبو العلاء المعرى : ديوان سقط الزند ص ١٣٤

ولما وصل إلى مصر ، استقبله الناس أحسن استقبال . وقد وصف ذلك ابن خلكان[1] في هذه العبارة حيث يقول : « فحمل لواءها ، وملأ أرضها وسماءها ، واستتبع ساداتها وكبراءها ، وتناهت إليه الغرائب وانثالت في يديه الرغائب » . وقد زاد هذا الكاتب فذكر أن ذلك كان في خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ، وهي نفس السنة التي مات فيها . وذكر لنا ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : إنه ما كاد يصل مصر حتى مات من أكلة اشتهاها ، وقال وهو على فراش الموت : « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا ! » .

٢ — الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين

(٤٦٦ — ٥٦٧/١٠٧٣ — ١١٧١)

(ا) الشعراء بين سنتي ٤٦٦ — ٤٨٦ هـ

لقد أمدنا كاتب من الكتاب المعاصرين لهذا العهد ، وهو عماد الدين الأصفهاني[2] ، بمادة غزيرة استعنا بها في كتابة الدور الذي قام به الشعراء في الشطر الأخير من أيام الدولة الفاطمية .

ولد أبو عبد الله محمد بن الرجاء ... هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ؛ وكان فقيهاً شافعي المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها ، وأتقن الجادلة وفنون الأدب ، واتصل بخدمة الوزير عَوْن الدولة بن هبيرة ، فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه . فلما توفى الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق ، فوصلها سنة ٥٥٢ هـ (١١٦٥ م) ، وهناك عهد إليه بإدارة البريد . وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فوض إليه التدريس بالمدرسة في دمشق . فلما توفى نور الدين ذهب إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً ، وبقى فيها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . ولما عاد إلى دمشق ،

---

(١) ج ١ ص ٣٨٣

(٢) انظر ياقوت ، إرشاد الأريب (ج ٨ ص ٨١ — ٩٠) ، وابن خلكان ج ٢ ص ٩٧—١٠٠ ، وأبا الفدا (ج ٨ ص ١٠٥)

رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين ، فحاز ثقته . ولما توفى صلاح الدين عاد إلى دمشق وكرس بقية حياته على الأدب حتى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

على أن هناك كثيرين من الكتاب المعاصرين غير عماد الدين ، من أمثال عمارة اليمنى وأسامة بن منقذ ، وكانا يتصلان بغيرهما من شعراء هذا العصر بروابط المودة والصداقة . وقد أمدنا كل منهما بمعلومات عن هذا الموضوع . وكذلك الحال مع ابن مُيَسَّر الذى استقى أخباره من بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين .

والعصر الذى يتكلم عنه عماد الدين فى كتابه يمكن تقسيمه قسمين :

الأول — ويبحث فى الشعراء الذين عاشوا فى المدة التى تتخلل سنتى ٤٨٦ و ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م) وذلك فى عهد الخلفاء المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥/١٠٩٤ — ١١٠١) والآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠) والحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤/١١٣١ — ١١٤٩) والظافر (٥٤٤ — ٥٤٩/١١٤٩ — ١١٥٤) .

الثانى — ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا فى عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين ، وهما الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥/١١٥٤ — ١١٦٠) والعاضد (٥٥٥ — ٥٦٧/ ١١٦٠ — ١١٧١) .

لقد بينا من قبل أن كثيرين من الشعراء هاجروا إلى مصر رغبة فى التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وضربنا لذلك مثلا هذا الشاعر الكبير عبد الوهاب بن نصر المالكى . ولقد أمدنا عماد الدين الأصفهانى بفوائد عظيمة عن غير من ذكرنا من الشعراء الذين غادروا بلادهم إلى مصر فاتخذوها دار إقامة .

(ب) الشعراء بين سنتى ٤٨٦ — ٥٤٩/١٠٩٣ — ١١٥٤ :

نزل مصر أبو الفتيان مفضَّل بن حسن بن خضر العسقلانى ، فتمتع بما أغدقه عليه الأفضل ابن أمير الجيوش من صلات . ولقد امتدحه ابن خضر فى قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

١ أقولُ والنجمُ مرقومٌ بغرته ... سطرا نظرتُ وضوءُ الصبح مبتسم

٢ أمنه خَدَّيه أضحى فى زجاجته ... يدير أم ماؤها فى وجنتيه دم ؟

٤ صيغَ الصباحُ ضياءً من مياسمه فاستنبطت حلكا فى شعره الظُلَمُ[1]

وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه إلى مصر شاعراً آخر ، هو أبو الحسن على بن إبراهيم الملقب بابن العلانى ، من أهل معرة النعمان منبت الشاعر أبى العلاء المعرى . أتى ابن العلانى إلى مصر فحاز تشجيع الأفضل ونَعِم بما أغدقه عليه من صلات . يدل على ذلك هذه الأبيات القليلة التى ننقلها من قصيدة يمدح فيها ولى إحسانه ونعمه حيث يقول :

٣ فــكفُّهُ مصرٌ والحجيج وفوده ويمناه ركنُ البيت والنيل زمزم

٤ وشاكرُ ما تولى مُبِرٌّ بعجزه ولو أنه فى كل عضــــو له فم[2]

وهناك طائفة أخرى من الشعراء الذين وفدوا على مصر ، رجاء الحصول على ما حصل عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم . ومن بينهم أبو الحسن علىّ بن جعفر ابن البُوَين[3] ، وهو من أهل المعرة أيضاً . ولقد اعتمد عماد الدين فى عبارته على ما ذكره أسامة بن منقذ[4] ، وهو أن ابن البوين « حاز ثقة الأفضل ونال حظوته ، وأنه أفاض عليه من سحائب إحسانه ، وأدر عليه حلوبة إنعامه ، ولقبه بأمين الملك واستخلصه » .

ويحسن بنا أن ننقل هنا بضعة أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

يا مَن تنافس فيه السمعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمسُ والقمرُ

ومن تحكَّمَ فى الأرواح فاحتكمت ألاّ يحكم فيها بعده بشر[5]

وقد أمدنا أيضاً عماد الدين بمعلومات نافعة عن أبى الحسن علىّ بن محمد الأخفش ، وهو شاعر من أشراف المغاربة ، أجاد فى مدح الخليفتين الآمر والحافظ وغلا فى تمجيد الفاطميين وإعلاء شأنهم . يدل على صحة ذلك هذا البيت الذى ننقله من قصيدة يمدح فيها الخليفة الآمر :

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الملكية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٨١ (ب) .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٣٣ (ب)

(٣) ذكر أسامة بن منقذ (Derenbourg, Vie d'Ousâma, p. 504) اسم ابن البوين فقال : إن جده سديد الملك أبا الحسن على بن مقلد اتخذه كاتباً له . وزاد على ذلك أنه تقابل معه فى بيت أبيه ببغداد ، فلم يعرفه أبوه لكبر سنه . لكنه لما سمع اسمه عرفه واحتفى به وقال له : أنت الشاعر النحوى الكاتب ؟

(٤) لم يذكر أسامة شيئاً عن ذلك فى كتبه . ونحن نظن أن عماد الدين دوّن هذه العبارة بعد أن التقى بأسامة فى سورية أو فى غيرها من البلاد .

(٥) عماد الدين الأصفهانى شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٤٣ (أ)

إلى ذروة النور العَلائى[1] إنه إلى ذروة النور الإلهى يُنسب[2]

وقال هذا الشاعر فى قصيدة أخرى يمتدح فيها الخليفة الحافظ :

بَشَرٌ فى العين إلا أنه من طريق العقل نورٌ وهدى
جلّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا[3]

هذا كان حال الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر . أما غيرهم من الشعراء المصريين الذين رحلوا عن بلادهم ، فإنهم لم يلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير فى عاصمة العباسيين . وجعفر بن أبى زَبيد مثال صالح لما ذكرنا ، فقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد فى قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصْدُنا بغدادَ شوقاً لأهلها ولا خفيت مذ قط أبصارنا عنا ؟
ولا أننا أخترنا على مصرَ بلدةً سواها ، ولكنّ المقاديرَ ساقتنا[4]

وقد يتبين مبلغ جود الخلفاء الفاطميين وكرمهم من هذين البيتين اللذين نظمهما أبو العباس أحمد بن مفرّج ، أحد الشعراء الذين عاشوا فى عهد الخليفة الحافظ ، الذى أمر الشعراء أن يختصروا قصائدهم إذ يقول :

أمرتَنا أن نصوغَ المدح مختصرا لِمْ لا أمرتَ ندا كفيك يختصر ؟
والله لا بد أن تجرى سوابقُنا حتى يبينَ لها فى مدحك الأثر[5]

والآن نسوق مثلا آخر من الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم فى نشر العقائد الفاطمية ؛ مثل أبى الحسن بن الزُّبد[6] الذى وصفه عماد الدين ، نقلا عن القاضى الفاضل ، فقال : « وإنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » . وقد قال يهنئ الخليفة الحافظ بالانتصار على الصليبيين : « الحمد لله الذى فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ... وجعل أيامه

---

(١) ذكر هذا اللفظ فى المخطوط « العلاق » ويظهر أنه نسخ خطأ بدل لفظ العلائى أى العلوى .

(٢) المصدر نفسه ، ورقة ١١٨ (ا)

(٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٤٢ (ا)

(٤) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ا)

(٥) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٠٨ (ب)

(٦) أطلق عليه عماد الدين (مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ « ب ») اسم أبى على حسن بن زبيد . وخالفه فى ذلك عمارة اليمنى (ص ٣٥) حيث أطلق عليه على بن الزبد ، وسماه فى مكان آخر (ص ١٤٤) المكرم على بن الزبد .

واضحة الحجول والغرر ، مخصوصة بالفتوح والظفر ، يحقق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده ، نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وعُدده[1] » .

هذا ، ولم تقتصر مدائح ابن الزبد على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل تعدتهم إلى غيرهم من الوزراء وكبار رجال الدولة ، فتراه يمدح الأفضل فى قصيدة يقول فيها :

خلع الزمانُ علىّ حُلة مَفْخَرٍ　　شَرَفًا بمدح الأفضلِ المفضالِ

يَلقى المدائحَ بالمنـائح واهبا　　ويصدق الأقوالَ بالأفعال[2]

ويمدح ابن الزبد هذا الوزير فى قصيدة أخرى فيقول :

لولا وجودُك فى الزمان وجودك الـ　　ـمُحيى المكارم بعد بُعْد وفاتها

لم يُعْرَفِ المعروفُ فى الدنيا ولو　　طفنا عليه فى جميع جهاتها[3]

وقد ذكر عمارة[4] ابن الزبد عند كلامه عن الكتاب فى عهد الوزير ابن رزيك ، فوصفه بأن كان من رجالات الدولة الذين نالوا حظوة لدى الوزير ، وأنه كان يتردد عليه ؛ وزاد أنه كان فاطميا مغاليا . وقد بلغ من وفائه لبنى رزيك أن خاطر بحياته فى الدفاع عن هذا الوزير ، وقاتل عنه أشد قتال ، ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه . وهنا ألقى بنفسه على الوزير ووقاه من الضربات التى انهالت عليه ، وبذلك هيأ السبيل لنجاة الوزير .

فليس من عجب إذا ارتفعت مرتبة ابن الزبد وعلت منزلته فى عين الوزير ، فأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحه[5] . وقد أشار عمارة اليمنى إلى ذلك فى بعض قصائده حيث يقول :

أوجَبْتَ فى ذمة الأشعار والخطب　　دَينا أبا حسنٍ يبقى على الحِقب

---

(١) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب)

(٢) المصدر نفسه ، ورقة ١١٨ (ب)

(٣) المصدر نفسه ، ورقة ١٢١ (ب) .

(٤) ص ٣٥ و ١٤٤ و ١٤٥ .

(٥) عمارة اليمنى ، النكت العصرية (ص ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ — ٥٣ و ٦٣ — ٦٥ و ١٤٦ و ١٤٧)

أيامُكَ البيضُ لا تُحصَى، وأفضلها ... يومٌ خُصِصتَ به فى قاعة الذهب
وفَيتَ للصالح الهادى وقد غدرت ... به الصنائعُ من ناء ومقترب[1]

وعلى الرغم مما قام به ابن الزبد فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، فقد ختمت حياته بمأساة محزنة . فقد روى عماد الدين عن القاضى الفاضل ، أن رجلا يدعى ابن قادوس[2] نظم بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن بن الخليفة الحافظ ، ثم دسهما ضمن أوراق لابن الزبد وسعى به إلى الحسن فأمر به فقتل[3] :

ولقد أتى عماد الدين بعبارة أخرى رواها عن علىّ بن عَبّاد[4] ، وهو من أهل الاسكندرية ، وكان شاعرا نابها ، نال فى بلاط الحافظ الفاطمى حظوة كبيرة . ولما اعتقل أبو علىّ بن الوزير الأفضل الخليفةَ الخليفةَ الحافظ ، نظم ابن عباد قصيدة يهنئ فيها الوزير وفيها يقول :

تبسم الدهر لكنْ بعــــدَ تعبيس ... وقَوَّض الدهر لكن بعـد تعريس
إذا دعَــــوْنا بأن تبقى لأنفســنا ... دعاؤنا : فابْقَ يا ابن السادة السوس
وقد أعاد إليــه الله خاتَمـــــه ... فاسترجع الملك من صخر[5] بن إبليس[6]

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٦

(٢) ذكر عمارة (ص ٣٥) أبا الفتح محمد بن قادوس فى سياق كلامه على رجال الأدب الذين اتصل بهم فى مصر ، فوصفه بأنه من مشهورى شعراء هذا العصر . ويسميه ابن ميسر (ص ٩٧) القاضى المفضل أبا الفتح محمود بن قادوس ، ويذكر أنه توفى فى ٧ محرم سنة ٥٥٣

(٣) عماد الدين الاصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب) .

(٤) اللفظ الذى جاء فى المخطوط هو ابن عبادة . ومع ذلك فقد ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات : عبادة وعباد وعناد . وواضح أن اللفظ الأخير خطأ ، إذ لا يتسمى به غير القبط عادة . أما لفظ عباد فهو الصحيح (مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٩٧ (ب) وما يتبعها) . انظر ابن ميسر (ص ٨١)

(٥) هو اسم الجن الذى أخذ الخاتم من سليمان بن داود ، الذى يوازن هذا الشاعر فى قصيدته بينه وبين الوزير . (انظر تفسير الجلالين – طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ، ج ٢ ص ١٣٨) . وهذه الأبيات عبارة عن مقارنة بين الوزير الأفضل وسليمان الذى فقد خاتمه وملكه ، ولكنه استرده بعد أربعين يوماً (انظر الباب الرابع عشر من هذا الكتاب) .

(٦) المصدر نفسه ، ورقة ٩٨ (ا) .

ذكر ابن ميسر (ص ٨١) الشطر الأول من البيت الأول وذكر البيت الرابع كما يلى :

هذا سليمانكم قــد رد خاتمه ... واسترجع الملك من صخر بن ابليس

وزاد ابن ميسر على ذلك أن عباداً لما أنشد البيت الرابع فى حضرة الوزير ، قام القاضى عبد الله محمد ابن ميسر طرباً لهذا البيت ، فكان ذلك سبباً لصرفه عن القضاء وقتله ، بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله .

وهذا البيت الذى هجا فيه ابن عباد الخليفة كان سبباً فى قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله ، واسترجع ملكه بعد وفاة هذا الوزير .

ولم تقتصر مدائح الشعراء على الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ؛ فقد كان لغير هؤلاء من من كبار رجال الدولة نصيب وافر من مدائح هؤلاء الشعراء الذين طمعوا فى صلاتهم . ومن الأدلة على هذا أبو الفضل جعفر بن المفضَّل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده فى مدح الوزير الأفضل .

وقد بين لنا عماد الدين ما كان بين المهذب ووالى الاسكندرية من علاقات ، ويقول إن أحد الحاضرين سأل المهذب أن ينظم شعراً يصف فيه خاتم الأمير وقد ضاق عن خنصره ، فقال مرتجلا :

قصَّر فى أوصافك العالِمُ ... فاعـترف الناثر والناظم
من يكن البحرُ له راحةً ... يضيق عن خنصره الخاتَمُ[1]

فأمر له الأمير بعطاء فأخذه ، فسئل أن يصف غزالا قد استأنس فى حجر الأمير ، فأنشد على الفور :

عجبتُ لجرأة هـذا الغزال ... وأمرٍ تخطى له واعتمـدْ
وأعجبْ به إذ بدا جاثيـا ... فكيف اطمأنَّ وأنتَ الأسدْ[2]

فأمر له الأمير بعطاء آخر ، فسأله الرجل ممتحناً أن ينظم فى هـذه الشبكة المدولة على هذه الدار فقال :

رأيتُ ببابك هـذا المنيف ... شباكا فأدركنى بعض شك
وفكرت فيما جرى لى فقلت ... مكانَ البحار يكون الشبك

فقال الأمير لممتحنه : دعه و إلا أخذ ما علىّ ![3] .

وهكذا كان كرم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادة عصرهم . فلا ندهش إذا غلا

(١) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٨٧ (ب) .
(٢) المصدر نفسه ، ورقة ٨٧ (ب) .
(٣) المصدر نفسه ورقة ٨٧ (ب) .

بعض هؤلاء الشعراء فى مدحهم ، حتى أدى بهم ذلك إلى الإلحاد والمروق عن الدين وكان عماد الدين ، كما بينا ، سنيا ، يرى أن الشعر الذى يتعرض لهذه المسائل يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن الدين . لذلك لا نجد فى هذا الكتاب القيم الذى خلفه عماد الدين ، إلا أمثلة قليلة من هذه القصائد التى نظمها غلاة شعراء الفاطميين .

هذا ، وكان ابن الضيف ، وهو من شعراء الفاطميين الذين عاشوا فى عهد الخليفة الآمر ، ملحداً فى نظر عماد الدين ، الذى أبى أن يودع كتابه بعض القصائد التى نظمت فى مدح الفاطميين ، معللا ذلك بهذه الكلمات :

« ابن الضيف كان من دعاة الأدعياء ، المغالين لهم فى الولاء . وكان فى حدود سنة خمسمائة فى عهد آمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وكنت عازما على حطه ، لأنه أساء شرعا وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ... لكننى لم أر أن أترك كتابى منه صفرا ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البَرُّ والفاجر »[١] .

(ج) الشعراء بين سنتى ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ — ١١٧١ م) :

والمهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير[٢] ، الذى وصفه عماد الدين بقوله : « ولم يكن فى زمانه أشعر منه »[٣] ، مثل بيِّنٌ للشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين

---

(١) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٢ ب وما يتبعها .

(٢) ذكر عمارة (جـ ١ ص ٨٦ و ٩٦ و ١٨٤ و ٢٦٨) و (جـ ٢ ص ٥١٤ و ٥٥٥ و ٥٧٣ و ٦٠٠ و ٦٠٢ و ٦٣٦ و ٦٣٧) الرشيد بن الزبير ، وولديه أحمد والحسن . ووصف ولديه (جـ ١ ص ١٨٤) بأنهما شاعران نابهان ، عاشا فى زمن الوزير الصالح بن رزيك . وفى إحدى قصائده (جـ ١ ص ١٨٤) يمدح عمارة أحد هذين الشاعرين (البيت الأخير من هذه الصفحة هو فى مدح الحسن) . ويقول فى " النكت العصرية " (ص ٣٥) إن الحسن كان من مشهورى شعراء هذا العصر ، ممن كانوا يحضرون مجلس الوزير ابن رزيك . وقد سماه عمارة المهذب فى موضع آخر (ص ٤١٥) .

وقد ذكر أسامة بن منقذ (سيرة أسامة (ص ١٨ حاشية ٢) و (ص ٢٠٧ و ٢٨٩ حاشية ٦) و (ص ٩ و ٤ و ٥٣٢ و ٦٢١) وعماد الدين (المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٣٥ ب) وابن ميسر (ص ٩٥) وابن خلكان (جـ ١ ص ٦٣) على ذكر أبى الحسين الملقب بالقاضى الرشيد أحمد ابن الزبير

وقد أورد الكتبى (جـ ١ ص ١٥٩ — ١٦١) نبذة عن الحسن بن على بن الزبير ، وقال أنه اتصل بالوزير ابن رزيك ، فاستفاد كثيراً من وراء اتصاله به (المصدر نفسه ص ١٥٩) .

(٣) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٣٧ (ب) .

ووزرائهم وغيرهم من علية القوم ، آملين فى نيل عطاياهم والتمتع بصلاتهم .

و إليك ما قاله فى قصيدة طويلة يخاطب بها الوزير الصالح طلائع بن رزيك و يصفه بأنه بطل من أبطال المسلمين حيث يقول :

أفارسَ المسلمين اسمعْ ، فلا سمعتْ   عداكَ غيرَ صليلِ البيضِ فى القُللِ
مقالَ ناءٍ غريبِ الدارِ قد عـدِمَ الـ   أنصارَ ، لولاكَ لم يسمعْ ولم يقلِ
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتسعت   فضاقَ منها عليه أوسعُ السبلِ
وكيف ألقى من الأيامِ مُرْزِيةً   حلّتْ ولى من نوى رُزِّيكَ كلُّ وَلِى؟[1]

هذا من جهة الوزراء . أما من جهة الخلفاء الفاطميين ، فإن الشعراء كانوا يدركون ما بينهم و بين وزرائهم من تباين فى الرتبة ؛ يدل عليه ما قاله هذا الشاعر فى إحدى قصائده يمتدح فيها رضوان بن الوَلَخْشى حيث يقول :

ما كانَ بَعْـدَ أميرِ المؤمنين فتًى   فيه الشجاعةُ إلا أنت والنبلُ[2]

و يمدح ابن الزبير هذا الوزير فى البيت الآتى مترنما بجوده وكرمه حيث يقول :

لا يرتضى فى الجود سَبْقَ سؤالِ مَن   يرجوه حتى يسـبقَ الآمالا

و إن هذا البيت الذى نرو يه لابن الزبير ، ليدلنا على مبلغ ما كان يلقاه الشعراء فى مصر من حفاوة و إكرام .

حيثُ اغتربتُ فلى من عفتى وطنٌ   آوى إليه وأهلٌ من ذوى الأدبِ[3]

وقد شاد بعض الشعراء بذكر الفاطميين وأنصارهم ، وهم فى بلادهم لم يفدوا إلى مصر فى وقت من الأوقات ومن بين هؤلاء المهذب بن أسعد ، وكان من أهل الموصل ، ثم اشتغل بالتدريس فى مدرسة حمص . وكان من الفقهاء الأعلام ، ومن الشعراء النابهين . استمع الأصفهانى لشعره عند ما لقيه بحمص سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ — ١١٦٨ م) . وهو مثل حى لهؤلاء الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم رغبة فى عطاء الوزراء ونوالهم .

وقد قال عماد الدين إن ابن أسعد نفسه أنشده فى سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ — ١١٧٠ م)

(١) عماد الدين الأصفهانى ، مخطوط ٣٣٢٨ شرحه ، ٣٩ (أ)
(٢) المصدر نفسه ، ٤٢ (أ)
(٣) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) .

قصيدة يمدح فيها الوزير ابن رزيك ، وكان قد نظمها وبعث بها إليه ، وأتته من هذا الوزير جائزة سنية . ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

٩ هادى الدعاة أبو الغارات خيرُ فتى أدنى عطياته أدنى أمانيكا

١٤ يشكو إليك بنو الآمال فقرهم فيَغتنون وبيتُ المال يشكوكا

١٥ يخافك المَلْكُ ناء عنك منزله ويُقتِرُ المرء عن بعدٍ فيرجوكا

٣٠ مَنْ أرتجى يا كريمَ الدهر تنعشنى جدواه إنْ خاب سعيى فى رجائيكا ؟

٣١ أأمدحُ الترك أبغى الخيرَ عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا ؟[١]

ولما دالت الدولة الفاطمية وغدا الأيوبيون أصحاب النفوذ فى مصر ، نظم ابن أسعد قصائده فى مدح نور الدين وصلاح الدين . ولقد زاد عماد الدين أن صلاح الدين لما رحل عن مصر إلى بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) وعسكر بظاهر حمص ، قصده ابن أسعد ومدحه . وكان القاضى الفاضل لا يزال يذكر هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد عن الترك (سطر ٣١) ، فأنشده صلاح الدين وقال له : «فعجل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه» ، فأجابه إلى ذلك صلاح الدين[٢] .

ولقد ساعد ما بذله الفاطميون من عطاء وما أغدقوه من صلات على زيادة أنصارهم وأشياعهم . ولا غرو فإن هذا الإطراء الذى صاغه قلم شاعر نابه كابن أسعد فى مدح الفاطميين ، قد اشتهر أمره وذاع خبره فى كافة الأقطار الإسلامية . ويتبين لنا ما كان من إغداق الفاطميين الهبات على الشعراء من هذا البيت الذى نظمه ابن أسعد[٣] يعبر فيه عن أمنيته فى العودة إلى وطنه — الموصل — ويذكر أن تحقيق هذه الأمنية يتوقف على جود ابن رزيك وكرمه :

ثق بإيابى عن قريب فإننى بجود ابن رُزّيكٍ على القرب واثقُ[٤]

ولم يكن لهذا الجود الذى أظهره الفاطميون إلا غرض واحد ، هو تعظيم خلافتهم

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) — ١٧٨ (ب)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٨ (ب)

(٣) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٢٩٨ — ٢٩٩) المهذب عبد الله بن أسعد ، وهو من أهل الموصل ونزيل حمص ، فى العبارة التى أوردها عن الوزير ابن رزيك .

(٤) عماد الدين ، مخطوط ٣٣٢٩ ورقة ١٨١ (ب) .

و إكبارهم سلطان دولتهم . وكان ذلك هو الغرض الذى كانت ترمى إليه أعمالهم .

ولقد عرف الوزير ابن رزيك ما للشعراء من أثر . فكان يؤثر هؤلاء الشعراء على نفسه ، وكان ينزلهم منزلة أصدقائه . ولا غرو فقد كان بعض وزراء الفاطميين شعراء (بطبيعتهم) . فكان طبيعيا أن ينصروا الشعر والشعراء بدليل ما كان هنالك من روابط بين ابن رزيك وهذا الفقيه والشاعر المشهور ، وهو نصر بن عبد الرحمن ، وكان من أهل الإسكندرية ، وقد لقيه عماد الدين فى بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) . وقد أورد لنا عماد الدين قصيدة نظمها ابن رزيك ، يرد بها على قصيدة أخرى يمتدحه فيها هذا الشاعر . وفيها يقول الوزير :

أهدى لِيَ القاضى الفقيه عرائسا ... فيــه بديعُ الوشى من تنميقه

فأجَلْتُ طرفى فى بديع رياضه ... من ورده وبهــاره وشــقيقه

فكأنما اجتمع الأحبةُ فانبرتْ ... يد عاشقٍ تهوى إلى معشــوقه

نَزَّهتُ فى بستان نظمك ناظرى ... لحظيتُ من زهر الرُّبا بأنيقــه

وأنا أرى تقديمَ حاجة صاحبى ... من دون حاجاتى أقلَّ حقوقه

وكذا الكريمُ فمهملٌ لحقوقه ... لا مهمل أبدا حقوقَ صديقه[1]

ولم تقتصر جميع قصائد ابن نصر على امتداح الوزير ، فقد خص بعضها بالإشادة بذكر الخلفاء الفاطميين . بيد أننا ، لسوء الحظ ، نرى عماد الدين لم يضرب لنا أمثلة مما قاله هذا الشاعر فى مدح الخلفاء . ويحتمل أن يكون ذلك لما كان من غلو هــذا الشاعر فى تعظيم الفاطميين والإشادة بذكرهم ، كما يتجلى ذلك من وصف عماد الدين الأصفهانى لابن نصر حيث يقول : « وما أكله ، لولا أنه من مُدّاح المصرى والله له غافر ! »[2] .

ولقد روى لنا عماد الدين بضعة أبيات نظمها أحد الشعراء ، وقد اتصل به أن رجلا من أنصار الشعراء بعث إليه مع رسول بنصف دينار فلم يوصله إليه :

أتانا نصفُ دينــارٍ سماعاً ... فهمَّمنا له فى نصف شكرِ

وهذا ممسكٌ لوصول هــذا ... فتوصلْ مثله قــدرا بقدر

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٦٩ (ا)

(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٩ (ا)

ولو زدتم على الإحسان زدنا وأحسنا لواحدةٍ بعشر[١]

ولقد أمدنا أبو محمد هبة الله بن عليّ بن عرام السديد[٢] بمثل آخر لشاعر عبر عن استيائه وسخطه ، وقد خابت آماله فى اكتساب جائزة رجل من أنصار الشعر بعد أن مدحه على غير جدوى فقال :

أتعبتُ نفسى وفكرى فى مدح قومٍ لئـامِ
وغـرَّنى حسنُ بشرٍ منهم وطيبُ كلام
فـمـا حَصَلْتُ لديهم إلا على الإعـدام
ولو جعلتُ قريضى مراثياً فى الكرام
لحزتُ ذكراً جميلا يبـقى على الأيام[٣]

ويقول ابن عرام من قصيدة أخرى يمدح فيها الوزير رضوان بن الوَلَخْشِى ، ويشيد فى بعض أبياتها بذكر الأسرة الحاكمة ويصفها بأنها عامل قوى من عوامل تمكين قوة الإسلام ويقول :

جدَّدتَ بعد دروسه الإسلاما ومحوتَ عنه الظلم والإظلاما
وطويتَ راياتِ الضلال مجاهداً ونشرتَ فى غُرِّ الهدى أعلاما[٤]

ومن شعراء أسوان الذين نبغوا فى أواخر الدولة الفاطمية : المهذَّب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير الذى وصفه عماد الدين الأصفهانى فى كتابه خريدة القصر وجريدة العصر بقوله : « ولم يكن فى زمانه أشعر منه » ، وله كتاب فى النسب .

ومن هؤلاء الشعراء أحمد بن على بن إبراهيم بن على بن الزبير ، ويعرف بالرشيد ، وكان غزير العلم واسع المعرفة ملما بالهندسة وعلم النجوم والمنطق والسير والموسيقى والطب . وقد تلقى

(١) عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ١٤٢ (ب) . وقد زاد هذا الكاتب أن هذا الشاعر عاش فى أيام الوزير ابن رزيك (شرحه ورقة ١٤٣ " ا ") .

(٢) نقس عماد الدين الأصفهانى (شرحه ، ورقة ١٧٦ " ب ") عن قاضى أسوان الذى أهدى إليه ابن عرام ديوانه ، فنقل عنه عبارته التى يصف فيها هذا الشاعر . وقد مات ابن عرام سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ؛ ووصفه الأصفهانى بأنه كان شاعراً ثابتاً .

(٣) المصدر نفسه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٧٦ (ب) .

(٤) المصدر نفسه مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

العلم بالیمن والإسكندرية وأسوان . وقد ولى ثغر الإسكندرية فى أواخر عهد الفاطميين ثم قتل فى سنة ٥٦٣ هـ بتهمة اشتراكه مع أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى ، فحبسه شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمى وقتله .

وممن نبغ فى أسوان أيضاً أبو عبد الله بن عبد الوهاب بن أبى حاتم الذى اشتهر بالحديث ، وأبو يعقوب إسحق بن إدريس واشتهر بالحديث أيضاً ، وأبو الحسن فقير بن موسى بن فقير

عمارة اليمنى :

خلف لنا عمارة بن أبى الحسن الحكمى نجم الدين أبو محمد سيرته ، وكان من أهل تهامة باليمن[1] . وفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ — ١١٥٥ م) حج إلى مكة ، وبعث به القاسم بن فُلَيْتَه أمير مكة رسولا من قبله إلى مصر ، فدخلها فى غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ (١١٥٥م) ، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه فى قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام فى مصر إلى شوال سنة ٥٥٠[2] . ثم عاد إلى مكة ، ومنها أنفذه أميرها بمهمة أخرى فى صفر سنة ٥٥١ (ابريل سنة ١١٥٦)[3] . ومن ثم أقام فى القاهرة وصار من مشاهير شعراء البلاط فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد ، آخر خلفاء الفاطميين . وقد شنق فى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة ٥٦٩ (إبريل سنة ١١٧٤) .

كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الأدبى ، ذلك النفوذ الذى عملوا على تأييده بعطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب ، أثر عظيم فى نفس عمارة اليمنى ، حتى أصبح من أنصارهم ومن الشعراء المالئين لهم . وكان عمارة هذا شاعرا سنيا شافعى المذهب ؛ ظهرت له أعمال عظيمة فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولكنه قتل فى آخر أمره لاشتراكه فى المؤامرة التى قامت لتقويض سلطان الأيوبيين .

وهو من الأمثلة الواضحة على تعلق الفاطميين بالشعراء والاستفادة من شعرهم . ويحسن

(١) النكت العصرية ص ٧ ، ٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ — ٣٤ ، ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢

انظر أيضاً عماد الدين الأصفهانى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ٢٠٧ (ا) وما يتبعها ، وعمارة اليمنى (ج ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ — ٤٧٧) ، وابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) .

بنا أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدها فى قاعة الذهب فى قصر الخلفاء الفاطميين :

١ الحمدُ للعيس بعد العزم والهمم	حمدا يقوم بما أولَتْ من النعم
٣ قرَّبن بُعد مزار العز من نظرى	حتى رأيتُ إمام العصر من أمم
٤ ورُحن من كعبة البطحاء والحرم	وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
٦ حيث الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها	بين النقيضين من عفو ومن نقم
٧ وللإمامة أنوارٌ مقدســـةٌ	تجلو البغيضين من ظُلم ومن ظُلَم
٨ وللنبوة آياتٌ تَنُصُّ لنـــا	على الخفيقين من حُكم ومن حِكَم
٩ وللمكارم أعـــــلامٌ تعلمنا	مدحَ الجزيلين من بأسٍ ومن كرم
١٠ وللعُلى ألسنٌ تثنى محامـــدها	على الحميدين من فعل ومن شيم
١٢ أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقدا	فوزَ النجاة وأجر البر فى القَسَم
١٣ لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهما	وزيرُه الصالح الفراج للغمم
١٤ اللابسُ الفخرَ لم تنسج غلائلَه	إلا يدُ الصانعَين السيفُ والقلم
١٥ وُجودُه أوجد الأيام ما اقترحت	وَجوده أعدم الشاكين للعدم
١٦ قد ملَّكته العوالى رقَّ مملكةٍ	تُعيرُ أنفَ الثريا عزة الشمم
١٧ أرى مقاما عظيم الشأن أوهمنى	فى يقْظتى أنها من جملة الحلم
١٩ ليت الكواكبَ تدنو فأنظمَها	عقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلمى
٢٠ ترى الوزارةَ فيـــه وهى باذلةٌ	عند الخلافة نصحا غير متهم
٢٢ خليفةٌ ووزيرٌ مَدَّ عـــدلهما	ظلا على مَفرَق الإسلام والأمم
٢٣ زيادةُ النيل نقصٌ عند فَيْضهما	فما عسى يتعاطى مِنّة الديم (١)

ولقد ذهب الخليفة الفائز ووزيره فى استحسان هذه القصيدة كل مذهب ، كما يحدثنا بذلك عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار ، وأتته مثلها من السـيدة أخت الخليفة . يضاف إلى ذلك

(١) النكت العصرية ص ٣٢ — ٣٤

هذه الرسوم التى أطلقت له من دار الضيافة فى مناسبات كثيرة مما لم يطلق لأحد قبله ، وما كان أيضاً من الولائم التى أقامها أمراء الدولة فى بيوتهم تكريماً له ، ومن نظمه فى سلك جلساء الوزير ، يدل عليه ما ذكره عمارة وهو : « فأوسعنى إكرامهما توقيراً وإنعامهما توفيراً »[١] .

بقى عمارة فى مصر يمرح فى بحبوحة الرفاهة والجد . وقبل رحيله بزمن قصير ، أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ، فنفحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير ابن رزيك مائتى دينار لقصيدة أخرى أنشدها له فى داره كما كان لتدخل هذا الوزير أثر فى إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعى اليمن السابق وقد مات ، فأشير على ولده وورثته أن يعدل عن دعواه فى المطالبة بها . ويحدثنا عمارة عن هذه المسألة فيقول : « فلما وقف عليه (كتاب الوزير إليه) صاحب عدن ، أسقط عنى الآلاف الثلاثة وأبرأنى منها »[٢] .

ولما مات ابن رزيك آلت الوزارة إلى شاور[٣] ، فتقلد أعباءها تسعة أشهر[٤] . فقرب هذا الوزير عمارة إليه ، وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ، فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته مرتين فى كل يوم ، ونال الخير الكثير على يديه .

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رُزِّيك[٥] وذوى قرباه وغيرهم من الأمراء ، وختم هذا الشاعر قوله بهذه الكلمات : « ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يُطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم وهُنت بعدهم »[٦] .

ولما عاد عمارة إلى مصر فى شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن إليه الوزير الصالح بن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان ، وحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب ، على الرغم من اختلافه عنهم فى العقائد المذهبية[٧] .

(١) المصدر نفسه ص ٣٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨ و ٤٠
(٣) النكت العصرية ص ٦٨
(٤) المصدر نفسه ص ٧٣
(٥) المصدر نفسه ص ٩٣ — ١٢٠
(٦) المصدر نفسه ص ١٢٠
(٧) ابن خلكان ج ١ ص ٤٧٦

ولقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار إلى ذلك فى ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير الذى ألح عليه فى التحول إلى المذهب الشيعى ، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد فى إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه . ولكن عمارة لم يكن بالرجل الذى تنفع معه الحيلة . فرفض فى شيء من الحصافة ، ولم يتأثر بنصح الوزير[١] . ويشير عمارة إلى هذا الاختلاف فى العقيدة الذى كان بينه وبين الفاطميين فى هذا البيت :

مذاهبُهمْ فى الجود مذهبُ سُنّةٍ ... وإنْ خالفونى فى اعتقاد التشيع[٢]

ولما مات ابن رزيك فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مثاراً لنظم أشعاره ، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم ، وقد نظم فى هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب ، من أمثال ابن واصل والقلقشندى والمقريزى . ولقد نظم عمارة شعراً كثيراً فى الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاص هذا الرجل للفاطميين أقصاه عن عطف هذه الدولة الجديدة . ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التى وجه بها إلى صلاح الدين ، وعنوانها : « شكاية المتظلم ونكاية المتألم »[٣] .

ولا عجب فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته الحافلة بشنقه فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) لاتهامه بالاشتراك فى التآمر لإعادة سلطان الفاطميين[٤] .

(و) النثر :

ومن الكتب التى تعرضت للكلام عن هذا العصر كتاب « العقد الفريد » لابن

---

(١) النكت العصرية ص ٤٥

(٢) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و ٤٩٣

(٣) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٨٧ — ٢٩١

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٧ — ٢٨٨

ابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) ، نقلا عن ابن المتوج (+ ٧٣٠ / ١٣٣٠) فى كتابه خطط مصر المسمى إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل . انظر الحاشية التى كتبها مسيو ديرنبور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

عبد ربه[١] المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)، وكتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى[٢] المتوفى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)، « رسائل » الخوارزمى[٣] المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م)، و « رسائل » بديع الزمان الهمذانى[٣] المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) — وهذه الرسائل تصف لنا العداء بين السنيين والشيعيين — وكتاب « الفهرست » لابن النديم[٤] المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م)، « ونِشْوار المحاضرة »[٥] للتنوخى[٦] المتوفى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م).

وهناك أيضا كتابان من الكتب التى ألفت فى عهد الفاطميين : وهما « ديوان الشريف الرضى » المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م)، والرسائل التى يطلق عليها « رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته » ؛ كتبها فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ — ١٠١٨ م) كثيرون من الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١ م).

و يعتبر المؤرخون قصيدة الشريف الرضى ذات شأن فى هذا الموضوع[٧]. وعلى الرغم من أنها لم تظهر فى ديوانه بادئ ذى بدء، أجمع كثير منهم على صحة نسبتها إليه — على ما سيظهر بعد — بدليل إسنادها إليه فى كثير من المصادر التى عاش كاتبوها بعد الشريف الرضى.

ومن كتب الأدب التى ظهرت فى العصر الفاطمى : كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى[٨] المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)[٩]، وكتاب « سقط الزند » و « اللزوميات »

---

(١) ياقوت : إرشاد الأديب ج ٥ ص ١٤٩ — ١٦٨.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٧ — ٤٨.

(٣) الثعالبى، " يتيمة الدهر "(ج ٣ ص ١١٤ و ١٢٥ و ١٢٦) والسمعانى" كتاب الأنساب" ورقة ٢٠٩ ب، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٢٢ — ٦٢٣).

(٤) ياقوت " إرشاد الأديب " ج ١ ص ٤٠٨. ابن خلكان ج ١ ص ١٠ — ١١.

(٥) ياقوت " إرشاد الأديب " (ج ١ ص ١٤٦). قال الأستاذ مرجليوث فى مقدمته لكتاب "تجارب الأمم " لمسكويه (ص ٨) إنه لم يكشف للآن إلا جزء واحد من أجزاء هذا الكتاب الأحد عشر.

(٦) الثعالبى ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٥. ياقوت " إرشاد الأريب " ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٦٧. ابن خلكان ج ١ ص ٥٦٣ — ٥٦٥.

(٧) ديوان الشريف الرضى ص ٩٧٢ — ٩٧٣.

(٨) ذكر السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ١١٥ ا) أن الثعالبى كان يخيط جلد الثعالب، فاشتق اسمه من هذا اللفظ.

انظر أيضاً ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥ — ٣٦٦) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٧٠).

(٩) وردت هذه السنة فى ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) وأبى الفدا (ج ٢ ص ١٧٠). وذكر وستنفلد فى كتابه Gesch der. Ar. رقم ١٩١ : سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ.

لأبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) بمثل هذه الفوائد .

(هـ) الفلسفة :

١ — إخوان الصفا

من أشهر فلاسفة العصر الفاطمى هذه الطائفة التى تعرف باسم « إخوان الصفا » . وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة ، حتى قيل إنها إسماعيلية[1] . وكانت هذه الطائفة — كما يقول الأستاذ براون[2] — موضع عطف بنى بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة ، وحلوا ردحاً من الزمن محل العنصر التركى ، وأصبح لهم النفوذ الفعلى التام فى بغداد حول منتصف القرن الرابع (٣٣٤ / ٩٤٥) . ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتمم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة فى صورة دائرة معارف .

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة . وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة ، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلا مجازياً[3] . وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف ، أخذت من كل مذهب فلسفى بطرف ، وتدل فى الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقى العقلى . وتتألف دائرة المعارف هذه من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعى ، ولها من وراء هذا أغراض سياسية . وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر فى الرياضيات ، وبالتلاعب بالأعداد والحروف . ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات ، فترد كل شىء إلى النفس وما لها من قوى ، وتنتهى أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفى .

وجملة القول فى آرائهم أنها مذهب جماعة مضطهدة ، تبدو النزعات السياسية من جميع أجزائه ، ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من

---

(١) يرى لبعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الإسماعيلية ، وأنهم اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم . العلمى ؛ وكان لهم فرع فى بغداد .

(٢) Lit. Hist. of Persia, Vol. I p. 292.

(٣) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥ .

كفاح ، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم ؛ ونتبين منه ما كان يختلج فى نفوسهم من أمل ، وما تواصوا به من الصبر . وهم يلتمسون فى هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم أو تطهيراً لها . وهذه الفلسفة هى دينهم ، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت ، لاعتقادهم أن ملاقاة الموت فى سبيل صلاح الإخوان هى الجهاد الصحيح . وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربه الله لطواف الإنسان على هذه الأرض[١] ، فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه فى هذه الحياة بكل ما يتسع له جهده ، فيجب على ذى المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله ، وعلى ذى العلم أن يعلم أخاه الجاهل . غير أن العلم — كما نراه فى رسائل الإخوان — حبس على خاصة المستبصرين من أفراد الطبقة العليا[٢] .

من هذا نرى أن الغرض الذى كان يرمى إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم . ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم ؛ فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم فى التأويل . كما أن الفلاسفة ، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية . ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر فى الشرق بفضل هذه الطائفة ، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الإسماعيلية : كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية فى فارس والشام ، كما أفاد آخرون فى تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا[٣] .

وقد ذكر الشهرزورى أسماء خمسة من العلماء من مؤلفى هذه الرسائل وهم : أبو سليمان محمد بن نصر البستى ، ويسمى أيضا المقدِسى (أو المقدَّسى) ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد النهرجورى (أو المهرجانى) ، والعوفى ، وزيد بن رفاعة . ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسى كما يتضح من أسمائهم . وكان من بينهم أيضاً ابن سينا الطبيب والفيلسوف المشهور الذى « انتهت بموته (سنة ٤٢٨ هـ) — كما يقول Dietrici[٤] — حركة الفلسفة فى المشرق »[٥] .

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتى ١٨٥٨ ، ١٨٨٦ م . ونشرت أيضاً فى ثلاثة أجزاء (بمباى ١٣٠٥ هـ) فى ثلاثة أجزاء ، تصنيف أحمد بن عبد الله .

(٥) Browne : Lit Hist. of Persia, Vol. I. p. 293.

٢ — أشهر فلاسفة الإسماعيلية

(ا) أبو حاتم الرازى (٣٢٢ ﻫ)

أنجبت الدعوة الفاطمية فى المشرق فى عهد عبيد الله المهدى دعاة علماء ، كان لهم شأن كبير فى عالم الدعوة وفى عالم الأدب والفلسفة والتأليف ، حيث أخذوا على عاتقهم التفانى فى الدفاع عن الدعوة بالقلم واللسان ، والعمل على جذب العامة والأمراء بنفس هـذا السلاح العلمى الخطير . ومن هؤلاء الدعاة : أبو حاتم الرازى ، ويسميه الإسماعيلية سـيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازى الورْسِنانى . وكان داعى الإسماعيلية فى بلاد الرى ؛ ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية فى عهد إمامة عبيد الله وخلافته . وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله المهدى فى شمال إفريقية ، واستغل رواج هذه الدعوة فى بلاد فارس منذ أيام عبد الله ابن ميمون القداح ، فدخل كثير من أهالى هذه البلاد فى المذهب الإسماعيلى[١] .

وكان أبو حاتم من كبار دعاة الإسماعيلية ، واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمى ، ولعب دوراً عظيما فى الشئون الســياسية فى طبرستان والديلم ، ولا سيما فى أصفهان والرى ، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة مثل أسفار بن شيرويه ومرداويج بن زيار[٢] وغيرهما . وكان لجهود أبى حاتم أثر فعال فى اتصال مرداويج بعبيد الله . ولا غرو فقد كان هؤلاء الدعاة من العلماء المشارقة سفراء عبيد الله المهدى إلى أمراء المشرق وعامته .

ويرمى بعض السنيين أبا حاتم الرازى بكثير من التهم ، فيذهب بعض إلى أنه باطنى زنديق . ويرميه بعض آخر باعتناق مبادئ الثنوية والدهرية[٣] الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له وهذه اتهامات يرمى بها السنيون جميع دعاة الإسماعيلية تقريباً . ومهما يكن من

---

(١) نظام الملك : سياسة نامه جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) من الديلم ، وكانوا جميعاً يميلون إلى الشيعيين . ومن قواده على بن بويه رأس البويهيين . يقول السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٥٩) : كان " يريد قصد بغداد وأنه مسالم لصاحب المجوس ، وكان يقول : أنا أرد دولة العجم وأمحق دولة العرب " . كما كان على صلة بعبيد الله الفاطمى ، فهاداه وعرض عليه مساعدته حيث " بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدى فى شمال إفريقية ، وأعلن رغبته فى الدخول فى طاعته " . ومات سنة ٣٢٢ بعد أن فتح الرى وأصفهان وطرد سيده أسفار .

(٣) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ . ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٦ . نظام الملك : سياسة نامه جـ ٢ ص ٢٤٧ .

شيء فإن هذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبي حاتم؛ فقد كان علماً من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في فارس في القرن الرابع الهجري، كما استغل هذه النهضة ذاتها في الإشادة بإمامة عبيد الله المهدي وتقديسه.

عاصر أبو حاتم الرازي عبيد الله إماماً وخليفة، لذلك كانت له نظريات كثيرة في مبدأي الستر والظهور، حتى قالوا عنه: إنه أول من وجّه هذين المبدأين في الإسلام توجيهاً جديداً. وعلى الرغم من أن إخوان الصفاء كثيراً ما أوردوا في رسائلهم لفظي «الكشف والستار» (أو الستر)، لم يقصدوا بهما — كما قال الدكتور حسين الهمداني — ما كان يقصده أبو حاتم، كما فعل الفلاسفة الإغريق الآخرون بذكرهم معاني الكشف والستر. بخلاف ما يقصده الإسماعيلية[1]، الذين ذهبوا إلى أن «الستر» الإسماعيلي، هو الدور الذي يعمل فيه الإمام مختفياً في دار هجرته، والذي ينشط فيه دعاته في نشر الدعوة. وأما دور الظهور أو الكشف الإمامي، فهو الدور الذي تشرق فيه شمس الإمامة على الكون، فيظهر الإمام المستور، كما ظهرت الشمس من مغربها بظهور المهدي.

ومن أهم مؤلفات أبي حاتم الرازي: كتاب «الزينة»، ويحتوي على ١٢٠٠ صفحة. وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمي؛ وتناول فيه الأمور الفقهية، وفلسفة ما وراء الطبيعة، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية، والمعلومات الجغرافية القيمة. ويقول الإسماعيلية إن ذلك الكتاب يبحث في اللغة وحدها، ولذلك لا يعدونه من كتبهم السرية.

ومن مؤلفات الرازي كتاب «أعلام النبوة» ويعد من أهم كتب فلسفة المذهب الإسماعيلي. وقد تناول فيه الكلام على نظريات الإسماعيلية في الرسل، وفي الله تعالى، وفي النفس والهيولى والزمان والمكان، وغيرها. وفي هذا الكتاب يرد الرازي على أحد الزنادقة الملاحدة. ولا يقل كتاب «الإصلاح» أهمية عن هذه الكتب. وقد ذكره حميد الدين الكرماني. داعي الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس. ويتكون من ٥٠٠ صفحة، وترجع أهميته إلى ما أورده المؤلف من تأويل الآيات القرآنية، وما ذكره

---

(١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

عن الأنبياء[1] . ويذكر ابن النديم[2] له كتاب « الجامع » ، وليس له الآن وجود ، كما أنه غير معروف للبهرة من الإسماعيلية .

من هذا نرى كيف أسهم أبو حاتم الرازى فى الإشادة بعبيد الله المهدى ودولته ، وفى النهضة بالمذهب الإسماعيلى فى شرق الدولة الإسلامية ؛ كما أسهم فى نشر الثقافة الإسلامية عامة ، فتكلم فى الفلسفة واللغة والتفسير والفقه وما إلى ذلك ، وحاول فى هذا كله أن يشرح نظريات الإسماعيلية ومبادئهم . ومع هذا فإنه لم يسلم من اضطهاد السنيين ، وخاصة الديالمة ، واضطر إلى الاختفاء فى أخريات حياته ، ومات ، على ما يقال ، فى سنة ٣٢٢ هـ ، وذلك بعد تولية الخليفة الفاطمى القائم بقليل .

(ب) أبو عبد الله النسفى (٣٣١ هـ) :

ومن هؤلاء الدعاة العلماء أبو عبد الله بن أحمد النسفى البرذعى الذى قتل فى سنة ٣٣١ هـ فى غضون المحنة الكبرى التى ألمت بإسماعيلية المشرق . وكان قد تتلمذ على الداعى الأمير الحسين بن على المروروزى ، داعى خراسان ، وكان الحسين قد استجاب الداعى غياث ، كما كان من أعظم تلامذته علماً ودراية . وقد نهج النسفى نهج أستاذه المروروزى فى التقرب إلى أمراء عصره ، وإلى كبار القواد فى حكومة نصر بن أحمد السامانى ؛ فلم يتوان فى أداء مهمته على أكمل وجه ، حتى استطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالى خراسان . و. يكتف بما أحرز من نجاح فى هذه السبيل ، بل عبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى ، حيث نجح نجاحا هائلا .

وكان لهؤلاء الأمراء الفضل فى معاونة النسفى ببخارى ، حتى تحول كثير من رجالاتها إلى المذهب الإسماعيلى . وبفضل هؤلاء وجد النسفى طريقه إلى قلب نصر بن أحمد السامانى ، الذى رحب بمبادئه وطلب رؤيته . وكانت هذه فرصة فريدة تمكن بها النسفى من جذب نصر بن أحمد ورجال بلاطه إليه . وكان نصر من أكبر معارضى المذهب الإسماعيلى ، فقبض على أستاذ النسفى وسجنه حتى مات . وقد استغل النسفى كل هذا

---

(١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 32-33.

(٢) الفهرست ص ٢٤٦ .

للإشادة بزعامة عبيد الله المهدى ؛ فطلب دية أستاذه ، ومقدارها ١١٩ ألف دينار ليرسلها إلى الخليفة الفاطمى ، فكانت موافقة الأمير السامانى على دفع هذه الدية دليلا على إخلاصه للمذهب الإسماعيلى أولا ثم لعبيد الله المهدى ثانيا[١] .

وفى الحق إن علاقة النسفى بالبيت السامانى تكوّن فصلا ممتعا فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية ببلاد المشرق فى عهد عبيد الله الفاطمى ؛ فقد أصبح هذا الداعى العالم صاحب الأمر والنهى فى دولة نصر بن أحمد السامانى ، واستغل هذا المركز الممتاز وضاعف جهوده فى جذب الناس إلى المذهب الإسماعيلى سرا وجهرا ، مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين ، وخصوصا بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلى .

ومما آل إليه مصير النسفى ، نستطيع أن نتبين مدى تغلغل المذهب الإسماعيلى فى خراسان و بلاد ما وراء النهر ، كما نستطيع أن نشاهد لونا من ألوان إخلاص الدعاة لمذهبهم ولخليفتهم الفاطمى ، كما نستدل على مدى ما كان يعانيه الدعاة المخلصون من عنت واضطهاد . فيرى ابن النديم[٢] أن نصر بن أحمد السامانى ندم فى أخريات حياته على اندفاعه وراء النسفى ؛ ولما مات جمع ابنه نوح الفقهاء لمناظرته ، فلما أفحموه ، قتله وقتل معه كثيرين من رؤساء الدعاة ووجوههم من قواد نصر الذين دخلوا فى المذهب الإسماعيلى .

ويرى نظام الملك أن قواد نصر من السنيين دبروا مؤامرة على العرش السامانى ، لانضمام صاحبه إلى المذهب الإسماعيلى ، وتقربه من الإسماعيلية أنصار هذا المذهب . وقد استقر رأيهم على عزل نصر وتنصيب كبير قواده على العرش ، وعولوا على إقامة حفل كبير يعلمون فيه بدء ثورتهم . إلا أن أحد المجتمعين أفشى سر هذه المؤامرة لنصر بن أحمد وابنه نوح ، فتحايلا على كبير القواد وقتلاه ، ثم خلع نصر بن أحمد نفسه ، وتولى بعده ابنه نوح الذى عمل على مطاردة الإسماعيلية بعد أن قتل النسفى[٣] .

وإن ما حل بهؤلاء الإسماعيلية يعد نكبة كبرى ، حتى إنهم أطلقوا عليها اسم « المحنة

---

(١) طه أحمد شرف ، تاريخ الإسماعيلية السياسى مخطوط ج ١ ورقة ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٢٦ .

(٣) سياسة نامة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

العظمى » . ولا غرو فقد كان لهذه المحنة أثرها فى وقف انتشار الدعوة الإسماعيلية فى بلاد ما وراء النهر منذ ذلك الحين (أى منذ سنة ٣٣١ هـ) ، إلى أن رفع ناصر خسرو[١] منارها بعد قرن ونصف قرن تقريبا . ثم تبعه فى ذلك الحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس الدعوة النزارية فى خراسان وفارس والشام . وهكذا قام النسفى بدور خطير فى الناحية السياسية بتأليف جبهة قوية موالية لعبيد الله المهدى ، كما قام بدور خطير أيضا فى الناحية المذهبية بنشر المذهب الإسماعيلى فى خراسان وما وراء النهر .

أما من الناحية العلمية ، فقد فاق النسفى كثيرا من الدعاة العلماء . ولا غرو فقد ذاعت شهرته فى عالم الأدب وفى فلسفة المذهب الإسماعيلى ، كما كان من أحرار الرأى فى خراسان . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « المحصول » . ويظهر أن هذا المؤلف من الكتب التى تعرضت لشرح أصول المذهب الإسماعيلى ؛ وقد جاء فيه ، على ما ذكره صاحب كتاب « الفرق بين الفرق »[٢] : أن المبدع الأول أبدع النفس ، ثم إن الأول والثانى مدبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع » . ويرى البغدادى : « أن هذا فى التحقيق معنى قول المجوس : إن اليزدان خلق أهرمن ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ؛ غير أن اليزدان فاعل الخيرات ، وأهرمن فاعل الشرور » . وقد لعبت يد الدهر بهذا الكتاب ، ولا نعرف عنه شيئا إلا عن طريق الكرمانى ، داعى الحاكم ، فى كتابه « الرياض » . وكان النسفى فى هذا الكتاب يرمى إلى التوفيق بين أبى حاتم الرازى وزميله أو تلميذه أبى يعقوب السجستانى .

ولم يكن هذا كل ما بذله النسفى من جهد فى التأليف ؛ فقد ألف أيضاً كتاب « عنوان الدين » ، وكتاب « أصول الشرع » ، وكتاب « الدعوة المنجية »[٣] ، وكتاب « كون العالم » ، وهو خاص بالفلك ووصف العوالم « الكوزموجراف » ، لكنه مؤسس على المبادىء الدينية ، وقد عثر عليه ضمن مجموعة خاصة . ومن الغريب أن ذلك الداعى العالم الفيلسوف غير معروف لإسماعيلية اليوم[٤] .

(١) كان ناصر خسرو من كبار أنصار الدعوة القديمة فى عهد المستنصر الفاطمى الذى عينه نائباً له « حجة » فى خراسان وبادخشان ؛ فكون جماعة هناك يعرفون بالناصرية ، وهم يخضعون اليوم لأغاخان .

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٤) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 35.

(ج) أبو يعقوب السجزى (٣٣١ هـ) :

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلى ودعاته : أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزى أو السجستانى ، ويلقب دندان : وكان من كبار الدعاة ، كما كان اليد اليمنى للداعى النسفى . وكان الجدل والمناظرة يقومان على قدم وساق فى مسألة النبوة التى شغلت أذهان المفكرين وقتئذ . وقد أولى الفلاسفة وأحرار الرأى هذا الموضوع كثيراً من العناية ، حتى أضحى عامة الدعاة الإسماعيلية فى عهد عبيد الله المهدى من أحرار الرأى ، أو على الأقل ، كانوا يتظاهرون بذلك لنشر مبادئهم تحت ستار الحرية فى الرأى . وقد أدرك أبو يعقوب السجزى هذه النهضة ، وهذه المساجلة العلمية ، وأدرك أستاذه الرازى الداعى الأول ، ورآه يناظر الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى فى كتابه « أعلام النبوة » . فساهم أبو يعقوب فى هذه المناظرة ، واتخذ من الفلسفة سلاحاً شهره على نقاد المذهب الإسماعيلى ؛ فكان بهذا علماً من أعلام الدعاة الإسماعيلية ، وأحد المفكرين الذين قاموا بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلى[١] .

ولأبى يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير فى نهضة الفكر الإسلامى فى ذلك الحين بوجه عام ، وفى نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلى بوجه خاص . وقد ذكر البغدادى[٢] بعض هذه المؤلفات فقال : « وصنف لهم أبو يعقوب السجزى كتاب « أساس الدعوة » ، وكتاب « الشرائع » ، وكتاب « كشف الأسرار » . وذكر إيڤانو أكثر من عشرين مؤلفاً للسجزى ، ولا يزال أكثرها يتمتع به البهرة — وهم الإسماعيلية الحديثون — اليوم . ولا نستطيع أن نتتبع كل هذه المؤلفات بالبحث ، وإنما نتناول أهمها وأعظمها أثراً .

١ — كتاب إثبات النبوة ، وينقسم إلى سبع مقالات ، وتشبه المقالة الباب ، وتنقسم كل مقالة إلى اثنى عشر فصلا . ويتناول السجزى فى كتابه هذا موضوع إثبات النبوة من جميع النواحى ، أى من الناحية الطبيعية والناحية الروحية ، وغير ذلك ، ويتعرض لذكر الأمور التى تتفق عليها الرسل ، والتى يختلفون فيها . وأهم من هـذا كله ما ذكره

---

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933), p. 367.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٦٧ .

السجزى عن أدوار الرسل ، والأدلة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرض لما أسماه عجائب القرآن والشريعة(١) .

٢ — كتاب الينابيع ، وهو فى حوزة البهرة ، وينقسم إلى أربعين ينبوعا ، تناول فيه موضوعات كثيرة أهمها : « ماهية المبدع ، وعالم العقل والنفس ، والزمان والمكان والهيولى ، وسبب الخلق ، وبدء الخليقة ، والملائكة ، وعدم قابلية العقل للفناء ، ومعانى الجنة والنار ، ومعنى صلب عيسى ، وهوية القائم ، والوحدة والتعدد ، والبعث والثواب والعذاب ، والفرق بين تأييد الله وتأييد الخلق(٢) . ويرى الدكتور حسين الهمدانى أن الدعاة كانوا يترسمون فى مولفاتهم نظام التأليف الذى سلكه أبو يعقوب السجزى فى كتابه « الينابيع » ، حتى إننا إذا وازنا بين كتاب زهر المعانى القيم ، الذى ألفه الداعى إدريس عماد الدين عن الدعوة الإسماعيلية ، وبين كتاب الينابيع هذا ، لوجدنا أن الخطة التى انتهجها الداعى إدريس هى نفس الخطة التى انتهجها السجستانى من قبل(٣) .

٣ — كتاب الموازين ، وقد قسمه السجستانى إلى تسعة عشر ميزاناً ، تكلم فى كل كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلى بصلات وثيقة : فتناول فى أحد موازينه « معرفة الحقيقة » ، وفى آخر وجوب معرفة « المبدع » ، وفى آخر « العقل » ومعرفة أسمائه ، كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن « الأصلين »(٤) (العقل والنفس) . ومن أهم هذه الموازين ما وقفه على النطقاء ، والأسس والأئمة ، والحجج والدعاة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تفيد الباحث فى تاريخ التطور العقلى للمذهب الإسماعيلى(٥) .

٤ — كتاب النصرة ، وقد علق فيه على كتاب المحصول الذى نسبناه إلى النسفى ، وإن كان بعض الإسماعيلية ينسبونه إلى الكرمانى ، داعى الفاطميين فى فارس فى عهد

---

(١) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, pp. 34, 3..

(٢) Ivanow : Ibid., p. 55

(٣) Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933). p. 267

(٤) الأصلان : هما العقل والنفس ، والفروع الثلاثة : هى الزمان والمكان والهيولى .

(٥) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 34.

الحاكم بأمر الله ؛ ويظهر أن هذا الكتاب قد ضاع ، وأن الكرمانى كان قد اطلع عليه وأشار إليه فى كتابه .

هؤلاء هم أشهر دعاة عبيد الله فى بلاد المشرق . وقد استطاعوا أن يرفعوا علم الدعوة هناك عالياً ، وأن يجذبوا الأمراء إلى عبيد الله المهدى . وأهم من ذلك كله أنهم أسهموا فى النهضة الإسلامية العقلية فى ذلك الحين ؛ فلم يكونوا كغيرهم من علماء المذاهب الأخرى ، فى عزلة عن الحياة الثقافية التى تحيط بهم . ويظهر أن مدارس الدعوة التى أسسها عبيد الله ، كان لها أثر كبير فى تغذية هؤلاء الدعاة بالحيوية والمبادئ التى تساعد على جذب الناس إليهم ، كما كانت تمد هذه البلاد من حين إلى حين بدعاة درسوا فى تلك المدارس ، وتخرجوا على كبار أساتذتها[١] .

(د) أبو حنيفة النعمان المغربى (٣٦٣ / ٩٧٣ — ٩٧٤) :

ينتسب أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون إلى قبيلة تميم . ويسميه الإسماعيلية « سيدنا القاضى النعمان » ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى المشهور . كما يسمونه أحياناً باسم « سيدنا الأوحد » ، وأحياناً « القاضى الأجل » ؛ ويعرف عندهم أيضاً بأبى حنيفة الشيعة[٢] .

عاصر أبو حنيفة الفاطميين فى المغرب ، واعترف غير مرة أنه دخل فى خدمة عبيد الله الفاطمى حول سنة ٣١٣ هـ (٩٢٠ م) . وكان النعمان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته ، ثم انتحل المذهب الإسماعيلى فأخلص له . وكان عمله الرئيسى فى أيام المهدى والقائم والمنصور مقصوراً على الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الإسماعيلى ، كما تولى القضاء فى طرابلس فى أيام القائم ، واتخذه المنصور والمعز قاضيا لهما . ولما جاء إلى مصر كان أحد أبنائه يتقلد منصب القضاء . وعلى الرغم من بقاء أبى طاهر القاضى السنى فى منصبه كانت رياسة القضاء الفعلية فى أسرة النعمان .

وبعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية . ويذهب الداعى إدريس عماد الدين

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٤٥ وما يليها .

(٢) Fayzee : The Ismailian Law of Mut'a (J.B.B.R.A.S. 1929) p. 85.

إلى أن النعمان كان مشرعا ، وأنه كان دعامة من دعائم المذهب الإسماعيلي . وعلى الرغم من أن كتاب « العيون » لداعى إدريس لم يذكر رتبته في الدعوة ، فإنه من الراجح جدا أن يكون قد وصل إلى رتبة الحجة[1] ، وربما كان ذلك راجعا إلى أنه اشتغل بالقضاء . ويقول ابن خلكان[2] عن النعمان : « قاضيه الواصل من المغرب معه ، أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعي » . والحق أن أبا حنيفة النعمان كان رئيساً للقضاء كما كان داعيا .

وقد أفاد الدعوة الإسماعيلية بكثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي ، وفي المناظرة ، والتأويل ، والعقائد ، والسير ، والتاريخ ، والوعظ ، وغير ذلك . ومن الثابت أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتابا ، بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا ، وضاع الباقي .

وأهم هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام » ، واسمه الكامل « دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام » . ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة . ويعتز به البهرة في اليمن والهند . ويذهب الداعي إدريس في كتابه « العيون » إلى القول بأن الخليفة المعز هو الذي حث النعمان على تأليفه ، وكان قد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة ، فتناولوا الكلام على الأحاديث الموضوعة ، والاختلاف في الرواية ، فذكر لهم المعز الحديث المشهور : « إذا ظهرت البدع في أمة ، فليظهر العالم علمه ، وإلا فعليه لعنة الله » . ونظر المعز لدين الله عليه الصلاة والسلام إلى القاضي النعمان بن محمد ، رضوان الله عليه ! فقال : أنت المعنى في هذه الأوراق يا نعمان ، ثم أمره بتأليف « دعائم الإسلام ، وأصّل أصوله . وفرّع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »[3] .

ويعد كتاب الدعائم أهم المراجع في فقه الإسماعيلية . وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب ، حتى إننا نراه يزيد قواعد الإسلام ، فيجعلها سبعا ، ذلك العدد الذي يفضله الشيعيون عامة ، فيضيف « الولاية » ، وهي حب أهل البيت ، ثم « الطهارة » إلى القواعد الخمس المعروفة عند السنيين[4] .

(١) Fayzee : Kadi an-Numan (J.R.A.S., 1934), p. 12

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٣) عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٣٤) ص ٢٢ .

(٤) H. Hamdani : (J.R.A.S., 1933), p. 369.

وقد أخذ دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب الدعائم فى أحكامهم ، كما أخذ الخلفاء الفاطميون يشجعونهم على ذلك . فقد أرسل الخليفة الحاكم (+ ٤١١ هـ) فى شهر ذى القعدة من سنة ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) إلى هارون بن محمد داعيه فى بلاد اليمن ، رسالة جاء فيها : « ولتكن فتواك للمستفتين فى الحلال والحرام من كتاب دعائم الإسلام دون سواه من الكتب المتنفلة[1] » . كما نهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه « مصنف الوزير » منهج كتاب الدعائم . وأطنب الدعاة المتأخرون فى مدح هذا الكتاب ، فذكره « حميد الدين الكرمانى » داعى الحاكم فى فارس ، فى كتابه « راحة العقل » ، وأشاد به حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث . وكان المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى يقرأ كتاب الدعائم فى مجالسه التى كان يلقيها على أبى كاليجار البويهى . وفى ذلك يقول المؤيد[2] : « وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدئ بقراءة شيء من قوارع القرآن ، ويثنى من كتاب دعائم الإسلام » .

وقد ترك النعمان المغربى فى مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته ، لا يزال أكثر ما بقى منها فى حوزة البهرة . وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات . ولا غرو ، فإن النعمان ضرب بسهم فى جميع النشاط العلمى . ومن أهم كتبه ، كتاب « الإيضاح » ؛ وكان مطولا جدا ، حتى قيل : إنه شغل مائتين وعشرين كراسة[3] .

ومن كتب النعمان : كتاب « الينبوع » ، وكتاب « مختصر الآثار » ، وكتاب « الطهارة » . ومن كتبه الفقهية التى لعبت بها يدا الدهر : كتاب « مختصر الإيضاح » ، وكتاب « كيفية الصلاة » ، و كتاب « منهاج الفرائض » وغيرها .

ومما يؤسف له أنه لم يعثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التى ألف فيها « الرسالة المصرية » فى الرد على الشافعى ، و « الرسالة ذات البيان » فى الرد على

---

(١) أى الزائدة والدخيلة .

Fayzee : Cadi An-Numan (J.R.A.S., 1934), p. 23.

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦٢ .

(٣) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S. 1933), p. 369.

ابن قتيبة ، وكتاب فى الرد على أحمد بن سريج البغدادى ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » .

وقد بقى للنعمان من كتب التأويل كتاب « أساس التأويل » ، وكتاب « تأويل الدعائم » . وقد ضاع من كتبه فى هذه الناحية كتاب « نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل » .

ومما خلفه النعمان من كتب العقائد : كتاب « القصيدة المختارة » ، وكتاب « الهمة » . ومن مؤلفاته فى العقائد التى لعبت بها يد الدهر : كتاب « الدعاء » ، وكتاب « الشروط » ، وكتاب التعاقب « التعاقب والانتقاد » ، وكتاب « الحلى والثياب » .

أما كتبه فى الأخبار والسير ، فقد بقى منها كتاب ، « شرح الأخبار » ، وقد ضاعت الأرجوزة التى تسمى « ذات المنن » ، والأرجوزة المسماة « ذات المحن » . ومن أشهر كتبه التاريخية « افتتاح الدعوة الزاهرة » ، وهو من الكتب الخطية المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة . وقد اقتبس منه المقريزى وغيره من المؤرخين ، وكتاب « مناقب بنى هاشم » ؛ ولم يقف له الناس على أثر .

ومن مؤلفات أبى حنيفة النعمان فى الوعظ ذلك الكتاب الممتع « المجالس والمسايرات » الذى سنتناول الكلام عليه فيما بعد ، وكتاب « معالم الهدى » و « الرسالة إلى المرشد الداعى بمصر فى تربية المؤمنين » ، وقد ضاع كل منهما للأسف .

ومن الكتب التى تنسب إلى أبى حنيفة النعمان : كتاب « تأويل الرؤيا » ، وكتاب « منامات الأئمة » ، وكتاب « التقريع والصنيف » ، وكتاب « مفاتيح النعمة » ، وقد ضاعت كلها ، كما ضاع من كتبه فى الحقائق كتاب « حدود المعرفة » ، وكتاب « فى الإمامة » ، وكتاب « إثبات الحقائق » ، وكتاب التوحيد والأمانة » .

ومن الكتب التى تنسب إلى النعمان ولم تثبت صحة هذه النسبة بعد : كتاب « تقويم الأحكام » ، وكتاب « الراحة والتسلية » ، وكتاب « سيرة الأئمة »[1] .

ومما تمتاز به تآليف النعمان ، عدم الإغراق فى التأويل الذى نلمسه فى تآليف زميله

(١) Fayzee : Cadi An-Numan(J.R.A.S., 1934), pp. 15-18.

جعفر بن منصور اليمن ، ذلك التأويل الذى اشتهر به دعاة الإسماعيلية فى الدور القداحى ، أو دور الستر ، وقد أسرف فى هذه الناحية دعاة الإسماعيلية فى بلاد فارس خاصة . ولا عجب فقد كان أبو حنيفة النعمان يخاطب عقولا لا تدرك جوهر الفلسفة الإسماعيلية ، ولذلك يعتبر من هـذه الناحية خير من يمثل المدرسة الإسماعيلية القديمة ، التى التزمت عدم إثارة شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمى .

ولنلق الآن نظرة على مؤلَّفى النعمان القيمين : « المجالس والمسايرات » و « الهمة وفضل الأئمة » .

فكتاب « المجالس والمسايرات » يقع فى ثلاث مجلدات ، إلا أنه ينقسم قسمين : يطلق على القسم الأول منهما ، اسم « النصف الأول » ويشمل « المجلد الأول » وهو فى ٣٧٣ صفحة . أما القسم الثانى ، فيشتمل على مجلدين يكونان « النصف الثانى » ، ويشغلان ٦٧٢ صفحة .

ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » خير ما ألف فى وصف حياة الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ، فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة ، وهم المهدى والقائم والمنصور والمعز خاصه . ويعد أهم المراجع التى تناولت تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على شىء غير قليل عن حياة الخلفاء الخاصة ، وعن وصف قصورهم ، وأوقات فراغهم .

وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة ، عن نظام الحكم فى عهد المعز . فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى أعمال يقوم بها هذا الخليفة . ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتاميين فى دولته . كما تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت ، مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما على بن أبى طالب ، إلى غير ذلك . هذا إلى تصديه للرد على خصوم المذهب الإسماعيلى . ومهما يكن من شىء فإن كتاب المجالس والمسايرات يكشف عن غزارة معلومات النعمان فى المسائل القضائية والفقهية ، ويبين أن المعز لدين الله كان — على الرغم من صغر سنه — أستاذا لهذا العالم العبقرى ، ومن نوابغ علماء عصره .

ويعتبر كتاب « المجالس والمسايرات » من أهم المراجع التاريخية المعاصرة للمعز ؛ فقد تناول فى إسهاب علاقة المعز بالأمويين فى الأندلس ، وشرح أسباب العداء الذى قام بينهم وبين الفاطميين ، ووازن بين قوة كل من هذين الفريقين ، كما كشف عن مخاوف عبد الرحمن الناصر الأموى من أساطيل المعز ، وخوفه على عرشه من أن يقع فى أيدى الفاطميين . كما تكلم على الحملات البحرية التى شنها المعز على الناصر وخلفائه ، وعرض لجهود الأمويين فى إفريقية . ولأول مرة فى تاريخ الأندلس ، يتصل عبد الرحمن الناصر الأموى بالمعز ، يتزلف إليه تارة ، ويهدده تارة أخرى . وتعتبر الرسائل التى تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب فى الأدب والمنطق ، لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين ، فى الإثبات والنفى وما إلى ذلك .

وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية ، فأوضح اعتماد الناصر الأموى على الروم فى صراعه مع الفاطميين ، وصوّر ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً ، وذكر الرسائل التى بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته .

ولأول مرة نسمع أن مسلمى جزيرة إقريطش (كريت) الذين كانوا تحت حكم العباسيين ، يطلبون النجدة من المعز لدين الله لحرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التى تبودلت بين أهل إقريطش المسلمين وبين المعز لدين الله ، نرى مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ .

كما صوّر كتاب « المجالس والمسايرات » موقف المعز لدين الله من صاحبى سجلماسة وفاس ، فيبين الأسباب التى أثارت غضب المعز على صاحب سجلماسة ، ويذكر أن ذلك الغضب كان راجعاً إلى تلقيبه بألقاب الخليفة المعز ، ومنها لقب « أمير المؤمنين » ، كما يعرض لحملة جوهر الصقلى الكبرى على بلاد المغرب (٣٤٧ هـ) عرضاً يدل على صدق الرواية وتحرى الدقة .

ومن دراسة كتاب « المجالس والمسايرات » ، نرى كيف كان المعز يرنو ببصره إلى بلاد المشرق ، ويعد العدة لإخضاعها ، ويمنى أنصاره بامتلاك الشام ، إلى غير ذلك .

أما من الناحية المذهبية فإن كتاب « المجالس والمسايرات » يعد أهم كتب الدعوة الإسماعيلية ، لأن مؤلفه النعمان استمد مادته من الإمام المعز الفاطمى ، وقد عده أنصار المذهب الإسماعيلى من أهم مراجعهم الدينية .

كذلك يعد كتاب « المجالس والمسايرات » ، قطعة أدبية رائعة ، يمتاز بأسلوب رقيق سهل ، كما يمتاز بانسجام ألفاظه ومعانيه . ولا غرو فقد سمعه النعمان عن الخليفة المعز أشهر رجال عصره علماً وأدباً ، ودبجه بأسلوبه القوى الجذاب .

وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلى والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون فى تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى بوجه عام ، وفى عهد المعز بوجه خاص .

أما كتاب « الهمة وفضل الأئمة » فيتكون من جزأين ، يشغل كل منهما ٤٦ صفحة ، وقد قسم المؤلف الجزء الأول إلى ثمانية فصول ، والقسم الثانى إلى أحد عشر فصلا .

وترجع أهمية هذا الكتاب الذى عثر عليه سنة ١٩٣٤ ، إلى أنه من أقدم المراجع التى تمثل الأدب الإسماعيلى فى عصوره الأولى ، أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التى وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة ، وتدريبهم على التفانى فى الإخلاص لمبادئها .

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية ، ويهتم مؤلفه اهتماما خاصا بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين ، وهم الدعاة ، ونحو الأئمة . كما يعنى بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التى يجب عليهم أن يسلكوها فى حياتهم . فنراه يعقد الفصل الثالث من الجزء الثانى[1] لنهى « أتباع الأئمة عن الحسد والبغى والشره والحقد وسوء الظن » . ويقصر الفصلين الرابع[2] والخامس[3] من هذا الجزء على « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالتواضع لله تعالى ولهم (أى للأئمة) ، وإطراح (ترك) الكبر والأنفة ، وإعطاء الحق الذى يلزمهم » ، و « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالحلم

(١) كتاب الهمة ج ٢ ص ٥٢ — ٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ — ٥٧ .

والعفو والوقار والسكينة » . وأهم من ذلك أن مؤلفه يعمل على تأليف قلوب الأتباع على ما تراه فى الفصل السادس[١] ، ويختص بما « ينبغى لأتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد والتبادل » .

ويهدف كتاب الهمة إلى جذب المستجيبين إلى أئمتهم ؛ فيشيد بفضل الأئمة الإسماعيلية كافة ، ويبين حاجة العالم[٢] إليهم فى عبارات خلابة ويحتم على المستجيبين وجوب « الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها ، وذكر ما أخذ لهم منها[٣] » ، ويبين للأتباع أن اتصالهم بالأئمة والجهاد معهم ، جهاد فى سبيل الله[٤] .

ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالى عند الإسماعيلية ، فيبنى مؤلفه اشتراعه المالى على أسس مستمدة من القرآن الكريم ، تحمل المستجيب على أن يؤدى الأموال للإمام وهو طائع مختار . ولذلك خصص النعمان الفصل السادس[٥] من الجزء الأول لما يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات » . ونراه يقرر على الأتباع وجوب دفع خمس أموالهم لإمامهم ، معتمداً فى ذلك على بعض الأحاديث النبوية ، وأحاديث الأئمة ، إلى أن يقول : « فاعلموا أيها المؤمنون — كما علمكم الله — « أنّ ما غنمتم من شىء » . أى كسبتموه ، « فإنّ لله خمسه » ، تتقربون به إليه ، و « للرسول » ، تدفعونه إلى إمام عصركم ، ثم إليه الأمر فيه ، وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته ويتاماهم وأبناء سبيلهم »[٦] . وهذا يفسر قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[٧] . ويؤكد فى شرحه وجوب دفع الخمس لإمام الزمان ، لأنه هو الذى حل محل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته .

كما يفسر اعتماد الأئمة الإسماعيلية على قرابتهم من الرسول ، ومحاربتهم العباسيين من

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٧ — ٨٠ .
(٢) سمى الفصل الأول من كتاب الهمة " فى وجوب طاعة الأئمة " (ص ٨ — ١٣) .
(٣) وهو عنوان الفصل الثالث من الجزء الأول ص ١٣ — ١٩ .
(٤) كتاب الهمة ج ١ ص ٢٤ — ٣٠ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠ — ٣٧ .
(٦) كتاب الهمة ص ٢٣ .
(٧) سورة الأنفال ٨ : ٤١ .

هذه الناحية ، فيقولون إنهم أحق بوراثة الرسول من العباسيين ، لأنهم أهل بيته للقربون .
ولم يكتف النعمان بحمل الأتباع على دفع خمس أموالهم للأئمة ، فيقول : «فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر ، إلى إمام ذلك الزمان ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أمر الله عز وجل ، مع زكاة أموالهم[١] » .

ولكى يربط النعمان بين الأتباع والخلفاء ، عقد عدة فصول أشاد فيها بالأئمة ، وحثم على الأتباع تقديسهم ، والتأدب فى طلب الحوائج منهم[٢] ، شارحا طرق توصيل دعاويهم إلى أئمتهم . كما نراه ينهى الأتباع « عن إنكار أفعال الأئمة » ، ويأمرهم « بتلقيها عنهم بالقبول » ، ويأمر الأشياع « بتحرى ما وافق الأئمة صلوات الله عليهم[٣] » . وبهذا وضع النعمان دستور المذهب الفاطمى ، الذى يجب على المؤمنين (الإسماعيلية) أن يسيروا على هديه مع أئمتهم .

من ذلك نرى أن المعز قد أفاد من مؤلفات رجال دعوته ، وبخاصة تلك المؤلفات التى حاول أصحابها ربط الأشياع بإمامهم الخليفة الفاطمى . ويعد كتاب الهمة من الكتب النادرة ، التى ضربت بسهم فى دعم أواصر المحبة والوفاء بين رياسة الدعوة فى المنصورية ثم فى القاهرة ، وبين الأتباع فى سائر أرجاء العالم الإسلامى .

وقد اهتم النعمان اهتماما بالغا بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة ، وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ؛ فوضع الخطوط الرئيسية التى يجب على الدعاة أن يسلكوها فى جذب الأشياع وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكى يكون تأثيرهم فى النفوس كبيراً . وكذلك بين النعمان فى كتابه كيف يختار الدعاة مستجيبهم ، فألزمهم أن يدرسوا حالة الأتباع النفسية والعقلية دراسة وافية ، حتى يوصلوا إلى عقولهم المعارف التى يستطيعون تمثيلها وفهمها .

كما ينصح النعمان جماعة الدعاة بالتقرب إلى المدعوين ، فيجعل الداعى من نفسه للمريدين أباً وأخاً ومعلما ، ويشير على الداعى بأن يقرب إليه من حسنت نيته وصفت

---

(١) النعمان : كتاب الهمة جـ ١ ص ٣٢ .
(٢) انظر الفصل الثامن من الجزء الثانى ، من كتاب الهمة جـ ٢ ص ٧٨ — ٨٠ .
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٠ — ٨٤ .

سريرته ، دون اعتبار للجاه أو المال . « فإن التقريب على الدين والتفضيل به ، والترفيع لأهله ، أقرب سبباً إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه »[1] ؛ كما يظهر أمامهم بمظهر الهيبة والوقار ، مع لين الجانب ، وحسن الصمت ، وقلة الكلام ، مستشهداً بقول جعفر الصادق : « اطلبوا العلم ، وتزينوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلمونه . ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم ... من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويمارى به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها[2] » .

كذلك يحتم النعمان على الدعاة أن يكونوا قضاة نزيهين ، يحكمون بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم ، جاعلين نصب أعينهم صلاح أحوال الأشياع . ولهذا قصر المؤلف الفصل العاشر من الجزء الثاني[3] على « ذكر ما ينبغي لمن استرعى أمر رعايا الأئمة ، من السير بالعدل فيمن ولوا أمره من الأئمة » .

هكذا كان للنعمان أثر لا يعدله أثر في النهضة الثقافية للدعوة الإسماعيلية . لذلك يحق للعلماء أن يسموه « المشرع الإسماعيلي » . ولا غرو فقد كان ساعد المعز الأيمن ، ولسانه الناطق ، واستحق بهذا كله أن يتربع على عرش الدعوة الإسماعيلية في المغرب ، وأن يورث أبناءه هذه الزعامة في مصر ، حيث توفى في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله .

(هـ) جعفر بن منصور اليمن[4] :

اشتهر جعفر بن المنصور (بن حوشب) منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين . واختلف مع أخيه أبي الحسن بن منصور ، الذي ثار على الخليفة المهدى في أخريات حياته . وغادر جعفر بلاد اليمن حنقاً على أخيه ، وقصد بلاد المغرب في سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) . ويظهر

(١) النعمان : كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ — ٨٨

(٤) انظر : طه شرف : تاريخ الإسماعيلية السياسى ، مخطوط ج ١ ورقة ٢٨١ — ٢٨٢ .

أنه كان يراسل أخاه ، ويؤنبه على ما اقترفه مع الفاطميين[١] .

وقد تمتع جعفر بمركز رفيع فى الدولة الفاطمية ، فى المغرب ثم فى مصر . وكان موضع تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذه « باب أبوابه » فى مصر ، وهى أعلى من رتبة قاضى القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم فى التأويل الإسماعيلى ، كما كان لفراره من بلاد اليمن حباً فى النهوض بالمذهب الإسماعيلى ، أثره فى تقدير الخلفاء الفاطميين له ، ومحبتهم إياه ، وعطفهم عليه .

وقد ترك جعفر كثيراً من الآثار العلمية التى لا تزال عند البهرة إلى اليوم . ومن أهم مؤلفاته كتاب « تأويل الزكاة » ، وهو بمكتبة الجامعة بليدن . وقد ألفه ، على ما يبدو ، فى عهد المعز لدين الله . ومنه نقف على غلو الإسماعيلية فى تأويلهم ، حتى لقد ذهب هـذا الفقيه الإسماعيلى إلى تأليه الأئمة ، مؤيدا فى ذلك النظرية الإسماعيلية التى تقول : « من عرف إمام زمانه عرف ربه » . ويقول دى غويه[٢] فى كتاب « تأويل الزكاة » : إن به كثيرا من مبادىء القرامطة الخارجة على الدين . ويذهب الأستاذ ماسينيو[٣] إلى القول بأن جعفراً ألف هذا الـكتاب فى سنة ٣٦٠ هـ ، ويسميه تأويل الفرائض . ويذهب الأستاذ إيڤ انو[٤] إلى أن كتـاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر المسمى « الفرائض وحدود الدين » .

ولجعفر بن منصور اليمن من الـكتب أيضا كتاب « سرائر النطقاء » ، وكتاب « أسرار النطقاء » الذى سنتناوله بالتفصيل . وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الـكتب المصرية ، بمكتبـة تيمور باشا ، تحت رقم ١٨٤ عقائد . وله من الـكتب كتاب « الـكشف » ، وهو كتاب قيم فى التأويل ، أوّل فيه بعض آيات من القرآن فى شىء كثير من الغلو . من ذلك ما ذهب إليه فى تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين » ، بأن التين هو الحسن ، والزيتون هو الحسين ، وطور سينين هو سيدنا

---

(١) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

(٢) Memoires sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii pp. 169-170.

(٣) عجب نامه ص ٣٣١ .

(٤) A Guide to Ismaili Literature, p. 31

محمد صلى الله عليه وسلم ، والبلد الأمين على بن أبى طالب ، الأمر الذى حداه على أن يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم إذاعة أسرارها .

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب « الفترات والقرانات » ، ويسمى « الجَفْر الأسود » . ويظهر أنه كتاب « الجفر » الذى ينسب إلى جعفر الصادق . ويعتقد الإسماعيلية أن على بن أبى طالب هو الذى وضع أصوله ، ليستبقى علم التأويل والباطن فى سلالته . كما يظهر أن « الجفر الأسود » من وضع أحد الدعاة المتأخرين ، لأنه يتناول حوادث وقعت فى القرن الخامس الهجرى . ويتناول هـذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء مع أضدادهم ، ويتعرض لشرح تأثير الكواكب فى الدعوة وأطوارها ؛ فهو إذن نوع من الملاحم التى أغرم بها الإسماعيلية . ومهما يكن من شىء ، فإن جعفرا سلك فى مؤلفاته هذه مسلك التأويل حتى إنه نادى بمبـدأ استمرار الأديان والحلول ، أى حلول الأنبياء من شخص إلى آخر (١) .

وبهذا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصباً فى دراسـة عقائد المذهب الإسماعيلى . ويقص علينا الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » ، مايشعرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الإسماعيلية . ذلك أن أبا حنيفة النعمان المغربى ، قاضى قضاة المعز لدين الله ، مرض وهو بمصر ، فزاره كثير من علية القوم ، ومنهم جعفر ، باب أبواب المعز . ولما أبل أبو حنيفة من مرضه ، سأله المعز عمن زاروه ، فذكر أسماءهم جميعاً سوى جعفر ابن منصور ، فأخذ المعز يطرى جعفراً ، ثم قدم إلى أبى حنيفة رسالة ، وطلب منه قراءتها ، وسأله عن مؤلفها . وقد نالت هذه الرسالة إعجاب قاضى القضاة ، حتى إنه قال للخليفة المعز : إنها من تأليف مولانا الخليفة ؛ فأجابه المعز بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور (٢) . وفى وصف المعز جعفراً بالرئيس والمولى ما يشعر بعلو مكانته . لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور ، وذهب إلى دار جعفر الداعى ، وعبر له عن احترامه وتقديره . هكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان . وصفوة القول أن جعفراً أحد اثنين يعدان من أشهر

---

(١) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S. 1933.) p. 371.

(٢) Ibid.

الدعاة الذين أنجبتهم مدارس الدعوة فى بلاد المغرب خاصة . وقد مات بعد رحيله إلى مصر مع المعز .

ولنعرض الآن لكتاب أسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن .

يعد هذا الكتاب من أقدم مصادر الإسماعيلية التى تتناول تاريخ الأئمة المستورين ، ومن أهم الكتب التى ألفت للدفاع عن المذهب الإسماعيلى وأنصاره ، كما يعد من أحسن الكتب التى تمثل الأدب الإسماعيلى القديم أصدق تمثيل .

وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً . ولهذا يعد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن المراجع فى تاريخ الأئمة من على ابن أبى طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول بعض المبادىء الشيعية ؛ من ذلك نظرية « الغيبة » ، أى اختفاء الإمام ، ونظرية الإمام الصامت[1] ، إلى غير ذلك .

ويكاد يقتصر كتاب أسرار النطقاء على الرد على الموسوية الاثنا عشرية ، فينقض آراءهم فى وضوح ودقة ، مما يدل على تضلع جعفر فى النقاش الكلامى . كما يعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة ، التى ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق ، كالموسمية والأبطحية ، نسبة إلى الأبطح ، أحد أبناء جعفر الصادق ، والمحمدية ، نسبة إلى محمد بن جعفر . ونرى جعفرا يرد رداً شديداً على أنصار هذه الفرق ، ويبرهن لهم على بطلان دعاويهم ، ويعمل على جذبهم إلى طائفة الإسماعيلية ، كما يعتبر هذا الكتاب مرجعاً هاما فى تاريخ على الرضا (ابن موسى الكاظم) وأبنائه حتى الإمام المنتظر (٢٦٠ ه) .

كذلك تعرض جعفر فى كتابه لتاريخ الأئمة الإسماعيلية المستورين ، فذكر معلومات ذات غناء عن إسماعيل بن جعفر ، وشرح موقفه من أبيه جعفر ، وأخيه موسى[2] ، وتناول انتقال الإمامة إلى إسماعيل . ويستدل على صحة دعواه بأحاديث عن جعفر وسواه ليؤكد صحة

---

(١) لكل نبى عند الإسماعيلية إمام ، يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أى أساس النطق . ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالى ، يسمى كل منهم " الصامت " . وعندهم أن على ابن أبى طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة ، حتى جعفر الصادق ، أئمة صامتون . فعلى زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق أئمة صامتون .

(٢) انظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ — ٩٣ .

إمامة إسماعيل . وإن ما كتبه جعفر بن منصور اليمن عن إسماعيل بن جعفر ، ليصور حياة الإسماعيلية ونشأتهم أصدق تصوير ؛ فنراه يعرض لعلاقة إسماعيل ببعض غلاة المذهب الإسماعيلي ، ويناقش مسألة وفاة هذا الإمام ، أو اختفاءه ، فلا يقر أن وفاته حدثت في حياة أبيه جعفر الصادق .

وكذلك عرض جعفر بن منصور لشرح بعض خصائص المذهب الإسماعيلي ، كالإمام المستقر والإمام المستودع . فيقول مثلا : « إنه لما غاب إسماعيل ، أحضر جعفر ولده (محمد ابن إسماعيل) ، وجماعة صحبه ، وسلم إليه الإمامة بمحضر منهم في مجلس أبيه . واستودع منزلته حجته ، كما فعل أبوه إسماعيل بالكبش المنصوب بين يديه قبله ، وجعله ستراً عليه من فرعون وقته . وجلس الصادق مجالسه ، كما جلس يعقوب مجلس يوسف عند غيبته[1] » . كما ذكر كثيراً من التأويلات ومبادئ الإسماعيلية كالحجة والاستيداع وما إليهما . ومهما يكن من شيء فإن جعفراً قد أجاد في وصف دور استتار الأئمة الإجادة كلها . وملأه بالتأويل الغالي والمعتدل ، مما يجعلنا نعتقد أنه من أشهر رجال التأويل في الدور المغربي ، كما يعتبر النعمان المشترع الأول في هذا الدور .

لذلك يعد كتاب « أسرار النطقاء » من كتب المناظرات الإسماعيلية القيمة ، حتى إن هذه الطائفة قد اتخذته أساساً للرد على مخالفيهم . كما يعد من كتب التأويل وكتب التاريخ التي توضح للقارىء شيئاً غير قليل من تاريخ كبار أئمة الاسماعيلية الأوائل ، وغيرهم ممن يدعون الإمامة . ولا يخلو هذا الكتاب من الغلو المذهبي ، ولا سيما حين يوازن بين الأئمة والأنبياء ، أو يؤول بعض الآيات القرآنية ، وسنن الأنبياء وأفعالهم ، بما لا يتفق مع العقل . وعلى الرغم من ذلك كله ، لا ننكر أن هذا الكتاب وغيره من مؤلفات جعفر ، من الكتب التي رفعت منار الدعوة الاسماعيلية في عهد المعز لدين الله .

هكذا سمت الدعوة الإسماعيلية بآدابها في عهد هـذا الخليفة ، وبلغت أوجها على يد الإمام المعز نفسه ، وقاضي قضاته النعمان . وباب أبوابه جعفر بن منصور . وكان لهذه المدرسة التي تقدمها هؤلاء الثلاثة أثرها فيما بعد ، واستطاع أحد تلاميذها ، وهو حميـــد الدين

---

(١) أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٩٩ .

الكرمانى ، أن يرفع منار الدعوة فى عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر . وكان المؤيد الشيرازى والحسن الصباح أثراً من آثار هذة المدرسة[1] .

(و) حميد الدين الكرمانى (٤٠٨ هـ) :

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرمانى ، وكان من دعاة الفاطميين فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويلقب بحجة العراقين ، وكبير الدعاة الإسماعيلية بجزيرة العراق . ويبدو أن الكرمانى كان يتبوأ مكانة رفيعة بين طبقة الدعاة الفاطميين ، يدل على ذلك ما ذكره الداعى إدريس فى كتابه « عيون الأخبار » حيث يقول : « حتى ورد إلى الحضرة الشريفة النبوية الإمامية ، ووفد إلى الأبواب الزاكية الحاكية باب الدعوة الذى عنده فصل الخطاب ، ولسانها الناطق بفصل الجواب ، ذو البراهين المضيّة ، والدلائل الواضحة الجلية ، مبين سبل الهدى للمهتدين ، حجة العراق أحمد بن عبد الله الملقب بحميد الدين الكرمانى قدس الله روحه ورضى عنه »[2] .

ولم يكن الكرمانى داعياً للدعاة فى عهد الحاكم برغم تضلعه فى فلسفة الدعوة الإسماعيلية لأن داعى الدعاة فى عهد هذا الخليفة كان « خُتَكين الضَّيْف » .

ونقول آسفين إن المعلومات التى نستطيع على ضوئها أن نصور شخصية الكرمانى ونترجم له ترجمة وافية ، نادرة . «وأصبح كل ما يعرف عنه هو اسمه ، و إن كان يعد فى مرتبة حجة جزيرة ، وأنه عرف فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية بلقب حجة العراقين »[3] ، مما يدل على أنه كان يقيم بالعراق ويتنقل بين بغداد والبصرة . وقد وفد الكرمانى على مصر حين استدعاه داعى الدعاة ختكين أثناء فتنة الدرزى وأصحابه فى سنة ٤٠٨ هـ ، حتى يستطيع أن يجادل أصحاب هذه الفتنة الذين زاغوا عن دعوة الإسماعيلية إلى حد تأليه الحاكم . وقد ألف الكرمانى فى الرد على الدّرْزية رسالة سميت « الرسالة الواعظة » يبرئ فيها الحاكم من ادعائه الألوهية : وتاريخ وفاة الكرمانى لا يخلو من الغموض أيضاً . فقد اختلف المؤرخون اختلافاً

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها .

(٢) الداعى إدريس : عيون الأخبار وفنون الآثار فى ذكر المصطفى المختار ، جـ ٦ ورقة ٤٥ .
انظر الكرمانى : راحة العقل ، نشره ، محمد كامل حسين ، ومحمد مصطفى حلمى ، ص ٢

(٣) راحة العقل ، مقدمة ص ٣ .

كبيراً فى سنة وفاته ، فذكر إيفانوف أنه توفى بعد سنة ٤٠٨ هـ[1] .

وقد ترك الكرمانى طائفة من المؤلفات بعضها كتب طوال ، وبعضها الآخر رسائل قصيرة ، عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى ، مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه فى العلم وتضلعه فى فقه الدعوة . ومن أهم مؤلفاته : كتاب المصابيح فى إثبات الإمامة . وتنبيه الهادى والمستهدى وكتاب معاصم الهدى ، والإصابة فى تفضيل علىّ على الصحابة ، والأقوال الذهبية فى الدفاع عن أبى حاتم الرازى ، وفصل الخطاب وإبانة الحق المتجلى عن الارتياب ، وكتاب المحصول ، ورسالة الوَضِيَّة ، وكتاب الرياض أو الإصلاح بين الشيخين ، عدا رسائل كبيرة نخص بالذكر منها : الرسالة الدرية فى معنى التوحيد ، ورسالة النظم فى مقابلة العوامل بعضها بعضاً ، والرسالة المضيئة فى الأمر والآمر والمأمور ، والرسالة اللازمة فى صوم شهر رمضان ، ورسالة الروضة فى الأزل ، والرسالة الزاهرة ، والرسالة الحاوية فى الليل والنهار ، ورسالة مباسم البشارات ، والرسالة الواعظة ، والرسالة الكافية ، ورسالة المعاد ، والفهرست ، والمقادير والحقائق ، وتاج العقول ، وميدان العقل ، وكتاب النقد والإلزام ، وإكليل النفس ، وكتاب المقابس ، وكتاب المجالس البغدادية والبصرية ، ورسالة الشعرى فى الخواص ، وكتاب راحة العقل ، مما يشهد بما يتمتع به هذا الفيلسوف من منزلة فى عالم الفلسفة[2] .

ومن أشهر كتب الكرمانى التى تدل على تبحره فى الفلسفة وإحاطته بشاردها وواردها كتاب راحة العقل ، الذى لا ينقسم إلى أبواب ومقالات ، وإنما ينقسم إلى أسوار ، ويشمل كل سور عدة مشارع ، ويصبح الكتاب كأنه مدينة . ويشتمل هذا الكتاب إلى سبعة أسوار ، وكل سور إلى سبعة مشارع . ويتألف الكتاب من ٧٩ مشرعا . وهذه الأسوار السبعة تقابل السيارات السبعة : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وهى لها تأثير على المواد الجسمانية من معدنية ونباتية وحيوانية . أما المشارع فهى تقابل الأفلاك الكبار والصغار . وإن المتأمل فى كتاب الكرمانى ليلمس

(1) Ivanow: A Guide to Ismaili Literature, p. 43.

(٢) الكرمانى : راحة العقل ، مقدمة ص ٤ — ٩ .

ولوعه بالتأويل المعروف عن دعاة الإسماعيلية . وهو يريد أن يضم كتابه : المعارف والفضائل التى ينبغى أن تتحلى بها النفس الإنسانية علماً وعملا ، فيتهيأ لمن يقرؤه و يستوعب ما فيه ، الراحة ، والهداية ، والسعادة ، والنجاة . ولذلك سمى الكتاب : راحة العقل . فهو إذن قد مزج بين تعاليم الإسماعيلية وأقوال الفلاسفة ، ووازن بين مراتب الدعوة والدين ، وظهر أثر ذلك فى كل مشرع من مشارع الكتاب . كما عرض الكرمانى لأهم الأسس التى تقوم بها الدعوة الإسماعيلية ، لذلك يعد هذا الكتاب من كتب الفلسفة العامة ، لأن قيمته الفلسفية ليست أقل من قيمته من وجهة نظر الإسماعيلية[١] .

و إن الفاحص لهذا الكتاب ، ليتبين بوضوح أن مؤلفه لم يهدف إلى دراسة المذهب الإسماعيلى فحسب ، بل إنه عرض لكثير من المشكلات التى تدور عليها مباحث المتكلمين ومناهجهم وكذا مناهج الفلاسفة ومذاهبهم . فلا عجب إذا عد الكرمانى بحق شيخ فلاسفة الإسماعيلية ، إذ استطاع أن يوفق بين آراء أبى حاتم الرازى وأبى يعقوب السجستانى أستاذ الكرمانى[٢] .

والكرمانى فوق ذلك كله عدة رسائل عرفت فى أدب الإسماعيلية باسم رسائل الكرمانى ، وهى تشتمل على ثلاث عشرة رسالة . وله أيضاً كتابان ، أحدهما يعرف بالمجالس البغدادية والآخر يعرف بالمجالس البصرية ، جمع فيهما محاضراته التأويليـــة فى العراق والبصرة و بغداد[٣] . ومن غريب الاتفاق أن يكون الكرمانى فى العراق ثم ينتقل من حين إلى آخر إلى البصرة فى نفس الوقت الذى كان فيه جماعة إخوان الصفا فى العراق والبصرة ، مما حدا أ كثر الباحثين إلى القول بأن هـــذه الجماعة كانت من الإسماعيلية . وقد ذكر الدكتور محمد كامل حسين بعد أن اطلع على كتاب « راحة العقل » أن آراء جماعة إخوان الصفا تتفق مع آراء الكرمانى ، بدليل ما نراه فى كتاب « راحة العقـل » من فقرات كاملة لا يختلف أسلوبها عن نفس الأسلوب المعروف فى بعض رسائل إخوان الصفا[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ .

(٣) الدكتور محمد كامل حسين مقدمة الرسالة الواعظة ص ٢

(٤) نفس المرجع والصفحة

وفد الكرمانى على مصر سنة ٤٠٨ هـ ، ويذكر الداعى إدريس أن الامام الحاكم بأمر الله الفاطمى بعث فى طلبه إلى مصر حين ظهرت بدعة تأليه الحاكم . وقد هال الكرمانى ما رآه فى مصر من اضطراب الدعوة الإسماعيلية ، ووصف ذلك فى رسالته « مباسم البشارات بالإمام الحاكم » ، كما وضع رسالة أخرى عنوانها : « الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، يدحض فيها فكرة تأليه الحاكم ويفندها ، ويثبت عقيدة الإسماعيلية فى وحدانية الله ، تلك العقيدة التى تحدث عنها الكرمانى فى كتبه الأخرى ، فقال : « إنه تعالى واحد ولا شريك له ، وأن لَيْسِيَّته محال ، وهو سبحانه متعال عن الانقسام ، وبرىء من أنحاء النقصان ، وإن تُنوول بصفة أو قيل عنه شىء من الصفات ، فتلك الصفات هى مأخوذة ، مستعارة من الموجودات التى هى واقعة تحت الوجود المخترع »[1] .

ومثل هذه العبارات التى ذكرها الكرمانى وردد معناها جميع علماء الدعوة الإسماعيلية هى عماد التوحيد عندهم . وهم فى ذلك يشتركون مع علماء المعتزلة فى نفى الصفات والتنزيه . ولكن الإسماعيلية جعلوا أسماء الله الحسنى للمبدع الأول ، الذى سماه الإسماعيلية السابق والقلم ، والذى يعرف عند الفلاسفة بالعقل الكلى[2] . وخلعوا على السابق جميع الصفات التى جعلها الفلاسفة للعقل الكلى ؛ ولذلك جعل الإسماعيلية هذه الصفات التى تصف بها السابق للإمام أيضاً . ومنها أسماء الله الحسنى التى نفوها عن الله سبحانه وتعالى . ولهذا نرى شعراء الإسماعيلية يمدحون الأئمة بأسماء الله الحسنى تمشيا مع عقيدتهم فى تنزيه الله تعالى عن الصفات ، وأن الامام فى عصره مثل للسابق — أى الله — مع اعترافهم بأن الإمام من البشر .

من ذلك يتضح أن الإسماعيلية لم يؤلهوا أئمتهم . بيد أن بعض دعاتهم غلوا فى تمجيد الأئمة الفاطميين ، فنسبوا إليهم الألوهية طوراً ، ومعرفة الغيب طوراً آخر ، وفيهم قال الكرمانى[3] : « إن أعظم الفرق ضلالا فرقة الغلاة ضلّت وأضلت غيرها ، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة » .

(١) الكرمانى : راحة العقل ص ٣٧

(٢) محمد كامل حسين : مقدمة الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله للداعى أحمد حميد الكرمانى (فصله من مجلة كلية الآداب : ص ٩ جامعة القاهرة مايو ١٩٥٢ ص ٨) .

(٣) المرجع نفسه .

وهكذا نرى أئمة الفاطميين ودعاتهم يتبرأون من أمثال هذه المقالات التى يغلوا أصحابها فى الأئمة . ولذلك نرى الكرمانى ، يرمى فى رسالته الواعظة أصحاب هذه البدعة بالضلال والكفر ، ويرد على الحسن الأخرم الفرغانى ، أحد الدعاة الغلاة الذين قالوا بألوهية الحاكم[1] .

(ز) المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلى المؤيد فى الدين هبة الله الشهرازى وعرف أحيانا بالمؤيد فقط . ولكن اللقب الذى غلب عليه هو المؤيد فى الدين . يدل على ذلك أن الملك أبا كاليجار البويهى أرسل إليه يقول : « لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد فى الدين عصمة أمير المؤمنين أبى النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده »[2] . وكان المؤيد فى الدين يسمى هبة الله . كما تتفق النصوص التاريخية على تسميته السلمانى نسبة إلى سلمان الفارسى[3] . وقد انحدر المؤيد من أسرة اتخذت التشيع لها دينا والفاطمية مذهبا . فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمى بشيراز ، وكان يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم . وقد راسل الخليفة الحاكم الفاطمى . واختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها المؤيد فى الدين ، فذكر الدكتور حسين الهمدانى أنه كان فى التاسعة والعشرين ، حين طلب إليه أن يغادر بلاده فى سنة ٤٢٩ هـ ، أعنى أن ولادته كانت فى سنة ٤٠٠ هـ[4] . ولكن الدكتور محمد كامل حسين يذكر أنه ولد فى سنة ٣٩٠ هـ ، معتمداً فى ذلك على بيتين من الشعر وردا فى ديوان المؤيد يخاطب بهما الخليفة المستنصر الفاطمى :

لىَ فى هجرةٍ إليك تَمَنٍّ قد تمنيته وإنى غلامُ
وتدانى من أربعين لِىَ السِّنُّ ولم يُقْضَ للتمنى ذمامُ

---

(١) يقول الدكتور محمد كامل حسين : ومع ذلك كله ، فإنى أوافق على ماذهب إليه المؤرخون من أن الحاكم كان يميل إلى ادعاء الألوهية .
انظر مقدمة الرسالة الواعظة ص ١٠

(٢) المؤيد فى الدين : ديوان المؤيد فى الدين ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) مقدمة ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه مقدمة ص ١٩ .

(٤) Hamdani (J.R.A.S.), 1932, part i. p. 130.

وذلك يدل على أنه بلغ الأربعين من عمره سنة ٤٢٧ هـ .

أخذ المؤيد يرقى مدارج الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رياسة الدعوة فى شيراز ، وأصبح حجة جزيرة فارس حول سنة ٤٢٩ هـ[١] :

اتصل المؤيد بالسلطان « أبى كاليجار البويهى ، واستطاع بدهائه أن يكسب عطفه ، وأن يظل فى شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلى . ثم لم يلبث أن توثقت صلته بالسلطان البويهى حتى طمع فى إدخاله فى الدعوة الفاطمية ، واستطاع المؤيد فى الدين بقوة حجته وبلاغته أن يقرّبه من الدعوة ، ويرغبه فى الدخول فيها ، فكتب إليه يقول : « إنى أسلمت نفسى ودينى إليك ، وإنى راض بجملة ما أنت عليه »[٢]. ودخل أبو كاليجار فى الدعوة الفاطمية ، وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلى . ولم يكتف المؤيد بنشر هذه الدعوة فى شيراز ، بل سافر إلى الأهواز وأدخل فى الأذان عبارة « حى على خير العمل ، وأمر الناس بإقامة الخطبة للمستنصر الفاطمى[٣] .

وقد أحس الخليفة العباسى بما قام به المؤيد فى الدين هبة الله من نشاط فى الخفاء ، فكتب إلى كاليجار يطلب إليه أن يقصى المؤيد عن مدينة الأهواز ، فكتب أبو كاليجار إلى المؤيد يطلب إليه إما أن يترك مذهبه أو يرحل عن هذه المدينة[٤] . ولكن المؤيد لم يُلقِ بالا لنذير أبى كاليجار بل أمعن فى نشر الدعوة ، وأخذ يغرى الديلم بالعصيان ويثير الفتنة . ولم يجد بدا آخر الأمر من أن يشدّ الرحال إلى الموصل ، ولجأ إلى قِرواش بن المقلد العقيلى وطلب إليه أن يمد له يد العون فى نشر الدعوة الفاطمية فى بلاده . ولكن قرواش لم يستجب لدعوته لأنه كان يطمع فى التقرب إلى العباسيين . فلم يجد المؤيد بدأ من الرحيل إلى مصر . وقد اختلف المؤرخون فى السنة التى وصل فيها إلى مصر ، فذكر إيفانوف أنه وصل فى سنة ٤٣٩ هـ[٥] ، وذكر الدكتور حسين الهمدانى أنه دخل مصر فى سنة ٤٣٠ هـ .

(١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٢٢ .

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦١ .

(٣) ديوان المؤيد فى الدين ص ٢٨

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠

(٥) السيرة المؤيدية ص ١٢٦ .

ولكن المؤيد نفسه يذكر أنه لقى بمصر عند وصوله أبا سعيد التُّستَرى الذى قتل فى سنة ٤٣٩ هـ .

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن المؤيد جاء إلى مصر بين سنتى ٤٣٦ ، ٤٣٩ هـ . وأنه أخذ يتردد على أبى سعيد التسترى ويتقرب إليه . فلما قتل التسترى فى سنة ٤٣٩ هـ ، تقرب المؤيد من الوزير أبى نصر الفَلّاحى ، وطلب إليه أن يمهد له السبيل لمقابلة الخليفة المستنصر بالله . وقد تحققت أمنيته ، ومثل بين يديه فى آخر شهر شعبان سنة ٤٣٩ هـ .

وقد وصف المؤيد مقابلته الأولى للخليفة المستنصر فى هذه العبارة فقال : « وكنت فى مسافة بين السقيفة الشريفة والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية . فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العَبْرَة ، وتمثّل فى نفسى أننى بين يدى رسول الله وأمير المؤمنين ماثل ، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل . واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعُجمة المهابة مَعْقُولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت علىّ ثوبى المعقود ، رأيت بنَانًا يشير إلىّ بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام . فقطّب أمير المؤمنين خلّد الله ملكه وجهه عليه زَجْراً ، على أننى ما رفعت به رأسا ، ولا جعلت له قدرا ، ومكثت بحضرته ساعة ، لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول ، وكلما استرد[1] الحاضرون منى كلاما ازددت إعجاما ، ولتعقبة التىّ اقتحاما . وهو ، خلّد الله ملكه ! يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » . ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشّفتها ، وتركتها على عينى وصدرى ، ودعيت وخرجت »[2] .

وقد تقلد المؤيد ديوان الإنشاء وزيد فى رزقه ، وعلا قدره فى نظر الخليفة المستنصر . وقد استغل هذا الداعى عمله بديوان الإنشاء ليوسع نطاق الدعوة الفاطمية إلى بغداد . فلما علم أن طغرلبك السلجوقى حاول ، بعد أن دخل مدينة الرى سنة ٤٤٤ هـ ، أن يهادن البيزنطيين ويحالفهم للاستيلاء على أملاك الدولة الفاطمية فى بلاد الشام وأعالى الجزيرة ،

---

(١) يبدو أن صحتها استدر .

(٢) السيرة المؤيدية ص ١٢٧

كاتب الكندرى وزير طغرلبك يستميله إلى الفاطميين . ولكن طغرلبك دخل بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ . ولما هرب البساسيرى ، اتصل به المؤيد وأنهى إليه بأن الفاطميين على استعداد لشد أزره وإمداده بالمال والسلاح . كما أخذ يستميل أمراء العرب والأكراد ويخلع عليهم خلع الفاطميين ويغدق عليهم الأموال الجمة .

ونجحت خطة المؤيد ، فانتصرت جيوش البساسيرى على جيوش طُغْرُلْبَك ، وانتشرت الدعوة الفاطمية فى العراق ، وخطب للمستنصر فى بغداد . ولكن البساسيرى ما لبث أن تفرقت جموعه ، ونجح طغرلبك فى طرده من بغداد فى سنة ٤٤٩ هـ ، وأخفقت خطة المؤيد إخفاقا تاما . ولكن الخلافة الفاطمية قدرت الجهود التى بذلها هذا الداعى فى نشر الدعوة ، فأسندت إليه أمر رياسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة فى سنة ٤٥١ هـ . على أن حياة المؤيد بعد تلك السنة أصبحت غامضة أشد الغموض ، وظلت على ذلك حتى توفى سنة ٤٧٠ هـ[1] .

كان المؤيد بارعا فى الكتابة بالعربية والفارسية ، وقد خلف عدداً لا يستهان به من الكتب لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم[2] . ومن المؤلفات التى تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » ، و « ديوان المؤيد » ، و « سيرة المؤيد فى الدين » ، و « شرح المَعَاد » ، وكتاب « الإيضاح والتبصير فى فضل يوم الغدير » ، وكتاب « الابتداء والانتهاء » ، وجامع الحقائق فى تحريم اللحوم والألبان » ، و « قصيدة الإسكندرية » ، وتسمى أيضاً بذات الدَّوْحة ، وكتاب « تأويل الأرواح » ، وكتاب « نهج العبادة » ، وكتاب « المسألة والجواب » ، وكتاب « أساس التأويل »[3] . ومن أهم آثار المؤيد التى تكشف عن تعمقه فى فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى مجالس الدعوة يشرح فيها المذهب الفاطمى . وبلغ عدد هذه المحاضرات ثمان مئة محاضرة ، ويرجح الدكتور محمد كامل حسين أن المؤيد

---

(١) ديوان المؤيد فى الدين ، مقدمة ص ٤٩ .

(٢) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 43

(٣) Ibid., p. 413.

ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعى الدعاة فى سنة ٤٥٠ هـ[1] . ويعد ديوان المؤيد فى الدين من أهم مؤلفاته ، لأن شعره فى هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية ، والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . من ذلك قوله :

وهم أولو الأمر أئمة الهُدى عِصْمةُ مَنْ لاذَ بهم من الردى
مفروضةٌ طاعتُهم على الأمم قاطبةً مِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا ثُمَّ أولى الأمر بهم موصولا
ثلاثُ طاعاتٍ غَدَتْ مَعْلومهْ فى آيةٍ واحـــدة مَنْظومهْ[2]

كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس ، كما عرض لنظرية المَثَل والممثول . فالإسماعيليون يذهبون إلى القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين فى العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ من أخذ من الراسخين فى العلم . وكما أن النبى كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من قام مقامه فى كل عصر يعلم هـذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز معانيه وبؤولها ، لأن له معان غير المعانى التى تتداولها ألسنة العامة ، وهذه المعانى هى سر إعجاز القرآن ، وإعجازه ليس فى لفظه بل فى معناه . وفى ذلك يقول المؤيد :

إنْ كان إعجاز القُرآن لفظا ولمْ ينَــلْ معناه منـه حظَّا
صادفتمُ مَعْنُودَه مُحَـــولَا مِنْ أجل أن أنكرتُمُ تأويلا[3]

والإمامة فى نظر الإسماعيلية هى قيادة العالم ، وحمل معرفة الحقيقة إليه . ولا بد من وجود هـذا المرشد فى كل عصر حتى لا يبقى العالَم جاهلا ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وتأويله مستودعٌ عند واحد وإنْ لم تسائله فزوراً تأولتَ

(١) ديوان المؤيد فى الدين مقدمة ص ٦٠ .
(٢) ديوان المؤيد ص ٦١ .
(٣) ديوان المؤيد ص ١٠١

وأحمدُ بيت النور لا شك بابُهُ ... أبو حسن والبيت من بابه يُؤتى

للعلم قومٌ به خُصُّوا ، أقامهم ... رَبُّ الورى للورى في أرضه عَلَما[1]

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس فى التفسير والفقه وطعنوا فى فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه ، يتضح ذلك من قول المؤيد :

وهو الذى قد حَرَّف الكتابا ... عن وجهه وجانَبَ الصوابا

يثبتُ شيئاً ليس فيه فيه ... وحُكمِ آيٍ أُحْكِمَتْ يَنْفِيه[2]

كما يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت ، وأن هذه العلوم هى علوم الباطن ، ولذلك سموا الباطنية . لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم . قال المؤيد :

ورُبَّ معنى ضَمَّه كلام ... كمثل نور ضَمّه ظلامُ

باقٍ بقاء الحَبِّ فى السنابل ... فى مَعْقِلٍ من أحرز المعاقل[3]

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المَثَل والممثول[4] أى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور الجسمية المحسوسة . وهذا الاسم مأخوذ من أقوال الفاطميين : « إنَّ الله جعل لهم مَثَلا دالاً على ممثوله فعرفوا الممثول بمثله إذ يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يَتَذَكَّرُون)[5] . فأخفى الله سبحانه الممثول وستره وجعل مثله طريقا إلى معرفته احتباراً لعباده وامتحاناً له . قال المؤيد :

والذى قال فى الكتاب تعالى ... مَثَلٌ ذاك تَحْته ممثول

---

(١) ديوان المؤيد ص ١٠٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤

(٣) ديوان المؤيد ص ١٠٦

(٤) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثول . فالمثل = الظاهر ، والممثول = الباطن . ولكل مثل ممثول كما أن لكل ظاهر باطناً . والله يضرب الأمثال للناس . أما بواطن هذه الأمثال أو ممثولها فلا يعلمه إلا الأئمة ، لأنهم وحدهم أصحاب علم الباطن .

(٥) سورة الزمر ٣٩ : ٢٧ .

أقصد : حَمَا مَمْنولَه دون المثل ذا إبرُ النحل وهذا كالعسل(١)

كا رد المؤيد على الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ، ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها . فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين : أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل . فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية . والرؤية إما رؤية حِسّ أو رؤية عقل . قال المؤيد :

فالعقل للمرء أداةٌ كالبصر ذا : باطِنٌ فيه وهذا قد ظَهَرْ

كلاهما يُدرك بالمجانَسَــهْ مَقالةٌ صحت بلا مُمارَسَــهْ

وليس من جنس العقول اللهُ يا قومُ : كى تُدْرِكَهُ حاشاه(٢)

كما تعالى أن يكون كالصور مجسما كيما يلاقيه البصر

فكأن المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار ، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول ، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالفوا المعتزلة الذين رفضوا الصفات . يدل على ذلك قوله :

فالفرقتان اجتمعــا مُشَبِّهَهْ خَبَّالَةٌ عَشْواء جهلٌ وعَمَــهْ(٣)

أما نظر المؤيد إلى ما ورد فى آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ، فإن للمؤيد فى ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذى ذهبت إليه الإسماعيلية . فهو يرى أن اليد هى النعمة ، وهى القوة ، كما يتبين ذلك من قوله :

وقائل لله وَجْــــهٌ ويَدُ وقوله : هــذا لديه رَشَدُ

وقائلٌ : ذلك حُــكْمٌ باطلُ إنْ صَحَّ ذا ، فالله شَخْصٌ ماثِلُ(٤)

أما رأى المؤيد فى الأحرف التى وردت بأوائل السور كقاف ونون وكهيعص ، فإنه يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معانى مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٧

(٢) يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

(٣) ديوان المؤيد ص ١١١

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤

الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصى . كما سمى الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق — كما قالوا — قسمان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، وهو النطق عما فى الدنيا ، والآخر النطق عما فى الدار الآخرة الذى يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والفلك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض لزواج النبى بزينب بنت جحش[1] .

ومن أهم الكتب التى تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية[2] . فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلى فى إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ولكنه مسها مساً رقيقاً فى الوقت الذى عرض فيه لأصول هذه العقائد التى لا بد من أن يلم بها المستجيب لذلك لم يسرف فى التأويل إسرافا يثقل على السامع الذى لا عهد له بعلم الباطن من قبل . لذلك نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن . وقد انفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله وأعلى ذكره وأسرف فى تمجيده . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبى ، فقد عمد الداعى إلى أن يتخذ من هذا العدد أصلا من أصول الدين ، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنتى عشرة سُنَّة ، فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر[3] . ولم ينفرد فلاسفة الدعوة

(١) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ — ١٥٢ .

(٢) ذكر إيفانوف فى كتابه « المرشد إلى أدب الإسماعيلية A Guide to Ismaili Literature » أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، وأنه غير كتابه المعروف باسم « المجالس المؤيدية » . ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذى قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية فى نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد فى الدين ، ويستند فى قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد فى كتاب المجالس يختلف عن التأويل الذى ورد فى كتاب المجالس المؤيدية ، كما يرى الدكتور محمد كامل حسين أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين فى مسألة واحدة ، كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتماد على الفقه فى آرائه أكثر من اعتماده على التأويل ، بخلاف المؤيد فى الدين يؤثر التأويل . وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعى علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

راجع كتاب المجالس المستنصرية للداعى علم الإسلام ثقة الإمام (القاهرة ١٩٤٧)

(٣) كتاب المجالس المستنصرية ، مقدمة ص ١٧

الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولا لآراء دينية ، فقد اتخذ الفيثاغوريون من كل عدد أصلا لدراساتهم ، كما اتخذ العبريون العدد سبعة أصلا لبعض عقائدهم ، كما فعل الحرانيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلا لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مُثَلِّثة[1] . والزرادشتيون مُخَمِّسة . وهاك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب :

١ — توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له .

٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ ، وأن محمداً خاتم النبيين .

٣ — القول بوصاية علي بن أبي طالب ، وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً .

٤ — التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً و باطناً .

٥ — إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين و وجوب الأخذ عن الأئمة .

٦ — القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا الباطن دون الظاهر[2] .

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى معشر المؤمنات مما يوحي بأن الدعوة كانت تُوَجَّه إلى الرجال والنساء .

و يشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلسا : عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل ، وعرض في المجلس الثاني إلى المجلس السادس للفرائض والسنن ، وعرض في المجلس السابع عشر إلى المجلس الرابع والعشرين إلى حسن المعاملة ، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار ، ومعاملة الزوجين ، ومعاملة العبيد . وتعرض في المجلس الخامس والعشرين إلى المجلس الثلاثين لصيام رمضان[3] .

(ﻫ) الطب :

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا في الطب بأوفر سهم ،

(١) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨

(٣) انظر كتاب المجالس المستنصرية ص ٥ — ١٤٧ .

كذلك حفل المغرب الإسلامى ، وخاصة مصر ، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر . ومن هؤلاء توفيل طبيب أحمد بن طولون ، وكان نصرانياً .

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح ، وقلدوهم المناصب العالية ، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط ، مما ساعد على تقدم دراسة الطب الذى أصبح يدرس نظرياً وعملياً فى المارستانات التى كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين ، أى الذين يعالجون أمراض العيون . وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطى وابن أبى أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا فى هذا العصر .

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمى ، وقد نشأ فى بيت المقدس ، حيث درس الطب على راهب يقال له أنبا زخريا بن ثوابة ، وعلى أحمد بن أبى يعقوب ؛ ثم تنقل فى كثير من المدن فى طلب هذا العلم ، وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه ، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية . ثم اتصل بالحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيد والى الرملة وما يليها من البلاد الساحلية فى عهد الإخشيديين، فقربه إليه ، ثم صحب يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » . ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولأبى عبد الله التميمى عدة مؤلفات فى الطب منها : كتاب مخلص النفوس الذى قال فيه : « هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه ، مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة فى الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعى والثعابين وأنواع الحيات المهلكة السم والعقارب الجرارات[1] وغيرها ، وذوات الأربع والأربعين رجلا ، ومن لدغ الرتيلات[2] والعظايات[3] ، مجرب ليس له مثل » . ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه فى كتابه المسمى « مادة البقاء » .

---

(١) الجرارة (على وزن فعاله) عقرب تجر ذنبها .

(٢) الرتيلاء أو الرتيل أنواع من الهوام ، كالذباب الذى يطير حول السراج ولسعها مورم مؤلم .

(٣) جمع عظاية (بفتح العين والظاء والياء) دويبة سامة كالبرص وجمعها عظاء وعظايات .

وله من الكتب أيضاً كتاب « الفحص والأخبار » ، ومقالة فى « ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه » . وقد عاش التميمى إلى ما بعد سنة ٣٧٠ هـ[١] .

ومن أطباء المعز موسى بن العازار الإسرائيلى الذى حذق صناعة الطب ، كما اشتهر فى هذا العلم أيضاً ابنه إسحاق بن موسى ، وكان مقربا من المعز ، ولكنه مات فى شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ ، فحزن الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته ، وعين مكانه أخاه إسماعيل ابن موسى — وكان قد تحول إلى الإسلام — وابنه يعقوب بن اسحاق . ومن كتب موسى بن العازار فى الطب « الكتاب المعزى فى الطبيخ » الذى ألفه للخليفة المعز ، وكتاب الأقرباذين[٢] .

وممن نبغ فى الطب فى عهد الخليفة العزيز أبو الحسن على بن رضوان . وقد خلف كثيراً من الكتب التى تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه فى هذه الناحية ، كما أن له كتباً فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[٣] . وقد أحصى له لكارك[٤] ، نحو سبعين مؤلفا . نشأ هذا الطبيب فقيراً معدما ، لكنه أصبح بفضل جده ومثابرته رئيس الأطباء فى عصر تفوقت فيه القاهرة على غيرها من الحواضر الإسلامية ، كبغداد وقرطبة . وكان لعلم التنجيم شأن يذكر فى عصر الفاطميين ، حتى كان الخلفاء أنفسهم يعولون كثيراً على التنجيم ، ويعتقدون أن للطالع تأثيراً كبيراً فى صاحبه . ويرى على بن رضوان ، ذلك الفيلسوف المشهور والطبيب الماهر ، أن طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيباً ، فدفعته هذه العقيدة إلى تحصيل الطب .

وكان على بن رضوان من المجددين فى صناعته ، ولو أن تجديده — على ما يقول بعض خصومه — محدود إذا ما قورن بالفارابى وابن سينا مثلا . على أن عمله لم يكن مقصوراً على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء كجالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، كما يتجلى ذلك من قوله فى ترجمة حياته : « وكنت

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٧ — ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥

(٤) Leclerie : Histoire de Medecine Arabe, tome II. pp. 552 et seq.

منذ الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى ، وأغيرها فى كل سنة ، إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أنصرف كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة ، وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب و إسعاف المحتاج[1] » .

من هذا يتبين أن علياً بن رضوان كان مجدداً فى صناعته ؛ فكان يدون مشاهداته ، ويغير ما دلت التجربة على فساده ، ويظهر ماظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشماً ، كل همه الكسب من صناعته ، بل كان طبيباً إنسانياً ، يصرف اهتمامه لإسعاف الملهوف ومساعدة الفقير والمحتاج ، ولا يفكر فيما وراء ذلك من طلب المال . وهذا أقصى ماتتجه إليه همة الطبيب الكامل[2] . وكانت حياة ابن رضوان كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل إلى أن مات حول سنة ٤٦٠ هـ[3] .

ولم يفت ابن كلس أن يجعل فى قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التى كانت تعطى إليهم بدون ثمن .

وممن نبغ فى الطب أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصرانى ، طبيب الخليفة الحاكم الخاص . وكان مقربا منه كما كان مقربا من أبيه العزيز . وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير فى إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود و إعادتهم إلى مراكزهم[4] .

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودى كان خامل الذكر يرتزق بمداواة أهل الجراح . واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن . وبرغم عناية ابن مقشر وغيره من أطباء الحاكم بمداومة علاجه لم يبرأ من هذا الجرح . ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً ، فشفى بعد ثلاثة أيام ، فمنحه الحاكم ألف دينار وخلع عليه ، ولقبه « بالحقير النافع » ، وجعله من أطباء الخاص[5] .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٠

(٢) المصدر نفسه — انظر ترجمة على بن رضوان فى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥

(٣) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ — ٤٤٤

(٤) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيخا ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ . القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبعة لايبسك ١٩٠٣) ص ١٧٨ ، ٤٣٨ .

(٥) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٧٨

(و) الرياضيات :

ومن أشهر الرياضيين فى عهد الفاطميين أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم ، وقد نشأ فى البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها . « وكان — كما يقول ابن أبى أصيبعة[1] — فاضل النفس ، قوى الذكاء متفننا فى العلوم . لم يماثله أحد من زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محباً للخير . وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها ، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس فى الطب . وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية ، إلا أنه لم يباشر أعمالها » .

ولما اتصل خبره بالحاكم الفاطمى ، تاقت نفسه إلى رؤيته ، ثم نمى إلى هذا الخليفة أنه قال : « لو كنتُ بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الإقليم المصرى . فازداد الحاكم إليه شوقاً وأرسل إليه سراً جملة من المال وأرغبه فى الحضور . فسار نحو مصر . ولما وصلها خرج الحاكم للقائه ، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق ، وأمر بإنزاله وإكرامه واحترامه ، وأقام ريثما استراح ، وطالبه بما وعد به من أمر النيل . فسار ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له .

ولما سار إلى الإقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهى فى غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز ، تحقق أن الذى يقصده ليس بممكن ؛ فإن من تقدمه فى العصور الخاليـة لم يعزب عنهم علم ما علمه ، ولو أمكن لفعلوه . فانكسرت همته ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة إسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد أنه لا يمشى على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به ، وعاد خجلا منخذلا ، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه .

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠

ثم إن الحاكم ولاه بعض الدواوين ، فتولاها رهبة لا رغبة ، وتحقق الغلط فى الولاية ؛ فإن الحاكم كان كثير الاستحالة مريقاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ، فأجال فكرته فى أمر يتخلص به ، فلم يجد طريقاً إلى ذلك إلا إظهار الجنون والخبال ، فاعتمد ذلك وشاع ، فأحيط على موجوده له بيد الحاكم ونوابه ، وجعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك فى موضع من منزله ، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق وفاة الحاكم . وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، وخرج عن داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر أحد جوامع القاهرة ، وأقام بها متنسكا متعزباً مقتنعاً ، وأعيد إليه ماله من تحت يد الحاكم ، واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة . وكان له خط قاعد فى غاية الصحة ، كتب به الكثير من علوم الرياضة ... ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل»[١] .

وكان ابن الهيثم غزير العلم واسع الاطلاع كثير التصنيف . فمن كتبه : كتاب السماع الطبيعى ، ويتناول ستة أمور هى : المبادىء الكونية والطبيعية ، والمكان ، والخلاء ، وما لا نهاية له . والزمان والحركة والمحرك الأول ؛ وكتاب الكون والفساد ، وكتاب الآثار العلوية وهى التى تعرض فى الجو كالسحاب والضباب والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق ، وكتاب النبات والحيوان ، وكتاب السماء والعالم ، وكتاب النفس ، وكتاب فيما بعد الطبيعة ، فبين أن الإله واحد وأنه حكيم لا يجهل ، وقادر لا يعجز ، وجواد لا يبخل .

ثم تفرغ ابن الهيثم لدراسة علوم الفلسفة ، وهى ثلاثة علوم : رياضية ، وطبيعية ، وإلهية[٢] .

وقد بين لنا ابن الهيثم نفسه آثاره فى الرياضيات فى هذه العبارة فقال : « فما صنعته فى العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتاباً (أحدها) شرح أصول إقليدس فى الهندسة والعدد وتلخيصه (والثانى) كتاب جمعت فيه الأصول الهندسية والعددية من كتاب إقليدس وأبولونيوس ، ونوعت فيه الأصول وقسمتها ، وبرهنت عليها ببراهين نظمتها من الأمور

(١) ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٩٠ — ٩١

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٢ — ٩٣

التعليمية والحسية والمنطقيـة ، حتى انتظم ذلك مع انتقاض توالى إقليدس وأبولونيوس (والثـالث) شرح المجـسطى[1] وتلخيصه شرحا وتلخيصاً برهانياً لم أخرج منه شيئاً إلى الحساب إلا اليسير . وإن أخر الله فى الأجل وأمكن الزمان من الفراغ استأنفت الشرح المستقصى لذلك الذى أخرجه به إلى الأمور العددية والحسابية (والرابع) الـكتاب الجامع فى أصول الحساب وهو كتاب استخرجت أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع إقليدس فى أصول الهندسة والعدد ، وجعلت السلوك فى استخراج المسـائل الحسابية بجهتى التحليل الهندسى والتقدير العددى ، وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم (والخامس) كتاب لخصت فيه علم المناظر من كتابى إقليدس وبطليموس ، وتممته بمعـانى المقالة الأولى المفقودة من كتاب بطليموس (والسادس) كتاب فى تحليل المسائل الهندسية (والسابع) كتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهناً (والثامن) كتاب جمعت فيه القول على تحليل المسائل الهندسية والعددية جميعاً ؛ لـكن القول على المسائل العددية غير مبرهن ، بل هو موضوع على أصول الجبر والمقابلة (والتاسع) كتاب فى المساحة على جهـة الأصول (والعاشر) كتاب فى حساب المعاملات (والحادى عشر) مقالة فى إجارات الحفور والأبنية طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة : المكافىء والزائد والناقص (والثانى عشر) تلخيص مقالات أبولونيوس فى قطوع المخروطات (والثالث عشر) مقالة فى الحساب الهندى (والرابع عشر) مقالة فى استخراج سمت القبلة فى جميع المسكونة بجداول وضعتها ولم أورد البرهان على ذلك (والخامس عشر) مقالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية ولا يستغنى عنه بشىء سواه (والسادس عشر) رسالة إلى بعض الرؤساء فى الحث على عمل الرصـد النجومى (والسابع عشر كتاب فى المدخل إلى الأمور الهندسية (والثامن عشر) مقالة فى انتزاع البرهان على أن القطع الزائد والخطان اللذان لا يلقيانه (لا) يقربان أبداً ولا يلتقيان (والتاسع عشر) أجوبة سبع مسائل تعليمية سئلت عنها ببغداد فأجبت (والعشرون) كتاب فى التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين ، وهو مجموع مسائل

---

(١) وهو الكتاب الأعظم فى الفلك لبطليموس

هندسية وعددية حللتها وركبتها (والحادى والعشرون) كتاب فى آلة الظل اختصرته ولخصته من كتاب إبراهيم بن سنان فى ذلك (والثانى والعشرون) مقالة فى استخراج ما بين بلدين فى البعد بجهة الأمور الهندسية ، (والثالث والعشرون) مقالة فى أصول المسائل العددية الصم وتحليلها (والرابع والعشرون) مقالة فى حل شك على إقليدس فى المقالة الخامسة من كتابه فى الأصول الرياضية (والخامس والعشرون) رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه أرشميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه »[1] .

ويلى ذلك ما ألفه ابن الهيثم من علوم الطبيعة والإلهية وهى أربعة وأربعون كتابا[2] ، ومن العلوم الطبية وهى ثلاثون كتابا[3] .

(ز) الفلك والنجوم :

كان لعلم النجوم أثر كبير فى توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم فى تنفيذ سياستهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم فى تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن بوبخت المنجم الذى أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم فى بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن فى نشر هـذه الدعوة فى تلك البلاد[4] . ومن قصيدة الفهرى التى يقول فيها :

فعنـــد الست والتسعيـ نَ قَطْعُ القول فى العُذْر

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم فى سـنة ست وتسعين ومائتين . وكان لهذه العقيدة أثر كبير فى انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية . وكذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين فى الاعتماد على التنجيم . فقد ذكر ابن دقماق[5] أن مدينة

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٣ — ٩٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٥ — ٩٨

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن (طبعة هنرى كاسل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠

(٥) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

القاهرة التى بناها جوهر الصقلى سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذى يسمى « القاهر » .

وذكر المقريزى(1) : « أن القائد جوهرا لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة ، فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا ، فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع ، فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة » .

كذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمى بعلم النجوم ، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المقطم أطلق عليه « الرصد الحاكى » . واستعان بأبى الحسن على بن يونس المنجم المصرى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج الحاكى(2) المعروف بالزيج الحاكى وزيج ابن يونس الذى يقول فيه ابن خلكان(3) : « هو زيج كبير رأيته فى أربع مجلدات ، بسط القول والعمل فيه ، وما قصر فى تحريره . ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه : وذكر أن الذى أمره بعمله وابتدأ له العزيز أبو الحاكم صاحب مصر »(4) .

وفى سنة ٤٠٤ هـ نهى الحاكم أن يسترشد الناس بالنجوم ، وأن يباشروا علم الفلك ، وأمر بنفى جميع المنجمين عن البلاد ! فاستغاثوا بقاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ،

(1) خطط ج ١ ص ٣٧٧

(2) الزيج بكسر الزاى هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم ، أعنى حساب الكواكب لسنة سنة وهو فارسى . انظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٢٧ .

(3) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ .

(4) كان ابن يونس فوق شهرته فى علم النجوم يجيد نظم الشعر ، ومن شعره :

أحمل نشر الريح عند هبوبه	رسالة مشتاق لوجه حبيبه .
بنفسى من تحيا النفوس بقربه	ومن طابت الدنيا به وبطيبه

وتابوا على يديه ، لأن الحاكم عدّ ذلك جريمة ، و بذلك ألغيت عقوبة النفى . وعومل نفس هذه المعاملة المشتغلون بالموسيقى [١] .

وقد ذكر أبو المحاسن [٢] عند كلامه على وفاة الحاكم أن « الحاكم كان ينظر فى النجوم ، فنظر مولده ، وكان قد حكم عليه بالقطع فى هذا الوقت ، فإن تجاوزه عاش نيفاً وثمانين سنة . وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل و يطوف القاهرة ؛ فلما كان تلك الليلة قال لوالدته : علىّ فى هذه الليلة وفى غد قطع عظيم ، والدليل عليه علامة تظهر فى السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى ، فإنى ما أخاف عليك أضر منها ... فقبلت الأرض وقالت : إذا كنت تتصور هذا فارحمنى واقض حقى ، ودع ركوبك الليلة ، وكان يحبها ، فقال : أفعل » . وكان ضجر الحاكم وخروجه آخر الليل سبب قتله .

(ح) التاريخ :

وكما حفل العصر الفاطمى بطائفة من المفسرين والأدباء والشعراء والفلاسفة والأطباء والمنجمين والرياضيين ، كذلك زخر بطائفة من المؤرخين والرحالة . لذلك نرى أن نأتى بأهم المؤلفات التاريخية والأدبية التى يعتمد عليها فى بحث العصر الفاطمى .

ومن هذه المؤلفات كتاب « صلة تاريخ الطبرى » لِعَرِيب بن سعد [٣] المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ؟ (٩٧٦ — ٩٧٧ م ؟) ؛ وقيمة هذا الكتاب فى أن عريب بن سعد قد أضاف كثيراً إلى تاريخ الأندلس وشمال إفريقية (بلاد المغرب) . ولم يمدنا الطبرى بشىء يستحق الذكر عن الفاطميين ، مع أنه تقدّم عريب بن سعد ، لأن كلامه عنهم يحوطه شىء من الغموض والإبهام غير قليل .

---

(١) يحيى بن سعيد ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٧ .

(٣) لا يعلم عنه شىء ، غير أنه شغل منصب الكتابة فى بلاط الحكم الثانى ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ (٩٦١ — ٩٧٦ م) فى قرطبة ؛ وفى حكمه ألف عريب هذا مختصراً لتاريخ الطبرى . انظر ماذكره دوزى (Dozy) عن عريب فى كتاب " البيان المغرب " لابن عذارى (ص ٤٣ — ٦٣ Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, I, 134, 236, and note : Wüstenfeld, Gesch. der Arab., No. 136 : Encyclopædia of Islam, s.v.

أما عن العلاقات التى كانت بين الفاطميين فى شمال إفريقية ومصر إلى أن تم فتح مصر على يد جوهر الصقلى قائد الفاطميين (سنة ٣٥٨ هـ) ، فإننا نذكر من بين المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم فى بحثنا لتاريخ مصر فى هذا العصر وعاشوا فى الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وكتبوا عن تاريخ هذه البلاد فى هذا العهد : ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، وأوتيخا[١] ، (سعيد بن البطريق) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠م) ، وأبا عمر الكندى[٢] المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وعريب بن سعد المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ؟ (٩٧٦ — ٩٧٧ م ؟) ، وأبا على مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) . وقد اقتصر الطبرى فى تاريخه الذى ينتهى فى عام ٣٠٢ هـ على ذكر المجهودات الأولى التى بذلها المهدى فى سبيل غزو مصر . وقد تناول عريب بن سعد ومسكويه الكلام على هذه الغزوات بشىء من الإسهاب . وقد أمدنا أوتيخا والكندى ، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبرى ، بمعلومات أكثر تفصيلا وإسهاباً فى هذا الموضوع . وكتاب « المُغرب فى حلى المَغرب » لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م)[٣] قد تضمن جزءا من كتاب ابن زولاق[٤] المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) المسمى « كتاب العيون الدُّعج فى حلى دولة بنى طغج »[٥] . وهذا الكتاب يتناول سيرة الإخشيد ؛ كتبه مؤلفه فى سنة ٣٥٠ هـ بأمر أبى الحسن علىّ بن الإخشيد ، ثم أتم ابن زولاق أيضاً كتاب الكندى الذى يتناول الكلام على ولاة مصر إلى سنة ٣٣٤ هـ ، وهى السنة التى مات فيها الإخشيد . أضف إلى ما تقدم ، أن ابن زولاق ذيّل كتاب الكندى[٦] منذ وفاة الإخشيد إلى أن وصل المعز الفاطمى إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية باسمه سنة ٣٦٢ هـ[٧] .

---

(١) Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 108

(٢) Ibid. No. 124

(٣) ورد هذا التاريخ فى كتاب " فوات الوفيات " للكتبى (ج ١ ص ١١٢) ؛ أما السيوطى فقد ذكر فى كتابه " حسن المحاضرة " طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠) أنه توفى سنة ٦٨٥ هـ

(٤) ذكر ياقوت : إرشاد الأديب (ج ٣ ص ٧) أنه توفى فى يوم الأربعاء ٢٦ ذى القعدة سنة ٣٨٧ هـ ، وذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) أن وفاته وقعت فى يوم الثلاثاء ٢٥ من الشهر نفسه ، وذكر السيوطى (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩) أنه توفى فى شهر ذى القعدة من هذه السنة .

(٥) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٤ — ٤٥ .

(٦) كتاب الولاة والقضاة ص ٢٩٣ — ٢٩٨ .

(٧) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٥

ومن الكتب المعاصرة للدولة الفاطمية تاريخ ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ ھ (٩٩٧م)، المسمى « فضائل مصر وأخبارها وخواصها » ؛ أتى فيه مؤلفه على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى . وابن زولاق حجة لا يستهان به في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين : أولاً لأنه كان مصرى الجنس ومن أهلها ، وثانيا لأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه فى مادة التاريخ . وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الأصلية عن تاريخ مصر ، من أمثال كتاب « فضائل مصر » ، وهو عبارة عن خطط أو وصف « طبوغرافى » لمصر القديمة ، تناول فيه مؤلفه — على ما ذكر ابن خلكان[1] — الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه ، وكذا كتاب « قضاة مصر » الذى جعله مؤلفه ذيلا لكتاب القضاة لأبى عمر الكندى إلى سنة ٢٤٦ ھ ، وأتمه فيما بعد ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ ھ (١٤٤٩م) .

ومن الكتب التى ألفها ابن زولاق فى تاريخ مصر سِيَر كافور وجوهر والمعز والعزيز . بيد أنه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ؛ ولا يعرف عنها شىء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده . هذا ، وتصانيف ابن زولاق التى بقيت إلى اليوم هى[2] :

١ — تاريخ قضاة مصر .

٢ — وسيرة الإخشيد المسماة « العيون الدعج ... الخ » التى نقلها ابن سعيد فى كتاب « المغرب » .

٣ — وكتاب فضائل مصر ، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ، ومختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . أما هذا المخطوط فقد أمدنا بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى عام ٣٨٦ ھ . وقد أتم هذا المؤلف الذى وضع أساسه ابن زولاق رجل من الأتراك ، يلوح لنا أنه أدخل عليه معلومات استقاها مما كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق ، من أمثال أبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ھ (١٢٠١ م) ، الذى عرف حفيده باسم سبط بن الجوزى

---

(١) ج ١ ص ١٦٧

(٢) أتى ياقوت فى كتابه إرشاد الأريب (ج ٣ ص ٧) على أسماء الكتب التى صنفها ابن زولاق .

المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) .

ومن مؤلفات العصر الفاطمي كتاب « الديارات » لأبي الحسن على الشابُشْتي[١] المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م)[٢] (برلين مخطوط ڤيلر ١١٠٠) . وقد اتصل الشابشتي بخدمة العزيز ، فولاه خزانة كتبه واتخذه جليسا له ونديما ؛ وذكر فى كتاب « الديارات » أخباراً عن الأديرة فى العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل عن كل منها من الأشعار ، وما جرى فيه من حوادث وأمور . على أن هذا الكتاب على نفاسته لم يمدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمي ، اللهم إلا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسي بابنة وزيره الحسن بن سهل .

وهناك كتاب آخر هو كتاب « كنائس وأديرة مصر » لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥ — ٦٠٦ هـ (١٢٠٨ م) ، وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد تحت قيادة شيركوه . كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه هو بنفسه فى زياراته الكنائس والأديرة فى القاهرة وضواحيها ، والكتاب مملوء بأمثلة كثيرة عن الخيرات التى أغدقها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط[٣] .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمُسَبِّحي[٤] المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، الذى كتب عن مصر كتابا مسميا هو « تاريخ مصر » ، يقع فى ستة وعشرين ألف صفحة[٥] ؛ ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الإسكوريال

---

(١) ذكر ابن خلكان نقلا عن كتاب (التاجى) لأبي إسحاق الصابئ المتوفى سنة ٣٨٠ هـ أن الشابشتى حاجب وشمكير بن زيار الديلمى ، قتل فى سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ — ٩٣٨ م) بالقرب من أصبهان . وزاد ابن خلكان على ما تقدم فقال يظهر أن الشابشتى اسم ديلمى يشبه النسبة ، ويحتمل أن يكون أبو الحسن على الشابشتى من أبناء هذا الرجل فنسب إليه وبقى النسب فى أولاده . ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧) .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) ثلاثة تواريخ لوفاة الشابشتى ، وهى سنة ٣٩٠ هـ وصفر سنة ٣٨٨ هـ و ١٥ صفر سنة ٣٨٨ هـ ، وذكر هو التاريخ الأول . أما الثانى فقد نقله عن المسبحى ، وذكر الثالث نقلا عن شخص لم يذكر اسمه .

(٣) زعم إيفتس (R T.A. Evetts) فى مقدمته لكتاب أبي صالح أن كتاب الديارات الشابشتى قد ضاع ، ولا يعرف لدينا إلا عن طريق العبارات التى اقتبسها منه غيره من الكتاب .

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣ و ٦٥٤) . السيوطى (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٣١٩ .

(٥) يقول ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣) إنها وقعت فى ثلاثة عشر ألف ورقة .

بالأندلس ، وهو واحد من جملة تصانيفه التى بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود ، اللهم إلا فى هذه المقتبسات التى نجدها فى المصادر الأخرى .

وقد كان المسبحى رجل فضل وعلم ، وكان على زى الأجناد . اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١ م) ، وتقلد فى أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تقلد « ديوان الترتيب »[١] . ولا غرو فإن المسبحى حجة دامغة فى تاريخ مصر فى الصدر الأول من أيام الفاطميين[٢] .

ويجب ألا ننسى ثلاثة من الكتاب المعاصرين للفاطميين ، وهم مسكويه[٣] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وهلال الصابئ[٤] المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) ، وأبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)[٥] .

أما تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » فهو « على وجه العموم من أهم الكتب العلمية فى اللغة العربية »[٦] . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث التى أعقبت ما دونه الطبرى فى تاريخه (وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ)[٧] . وقد استطرد أبو شجاع فى سرد

(١) زعم دى سلان (De Slane) فى ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١) أن هذا الديوان كان فى نفس المكان الذى يوجد فيه ديوان الرواتب ، وهو المحل الذى تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها .

(٢) ذكر تصانيف المسبحى من جاء بعده من المؤرخين ، كابن منجب ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى .

(٣) اختلف الكتاب فى صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه ؛ فبعضهم كالتنوخى (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجى خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه ، فى حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذانى (ص ١٥٧ ، وقد سماه مشكويه) وياقوت (إرشاد الأريب ج ٢ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٢) والقفطى (ص ٣٣١) وابن أبى أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو .

انظر المناقشة التى أوردها الأستاذ مرجليوث (Prof. Margoliouth) عن هذا اللقب فى مقدمته لكتاب مسكويه (ص ١١) ووستنفلد فى كتابه (Gesch. der Ar. No. 182) .

(٤) نشر مستر أمدروز (Mr. Amedroz) ترجمة حياة هلال الصابئ عن تاريخ سبط بن الجوزى ، وتتناول فى جلها الكلام بوجه التفصيل من اعتناق هلال السلام .

انظر أيضاً ياقوت (إرشاد الأريب ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلكان (ج ٢ ص ٢٦٧) ووستنفلد (Wüstenfeld : Gesch. der Ar. No. 198)

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٩١ — ٩٢

(٦) Prof. Margoliouth : Preface to Miskawaih, p. VI

(٧) يقول القفطى (ص ٣٣١) إن تاريخ مسكويه ينتهى إلى سنة ٣٧٢ هـ .

الحوادث (وتنتهى فى سنة ٣٨٩ هـ) ؛ وتلاه هلال الصابئ فى تاريخه الذى ذيل به أمدروز (Amedroz) كتاب الوزراء ونقله عنه الأستاذ مرجليوث .

ولقد استمد مسكويه معلوماته التاريخية شفويا ممن تولوا الزعامة فى هـذه الحوادث ؛ نخص بالذكر منهم الوزير المهلبى فى بغداد المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣م) ، وأمين خزانته[1] ، وهو أبو الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) فى الرى . وكان لمسكويه ضلع فى كثير من الحوادث الهامة ، كما كان لعمارة اليمنى وأسامة بن منقذ من بعده ، « وهذا من الأهمية بمكان لمؤرخ مثله ، وعلى الأخص لأن المناصب التى تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيرا من المسئولية ؛ كما أنه كان فى استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم »[2] .

وقد أسهب مسكويه فى تاريخ الصدر الأول من أيام بنى بويه ؛ ولكنه لم يغفل أيضا أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين ، مما له صلة بالجهود التى قام بها الفاطميون لفتح مصر ، وكذلك العلاقات التى كانت بين العباسيين والبيزنطيين فى ذلك الوقت .

وقد أعقب ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى ٤٧٦ — ٤٨٧ هـ (١٠٨٢—١٠٩٣ م) المعروف بأبى شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على المدة التى بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ . وقد وقع أبو شجاع عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ فى أغلاط لم يشر إليها الأستاذ مرجوليوث عند نشره تاريخ مسكويه ؛ ذلك أن أبا شجاع قد دوّن فى هذه السنة حوادث وقعت بعدها بخمس سنين أو عشر سنين . ومن الأمثلة التى تؤيد صحة هذا القول مسألة موت الخليفة الفاطمى العزيز وتولية ابنه الحاكم[3] التى حدثت فى سنة ٣٨٦ هـ ، وما يتعلق أيضا بقتل برجوان ، وإسناد منصبه[4] إلى الحسين بن جوهر فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ .

ولم يظهر للآن من تاريخ هلال إلا جزء واحد ذيل به مستر أمدروز « كتاب

---

(١) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ٩٥

Prof. Margoliouth : Prefece to Miskawaih, p. VI (٢)

(٣) ج ٣ ص ٢٢١

(٤) ج ٣ ص ٢٣٠ - ٢٣٢

الوزراء » ، ونقله عنه الأستاذ مرجوليوث . ويتحدث كتاب الوزراء عن التعديلات التى أدخلت على قانون الوراثة فى عهد الفاطميين منذ ابتداء عهدهم .

وكتاب « الآثار الباقية » للبيرونى[١] المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)[٢] يتناول الكلام عن نظم الطوائف والجماعات المختلفة . وهو حجة اعتمدت عليه فى البحث عن الاحتفال بالأعياد القومية والدينية فى عهد الفاطميين .

ومما يأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ؛ ومن بينها كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ؛ وهو مختصر كتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين » . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٤٩١ ، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلى الذى لعبت به يد الضياع . ومع ذلك فقد خلف لنا من جاء بعد القضاعى من الكتاب ، من أمثال القلقشندى والمقريزى وأبى المحاسن ، بعض شذرات نقلوها من هذا الكتاب . وجاء رحل من الأتراك — مجهول الاسم — فاختصر كتاب القضاعى الذى أخذ عنه مؤلف المخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ واستمر يسرد لنا الحوادث حتى عام ٩٢٦ هـ (١٥١٩ — ١٥٢٠ م) . وهذا المختصر يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويحتوى الجزء الذى ينحصر بين ورقتى ١١٥ و ١٢٦ من هذا الكتاب المنسوب إلى القضاعى ، والموجود الآن بباريس ، على معلومات ذات غناء عن الخليفة الحاكم الفاطمى . أما مؤلفات القضاعى فقد عددها ابن خلكان[٣] ؛ فذكر منها كتاب « مناقب الإمام الشافعى » ، وكتاب « تواريخ الخلفاء » ، وكتاب « خطط مصر » . ويظهر أن المقريزى نقل هذا

---

(١) " من أهالى خوارزم أو خوارزميا وهى كيفا الحالية ؛ وبعبارة أدق ، أحد مواطنى حى (Berun) من أحياء عاصمة هذه البلاد . وكان يطلق على كل منهما (الحى والحاضرة) اسم خوارزم ، أو أحد مواطنى أحد أعمال الحاضرة ، ويسمى (Berun) أيضا " Sachau's Preface to Beruni's Chronology of Ancient N-tions, English Translation, p. vii

ومن أراد التوسع فليرجع إلى ما جاء فى مقدمة النسخة العربية (ص ١٧ و ١٨) ، وكتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٩٨ ب (طبعة Gibb Memorial) حيث نقلت النسخة الأصلية " Biruni " خطأ .

(٢) يقول حاجى خليفة (رقم ٩٣٥٩) إن وفاته وقعت فى سنة ٤٣٠ هـ ، بخلاف ابن أبى أصيبعة (جـ ٢ ص ٢٢) ، فإنه ذكر أن ذلك كان فى سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) ج ١ ص ٥٨٥

الكتاب برمته ، وأودعه كتابه الذى يعرف أيضاً بهذا الاسم .

والقضاعى ثقة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وكان من النابغين فى الكتابة ، حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائى (تقلد الوزارة سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ)[١] يعهد إليه فى أن يكتب العلامة[٢] .

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر صلة كتاب أوتيخا المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ، الذى كتبه يحيى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ؛ فقد تصدى للكلام عن المدة التى بين سنتى ٣٢٦ و ٤١٧ هـ (٩٣٨ — ١٠٢٦ م) . ولما كان من المحتمل أن يحيى بن سعيد مصرى المولد ، وأنه قضى من حياته فى هذه البلاد مدة تتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين عاما — كان ذلك كله مما يجعل لكتابه فائدة خاصة بالنسبة إلى الزمان الذى عاش فيه ، والمكان الذى قضى فيه هذه الحقبة من عمره ، وهو مصر[٣] .

وكتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) — الذى يعد بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابئ — وكتاب « الأنساب » للسمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ — ١١٦٧ م) — كتاب جليل أيضا من ناحيتى النسب والجغرافية — وكذا تاريخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) . ولا يخفى ما لكل من هذه الكتب من أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين .

ويظهر أن ابن القلانسى قد نقل كتاب أبى شجاع وكتاب هلال الصابئ ، إذا جاز لنا أن نقول إن تاريخ أبى شجاع قد بنى على تاريخ هلال . ويلوح لنا أن كتاب ابن القلانسى مما يمكن عده من المصادر الأصلية منذ مستهل القرن السادس من الهجرة ، كما يظهر من وصفه للأحوال التى أدت إلى قتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى .

ويجب أن نشير فى هذا المقام إلى ما كتبه عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ،

---

(١) ابن منجب : كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٣٥ و ٣٧ .

(٢) كانت العلامة أو الإشارة التى يذيل بها القضاعى الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية تشمل هذه الكلمات : « الحمد لله شكراً لنعمته » .

(٣) انظر لفظ أنطاكى (Antaki) فى دائرة المعارف الإسلامية . Brockelman, Gesch. der Arab. Letter. 1, 148.

وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع فى مصر من الحوادث فى أواخر أيام الفاطميين . ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط فى عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين . وقد أمدنا فى ديوانه وكتابه المسمى « النكت العصرية » بفوائد عظيمة عن هذين الخليفتين والوزراء ، وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة فى بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . ولا غرو فقد أتحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذى لعبه الشعراء فى نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية[1] .

أما أسامة بن منقذ فكان من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عدة فى فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤثراً إلى أيام الوزير الصالح بن رُزِّيك سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر فى زمنه ، وما وقع فيها من حوادث . نخص منها بالذكر المعركة التى دارت بين جند الخليفة الفاطمى وأنصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ ، والموقعة التى دارت رحاها بين أتباع الوزيرين ابن السلار وابن مَصال سنة ٥٤٤ هـ ، والموقعة الفاصلة بين أتباع هذين الوزيرين فى السنة نفسها . كذلك قتل الوزير ابن السلار سنة ٥٤٨ هـ ، والخليفة الحافظ وإخوته وبنى عمه سنة ٥٤٩ ، والثورة التى أثارها الأهلون على قتلة الخليفة وبعض أهل بيته : وهما الوزير عباس وابنه نصر اللذان لقيا حتفهما بعد ذلك بقليل — كل هذه المعلومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابه[2] .

ومن مؤرخى العصر الفاطمى ابن أبى طىّ ، واسمه يحيى بن حميدة (أو حامد كما فى رواية أخرى) ، ويكنى بابن أبى طى . وأصله من حلب ، وتوفى — كما يروى حاجى خليفة[3] سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ — ١٢٣٣ م) . وكان والده أحد أشراف بلدته وطرده نور الدين

---

(١) انظر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٧) .

Derenbourg, tome. II. Notices en Arabe par 'Oumâra et sur 'Oumâra (Paris, 1909).

(٢) انظر إرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ١٧٣ و ١٧٦ . ابن خلكان ج ١ ص ٧٨ و ٨٠ .

Derenbourg, Anthologie des textes, arabes inédits par Ousâma et sur Ousâma (Paris, 1893).

(٣) رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ الخ .

لخروجه فى آرائه على الدين . ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد الشيعية التى كان الفاطميون يجدّون فى نشرها فى البلاد السورية . وأما ابنه يحيى فقد اعتنق تلك العقائد ؛ يؤيد هذا كتاباه « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة فى فضائل الأئمة الاثنى عشرية » . وقد أتى على مؤلفات ابن أبى طى فى السير والتواريخ حاجى خليفة[1] ووستنفلد[2] . ومن المحتمل أن يكون انتشار العقائد السنية فى بلاد الشام فى ذلك الوقت هو السبب فى أنه لم يصل إلينا من مؤلفات هذا المؤرخ إلا القليل . وقد وضع أبو شامة والمقريزى ترجمة ابن أبى طى لحياة صلاح الدين[3] فى متناول أيدينا ، إذ أمدنا كل منهما بشذرات من كلامه . وكذلك بقى من مؤلفاته أيضاً شرح لامية العرب للشَّنْفَرَى ؛ وقد ألفه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م)[4] .

ومن مؤرخى العصر الفاطمى أيضا : أبو عبد الله محمد بن سعد القرطى[5] . وكان أبو عبد الله محمد بن سعد القرطى من ولد عمار بن ياسر ؛ وكان مولعا بالتاريخ ، رحل إلى اليمن وبلاد الهند ، وصنف كتاب « تاريخ مصر » فى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب فى حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه المغرب . ومحمد بن سعد القرطى هذا من أحفاد محمد بن جعفر القرطى ؛ وكان معاصرا للإخشيديين فى مصر ، قلده مؤنس الحسبة بمصر ثم قلده الخراج[6] ، ثم تقلد خراج مصر والشام فى عهد ولاية تكين[7] — ولى تكين ثلاث مرات .

---

(١) رقم ٢٠٢ ، ٢٠٧٠ ، ٢٢٠٥ ، ٢٣١٢ ، ٤٦٤٧ ، ٧٢٢١ ، ٧٩٠٧ ، ٨٢٢٦ ، ١٠٩٤٠ ، ١٣٠١٩ .

(٢) Geschichte der Araber, No. 315.

(٣) حاجى خليفة رقم ١٠٩٤٠ .

(٤) انظر أيضاً (Hartwig Derenbourg : Vie d'Ousâma, Historiens orientaux des croisades, Vol. I, p. 403, n, 3. Introd. p.L.

(٥) لمعرفة اشتقاق هذا اللفظ ، راجع القاموس المحيط (طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ وكتاب الأنساب للسمعانى ورقة ٤٤٧ . وهذا اللفظ منسوب إلى القرط الذى يعلق فى الأذن ، أو إلى قروط ، وهو اسم يطلق على بعض أفخاذ بنى كلاب إخوة قُرْط وقَرِيط وقُرَيط . والقرطى الذى نحن بصدد الكلام عليه ، مشتق اسمه ، على ما ذكره ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٩٩) من القرط الذى تأكله الدواب بمصر .

(٦) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٨ .

(٧) المصدر نفسه ص ٩ .

ولى تكين مصر ثلاث مرات (٢٩٧ — ٣٠٣ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١١ هـ

مؤرخو النظم :

ومن مؤرخى النظم الإدارية ، الماوردى[1] المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) فى كتاب « الأحكام السلطانية » . وهو أول ما كتب بالعربية عن هذه النظم فى الإسلام ؛ ويعد من أعظم المصادر لما كتبته عن إدارة الشئون العامة فى أيام الفاطميين . على أن الغموض الذى يحيط بأسلوب الماوردى ، مما يزيد فى قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن طباطبا الذى ألف كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية »[2] سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) ، والقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، بل ما كتبه ابن خلدون والمقريزى ، على الرغم مما يعيب أسلوب هذين فى كثير من الأحيان من ركاكة وغموض .

وكتاب « الإشارة إلى[3] من نال الوزارة » لابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)[4] .

أما كتاب « الإشارة » لابن منجب ، فقد أمدنا بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين ، لأن ابن منجب كان من أعيان زمانه ، وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) فى الخليفة الآمر ، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ؛ وكان من البارزين فى طبقة البلاط والمؤرخين[5] .

---

(١) كان الماوردى على ما ذكر السمعانى (كتاب الأنساب ورقة ٥٠٤ أ) يبيع ماء الورد ، ومنه عرف بهذا اللقب .

انظر أيضاً إرشاد الأريب لياقوت (ج ٥ ص ٤٠٧ — ٤٠٩) وابن خلكان (ج ١ ص ٤١٠ — ٤١١) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٢) وصف الأستاذ نيكلسون فى كتابه " تاريخ العرب الأدبى " (ص ٤٥٤) حاشية (١) (Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs. p. 454, No. 1) كتاب ابن طباطبا فى العبارة الآتية : " وهو كتاب ممتع عن السياسة الإسلامية . وإن ما يمتاز به أسلوبه من سهولة ، وعباراته على اختلافها من تشويق وإمتاع ، كل ذلك جعله جديراً بما يستحقه من إعجاب واستحسان . وإذا صرفنا النظر عن القرآن ، فإنى لا أعرف كتاباً غير هذا يصلح لأن يكون مقدمة للأدب العربى " .

(٣) ذكر ياقوت (إرشاد الأريب) هذا اللفظ " فى " .

(٤) أورد ياقوت سيرة ابن منجب فى كتابه " إرشاد الأريب " (ج ٥ ص ٤٢٢) ، حيث ذكر أنه توفى سنة ٥٥٩ هـ ، وأفرد له أيضاً ابن ميسر (ص ٨٧) وغيره ترجمة خاصة به .

(٥) يمكن الرجوع إلى كتاب " إرشاد الأريب " لياقوت (ج ٥ ص ٤٢٢ و ٤٢٣) لمعرفة حياة ابن منجب .

والمقريزى كلام مستفيض عن قانون الوراثة فى عهد الفاطميين ، عند كلامه عن الفقيه المالكى محمد بن الوليد الطرطوشى . ويحدثنا ياقوت أن الطرطوشى ينتسب إلى مدينة طرطوشة[١] التى ولد فيها سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وطرطوشة مدينة بالأندلس تقع إلى الشرق من مدينة بَلَنْسِيَة التى تتصل بالكورة المسماة باسمها .

وقد تنقّل الفقيه الطرطوشى فى الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء فى أمهات العواصم الإسلامية ، من أمثال مكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ؛ ثم رحل أخيرا لمشاهدة مصر ، ونزل الإسكندرية واستوطنها ، وبقى بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . ولم يلبث أن تقرّب إلى الوزير المأمون ، وأهدى إليه كتابه « سراج الملوك »[٢] .

وكان من مظاهر سرور الوزير بإهداء الطرطوشى له هذا الكتاب ، أن رتب له خمسة دنانير فى كل يوم من مال الجوالى ؛ فلم يقبل منها غير دينار بن كان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى قد أجراها عليه .

الجغرافية والرحلات :

كان لاتساع نطاق التجارة فى هذا العصر أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين . فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ، ووضعوا فى أوصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ما شاهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها ، وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هى خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التى اكتسبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التى خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا فى العصر العباسى الثانى . ويعتبر ابن خرداذبة الفارسى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى من أقدم جغرافيى المسلمين فى العصر

---

(١) ذكر السمعانى هذا اللفظ فى كتاب الأنساب (ورقة ٣٧٠ ا) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٧) . وخالفه فى ذلك ياقوت ، فذكره فى « معجم البلدان » طرطوشه .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) أن هذا الكتاب ليس « سراج الملوك » وإنما هو كتاب « سراج الهدى » .

العباسى ، فقد خلف لنا كتابه « المسالك والممالك[1] » ، ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ، و يصل إلى الهند والصين .

ومن جغرافيى هذا العصر : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح اليعقوبى المتوفى حول سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب « البلدان . وقد قام برحلات طويلة فى أرمينية و إيران والهند ومصر وبلاد المغرب ، ودون نتائج رحلاته فى كتابه ، والهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٧٣ م) ، وقد ألف كتابه « صفة جزيرة العرب » . وكان أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٥٦ م) من كبار الرحالين المسلمين ؛ وقد زار كل أرجاء العالم تقريبا ، فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب ، وصحب التجار إلى بحار الصين ، كما زار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان ، وقام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى[2] وبلاد الشام وفلسطين ، وزار مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠ هـ .

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة فى القرن الرابع الهجرى شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وكتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية[3] .

ومن المصادر التى عاش مؤلفوها فى الأيام الأخيرة من عهد الفاطميين كتاب سفرنامه (Safar Nâmah)[4] لناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م) . وهو كتاب له أهمية فى تاريخ الفاطميين ؛ لأنه فضلا عن أن ناصر خسرو كان إسماعيليا يتنصر للمذهب الإسماعيلى ، فإن هـذا الوصف المسهب الذى كتبه عن زيارته لمصر (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها فى العصر الفاطمى[5] .

(١) نشره دى غوية فى ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤ — ١٨٣) ، ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، ويشمل الباب الحادى عشر من هذا الكتاب وعنوانه : فى ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحى المشرق والمغرب (ص ١٨٤ — ٢٦٦) .

(٢) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

(٣) نشره دى غويه (ليدن ١٩٠٦ م)

(٤) طبع المسيو شفير (Schefer) متنه بالفارسية وترجمته الفرنسية مع الحواشى والتعليقات

(٥) استفاد ستانلى لينبول Stanley Lane-Poole وأوليرى O'Leary من وصف ناصر خسرو لمصر فيما كتباه عن الدولة الفاطمية فى مصر .

وقد أمدنا ناصر خسرو حين زيارته لمصر فى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) فى عهد المستنصر، بوصف ضاف عن ثروة البلاط الفاطمى وأبهته، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء.

وكان ناصر خسرو وزيرا فى خراسان؛ ثم اعتزل الأعمال السياسية ومال إلى الدين؛ فحج بيت الله، وأصبح داعيا للإسماعيلية. وإنه ليقص علينا فى كتابه «سَفَرْ نامه». ما لاقاه فى رحلته إلى مكة، ثم إلى دمشق فبيت المقدس، وأخيرا إلى القاهرة التى وصل إليها فى السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٧ أغسطس سنة ١٠٤٧)، فأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١.

وبعد أن شاهد كثيراً من المدن العظيمة فى بلاد الفرس والعراق، رأى أن القاهرة قد فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامى فى العظمة والجلال. وكان مغاليا فى عقائد الإسماعيلية، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده، كما اعتقد أيضاً أن الفاطميين هم الأئمة حقاً؛ وقد عبر عن كل ذلك فى كتابه.

ثم اعتزل السياسة، فحج بيت الله، وعينه الخليفة المستنصر كبيراً لدعاة الإسماعيلية فى خراسان، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسى للمذهب الذى يدين بعقائده، كما اعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقا.

وإن فى وصف المقريزى الآتى لبعض المصورات الثمينة المتقنة الرسم، ليدل على ما كان يجده الفاطميون من لذة فى الجغرافية والتاريخ. وتتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من إبداع وإتقان إذا ما نظرنا إلى مقدار ما أنفق على صنعها من الدنانير. ويقول المقريزى فى ذلك إن المعز خلف لنا خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣ (٩٧٣ — ٩٧٤ م) من الحرير الأزرق التُّسْتَرى[1] والقُرْقوبى[2] المنسوج بالذهب، وكان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم، بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن. ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة. وكان مكتوباً فى أسفل هذا المصوَّر: «مما أمر

---

(١) نسبة إلى تستر، وهى معربة عن ششتر، أشهر مدن خوزستان (انظر Dozy, Supplément)

(٢) القرقب طائر يرى فى الغدر والمستنقعات (انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت). ومن هذا اللفظ قيل قماش قرقبى، وهو نوع من القماش كان يصنع أولا فى بلاد اليونان، ثم أدخلت صناعته إلى مصر، فصار يصنع غالباً فى دمياط وتنيس. وهذا القماش مشهور بألوانه اللامعة التى تتغير دائماً، لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس.

بعمله المعز لدين الله ، شوقا إلى حرم الله و إشهاراً لمعالم رسول الله ، فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » . وهذا المصور الذى كلف المعز اثنين وعشرين ألف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الأتراك سنة ٤٦٠ هـ .

وقد وصف لنا المقريزى[1] مصوراً آخر تركه الحاكم ؛ فقال : إن ذلك العمل الفنى الدقيق كان محلى بكيلتين من الجواهر والأحجار الكريمة ، وقد كلف الحاكم سبعمائة ألف دينار ، غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين ألفا فقط .

وكان هنالك بالقصر مصورات أخرى كثيرة كان حظها كحظ المصورات التى تكلمنا عنها . فإن المقريزى يستطرد فى الكلام فيذكر أنه قد وجد بالقصر نحو ألف ستر مزركشة بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم ، وموجز لحياه كل منهم[2] . وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان يناله الصناع الحاذقون من الفاطميين ؛ وهى تبين لنا أيضا كيف كان إلمام الفاطميين بممالك العالم المعروفة لهم فى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومن المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى (أو المقدسى على الأصح) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ؛ وهو كتاب قيم من الناحيتين الجغرافية والتاريخية . ومن هذه المصادر أيضاً كتاب « المُغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » لأبى عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٩٤ م) . وهذا الكتاب أحد أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب « المسالك والممالك » .

---

(١) خطط ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٥ .

انظر كتاب "صفة جزيرة العرب" الهمدانى (طبعة Heinrfch Müller, Leyden, 1884) (ج ١ ص ٦ — ٠٠) ، وخريطة العالم للادريسى (ChartaRogeriana Weltkarta und Kleine Idrisikarta, ، Geschrieben im Yahre 1192 n.Chr.-A.H.588, des Idrisi vom Yahr 1154 n. Chr. -A.H. 549) وهو عمل مفيد جداً طبعة مسيو Konrad Miller (Stüttgart, 1926-1927) . ومعه مجموعة من خرائط أخرى وسمها الإدريسى (+٦٤٩/١٢٥١) الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، وهو العصر الذى نشير إليه فى كلامنا الآن . وهذا العمل الدقيق الذى قام به الإدريسى يرينا مدى معرفة العرب بممالك العالم المختلفة ؛ ومنه يلذ لنا أن نعلم أن العرب كانوا لا يجهلون ألمانيا والسويد والنرويج ، ونحوها من الأصقاع المختلفة . ومن المحتمل أن تكون معلومات الإدريسى هذه نتيجة اتصال المسلمين بأوربا فى الحروب الصليبية . انظر أيضاً Mappae Arabicae, Arabische Welt und Länderkarten (Stüttgart, 1926) والمجلد الثانى (Stüttgard, 1927) . ولا شك فى أن جميع الممالك التى ذكرها الإدريسى كانت ممثلة على تلك الستور الحريرية التى كانت بقصر الفاطميين .

الباب الثاني عشر

الفن الفاطمى

١ – تخطيط المدن :

(ا) تأسيس مدينتي المهدية والمنصورية :

أقام عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التى أسسها عقبة ابن نافع ، واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها « المهدية » . وقد عزا البكرى[١] بناء هـذه المدينة إلى محاولة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ومن معهم من كتامة قتل المهدى والتنكيل بأهل القيروان .

خرج المهدى إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبنى فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج . وقيل إنه وجد فى بعض الكتب ما يدل على خروج أبى يزيد مخلد ابن كيداد على دولته[٢] . ووفق المهدى إلى موضع المهدية ، وهى متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند ، فتأملها ، فوجد فيها راهباً فى مغارة ، فقال له : بم يعرف هذا الموضع ؟ فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء . فأعجبه هذا الاسم ، فبناها وجعلها دار مملكته[٣] .

تقع المهدية على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان . وقد ذكر البكرى[٤] أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربى . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدى لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً ، ووزن كل مسمار من المسامير التى استعملت فى تركيبه ستة أرطال . ونقش على هذين البابين صور لبعض الحيوانات . وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات .

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣ .

(٣) أنظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩ .

ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأً هاما وسوقا نافقة للسلع التى كانت تحملها السفن من الإسكندرية ، ومن الشام وصقلية والأندلس وغيرها[1] . ومرسى المهدية « منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا ، على طرف المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد . فإذا أريد إدخال سفينة فيه ، أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة . ثم مدوها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم[2] .

وقد بنى المهدى بمدينة المهدية داراً للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب ، وفيها قبوان كبيران مستطيلان ، لئلا تتأثر آلات المراكب وعددها بأشعة الشمس أو ماء المطر[3] .

فرغ المهدى من بناء حاضرته الجديدة فى سنة ٣٠٥ هـ فقال : « اليوم أمنت على الفاطميات » ، يعنى بناته . ثم انتقل إليها فى شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وأقام بها ، ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقا خاصاً بها ، فنقلوا إليها أموالهم . وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة ، منها ربض زويلة ، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره ، وفيه الأسواق والحمامات ، وربض الحى ، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر ، وربض قَفصة[4] .

وقد أمر المهدى ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية ، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب وحراس ، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم وقال : « إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذلك أن أموالهم عندى ، وأهاليهم هناك . فإن أرادونى بكيد وهم بزويلة ، كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى

---

(١) المصدر نفسه

ذكر البكرى (ص ٨٤ — ٨٦) أن السفن التى كانت تخرج من المهدية كانت تمر فى طريقها إلى الإسكندرية بكثير من الموانئ كمدينة قابس ، ومرسى الأندلسيين ، ومرسى مدينة أطرابلس ، ولبدة ، وسرت ، وأجدابية ، وسوسة ، وبرقة ، وتينى ، وطبرق ، والزيتونة ، والسلوم ، والأندلسيين ، ثم تصل إلى الإسكندرية .

(٢) البكرى ص ٣٠

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣١ .

وبينهم سوراً وأبواباً . فأنا آمن منهم ليلا ونهاراً ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا ، وبينهم وبين حرمهم نهارا[1] » .

ويظهر أن المهدى حذا فى ذلك العمل حذو أبى جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته جنوباً إلى الكرخ .

وقد ظلت المهدية عامرة آهلة بالسكان حتى أرسل إليها رودجر صاحب صقلية أحد قواده سنة ٥٤٣ هـ ، فاضطر واليها الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس إلى الهرب . وبقيت هذه المدينة فى أيدى الفرنجة حتى قدم عبد المؤمن إلى إفريقية سنة ٥٥٥ هـ فاستولى عليها .

وقد بقيت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة الفاطمى القائم ، وولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبى يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ ، فسميت المنصورية نسبة إليه .

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب : الباب القبلى ، والباب الشرقى ، وباب زَوِيلة ، وباب كُتامة ، وباب الفتوح . وكان جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير . وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات ، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وأصبحت على جانب عظيم من التقدم ، وغدت حاضرة الفاطميين إلى أن قدم الخليفة المعز بن المنصور مصر فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، فأصبحت مدينة القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية[2] .

(ب) تأسيس مدينة القاهرة :

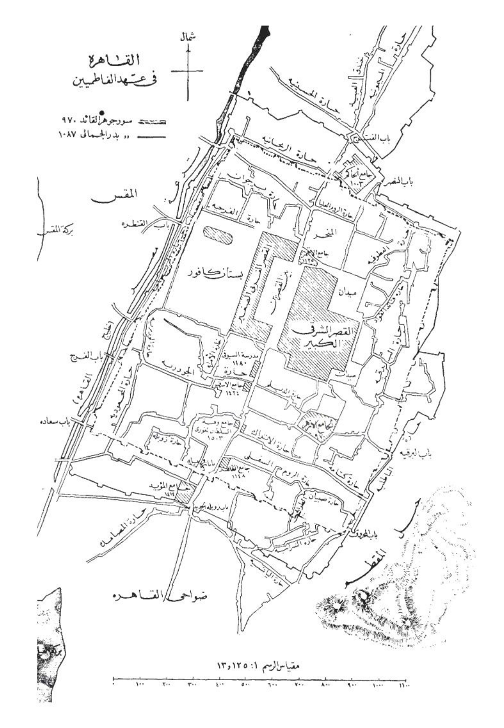
كان من أهم ما يرمى إليه ولاة المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية التى فتحوها ، أن يؤسسوا قاعدة لملكهم تسع جندهم ، وتأوى أنصارهم ، وتضم بين جوانبها

---

(١) انظر البكرى : المغرب ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ — ٣٢ ، ٨٤ .
انظر لفظ المهدية فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) البكرى ص ٢٥ . انظر لفظ المنصورية فى معجم البلدان لياقوت .





القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
،، بدر الجمالي ١٠٨٧
المقس
بركة المقس
باب القنطرة
حارة الحسينية
حارة الريحانية
باب الفتوح
جامع الحاكم ١٠٠٣
باب النصر
حارة الروم العليا
المنحر
بستان كافور
ميدان
القصر الشرقي الكبير
مدرسة السيوفية ١١٨٠
الجودرية
باب الفرج
باب سعادة
حارة زويلة
حارة الإتراك
باب البرقية
حارة الروم
السفلى
جامع المؤيد ١٤١٩
باب زويلة
باب المحروق
ضواحي القاهرة
المقطم
مقياس الرسم ١ : ١٣،١٢٥
٠
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠
٤٠٠
٥٠٠
٦٠٠
٧٠٠
٨٠٠
٩٠٠
١٠٠٠
١١٠٠

دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذى أسس مدينة الفسطاط . وجاء بعده صالح بن على العباسى ، فأسس هو وأبو عَون مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر ، فوضع أساس القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، بعد أن استولى على مدينة مصر[1] ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز .

ويكاد يشبه موقف جوهر فى عدوله عن اتخاذ الفسطاط أو العسكر حاضرة لمصر ، وتفكيره فى تأسيس حاضرة جديدة تفى بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف أبى جعفر المنصور عندما فكر فى بناء بغداد . فقد كانت أمامه حواضر إسلامية عدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة لخلافته . ولكنه نظر إلى المدينة المنورة ، فوجدها لا تصلح لأن تكون حاضرة الخلافة : فقد اتسعت رقعة الدولة العباسية فى أيامه ، ولم تكن المدينة بحيث تتوسط هذه البلاد . كذلك وجد دمشق حافلة بآثار الأمويين وذكرياتهم ، ولا تستطيع أن تقف فى وجه البيزنطيين الذين كانوا يهددون بلاد الدولة العربية . كما وجد الكوفة تتبع علياً وأولاده . أما الهاشمية ، فكانت قريبة من الكوفة . وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، وخاصة بعد واقعة الراوندية . لهذا فكر المنصور فى الاتجاه إلى الشرق ، حيث كان أنصاره من الفرس الذين قامت الدولة العباسية على أكتافهم ، فأسس مدينة بغداد لتكون حاضرة لدولته .

كذلك فعل كل من قسطنطين والإسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن رومة لا تصلح لأن تكون حاضرة لدولته ، لقربها من بلاد اليونان موطن الديمقراطية ؛ فحول وجهته نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردى القديم . ورأى موقع بيزنطة يفى بأغراضه ، فاتخذها حاضرة له ، وظلت هذه المدينة حاضرة للدولة الرومانية الشرقية إلى أن فتحها العثمانيون على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م .

أما الإسكندر فقد اختار موقع قرية « راقودة » لتأسيس مدينة الإسكندرية واتخاذها حاضرة لدولته فى مصر ، لقربها من بلاد اليونان ووقوعها على البحر الأبيض المتوسط ،

---

(١) كانت تطلق على الفسطاط والعسكر والقطائع .

ولأن اليونان بلاد بحرية . ومن ثم كان من الضرورى أن تتخذ حواضرها على البحر لتمدها بما تحتاج إليه من الأقوات وترسل إليها النجدات .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولتهم على أنقاض دولة أخرى ، أن يتخذوا حاضرة جديدة تفى بحاجات دولتهم الناشئه .

وضع جوهر أساس القاهرة عاصمة الفاطميين الجديدة ، والتى لا تزال إلى اليوم ، فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ . ولما فرغ من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها المنصورية نسبة إلى المنصور أبى المعز ؛ وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز مصر فسماها القاهرة المعزية . وتقع هذه المدينة شمالى الفسطاط ، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وحدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحالية .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كلها المنصورية نسبة إلى المنصور أبى المعز ، وظلت هـذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر ، فسماها القاهرة المعزية .

وقد اختلف المؤرخون فى تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق إنها سميت كذلك ، لأن أساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له « القاهر » . ويقول المقريزى إن القائد جوهر لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهرة مصر ، ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً ، فاختاروا طالعا لوضع الأساس ، وطالعا لوضع السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة ، و بنوا فصاح المنجمون : « القاهر فى الطالع » ، فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . و يقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة .

ونحن لا نستبعد ذلك ، ولا سيما أن المعز ، على ما ذكره ابن القلانسى ، كان مغرما بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة ، وفى أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هـذه الحـكاية تكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التى يخلقها الناس ويتحدثون بها عن تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقريزى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية فى عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة ، لأنها تقهر من شذّ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذا من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر : « ولتدخلنّ فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

وتقع القاهرة المعزية شمالى الفسطاط ؛ وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحالية .

أما الجهة الغربية فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين . وتحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة ، وشرقا بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق[1] .

ويقال إن المعز لما قدمها فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ ، ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها وقال : « يا جوهر ! فاتتك عمارتها ههنا[2] » ، يريد المقس[3] .

وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقريزى بقاياه سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) ؛ وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » ، وكان يسع عشرة آلاف من الجند ، ولا زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين وإلى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلى ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد ، بعد أن بنى العزيز

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٧٣ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ .
(٣) وكانت تقع على النيل عند جامع أولاد عنان الآن .

بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة الفناء التى أنشأها كافور ، واستحوذ عليها الخلفاء الفاطميون فيما بعد .

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح ، وكان يوصل إلى الفضاء الواقع فى الشمال . وإلى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمادى سنة ٣٥٩) بعد أن وضع أساس العاصمة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . وإلى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة الفسطاط التى ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين حتى نهاية عهد الفاطميين . وإلى الغرب تقع المقس ، وكانت تمتد إلى النيل ؛ وظلت ميناء القاهرة إلى أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، فمهد ذلك السبيل لتأسيس بولاق .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هى بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب المدينة التى أسسها جوهر (القاهرة) كان يبلغ ألفا ومائتى متر . ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع) ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فدانا . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين ، وخمسة وثلاثين للمكان المخصص لاستعراض الجند ، والباقى وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذى أقامه أمير الجيوش بدر الجمالى فى مساحة المدينة ستين فدانا . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ؛ وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم ، وهى باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر [1] .

٢ — المنشئات المعمارية المدنية

(ا) القصور والفنادق والحمامات :

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط فى سنة ٣٥٨ هـ ، عسكر فى السهل

(1) Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 21

راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا ج ١ ص ٤ — ٢٢

الرملى الذى يقع إلى شمالها ، ويحده من الشرق تلال المقطم ، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين . وقد بنى فى هذا المكان القصر الشرقى الذى أعده لاستقبال مولاه الخليفة المعز ، واتخذ حول هذا القصر دورا للجند والموظفين والأتباع . وموضع هذا القصر هو المكان الذى يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليلى الآن . وقد بنى العزيز كثيراً من المنشآت التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده ؛ فبنى « القصر الغربى » الذى يقع غربى القصر الشرقى . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من قصر المعز ؛ لذلك أطلق عليه « القصر الغربى الصغير » تمييزا له عن « القصر الشرقى الكبير » . وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريبا . وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند ، أطلق عليه « بين القصرين » .

وقد ذكر ابن دقاق أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير : وهى باب الذهب ، وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد . وبجواره دار الضيافة ، وتسمى بدار سعيد السعداء ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقى من القصر ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة ، أعنى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر[1] .

وقد زار ناصر خسرو القصر الخلافى ، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهوا وعشرة أبواب . وكان موضعه وسط القاهرة التى كان بها عشر حارات . وكان حراسه ألفاً ، منهم خمسمائة فارس ، وخمسمائة راجل . وإذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق ، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس[2] . كما تعرض المقريزى لوصف هذا القصر ، فذكر أنه كان به عشرة آلاف من الأشراف ، وثمانية آلاف من الخدم . كما ذكر ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أنه

---

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٢٨ .

كان بالقصر الخلافى حين استولى عليه صلاح الدين عند سقوط الدولة الفاطمية اثنا عشر ألفا كلهم من الإناث عدا الخليفة وأولاده . كما ذكر هذا المؤلف أن هذا القصر قد جدده الخليفة الآمر فى سنة ٥٢٢ هـ ، وكان يجلس فى أعلاه ، ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة عملت لذلك ، وألويتهم بين أيديهم ، والشموع تضىء لهم . وكان تقام لهم الموائد ، وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة(١) .

وكان الخلفاء فوق ذلك يبنون المناظر ، فبنوا بالمقس ثلاثا منها ، إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، والثالثة يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة . وكان الخليفة فى إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم الغدير ، ويقف الوزير فى قوس باب الذهب(٢) .

وقد أنشأ الفاطميون كثيرا من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات ، وكانت كلها ملكا خاصاً للخليفة . وكانت الدكاكين فى القاهرة كذلك ملكا خاصاً له ، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة(٣) .

(ب) دور العلم :

كانت سياسة الفاطميين الدينية تقوم على نشر عقائد الإسماعيلية مما ساعد على قيام مجالس لدراسة المذهب الشيعى فى مصر ولا سيما فى عهد الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب ابن كلس . فكانت حلقات الدرس تعقد بالجامع الأزهر ، كما كانت دار الوزير يعقوب ابن كلس مجلساً يحضره الفقهاء . وكذلك كان شأن جامع عمرو بمدينة الفسطاط ، وكانت مركز الحركة التجارية والعلمية فى ذلك العصر . كما أنشأ الخليفة الحاكم دار العلم فى القاهرة . ولم تقتصر مجالس العلم أو حلقات الدرس على القاهرة وحدها ، وإنما ظفرت بها مدن أخرى مثل الإسكندرية ، فأقيمت بها فى نهاية العصر الفاطمى حلقات أخرى للدرس ، اهتم بها

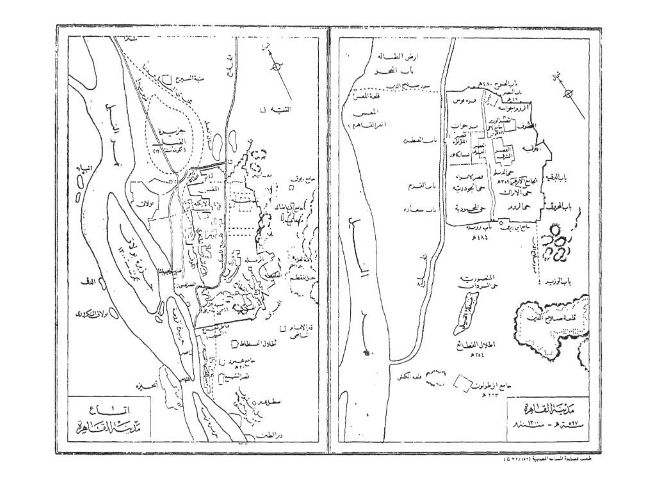
---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٨٤ وما يليها .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٤ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٣٢ .





طبع بمصلحة المساحة المصرية

الوزير رضوان بن الولخشى فى سنة ٥٣٢ هـ ، والعادل سيف الدين على بن السّلار قبل سنة ٥٤٨ هـ . وكانت حلقات الدرس هذه تركز اهتمامها على نشر المذهب الشيعى بين الناس . وظلت الحال كذلك حتى جاء صلاح الدين الأيوبى ، فأكثر من إنشاء المدارس السنية ليقضى على الخلافة الفاطمية وعلى المذهب الشيعى[1] .

أما كلمة مدرسة بالمعنى الاصطلاحى فقد ظهرت أول ما ظهرت فى نيسابور ، ثم فى عدة مدن أخرى إلى أن جاء نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى فأسس مدرسته المعروفة باسمه فى بغداد فى سنة ٤٥٧ هـ ، وخصصها للمذهب الشافعى . ثم اقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر ، وفى بلاد الجزيرة وديار بكر .

ولما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، أبطل المذهب الشيعى من مصر ، وأقام المذهب الشافعى والمذهب المالكى ، مقتديا فى ذلك بالملك نور الدين محمود بن زنكى ، الذى بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية فى دمشق وحلب وغيرها[2] .

٣ — المنشآت الحربية : أسوار القاهرة ومناظرها

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللّبِن ، ضم الخطط التى تكونت فيها القاهرة المعزية . وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان يعرف الجزء الواقع بخارجها بظاهر القاهرة ؛ وهو خطط وأحياء جديدة ، تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهى المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية[3] . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً . وفى سنة ٤٨٦ هـ ، فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى ، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٣ .
(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

ولما اختط جوهر مدينة القاهرة ، جعل لها أربعة أبواب : هى بابا زويلة ، وباب النصر وباب الفتوح . ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام . ولهذا سمى « باب القوس » . وقد مر منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه . ويقول القلقشندى[1] إن جوهرا سمى بابى زويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر سنة ٤٦٥ ﻫ ، بنى باب زويلة الكبير ، ونقل باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى به الآن ، كما بنى باب الفتوح فى مكان آخر غير الذى بنى فيه جوهر بابه . وإن هذه الأبواب الثلاثة من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرُّها .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المناظر التى كانت تستخدم أماكن للنزهة ، كانت فى الواقع تستخدم فى أغراض عسكرية ، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو على تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً ، وبدليل خروج الخلفاء إليها فى حالة توديع الجيوش قبل مسيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميدان القتال . ويدعونا هذا الزعم إلى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة عسكرية أحس أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالحاجة إليها حين أشرف على إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها . وسنرى ذلك فى شىء من الإسهاب عند كلامنا على الحالة الاجتماعية .

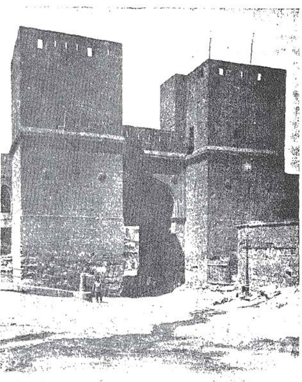
٤ — المنشئات الدينية : المساجد

(ا) الجامع الأزهر :

ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ ﻫ ، وأسس مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر (أى الفسطاط والعسكر) ، لم يرَ أن يفاجئ السنيين فى مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمى ، حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع أساس الجامع

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٨١ .



باب النصر . بنى سنة ٤٨٠ هـ

باب الفتوح . بنى سنة ٤٨٠ هـ



الأزهر فى يوم السبت ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه فى سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة لأول مرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ [١] .

و يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون فى صفوف متوازية . وفى سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدتهما مائة وستة وعشرون عموداً . و إذا أضيف إلى هـذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التى بناها جوهر القائد ، وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفى كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء . وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص ، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفى الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمة » ؛ ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها جميعاً سوى ستة أشهرها اثنان : أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولـكل منهما إمام يخالف صاحبه فى المذهب الفقهى .

وللجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلى الذى أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها فى أوقات الصلوات الخمس ، وفى ليالى رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ، ومهنته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ .

الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع فى الأذان أصوات المؤذنين فى الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون . ففى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية ، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية . وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأ كل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

وقد زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف ، وأهدوا إليه الهبات الجليلة ، فاستغنى بذلك .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء ، عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

وفى الوقت نفسه نقل إلى جامعى راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا ، فخص الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان فى محرابه منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب المسجد العتيق ، فاقتلعهما صلاح الدين وغيرهما من المناطق فى كافة المساجد ، وذلك فى ١١ ربيع الأول سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، أى بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[1] .

ولقد تعاقبت الزيادات على البناء الأصلى ، وزيد فى العين الموقوفة عليه عاما بعد عام ؛ وتحول الأزهر من مسجد إلى مركز عظيم للعلم ، وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع ، وبلغ عدد أعمدته ثلاثمائة وخمسة وسبعين .

وقد زاد فى بناء هـذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وكان العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر إلى جامعة ، وأول من ابتنى بجواره داراً لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون كما تقدم ؛ فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر . وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق ، وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات .

وفى سنة ٥١٩ ﻫ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الآمر فى الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفراً . وفى عهد الأيوبيين حل بهذا الجامع الدمار ، لما قام به هؤلاء السنيون الغلاة من إزالة آثار الفاطميين الشيعيين ؛ فأبطل صلاح الدين الخطبة فى الأزهر ، كما انتزع كثيرا من الأوقاف التى وقفها عليه الحاكم الفاطمى . وظلت صلاة الجمعة معطلة فى هذا الجامع نحواً من قرن ، إلى أن أمر الملك الظاهر بيبرس بإقامة الخطبة من جديد ؛ وقدم إليه الهبات واتخذه معهداً للعلم ، وذلك سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٦ م) .

ولقد سار بعض الأمراء على مثال الظاهر . ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجداً وداراً للعلم كما كان أيام الفاطميين ، فأزهر وأينع . وفى سنة ٧٠٢ ﻫ (١٣٠٢ م) أضر به الزلزال الذى كان بمصر فى ذلك العهد ، فسقط الجامع ؛ فتولى الأمير سلار عمارته ، وجدد ما تصدَّع من بنيانه ؛ ومن ثم بنيت حوله المدارس التى ألحقت به فيما بعد ، ولا تزال تابعة له إلى اليوم[1] .

(ب) جامع القرافة :

فى سنة ٣٦٦ ﻫ (٩٧٦ — ٩٧٧ م) أنفقت تَغْريد زوجة المعز أموالا جمة على تشييد مسجد لها بالقرافة . وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ؛ وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة غناء وصهريج . واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ؛ وفى جوانبه أروقة كالأزهر ؛ بيد أن نقوشه كانت فى غاية الإبداع . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحاً بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر باباً

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٧٦

مربعة ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام فى ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مُسكَنْدَجَة[١] مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلا طبيعيا ؛ وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا[٢] .

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبد العزيز المحتسب الذى رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة فى سنة ٣٦٦ . وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام وبئر ؛ وكان — كما يقول المقريزى[٣] — قصراً لحما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .

وفى الخطط للمقريزى[٤] أن اثنين من الفنانين كان ينافس أحدهما الآخر : هما القَصير وابن عزيز العراق ، وكان يتمتعان بمحاباة الوزير وتعضيده . وكان من أمرهما أن صوّر أحدهما راقصة فى ثياب بيض فى قوس ملون بالسواد ، يحسبها الناظر داخلة فيه ؛ وصوّر الآخر فتاة أخرى بثياب حمر فى قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وقد نالا بذلك إعجاب الوزير ، فخلع عليهما ووهبهما ذهباً كثيرا . ويزيدنا المقريزى أنه كان فى إحدى دور القرافة صورة لـكُتَامى أحد نقاشى جامع القرافة ، تمثل يوسف عليه السلام يتهيأ للراحة وهو فى الجب .

(ج) جامع المقس[٥] :

بنى هذا الجامع الخليفة الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس ، وكانت ميناء مصر فى ذلك الحين . وقد بينا أن الأوقاف التى وقفها الحاكم شملت جامع الحاكم والجامع الأزهر ودار العلم وجامع المقس . وذكر المقريزى أن الكتاب الذى تضمن وقفية الحاكم نص على

(١) هو لفظ معرب عن كَنْدَه ومعناها مجوف .

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٨٦ .

(٤) ج ٢ ص ٣١٨ .

(٥) المقس أو المكس أو المكسم (لفظ يحتمل أن يكون مشتقاً من رجل رومانى اسمه مكسيموس (Maximus) هو ميناء القاهرة على النيل .

أن يصرف جميع ما يتبقى مما تصدق به الخليفة على هذه الأماكن فيما يتطلبه جامع المقس ؛ هذا عدا ما وقفه الخلفاء الفاطميون عليه من النخل الكثير[١] .

(د) جامع راشدة :

اشتق اسم هذا الجامع من اسم الخطة التى بنى فيها ، وهى خطة راشدة . وقد روى لنا ابن دقماق والمقريزى أنه بدئ ببناء هذا الجامع فى ١٧ ربيع الثانى سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ — ١٠٠٣ م) . وكان فى المكان الذى بنى فيه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى . وفى رمضان سنة ٣٩٥ هـ تم بناؤه وفرش وعلقت فيه القناديل وأصبح معدا للصلاة[٢] .

وفى رمضان سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) صلى الحاكم الجمعة وأقام الخطبة فى جامع راشدة . وفى سنة ٤٠٠ هـ علق فيه تنور من الفضة وقناديل من الفضة الثقيلة الوزن . وفى رمضان سنة ٤٠٣ هـ صلى الحاكم الجمعة فى هذا الجامع ، وعليه عمامة خالية من الجواهر ، وكان يحمل سيفاً محلى بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة ومشى الناس فى ركابه ؛ فكان يتناول بيده شكاياتهم ويقف لبحثها واستقصاء أسبابها[٣] .

(هـ) جامع الحاكم :

بنى هذا الجامع خارج باب الفتوح الأول الذى أنشأه جوهر ، فلما أنشأ بدر الجمالى الأبواب الجديدة ، والسور الجديد صار المسجد بداخل القاهرة ، وقد أسسه الخليفة العزيز فى شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ ، وصلى فيه صلاة الجمعة سنة ٣٨١ هـ ، ثم توفى العزيز دون أن يتم هذا الجامع ، فأمر ابنه وخليفته الحاكم بإتمامه ، وبدأ العمل فيه فى شهر صفر سنة ٤٠١ هـ ، وأنفق على إتمامه أربعين ألف دينار وأمر بعمل تقدير ما يحتاج إليه هذا الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل ، فبلغت النفقة خمسة آلاف دينار . وفى سنة ٤٠٤ هـ وقف الحاكم على هذا المسجد عدة أوقاف للإنفاق عليه . ولما تم بناء الجامع الجديد علق

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٣

(٢) ابن دقماق ج ٤ ص ٧٨ ، ٧٩ . المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٢

على أبوابه ستوراً ديبقية ، وعلق فيه أربعة تنانير من الفضة ، وفرشه بالحصر ، ونصب فيه منبرا . ثم زاد الخليفة المستنصر فى هذا المسجد ، كما زاد فيه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وظل هذا الجامع حتى حدث زلزال سنة ٧٠٣ هـ ، فسقطت مآذنه وتهدمت سقوفه وجدرانه[١] .

(و) الجامع الأقمر :

وقد بناه الخليفة الآمر أمام قصره سنة ٥١٩ هـ ، ووقف عليه الأوقاف ، ورتب له المؤذنين والخطباء . وقد جدده الأمير يلبغا بن عبد الله السالمى أحد مماليك الظاهر بيبرس فى سنة ٧٩٩ هـ (١٣٦٦ — ١٣٦٧ م) . ولعل أبدع ما فى هـذا المسجد واجهته الغربية الفنية بأنواع الزخرفة ، كما أن بها حنايا تنتهى بطاقيات وعقود ومقرنصات . وقد بنيت العقود على الطراز الفارسى تقوم على عمد من الرخام . والسقف مغطى بقبوات صغيرة[٢] .

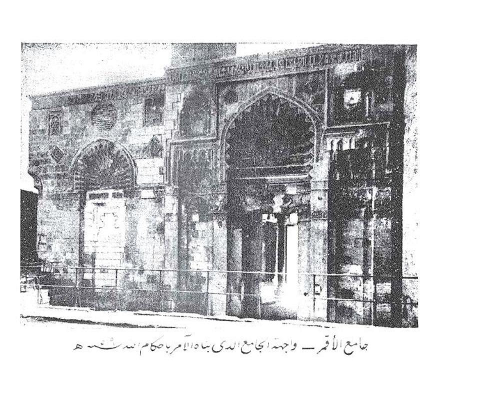
(ز) جامع الصالح :

ومن مساجد الفاطميين جامع الصالح الذى بناه الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك ، وقد أراد أن يتخذه مدفنا لنفسه ، وبنى فيه صهريجا عظيما تملؤه ساقية أقامه على خليج القاهرة الذى يطلق عليه خليج أمير المؤمنين . وقد تهدم هذا الجامع فى زلزال سنة ٧٠٢ هـ . إلا أن الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمره وأصلح ما تهدم منه . ولهذا الجامع أربع وجهات مشيدة بالحجر . وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق . ويقع باب المسجد الرئيسى بواجهته الغربية . وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ، ويحمل عقودا حافاتها محلاة بالزخارف . ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار[٣] .

٥ — كنوز الفاطميين

كان من المنتظر أن نعرض هنا للكلام على الفنون الفرعية بعد أن تكلمنا على الفنون

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٠ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٤ .
(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٣ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٥ .



جامع الأقمر — واجهة الجامع الذى بناه الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ



المعاربة ، ولكنا آثرنا أن نتناول هذا الموضوع من جهة النظر التاريخية ، فأحلنا موضوع الكلام على الفنون الفرعية إلى الفصل الذى عقدناه عن تطور الصناعة فى العصر الفاطمى ، باعتبار هذا الموضوع من الصناعات كما ينظر إليه المؤرخ ، لا كما ينظر رجل الفن . وسوف أتكلم هنا عما حكاه المؤرخون عن النفائس والتحف والألطاف التى حوتها كنوز الفاطميين ، وعما بهرهم منها ، وعما تناولوا أخباره فى كتب التاريخ والأدب معا .

استقر المعز منذ وصوله إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) هو وأسرته وحشمه وأتباعه وغلمانه وعبيده فى القصر الذى ابتناه وأثثه له جوهر القائد ؛ وفى إحدى غرف القصر اتخذ المعز عرشه الذى نقل المقريزى[١] لنا وصفه من كتاب « الذخائر والتحف » . فقد ذكر أنه كان به من الذهب ما يزن ١١٠٠٠٠ مثقال ، كما كان ما رصع به الستر ١٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفة الألوان ؛ وكان هـذا الستر — وهو من عمل الوزير اليازورى — موضوعا قُبالة العرش ، وقد حُلِّى بما زنته ٣٠٠٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

وقد نقل كل ذلك إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضع أمام الإيوان قطعة من المسجد على هيئة دَرَقة[٢] مرصعة بالأحجار الكريمة ؛ فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويعيى ماحوالبها[٣] .

ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة[٤] التى أمر المعز

---

(١) خطط ج ١ ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٢) معربة عن لفظ فارسى هو " دريجة " ، وهى درع بيضاوى الشكل غالباً ، وفيه نتوءات فى وسطه ، وله مقبض فى ظاهره ؛ ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحياناً من جلد التمساح (انظر (Lane's Arabic-English Lexicon) .

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٥ . أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧

(٤) اللفظ الذى استعمله المقريزى هنا هو " شمسية " ؛ ويريد به طبعاً الستور التى كانت تكسى بها الكعبة . وقد تناول كترمير (Quatremère) الكلام على اشتقاق هذا اللفظ فى المجلد الثانى من تاريخ المماليك فى مصر الذى عربه عن المقريزى (ويعرف باسم كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك) . وتبعاً لما ذكر كترمير ، نجد هذا اللفظ (شمسية) مستعملا فيما يأتى :

١ — نافذة مربعة فى أعلى الحوائط ، تترك مفتوحة عادة ؛ أو تزين بالزجاج حسبما يشاء المرء من =

بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضاً كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففي يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإيوان الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية .

وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ؛ وكان في حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، في كل هلال إترجة ذهبية ؛ وفي داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش في حافاتها الآيات التي وردت في الحج[1] بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ؛ وكانت موضوعة في القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه[2] .

وقد أمدنا ابن ميسر ببيان موجز عن كنوز المستنصر استمده من مجلد ضخم يقع في نحو العشرين كراسة ؛ وقد اطلع عليه بنفسه . وكان يشتمل على بيان بما في تلك الكنوز من طُرَف وأثاث وملابس وذهب وغيره ، مما نقل من القصر في غضون ثورة الأتراك وبعدها .

ويقول ابن ميسر أيضاً ، إن من هذه النفائس ما أرسله البساسيري إلى مصر

= مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة ، طبع وترجمة ديفريميري وسانجيني D.C. Defémery et B.R. Sanguenetti ، (باريس سنة ١٩١٤ ج ١ ص ١٩٩) . وفي هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق ، إن به أربعة وسبعين من شمسيات الزجاج ؛ وجاء ذكر شمسيات الزجاج في عبارة المقرى عن جامع قرطبة في كتابه " نفح الطيب " (ج ١ ص ٢٩٣) . وعند كلام المقرى على المسجد الجامع بمراكش ورد في نفس هذا الجزء (ص ٢٦٧) ما يأتي : "وفي أعلاه ثلاث شمسيات تسمى رمانات" وفي كتاب هست المسمى " مراكش وفزان " ص ٢٦٥ (Host : Morscco and Fez) جاء لفظ شمسة ، ويراد بها النافذة .

٢ – مظلة : فقد جاء في تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ؛ وهنا أقول إن كترمير استعمل في هذا الموضوع لفظ parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات . لكني أفضل استعمال لفظ (umbrella) الدال على المظلات التي يستعملها الرجال ، لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

٣ – الكسوة أو الستور ، فقد جاء ذلك في المقريزي في خططه (نقلا عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص ٤٤ ، وعن الأول أخذ كترمير) . فإنا نجد في المقريزي " أن المعز أمر بنصب الشمسية (يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التي معناها الستر) التي عملها للكعبة على إيوان القصر .

انظر ترجمة كترمير لكتاب "السلوك في معرفة دول الملوك" (Histoire des Sultans Mamlouks) المقريزي ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ٢٨٠ – ٢٨١

(١) القرآن الكريم سورة آل عمران ٣ آية ٩٥ ، وسورة براءة ٩ آية ٣

(٢) ابن ميسر ص ٤٤

سنة ٤٥٠ هـ[(١)] ، حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر على منابر بغداد ؛ وقد استولى عليها الأتراك أيضاً سنة ٤٦٠ هـ . وكان مما بعث به البساسيرى ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخُسْرُوانى[(٢)] ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب[(٣)] .

يضاف لهذا كله مقادير كبيرة من الصِّحاف وقطع البلور[(٤)] ، وأوانى الذهب والصوانى المحلاة بالذهب ، وأصص الزهر المنقوش عليها اسم هرون الرشيد ، وثمان وعشرون صينية أخرى محلاة بالذهب أيضاً ، قُوِّم كل منها بثلاثة آلاف دينار ، كانت مهداة من إمبراطور الروم إلى الخليفة العزيز ، وأطباق أخرى مزينة بالذهب ، وكثير من الصناديق الملأى بالمحابر المختلفة الأنواع والأحجام ، المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس وغير ذلك ، مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة[(٥)] ؛ وصناديق عدة من السكاكين ومفضضة ، بمقابض مختلفة الأنواع ، كلها مرصعة بالأحجار الكريمة أيضاً[(٦)] .

يضاف إلى هذا أيضاً نسيج بديع مطرز بالذهب ، وكافة أنواع الأوانى الخزفية ، وعدد

(١) يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٣٩) إن هذه الذخائر أرسلت إلى القاهرة سنة ٤٤٧ ، وفيها بدأت العلاقات العدائية بين البساسيرى والخليفة العباسى القائم ، وانتهت باستيلاء البساسيرى على بغداد سنة ٤٥٠ ، فأصبح فى مركز يسمح له أن يستولى على ما فى قصر الخليفة من الذخائر . غير أن سلطة البساسيرى لم تستقر فى بغداد قبل سنة ٤٥٠ . وعليه فإن عبارة ابن ميسر (ص ٢٠) أقرب إلى التصديق .

(٢) الخسرُوانى أو الخسرَوانى نوع من القماش ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (انظر Lane's Arabic-English Lexicon)

(٣) يقول المقريزى : وكان من بين ممتلكات قصر الخليفة القائم التى أرسلها البساسيرى إلى مصر ، ثوبه الخاص وعمامته التى لفها بيده (وكانت محفوظة فى صندوق من المرمر) ، وشباك فخم يصفه المقريزى بأنه كان كشرفة يجلس فيها الخليفة ويعتمد بيديه على حافته ، وكان مصنوعاً من الخشب المتقاطع (انظر Lane's Arabic-Englisn Lexicon) . ويقول المقريزى أيضاً إن هذا الشباك نقل إلى دار الوزارة واستعمله الأفضل ، وبقى فى الدار بعد وفاته إلى أن نقل أخيراً إلى دار الأمير بيبرس . أما عمامة الخليفة العباسى وثوبه الخاص ، فقد أعادهما صلاح الدين إلى بغداد سنة ٥٦٧ هـ

(٤) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن أبا سعيد النهروانى أحد أمناء البيع اشترى فى أيام قليلة ثمانية عشر ألف قطعة من البلور ، قيمة بعضها ألف دينار .

(٥) ذكر المقريزى أيضاً (ج ١ ص ٤١٤) أن بعض هذه المحابر قومت الواحدة منها بألف دينار ، عدا الأحجار الكريمة التى كانت مرصعة بها .

(٦) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن هذه السكاكين بيعت بأبخس الأثمان ، وبلغ ثمنها كلها ستة وثلاثين ألف دينار .

كبير من الشِّطْرَنج رقعته من الحرير ، وقطعه من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وأربعمائة صندوق ملأى بالقطع الذهبية (حولت فيما بعد إلى نقود تقاسمها الثوار) ، وعمامة زنة ما فيها من الحلى سبعة عشر رطلا ، وثمان وثلاثون زورقا تابعة للدولة ، أحدها من الفضة[1] .

واشتملت الذخائر — زيادة على ما تقدم — على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ؛ ويقال إن بوران[2] بنت الوزير الحسن بن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة العباسى المأمون ، وعدد كبير من المرائى المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة ، والمحلى بعضها بالأحجار الكريمة أيضاً ، وستة آلاف إناء للنرجس ؛ واثنين وعشرين ألف تمثال من العنبر ، وثمان مئة تمثال من الكافور على هيئة البطيخة ؛ وكان أحدها محفوظاً فى شبكة من الذهب ، وهو مرصع بالأحجار الكريمة ، وزنته ثلاثة آلاف مثقال ، وآخر كان يزن ستة عشر ألف مثقال ؛ ونخلة من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة ، وكان ثمرها كذلك أيضاً ، ومع هذا يخالها الناظر طبيعية .

ومما بيع فى هذه الأثناء طاوس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة ، وعيناه ياقوتتان وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق[3] .

وليس هذا كل ما تركه المستنصر من الكنوز . فإذا استثنينا الأحجار الكريمة والطُّرَف والعطور والأسلحة ، وجدنا عددا عظيما من الكنوز التى لا تُقَوَّم بمال فى خزائن أخرى مثل خزائن الأثاث والفرش .

ويظهر أن خزائن القصر قد احتوت مرة أخرى على ثروة ضخمة من الكنوز بعد سنى المجاعة والوباء التى انتهب القصر فى غضونها ، حتى رؤى الخليفة المستنصر نفسه فى إحدى حجراته جالساً على حصير بالية لابساً قبقابا . وربما لم تكن تلك الثروة أقل

---

(١) المقريزى خطط ص ٤١٤ و ٤١٥ .

(٢) وصف لنا الطبرى (٢ : ١٠٨٤) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٦) والمقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٥) هذه القطعة الدقيقة من الفن .

(٣) خطط ج ١ ص ٤١٦

مما كانت عليه سنة ٤٦٠ هـ كية وقيمة . ويظهر أنه رد إلى القصر بعض ما كان قد انتهب منه ، بعد أن أسندت الوزارة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦ (١٠٧٣ م) الذى صارت له السلطة المطلقة ، فشتت جميع العناصر المناوئة الثائرة وصادر ممتلكاتهم .

وقد وجد فى دار الأفضل (دار الملك) ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار من الذهب ، وسبعمائة طبق ما بين فضة وذهب ، وما لا يحصى من الأدوات كالدِّلاء والصِّحاف وأكواب الشراب ، والأباريق والقدور والأوانى المستعملة فى اللبن (الزبادى) ، وغير ذلك من القطع المختلفة من الذهب والفضة . وكان هناك غير ذلك شىء كثير من البَرَانى[1] الصينى الكبيرة المملوءة بالجوهر ، الذى كان بعضه منظوما على هيئة عقود ، وسائره منثوراً .

وقد فاقت دولة العزيز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥—٩٩٦ م) ، الذى بنى مسجد القرافة وقصرها فى عهده ، دولة أبيه فى اتساع الرقعة : إذ دعى له على منابر الجوامع من بلاد العرب إلى المحيط الأطلسى . وكان العزيز خبيراً بالجواهر ؛ وقد ابتدع نوعا جديداً من العمائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا كذلك معطرة بالعنبر ؛ كما كانت أسلحته مُكفّتة بالذهب أيضاً ، واقتنى كثيراً من الطُّرَف يزين بها موائده . وشغِف كخمارويه بن أحمد بن طولون بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما أيضاً بالصيد ، وخاصة صيد السباع . ومع هذا فقد كان ذكيا أديبا ، ورث أباه فى مواهبه السياسية[2] .

ولقد ابتنى العزيز كثيراً من المنشآت التى تنطق بغزارة ثروته ، والتى يحتاج الكلام عليها إلى مجلدات ؛ وذلك كالجامع المعروف بجامع الحاكم الذى أسسه سنة ٣٨٠ هـ ، وقصر الذهب وجامع القرافة العظيم ، وقصور أخرى فى عين شمس ، وقصر البحر الذى يقول فيه ابن خلكان لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب[3] .

---

(١) جمع برنية وهى إناء معروف .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المصدر نفسه : المجلد والصفحة .

الباب الثالث عشر

الحالة الاقتصادية

١ — موارد بيت المال

(ا) الخراج :

لم يكد يتم فتح شمال إفريقية حتى وجه الفاطميون أنظارهم إلى فتح مصر ، لعلهم أنهم سيجدون من ثروتها ما يساعدهم على نشر عقائدهم فى ميادين أخرى أوسع مما فى بلاد المغرب ، ولأنهم يستطيعون بذلك أيضاً نشر حضارة فاطمية تنافس حضارة الإمبراطورية العباسية ، بل تتفوق عليها .

وفى الحق إن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز بعد أن فتحوا مصر بقليل ، كما تسنى لهم بعد قليل أيضاً أن يقيموا الدعوة باسمهم فى الموصل واليمن ، بل فى بغداد أيضاً نحواً من ثمانية أشهر .

يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذى وضعه يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير فى المحرم من سنة ٣٦٣ ، حتى لقد كان خراج الفسطاط وحدها يتراوح بين ٥٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ دينار فى اليوم ، كما زاد خراج مدن دمياط وتنيس والأشمونين عن ٢٠٠,٠٠٠ دينار من تلك السنة ؛ وذلك كله أمر لم تعهده مصر من قبل[1] .

وكان الخراج إما شيئاً مُقَدَّرا من مال أو غلة ، و إما حصة معينة مما يخرج من الأرض ،

---

(١) ابن ميسر ج ١ ص ٤٦ .

ذكر ابن إياس (ج ١ ص٤٦) نقلا عن المسبحى أن خراج مصر بلغ فى عهد جوهر ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار .

لمعرفة خراج مصر فى عصورها المختلفة منذ الأزمان القديمة ، يراجع الفهرس الذى عمله إفتس لكتاب أبى صالح المسمى "كنائس وأديرة مصر" (Evetts' Index to Abu Salihss "Churches and Monasteries of Egypt")

وهذا يسمى المعاملة أو المزارعة . وقد اختلف المؤرخون فى تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الرءوس على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض . ولم يكن الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وتحسين وسائل الرى ، كما كانت جزية الرءوس فى نقص مستمر لدخول أهل مصر فى الإسلام .

وكان الخراج يجبى فى عهد الفاطميين على خمسة أقساط : فى كيهك ، وبرمهات ، وبرمودة ، وأبيب ، ومسرى . ومما ذكره ابن مماتى يتضح أن الخراج كان يجبى عينا ، أى على كل صنف من أصناف الغلة ، مع مراعاة وفرة الغلة وسلامتها من الآفات ومقدار فيضان النيل . وقد أورد ابن مماتى ثبتاً بأنواع المحاصيل وما يجبى من كل فدان[1] بالأرادب أو بالدنانير حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) :

اسم المحصول	الضريبة على الفدان بالأرادب	بالدنانير
القمح والشعير	٣	
الفول	٣ — ٢½	
الحمص والجلبان والعدس	٢½	٣
قطيعة الكتان		٥ — ٣
القرط		١
البصل والثوم		٢
قطيعة الترمس		١¼
الكمون والكراويا والسلجم		١
البطيخ الأصفر والأخضر		١ — ٢
اللوبياء		٣
السمسم		١
القطن		١
القصب السكر إن كان رأساً		٥
وإن كان خلفة		٢٠ و ٥ قراريط
القلقاس		٤
الباذنجان		٣
السمسم النيلى	١ — ٥	
النيلة		٣
الفجل		٢
اللفت		١
الخس		٢

(١) ومساحته ٥٩٢٩ متراً مربعاً .

اسم المحصول	الضريبة على الفدان بالأرادب	بالدنانير
الكرمب		٢
البصل		٢
الشجر والكرم		٣
القصب الفارسى		٣(١)

مما تقدم يتضح أن مقدار الخراج كان يتفق مع غلة الأرض ، فإذا زادت هــذه الغلة زاد مقدار الخراج . كما كان يختلف الخراج باختلاف المحاصيل . وإذا وازنا بين غلة الفدان ومقدار الضريبة المفروضة عليه ، فإنه يتضح أن النسبة المئوية للضريبة كانت كما يأتى :

متوسط إنتاج الفدان	النسبة المئوية للضريبة
٨ — ١٠	٣٠ ٪ إذا كان المزروع قمحاً أو شعيراً
	٢٥ ٪ إلى ٦٢½ ٪ إذا كان المزروع حمصا
	١٧ ٪ إلى ٢٥ ٪ إذا كان المزروع لفتا(٢)

أما عن مقدار الخراج الذى فرض على الماشية ، فــكان كما يلى :

نوع الماشية	الضريبة المفروضة بالدنانير
الجاموس :	
الراتب	٥
الغالب	٤ — ٣
اللاحق	٢ — ١½
أبقار الخيس :	
الراتب	٢
الأغنام البياض :	
الكبش والنعجة	١
الثنى والثنية	¾
العبورة (عجوزة)	½
الشقارى : (الماعز) كل ١٠٠ رأس	٢٠
النحل : كل ١٠٠ خلية ١٠ أرطال عسل و ٥ — ٦ قناطير شمع ٢٠ رطلا(٣)	

وكان ارتفاع الخراج فى عهد الفاطميين يختلف باختلاف العصور ، كما كان يرجع إلى وفرة الفيضان واستتباب الأمن ، والعناية بالمزارعين وتطهير الترع والجسور وتسميد الأرض ، كما يتضح من الثبت الآتى :

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٥٩ — ٢٧٠ .

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٢٢ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٥٠—٣٥٣ .

الخليفة	السنة	ارتفاع الخراج بالدينار
المعز	٣٥٨ هـ	٣,٢٠٠,٠٠٠
	٣٥٩ هـ	٣,٤٠٠,٠٠٠
	٣٦٠ هـ	٣,٢٠٠,٠٦٠
	٣٦٢ هـ	٤,٠٠٠,٠٠٠
العزيز	٣٨٦ هـ	٣,٠٠٠,٠٠٠
الحاكم	٤١١ هـ	٣,٤٠٠,٠٠٠
المستنصر	٤٦٢ هـ	٦٠٠,٠٠٠
	٤٦٦ هـ	٢,٨٠٠,٠٠٠
	٤٨٧ هـ	٣,١٠٠,٠٠٠
المستعلى	٤٩٥ هـ	٥,٠٠٠,٠٠٠
الحافظ	٥٤٤ هـ	١,٠٠٠,٠٠٠[1]

(ب) الجوالى :

ومن موارد بيت المال فى عهد الفاطميين : الجوالى ، وهى الجزية المفروضة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان (والرهبان والعبيد والمجانين والشيخ الفانى والفقراء الذين لا كسب لهم ، ومن مات منهم أو أسلم فى خلال السنة) .

وكانت الجزية فى العصر الفاطمى ثلاث طبقات تبعاً لثروة الأفراد . فالطبقة العليا ويدفع أفرادها ٤ ½ دينارا ، والطبقة الوسطى ٢ دينارين وقيراطين ، والطبقة السفلى دينار واحد وثلث وربع وحبتين . يضاف إلى كل طبقة ٢ ½ درهم تدفع للموظفين القائمين بالتحصيل[2] .

وقد بلغ ارتفاع الجوالى فى سنة ٥٨٧ هـ ٣٠,٠٠٠ دينار[3] ، مما يدل على أن عدد أهل الذمة فى مصر قد نقص نقصا ملحوظا . فإذا كان متوسط ما فرض على كل ذمى دينارا واحداً وربع دينار ، فان عدد من فرضت عليهم الجزية قد بلغ نحو ٢٢٠٠٠ ألف . وإذا كان هذا العدد يؤلف ربع أهل الذمة ، فإن عددهم لم يزد على مائة ألف فى ذلك العصر .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٨٢ — ٨٣ . عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ص ٥٤ — ٥٩ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣١٧ — ٣١٩ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٨ .

(ج) المكوس[١] :

وكانت المكوس وهى الرسوم المفروضة الداخلية والخارجية وعلى الصناعة على نوعين : نوع يجبى من التجارة الخارجيـة الواردة إلى ثغور مصر مثل الإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد وعيذاب . وكان يجبى من تجار الروم الوافدين على هذه الثغور ٣٥ دينارا عن كل ١٠٠ دينار . وقد انخفض هذا القدر فى أواخر العصر الفاطمى حتى بلغ ٢٠ دينارا عن كل ١٠٠ دينار . وبلغ خراج دمياط وتنيس والأشمونين ٢٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة . وبلغ خراج الفسطاط وحدها ١٢٠ر٠٠٠ فى اليوم[٢] . وبلغ فى آخر العصر الفاطمى ١٠٠ر٠٠٠ دينار . فإذا عرفنا أن الخراج بلغ فى عهد الخليفة الحافظ ١ر٠٠٠ر٠٠٠ ، أدركنا أن الحالة الاقتصـادية فى ذلك العصر قد تدهورت بسبب اضطراب الأمن وتفاقم النزاع بين الوزراء والقواد .

وقد جرت عادة الفاطميين أن يبتاعوا من هـــذه السلع الواردة إلى ثغور مصر ما تمس الحاجة إليه ، على أن تستنزل قيمتها من مقدار المكوس المفروضة على التجار . فإذا زاد ثمن ما يبتاع عن قيمة الضريبة المفروضة دفعت الدولة له ثلثى المبلغ المستحق المطلوب[٣] .

أما النوع الثانى من المكوس فيتمثل فى الرسوم المفروضة على الصناعة والتجارة المحلية . فقد كانت تفرض رسوم على الصادر والوارد من السلع المختلفة ، سواء أكانت غلات زراعية أم منتجات صناعية ، كما كان ثمة رسوم أخرى على البائسين مقابل استخدام الأماكن المخصصة لذلك ، وعلى ما يبيعه أو يشتريه التاجر ، وكذا على المصانع والسفن والمسالخ والمذابح ، والمعديات ، وعلى الموازين والمكاييل ، كما يتضح ذلك من هذا الثبت الذى أورده المقريزى[٤] .

(١) كلمة مكس تفيد معنيين : الأول هو نوع جديد من الضرائب فرض على التجارة . وهذه الكلمة آرامية الأصل . والمعنى الثانى نرى فيه كلمة مكس تطلق على الجهة المحلية التى يجبى فيها المكس أو المقس (الجمرك) . مثال ذلك الموضع الذى عرف باسم المكس أو المقس (قرية أم دنين حيث تقع حديقة الأزبكية الآن) . انظر جروهمان A. Grohman, Arbic papyri, vol. ii, pp. 9-10.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ١ ص ٤٦ .

(٣) ابن مماتى ص ٣٢٥ — ٣٢٧ .

(٤) خطط ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

المكس	مقدار الحصيلة بالدنانير
البهار	٣٣,٣٦٤
البضائع والقوافل	٩,٣٥٠
البز الوارد	٥,١٩٣
البز الصادر	٦,٦٦٦
الأسواق المختلفة : كسوق الفحم والدواب والسمك والرقيق	٣,١٠٨
الخشب الطويل والملح	,٦٧٦
الورى	,١٠٠
فندق القطن	٢,٠٠٠
الكتان والأبقار	٢,٢٠٠
الكتان الحطب الواردة للصناعة	,٢٠٠
الورق	,٢٠٠
رسم التفتيش بساحل الغلة والأقوات	,٧٦٨
التفاح والرطب	١,٧٠٠
مشارفة الجزارين	,٢٤٠
وارد الجبن	١,٠٠٠
الحل الوارد من الوجه البحرى	١,٠٢٠
الصوف	,٢٠٠
الشرب والدبيق	١,٥٠٠
الحلفاء (الحصر)	,١٢٥
الحناء	,٨٠٠
سوق السكريين	٥٠
الخل الحامض	٤٠٥
بيوت الغزل	٣٥٠
زريبة الذبيحة	٧٠٠
الفاخوريات	٢٣٦

هـذا إلى ما كانت تجبيه الدولة الفاطمية من الزكاة والمواريث واحتكار الشب والنطرون ودار الضرب ودار الطراز ودار العيار والأحباس[1] .

٢ — ثروات الخلفاء والوزراء

(١) ثروة الخلفاء :

لا شك أن ثروة الخلفاء كانت أعظم من ثروة وزرائهم . وإن ما ذكرناه فى وصف

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ .

عرش المعز وهدية جوهر إليه ، والكسوة التى عملت برسم الكعبة ، ليبين لنا مبلغ ثروة مصر فى أيام الخلفاء ، وثروتهم وحالة البذخ التى كانت تسود مظاهرهم . أما وصف القصر وما كان فيه من كنوز ، فذلك ما سنتكلم عليه بعد .

يقول لينبول : « إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للمظاهر » . ومع هذا يقول : « إن ثروات الفاطميين كما دوّنها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد ، فإننا نقرأ فى المقريزى أن بنتين للمعز قد تركت إحداهما (واسمها رشيدة) ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١٫٧٠٠٫٠٠٠ دينار كما جاء فى المقريزى أى زهاء ¾ مليون جنيه) ، وتركت الأخرى (عبدة) كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر ، حتى كان الشمع الذى استخدم فى الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . كما أنا نقرأ أيضاً أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بما يقرب من اثنى عشر ألف جنيه[1] » .

كانت الثروة التى تركها الحاكم — كما يقول أبو المحاسن — عظيمة . ولا غرو فقد كان من بين الخلفاء الفاطميين مشهوراً بحب العظمة ، حتى إن أبا المحاسن يقول ، إن الحاكم لما اتصل به خبر رسول إمبراطور الروم وأنه فى طريقه إلى القاهرة ، وأنه قد يمثل بين يديه ، أمر بتزيين القصر ؛ فكان من بين الأكياس التى تحتوى على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ .

ونرى فى العبارة التى أوردها أبو المحاسن عن ثروة ست الملك أخت الحاكم ، أن تلك الثروة اشتملت على ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل ؛ وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار ؛ وكانت مشهورة بالكرم والحلم[2] .

وقد أمدنا المقريزى ببيان آخر يضيق هذا المقام عن نقله . لكنا نذكر شيئاً منه

---

(١) The Story of Cairo p. 183. (مقتبساً من الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤١٥) .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤١٥ . أبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧ .

مثلا للثروة التى كان الخليفة المستنصر يملكها فى مبدأ سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ، تلك الثروة التى تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر ؛ وذلك كله ما ساعد على تنفيذ سياسة الفاطميين . وكان من ضمن ثروة المستنصر شىء كثير ورثه عن آبائه ؛ فانتهبه الأتراك سنة ٤٦٠ ، كما استولوا على بعض ممتلكات القصر ، وعُرِض البعض الآخر للبيع فبيع بأبخس الأثمان ، ووزع كل ذلك عليهم . وهذا بخلاف ثلاثين مليون دينار من الذهب تقاسمها الثوار الأتراك و « ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق » .

ويتبين لنا مما ذكره المقريزى أنه لم يتأخر شىء من عطاء الأتراك . ويمكن أن نضيف إلى هذا ، أن الأتراك إنما ثاروا على الخليفة الذى لا ناصر له ، رغبة منهم فى الثأر من الجنود السودانيين المكروهين لهم ، والذين كانوا أنصار أم الخليفة ، وأن يحوزوا من الأسلاب ما تسمح لهم به الأحوال .

وكان من ممتلكات الخليفة الكثيرة التى لا تقوم بمال ، سيفه الخاص ، وسيف الخليفة المعز ، وسيف النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن على رضى الله عنه ، وسيف جعفر الصادق ، وكميات من الرماح والقِسِى وغيرها من الأسلحة ، وعشرة آلاف سرج ، بعضها كان يساوى سبعة آلاف دينار[1] . وكذلك أكواب من العنبر ، وسبحة من الأحجار الكريمة تُقَوَّم بثمانين ألف دينار على الأقل (و بيعت بألفين فقط !) ، وصندوق من الجوهر قوم بثلثمائة ألف دينار (بيع بخمسمائة !) ، وأربع عشرة كيلة من الجواهر أيضاً ، وألف ومائتان من الخواتم ما بين ذهب وفضة ، بيع ثلاثة منها مرصعة بالأحجار الكريمة باثنى عشر ألف دينار[2] .

ومع أن المؤرخين لم يمدونا ببيان عن الثروة التى خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مثل ما أمدنا به ابن ميسر والمقريزى ، فإنه من الممكن أن نتبين مقدار ضخامة ثروة القصر فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين ، وقبل سقوط دولتهم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من الوصف الذى أورده لنا الذهبى — نقلا عن ابن أبى طىّ — الهدية التى قدمها صلاح الدين لنور الدين سنة ٥٦٩ هـ :

---

(١) خطط ج ص ٤١٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٤ .

« وذكر ابن أبي طيّ قال : وفى هذه السنة (٥٦٩ هـ) وصل الموفق بن القَيْسَرانى إلى مصر رسولا من نور الدين ؛ فاجتمع بصلاح الدين وأنهى إليه رسالة ، وطالبه بحساب جميع ما حصله من ارتفاع البلاد .... ثم أرسل (صلاح الدين) معه هدية على يد الفقيه عيسى (بن القيسرانى) : وهى ختمة بخط ابن البواب ، وختمة بخط مُهَلْهِل ، وختمة بخط الحاكم البغدادى ، وربعة مكتوبة بالذهب بخط يانس ، وربعة بخط راشد[1] ، وثلاثة أحجار بَلَخْشى ، وست قصبات زمرد ، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل ، وحجر أزرق ستة مثاقيل ، ومائة عقدجوهر وزنها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بَلَسَان ، وعشرون قطعة بلور ، وأربع عشرة قطعة جزْع ، [و] صحون صينى وزبادى ، وأربعون وكرتان (هكذا وردت فى الأصل) عود قُمَارى وزن أحدها ثلاثون رطلا والأخرى إحدى وعشرون ، ومائة ثوب أطلس ، وخمسون ثوب حرير ، وحُلة فُلْفُلى مذهبة ، وغير ذلك من القماش ، وقيمتها ٢٢٥٫٠٠٠ دينار ، وعدة من الخيل والغلمان والجوارى والسلاح ، وخمسة أحمال[2] من المال »[3] .

كما تبين لنا ضخامة ممتلكات القصر عند سقوط الفاطميين مما جاءنا به المقريزى نقلا عن القاضى الفاضل حيث يقول : « وفى ثالث عشرية — يعنى ربيعا الآخر سنة سبع وستين [وخمسمائة] — كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ..... ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، مالا يفى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة »[4] .

(ب) ثروة الوزراء :

وفى منتصف شهر رمضان من سنة ٣٦٢ ، مَثَل الأشراف والزعماء وكبار الموظفين

(١) هذه الأسماء هى طبعاً أسماء خطاطين مشهورين .

(٢) هو مقدار الجزية التى أرسل نور الدين رسولا يطلبها .

(٣) الذهبى ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Laud ، القسم الشرق ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤١ ب .

(٤) خطط ج ١ ص ٤٩٦ .

بين يدى الخليفة ، فقدمهم إليه جوهر . و بعد ذلك تقدم قليلا إلى الأمام ، وأرى الحضور هديته التى أعدها لمولاه . وكانت — كما يقول المقريزى[1] نقلا عن ابن زولاق وهو من الثقات فى هذا الموضوع — تتألف من مائة وخمسين فرسا مسرجة ملْجمة ، بعضها مذهَّب و بعضها مرصع ، والبعض الآخر مُعَنْبَر ، وإحدى وثلاثين قبة على نوق بَخَاتى بالديباج والفُرش . وكان من هذه البخاتى تسع نوق محملة بالحرير ، كما كانت النوق الأخرى ولودا . واشتملت الهدية أيضاً على ثلاث وثلاثين بغلة ، كان منها سبعة ملجمة مسرجة ، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدّة للنقل وتسعون نجيبا ؛ كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما بداخلها ، وجعل فيها أوانى الذهب والفضة . وكان فى الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقة فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصعة بالجواهر .

ولم يكن هذا كل ما قدّمه جوهر لمولاه فى هذا اليوم . فقد اشتملت الهدية أيضاً على تسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة انتخبها له هذا القائد من ذخائر مصر .

وقد ترك لنا ابن إياس[2] صحيفة طويلة بما تركه برجوان . غير أنه لا يمكننا الاعتماد طبعاً على كلامه إذا علمنا أنه يقول إن برجوان ترك مائتى مليون دينار ذهبا ، وخمسين أردبا من الدراهم الفضية . أما الدراهم ، فمع أن هذا القدر بعيد أن يتركه برجوان ، فإنه رغم ذلك ممكن القبول ؛ وأما الدنانير فأحسب ابن إياس قد غلط فى تقديرها ، أو غلط الناسخون فى نقلهم ذلك عنه . ولو قال مليونين ، لكان قريباً من الصواب ، وبخاصة إذا عرفنا أن المدة التى وليها برجوان لم تكن من الطول بحيث تتسع لجميع هذا القدر من المال

وفى الحق ، إن البذخ والإسراف هما من مميزات الدولة الفاطمية كما قدمنا . فهذا ابن منجب يقول إنه لما مات برجوان وزير الحاكم ، وجد فى خزائن ملابسه ألف سروال دَبيقى[3] وألف تكة حريرية ، وكمية كبيرة من الملابس الأخرى والأثاث والآلات الموسيقية[4] والكتب والطرائف المختلفة[5] .

(١) خطط ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٦ .

(٢) تاريخ مصر ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) نسبة إلى دبيق بين الفرما وتنيس ، وقد اشتهرت بما كان يصنع بها من الملابس .

(٤) ذكر المقريزى أن برجوان كان شديد الولع بالموسيقى .

(٥) ابن منجب ص ٢٨ .

ويحدثنا ابن منجب (ص ٢٣) أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة ألف دينار[1] (أكثر قليلا من ٥٠٠٠٠ جنيه) كل عام ، وأنه ترك بعد وفاته من الغلمان الشبان أربعة آلاف ، ومن الجواهر الثمينة ما قدّرت قيمته بأربعمائة ألف دينار ، ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار ، وأنه حين توفى كان عليه للتجارستة عشر ألف دينار ، فقضاها عنه الخليفة العزيز من بيت المال وأداها لأصحابها على قبره .

هذه هى حياة أحد وزراء الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وتلكم هى ثروته الضخمة التى يحدثنا ابن منجب[2] أنها بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا مائتى ألف دينار خصصها لينفق منها فى زواج ابنته ، وعدا ستمائة حظية[3] ، وأرضا أعطيت له على سبيل الالتزام قدرت بثلثمائة ألف دينار . ويحدثنا ابن خلكان[4] أيضاً أن ما أنفق فى تكفين ابن كلس وفى العطر الذى استعمل لتجهيز جسمه بلغ عشرة آلاف دينار .

أما عن ثروة الوزراء الفاطميين فى هذا العهد ، فقد أمدنا ابن ميسر بمعلومات طريفة فى هذا الموضوع . فقد ذكر لنا فى كلامه عن الثروة التى خلفها الأفضل (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) ابن أمير الجيوش بدر الجمالى ، ما كان من ركوب الخليفة الآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) إلى دار الوزير وختمه عليها بعد وفاته .

ففى صبيحة الغد بعد صلاة العيد ، غُسِّل جثمان الوزير وكُفِّن وورى التراب ؛ ثم أمر الخليفة بنقل ثروة الوزير إلى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكتاب يقومون بإحصائها . وتم ذلك فى أكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضى صدر النهار فى الجزء الذى عين من قصره لنقل تلك الثروة إليه ، كما كان يقضى سائر النهار فى أحد دور الوزير ليعمل الترتيب اللازم . ويظهر لنا من عبارة ابن ميسر أن الخليفة قضى معظم وقته فى الإشراف على نقل ما فى دار الوزارة ودار الملك .

---

(١) انظر المقدسى (طبعة دى غويه) ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٣) أطلق الأستاذ مرجليوث فى كتابه « القاهرة وبيت المقدس ودمشق » (Prof. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 27) عليهن زوجات .

(٤) ج ٢ ص ٤٤٣ ، نقلا عن ابن عساكر .

وكان الأفضل يحتفظ لذلك فى دار العطاء بثمانية أكياس من حرير ، فى سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار ؛ كما جعل فى قاعة اللؤلؤ بجوار الحشية التى كان يجلس عليها كيسين : فى أحدهما دنانير ، وفى الآخر دراهم ينفق منها إذا كان فى الحرم . أما ما كان فى مجلس العطاء ، فكان يعطى منها للمستجدين كما قدمنا وللشعراء .

وقد ذكر المقريزى أن الأفضل كان إذا انفرط عقد المجلس أمر بكتابة ما أنفق من كل كيس على البطاقة التى كانت ترفق به ، ثم يمضيها ؛ وتبقى فى الكيس ويختم عليه . ولما جاء رجب سنة ٥١٢ (١١١٨ م) تضاعف عدد الأكياس وتوالى الإحسان بصورة تنم عن البذخ ؛ فأغدقت العطايا على الشعراء فى جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير ، وعلى الفقراء بحى القرافة[1] .

والآن فلنعد إلى ثروة الأفضل ، فنجد أن ابن ميسر يقول عنها : « فوجدوا له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى : فوجد له ستة آلاف ألف دينار عَيْنا ، وفى بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفى البيت البرّانى[2] ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار ، وخمسين أردبا دراهم ورق ، وثلاثين راحلة من الذهب العراق المعزول برسم الرقم ؛ وعشرة بيوت فى كل بيت منها عشرة مسامير ذهب ، كل مسمار وزنه مائتا مثقال ، عليها العمائم المختلفة الألوان[3] ؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملونة ، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ؛ ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة . ومن الطيب والنحاس والآلات ما لا يحصى عدداً ؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياعه أربعين ألف دينار فى السنة ؛ ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر ، قوّم جوهرها باثنى عشر ألف دينار ؛ وخمسمائة ألف مجلد من الكتب »[4] .

وقد ذكر ابن ميسر أيضاً طرفاً من ثروة الأفضل العظيمة — نقلا عن الخازن بالقصر —

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤ .

(٢) يحتمل أنه دار الوزارة فى القاهرة أو جناح من دار الملك .

(٣) هذه المسامير كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها العمائم .

(٤) ابن ميسر ص ٥٧ .

حسب ما تذكره ذلك الخازن الذى يقول إن هذا كان قُلاًّ من كُثْر مما استطاع أن يتذكره عند ما ذكر هذا الأمر .

هذا ، وقد ذكر متولى الخزانة فى القصر الذى استمد منه ابن ميسر هـذه المعلومات الطريفة : « هذا ما حضرنى حفظه فى داره ؛ وأما ما كان فى مخازنه وتحت يد عماله ، والجباة وضمان النواحى ، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان ، والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ، فما لا يحصى » .

أما عن أخلاق الوزير فيقول ابن ميسر : « كان الأفضل من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة ... ولم يعرف أحد صودر فى زمانه »[1] .

هذا هو مبلغ ثروة الوزير فى العهد الفاطمى الأخير . ومما ذكره ابن ميسر والمقريزى نستطيع أن نبين ما كان هناك من القوة والثروة ، والحالة الاجتماعية ، والحياة الخاصة التى عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة . ولا نشك فى أن الوزير فى هذا العهد كان يتمتع بالسلطة المطلقة ، كما كان فى قبضة يده خراج الدولة ؛ وكانت داره المحور الذى تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التى لم تكن تابعة للخلفاء إلا اسما فقط .

وإن كثيراً من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تصادر عند وفاتهم ؛ إلا أن بعضها كان يرد إلى من يخلفون من أبنائهم . فقد روى أبو المحاسن أن أبا على بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه ، حبس الخليفة الحافظ سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) واستولى على ما فى القصر ، زاعما أن ذلك كان لأبيه . غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد وفاة الوزير وجعلها فى قصره[2] .

٣ — وجوه الإنفاق

(ا) الهبات والأعطيات :

وفى السنة نفسها وضع الحاكم فى الجامع العتيق تنورا من الفضة يقوّم بعشرة آلاف

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) أبو المحاسن ج ٣ رقم ١ ص ٣ .

درهم ، فضلا عما وقفه هذا الخليفة على هذا الجامع من الأوقاف والعطايا . وقد زاد بعض أمراء مصر فى بناء الجامع العتيق ، كما وقف عليه الخلفاء الفاطميون الأوقاف والعطايا .

على أن تلك الثروة الضخمة أغرت الفاطميين ، فأسرفوا فى نفقاتهم التى جرهم إليها البذخ وحب الظهور ، حتى لقد أصبح ذلك من مميزات الدولة الفاطمية ؛ فكانت النتيجة التى لا مناص منها أن انحطت أخلاق الأهلين ووقعت البلاد فى يسة ذلك الانحطاط ، وكان ذلك أحد أسباب انحلال الدولة الفاطمية وسقوطها فى النهاية .

وقد أمر الخليفة الآمر عند انتهاء الذكر[1] ، فجىء بألف تَصْفية[2] من خزائن الكسوة[3] ، فوزعت على الحاضرين . وأمر صاحب بيت المال فأحضر ألف دينار من بيت المال ؛ ونثر كل ذلك على الناس من النافذة التى كان الخليفة يشاهد منها الذكر . واختفى بعض هذه الدنانير فى الأرض ، فاشتغل كثير من الناس بغربلة الأرض طلباً لها فى الأيام القليلة التى تلت هذه الحادثة[4] .

على أنه فى عهد انحلال الدولة الفاطمية ، لم يكن الخلفاء بأقل اتفاقا فى سبيل الكرم مما كان عليه أسلافهم فى أيامهم الأولى ؛ فقد ذكر ابن ميسر أنه لما مات الأفضل ، كان على قبره أربعمائة وعشرون شخصاً من القراء والوعاظ والمنشدين ، فأمر الخليفة الآمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) لكل منهم بثمانين ديناراً . وعلى الرغم من اعتراض أحد رجال بطانته استكثاراً لذلك القدر ، أمضى الخليفة ما أراده ؛ وكان مجموع ذلك نحو الأربعة وثلاثين ألف دينار أخذت من بيت المال[5] .

(ب) الرواتب :

كان الموظفون فى الدولة الفاطمية يتقاضون مرتبات كبيرة ، فضلا عما كان يصل

---

(١) الذكر هو حمد الله وتمجيده وتنزيهه عن كل شائبة ونقص ؛ ولذلك أقوال ينشدونها بترتيل خاص ونغمات خاصة ، مثل الحمد لله ! الله أكبر ! وغير ذلك .

(٢) ثياب تصنع من الحرير والقطن (انظر Dozy, Supplément) .

(٣) وبكسر الكاف أيضاً انظر القاموس المحيط للفيروزبادى ؛ وهى مشتقة من كلمة كساء أى لباس .

(٤) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٨٦ .

(٥) ابن ميسر ص ٦٠ .

إليهم بطريق الهدايا من الفضة والذهب والملابس والأطعمة وما إلى ذلك بمقادير وفيرة ، تلك الهدايا التى كان أزواجهم وأولادهم وخدمهم يتقاسمونها معهم .

وقد أمدنا القلقشندى بكلام مفصّل بيّن فيه المرتبات التى كانت تعطى لكبار موظفى الدولة ؛ ومنه نعلم أن مرتب الوزير كان خمسة آلاف دينار فى الشهر ، وأن ابنه أو أخاه كان يأخذ فى الشهر راتباً يتراوح بين مائتين وثلثمائة دينار ، زيادة على رواتب أتباعه وحشمه التى كان متوسط مجموعها أربعمائة وخمسين دينارا فى كل شهر .

وكان الكتاب يتقاضون رواتب كبيرة ، فضلا عما كان يغدق عليهم من هبات ويدفع لهم من أرزاق . فكان صاحب الإنشاء والمكاتبات يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون ديناراً ؛ وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً[1] .

وهاك ما أمدنا به القلقشندى[2] عما كان يتقاضاه الموظفون على اختلاف درجاتهم من مرتبات :

الوظيفة	الراتب بالدينار شهرياً	مخصصات أخرى
١ — الوزير	٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠ دينار ، ٢٠,٠٠٠ أردب من القمح والشعير ، ٨,٠٠٠ رأس من الغنم كسوة الشتاء والصيف والمواسم كعيد الغدير وفتح الخليج وغرة شهر رمضان وأول العام
ولد الوزير أو أخوه	٢٠٠ — ٣٠٠	
حواشى الوزير	٤٠٠ — ٥٠٠	
٢ — حواشى الخليفة		
الأستاذون المحنكون	١٠٠	
زمام القصر	١٠٠	
صاحب بيت المال	١٠٠	
حامل الرسالة	١٠٠	
صاحب الدفتر	١٠٠	
شاد التاج	١٠٠	
زمام الأشراف الأقارب	١٠٠	
صاحب المجلس	١٠٠	

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) ج ٣ ص ٥٢٥ — ٥٣٢ .

الوظيفة	الراتب بالدينار شهريا	مخصصات أخرى
الطبيب الخاص	٥٠	
الأطباء المساعدون	١٠	
كاتب الدست الشريف	١٥٠	
كتاب كاتب الدست	٣٠	
الموقع بالقلم الدقيق	١٠٠	
صاحب الباب	١٢٠	
حامل السيف	٧٠	
حامل الرمح	٧٠	
بقية الأزمة على العساكر	٣٠ — ٥٠ لكل منهم	
قاضى القضاة	١٠٠	
داعى الدعاة	١٠٠	
قراءة الحضرة	١٠ — ٢٠ لكل منهم	
٣ — أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم		
متولى ديوان النظر	٧٠	
متولى ديوان التحقيق	٥٠	
متولى ديوان المجلس	٤٠	
متولى ديوان الجيوش	٤٠	
صاحب دفتر المجلس	٣٥	
الموقع بالقلم الجليل	٣٠	
المعين	٥ — ١٠	
٤ — المستخدمون بالقاهرة ومصر فى خدمة واليهما ٥٠ لكل منهم		
حماة الأهراء	٥ — ٢٠	
حماة المناخات	٥ — ٢٠	
حماة الجوالى	٥ — ٢٠	
حماة البساتين	٥ — ٢٠	
حماة الأملاك	٥ — ٢٠	
٥ — فراشو القصور		
خدمة الخليفة و القصور الذين يتولون		
تنظيفها ونصب الستائر والمناظر ٣٠ لكل منهم		
الرشاشون داخل القصر وخارجه ٣٠٠ شخص ٥ — ١٠ لكل منهم .		
مقدمو الركابية	٥٠ لكل منهم	
صبيان الركابية	٥ — ١٥ لكل منهم	

هذا عدا راتب المحتسب وصاحب البريد وناظر الطراز ونوابهم وأعوانهم وحماة الخزائن ومشارفيهم وكتابهم ومن دونهم . كما أنه لم يرد ذكر لرواتب القضاة ، ومقدمى الأسطول ، وأرباب الرواتب المستقرة من ذوى النسب والبيوتات والضعفاء والصعاليك من الرجال

(٣٦)

والنساء ، وكذا المتفقهين والقراء والمؤذنين فى المساجد والمشاهد وغيرهم من العمال والخدم .

وكانت ميزانية الدولة للسنة المالية الجديدة تعد بعد عيد الأضحى ، فيقوم الموظفون بإعداد استيمار النفقات فى نهاية شهر ذى الحجة ، فيجتمع كتاب ديوان الرواتب ، أو إدارة الميزانية ، وتعرض الاقتراحات الخاصة بها على هذه اللجنة تبين بها مقدار المصروفات عينا وورقا وغلة ، ثم تحرر نسخة من الاستيمار ، ثم تبيض ويدون فيها أسماء الموظفين وأعوانهم . ثم يُرسل إلى خزانة الفرش ، فيعد له وطاء من الحرير وشُرَّابة من الحرير الأخضر أو الأحمر . وتعد ديباجة (مقدمة) تدون بأسلوب جميل وعبارات رائقة تناسب مقام الخليفة . ثم يرفع الاستيمار إلى صاحب ديوان النظر ليعرضه على الخليفة فى أول شهر المحرم .

وكان موظفو ديوان الرواتب يتحرون الدقة التامة فى إعداد الميزانية ، فلا يفتحون اعتمادات مالية من أبواب لا أصل لها فى ميزانية الدولة ، أو من أبواب لا وفور فيها . كما أن من حقهم أن يقترحوا الاستغناء عن بعض الموظفين ، أو تعيين موظفين جدد . ثم ترفع اقتراحات الميزانية عن طريق ديوان النظر إلى الخليفة لاعتمادها توطئة لاستصدار مرسوم ربط الميزانية[١] .

وقد ذكر المقريزى أن استيمار الرواتب عرض على الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٦ هـ ، فأقره كما رفع إليه . وقد بلغت رواتب المتفقهين والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر فى هذه السنة . ٧٠٧٣٣٢/٣ دينارا[٢] .

وقد عرض استيمار الرواتب على الخليفة المستنصر فى إحدى السنين ، فأقره ووقع على ظهره بخطه : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق . فليجروا على رسومهم فى الإطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق »[٣] . ولما رفع الاستيمار إلى الخليفة الحافظ ذيله بهذه العبارة : « لا يستكثر فى ذات الله كثير الإعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتسويف والإبطاء . ولما انتهى إليه ما أرباب الرواتب عليه من

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٩٨ .

(٢) المصدر نفسه خطط جـ ١ ص ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٣) القلقشندى جـ ٣ ص ٤٩٥ .

القلق للامتناع من إيجاباتهم وحمل خروجاتهم ، قد ضعفت قلوبهم وقنطت نفوسهم ، وساءت ظنونهم ، شملهم برحمته ورأفته ، وآمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده ، تأكيدا للإنعام والمن ، وتهنئة بصدقة لا تُتبع بالأذى والمن . فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة إجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم و إيجابها على سياقها لـكافتهم من غير تأول ولا تعنّت ولا استدراك ولا تعقّب . وليجروا فى نسبياتهم على عادتهم ، لا يُنقض من أمرهم ما كان مبرما ، ولا ينسخ من رسمهم ما كان محكما ، كرماً من أمير المؤمنين وفعلا مبروراً ؛ وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . وأمر الخليفة بنسخ هذا التوقيع و إرساله إلى جميع الدواوين الحكومية[١] .

(ج) نفقات الجيش والأسطول :

كان الجيش فى العصر الفاطمى يتألف من طوائف ثلاث : الأتراك ، والسودان . وقد بلغ عددهم ٥٠,٠٠٠ ، والمغاربة وعددهم ٤٠,٠٠٠ فارس و ٣٦,٠٠٠ من المشاة . وقد ذكر المقريزى أن رواتب الأتراك بلغت ٢٨,٠٠٠ دينار فى الشهر ، وأنها بلغت فى عهد المستنصر ٤٠٠,٠٠٠ دينار فى الشهر[٢] . و إذا كانت رواتب الجند من الأتراك قد بلغت ٤٠٠,٠٠٠ دينار ، فلا يبعد أن تجاوز رواتب الجند مليون دينار فى السنة . هذا عدا ما كانت تنفقه الدولة على الطعام والملبس والسلاح وغيره .

وقد بلغ عدد سفن الأسطول فى أواخر عهد الدولة الفاطمية عشر شوانى بحرية عليها عشرة آلاف مقاتل ؛ هذا عدا الأسطول النهرى الذى كان يحمل الغلات السلطانية والأحطاب وغيرها . وقد ذكر المقريزى[٣] أن هـذا الأسطول كان يتألف من ٥٠ عشاريا و ٢٠ ديماسا ، لـكل منهم رئيس ونواتى لا يبرحونها . كما احتفظ الفاطميون بموانى صور

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) هذا ما ذكره المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٣٦) وهو يخالف ما ذكره الدكتور راشد البراوى (حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣٦٠) من أن أرزاق الأتراك بلغت ٣٣٦,٠٠٠ دينار فى الشهر .

(٣) خطط ج ١ ص ٤٨٢ .

صور وعكاء وعسقلان بعدد من الشوانى والشلنديات والمسطحات ، جريدتها ١٠ قواد و٥٠٠٠ بحار . وكان راتب الجندى يتراوح بين دينارين وعشرين دينارا . فإذا كان متوسط راتب البحار ١١ دينارا فتكون نفقات الأسطول ٥٠٠٠ × ١١ = ٥٥٠٠٠ دينارا شهريا عدا النفقات الأخرى .

وقد بلغ الأسطول الفاطمى وهو فى أوج عظمته ٧٥ شينيا (مدمرة) ، ١٠ مسطحات و١٠ حمالات . وقد جرت العادة عند دفع نفقات الأسطول أن يحضر الخليفة ويجلس الوزير إلى جواره ، ويحضر صاحب ديوان الجيش ، ويجلس بداخل عتبة المجلس ، ويجلس كاتب الجيش إلى جانبه تحت العتبة على حصر مفروشة . ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ، ويحضر الوزانون التابعون لبيت المال ، ثم يدخل مائة مائة فى البحارة كل بحسب نوع عمله ، فيقفون بين يدى الخليفة ، ويقرأ مستوفى الجيش أسماءهم واحداً واحدا من الكشوف التى دونت بها . فإذا نودى اسم البحار عبر إلى الجانب الآخر . وإذا بلغ عددهم عشرة ، وزن الوزانون نفقتهم ، ويعطى كل منهم خمسة دنانير ، يساوى كل دينار منها ٣٦ درهما ؛ فإذا دفعت نفقات الجند عن آخرها ، تجهزت السفن وأخذت أهبتها للسفر[١] .

(د) نفقات الخزائن والأعياد والمواسم :

وقد بلغت نفقات خزائن الكسوة صيفاً وشتاء ٦٠٠ر٩٠٠ دينار ، وبلغ ما خرج من هذه الخزائن من الكسى فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى ١٣ر٠٨٧ قطعة[٢] . وقد حوت الأهراء السلطانية التى انتشرت فى أماكن مختلفة من مدينة القاهرة ٣٠٠ر٠٠٠ أردب[٣] . وكان ينفق على خزانة البنود فى السنة مبلغ يتراوح بين ٧٠ر٠٠٠ و٨٠ر٠٠٠ دينار[٤] وينفق على خزانة التوابل ٥٠ر٠٠٠ دينار فى السنة ، وعلى خزينة الشراب ٦ر٥٠٠ دينار[٥] . أما دار الفطرة التى بناها الخليفة العزيز بالله فقد كانت تحوى كميات كبيرة

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٣ .
(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠٩ .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٤ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٠ .

من السكر والعسل والقلوب والزعفران والطيب والدقيق والخشكنانج والسندود والفانيذ والفستق ، و ينفق عليها ٧٠٠٠ر٧ دينار فى السنة[١] . و ينفق على دار التعبئة ، وتتولى تعبئة القصور ودار الوزارة والمناظر والحامات والمائدة وخزانة الكسوة ودار الضيافة وحاشية دار الوزارة ٣٫٦٥٠ دينار فى السنة[٢] . و ينفق على دار العلم ٢٥٧ ديناراً فى السنة مقابل شراء الحصر والورق والمحابر والأقلام[٣] .

و بلغت نفقات تسيير قافلة الحج ١٢٠٫٠٠٠ دينار ، منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠٫٠٠٠ دينار ، ونفقة الذين يوفدون لمرافقة الكسوة ٤٠٫٠٠٠ دينار . وكذلك نفقات ما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار فى طريق قافلة الحج ٦٠٫٠٠٠ ديناراً . وقد ذكر المقريزى أن نفقات قافلة الحج بلغت فى عهد وزارة اليازورى ٢٠٠٫٠٠٠ دينار[٤] . و بلغت نفقات الاحتفال بجبر الخليج ٢٫٠٠٠ دينار[٥] ، وبسماط شهر رمضان ٣٫٠٠٠ دينار[٦] ، وسماط عيدى الفطر والأضحى[٧] ، وثمن الكسوة فى عيد الفطر ٢٠٫٠٠٠ دينار[٨] ، وعيد النوروز[٩] ، وخميس العدس ٥٠٠ دينار[١٠] .

أما غرة أول العام فقد بلغت نفقاتها من الدنانير والرباعيات والقراريط ٣٫٠٠٠ دينار[١١] .

(هـ) هبات المساجد والمكتبات وغيرها :

كان الفاطميون يعتبرون المساجد والمكتبات وسائل لنشر دعوتهم ، فقد كانوا يعلمون فيها العقائد الفاطمية . لذلك بذل الخلفاء جهوداً خاصة لبناء مساجد جديدة وتأسيس مكتبات

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ج ١ ٤٢٢ .
(٣) المقريزى ج ١ ص ٤٥٩ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧٧ .
(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٨ .
(٧) المصر نفسه ج ١ ص ٤٣٦ .
(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٣ .
(٩) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٣ .
(١٠) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .
(١١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٥٠ .

كبيرة . ولم يَقْصُروا عن وقف الأوقاف وبذل العطايا والهبات للمساجد والإنفاق فى زينتها وزخرفتها بالمصابيح والتنانير التى كان بعضها من الفضة ، كما نُقلت إلى المساجد من مكتبة القصر نسخ من القرآن الكريم مختلفة الأشكال والأحجام ، بعضها مكتوب بالذهب . وقد كانت هذه المساجد تزين بأجمل زينة وتضاء بالأنوار الساطعة فى المواسم العامة ؛ وكان الخلفاء يشاهدون ذلك من المناظر .

ويقول القلقشندى عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة الجمع الثلاثة الأخيرة من رمضان ، إنه كان من عادتهم أن يمنحوا ديناراً لموظفى كل مسجد يمرون عليه فى طريقهم إلى القصر فى هذه الجمع . وكانت هذه المساجد كثيرة ؛ ولهذا يلاحظ القلقشندى أن عدد الدنانير التى كانت تنفق فى هذا السبيل كان عظيما ، أما معرفة مقدار تلك الدنانير بالتحقيق فهذا ما لم يذكره القلقشندى ولا غيره من المؤرخين .

وكان من كبار الموظفين تسعة يعرفون بالأستاذين المحنكين[1] : منهم صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر . وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار فى الشهر . وكان راتب كل من قاضى القضاة وداعى الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طبيبى الخليفة الخاصين خمسين ديناراً[2] .

ولدينا فيما علمناه من ثروة الخلفاء الفاطميين وأبهتهم وميلهم للمظاهر ميلا شديداً مايدلنا على ثروة كبار رجال دولتهم وسائر الشعب عامة ؛ فقد كان كل هؤلاء يمنحون كثيراً الهدايا والأطعمة فى الأعياد الدينية وغيرها من سائر الأعياد العامة ، كما كانوا يكتسون من بيت المال هم وأزواجهم وأولادهم وأتباعهم مرتين كل عام صيفاً وشتاء .

ويعجبنا أن نقرأ عن مخصصات تبلغ ٦٠٠٠٠٠ر٦٠٠ دينار ، أخذت من بيت المال عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لعمل الملابس المطلوبة لدار الكسوة التى أنشأها المعز سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وبقيت حتى سنة ٥٦٧ ، وهى السنة التى سقطت فيها الدولة الفاطمية . وكان

---

(١) جمع أستاذ محنك ، رجل مدرب ، وكان يتلثم بطرف من عمامته (معناه يجعل بعض عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمناء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال : وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر (القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

عدد الكسى التى منحت لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم سنة ٥١٦ هـ ١٤٣٠٥[1] .

وقد أمدنا المقريزى بعبارة بيّن فيها الكسى الكاملة ، ومقدار وقيمة كل كسوة ، منها التى كانت تمنح للأمراء على اختلافهم ، وللموظفين والكتاب ؛ ودوّن أسماءهم جميعاً . وقد كانت كسوة الآمر من الحرير الدبيقى المزركش بالذهب ، وقيمتها خمسمائة دينار . وكان كبار الأمراء يمتازون بلبس الأطواق والأساور وحمل السيوف المحلاة[2] .

وكان موظفو المساجد يمنحون أعطيات معتادة فى مناسبات مختلفة ؛ فمن أمثلة ذلك ركوب الخليفة لصلاة الجمعة ، أو للاحتفال ببعض الأعياد الدينية ، أو لزيارة أحد القصور ، كدار الملك وقصر القرافة والهَوْدج ومنازل العز التى كان من عادتهم الانتقال إليها تبديلا للهواء .

٤ — الزراعـــــة

(ا) مساحة الأرض :

بلغت مساحة الأرض المزروعة فى عهد المعز لدين الله الفاطمى ٢٨٥ر٧١٤ فدانا ، وفى عهد وزارة بدر الجمالى نحو هذا القدر ، وانعدمت أو كادت فى أواسط عهد الخليفة المستنصر . ولم يكن ذلك راجعاً إلى انخفاض ماء النيل أو الوباء ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى عدم اهتمام الحكام بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخلجان وإقامة الجسور ونحوها . ويمكننا أن نقف على اطراد النقص فى مساحة الأراضى المزروعة فى مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبت الآتى (ص ٥٦٨) :

(ب) الإقطاع :

يرجع نظام الإقطاع[3] أو الالتزام فى الإسلام إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛

(١) المقريزى خطط (ج ١ ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

(٢) المصدر نفسه (ج ١ ص ٤٠٩) . أما الوزير فكان يلبس عقداً من الأحجار الكريمة ، ومنديلا يلفه من تحت حلقه ، وجلباباً قصيراً ، ودرعاً مفتوحاً من النحر إلى أسفل ، وأزراره من ذهب مشبك أو لؤلؤ . وبذلك يمتاز عن سائر موظفى الدولة . وقد منح بدر الجمالى هذا لأول مرة (القلقشندى ج ٣ ص ٤٩٠) .

(٣) يقال اقتطع طائفة من الشىء أخذها ، وأقطعنى إياها أذن لى فى اقتطاعها ، واستقطعه إياها سأله أن يقطعه إياها : طائفة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقاً .

الحاكم	السنة الهجرية	المساحة المزروعة	مقدار الخراج بالدنانير	الضريبة على الفدان بالدنانير
عمرو بن العاص	٢٠	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢/٣
هشام بن عبد الملك	١٢٥	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢
المأمون	٢١٨	٢ر١٢٨ر٠٠٠	٤ر٢٥٧ر٠٠٠	٢
أحمد بن طولون	٢٧٠	؟	٤ر٨٠٠ر٠٠٠	؟
محمد الإخشيد	٣٣٤	٥٠٠ر٠٠٠	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٤
المعز لدين الله	٣٥٨	٢٨٥ر٧١٤	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٧
المستنصر	٤٨٧	٧٦٥ر٢٥٠	٣ر٠٦١ر٠٠٠	؟

فقد أقطع أناساً من مُزَيْنة ، أو جُهَيْنة ، أرضاً بقصد تعميرها ، فلم يعمروها ، وجاء آخرون فعمروها ؛ فاختصم الجهنيون ، أو المزينيون ، إلى عمر بن الخطاب فقال : مَنْ كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمَّرها قوم آخرون ، فهم أحق بها . وأقطع عثمان ابن عفان عبد الله بن مسعود النهرين ، كما أقطع سعد بن أبي وقاص قرية هُرْمُز . ويقول المقريزي إن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يقطعون بعض أراضي مصر نفراً من خواصهم ، وأنه كان يصرف من مال الخراج أعطيات الجند وسائر الـكُلَفْ ، ويحمل ما يفضُل إلى بيت المال ، وأن ما أقطع من الأرض أصبح بيد من أُقطِعه . على أن أراضي مصر أصبحت منذ عهد السلطان صلاح الدين تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده[1] .

ذكر الماوردي[2] نوعي الإقطاع فقال : « وهو ضربان : إقطاع استغلال ، وإقطاع تمليك ؛ والثاني ينقسم إلى موات وعامر . والثاني وهو ضربان : أحدهما ما يتعين مالـكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كان في دار الإسلام[3] . فإن كانت في دار الحرب[4] حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها ليملـكها المُقْطَع عند الظفر بها ، فإنه يجوز » .

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٩٧ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٨
(٣) يعني منطقة نفوذ الخليفة
(٤) يعني أرض العدو

وقد أوضح الأستاذ جروهمان[١] طريقة كراء الأرض المقطعة أو قَبالة الأراضى[٢] فقال : إن ذلك كان يحصل على طريقة المزاد على يد متولى خراج مصر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، حيث ينادَى على الأرض جزءاً جزءاً (أو كورة كورة) ، ويعطى لمن يرسو عليه المزاد لمدة أربع سنوات . وفى ذلك يقول المقريزى[٣] : « إن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قَبالة الأراضى . وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ أو الاستبحار وغير ذلك . فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبّل أرضاً وضمنها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج أبانه[٤] على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قَبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضرائبة مُقَدّرة فى ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى وجهات الضمان والمتقبّلين » .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور العباسى بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليعمروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وقد حذا أحمد بن طولون فى مصر حذو أبى جعفر المنصور العباسى حين أسس مدينة القطائع بعد أن ضاقت مدينة الفسطاط بخدمه ومماليكه وجنده ، فأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها ، فنرى قطيعة السودان ، وقطيعة الروم ، وقطيعة الفراشين وغيرها .

على أن نظام الإقطاع لم يخل من العيوب ؛ إذ أن المُقْطَع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة ، ولا يتردد فى إرهاق الأهالى وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ليستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحفظ ما زاد لنفسه . والأهالى

(١) Arabic Papyri in the Egyptian Library, vol. ii. pp. 64-5. وترجمة المؤلف (القاهرة ١٩٥٦) .

(٢) القبالة بالفتح الكفالة .

(٣) خطط ج ١ ص ٨٢ .

(٤) أى فى أثناء مدة الإيجارة .

فى ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلّما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية ؛ فقد كان بعض الجباة يسلكون معهم بعض وسائل التعذيب[١] .

وقد علق الأستاذ جروهمان[٢] على ما ذكره المقريزى عن طريقة إقطاع الأرض أو استئجارها فقال : « إن الشخص الذى يحوز الأرض باعتبارها ضيعة مستأجرة أو إقطاعية كان يؤدى عنها الخراج ، وأن إيجار هــذه الأرض مدة أربع سنين مثلا لم يكن سوى مظهر من المظاهر الرسمية ، وهو أشبه بحجة حق ملكية الدولة لهذه الأرض . كما أن عبارة عمارة الأرض لا تدل فقط على إصلاح الجسور وسد أفواه الترع وحفر الخلجان ، بل يدل أيضاً على إصلاح التربة وما تحتاج إليه الأرض من العمال .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض فى الولاية الواحدة ؛ بل قد يشمل ولاية برُمّتها .

وفى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى شكا أصحاب الإقطاعات من قلة ارتفاعها وسوء حالها ، على حين تضاعفت إقطاعات الأمراء وكثر ارتفاعها وزاد دخلها ؛ فأمر الأفضل بحل الإقطاعات جميعها ، وأمر برَوْكها ، أى مساحتها . ثم أعيد توزيعها من جديد ، وكتبت سجلات تقضى باستغلال هذه الإقطاعات مدة ثلاثين سنة . وكانت هذه السياسة من الأسباب التى أدت إلى ارتفاع خراج مصر فى عهد وزارة الأفضل حتى بلغت ٥٠٠٠٠٠٠ دينار . وأقبل الجند والأمراء على عمارة الأرض والعناية بها ، فكثرت الغلة وزاد الخراج العينى حتى بلغ مليون أردب .[٣]

وقد عرض ابن مماتى لبعض نظم الإقطاع التى كانت سائدة بمصر فى أواخر عهد الفاطميين فقال : إنه إذا انقضى أجل الإقطاع والأرض مزروعة ، أصبح المحصول من نصيب المقطع الجديد . كما كان المقطع أن يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان بمعدل دينارين وخمسة قراريط ، كما كان عليه أن يعتصر القصب فى معصرة الدولة ، وأن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة عليها ، ولا يتصرف فى التبن المودع

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٨ و ٦١ و ٧٠ و ٧١ .

(٢) Vol. ii, p. 64.

بمخازنها[١]. وهذا يشبه إلى حد ما بعض النظم الإقطاعية التى كانت سائدة فى أوربا فى ذلك العصر ، إذ كان على الفلاح أن يطحن قمحه فى مطحن السيد ، وأن يعتصر زيتونه فى معصرته ، وأن يؤدى له بعض الخدمات .

(ج) الرى :

لما كان الإنتاج الزراعى يتوقف على وفرة ماء الرى والعناية بخصب الأرض وجودتها ، كان طبيعيا أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الرى ، من صيانة للترع والمحافظة على الجسور . وكانت الجسور نوعين : « جسور سلطانية » تقيمها الدولة ، و « جسور بلدية » يقيمها الفلاحون[٢] . أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل . وكانت الدولة الفاطمية تفرض الضرائب على الأراضى الزراعية بالوجهين البحرى والقبلى لصيانة الجسور والمحافظة عليها . كما كان أهالى البلاد يسخرون فى إقامة الجسور ورم خللها فى وقت الفيضان مخافة أن يطغى ماء النيل على الأراضى الزراعية فيغرقها . وقد ظلت الحكومات المصرية تستخدم الأهالى فى صيانة هذه الجسور إلى عهد قريب[٣] .

أما الجسور البلدية فكانت تقام فى القرية أو فى الناحية أو فى الكورة . ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور . وكانت نفقات إقامة هذه الجسور توزع على الأفراد بالسوية ، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر[٤] .

وكانت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والأبحر[٥] والترع . وقد بلغ عدد خلجان مصر فى ذلك العصر ثمانية ، وبلغ عدد الأبحر خمسة وعشرين ؛ أما الترع فقد بلغت عدتها ١١٧ ترعة فى الوجهين البحرى والقبلى[٦] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٧ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) جمع بحر وهى الترعة الكبيرة أو الرياح فى المصطلح الحديث .

(٦) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ — ٢١٦ .

وقد استتبع اهتمام الفاطميين بالترع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل ، لأنها أشبه بميزان الرخاء أو الكساد . إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعا كان فى ذلك تمام الخراج وخصب البلاد . أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعا كان ذلك نذيرا بحلول كارثة الفيضان ؛ وأما إذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعا ، كان ذلك نذيرا بحلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية ، كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (١) .

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر فى طاعة الأمويين ، فبنى عامل مصر من قِبل معاوية مقياساً بأنصنا ، كما بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان . أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ ، وذلك فى عهد أسامة بن زيد . وقد جدد الخليفة المتوكل العباسى هذا المقياس فى سنة ٢٤٧ هـ . وقد جرت العادة أن يعين ولاة مصر عمالا من القبط لمراقبة هذه المقاييس لأنهم أخبر بها ؛ ولكن والى مصر من قبل هذا الخليفة جعل أمر الإشراف على هذا المقياس للمسلمين ، ورتب لعامل المقياس سبعة دنانير فى الشهر .

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وأنفق على إصلاحه ألف دينار . وهذا المقياس عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الأضلاع ، فى موضع يصل إليه الماء عند انسيابه ؛ وهو مقسم إلى اثنين وعشرين ذراعا ، والذراع مقسم إلى ٢٤ إصبعاً . أما الاثنا عشر ذراعا الأولى ، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصبعاً . وتبدأ زيادة النيل فى آخر بؤونة وأبيب ومسرى ، وتستمر الزيادة فى شهر توت كله . وبالمقياس ذراعان يسميان منكرا ونكيرا ، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر . فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس بمصر ، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعا . ودخل فى السادس كان فيه صلاح لبعض الناس . وإذا بلغ الماء تسعة أذرع ، انساب فى خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى . وقد جرت العادة أن تذاع نتائج المقياس على الناس ، فيخرج المنادى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن المعز لدين الله الفاطمى أمر بكتمان أمر المقياس ، لأن الناس إذا أحسوا بانخفاض النيل ، تسرب القلق إلى نفوسهم ، فأخفوا الغلال ،

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٥٩ .

وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر، و يعمل الأغنياء على اختزان الغلال، فيحدث الغلاء . و إذا أحس النـاس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار . لذلك كان فى كتمان الزيادة عن العامة فائدة تامة .

و إذا بلغ المـاء خمسة عشر ذراعا ثم ستة عشر ذراعا و إصبعاً واحداً . احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين . فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى ، وفاض المـاء ، « وعم الغيطان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً »[1] .

ولما كان رخاء مصر يرتبط ارتباطا بمنسوب ماء النيل لا بد من أن نأتى بثبت يسجل ارتفاع النيل وانخفاضه فى العصر الفاطمى ، حتى نستطيع أن نتبين السنين التى بلغ فيها منسوب النيل أعلى مداه ، والسنين التى انخفض فيها ماء النيل انخفاضاً هدد البلاد بأفدح الأضرار ، مع بيان ذلك بالأذرع والأصابع :

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٥٣٥٩	١٩ ر١٧	٣٧٣	٢ ر١٦	٣٨٧	٧ ر١٦	٤٠١	١٨ ر١٦
٣٦٠	٢١ ر١٧	٣٧٤	٤ ر١٦	٣٨٨	٧ ر١٦	٤٠٢	١٠ ر١٦
٣٦١	١٤ ر١٧	٣٧٥	١٠ ر١٦	٣٨٩	٢٠ ر١٦	٤٠٣	١٢ ر١٧
٣٦٢	٢ ر١٧	٣٧٦	٢١ ر١٧	٣٩٠	٢ ر١٦	٤٠٤	— ر١٧
٣٦٣	١٤ ر١٦	٣٧٧	١٠ ر١٧	٣٩١	٢٠ ر١٦	٤٠٥	٢ ر١٦
٣٦٤	٢٠ ر١٦	٣٧٨	١٢ ر١٧	٣٩٢	١٠ ر١٧	٤٠٦	٢ ر١٦
٣٦٥	—	٣٧٩	١٩ ر١٥	٣٩٣	١٥ ر١٦	٤٠٧	٤ ر١٧
٣٦٦	٤ ر١٦	٥٣٨٠	٢٠ ر١٦	٣٩٤	٥ ر١٧	٤٠٨	١٦ ر١٦
٣٦٧	٤ ر١٦	٣٨١	٢٣ ر١٦	٣٩٥	٣ ر١٦	٤٠٩	٢٣ ر١٦
٣٦٨	١ ر١٧	٣٨٢	١٨ ر١٦	٣٩٦	١٦ ر١٦	٤١٠	٨ ر١٩
٣٦٩	— ر١٧	٣٨٣	٢١ ر١٧	٣٩٧	١٦ ر١٤	٤١١	—
٣٧٠	٤ ر١٥	٣٨٤	٧ ر١٦	٣٩٨	٩ ر١٤	٤١٢	٣ ر١٦
٣٧١	٢ ر١٥	٣٨٥	٧ ر١٦	٣٩٩	٢٣ ر١٦	٤١٣	١٨ ر١٦
٣٧٢	٤ ر١٧	٣٨٦	—	٤٠٠	٢٣ ر١٦	٤١٤	٤ ر١٤

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٥٨ .

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٤١٥	— ر ١٦	٤٤٢	١٦ ر ١٧	٤٦٩	١٣ ر ١٧	٤٩٦	١ ر ١٧
٤١٦	٤ ر ١٦	٤٤٣	١٢ ر ١٧	٤٧٠	١٠ ر ١٧	٤٩٧	١٣
٤١٧	٧ ر ١٦	٤٤٤	٥ ر ١٧	٤٧١	٢٠ ر ١٧	٤٩٨	١٢ ر ١٦
٤١٨	١٣ ر ١٦	٤٤٥	— ر ١٧	٤٧٢	١٨ ر ١٥	٤٩٩	١٢ ر ١٦
٤١٩	٤ ر ١٧	٤٤٦	٤ ر ١٧	٤٧٣	١٥ ر ١٦	٥٠٠	١ ر ١٩
٤٢٠	— ر ١٦	٤٤٧	٤ ر ١٧	٤٧٤	١٣ ر ١٨	٥٠١	١٨ ر ١٧
٤٢١	٦ ر ١٦	٤٤٨	١٣ ر ١٧	٤٧٥	١٠ ر ١٥	٥٠٢	١٦ ر ١٧
٤٢٢	٦ ر ١٧	٤٤٩	٣ ر ١٧	٤٧٦	٩ ر ١٧	٥٠٣	٥ ر ١٧
٤٢٣	٤ ر ١٦	٤٥٠	١٢ ر ١٦	٤٧٧	١٣ ر ١٧	٥٠٤	٤ ر ١٧
٤٢٤	٢ ر ١٦	٤٥١	٢٣ ر ١٥	٤٧٨	٥ ر ١٥	٥٠٥	٤ ر ١٧
٤٢٥	٢١ ر ١٦	٤٥٢	٩ ر ١٦	٤٧٩	١٥ ر ١٧	٥٠٦	٣ ر ١٨
٤٢٦	١٥ ر ١٦	٤٥٣	١٨ ر ١٦	٤٨٠	٧ ر ١٧	٥٠٧	٣ ر ١٨
٤٢٧	١٥ ر ١٦	٤٥٤	١٧	٤٨١	٤ ر ١٨	٥٠٨	١٠ ر ١٧
٤٢٨	٩ ر ١٥	٤٥٥	١٢ ر ١٧	٤٨٢	٩ ر ١٦	٥٠٩	ر ١٨
٤٢٩	٢٠ ر ١٥	٤٥٦	٣ ر ١٦	٤٨٣	— ر ١٨	٥١٠	٦ ر ١٧
٤٣٠	٢٠ ر ١٧	٤٥٧	١٠ ر ١٦	٤٨٤	٢٢ ر ١٦	٥١١	١٩ ر ١٧
٤٣١	١٠ ر ١٧	٤٥٨	١٧ ر ١٦	٤٨٥	١١ ر ١٦	٥١٢	٤ ر ١٨
٤٣٢	٢٠ ر ١٧	٤٥٩	١٧ ر ١٦	٤٨٦	٣ ر ١٦	٥١٣	٧ ر ١٨
٤٣٣	١٧ ر ١٧	٤٦٠	٦ ر ١٥	٤٨٧	٢١ ر ١٦	٥١٤	١ ر ١٨
٤٣٤	١٦ ر ١٧	٤٦١	١٨ ر ١٧	٤٨٨	١٢ ر ١٧	٥١٥	١٠ ر ١٧
٤٣٥	٦ ر ١٨	٤٦٢	— ر ١٦	٤٨٩	١٧ ر ١٣	٥١٦	٣ ر ١٨
٤٣٦	٢٠ ر ١٧	٤٦٣	٣ ر ١٧	٤٩٠	١ ر ١٧	٥١٧	١٠ ر ١٨
٤٣٧	٢٠ ر ١٧	٤٦٤	١٠ ر ١٦	٤٩١	١٦ ر ١٨	٥١٨	١٤ ر ١٨
٤٣٨	١٩ ر ١٧	٤٦٥	٧ ر ١٦	٤٩٢	١٤ ر ١٦	٥١٩	١٤ ر ١٨
٤٣٩	٧ ر ١٦	٤٦٦	٣ ر ١٦	٤٩٣	١٥ ر ١٨	٥٢٠	١ ر ١٨
٤٤٠	١٧ ر ١٧	٤٦٧	٧ ر ١٧	٤٩٤	٧ ر ١٨	٥٢١	١ ر ١٧
٤٤١	٩ ر ١٧	٤٦٨	١٤ ر ١٦	٤٩٥	١٣ ر ١٧	٥٢٢	١٣ ر ١٨

السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس	السنة	المقياس
٥٢٣ هـ	٥ ر١٨	٥٣٥	١٢ ر١٧	٥٤٧	٤ ر١٨	٥٥٩	١٠ ر١٨
٥٢٤	٤ ر١٧	٥٣٦	١١ ر١٦	٥٤٨	٦ ر١٧	٥٦٠	١٨ ر١٧
٥٢٥	١٨ ر١٦	٥٣٧	١٨	٥٤٩	٢٠ ر١٧	٥٦١	٢٣ ر١٧
٥٢٦	١٠ ر١٧	٥٣٨	٩ ر١٦	٥٥٠	١٧ ر١٧	٥٦٢	٢٣ ر١٦
٥٢٧	١٥ر١٧	٥٣٩	٤ ر١٨	٥٥١	٨ ر١٧	٥٦٣	٢٣ ر١٧
٥٢٨	٢٣ ر١٧	٥٤٠	١٨	٥٥٢	١٠ر١٨	٥٦٤	١٢ ر١٦
٥٢٩	٣ ر١٨	٥٤١	٢٠ ر١٦	٥٥٣	١ ر١٥	٥٦٥	١٤ ر١٦
٥٣٠	٧ ر١٧	٥٤٢	٣ ر١٨	٥٥٤	١ ر١٥	٥٦٦	٢٠ ر١٧
٥٣١	١٦ ر١٧	٥٤٣	١٣ ر١٨	٥٥٥	١٠ ر١٨	٥٦٧	٢٠ ر١٧
٥٣٢	١٢ ر١٨	٥٤٤	١٨ ر١٧	٥٥٦	١٧ ر١٧		
٥٣٣	٥ ر١٨	٥٤٥	١٣ ر١٧	٥٥٧	١٧ ر١٧		
٥٣٤	١٧ ر١٦	٥٤٦	٤ ر١٨	٥٥٨	٨ ر١٧		

وكان نوع الأراضى من حيث جودتها أو رداءتها يتوقف على وفرة ماء الرى أو قلته . وقد ذكر المقريزى[1] أن أخصب أنواع الأرض فى مصر هى « الباق » ، وهى الأرض التى كانت مزروعة قرطاً أو مقاثى ، فهى أصلح الأرض لزراعة القمح وأوفرها إنتاجا ، لأن هذه النباتات تختزن المواد الآزوتية فى جذورها . فإذا تركت هذه الجذور فى الأرض أصبحت سماداً يغذى التربة ويقويها . ويلى الباق « الأرض الشراق » وهى الأرض التى ظمئت فى السنة الماضية فاشتدت حاجتها إلى الماء واستراحت . فإذا رويت وزرعت قمحاً أو شعيراً جاءت بمحصول وفير . ويلى الأرض الشراق « الأرض البَتْماهة » ، وهى الأرض التى كانت مزروعة كتاناً ، لأن الكتان يضعف الأرض ، ثم « الأرض الشَّتْوينة » وهى التى كانت شراق ثم زرعت . و « الأرض الوَسِخ » وهى الأرض التى لا يستطيع الفلاحون تنقيتها من الحشائش أو الحلفاء فيحرثونها بما فيها . وأردأ الأراضى الأراضى الخِرْس التى تكثر بها الحلفاء وغيرها من النباتات البرية ولا يستطاع حرثها أو ريها[2] .

(١) خطط ج ١ ص ١٠٠

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٠١ — ٢٠٤ . المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٠ .

(د) المحاصيل :

كانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي –ولا تزال تنقسم– إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية أما المحاصيل الشتوية ، فقد أورد ابن مماتي أهمها وهي :

١ — القمح : وكان يؤلف المحصول الرئيسي للبلاد ، ويزرع في منتصف بابه ويحصد في كيهك ، ويحتاج الفدان لزراعته من أردب إلى خمس ويبات . ويُغِلّ محصولا يتراوح بين أردبين وعشرين أردبا تبعاً لخصوبة الأرض . وكانت قطيعة (ضريبة) الفدان ثلاثة أرادب . وهذا يشبه نظام « الحيازة » المتبع اليوم .

٢ — الشعير : وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام ويحصد قبل القمح كذلك بأيام ، ويحتاج الفدان من بذور الشعير مثلما يحتاجه من بذور القمح ويحصد في شهر برمودة ، ويغل الفدان من الشعير مثلما يغله من القمح ، وقطيعته مثل قطيعة القمح .

٣ — الفول : وكان يزرع بضواحي القاهرة في أول بابه ويؤكل أخضر في كيهك ، ويستخدم في زراعته نصف أردب من البذور ، ويحصد في برمودة ، ويغل من أردبين إلى عشرين أردبا ، وضريبته تتراوح بين أردبين ونصف وثلاثة أرادب .

٤ — الحمص والجلبان والعدس : وتزرع في شهر هاتور ، ويستخدم في زراعة كل فدان ثماني ويبات من الحمص وأربع ويبات من الجلبان وويبتين من العدس . ويجمع المحصول في برمودة . ويغل فدان الحمص من أربعة إلى عشرة أرادب ، والجلبان عشرة أرادب ، والعدس من خمسة أرادب إلى عشرين أردباً . ويبلغ خراج الفدان من كل من هذه المحاصيل أردبين ونصف .

٥ — الكتان : ويزرع في هاتور ويستخدم في زراعة الفدان أردب من البذور ويقلع في برمودة ، ويغل ثلاثين حبلا ، ومن البذور من ثلاثة أرادب إلى ستة أرادب . ويبلغ خراج الفدان من ثلاثة دنانير إلى خمسة دنانير . وقد بلغ في منطقة دلاص ١٣ ديناراً .

٦ — القُرْط (البرسيم) : وتلقى بذوره حين يأخذ الماء في الهبوط في شهر بابه ، ويستخدم في زراعة الفدان ويبتان ونصف ، ويؤكل أخضر في كيهك ، ويغل من أردبين إلى أربعة أرادب ، ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحدا .

٧ — البصل والثوم : وتبدأ زراعتهما فى هاتور ، ويحتاج فدان البصل من ثلاثة أرباع الويبة إلى ويبة واحدة ، ويحتاج الثوم من مائة حزمة إلى مائة وخمسين حزمة . وتجمع الغلة فى برمودة وتتراوح مدة بقائه فى الأرض من سبعين يوماً إلى تسعين يوماً ، وبذلك يختلف باختلاف درجة الحرارة فى الوجهين البحرى والقبلى . ويطلق عليه الآن « السبعينى » أو « التسعينى » تبعاً لعدد أيام بقائه فى الأرض . وكانت غلة الفدان فى العصر الفاطمى تتراوح بين عشرة دنانير وعشرين ديناراً . وقد أصبح محصول البصل يتأثر اليوم بالسوق العالمية ، فترتفع غلته أحياناً إلى مائة جنيه وتنخفض أحياناً أخرى إلى أقل من خمسة جنيهات . وقد بلغ خراج فدان البصل دينارين .

٨ — الترمس : ويزرع فى طوبة ، ويحتاج الفدان إلى أردب من البذور ويحصد فى برمودة ، وينتج عشرين أردباً ، ويبلغ خراجه ديناراً وربع دينار .

٩ — الكمون والكراويا والشَّلْجَم : وتزرع فى أوائل أمشير ، ويحتاج الفدان إلى قدحين من البذور ، ويجمع المحصول فى برمودة ، وينتج ما قيمته من خمسة دنانير إلى عشرين ، ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحداً . ويلاحظ أن زراعة هذه الغلات أخذت تقل بسبب تحول الأرض من أرض حياض إلى أرض تروى رياً مستديماً . وذلك لأن هذه الغلات تتأثر بكثرة الماء ، ويجب ألا تروى أكثر من مرة واحدة فى السنة . وكذلك الحال بالنسبة إلى الفول والعدس والترمس .

١٠ — البطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا : وتزرع فى شهر برمهات ، ويجنى المحصول فى بشنس ، ويغل محصولا يتراوح ثمنه بين دينارين وعشرين ديناراً . ويبلغ خراج القثائى من دينار إلى دينارين وخراج اللوبيا ثلاثة دنانير .

١١ — السمسم ، ويزرع فى برمودة ويحتاج الفدان إلى ويبة من البذور ، ويجمع المحصول فى شهرى أبيب ومسرى . وينتج من أردب واحد إلى ستة أرادب ، ويبلغ خراجه ديناراً واحدا .

١٢ — القطن : ويزرع فى برمودة ، ويحتاج الفدان إلى أربع ويبات من البذور ، ويجنى المحصول فى شهر توت ، وينتج الفدان من قنطارين إلى ثمانية قناطير ، ويبلغ

خراج الفدان قنطاراً واحداً . ومن ذلك يتبين أن زراعة القطن قديمة فى مصر .

١٣— القصب السكر : ويزرع فى نصف برمهات ، ويحتاج الفدان إلى ثمن فدان من القصب الذى يقطع ويدفن فى الأرض زوجا زوجا ، ولا يكون فى قطعة القصب (المُقلة) أقل من عينين (مثنى عين وهى « البز ») . وينضج « القصب الرأس » أى الذى يزرع لأول مرة ، فى طوبة . أما « قصب الخِلفة » وهو الجيل الثانى ، فينضج فى هاتور ويحمل إلى المعاصر فى أيام النيروز . ويغل الفدان من أربعين إلى ثمانين أبلوجة أى حزمة كبيرة من عيدان القصب (لِبْشة) . كما يغل ما قيمته من عشرين ديناراً إلى مائة دينار من عسل وقند وهو سكر العسل[1] . ويبلغ خراج قصب الرأس خمسة دنانير ، وقصب الخلفة دينارين وخمسة قراريط .

١٤ — القلقاس : ويزرع بالطريقة التى يزرع بها القصب ، ويحتاج إلى عشرة قناطير من ثمار القلقاس ، ويجنى فى هاتور ، ويغل مبلغاً يتراوح بين خمسة دنانير وأربعين ديناراً ، ويبلغ خراجه أربعة دنانير .

١٥ — الباذنجان : ويزرع فى برمهات وبرمودة وبشنس وبؤونة ، ويستخدم فى زراعة الفدان ما قيمته دينار من الشتل ، ويجمع المحصول فى بؤونة أو أبيب أو مسرى ، ويغل محصولا يبلغ ثمنه ثلاثين ديناراً ، ويبلغ خراج الفدان ثلاثة دنانير .

١٦ — السمسم النيلى : ويزرع فى أواخر بؤونة ، ويحتاج الفدان إلى ربع ويبة من البذور ويجمع فى توت ، ويغل من أردب إلى خمسة أرادب .

١٧ — النيلة : وتزرع فى بشنس وبؤونة ، وتحتاج من ثلاثة أرباع ويبة إلى ويبة من البذور ، وتجمع غلتها فى أبيب ومسرى ، وتغل ما قيمته ستة وعشرين ديناراً ، ويبلغ خراج الفدان ثلاثة دنانير .

١٨ — الفجل : ويزرع فى جميع شهور السنة ، ويحتاج الفدان من قدح واحد إلى قدحين من البذور ، ويجمع أيضاً فى جميع شهور السنة ، ويغل ما قيمته من أربعة دنانير إلى ستة دنانير . ويبلغ خراج الفدان ديناراً واحداً .

---

(١) ويسمى الآن جلاب .

١٩ — اللفت : ويزرع فى أبيب ومسرى وتوت وبابه ، ويحتاج إلى قدح واحد من البذور ، ويجمع بعد أربعين يوماً من زراعته ، ويغل ما تتراوح قيمته من أربعة دنانير إلى ستة دنانير ، ويبلغ خراجه ديناراً واحداً .

٢٠ — الخس : ويزرع فى طوبة ، ويحتاج من الشتل إلى ما قيمته ربع دينار ، ويبقى فى الأرض شهرين ، ويغل الفدان ما قيمته عشرة دنانير ، ويبلغ خراجه دينارين .

٢١ — الكرمب : ويزرع فى توت ، ويحتاج من الشتل إلى ما قيمته ديناران ويقلع فى هاتور ، ويغل ما قيمته عشرون ديناراً ، وخراجه ديناران[١] .

وأما المحاصيل الصيفية فقد اقتصرت زراعتها على الأراضى التى تحف بنهر النيل وذلك نظراً لجفاف الترع . وكانوا يرفعون الماء بالسواقى والقواديس وغيرها . لذلك لم تكن هذه المحاصيل من الوفرة بحيث تسد حاجة الأهلين[٢] .

كما عنى الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها . فكانت بساتين مصر فى العهد الفاطمى تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والنخل والموز . كذلك عنوا بزراعة الورود كالنرجس والياسمين والمرسين والريحان والمنثور والخيار شنبر[٣] .

(و) المجاعات :

وعلى الرغم من الازدهار فى العصر الفاطمى ووفرة المحصول ، كانت البلاد تتعرض لكثير من الأزمات الاقتصادية نتيجة لانخفاض ماء النيل ، أو إهمال العناية بالترع والقصور ، أو انتشار الفتن والقلاقل ، واضطراب حبل الأمن .

وكانت أولى المشاكل التى جابهت جوهراً فى هذه البلاد ، العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التى انتابتها . وكان من حسن حظه ، أن المعز لما لم يفتح هذه البلاد بعث إليه بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مدينة مصر كربهم ردحا من

(١) انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٥٨ — ٢٧٠ .

(٢) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٦٧ .

(٣) ابن مماتى ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

الزمن . كذلك أنشأ جوهر فى الوقت نفسه مخزناً عاماً للحبوب عهد برقابته إلى المحتسب ، ومهمته منع احتكار هذه الحبوب والانفراد بتقدير أثمانها ، وجلد كل من لم ينزل عند أوامره من أصحاب المطاحن .

على أن هذه الوسائل لم تؤد إلى انفراج الأزمة نهائياً ، وإن كان لها أثرها فى اكتساب الفاطميين محبة الأهلين ورضاهم . وقد استمرت المجاعة والوباء حتى نهاية سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) ؛ ولم تنته المجاعة إلا فى الشتاء التالى ، فى غضون الشهور الأولى من سنة ٣٦١ هـ (أكتوبر وما يليه من سنة ٩٧١) ، حيث بدأت البلاد تسترد نشاطها إثر زوال الوباء(١) .

وبعد زيارة ناصر خسرو لمصر بقليل ، حلت بالقاهرة الأيام السيئة وعاودتها المصائب التى لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . وقبض على نواصى العناصر المتألبة المعادية على اختلافها فى هـذه الأثناء الوزير اليازورى مدة تسع سنين ، وبذل قصارى جهده فى معالجة خطر المجاعة التى كانت تهدد البلاد دائماً ، تلك المجاعة التى كان يصحبها غالباً الوباء والبؤس العام ، وما يتبع ذلك من الفوضى والجرائم . ووجد اليازورى فى مخازن الغلال التى كان مستولياً عليها ما أبعد ذلك الخطر مدة حياته . غير أنه بعد قتله (صفر سنة ٤٥٠ هـ و١٠٥٨م) لم يكن هناك من يقف فى وجه هذه العناصر المتطاحنة(٢) .

ويبين لنا تزعزع مركز الحكومة ما كان من تعاقب أربعين وزارة مختلفة فى تسع سنوات . وقد كانت السلطة فى هـذه الآونة بيد الجنود التركية ، وقد طردوا الجنود السودانية التى كانوا يكرهونها ، والتى كانت تعتمد عليهم أم الخليفة ، وكان عددهم خمسين ألفاً ؛ فأبعدوا جهة الصعيد حيث استقر منهم خمسة عشر ألفاً . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهلين وحالوا دون زراعة الأراضى (٤٥٩ هـ) ؛ وقد اكتسح الغالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، الدلتا حتى وصلوا إلى الإسكندرية فاستقروا بها .

أما الأتراك فقد انتهزوا تلك الفرصة وانتهبوا المدينة ، وارتكبوا أعمال العنف والشدة لإيذاء الخليفة الذى لم يكن له ظهير ، والذى أصبح بيت ماله خلواً من المال المطلوب لإرضاء

(١) يحيى بن سعيد ص ١٢٩ و ١٣٠

(٢) ابن ميسر ص ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٧ — ٢٢ و ٣٤

مطالبهم التى كانوا يركنون إلى القوة فى سبيل الحصول عليها [١] .

وأتلف هؤلاء الأتراك فى ثورتهم قصور الخلفاء الجميلة ، وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوّم ، والأحجار الكريمة والجوهرات ؛ وأمر من هذا كله ، أنهم أغاروا على المكتبات المنقطعة النظير [٢] . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعبُ الذى ألقته الجنود السودانية المشتتة فى جميع أنحاء البلاد . ومع ذلك لم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد .

ولقد شعرت القاهرة ومصر الفتان حرمتا من الإمدادات التى كانت تأتيها عادة من الأقاليم بندرة الأقوات شعوراً قاسياً . فقد بلغ ثمن الرغيف خمسة عشر ديناراً ، كما كانت تباع بعض المنازل بربع من الدقيق . وكان بعض كريمات النساء يعرضن حليهن النادر الثمين ، فلا يوجد من يشتريه فى مقابل شىء من الطعام . وكانت الخيل والحمير والكلاب والقطط تبيع بأثمان فادحة ، ويقبل الناس الجياع على التهام لحمها .

وسرعان ما عَدِمت أمثال هذه الحيوانات فلم يوجد ما يذبح منها ، حتى إن اصطبل الخليفة قلت دوابه ، بحيث لم يستطع خدام الخيول الجياع جمع أكثر من ثلاثة أفراس صغيرة لمولاهم . وكانت نتيجة هذا كله أن أصبح الناس يخطف بعضهم بعضاً من الطرقات ، وأصبح لحم الإنسان يباع عند الجزارين [٣] .

وجاء بعد ذلك الوباء ، فحصد الأرواح بمنجله حصداً ذريعاً ؛ فكان يكتسح الديار داراً بعد دار . ولم يكن هناك فرق بين عظيم وحقير ؛ بل نالت المصائب من الجميع على السواء ، حتى إن الخليفة نفسه ، الذى أتلف الأتراك ماله ، والذى كان معتزلا فى داره ، كان مديناً بحفظ حياته إلى بنت أحد الفقهاء ، إذ كانت تجرى عليه رغيفين كل يوم . أما زوجته وبناته فقد فررن إلى بغداد هرباً من الطاعون .

وقد ظلت مصر مدة سبع سنوات فى حالة يرثى لها من البؤس الذى أعقبته المجاعة

(١) يقول ابن ميسر (ص ١٧) عند كلامه على حوادث سنة ٤٦٠ هـ ، إن مخصصات الأتراك التى كانت قبل ذلك عشرين ألف دينار فى الشهر (٢٤٠،٠٠٠ فى السنة) بلغت فى ذلك الوقت أربعمائة ألف دينار فى الشهر (٤،٨٠٠،٠٠٠ فى السنة) .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧ و ١٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠

وما صحبها من الجرائم ، و بلغت الحالة درجة لم تعرفها البلاد من قبل . وأخيراً انتهت تلك الأيام وما فيها من البلاء ، وجاءت غلة عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وفيرة . وفى رجب من هذا العام قتل زعيم أشراف الأتراك ناصر الدولة بن حمدان الذى هدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد ؛ وجاء الوزير الخطير بدر الجمالى ، فأنقذ الدولة الفاطمية المزعزعة الأركان[1] .

وعلى الرغم من رخاء مصر وعظم ثرائها والأموال التى كانت تفيض بها خزائن الفاطميين ، كانت هذه الثروة تذهب إلى جيوب الخلفاء ؛ فساءت حال الفلاح ، وانتابته المجاعات ، وانتشرت الأوبئة ، ونضبت فى عهد المستنصر ثروة مصر ، وأصبحت البلاد فى حالة اقتصادية سيئة .

٥ — الصناعة

تحضرنى فى بداية الكلام فى هذا الفصل ، ملاحظة جديرة بالنظر وهى أن معظم صناعات الفاطميين زُينت بصور آدمية وحيوانية كثيرة ، وهو أمر لم يكن مرغوباً فيه عند أهل السنة ، إذ اشتهر عند فقهائهم كراهيتهم لرسم الكائنات الحية ، أما فقهاء الشيعة فلم يحفلوا كثيراً بهذا الموضوع ، بدليل أن الإيرانيين والفاطميين لم يقيدوا بنصوص تحرم عليهم رسم الكائنات الحية . وكان من أثر ذلك أننا نشاهد هذه الرسوم بكثرة فى فنون الإيرانيين والفاطميين على السواء[2] .

(ا) النسيج :

من الصناعات التى ازدهرت فى العصر الفاطمى صناعة النسيج : فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذى كثرت زراعته فى الفيوم . ومن أشهر مراكز هذه الصناعة فى القرن الرابع الهجرى إقليم الفيوم ونواحى بحيرة تنيس ، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التى تنسب

---

(١) وصف ابن منجب ص ٥٥ و ٥٦ حالة مصر بإيجاز عند كلامه على وزارة بدر الجمالى .
راجع ما كتبه مسيو فييت (Wiet) عن بدر الجمالى فى مذكرات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، المجلد الثانى والخمسون Mémoires (Publiés par les membres) de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (M.I F.A.O.),

(٢) Ahmad M. Issa, Muslims and Taswir the Moslem World, Volume XLV. No, 3, July, 1955.



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على ارضية حمراء



إليها الثياب الدبيقية ، وفى تنيس التى كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠٠٠٠ و٣٠٠٠٠ دينار سنويا . وفى دبيق كانت تصنع « الثياب الملونة والعمائم الشرب الملونة ، والدبيقى العلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقمات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل »[1] :

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج ، حتى سميت دمياط الأعاجم : كما كان لصناعة القطن فى شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز فى صناعة الكتان ، حتى قال الثعالبى إن القطن لخراسان والكتان لمصر[2] .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة . فقد بلغ نظام الطراز[3] مبلغاً كبيراً من الرقى ، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية . وتتبين لنا مقدار مهارة المصريين وحذقهم فى تلك الصناعات ، من وصف الكسوة[4] التى أمر الخليفة الفاطمى المعز بعملها للكعبة . وكانت مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر ، سعتها مائة وأربعون شبرا ، وفى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، فى كل هلال أترجة ذهبية ، بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، ونقشت فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج[5] بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ، ووضعت فى القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه[6] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٢٦

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٣) فارسى الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة ، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، وعلى النقوش التى توضع على الأشرطة المستعرضة من أى نوع ، سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار ، أو كان محفوراً بالخشب . وكانت دار الطراز الفاطمية تقوم بصناعة الحصر الرفيعة . انظر الجوذرى : سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠

(٤) بضم الكاف وكسرها .

(٥) ٩ : ٩٥ ، ٩٦ : ٣ .

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم ، وعنى الخلفاء من بعده بصناعة النسيج ، وكانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم ، كما كانوا يصنعون الكسوه الشريفة ، والخلع التى يمنحونها بسعة للوزراء الوزراء والأمراء والأشراف فى عيد الفطر ، حتى سمى هذا العيد عيد الحلل .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت فى هذا العصر . من ذلك الثياب العتابية المصنوعة من الحرير ، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد[1] . والخسرُوانى (أو الخسروانى بفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسروشاه أحد ملوك الفرس[2] ، والقلمونى ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع فى دمياط وتنيس خاصة[3] ، والتسترى ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر[4] أشهر مدن خوزستان ، والقرقبى ، وهو نوع من القماش كان يصنع فى بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع فى دمياط وتنيس ، واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التى تتغير دائما لا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس[5] . والنّصْفية ، وهى ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وقد ذكر المقريزى[6] أن الخليفة المعز الفاطمى أمر فى سنة ٣٥٣ ﻫ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التسترى والقرقوبى المنسوج بالذهب ، كان مبيناً عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن ، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . كما ذكر المقريزى[7] أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسروانى كان أكثره مذهباً ، كما ترك حشية قلمونية بيعت بألفين وأربعمائة دينار .

---

(١) كان عتاب ابن حفيد عيرة ، وإليه ينسب هذا الحى الذى اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب . انظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٢) Lane : Arabic-English Lexicon

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٤) وهى معربة عن شستر

(٥) القرقب طائر يرى فى القفر والمستنقعات ، انظر معجم البلدان لياقوت

(٦) خطط ج ١ ص ٤١٧

(٧) خطط ج ١ ص ٤١٦

وقد نقل المقريزى عن ابن عبد العزيز الأنماطى أحد أمناء البيع أن عدد مقاطع النسيج الخسروانى بلغ فى عهد المستنصر خمسين ألفا ، وكان أكثره مذهبا . ويقول المقريزى فى عبارة أخرى عن ابن عبد العزيز هذا إن عدد هذه المقاطع بلغ مائة ألف ؛ وكان منها حشية خسروانية بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، كما بيعت حشية أخرى قَلَمُونية[1] بألفين وأربعمائة دينار . وذلك كله عدا عشرين ألف قطعة جديدة من النسيج الخسروانى . وقد بيع هذا كله فى شهر صفر من سنة ٤٦٠ فى نحو خمسة عشر يوما[2] .

وأخذ بعد هـذا بقليل من خزينة الرفوف[3] ألفا عدل من القماش المحلى بالذهب ، كما بيع من خزينة أخرى من خزائن الفرش ثلاثة آلاف من القماش الخسروانى المطرز لم يستعمل بعد ؛ وكان ذلك معداً لتأثيث بيوت كاملة بما تحتاج إليه من مساند ووسائد وحَشِيّات وبسط وستور وأحْبَاس[4] وغير ذلك ؛ وعدد عظيم من الحصير السامانى المشغول بالذهب والفضة ، وأربعة آلاف عِدل من الخسروانى الجديد المطرز بالذهب ، وكان كل عدل منها كافياً لتأثيث غرفة بالبسط والستور وما إلى ذلك[5] .

وكان من بين أمتعة القصر مِضْرَب الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ؛ وكانت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكذلك مضرب الوزير اليازورى ، وكان مجموعة رسوم فنية ، كلفه ثلاثين ألف دينار ، واشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات حتى أتموه . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدما ، واتساع محيطه ألف قدم تقريبا ؛ وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم[6] .

---

(١) نسبة إلى قلمون ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وكان أول ما ظهر فى بلاد اليونان ، ثم أصبح يصنع فى مصر وخاصة فى دمياط وتنيس (انظر معجم البلدان لياقوت و Dozy, Supplément)

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٦ .

(٣) يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٦) إنها سميت بذلك لكثرة ما بها من الرفوف .

(٤) جمع حِبس وهو الملاءة .

(٥) المقريزى خطط ج ص ٤١٦ و ٤١٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ٤١٩ .

ومما تركه الأفضل أيضاً تسعون ألف ثوب عتّابي[١] من الديباج ، وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدَّبيقية من صنع تنيس ودمياط ، وخزانة أخرى للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره ، مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ؛ أما أوانى المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث لا يمكن عدها[٢] .

وكان فى ثروة الأفضل غير ما تقدم أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفُرُش والوسائد والمساند والديباج ، وأنواع مختلفة من الدبيقى الحرير المذهب ، وعدة صناديق ملأى بأحقاق الذهب خاصة لاستعمال الوزير ، وخزائن أخرى ملأى بمختلف الثياب الديباجية المحلاة بالذهب .

أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد ، وخمسمائة قطعة من البلور ما بين كبيرة وصغيرة ، وخمسمائة قطعة مُحْكَم[٣] لنقل الأمتعة ، وألف عِدل من أمتعة اليمن والإسكندرية وبلاد المغرب ، وسبعة آلاف سرج .

وكان صنع كل كسوة يختلف عن صنع غيره من سائر الكسى ، وذلك لكى تصلح كل منها لاحتفال خاص ، كالاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السماط فى أول يوم من أيام عيد الفطر . ويذكر المقريزى أن إحدى هذه الكسى اشتملت على ٧٠٣ من المثاقيل من خيوط الذهب والفضة ، وقد أنفق فى زركشة كل مثقال منها دينار[٤] . أما المناديل فقد أنفق على الواحد منها خمسة دنانير[٥] .

والمنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية فى تاريخ الدولة الفاطمية :

---

(١) نوع من الثياب الحريرية ، تنسب كما ذكر دوزى فى شرح تاريخ هذا اللفظ ، إلى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب ؛ وإليه ينسب حى ببغداد ، وفيه تصنع هذه الثياب التى صارت تعرف بالثياب العتابية (انظر Dozy, Supplément)

(٢) ابن ميسر ص ٥٧ .

(٣) لم أعثر على معنى هذا اللفظ رغم رجوعى إلى قاموس الملابس عند العرب Dozy, Diotionnaire des Vétements chez les Arabes, وإلى غيره من الموسوعات العربية كالقاموس المحيط الفيروزابادى .

(٤) خطط (ج ١ ص ٤١٠) ، وعلى ما أورده المقريزى ، كان كل تسع قصبات من الخيوط الذهبية والفضية تزن مثقالا ، فكان عدد القصبات ٦٣٢٧

(٥) المصدر نفسه .

فالنوع الأول وينسب إلى عصر المعز والعزيز والحاكم وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض ، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود .

والنوع الثانى وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر ، وقد تنوعت الأشرطة الزخرفية واتسعت وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة ، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية . وقد أصبحت الكتابة عنصراً زخرفياً .

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلى والآمر ، وقد تطورت فيه الزخرفة ، وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجدائل التى تتموج وتتداخل ويدخل بينها جامات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوساً بها فاكهة — تتخللها سطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره .

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمى ، وتتألف زخارفه من جدائل تتقاطع وتتشابك ، وتؤلف جامات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ[1] .

(ب) الصناعات الخشبية :

١ — بناء السفن : عنى ولاة مصر الإسلامية ببناء السفن الحربية والتجارية ؛ فبنى مَسْلَمَة بن مُخَلَّد (٤٧ — ٦١ هـ) فى جزيرة الروضة داراً لصناعة السفن أطلق عليها « دار الصناعة » . وعنى أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية . ونقل محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية دار الصناعة من الروضة إلى الفسطاط فى مكان عرف باسم « صناعة السفن » ، وغدت السفن الحربية والتجارية تصنع فى دار صناعة مصر تارة وفى دار صناعة الجزيرة تارة أخرى .

ولما فتح الفاطميون مصر لم تقف عنايتهم عند اهتمامهم بتكوين الجيش ، بل شعروا بالحاجة الملحة إلى أسطول قوى يصد البيزنطيين عن بلاد الشام التى كانت تناوئ سلطان الفاطميين[2] . ومن ثم أنشأ الخليفة المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها

---

(١) Migeon, Manuel d' Art musulman, tome ii, pp. 300 - 9 . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣٥٠ — ٣٥٨

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٣

ستمائة مركب وصفها المسبحى المؤرخ المصرى فقال : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً » . كما اشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية ، وبنيت فى مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشوانى[1] .

كما أنشأ الفاطميون دوراً لصناعة السفن فى الإسكندرية ودمياط[2] . وعنوا بجلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات فى كثير من جهات الصعيد . ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب كافياً ، لأن الخشب المحلى لم يكن يمتاز بالصلابة المطلوبة . لهذا كانوا يستوردون الخشب من أوربا عن طريق البنادقة . وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تصدير الخشب إلى مصر ، مما هدد صناعة السفن[3] . وقد احترق الأسطول الفاطمى فى سنة ٣٨٦ هـ حتى لم يبق منه غير ست سفن ، ولم تجد البلاد حاجتها من الخشب ، فأمر عيسى بن نسطورس بقطع الخشب حيث وجد ، وطلب الصناع ، وبات فى دار الصناعة ، وأخذ يحث العمال على الإسراع فى بناء السفن حتى استطاع فى شهر واحد أن يبنى مركبين غاية فى الكبر ، وتم ذلك فى ٧ من شهر جمادى الآخرة من تلك السنة . وفى غرة شهر شعبان أنزل عيسى إلى الماء أربع مراكب أخرى ، واستطاع الفاطميون بعد عناء أن يفيقوا من أثر هذه الكارثة[4] ، واستطاعت دور الصناعة التى انتشرت فى البلاد أن تمد الأسطول المصرى بحاجته من السفن .

٢ — الحفر على الخشب : ومن الصناعات الخشبية صناعة الحفر على الخشب . وعلى الرغم من أن التحف الخشبية المصنوعة بمصر فى العصر الفاطمى الأول كان يتجلى فيها الانتقال من الأساليب الفنية فى العهد الطولونى والإخشيدى إلى الأساليب التى تفوقت فى آخر العصر الفاطمى . إلا أن هذه الصنعة قد ازدهرت حتى بلغت الغاية فى العصر الذهبى للدولة الفاطمية ، إذ أبدع الفاطميون فى نقش الفروع النباتية وأوراق الأشجار ورسوم الحيوانات والطيور . ويرجع الفضل فى ذلك إلى القبط الذين مهروا فى صناعة النجارة والحفر

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٧

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٣

(٣) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٥٣

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٦ .

على الخشب . ويبدو أن تسامح الفاطميين مع القبط قد أتاح لهم الإبداع والتجديد فى هذه الصناعة . وتجلى ذلك فى الآثار الخشبية التى تنسب إلى العصر الفاطمى ، مثل التحف الخشبية التى وجدت بكنيسة السيدة بربارا بمصر القديمة . ومما يشهد بتفوق صناعة الحفر على الخشب فى ذلك العصر الألواح الخشبية التى عثر عليها بمارستان قلاوون الذى قام على أنقاض القصر الغربى الفاطمى . وهذه الألواح غنية بزخارفها فريدة فى إتقان صنعتها.

ومن أهم التحف الخشبية منبر حرم الخليل بفلسطين . وقد نقشت على بابه وعلى جانبيه كتابة تاريخية بخط كوفى جميل ، وتستلفت زخارف هذا المنبر النظر بدقة الفروع النباتية التى نقشت فى أشكال هندسية . إلا أن أروع التحف الخشبية الفاطمية هى المحاريب الثلاثة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، وأقدمها كان بالجامع الأزهر ، والثانى بجامع السيدة نفيسة ، والثالث بجامع السيدة رقية[1].

٣ — الورق والتجليد — صناعة الجلود : ازدهرت الحركة العلمية فى العصر الفاطمى بسبب اهتمام الفاطميين بنشر الدعاية العلمية والأدبية ، فأنشئت دار الحكمة فى القاهرة وجلس بها الفقهاء للتدريس ، وحملت إليها الكتب ، وأبيح دخولها للناس ، للقراءة ونسخ الكتب كما جلس فيها القراء والمنجمون وعلماء النحو واللغة حتى الأطباء . ورتب لها الفاطميون القوّام والخدم والفراشين ، وكان يصرف للمترددين عليها ما يحتاجون إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . وكانت الدولة تنفق على أهل العلم فى هذه الدار ٢٥٧ ديناراً فى السنة ، منها عشره دنانير ثمناً لورق الكاتب والناسخ[2] . وقد رتب الوزير يعقوب بن كلس فى داره قوماً ينسخون القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب[3] . وكان من أثر ذلك أن راجت صناعة الورق فى ذلك العصر . وكان ورق البردى الذى اشتهر بمصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسى الثانى ، ثم حل محله الكاغد الذى انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر . وانتشرت صناعة الورق

---

(١) Migeon, tome i. pp. 307 - 308

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٥٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٤ .

فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام ، وحافظت سمرقند على شهرتها فى هذه الصناعة[١] .

ومن أشهر مراكز صناعة الورق بمصر فى العصر الفاطمى مدينة الفسطاط التى انتشر بها نوع من الورق أطلق عليه الورق المنصورى[٢] . وكان الورق الذى يصنع فى الفسطاط من أجود أنواع الورق الذى يصنع فى مصر[٣] . ولم يكن الورق يباع بسعر واحد ، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته ، فالورق الأبيض الصقيل الذى يصنع فى الصيف أغلى ثمنا من الورق الأسمر الخشن الذى يصنع فى الشتاء . ويرجع الفرق بين نوعى الورق إلى المادة المستعملة فى صناعته[٤] . فقد كان يصنع من الكتان المضروب بالقطن ، كما يصنع من الخرق البالية[٥] . وانتشرت « الوراقة » بمصر فى ذلك العصر . فكان الوراقون يشتغلون بصنع الورق وتجارته وبالنسخ والتجليد وبيع الأقلام والحبر[٦] . وكانت له أماكن معينة تلتقى فيها الطبقات المثقفة .

وقد صحب انتشار صناعة الورق تقدم فن تجليد الكتب ، واستخدم الصناع جلود العجول ، كما استخدموا الحرير والديباج والأطلس فى تجليد المصاحف بصفة خاصة[٧] . كما تقدم فن الخط والتذهيب[٨] .

كما اشتهرت مصر ، ولا سيما مدينة الفسطاط ، فى ذلك العصر بصناعة الأنطاع ، التى كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما كان يصنع بالفسطاط السكرانات وخرائط الجلد (Sacks) والسيور والقسى التى فاقت قسى دمشق فى دقة صناعتها حتى غدت مضرب الأمثال[٩] .

وقد برع صناع الجلود بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، حتى لقد بلغت قيمة السرج

---

(١) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٤١ . انظر أيضاً " باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار وغير ذلك " ص ٢٥ — ٣٤ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٨٩ . البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٥) Lamm, Cotton in Medieval Textiles, p. 5.

(٦) Arnold and Growhman, The Islamic Book, p. 32.

(٧) Ibid, p. 51.

(٨) Ibid., p. 97.

(٩) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

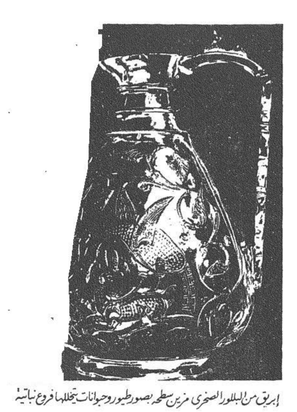




طبق من خزف ذي بريق ذهبي

شبابيك قلل من فخار مزينة بزخارف تشبه الدنتلا





إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وحيوانات تتخللها فروع نباتية



إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفية







قطعتان من خزف ذي بريق ذهبي. على الأولى رسم المسيح عليه السلام
وعلى الثانية صور ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها "أبو طالب"

الواحد من ألف دينار إلى سبعة آلاف دينار . وكان الخليفة المستنصر يمتلك أربعة آلاف من هذا النوع من السروج ، وكذلك كانت تمتلك مثل هذا العدد . وقد صحبت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، وقلائد وأطواق لأعناق الخيل ، خاصة بالخليفة وأرباب الرتب . وقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج . وكان الخليفة العزيز أول من ركب خيلا مسرجة بسروج الذهب والفضة .

٤ — الزجاج والبلور والخزف : وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر الفاطمى ، و بلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقى . يشهد بذلك هذه التحف التى تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا ، و يعزى ذلك إلى نشاط حركة البناء فى مصر فى ذلك العهد . فقد عمد الخلفاء والوزراء إلى الإكثار من بناء المساجد والقصور والمدارس . وكان صناع الزجاج والبلور يجتهدون فى سبيل تزويد هذه المنشئات بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها[١] . كما أن إقبال الفاطميين على الترف والنعم واتخاذهم القصور والمناظر ، وتفننهم فى زخرفتها وتزيينها ، وتأنقهم فى توفير جميع أسباب الراحة ، وكثرة أموالهم ووفرة ثرائهم كان من أهم الأسباب التى أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقه .

وكانت مدينة الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج . وقد أصيبت مساكنها بأفدح الأضرار حينما احترقت الفسطاط فى أيام الشدة العظمى . واشتهرت مدينة الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة بكورة البهنسا (المنيا الآن) ، والاسكندرية بهذه الصناعة[٢] . وكانت مصر تصدر هذه الصناعات إلى بلاد النوبه[٣] وإلى أقطار الشرق والغرب .

وقد حملت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التى بلغت حد الإعجاز فى جمال الصناعة وإشراق الزخرفة ، فذكر المقريزى[٤] أن خزائن الجوهر حوت الشيء الكثير من البلور المحكم والميناء المجرى بالذهب والمجرود والبغدادى والحيار والمدهون والخلنج والمينى

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨١

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٤٢ : راشد البراوى ص ١٦٥

(٣) Safar Nameh p. 154.

(٤) خطط ج ١ ص ٤٣٤ .

والدُّهَيمى والآمدى . كما ذكر عند كلامه على خزائن المستنصر أنه « قد وجد بها على مثال كيزان الفُقّاع من صافى البلور المنقوش والمجرود » . وقد بيع قدح من هذا البلور المجرود بمائتين وعشرين ديناراً ، كما بيع كوز بلور بمائتين وعشرة دنانير ، كما بيعت صحون من المينا بمائة دينار للصحن الواحد . بل لقد قال المقريزى إن قطعة من هذا البلور الجيل الصنع قد بيعت بألف دينار[1] . ويشهد هذا بما وصلت إليه هذه الصناعة من الإتقان والجمال .

وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى كما تفوقت صناعة الزجاج والبلور ، فصنع الصناع منه الأزيار الكبار والأوانى المستخدمة فى حفظ العطور والبخور[2] . وقد بلغ من رسوخ قدم هذه الصناعة وشهرتها أن الرحالة ناصر خسرو رأى التجار يصنعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق ، كما رأى فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف والسكارج البديعة الصنع ، حتى لقد استطاع أن يرى يده واضحة من وراء ظهر الإناء[3] .

وقد عرفت مصر فى ذلك العصر صناعة الفخار غير المدهون المصنوع من الطمى بعد إحراقه .

● — صناعة الخشب والمعادن والعاج والفسيفساء :

وقد تفوقت فى العصر الفاطمى صناعة النقش على الخشب ، وكان الصناع يستعملون الأخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو . ولكن هذه الأخشاب لم تكن تمتاز بالمتانة والصلابة . فاضطر الفاطميون إلى استيراد الأخشاب من كرواتيا ودلماشيا ، كما جلبوا خشب الأرز والصنوبر من غابات الشام وآسيا الصغرى ، وجلبوا الأبنوس من السودان ، والتك من بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو . وتمتاز التحف الخشبية التى صنعت فى العصر الفاطمى بدقة الصنعة وجمال الزخرفة[4] . وقطع الأبواب والحشوات والألواح والمحاريب المحفوظة بدار الآثار العربية خير شاهد على صدق هذا القول .

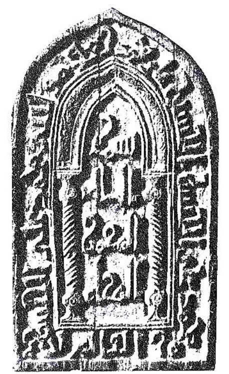
---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٩ .

(٣) Safar Nameh, p. 151.

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٩٨ .



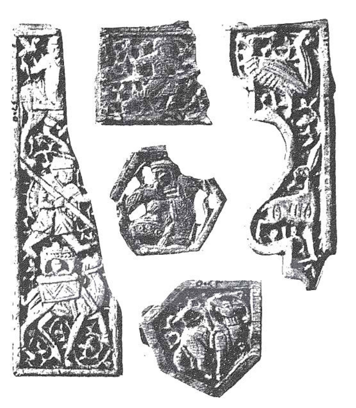
حشوة من خشب تشبه محرابا صغيرا يرتكز عقده على عمودين حلزونيين



قدر من خزف ذي بريق ذهبي مزينة من الخارج بثلاث دوائر بكل منها صورة طائر في منقاره فرع نباتي







قطعة من العاج منقوش عليها بين الزخارف النباتية صور أشخاص وحيوانات

أما الأخشاب المحلية فكانت تستخدم فى صناعة الأثاث والسواقى وآلات رفع الماء ، وكذلك فى صنع الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمنازل[١] .

وقد برع صناع مصر فى صنع المعادن والعاج والفسيفساء ، فعرفت مدينة الفسطاط[٢] بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمال إفريقية ، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين[٣] . وقد راجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع فى صنع الحلى والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . وليس من شك فى أن التحف التى وصفها المقريزى تلقى ضوءاً ساطعا على تقدم هـذه الصناعة ورقيها[٤] . هذا إلى ما عرف به صناع مصر من إتقان صناعات النحاس والبرونز ، كما عرف المصريون فى ذلك العهد بصناعة التكفيت . وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل المكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة . وكان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفّت رغبة عظيمة ، فلا تكاد تخلو دار فى القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت[٥] . وقد ازدهرت أيضاً صناعة سن الفيل والفسيفساء . وقد شاهد الرحالة المقدسى على بعض الفسيفساء فى الكعبة توقيع صناع مصريين . وقال هذا الرحالة : « قد أُلبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء ، حمل إليها صناع الشام ومصر »[٦] .

(ج) الصناعات النباتية :

كان قصب السكر فى العصر الفاطمى من أهم الحاصلات الزراعية فى مصر ، لأنه عماد صناعة السكر والعسل التى راجت فى العصر الفاطمى رواجا عظيما . وانتشرت مطابخ السكر فى جميع أرجاء البلاد : فى الفسطاط والمنيا والفيوم وترنوط وأسيوط وقفط وسَمْهُود ،

(١) البراوى : ١٧١ .
(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .
(٣) Sefar Nameh, p. 114.
(٤) خطط ج ١ ص ٤١٨ — ٤١٩ .
(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٧٣ .

حتى لقد ذكر ابن دقاق أن مطابخ السكر فى الفسطاط وحدها بلغت ٥٨ مطبخا[١] . كما عمت مصانع العسل أرجاء البلاد[٢] . وكانت الدولة الفاطمية تهتم بهذه الصناعة اهتماما عظيما ، حتى لتكاد تحتكرها احتكارا ؛ فأنشأت المعاصر السلطانية ، وحملت الفلاحين على أن يحملوا قصبهم إليها . ويخيل إلينا ، أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصبا[٣] .

وكان الفلاحون يبدءون فى كسر القصب فى شهر هاتور ، ثم يحمل إلى المعاصر فيعتصر ، ثم يبدأ الطباخون فى عمل العسل . أما السكر فقد كانت له مصانع خاصة تسمى المسابك أو المطابخ . وكانت الدولة تفرض الضرائب على العسل والسكر ، حتى بلغت حصيلة هذه الضريبة فى مصر والقاهرة ٣١٠٨ ديناراً على دار القند ، ٣٢ دينارا على مربعة العسل ، ١٣٥ ديناراً على مطابخ السكر[٤] .

وفى العصر الفاطمى راجت بمصر صناعة الزيت الذى كانت له أهمية كبيرة فى حياة أهل هذه البلاد ، لأن منه طعامهم ووقودهم . لذلك عنى المصريون بزراعة النباتات الزيتية عناية كبيرة ، فزرعوا الزيتون فى منطقة الفيوم والإسكندرية[٥] . كما كان السمسم يزرع فى جميع أرجاء البلاد[٦] ، فكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشيرج من السمسم[٧] . كما كانوا يستخدمون الفجل والخس فى هذه الصناعة أيضاً . لذلك لا نعجب إذا رأينا هذه النباتات تحتل فى الزراعة المصرية مكانة مرموقة . وكانت أهم معاصر الزيت فى مدن صَنْدفا بكورة البهنسا مركز بنى مزار بمديرية المنيا وفى الفيوم والفسطاط[٨] .

كذلك عنى المصريون بصناعة الشمع والصابون ، وانتشرت مصانع الشمع فى

(١) ابن دقاق : الانتصار ص ٤١ — ٤٢ .
(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .
(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٧ .
(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .
(٦) انظر فصل الزراعة فى هذا الكتاب .
(٧) Safer Nemeh p. 153
(٨) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٢ .

الإسكندرية[1] ومطابخ الصابون بمدينة الفسطاط ، وراجت صناعة الخمر فى المدن الكبرى مثل الفسطاط والقاهرة والإسكندرية .

٦ — التجارة

(ا) التجارة الداخلية :

١ — طرق التجارة : كانت طرق المواصلات بمصر فى العصر الفاطمى هى الشرايين التى تتدفق عبرها تجارة البلاد الداخلية ، فلا عجب إذا عنى الفاطميون بطرق المواصلات عناية فائقة حتى تنشط حركة التجارة ويعم الرخاء أرجاء البلاد . وكان النيل — ولا يزال — أهم طرق المواصلات فى مصر . فكانت المراكب تسير فيه فى الشتاء والصيف ، تحمل حاصلات مصر إلى موانى التصدير . لذلك برزت الفسطاط باعتبارها ثغرا تجاريا عظيم الأهمية . وكانت المراكب الشراعية تزدحم فى ساحلها آتية من جميع أرجاء البلاد . وقد زار الرحالة المقدسى مدينة الفسطاط فى أوائل العصر الفاطمى ، فقال : وكنت يوما أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لى رجل منهم (أى من أهل الفسطاط) : « من أين أنت ؟ قلت من أهل القدس ، قال : بلد كبير أعلمك يا سيدى أعزك الله ! أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها[2] » .

وكان خليج أمير المؤمنين لا يقل أهمية عن نهر النيل فى تجارة مصر الداخلية . وكان ولاة مصر لا يفترون عن العناية بهذا الخليج الذى كان الشريان الذى يصل مصر بالبحر الأحمر ، ثم ببلاد العرب . فقد نشأت عند نهاية هذا الخليج مدن برزت فى عالم التجارة مثل مدينة القلزم ومدينة سويس[3] . وكانت محاصيل مصر تحمل فى خليج أمير المؤمنين

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٦٨ .

(٣) هكذا سماها المقدسى (أحسن التقاسيم ص ١٩٦) الذى يقول عنها : " من موضع على بريد من القلزم بلد يسمى سويس . وجاء فى الأمثال : ميرة أهل القلزم من بلبيس وشربهم من سويس . وهى مدينة السويس الحالية التى اشتهرت بعد حفر القناة التى سميت باسمها وهى الآن مقر محافظة السويس .

إلى القلزم حيث تنقل على ظهور الإبل إلى بلاد العرب . وتصل السفن إلى القلزم من الشرق محملة بالحرير والقرفة والفلفل والبخور والنيلة وغيرها من منتوجات الهند والحبشة واليمن ، فتحمل إلى مدن مصر عن طريق هذا الخليج .

كذلك عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التى تسلكها القوافل التى تسير بالتجارة من بلد إلى آخر . فكان هنالك طريق للقوافل يربط مصر ببلاد المغرب غربا ، وببلاد الشام والعراق شرقا . كما كانت القوافل تسلك درب الأربعين عن طريق أسيوط محمل التجارة إلى بلاد السودان .

ومن مظاهر عناية الفاطميين بوسائل المواصلات البرية عنايتهم بالبريد . وليس من شك فى أن البريد كان يسلك نفس الطرق البرية التى تسلكها التجارة . وكانت أهم خطوط البريد فى مصر حتى العصر المملوكى سبع طرق :

١ — من قلعة الجبل إلى قوص ويمر بالجيزة وزاوية أم حسين ونا ، ودهروط ، وقلوسنا ، ومنية بنى خصيب والأشمونين وذروة سريام وفم الخليج اليوسفى ومنفلوط وأسيوط وطما والمراغة وبلسبورة (تعرف الأن باسم بلصفورة) وجرجا والبلينا وهو والسكوم الأحمر ودندرى وقوص .

٢ — من قوص إلى بلاد النوبة مارا بأسوان .

٣ — من قوص إلى سواكن مارا بقفط وليطة والدُّرَيْج وحُمَيْثرة وعَيْذاب وبنى عامر وسواكن .

٤ — من القلعة إلى الإسكندرية عن طريق وردان مارا بالجيزة وجزيرة القط ووردان والطَّرَّانة وطيلاس ودمنهور ولقينة والإسكندرية .

٥ — من القلعة إلى الإسكندرية عن طريق قليوب مارا بقليوب ومنوف العليا والمحلة الكبرى والنَّحريرية (وتعرف النحارية الآن) والإسكندرية .

٦ — من القلعة إلى دمياط مارا بسرياقوس وبئر البيضاء وبلبيس والسعيدية وأشمون الرمان والمُرْناصية ودمياط .

٧ — من دمياط إلى غزة مارا بالخطّارة وقبر الوايلى والصالحية وبئر غُزّى والقصير

والقَرابى وقَطيا والُمطيلب والسوادة والوَرادة والعريش والخَرّوبة والزَّعْقه ورفَح والسَّلَقة والجيزة والداروم وغزة[١] .

وكان التجار والحجاج يفدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين : أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين ؛ أحدهما يعرف بطريق « العَبْدَيْن » ، ويعرف الثانى بطريق « دُونْ » وهى قرية على شاطىء النيل . أما الطريق الثانى فهو طريق مدينة أسوان .

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء فى هـذا الطريق فى الصيف ، يمتاز عن الطريق الأول بقصره ، وكانت القوافل تقطعه فى خمسة عشر يوما . كما يمتاز بخلوه من الجبال المتشبكة التى تكثر فى الطريق الأول . أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغرا هاما للتجارة مع بلاد النوبة . لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص . وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقا إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالبضائع جنوبا إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ، ومنها إلى الساحل المصرى . لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسى الدنيا ، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرغ فيها البضائع ، ويقلع منها الحجاج فى ذهابهم وإيابهم .

ومما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير فى حالة عيذاب الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التى تمر بها ، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلى ، كما استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم فى شحن السلع وتفريغها مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم .

وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة لا يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج إلا من صحراء عيذاب ؛ فكانوا يركبون السفن من ساحل مدينة مصر حتى مدينة قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص أو من أسوان ، ثم يعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ، ويركبون البحر إلى جُدة . ولم تزل عيذاب طريقا للحجاج فى ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتى سنة أى من سنة ٤٦٠ هـ إلى سنة ٦٦٠ هـ ، وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى عهد

(١) تاريخ البريد فى مصر (القاهرة ١٩٣٤) ص ٣٥ — ٣٦ .

الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، حيث انقطع الحج برا . وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الكعبة وعمل لها مفتاحا ، ثم أرسل قوافل الحج برا فى سنة ٦٦٦ هـ .

٢ — مراكز التجارة الداخلية :

كان من أثر نشاط الحركة التجارية فى العصر الفاطمى أن اشتهر بعض المدن وأصبحت مراكز تجارية يفد إليها التجار وتقصدها المراكب وتقام بها الأسواق لبيع السلع . ومن أهم هذه المراكز مدينة الفرما ، وكانت تعد مفتاح الديار المصرية . وقد اشتهرت بمصائد الأسماك ، وهى — كما يقول المقدسى[١] — مجمع الطرق . وكانت بلبيس قصبة الحوف الشرقى ، اشتهرت بكثرة القرى والمزارع وطواحين الغلال ، وكانت تُمير أهل الحجاز بالدقيق والكعك . وقد أحصى المقدسى ما حمل منها فى أسبوع واحد فبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل من الحبوب والدقيق[٢] .

ومن أشهر مراكز التجارة القلزم وتقع عند الطرف الشمالى للبحر الأحمر ، وهى بلد « ليست بذات كلأ ولا زرع ولا ضرع ولا حطب ولا شجر ، ولكنها تعيش على تجارة البحر الأحمر حتى أصبحت خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج . وقد جاء فى الأمثال ميرة أهل القلزم من بلبيس وشربهم من سويس ويأكلون لحم التيس[٣] .

ومن مراكز التجارة الداخلية أيضاً مدينة المحلة الكبيرة[٤] ، وكانت — ولا تزال — عامرة بالأسواق نافقة التجارة . وكانت مركزاً لزراعة الكتان وعصر الزيت . وبلغ من شهرتها أن شبهها المقدسى بمدينة واسط ببلاد العراق[٥] . وكانت الإسكندرية أم مدائن بحر الروم ، تفد إليها المراكب حاملة سلع الشرق والغرب . وقد اشتهرت بمعدن

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٥ .

(٣) التيس هو الجدى الكبير . المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٤) وتعرف الآن بالمحلة الكبرى وتعد أهم مراكز النسيج فى مصر .

(٥) المصدر نفسه ص ١٩٦ .

الرخام وبالخرنوب والزيتون واللوز . كما كانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون فى ذلك العصر .

أما عاصمة مصر التجارية فكانت مدينة الفسطاط ، التى « جمعت الدواوين وحوت أمير المؤمنين[1] » ، وذلك فى عهد الفاطميين . وهى — كما يقول المقدسى[2] — « ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام ، خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم . ليس فى الأمصار آهل منه ، ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر مراكب من ساحله . آهل من نيسابور ، وأجل من البصرة ، وأكبر من دمشق . به أطعمة لطيفة وأدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء صحيح الهواء ، معدن العلماء ، طيب الشتاء أهل سلامة وعافية » . فلا عجب إذا ازدحمت السكان بالسكان والتجار الوافدين عليها من كل قطر ، حتى لقد ذكر المقدسى أن الحسن بن أحمد القرمطى لما سار إلى الفسطاط خرج الناس إليه فرآهم كالجراد . كما ذكر هذا الرحالة أيضاً أن إمام جامعها يصلى وراءه عشرة آلاف رجل .

وكانت دور الفسطاط تتألف من خمس طبقات ، وتبدو من بعيد كأنها المنائر ، ويسكن الدار الواحدة نحو مائتى نفس . وكانت أسواقها فى غاية النظافة والنظام ، تصطف القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع . وبلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبهت بالجوامع . وكان من أشهر أسواقها : سوق القناديل . وقد بلغ من روعة هذه الأسواق أن قال المقدسى[3] الذى شاهد المدن العظام : « يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته ، غير أنه أجل أمصار المسلمين ، وأكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم » .

وكانت ترد إلى الفسطاط تجارة الشام والمغرب والعراق والمشرق ، كما ترد إليها مراكب الجزيرة والروم . ولكن برغم ازدحام الفسطاط بالسكان رخصت أسعارها . فكان الثلاثين رطلا من الخبز تباع بدرهم ، والبيض تباع الثمانية بدانق وهو سدس درهم .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ .
(٣) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

وكان الموز والرطب فى غاية الرخص[1] . وكان يرد إلى الفسطاط نوع من الأديم جيد ، ويرد إليها من الصعيد : الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب . ومن تنيس : الثياب الملونة ، ومن دمياط : القصب ، ومن الفيوم : الأرز والكتان ، ومن الفرما : السمك . كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزنبق[2] .

وقد عدد المقدسى[3] السلع الواردة على أسواق الفسطاط فقال : زجاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وليفهم ووزهم وموزهم وشمعهم وقندهم وذقهم وصبغهم ور يشهم وغزلهم وهر يستهم وحمصهم وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحصرهم وحُمُرهم و بقرهم وحالومهم وحتيانهم ... كل ذلك فى غاية الجودة » .

وقد وصف ناصر خسرو مدينة الفسطاط بعد المقدسى بنحو نصف قرن ، فقال حين زارها بين سنتى ٤٣٩ ، ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالتحف النادرة التى ترد إليها من جميع أنحاء العالم ، وأن بها من الحانات مالا يقل عن ٢٠٫٠٠٠ دكان يتراوح إيجار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير . وبها من السفن أكثر مما كان ببغداد والبصرة . كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طابقاً[4] .

وقد ظلت الفسطاط عامرة بالتجارة حتى تخربت فى عهد وزارة شاوَر حين أمر بإشعال النار فيها ليحول دون استيلاء الصليبيين عليها . ومع هذه الصورة الرائعة التى رسمها المقدسى لعظمة الفسطاط من الناحية التجارية ، يبدو أن ازدحام هذه المدينة بالسكان — شأنها فى ذلك شأن العواصم الكبرى — وكثرة الأموال المتدفقة على أهلها قد أشاع نوعا من المجون ، فاندفعوا وراء الملذات كما قال المقدسى[5] .

ومن مراكز التجارة فى العصر الفاطمى مدينة أسوان ، وكانت قصبة إقليم الصعيد ، ومعناها السوق لأنها كانت سوقاً لتجارة النوبة والسودان . وقد اشتهرت بتجارة الكروم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٤) Safar Nameh, p. 127, 145, 149, 153.
(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٠ .

والتمر الذى ينتشر على ضفتى النيل . وقد قيل إن إسنا أنتجت فى سنة واحدة أربعين ألف أردب من التمر واثنى عشر أردب من الزبيب . وأسوان أكثر نخيلا من جميع أقاليم مصر ، وقد أنتجت أرضها فى سنة واحدة ٣٦,٠٠٠ أردب من التمر . وفاكهة هذا الإقليم شديدة الحلاوة حسنة المنظر ورياحينه عطرة . وبأسواق حجارة صوان صنع منها عمود السوارى بمدينة الإسكندرية . وبها حجارة سود تشبه القار يحسبها الإنسان جبالا من القار . وهى كثيرة السمك والجنادل ، معتدلة الهواء ، كثيرة المتنزهات الممتدة على جانبى النيل . وبها جبل الطفل الذى يعمل منه الفخار وكيزان الفقاع الذى لا يوازيه نوع آخر(١) .

وكانت تنيس فى العصر الفاطمى من أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر الأبيض المتوسط ، وإليها ترد متاجر الشرق والغرب . واشتهرت بتجارة السمك وصناعة الثياب والأردية الملونة التى كانت تحمل إلى كافة جهات القطر(٢) .

وتلى مدينة الفسطاط فى الأهمية ، مدينة دمياط ثالثة الثغور التى تقع على ساحل مصر الشرقى وهى : تنيس ، والفرما ، ودمياط . ولكن دمياط أخذت تحتل مكان الصدارة بعد الفتح العربى ، وأخذت تبرز فى ميدان التجارة والصناعة وطغت على الثغور الأخرى حتى ازدهرت تجارتها وغدت الميناء المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض(٣) . ومما زاد من أهمية دمياط فى العصر الفاطمى أنها أضحت مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، وساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقة دمياط وشرق الدلتا . وأصبحت المدن المحيطة بها مثل شطا وتنيس ودَبيق وتونة وبورة ودَميرة تختص بإنتاج نوع من المنسوجات ينسب إليها . واكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية تحتل مكانة مرموقة فى تجارة النسيج العالمية(٤) .

ومما زاد من شهرة دمياط دار الصناعة التى أنشأها الفاطميون ، وكانت تجهز فيها الأساطيل ومراكب الشوانى والشلنديات والمسطحات(٥) .

---

(١) الإدفوى : الطالع السعيد فى أعيان الصعيد ص ١٤ — ١٥ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠١ .

(٣) الشيال : مجمل تاريخ دمياط (الإسكندرية ١٩٤٩) ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٠

(٥) المصدر نفسه ص ١٥

وقد لعبت قاعدة دمياط البحرية دورا بارزا فى قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين . وقد زارها الرحالة المقدسى ووصفها فى هذه العبارة : « أطيب وأرحب ، وأكثر فواكه ، وأحسن بناء وأوسع ماء ، وأحذق صناعا ، وأرفع بزا وأنظف عملا وأجود حمامات وأوثق جدارات وأقل أذايات » . وكان بها رباط يقصده المرابطون فى كل سنة[1] .

ومن مراكز التجارة الفاطمية مدينة عيذاب . وقد بدأت صغيرة أول الأمر ، وكان أهلها يعيشون على صيد السمك واللؤلؤ ورعى الأغنام . ثم أخذت تنمو تدريجيا وصارت تنافس ميناء القصير التى لعبت دورا هاما فى تجارة البحر الأحمر قبل القرن الخامس الهجرى . وازدهرت عيذاب فى القرنين الخامس والسادس ، وأصبح التجار والحجاج يفضلونها على القصير ، ولاسيما بعد أن تقدمت ونمت فى العصر الفاطمى . وكثر استخدامها فى أيام الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر . ويرجع ازدهار عيذاب فى هـذا العصر إلى تحول طريق التجارة الفاطمية صوب الجنوب ، نتيجة لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة سلاطين بغداد ، ولاستيلاء الصليبيين على إيله فى سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) .

ولما كانت عيذاب فى منطقة قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ، أصبح من الضرورى أن يعتمد أهلها على كل ما يجلب إليها . وقد أفادوا من الحجاج ومن التجارة فوائد لا تحصى ؛ إذ كانوا يفرضون ضريبة معلومة على كل حمل يحملونه للحجاج ، الذين كانوا يستأجرون منهم المراكب التى تحملهم فى البحر إلى جدة ثم إلى عيذاب بعد أداء فريضة الحج . ولم يكن بين أهل عيذاب إلا من يمتلك مركبا أو أكثر كل على حسب يساره ، حتى إنهم جمعوا من ذلك ثروة طائلة .

وأهل عيذاب من البجاة . وقد اختلطت بهم بعض القبائل العربية ، وهم قوم مسالمون ليس من طباعهم السرقة أو التعدى على أحد ، عملهم التجارة ونقل الحجاج والعمل على راحتهم ، وصيد اللؤلؤ من المغاص القريبة منها فى جزائر البحر الأحمر ، ويقع موسم صيده فى شهرى يونية ويولية من كل سنة .

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .

وكان الحجاج يجدون فى ركوب المراكب أهوالا عظيمة ، ويقاسون متاعب جمة ؛ لأن الرياح كانت تلقيهم فى الغالب فى مراسى بعيدة فى صحارى مقفرة ، فينزل إليهم التجار من جبالهم ويؤجرون لهم الإبل ، ويسلكون بهم طريقا تبعد عن الماء ، فيهلك معظمهم عطشا . ومنهم من يضل الطريق فيهلك فى تلك الصحراء ، ومنهم من يغرق فى البحر إذا صادف المركب ريح صرصر عاتية[1] .

٣ — المكوس[2] :

وكان الفاطميون يفرضون المكوس على التجارة الواردة إلى هـذه المدن أو الصادرة منها . وقد غالت الدولة فى فرض المكوس على مدينتى تنيس ودمياط وعلى تجارة المنسوجات وراقبتها مراقبة فعالة ، وفرضت عليها الرسوم الباهظة ، واحتكرت بيعها . فحرمت على النساجين أن ينسجوا شيئاً إلا بعد أن يختم عليه بختم السلطان . كما حرم عليهم أن يبيعوا شيئاً إلا على أيدى سماسرة من قِبَل الدولة . ويثبت كاتب الديوان ما يباع فى جريدته (أى سجلاته) ، ثم تحمل المنسوجات إلى من يتولى طيها وشدها وحزمها .

وكانت تحصل رسوم معينة مقابل القيام بهذا العمل . فإذا حملت السلعة إلى باب الفرضة دفع صاحبها رسما معيناً ، وتوضع علامة مميزة لسلعة كل تاجر . فإذا تهيأت المراكب للإقلاع ، جرى تفتيشها . كما كانت الدولة تتقاضى رسوما على الزيت ، فتأخذ عن زق الزيت دينارا . وقد رأى المقدسى[3] بساحل تنيس « ضرائبياً جالساً قبالة هذا الموضع يحصل فى كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة مدن على ساحل البحر بالصعيد ، وساحل الإسكندرية ، وعلى مراكب الغرب ، وفى الفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » .

وقد ذكر المقريزى[4] أن المكوس التى جبيت بمدينتى مصر والقاهرة بلغت

---

(١) ابن جبير : رحلة ص ٣٥ — ٤٢ .

(٢) انظر ص ٥٥٠ — ٥٥١ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٣ .

(٤) خطط ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

١٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة ، وأن الدولة كانت تفرض المكوس على كل سلعة ترد إلى السوق : من البهار ، والنحاس ، والقصدير ، والمرجان ، والقند ، والخشب ، والملح ، والبورى ، والقطن ، والغنم ، والأبقار ، والكتان ، والغلات ، والتفاح ، والرطب ، والنسيج ، والجبن ، والحلفاء ، والفحم ، والجبس ، والزيت ، والخل الحامض ، والسمك ، والعسل ، والسلجم ، والرقيق ، والحناء ، والأدم . وقد أسقط صلاح الدين من هذه المكوس ما يقرب من مليون دينار فى السنة ، ثم أعادها ابنه الملك العزيز عثمان إلى ما كانت عليه .

٤ — نظم المعاملات : الموازين — المكاييل — المقاييس — النقود

وحدة الوزن فى مصر هى الرطل المصرى ، وهو الرطل المستعمل فى القاهرة والفسطاط ، ويساوى ١٤٤ درهما ، و ١٢ أوقية ، أما القنطار المصرى فإنه يساوى ١٠٠ رطل ، وأحسن أنواع الأرطال فى مصر ما يسمى المنّ ، ويساوى ١٦٦ درهما ، وأوقيته عشرة دراهم ، وبه ٢٦ أوقية .

ووحدة الكيل القَدَح ، يختلف من مكان إلى مكان ، كما يختلف الأردب تبعاً لذلك . والقدح الشائع هو القدح المصرى ويزن ٢٣٢ درهما من البُر . والويبة = ١٦ قدحا . أما الأردب فإنه يساوى ٩٦ قدحا . وقد يبلغ الأردب فى بعض البلاد المصرية ١١ ويبة أو ١٧٦ قدحا .

ووحدة القياس القصبة ، وتسمى القصبة الحاكية لأنها استحدثت فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، ويبلغ طولها ستة أذرع ، والذراع يساوى ستة قبضات ، والقبضة أربعة أصابع . والقصبة تقدر بباعين من رجل معتدل . وقد وجدت فى الوجه البحرى قصبة تسمى « السَّنْدفاوية » نسبة إلى مدينة سندفا القريبة من المحلة الكبرى بمديرية الغربية الآن ، وهى أطول من القصبة الحاكية بقليل[1] .

والدينار نوعان : نوع يضرب فى مصر ونوع يجلب من الخارج . أما الدنانير المصرية

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

فتوزن بالمثاقيل . وكل سبعة مثاقيل تزن عشرة دراهم . والمثقال = ٢٤ قيراطا ، والقيراط ٧ حبات شعير . ويؤتى بالدنانير المجلوبة من بلاد الروم والفرنجة . والدينار الفرنجي ١٩½ قيراط مصرى ، وعلى أحد وجهى هذا الدينار صورة ملك الدولة الأجنبية . وعلى الوجه الآخر صورة القديسين بطرس و بولس . وتسمى هذه العملة أيضاً بالدوقات ducats . ويطلق هذا الاسم على نقود البندقية ، لأن أميرهم يسمى « دوقا » . وعيار الذهب لم يكن ثابتاً ، فيرتفع تارة و يهبط أخرى . والدينار المصرى يساوى أحياناً ٢٠ درهما ، والدينار الفرنجي ١٧ درهما ، ويبلغ الدينار المصرى ٢٨½ درهما أحياناً أخرى . ويضرب الدرهم بدار الضرب ، ويساوى ٢٤ قيراطا أو ١٦ حبة خروب . وكل سبعة مثاقيل تساوى عشرة دراهم ، والدرهم نوعان : الدراهم النُقرة ، والدراهم السوداء . والدرهم الأسود يساوى ⅓ درهم نقرة ، أى أن الدرهم النقرة يساوى ثلاثة دراهم سوداء : أما الفلوس فإنها تختلف عن الدراهم فى أنها غير مطبوعة على السكة : والدرهم النقرة يساوى ٤٨ فلسا[(1)] .

ولوزن الدينار أهمية كبرى . فإنه كلما زاد وزنه ، دل ذلك على غنى الدولة ورفاهيتها وعنايتها بالعملة حتى تكسب ثقة الناس . ويتسع نطاق تداولها . أما إذا نقص وزن الدينار فإن ذلك يدل على اضطراب الحالة الاقتصادية فى البلاد . وإذ ذاك يعمد الخليفة إلى إنقاص وزن العملة حتى يقلل من نفقات الدولة ، فتنخفض رواتب الموظفين ويزيد مقدار الضرائب وإليك ثبتاً بأوزان الدنانير فى العصر الفاطمى ؛ مع ملاحظة أن الأوزان التى أوردها قد لا تمثل الوزن الأصلى للدينار الذى نقص على مر الزمن ، ونتيجة لكثرة تداوله وقدم العهد به . كما يلاحظ أيضاً أن دنانير الولايات التابعة للدولة الفاطمية كانت أقل وزناً من دنانير الحاضرة . ويخيل إلينا أن مرد ذلك إلى أن الخلفاء كانوا يعمدون إلى مضاعفة الجباية فى هذه الولايات .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

اسم الخليفة	السنة	وزن الدينار بالجرام	اسم الخليفة	السنة	وزن الدينار بالجرام
عبيد الله المهدى	٣٠٣	٤	(تابع) العزيز	٣٧٢	٤ر—
	٣٠٦	٤ر٢٠		٣٧٣	٤ر١٢
	٣١٥	٤ر١٥		٣٧٥	٤ر١٥
	٣٢٢	٤ر٢٠		٣٧٩	٤ر١٠
القائم	٣٢٣	٤ر١٠		٣٨٠	٤ر١٠
	٣٢٥	١ر٠٢		٣٨١	٤ر١٢
	٣٢٥	١ر٠٣		٣٨٦	٤ر٢٠
	٣٢٧	١ر٤٥	الحاكم	٣٨٧	٤ر٢٠
	٣٢٨	١ر٠٥		٣٨٨	٤ر٢٠
المنصور	٣٣٥	٤ر١٠		٣٨٩	٤ر٢٠
	٣٣٧	٤ر١١		٣٩٠	٤ر٢٠
	٣٣٨	١ر٠٣ (١)		٣٩١	٤ر٢٠
	٣٤١	٤ر١٥		٣٩٣	٤ر١٥
المعز لدين الله	٣٤٣	١ر٠٤		٣٩٤	٤ر١٢
	٣٤٤	١ر٠٤		٣٩٥	٤ر—
	٣٥١	٤ر١٠		٣٩٦	٤ر١٢
	٣٥٣	٤ر١٠		٤٠٠	٤ر١٥
	٣٥٩	٤ر٢٠		٤٠١	٤ر٢٠
	٣٦٠	٤ر٣٠		٤٠٤	٣ر٨٢
	٣٦١	٤ر١٥		٤١١	٤ر٢٥
	٣٦٢	٤ر١٨	الظاهر	٤١٤	٣ر٧٢
	٣٦٣	٣ر٩٥		٤١٥	٤ر—
	٣٦٥	٤ر٣٠		٤١٦	٣ر٩٥
العزيز	٣٦٥	٤ر٢٠		٤٢٠	٤ر—
	٣٦٦	٣ر٧٥	المستنصر بالله	٤٢٨	٤ر١٢
	٣٦٧	٤ر١٨		٤٢٩	٢ر٩٠
	٣٦٨	٤ر١٨		٤٣٠	٣ر٩٠

(١) Lavioix, Catalogue des monnaies musulmanes, Egypte et Syrie (Paris, 1896), pp. 88-9.

اسم الخليفة	السنة	وزن الدينار بالجرام	اسم الخليفة	السنة	وزن الدينار بالجرام
(تابع) المستنصر	٤٣٢	٤ر١٤		٤٩٥	١ر٠٣
	٤٣٥	٤ر٣٠	الآمر	٤٩٥	٤ر٠٨
	٤٣٦	٤		٤٩٨	٤ر٢٠
	٤٣٧	٤		٥٠٢	٤ر٢٠
	٤٣٨	٤ر١٠		٥٠٣	٤ر٣٥
	٤٤٠	٤ر٠٨		٥٠٤	٤ر٢٥
	٤٤٢	٤ر١٠		٥٠٥	٤ر١٥
	٤٤٣	٤		٥٠٧	٤ر٢٢
	٤٤٥	٣ر٨٨		٥١٠	٤
	٤٤٦	٤ر٣٠		٥١٣	٤ر١٥
	٤٤٧	٤ر٢٨		٥١٤	٤ر٣٤
	٤٤٨	٤ر١٥		٥١٥	٤ر١٠
	٤٥١	٤ر٣٩		٥١٦	٣ر٨٥
	٤٥٢	٤ر٢٠		٥١٨	٤
	٤٥٤	٣ر٢٢		٥١٩	٣ر٥٠
	٤٥٦	٣ر٩٤	الحافظ	٥٣٨	٣ر٦٨
	٤٦١	٤ر٠٣		٥٤١	٤ر٢٠
	٤٦٢	٤ر٠٥		٥٤٢	٤
	٤٦٩	٤ر٠٥		٥٤٤	٤ر٤٠
	٤٧٣	٤ر١١	الظافر	٥٤٥	٤ر١١
	٤٧٤	٤ر٢٥		٥٥٢	٤ر٠٢
	٤٧٥	٣ر٩٤		٥٥٣	٤ر٨٣
	٤٧٨	٤ر٣٨		٥٥٥	٣ر٥٠
	٤٨١	٤ر٢٥	العاضد	٥٥٨	٤
	٤٨٣	٤ر٢٣		٥٦٤	٤ر٦٣
	٤٨٤	٤ر٠٣			
المستعلي	٤٨٨	٤ر			

(١) Henri Lavoix, Cotaloguedes monnsnaes musulmanes de la Bibliothéque Nationale, Égypte et Syrie (Paris, 1896), pp. 31 - 170.

(ب) التجارة الخارجية

١ — طرق التجارة العالمية ومراكزها

احتلت تجارة المسلمين فى العصر الفاطمى المكانة الأولى فى التجارة العالمية . وكانت الإسكندرية وبغداد مقياساً لأسعار البضائع العالمية فى ذلك الحين ؛ ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب .

أولا : من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالباً اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق . وكان لهم بمدينة أصبهان حى يسمى اليهودية ، كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضاً على تجارة اللؤلؤ الذى يستخرج من خليج فارس[١] . وكان هؤلاء التجار من اليهود يفدون من مقاطعة بروڤانس ، ويسميهم المسلمون فى ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية ، نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلبية ، ويجلبون من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز[٢] والفراء والسمور والسيوف ، ويبدءون رحلاتهم التجارية من بروڤانس (Provence) التى يسميها العرب « فرنجة » . وترسو سفنهم عند الفرما ، وكانت تعد من أهم الموانىء التجارية فى ذلك الحين ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إما إلى القلزم[٣] ، أو إلى الإسكندرية التى كانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى الفسطاط أو إلى القاهرة عن طريق النيل

ويقول هيد[٤] إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حيناً من الدهر ، إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد ، منذ أيام الطولونيين . وكانت هذه السلع تنقل من الفسطاط براً على الدواب إلى القلزم ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٥٦ . آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٢٣

(٢) الخز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها . والخز الذكر من الأرانب .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce, tome. I. p. 41.

السفن إلى الهند والصين ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدار صيني ، فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروفانس وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية[1] .

ثانيا : من أوربا إلى المشرق عن طريق أنطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروفانس بحراً إلى أنطاكية . ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهر وجداوله ؛ ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة[2] ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثا : من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو فبلخ و بخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين .

رابعا : الطريق البرى من غربى أوربا إلى المشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازاً المغرب الأقصى والأدنى والأوسط عن طريق إفريقية (وهى تونس الحالية) حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز ثم إلى كرمان والهند والصين[3] .

٢ — أشهر مراكز التجارة العالمية :

وكان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر والمغرب ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير فى رواج التجارة . ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب . وقد أصبح لبعض المدن الساحلية على هذا البحر ذات أهمية خاصة للتجارة . وقد أصبحت أهمية أنطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية[4] ، كما أصبحت أداة اتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر ، وكذلك

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ .

(٢) بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الفارسى — انظر معجم البلدان لياقوت .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٤) Heyd : Histoire du Commerce, tome I. pp. 43-4.

التجارة الآتية من الشرق إلى أوربا . وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة التي كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية في القرن الرابع الهجري . ومن طرابلس نرى سلسلة من الموانئ التجارية الهامة ممتدة حتى مراكش . وكانت المهدية أكثر هذه الموانئ عمرانا وازدهارا لقربها من مدينة القيروان ، حتى كانت السفن تفد إليها تباعاً من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا[١] .

وكانت أيلة والقلزم وجدة من أهم الموانئ التجارية على البحر الأحمر . ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذين الرئيسين في شمال البحر الأحمر ، وعن طريقهما كانت تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس . وترجع أهمية جدة إلى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون إليها عن طريق أيلة والقلزم ، أو عن طريق عيذاب . وكذلك اشتهرت عدن بالتجارة ، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوبا ، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب كانت ترسو عليها . وكذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة[٢] .

وأصبحت بغداد مركز التجارة في العالم الإسلامي ، حتى كانت هي والإسكندرية — كما رأينا — يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع في ذلك الحين . وترجع شهرة دمشق باعتبارها من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسي ، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وعند عودتهم إليها بعد أداء الفريضة ، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها[٣] . وكان كثير من حجاج المسلمين يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة ، فيتقابلون مع المسيحيين ، وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقا نافقة للتجارة بين الشرق والغرب .

واعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة . وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق ، وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه

---

(١) Ibid, p. 49.

(٢) كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ : نشره السيد حسن حسني عبد الوهاب ، مقدمة ص ٣

(٣) Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I. p. 42.

الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء . أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع . وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين . وخصصت فنادق للتجار الغرباء ، كانت أشبه بالأسواق الكبيرة . وكانوا يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياسر[١] . وهناك خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[٢] . وأما فى بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفاً فى مكان واحد .

٣ — العلاقات التجارية مع العالم الخارجى :

وكانت مصر فى العصر الفاطمى ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوربا وبلدان الشرق ، فكانت مدينة «أمالفى» Amalfi ترتبط بعلاقات تجارية مباشرة مع مصر والشام وغيرهما من البلاد الإسلامية الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى لقد كان لتجارها فى مدينة أنطاكية حى خاص بهم . وكان تجار أمالفى يهتمون بوجه خاص بجلب المنسوجات الحريرية التى تروج فى سوق رومة ، وذلك بسبب قرب أمالفى من حاضرة العالم المسيحى . وكانت المنسوجات المصرية الفاخرة من أكثر السلع فى أسواق أوربا رواجاً ، كما كان أهل أمالفى يذهبون إلى مصر لجلب مهرة الصناع لتزيين القصور بالفسيفساء . كما اضطر أهل أمالفى إلى أن يسالموا الدولة الفاطمية حتى تأذن لهم بالحج إلى بيت المقدس . وكان لهم فنادق كثيرة بمدينة الإسكندرية[٣] .

وكان لاتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر وأوربا أن أقدم أهل جنوة على التعامل مع الدولة الفاطمية ، وأخذت مراكب جنوة تخترق مضيق مسينا وتشق طريقها إلى موانى مصر والشام . كما كانت سفنهم تحمل الحجاج إلى ثغر يافا ، حيث يذهبون إلى بيت المقدس . وكان تجار جنوة يذهبون إلى أسواق مصر حيث يجلبون الفلفل وجوز

---

(١) من الكلمة اليونانية pandokeion

(٢) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) Heyd Histoire du Commerce, tomeI. pp. 104 - 6

الطيب والقرنفل والشب والنطرون ، وهى السلعة التى كان الفاطميون يحتكرون تجارتها . وكان لأهل جنوة كأهل أمالفى جالية بالإسكندرية[١] . وكذلك كانت مدينة بيزا تحرص أشد الحرص على الفوز بود الخلفاء الفاطميين ، فأرسلت فى سنة ١١٥٤ م إلى بلاط الخليفة الظافر سفيرا لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض المسافرين من أهل بيزا على زملائهم المسلمين . وقد عومل هذا السفير فى مصر معاملة قوامها الحفاوة والتكريم ، لأن الدولة الفاطمية كانت تحرص أشد الحرص على ألا تخسر أسواق إيطاليا التى كانت تروج فيها السلع المصرية[٢] .

وعلى الرغم من أن الدولة البيزنطية كانت توعز إلى جمهورية البندقية بألا تحمل سفنها الأخشاب إلى أسواق مصر حتى لا يشتد ساعد الأسطول الفاطمى الذى كان يقف للصريين بالمرصاد ، نجحت حكومة البندقية — فى سبيل مصلحتها الخاصة — فى إقامة علاقات تجارية واسعة النطاق مع الفاطميين فى مصر والشام ، وأجازت لتجارها أن ينقلوا إلى دور الصناعة المصرية خشب البخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام ، كما أجازت لهم بيع الأدوات المصنوعة من الخشب . وأرسلت الجمهورية إلى مصر بعثات استطاعت أن تحصل على امتيازات مغرية ، فأدلت بدلوها فى تجارة الهند الرابحة ، كما استطاعت سفنها التى وصلت إلى مصر أن تنقل منتوجات آسيا إلى أسواق أوربا[٣] .

ومع أن العلاقات التى قامت بين مصر والدولة البيزنطية كانت سيئة بسبب النزاع الناشب بين هاتين الدولتين من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط لم تتوقف العلاقات التجارية بين البلدين ، فقد كانت الدولة البيزنطية من ناحية فى حاجة إلى الصناعات المصرية الممتازة التى تنتجها مصانع تنيس ودمياط والتى كان الأباطرة يقبلون عليها لتزيين قصورهم[٤] . كما أن المنسوجات المصرية الفاخرة كانت تنعم بسمعة حسنة فى أسواق

(١) Heyd, Histoire dn Commerce, tome I. p. 124.

(٢) Ibid., tome I p. 392.

(٣) Ibid., tome I. p. 114.

(٤) Heyd, tome I. p. 58.

القسطنطينية ، حتى إن ناصر خسرو سمع أن أحد الأباطرة عرض على الخليفة الفاطمى مائة مدينة مقابل استحواذه على مدينة تنيس وحدها[١] . وكانت مصر من ناحية أخرى تحتاج إلى الفراء المجلوب من بلاد الروس ، كما كانت تتقرب من البيزنطيين إمعانا فى الكيد من العباسيين . وكانت فى سنى الشدة تحتاج إلى الغلال من أسواق القسطنطينية كما حدث فى سنة ٤٤٦ هـ ، حين أرسل الخليفة المستنصر الفاطمى إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب المدد ، فأرسل إليه ٤٠٠ر٠٠٠ أردب[٢] . وكان بالفسطاط حى يقيم فيه تجار الروم[٣] .

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة فى العصر الفاطمى ، لأن هذه الجزيرة ظلت تابعة للفاطميين وقتا طويلا . كما أن موقعها المتوسط بين الشرق والغرب جعل أكثر السفن القاهبة من مصر إلى إيطاليا وجنوب فرنسا تمر بمدن صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر أو تشترى بدلها من قمح صقلية وفاكهتها ومعادنها . كما أن صقلية كانت تنتج نوعا من الأقمشة الحريرية الفاخرة تفوق ما كانت تنتجه مصر ، حتى لقد ذكر ناصر خسرو أن القطعة الواحدة من حرير صقلية كانت تباع فى أسواق مصر بعشرة دنانير مغربية[٤] . ولم تنقطع هذه العلاقات بعد استيلاء النرمانديين على هذه الجزيرة فى سنة ٤٨٣ هـ ، فكان تجار صقلية يعاملون معاملة ممتازة ، كما عقد الخليفة الفاطمى معاهدة تجارية مع رودجر صاحب صقلية[٥] . وكما اتصلت مصر بصقلية كذلك اتصلت بقبرس برغم استيلاء البيزنطيين عليها ، إذ ظلت السفن المصرية ترد موانى قبرس لتحمل الشمع والعسل والفاكهة ، وتبيع منتوجات تنيس ودمياط[٦] .

ولم تنقطع علاقة الفاطميين ببلاد المغرب بعد انتقال قاعدة دولتهم إلى مصر . فقد ظلت العلاقات التجارية بينهما وثيقة ، إذ كان على سفن المغاربة أن تقلع إلى موانى مصر تحمل الحجاج المغاربة أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند . كما كانت فى حاجة إلى غلات

---

(١) Nasiri Khusrau, Safar, Nameh, p. 111.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦ — ٧ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ١٩٦ .

(٤) Safar Nameh, p. 122.

(٥) Heyd, Hist. du Commerce, tome I. p. 392.

(٦) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٢٩ .

بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة . فكانت السفن المصرية تفد إلى المهدية وتحمل متاجر المغرب إلى الإسكندرية[١] . وقد شاهد ناصر خسرو فى أسواق الفسطاط قطعة من البلور الصخرى واردة من بلاد المغرب[٢] . أما برقة فكانت تصدر إلى مصر القباطى كما تفعل اليوم ، والصوف والعسل والقطران . وكانت منتوجات بلاد السودان و بلاد غانة وحوض السنغال والنيجر ، تحملها القوافل من سجلماسة إلى واحات مصر ، فتحمل التبر و بعض السلع التى ينتجها إقليم الواحات[٣] .

وكما كانت سفن الفاطميين ترد موانى المغرب كذلك أبحرت إلى موانى الأندلس . فقد كانت الأسواق الأندلسية تقوم بدور الوسيط بين مصر من ناحية و بين البلاد المسيحية كالبرتغال وفرنسا وغيرها . كما كان تجار مصر يلجئون إلى أسواق الأندلس إذا أعوزتهم الحاجة القمح والشعير ، ثم يعودون بالجوهر والياقوت[٤] .

ولم تنقطع صلة مصر بالعراق و إيران برغم ذلك العداء الذى كان سائداً بين الفاطميين والعباسيين . فقد ظل تجار العراق يفدون إلى مصر ، حتى لقد أنشئت لتجارة العراق وكالة خاصة للمبيت بالآمرية[٥] . وكان تجار مصر يفدون على أسواق آسيا الوسطى حاملين منسوجات الصعيد ودمياط وتنيس ، حيث كانت تروج فى أسواق العراق و إيران . وكان بعض التجار المصريين يقيمون فى بخارى . وقد لقى المقدسى بعضهم هناك[٦] . وكانت السفن المصرية ترحل إلى عدن لتنقل غلات الهند وشرق آسيا ، كما كانت تحمل من بلاد اليمن البخور والعطور .

وكانت العلاقات بين مصر و بلاد النوبة ودية إلى حد كبير ، فكان ملوك النوبة يرسلون الهدايا إلى الخلفاء الفاطميين و يعقدون معهم المعاهدات[٧] . وكان تجار مصر يحملون

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٨٢ .

(٢) Nasir-i Khussau, p. 149

(٣) البكرى : المغرب ص ٥ .

(٤) Heyd, tome I, p. 49.

(٥) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٥١

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٢ .

(٧) Safar Nameh, p. 175.

إلى بلاد النوبة أدوات الزينة ويجلبون الرقيق[1] . وتصل مراكب الأحباش إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار ، وتستورد مصر الرقيق من الحبشة .

٤ — السلع المتبادلة :

وكانت مصر فى العصر الفاطمى تستورد كثيراً من السلع من البلاد الشرقية والغربية . ومن هذه السلع : الجواهر وأدوات الزينة والطرف التى كثر الإقبال على اقتنائها . فقد حوت خزائن الخلفاء كثيراً من الجواهر النادرة والسيوف المطعمة والسروج المذهبة والكسى المحلاة بالجواهر ، وكانت مصر تستورد اللؤلؤ من مصايده بالخليج الفارسى وسواحل عمان[2] ، ومن مياه جنوب الهند وجزيرة سيلان ، كما كانت تجلب الياقوت من جبل سرنديب بالهند ، والمرجان من صقلية وسواحل بلاد المغرب ، والعقيق من بلاد اليمن[3] ، والماس ، من جزيرة سيلان ، ومن ساحل إفريقية الجنوبى الشرقى . وقد قيل إن ثروة جوهر الصقلى اشتملت على ٧٠٠ خاتم من الياقوت والزمرد والماس[4] . كما كانوا يجلبون سن الفيل من بلاد السودان[5] .

ومن أهم واردات مصر فى ذلك العصر : التوابل والعطور والأفاويه ؛ وكانت تستورد من أسواق الشرق الأقصى وتستهلك بعضها فى الأسواق المحلية ، ويصدر الباقى ليباع فى أسواق أوربا ، وتجنى الدولة من وراء ذلك أرباحاً طائلة . وكان الفلفل والقرفة ترد بكميات هائلة إلى ثغر عيذاب ، وبلغ من كثرتها أنها كانت تترك فى أسواق المدينة بدون حراسة[6] . وتجلب التوابل من سواحل مليبار وجزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو . وقد جلب الفاطميون كميات هائلة من التوابل امتلأت بها خزائن التوابل ، حتى بلغت قيمة هذه السلع خمسين ألف دينار فى السنة . وكانت التوابل والعطور توزع على الحمامات فى كل

(١) Ibid., p. 116

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥ .

(٤) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٥١ .

(٥) Safar Nameh, p. 46.

(٦) رحلة ابن جبير ص ٣٨ .

يوم جمعة ، وكذلك كان الطيب يوزع على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . وكان قصر الخليفة يستهلك فى كل شهر ثلاثين مثقالا من الند ، و ١٥٠ درهما من العود الصينى ، و ١٥ درهما من الكافور ، وعشرة مثاقيل من العنبر الخام ، و ٢٠ درهما من الزعفران ، و ٣٠ رطلا من ماء الورد . وكان مجلس الملك يستهلك فى كل شهر مقادير كبيرة من البخور ، « ومما هو برسم المائدة الشريفة ما تستلمه المطلة من الملك خمسة عشر مثقالا ، ومن ماء الورد خمسة عشر رطلا ، ومن الند سبعة مثاقيل »(١) . كما كانت مصر تستورد العطر والنّد والمسك والعود من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو ، ويستورد الكافور من ساحل زنجبار(٢) . ويجلب العنبر من جزر الهند الشرقية وبخاصة من جزيرة جاوة(٣) .

وكانت مصر من أهم أسواق الرقيق العالمية . فقد كان الرقيق ، وبخاصة السودان ، يستخدمون فى الجيش . وبلغ عدد السودان الذين استخدمتهم أم المستنصر — وكانت سودانية — فى الجيش خمسين ألفاً ، كما استخدم الفاطميون الديلم والأتراك . وأكثروا من المماليك البيض والخصيان والجوارى ، حتى قيل إنه كان لست الملك أخت الخليفة العزيز ثمانمائة جارية(٤) . كما كان بقصر ست الملك أخت الحاكم أربعة آلاف جارية بين بيض وسود ومولدات(٥) . وكان العبيد يستوردون أيضاً من بلاد النوبة والحبشة والسودان .

وكانت مصر فوق ذلك كله تستورد الحرير من صقلية ، والحديد من إيطاليا ، وخشب الساج من شبه جزيرة الملايو ، والقطرة من الجوز واللوز والفستق من بلاد الشام والمغرب والهند . وتستورد الفاكهة من بلاد الشام ، والزيت من بلاد المغرب ، ومن مدينة صفاقس بوجه خاص(٦) .

● — نظم التجارة العالمية :

كانت العملة المستعملة فى الأسواق : العملة الذهبية وهى الدينار ، والفضية وهى

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .
(٢) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٦٣ .
(٣) انظر ما كتبه الجاحظ فى باب معرفة الطيب والعطر والروائح الطيبة : كتاب التبصر بالتجارة ص ١٦ — ٢٥
(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٨ .
(٥) ابن إياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٥٨ .
(٦) البكرى : المغرب ص ٢٠ .

الدرهم . وكان الدينار شائعاً فى البلاد الغربية للدولة الإسلامية ، وخاصة فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها .

ودينار مشتق من ديناريوس Denarius (Aureus) الإغريقى اللاتينى ، وهو اسم وحدة من العملة الإسلامية القديمة . ومنذ أدخل الخليفة عبد الملك ٦٥ — ٨٦ ﻫ (٦٨٤ — ٧٠٥ م) إصلاحه فى السكة سنة ٧٧ ﻫ (٦٩٦ م) ، أصبحت قيمته ثابتة[1] . ومن ذلك الحين أصبح يضرب الدينار فى كافة دور الضرب فى أرجاء الإمبراطورية الإسلامية طوال العهد الأموى . وكان وزن الدينار ٦٥ حبة ، والدرهم ٤٣ حبة ؛ وظل الأمر كذلك حتى العصور الإسلامية المتأخرة . وكان عيار الدنانير العباسية ٠٫٩٧٠ ؛ وظلت هذه النسبة مرعية قرونا طويلة ، كما كانت تلاحظ أيضاً فى الدنانير التى تصدر عن دور الضرب عند الفاطميين والموحدين ، وأحياناً عند المرابطين . وكان الدينار يساوى أول الأمر عشرة دراهم ؛ غير أن ذلك كان يختلف بين عصر وعصر[2] .

وقد ذكر لينبول[3] أن الدينار كان عملة ذهبية تساوى فى الوزن نصف الجنيه الإنجليزى المسمى guinea ، وأنه — كما ذكره المقريزى — كان ٣٦ درهما ؛ وعلى هذا فيكون الدرهم ثلاثة بنسات ونصفا .

إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح فى القرن الرابع الهجرى شائعاً فى بلاد العراق . ومع ذلك ظلت سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم . وكان الدينار يساوى أربعة عشر درهما فى ذلك العصر . ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد : فتارة نرى الدينار يساوى ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهما وتارة أخرى ١٥ درهما . ومن وسائل التعامل الصك ، وهو أشبه بالشيك الآن ، والمقايضة . وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم فى بعض الأحيان[4] .

وكان التجار يتعاملون بالرطل والأوقية والدرهم . وإليك ثبتا بأنواع الأرطال التى

---

(١) انظر لفظ Dinar فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) Lane - Poole, Coins and Medals, pp. 165 - 167

(٣) The Story of Cairo, p. 69

(٤) انظر آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٣ ص ٣١٦ — ٣٢١ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ .

كانت مستعملة فى أسواق مصر فى ذلك العصر :

النوع	مقدار الوزن
١ – الأرطال	
الرطل المصرى	١٢ أوقية أو ١٤٤ درهما
الرطل الجروى	٣١٢ درهما
الرطل الليثى	٢٠٠ درهما
الرطل الحريرى	١٢٠ درهما
الرطل القليوبى	١٥٠ درهما
الرطل الفيومى	١٥٠ درهما
الرطل الفلفلى	١٥٠ درهما
رطل أسيوطى وطحا وطهطا	١٠٠٠ درهم
رطل المحلة	٤٠٠
رطل دمياط	٣٣٠ درهما
رطل سمنود	٣٠٠ درهما

٢ – الأواق

نوع الأوقية	وزنها بالدراهم	وزنها بالجرامات
أوقية رطل مصر	١٢	٣٧ر٠٧٧٦
أوقية رطل قليوب والفيوم	١٢ر٥	٣٨ر٦٢٢٥
أوقية الرطل الليثى	١٦ ٢/٣	٥١ر٤٩٦٦ ٢/٣
أوقية الرطل الجروى	٢٦	٨٠ر٣٣٤٨
أوقية رطل دمياط	٢٧ ١/٣	٨٤ر٩٦٩٥
أوقية رطل فوة	٣٠	٩٢ر٦٩٤٠
أوقية رطل المحلة	٣٣ ١/٣	١٠٢ر٩٩٣٣ ١/٣
أوقية رطل أسيوط وطحا وطهطا	٣٣٦	١٠٣٨ر١٧٢٨ [١]

وكانت الدولة الفاطمية تجبى مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات . فكانت السفينة إذا رست فى الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير « الأمناء » ، ومهمتهم « تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش [٢] » . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها . أما القوافل فإنها لم تكد تصل

(١) راجع هذا الثبت فى البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٠٣ – ٢٠٤

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأمناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها[١] .

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع ، « ومن أجناس الروم من يُستأدى منهم العشر[٢] » . وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض إلى ٢٠٪[٣] ، وذلك يرجع إلى اختلاف أنواع السلع ، وقيمتها وجنسيات التجار . فكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوما أقل مما يؤديه تجار المسيحيين . ولم يكن التجار الأوربيون يعاملون معاملة واحدة ؛ فكانت الرسوم الجمركية تخفض على واردات دور الصناعة ، من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد . هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن[٤] .

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجرى تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الحكومة ، وتستولى الدولة على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران[٥] . كما كانت الدولة الفاطمية تسمح للتجار الأوربيين بإقامة الفنادق فى الموانى الهامة ، ولكل جالية أوربية فندقها الخاص ، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها ، ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرهم الدينية ، وفرن يصنعون فيه الخبز ، وحمام ، ودار لصنع النبيذ . وتختار الجالية واحدا من أفرادها يطلق عليه اسم الفندقى للإشراف على الفندق ، وهو مسئول أمام الحكومة[٦] .

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة فى الموانى فحسب ، بل كانت منتشرة أيضاً فى داخل البلاد . فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بمحلة صرد والبجوم

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٦ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .
(٤) Heyd, Hist. du Commerce, tome I. pp. 391-2.
(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ .
(٦) المقريزى (خطط ج ٢ ص ٩٢–٩٤) ومنها فندق بلال المغيثى حيث تباع صناديق الذهب والفضة وفندق الصالح ، وفندق ابن قريش ، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التى تنبت فى بساتين ضواحى القاهرة من التفاح والكمثرى والسفرجل . وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة ، وفندق مُطرِّز اطى وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام .

والسكريون[١] . وليس ببعيد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف فى العصر الفاطمى بسبب رواج التجارة ووفرة رءوس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر[٢] .

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم تكون بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عندما يقيمون بمصر . وتصبح هذه الوكالات همزة الوصل بينهم وبين التجار المصريين . وكان التجار المصريون ينشئون وكالات من هذا النوع فى بلاد الشام والعراق والحجاز[٣] . أما القياسر فهى « كالخان العظيم تُغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض[٤] » . والقيسارية فى الواقع مجموعة من المبانى العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن[٥] » . وقد كثرت القياسر فى العصر الفاطمى وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج[٦] . كما كثرت الخانات بمصر فى ذلك العهد[٧] . وارتفعت إيجاراتها ، حتى لقد بلغ إيجار الخان بمدينة الفسطاط ١٢ ألف دينار فى السنة .

وكانت الحكومة الفاطمية تفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية ، وتحدد الأسعار ، وتقاوم الغش والتدليس ، وتراقب المكاييل والموازين ، وتحمى التجار والفقراء من استغلال الباعة والصناع ، وتحرس الطرق والمسالك ، وتوفر للتجار جميع أسباب الراحة . كما كانت الدولة تحتكر بعض السلع مثل الخشب والشب والنطرون .

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ ، ٩٠ : ٩١ .

(٢) البراوى ص ٢٧١ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

(٥) انظر مادة قيسارية فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) أمدنا المقريزى (خطط ج ٢ ص ٨٦ — ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر فى مصر . ومن هذه القياسر : قيسارية ابن قريش ، وقيسارية الشرب ، وقيسارية ابن أبى أسامة ، وقيسارية بيبرس ، وقيسارية سنقر الأشقر ، وقيسارية جهاركس ، وقيسارية العصفر حيث يدق العُصْفر ، وقيسارية العنبر ، وقيسارية الجامع الطولونى ، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع الكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة فى العصر الفاطمى .

(٧) من أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وخان منكورش ، وخان الخليلى (المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٢—٩٤) ويلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكى ، فإن بعضها لا يزال باقياً حتى الآن . . .

الباب الرابع عشر

الحالة الاجتماعية

١ – طبقات المجتمع

(ا) السنيون والشيعيون :

كان الشعب المصرى فى عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا ، منذ أيام الطولونيين ، يكونون السواد الأعظم من المصريين . وكانوا يختلفون مع الشيعيين أنصار الفاطميين ، الذين لم يدخروا وسعا فى نشر مذهبهم فى المساجد والقصور ، وفى دور العلم وغيرها . وقد فعلت هذه السياسة فعلها فى الناس ، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمى رغبة فى الهبات والعطايا والمناصب . واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمى ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب .

أما الطبقة الثانية فهى طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب ثم فى مصر . وكان الفاطميون يعتمدون عليهم فى جيوشهم ، وخاصة الكتاميين الذين كانوا عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر .

وطالما أثار المغاربة الفتن والقلاقل بما أتوْا من أعمال العنف والشدة ضد الأهلين . فلم يكن بد من أن يعدهم هؤلاء من أعدائهم ، لاختلافهم فى المذهب ، ولاغتصابهم ما كان لهم من حقوق سياسية . ويتضح ذلك من هذه الحوادث التى نأتى بها على سبيل المثال : ففى شهر ذى الحجة من سنة ٣٦١ ، نهبت المغاربة بعض أحياء مدينة مصر ؛ فثار الأهلون ، ونشب القتال بين الفريقين . فأنفذ إليهم جوهر سعادة بن حيّان فى الحال ؛ لحسم النزاع وعوّض جوهر الناس ما نهب منهم[١] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

ويظهر أن سلوك المغاربة استثار الأهلين ودفعهم إلى إعلان ما كان يجيش فى نفوسهم من الاستياء والسخط فى مناسبات مختلفة . ففى شهر ربيع الأول من سنة ٣٦٢ أنب المحتسب جماعة من الصيارفة ، لسبب لم يكشف لنا التاريخ اللثام عنه . وكان من أثر ذلك أن شغب غيرهم من الصيارفة احتجاجا على ما أتاه هذا المحتسب وصاحوا بهذه الكلمات : « معاوية ابن عم على بن أبى طالب » ؛ كما أن شعور الكره الذى أضمره السنيون نحو الشيعة يكشف لنا عما كان يضمره السنيون فى مصر للفاطميين .

ولم تنقطع القلاقل والاضطرابات بعد وصول المعز . من ذلك ما حدث عند الاحتفال بعيد غدير خُمّ (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢) . ولم يُدْلِ المقريزى[١] بشىء جلى عمن كانوا سبب إثارة هذه القلاقل . وكل ما قاله أن جوهرا قتل جماعة ، لأنهم نهبوا بعض جهات القرافة . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نقول إن المغاربة كانوا السبب فى إثارة هذا الشغب الذى آل إلى التطاحن ، وأن جوهرا أمر بجماعة منهم فضُربت أعناقهم ليضع بذلك حدا لما أتوه من ضروب التعدى[٢] .

وإن مسألة قيام المتشيعين من المصريين بنصرة المغاربة ، أو وقوفهم فى صف بنى وطنهم وأبناء جلدتهم دفاعا عن أملاكهم ، مسألة جديرة بالنظر والاعتبار . وإنه وإن لم يكن فى المصادر التى رجعنا إليها ما يرجح أحد هذين الرأيين ، فلا شك فى أن المغاربة إنما قاموا بنهب أملاك الأهلين ، غير آبهين بأى حزب أو دين ينتمى إليه أى شخص ، وأن الأهلين — سنيين وشيعيين وغير مسلمين — هبوا يدفعون عن أنفسهم هذا التعدى الذى كان قوامه السلب والنهب . وإن إظهار الشيعيين شعورهم العدائى نحو أهل السنة ، أمر كان يتجلى فى احتفالاتهم ببعض أعيادهم ومواسمهم .

وفى سنة ٣٦٣ هـ تفاقم شر هذا العدوان الذى أضمره المتشيعون للمصريين . وعاد المغاربة سيرتهم الأولى فى القرافة ؛ فاحتلوا الدور وأجلَوْا سكانها عنها ، فشكا الأهلون إلى المعز واستغاثوا به — وكان قد أمر المغاربة أن يسكنوا أطراف المدينة — فأصدر الأوامر

(١) اتعاظ الحنفا ص ٩٣ .

(٢) ابن ميسر ص ٤٥ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٤ .

إلى المغاربة باخلاء هذه الدور والتحول إلى الخندق الكائن على مقربة من عين شمس ؛ وركب هو بنفسه فعين مواضع لنزولهم ، وأقر المال المطلوب للبناء ، كما جعل لهم واليا وقاضيا عهد إليهما النظر فى أحوالهم[١] .

على أن هذه الإجراءات لم تكفل للمصريين الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من المغاربة ؛ فقد ظلوا يخالطون أهل مصر حتى يتم إعداد مساكنهم الجديدة . أما المتشيعون من المصريين فكان عددهم قليلا ؛ غير أنهم كانوا أقوياء بالمغاربة الذين كانوا يشدون أزرهم ، وبوجود حكومة شيعية تعضدهم ، ولا سيا بعد وصول المعز .

وطالما كان يثور بركان العداء المستحكم بين هاتين الطائفتين فى مناسبات كثيرة ، وبخاصة عند الاحتفال ببعض الأعياد والرسوم الشيعية . أما الشيعيون فكانت تناصرهم الحكومة طوال العهد الفاطمى ، كما كان المغاربة يشدون أزرهم .

وكثيراً ما كان يصحب هذا العداء الذى أضمره السنيون للشيعيين الفتن والقلاقل . فتقدم الكتاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية وقوتها فى مصر — إلى الخليفة الجديد ، طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمّار ، وهددوا هذا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، بل بالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم[٢] . فلم ير الحاكم بدا من إجابتهم . وفى ٣ شوّال سنة ٣٨٦ تقلد ابن عمار أزمّة الأمور ، وتلقب بأمين الدولة[٣] . وكان الحاكم فى غضون الأربع السنوات الأولى من خلافته (٣٨٦ — ٣٩٠ هـ) صغيراً لا يستطيع القيام بمهام الدولة ، فإنه ارتقى عرش الخلافة فى الحادية عشرة من عمره ؛ وعهد بالوزارة — التى كان يطلق عليها « الوساطة » فى ذلك الوقت — إلى ابن عمار (٣ شوّال سنة ٣٨٦ — ٢٧ شعبان سنة ٣٨٧) ، ومن بعده إلى برجوان[٤] (٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ — ٢٦ ربيع الثانى

---

(١) ابن ميسر ص ٤٥ .

(٢) ابن القلانسى ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) أبو شجاع ص ٢٢٢ .

(٤) انظر ترجمة برجوان فى ابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) . وقد أطلق عليه أبو شجاع وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٢) أرجوان . وذكر هذا اللفظ الأستاذ مرجوليوث فى ترجمته لكتاب « تجارب الأمم » لمسكويه ، المذيل بتاريخ أبى شجاع . ويستعمل هذا اللفظ فى أغلب كتب تاريخ الأدب باسم برجوان ، =

سنة ٣٩٠) أستاذ الحاكم ومستشاره[1] .

وقد ظهر سوء إدارة ابن عمار فى كثير من الأعمال بما أتاه فى عهد تقلده الوساطة . إذ بالغ فى محاباة الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك[2] ، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أتوا من الأعمال ما أثار عليهم الأتراك وأدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان ينافس ابن عمار ويناوئه العداء ، مع تعضيد الأتراك له ؛ فكانت نتيجة هذا التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء[3] وحل محله برجوان[4] .

(ب) أهل الذمة :

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم فى الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى لأغراض مادية . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا فى عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرق المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز ، وشغلوا فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضاً ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من بناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

= ولا يزال باقياً إلى اليوم فى الحارة المسماة بحارة برجوان فى القاهرة بجهة الخرنفش . ويطلق عليه أبو شجاع بطيس . ونقل ناشر الأصل العربى لتاريخ أبى شجاع هذا اللفظ عن ابن القلانسى (ص ٤٤) .

انظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٤) وابن القلانسى (ص ٤٤) وابن منجب (ص ٢٧) وابن ميسر (ص ٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) .

(١) ابن منجب ص ٢٧

(٢) هذه الحقيقة قد أدلى بها ابن منجب (ص ٢٧) .

(٣) ذكر ابن منجب (ص ٢٧) أن ابن عمار قدم استقالته إلى الخليفة الذى بادر إلى قبولها وعين برجوان فى محله . ولكن فراره إلى الصحراء مع جماعة من أعوانه وبقاءه مختفياً مدة من الزمن إلى أن أمنه برجوان ، يقرب إلى الذهن أنه لم يستقل (انظر أبو شجاع ص ٢٢٦) . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٨١) إنه بقى مختفياً فى داره فى القاهرة ؛ وخالفه ابن القلانسى فى ذلك فقال إن ابن عمار اختفى فى بيت رجل من العامة ؛ وهذا أرجح فى نظرنا .

(٤) ابن القلانسى ص ٤٤

وفى سنة ٤٠٢ هـ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين التى سبقتها . فقد أمرهم الحاكم بلبس الطيالس و بوضع صلبان على أعناقهم ، طول كل صليب منها قدم وزنته خمسة أرطال (أى مايقرب من عشرة أرطال الآن) ، وأمر اليهود بحمل قَرامى الخشب فى رقابهم ، زنة كل منها زنة صليب النصارى ، وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج ، وأن تكون ركابهم من خشب ، وألا يستخدموا أحدا من المسلمين ، وألا يركبوا حمارا لمكّارٍ مسلم ، ولا سفينة ربانها مسلم ؛ وأن تكون الصلبان فى أعناق النصارى إذا دخلوا الحمامات العامة ، والجلاجل فى أعناق اليهود ليتميزوا بذلك عن المسلمين[١] . ثم أفرد فى سنة ٤٠٨ حمامات اليهود[٢] وحمامات النصارى عن حمامات المسلمين ، وميز حمامات النصارى بوضع الصلبان فوقها ، وميز حمامات اليهود بالقرامى[٣] .

(ج) الأتراك :

والطبقة الرابعة هى طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية . فقد استعان أحمد بن طولون مؤسس هـذه الدولة — وكان تركيا من بلاد ما وراء النهر — بعدد كبير من هؤلاء الأتراك . وظهر أمرهم فى مصر فى عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار فى محاباة المغاربة ، وأبطل أعطيات الأتراك ، واعتمد على معونة غلمان المغاربة الذين أثاروا عليهم الأتراك ، مما أدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان التركى ينافس ابن عمار ويناوئه العداء ، حتى اضطر زعيم المغاربة إلى الهرب وحل محله[٤] .

(د) السودانيون :

والطبقة الخامسة هى طبقة السودانيين الذين كثروا فى مصر منذ عهد كافور الإخشيدى . وقد ظهر أمرهم فى أيام الخليفة الحاكم الذى استعان بهم على الأتراك ، فأحرقوا القاهرة

---

(١) يحيى بن سعيد ص ١٨٧ .

(٢) يظهر من كلام ابن زولاق (ورقة ٥١ ا) وابن إياس (ج ١ ص ٥٠) أن تخصيص حارة زويلة لليهود كان فى ذلك الوقت .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦

(٤) ابن منجب : الإشارة ص ٢٧ .

حنقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة .

وقد ظهر أمر هؤلاء السودانيين من جديد فى أيام الخليفة الظاهر الذى تزوج بسيدة سودانية ، كانت من قبل أمة فى بيت أبى سعيد التسترى اليهودى . وتفاقم خطر هؤلاء الجند الذين بلغ عددهم خمسين ألفاً فى أيام المستنصر ، بسبب التشاحن الذى قام بينهم و بين الأتراك الذين طاردوهم إلى الصعيد ، حيث استقر منهم خمسة عشر ألفاً . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهلين ، وحالوا دون زراعة الأراضى (٤٥٤ هـ) ، واكتسح الفالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، الدلتا حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، فاستقروا بها . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذى ألقته هؤلاء الجنود السودانية المشتتة فى جميع أنحاء البلاد .

على أن ذلك الانتصار الذى أحرزه الجند من الأتراك على الجند السودانى لم يؤد إلى فل شوكة العنصر السودانى نهائياً ، بل — على العكس من ذلك — نرى هذا العنصر من بين الطبقات التى كان يتكون منها الشعب المصرى فى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

٢ — مجالس الغناء والطرب

وقد عنى الطولونيون والفاطميون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذى بناه خمارويه بن أحمد بن طولون ، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وعلى رءوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادن[1] المرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها المثبتة فى الحيطان بمسامير ، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التى تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية[2] . وذكر المقريزى[3] أيضاً أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين فى سكون وخشوع .

---

(١) لعلها جمع كدن ، وهو — كما فى القاموس المحيط — ثوب الخدر (المنزل) ، أو ثوب توطىء به المرأة فى الهودج ، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر ، وهو أشبه بالطرحة اليوم .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٧

وذكر المقريزى فى مكان آخر[1] أن الخليفة الحاكم الفاطمى أصدر بين سنتى ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ ، وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكان[2] إن النساء قبعن فى بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر بن الحاكم . وقد ذكر المؤرخون أن أبا الحارث البساسيرى لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر فى بغداد ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت فى حضرة الخليفة الفاطمى هذين البيتين :

يا بنى العباس صُـــدوا ملك الأمرَ معـــدُّ
ملككم كان مُعاراً والعوارى تُســـترد

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة .

أما مجلس شرب الأفضل فقد وصفه لنا ابن ميسر ، إذ ذكر أنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ؛ وكان منهن أربع بيض من الكافور ، وأربع سود من عنبر . وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى ، و يمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة .

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس ، نكّسْن رءوسهن إجلالا له ؛ فإذا ما أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات . وهذه التماثيل لم يبين لنا ابن ميسر — وهو المرجع الوحيد فى هذا الموضوع — إن كانت حركاتها تلك من تلقاء نفسها أو بوسائل أخرى . والظاهر أن ذلك منها كان بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه .

وكان الأفضل حين يجلس للشرب يحمل فى مجلسه صوانى الذهب مصفوفة ، وفيها الأوانى المملوءة بالجوهر . فإذا أمر جُعل ما فى الآنية على الصينية فيملؤها ، ويحمل بدله الشراب[3] .

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٣) ابن ميسر ص ٥٨ .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

و بنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده .

من ذلك القصر الغربى ، وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر الصقلى للخليفة المعز شرقى مدينة القاهرة . وكان هذا القصر أصغر من القصر الشرقى ، لذلك أطلق عليه القصر الغربى الصغير تمييزاً له عن قصر المعز .

وفى عهد الخليفة العزيز بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة ، وكان يتصل به بستان وحمام . وقد وصف المقريزى[1] هذا القصر فقال إنه كان قصراً فخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة ، و به قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس . كما بنت تغريد منازل العز[2] ، وهو قصر فخم على شاطىء النيل ، واتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس ، كما بنى فى عهده قصر البحر الذى يقول فيه ابن خلكان[3] إنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب . وكذلك أسس العزيز قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك . وكانت مؤثثة أثاثاً فخماً ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم واحد ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم زمام القصر ، فيظهر شخص الخليفة وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات القرآن الكريم بأنغام عالية . ثم يأتى حامل الدواة — وهو أستاذ محنك أيضاً — فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت

(١) خطط ج ١ ص ٤١٥

(٢) راجع وصف هذا المنزل فى المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٥ ، والمقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

الذى يكون الحاضرون قد أخذوا أمكنتهم المخصصة لهم . عندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم للخليفة .

و إن تقاليد البلاط الفاطمى كانت متفقة مع الدعاوى التى كان يدعيها الخلفاء . فكان من الشرف العظيم أن يسمح للوزير بلثم قدمى الخليفة على مرأى من جموع الرعايا المتحمسين . أما قاضى القضاة ، باعتباره حامى الشريعة الإسلامية ، فكان لا ينتظر منه إلا أن يلثم قدم الخليفة فى الركاب القريب منه[1] .

ولم تكن مظاهر الاحترام هذه نحو الخلفاء مقصورة على وزرائهم وقضاتهم وغيرهم من مشهورى رجالات دولتهم . فقد كان على عامة الناس أن يقوموا وقوفاً كلما ذكر اسم الخليفة فى الخطبة كما كان عليهم أن يظلوا واقفين أيضاً إذا مر الخليفة فى إحدى الطرقات[2] .

وكان من المناظر المسلية أن يُرى الخليفة الفاطمى جالساً فى إحدى مناظره[3] عند الاحتفال ببعض الأعياد الدينية أو العامة ، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضاءة ؛ فقد كان شخصه المقدس يرى ظاهراً لرعاياه المتحمسين إذا ما فتح شباك المنظرة ، وأمامه أحد الأستاذين يلوح للناس بكُمّ قبائه ، يحمل إليهم سلام الخليفة فى هذه الكلمات : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . وعقب تفوه الأستاذ بهذه الكلمات يقفل الشباك ؛ فينصرف الناس المفعمون سروراً ، والذين كانوا يركعون إذ ما رأوا شخص الخليفة .

و إن فى الأبهة التى كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين فى مجلسهم[4] لدليلا آخر على ما كانوا يعتقدونه مما كان يطلق عليه حق الملوك المقدس ، حتى كان بعضهم يعتقد لنفسه بعض صفات الله .

قاعة الذهب ومجلس الملك :

كان من العادة أن يبعث الخليفة صاحب الرسالة إلى الوزير يحمل إليه أمره الملكى بانعقاد

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٧٧ .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ ا و ٥٦ ا والقضاعى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ ا .

(٣) انظر ما ذكرناه عن المناظر فى هذا الباب .

(٤) يسمى هذا المجلس الإيوان ويعرف بقاعة الذهب التى سيأتى الكلام عليها .

المجلس . وصاحب الرسالة هذا كان أستاذا مميزا ؛ وعمله هو حمل أوامر الخليفة إلى الوزير متى آن انعقاد المجلس . وكان إذا انتهى الأمر للوزير ، ركب فى صحبة الأمراء إلى مكان الوزارة من القصر ، حيث يترجل ويمشى إلى قاعة الذهب[1] .

أما قاعة الذهب فكانت مؤثثة أثاثا فخما ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، التى كانت كلها من رسم وطراز ولون واحد . وكان فى صدر قاعة الذهب حَشِيَّة عليها عرشُ الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس ، رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر زِمَام القصر ؛ فيبين شخص الخليفة ، وحوله جماعة من القراء ؛ فيأخذون فى ترتيل بعض آيات بأنغام عالية . ثم يأتى حامل الدواة — وهو أستاذ محنَّك أيضا — فيضعها على طرف الحَشِيَّة المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يُقدم إلى الخليفة . فيخطو إلى الأمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه ورجليه ؛ ثم يتراجع إلى مكانه الرفيع ويظل واقفاً نحو ساعة ؛ فيؤذن له بوسادة يجلس عليها فى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ، ويشير بسبحته قائلا : « السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ! وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان أيضاً يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان الأمير يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه فى هذا السبيل .

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ، ويعتمد على سيفه ، ثم يشرع فى حديثه . وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات فى العادة ؛

(١) كان مجلس الملك ينعقد فى الإيوان الكبير قبل أن يبنى العزيز قاعة الذهب . أما الإيوان الكبير فقد استعمل فيما بعد داراً للسلاح .

فتُقدَّم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد الوظائف المختلفة إلى من يقدم أسماءهم .

فإذا انفرط عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى مولاه ورجليه مرة ثانية ؛ ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ؛ ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب[1] .

هكذا كانت الأبهة التى كانت تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك ؛ غير أن هذه التقاليد لم يكن الفاطميون أول مبتدعيها ، فقد كانت من رسوم آل ساسان ملوك الفرس (٢٢٦ / — ٦٥٠ م) قبل ظهور الدولة الفاطمية فى عالم الدول بنحو سبعة قرون .

يقول الأستاذ براون (E. G. Browne) : « إن آل ساسان كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة ، أو أناساً إلهيين ، من سلالة أسرة الكايانى الخرافية العريقة فى القدم ، ووارثى العظمة الملوكية (Farri-Kayani) ، وذلك نوع من الحق الإلهى الذى وصل إليهم بطريق الإشارة والرمز ، وبفضل هذا الحق كان لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسى — فحملوا كل ما فى مكنتهم للتأثير فى رعاياهم ، حتى يذعنوا لهذا الحق الملكى الرفيع » .

وقد اقتبس الأستاذ براون فى صدد كلامه عن عظمة « آل ساسان الملكية » واعتلائهم العرش ، أسطورة أوردها ابن هشام فى « سيرة النبى صلى الله عليه وسلم »[2] حيث يقول : وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى به تاجه ؛ وكان تاجه مثل القُنْقُل[3] العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك . وكان عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يستر عليه بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك . ثم يدخل رأسه فى تاجه ؛ فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له »[4] .

ويلاحظ الأستاذ براون « أن نظرية الحق الملكى المقدس لم تكن فى دولة من الدول

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

(٢) Literary History of Persia from Earliest Times until Firdawsi, p. 128.

(٣) الجوذة العظيمة .

(٤) ابن هشام (طبعة وستنفلد) ج ١ ص ٤٢ .

أثبت وأكثر ذيوعاً منها فى فارس فى عهد آل ساسان » . غير أن هـذه النظرية كانت بمصر فى زمن أعرق فى القدم من عصر آل ساسان ، فى عهد الفراعنة الذين ادّعوا لأنفسهم كل صفات الله ؛ وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

وكان تأثير هذه العقيدة فى العصور التى تلت عظيما ؛ فقد تأصلت وخطت إلى الأمام فى عهد الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يعتقدون أن لهم بعض صفات الله .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذى بنـاه الخليفة الآمر فى جزيرة الروضة[1] لزوجته البدوية الطائية التى كان مشغوفا بها لجمالها ومواهبها الشعرية . وقد بنى هـذا القصر على هيئة تجعلها لا تشعر بوطأة الانتقال من المعيشة البدوية التى كانت تعيشها بين أسرتها ؛ فقد كانت له حديقة رحبة على شاطئ النيل . ويحدثنا المقريزى[2] أنهـا كانت تحب ابن عمها المسمى ابن مياح ، وقد أيأسها الزواج من الاتصال به . وقد كتبت لابن عمها هذا الذى كان مراقباً بأمر الخليفة الأبيات الآتية :

يا ابن مَيّاح إليك المشتكى ... مالكٌ من بعدكم قد ملـكا

كنتُ فى حى مطاعا آمرا ... نائلاً ما شئتُ منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مرصَـد ... لا أرى إلا خبيثا ممسكا

كم تَثَنَّينا كأغصان اللوى ... حيث لا نخشى علينا دَرَكا

فأجابها ابن مياح بقصيدة من نفس الروى والقافية يقول فيها :

بنتَ عمى والتى قد غذيتها ... بالهوى حتى علا واحتبكا

بُحْتِ بالشكوى وعندى ضعفها ... لو غدا ينفع منا المشتكى

مالكُ الأمر إليه أشـتكى ... مالكٌ ، وهو الذى قد ملـكا

ويقول المقريزى إن ما كان بين هـذه البدوية وابن عمها من الحب ، وما كان من زواجها بالخليفة الذى لم تكن تشعر نحوه بأية عاطفة قد صار مشهورا ، حتى إن كثيراً من الكتاب ألفوا فى ذلك قصصا تحاكى قصص « ألف ليلة وليلة » .

(١) انظر ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

(٢) خطط ج ١ ص ٤٨٥ .

على أن هذه الثروة العظيمة التى كان يمتلكها المستنصر لا تدلنا بحال من الأحوال على أن الفلاح المصرى كان فى رَغَد من العيش ، بل على العكس ، فقد كان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم يسكنون قصوراً فخمة منسّقة تنسيقا بديعا تتجلى فيها آثار الصناعة العربية ، وتحيط بها أشجار الفاكهة ومختلف الأزهار والعطور . أما الأثاث والرياش ، والمأكل والمشرب ، وموائد الطعام ، فكانت مضرب الأمثال من حيث الوفرة وحسن التنسيق والجمال .

وقد جعل ابن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه . وكانت تُمد فى كل يوم مائدة كبيرة العلماء وصفوة كتابه وأتباعه ولأضيافه ، وموائد أخرى تمد لحجابه وحاشيته وسائر الكتاب[1] .

وجعل فى القصر أيضا ميضأة للطهور وثمان غرف كانت معدة على الدوام لمن يأتى إليه من الأغراب . وكان يجلس بعد صلاة الصبح كل يوم ، فيدخل الناس للتسليم عليه ، ثم تعرض عليه الرقاع بظُلامات الناس وحاجاتهم . واتخذ كولاء العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد ؛ فكانوا يصحبونه فى غدواته وروحاته ، ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالى أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا .

ولم يفت هذا الوزير تحصين قصره ودور غلمانه بالدروب[2] ، فاتخذ لذلك حراسا أمدهم بما يحتاجون إليه من السلاح والعدد وسائر المؤن ، وأعد لهم وسائل البيع والشراء ، حتى أصبح يحيط بداره ودور أتباعه الحوانيت التى تباع فيها كل أنواع الحاجيات من مأكل ومشرب وملبس .

لم يكن هذا كل ما اتخذه ابن كلس من وسائل الأبهة والعظمة . فقد كان فى قصره عدا ذلك طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ، ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق . وقال المقريزى إنه فى شهر رمضان كانت تقام الولائم فى قصر هذا الوزير ، فكان يأتيها الفقهاء ومشاهير الرجال ، كما كان يدعى إليها الفقراء وعامة الناس .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ نقلا عن المسبحى .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ نقلا عن المسبحى .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) أن الحارة التى تعرف فى القاهرة بالوزيرية ، وهى الواقعة داخل باب سعادة ، تنسب إلى أصحابه لاتخاذها سكنا لهم .

ويذكر ابن ميسر[١] أنه كان فى بيت الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ثمانمائة جارية منهن خمسون حظية ، لكل واحدة منهن حجرة خاصة بها .

٤ — المناظر والبساتين

إن بناء المناظر التى كان يشرف الخلفاء منها على الاحتفال ببعض الأعياد ، يمدنا بمثل آخر من أمثلة حب الظهور الذى ملك قلوبهم ، فاستطاعوا أن يستميلوا به أكثر ما يمكن من الناس الذين يعتنقون المذهب الشيعى .

وكانت المناظر غالباً فى القاهرة ومصر والروضة والقرافة ؛ وكانت تستعمل أيضاً أماكن لنزهة الخلفاء . وقد عدد المقريزى هذه المناظر فى خططه ؛ ووصف لنا بعبارة شائقة الاحتفال ببعض الأعياد . ويجمل أن نذكر أسماء المناظر هنا ، لأننا سنشير إلى بعضها عند الكلام عن الاحتفال ببعض الأعياد وهى : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، والسكرة[٢] .

وكان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلا منها إلى أهالى الشام وفلسطين الذين كانوا فى ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين ، وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التى كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم مفصلة بما حوته تلك الصناديق . وكانت نوافذ المنظرة تفتح ، فإذا رأى الجند وجه الخليفة خروا له مقبلين الأرض ، ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير[٣] .

بعد هذا يركب الخليفة لمنظرة المقس ، حيث يكون هناك أمير « الأسطول »[٤] .

---

(١) تاريخ مصر ص ٥٨ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٥ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٣ .

(٤) ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٨٣) عن ابن ابى طى أن المعز بنى مراكب حربية تكون منها الأسطول المصرى .

وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية ، يأذن للأمير بالمثول بين يديه ، فيخلع عليه خلعة ، ويودعه الخليفة ، فيبدأ الأسطول فى المسير[١] .

وقد ذكر المقريزى فى كلامه عن مناظر الخلفاء الفاطميين — أن الأفضل بنى دار الملك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ — ١١٠٨ م) ، ثم صارت بعد وفاته ضمن مناظر الخلفاء . وقد جعل الأفضل مسكنه الخاص فى هذه الدار ، فنقل إلى بعضها الدواوين ، كما جعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة فى الأعياد ، واتخذ فى إحدى أبهائها مجلساً يجلس فيه للعطاء ، كانت تعقد فيه الجلسات . وسمى هذا المجلسُ مجلسَ العطاء ، إذ كان الوزير يجلس فيه ويعطى دينارا لكل من يأتيه مستجديا .

ولم ينقطع تشجيع الخلفاء للشعراء إلى آخر أيام خلافتهم . ويحدثنا المقريزى[٢] فى عبارة شائقة أوردها فى سياق كلامه عن المنظرة التى كانت تطل على بركة الحبش ، التى شيدها الخليفة الآمر فيقول : « فى هذه المنظرة طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش ، كتب عليها قطعة من شعر الشاعر فى المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار ، أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده » .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ احتفل لأول مرة فى مصر بعيد غدير خم . وفى هذا اليوم ركب الخليفة المعز إلى منظرة المقس ، فعرض الأسطول ثم عوَّذه[٣] ليحفظه الله سبحانه وتعالى من السوء . وقد بنى صلاح الدين قبة شامخة على أطلال هذه المنظرة ، أطلق عليها قلعة المقس ، بقيت إلى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ، وأنشىء فى مكانها حديقة[٤] .

ولم تكن المناظر هى الأماكن التى اتخذها الفاطميون ترويحا للنفس ، بل كان لهم أيضاً

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ و ٥٢٤ .

(٢) خطط ج ١ ص ٤٨٦ — ٤٨٧ .

(٣) يشير إلى سورة الفلق رقم ١١٣ وسورة الناس رقم ١١٤ .

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٣ .

بساتين فسيحة يتنزهون فيها . ومن هذه المتنزهات ، البساتين الجيوشية . وهى عبارة عن بستانين كبيرين يمتد أحدهما من باب الفتوح إلى المطرية ، والآخر يمتد من باب القنطرة إلى الخندق . وقد بلغ من ولع الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالبستان الذى كان يجاور بستان منظرة البعل ، أن بنى له سوراً يشبه سور القاهرة وحفر به بركة كبيرة . كما بنى فى وسط هـذا البستان منظرة مقامة على أربعة أعمدة من الرخام وزرع حواليها شجر النارنج ، وجعل على هذه البركة أربع سواق . وجلب إليه — كما يقول المقريزى « من الطيور المسموعة شيئاً كثيرا ، واستخدم للحمام الذى كان به عدة مُطَيِّرين ، وعمَّر به أبراجاً عدة للحمام والطيور المسموعة ، وسرّح فيه كثيرا من الطاووس » . وقد بلغ ثمن الفاكهة والزهور التى بيعت من هذه البساتين سنة ٥٢٤ هـ نيفا وثلاثين ألف دينار (١٥ ألف جنيه تقريباً) . وبلغ عدد أشجار السنط والجميز والأثل التى كانت تحيط بسور هذه البساتين مليون ومائتا ألف شجرة تقريبا . وغرس بها نوع من الليمون المطعم بالتفاح يؤكل بقشره حلو الطعم . وظلت هـذه البساتين موضع اهتمام الخلفاء والوزراء أيام الخليفة الحافظ حيث أهملت[1] .

٥ — الملابس

وفى عهد الفاطميين فى مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج ، وبلغ نظام الطراز مبلغاً عظيما من الرقى . واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية . من ذلك القلمونى ذى الألوان البراقة التى تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، وكانت تصنع فى دمياط وتنيس خاصة ، والقُرقبى الذى اشتهر بألوانه اللامعة التى تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية ، وتصنع من الحرير والقطن ، والدبيقى الذى ينسب إلى مدينة دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب المذهبة . وفى دار الكسوة التى بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفى الدولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع التى كانت

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٧٩ .

تمنح بسمة الوزراء والأمراء والأشراف فى عيد الفطر ، حتى سمى عيد الحلل .

وقد أمدنا المقريزى[1] بعبارة طويلة بين فيها مخصصات الخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفى الدولة ونسائهم وأولادهم فى الشتاء والصيف من الملابس التى كانت تصنع بدار الكسوة ، كما بين مقدار وقيمة كل كسوة . ومن الطريف أن نعلم أنه كان يصنع للخليفة كسى مختلفة يختلف كل منها لاحتفال خاص ، كالاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السماط فى أول يوم من أيام عيد الفطر ، وكانت موشاة بخيوط الذهب والفضة ، وبلغ ثمن بعضها خمسمائة دينار ، وأنفق على المنديل الواحد خمسة دنانير . وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفة : كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . كما كان الشعراء والكتاب والأعيان الذين يتفق وجودهم بالقاهرة فى هذه المناسبات يمنحون حللا مصنوعة من الحرير الخالص ، وبعضها مزركش بالذهب .

وكانت هناك كسى تصنع خاصة للخليفة فى الاحتفالات أو الأعياد ، فيلبسها بمساعدة سيدة يعاونها ثلاثون خادمة[2] . كما كانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء ، وكما كانت توزع الملابس على الأشراف وغيرهم فى عيد الفطر بسمة . ومن هنا سمى هذا العيد بعيد الحلل ، حتى قيل إنه صنع إحدى عشرة كسوة للخليفة الآمر قدمت إليه فى عيد الفطر سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، يقصر المقام هنا عن وصفها .

وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخى الخليفة ، كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . وزيادة على ذلك كان الشعراء والكتاب وأعيان الرجال الذين يتفق وجودهم فى القاهرة يمنحون حللا كان بعضها مزركشاً بالذهب وكلها مصنوعة من الحرير الخالص[3] .

وقد أمدنا ابن منجب بوثيقة[4] يرجع تاريخها إلى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، هى

---

(١) خطط ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١١ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤١٠ .

(٤) هذه الوثيقة من إنشاء ابن منجب نفسه ، إذ كان يشغل فى ذلك الوقت منصب كاتب الإنشاء .

نص لكتاب أرفق بحلل بعث بها الخليفة لأحد الأمراء فى عيد فطر هـذا العام . وهاك نصها : « ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب ، موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب .... مجزلا حظه من منائحه ومواهبه .... وإنك أيها الأمير لأَوْلاهم من ذلك بجسيمه .... وأَخْلَقَهُم بالجزء الأوفى منه عند فَضِّه وتقسيمه ؛ إذ كنتَ فى سماء المسابقة بدرا ، وفى جرائد المناصحة صدراً ، ومَنْ أخلص فى الطاعة سراً وجهراً ، وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عَطر له وصفاً وسَيَّر له ذكراً . ولما أقبل هذا العيد السعيد ، والعادة فيه أن يُحسّن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفى المواسم التى تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمعٌ للآمال ..... »[١] .

هذا ، وقد جاءنا القلقشندى بعبارة شائقة عن الشكل الذى كانت تقدّم به رواتب الموظفين للخليفة المستنصر كى يعتمدها ، إذ يقول إن الخليفة لم يغير شيئاً فى القائمة التى اشتملت على الرواتب ، وإنه كتب فوق إمضائه هذه الكلمات بخط يده : « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ؛ فلْيُجْروا على رسومهم فى الإطلاق ؛ (ما عندكم يَنفَدُ وما عند الله باق) »[٢] .

هذه الفقرات المكتوبة بخط الخليفة ، ذات أسلوب خلاب يبين لنا مقدرته فى فن الكتابة وإلمامه بكتاب الله الكريم ، الذى اقتبس منه هذه الآية التى تناسب المقام .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون الآخرون أقل من المستنصر فى الكرم والجود . فهذا الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤/١١٣٠ — ١١٤٩) قد وقع فى إحدى المرات على قائمة كهذه بما يأتى : « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير العطاء ، وليجروا فى نِسْبِيَّاتهم (هكذا وردت فى الأصل) على عادتهم .... كرما من أمير المؤمنين وفضلا مبروراً ، وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى (إنما نطعمكم لوجهِ الله لا نريدُ منكم جزاء ولا شكورا) »[٣] .

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٢ .
(٢) القرآن الكريم سورة النحل ١٦ : ٩٦ . القلقشندى ج ٣ ص ٤٩٥ .
(٣) القرآن الكريم سورة ٧٦ آية ٩ . المقريزى خطط ج ١ ص ٣٩٨ .

وشبيه هذا ما كان يحصل فى عيد الفطر من توزيع ما جرت به العادة من النقود الذهبية والفضية ، والملابس والأطعمة على الموظفين والأضياف . يضاف إلى هذا ما كان يعطى لكبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصاً لهذا اليوم ؛ ولذلك كانت تسمى نقود الغُرّة . وكان هؤلاء الموظفون يعتبرون هذه النقود بركة من الخليفة[1] .

يضاف إلى هـذا ما اعتاده الخلفاء الفاطميون من منح موظفى خزائن القصر على اختلافها مقادير من المال عند تفتيش تلك الخزائن . ومن أمثلة ذلك ، أن خازن خزانة الفرش كان يعطى خمسة عشر دينارا[2] ، وأمين خزائن الأسلحة كان يعطى خمسة وعشرين دينارا[3] ، كما كان يعطى صاحب خزائن السروج عشرين دينارا[4] ؛ وكان يعطى صاحب خزائن المشروبات ومعاونوه ثلاثين دينارا[5] .

يضاف إلى هذا أيضاً ما اعتاد الخلفاء منحه عند ركوبهم للمناظر لرجال الحاشية والأستاذين ، وكتاب القصر والشعراء ، والمؤذنين والقراء ومن إلى هؤلاء . وكان هناك أحد الموظفين يحمل كيساً من الحرير فيه خمسمائة دينار[6] ، لتوزيعه على من فى الطريق الذى يجتازه الخليفة من الرجال والنساء الفقراء ، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود فى أكياس خاصة ، فى كل منها درهمان أو ثلاثة[7] .

٦ — الطعام والشراب

ومن العجب ما نقرؤه فى الثعالبى[8] من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٥٠٩ .
(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٩٢ و ٤٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٧ .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨ .
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٠ .
(٦) يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٤٨١) إن هذا الكيس كان يشتمل على ألف دينار فى المرات التى كان يركب فيها الخليفة لأحد الميادين ، وربما كان ذلك لاستعراض الجند أو رجال الأسطول .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) كتاب يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

يصفونها فى قصائدهم و يضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء ، وتزيين السماط بالورود والرياحين وكل ما يضفيه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور . فقد بعث محمد بن أبى الجرع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان فقال :

شعبان قد صار نضوا[1]	ولم نُقد فيــــه لهوا
وليس ذلك منـــا	جهلا ولا كان سهـوا
فبـــــالمودة إلا	بكرت للقصف عدوا[2]
حتى نقـــوم فترفو	ما خرّق الدهر رفوا
من بعـــد تقديم جدى	مسمّن ظل يشـــوى
له ثلاثون يوما	يحبو إلى الضرع[3] حبوا
وأوفر الزور فى الخـــ	ـــل قد تبوأ مثوى
لما انتزعت حشـــاه	عوضته البقـــل حشوا
وقد عُنيت بجـــام	ملأته لك حـــلوى
وقهوة بنت كـــرم	صفت من القدم صفوا
ما شعشعت[4] قط إلا	سطت على الهم سطوا
جنبتها كل وغـــد	يمحو المحاسن محـــوا
إلا إذا ما اقتنصـــنا	عـــذب الخلائق حلوا
وشـــادن ذى دلال	يشدو فيلهيك شـــدوا
إما غنـــاء وإما	عجائبا عنــــه تُروى

---

(١) بمعنى هزيلا .
(٢) القصف اللهو ، والعدو الجرى .
(٣) يعنى ثدى أمه .
(٤) أى مزجت بالماء .

حتى تظل بما فيه من وقارك خلوا
وعندنا لك ورد يحدو المسرة حدوا[1]
ريحانه لا يوازى لوناً وعطراً وسروا[2]
فما اعتذارك فى أن تفنى زمانك صحوا[3]
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى
أبا علىّ ألا أسمع نصيحةً ليس تُزوى[4]
فإنما نحن سفر على محجة بلوى[5]
ولا تعرِّج ذميا على معارج حزوى[6]

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة فى الأعياد والمواسم ، وخاصة أول العام الهجرى ؛ وفى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى غرة رمضان ، وفى عيدى الفطر والأضحى حيث كانت تعم خيراتهم الناس فيها . وقد عنوا بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى احتفالا رائعا . ففى ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير ، الذى يقابل مجلس الخليفة ، سماط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية ، مما أعد فى دار الفطرة الخليفية . فإذا انتهى الخليفة من صلاة الفجر ، عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيوان ، وهرَع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى السماط الخليفى ، وتناولوا ما عليه من الطعام ، بمشهد من الخليفة ووزرائه . وإذا طلعت الشمس خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة ، وفى ذلك يقول المقريزى[7] : وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب والديباج بالحلى ، والعسكر فى زيه : من الأتراك ،

(١) أى يسوق إليك السرور سوقا .
(٢) نبات ، يعنى لا يوازنه فى لونه وريحه وشرف نوعه نبات آخر .
(٣) يريد : ما الذى يجعلك تترك مثل هذا المجلس الذى فيه كل هذا السرور وتعيش صحوا غير سكران
(٤) تخبأ أو تستر وتكتم عنه .
(٥) إننا قوم مسافرون من هذه الحياة فى طريق مملوء بالمخاوف والمصائب .
(٦) اسم موضع ، يعنى لاتفعل كما فعل الشعراء من قبل من البكاء على الأطلال والدمن فإنه موقف مذموم عندى .
(٧) خطط ج ١ ص ٣٨٨

والديلم ، والعزيزية ، والإخشيدية ، والكافورية ، وأهل العراق ، بالديباج المثقل ، والسيوف والمناطق الذهب . وعلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة ، وعليها الرجالة بالسلاح ، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام ، فصلى على رسمه وانصرف .

وإذا عاد الخليفة من الصلاة ، أقيم سماط آخر أبهى وأروع ، فيجلس الخليفة وأمامه مائدة من فضة يقال لها « المدوَّرة » عليها أوانى الذهب والفضة ، ملأى بأفخم ألوان الطعام وأشهاها . وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو نثرت عليه الأزهار والرياحين ، وصفت على جانبيه الأطباق الملأى بصنوف الشواء ، والطيور والحلوى البديعة ، ويجلس إليه رجال الدولة وعظماؤها . وأما عيد الأضحى : فكان يحتفل به بركوب الخليفة إلى الصلاة ، على النحو الذى كان متبعاً فى صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى الأيام الثلاثة الأولى ، كما يمتاز أيضاً باشتراك الخليفة نفسه فى إجراءات النحر ، فبعد أن يفرغ من صلاة العيد ، يتشح ثوبا أحمر اللون ، ويركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون[1] وغيرهم فى انتظاره . وإذا وصل الخليفة ذبح بيده بين تكبير المكبرين إحدى وثلاثين ناقة وبعيراً . وكان ينظم فى اليوم التالى نفس الموكب الخليفى إلى المنحر ، حيث يذبح الخليفة بيده سبعة وعشرين رأساً ، وفى اليوم الثالث ثلاثة وعشرين[2] .

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، حيث ينشدون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين ؛ ويقام سماط يسمى سماط الحزن ، ينظم فى منتهى البساطة فى بهو صغير ، ويمد عليه خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما مرتديا الثياب القاتمة .

---

(١) جمع أستاذ محنك ، وكان يتلثم بطارف عمامته ، بمعنى أن يجعل بعض عمامته تحت حنكه . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه كبير الأمناء ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، ويعهد إليه بإدارة شئون القصر .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٥ — ٥١٦ ، ٥٢٧ — ٥٢٨ .

وقد ابتدع زرياب فى بلاد الأندلس ألواناً من الطعام ، فأدخل بقلة الهليون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago ، كما زاد فى الأطعمة لونا أطلقوا عليه « النقايا » ، ويصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولونا من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى مرق كثير الأفاويه والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصهم زرياب قدوة فيما سنه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التى نسبت إليه[١] .

وقد ذكر المقرى[٢] عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتيان قصر الزهراء بلغ ١٣٫٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣٫٠٠٠ رطل ، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك .

وكان بعض الخلفاء الفاطميين يحرمون ألواناً معينة من الطعام ، ففى سنة ٣٩٥ هـ صدر قانون يحرم بيع الملوخيا[٣] ، لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ويَنْهَى أيضا عن أكل الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ؛ وعن المتوكلية وهى النبات المنسوب إلى المتوكل الخليفة العباسى . وزاد ابن زولاق أن الحاكم نهى أيضا عن أكل القرع ، وطلب إلى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخيا والقرع .

ولم يكن لهذا التعيين من سبب سوى أن أبا بكر وعائشة كان يحبان أكلهما . وقبض على جماعة كانوا يأكلون الملوخيا ، وضربوا بالسياط وطيف بهم فى الشوارع ثم ضربت أعناقهم[٤] . يتبين لك ذلك من عبارة ابن زولاق التى ننقلها فيما يلى :

« ومنع من أكل الملوخيا وأكل القرع ، وكتب قسما على الفلاحين أنهم لا يزرعون

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ ، ٧٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) هذه الأشياء وغيرها مما ينسب إلى الخلفاء الفاطميين وأشياعهم من سب الصحابة والطعن فيهم ، مبالغ فيها ، ويبعد تصديق كثير منها ، لاسيما ألوان الطعام التى ربما لم تكن موجودة فى عصرهم . ونحن نرويها هنا على علاتها غير واثقين بصحتها .

(٤) ابن زولاق : المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٢٠٨ أ . تناول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) الكلام على تحريم بيع هذه الخضروات بشىء من الإيجاز .

ذلك ولا يبيعونه ، لأن أبا بكر الصديق كان يكثر من أكل ذلك ، وأن عائشة كانت تأكل ذلك أيضا . ثم إنه رأى جماعة يأكلون الملوخيا ؛ فقبض عليهم وضربهم بسياط ، وطاف بهم البلد وأمر بضرب رقابهم » .

وفى هـذه السنة نهى الحاكم عن بيع الفُقّاع (وهو نوع من الخمر) وشدد فى ذلك ، لأن عليا كان يكرهه . كذلك نهى عن أكل الدلَّينَس (وهو نوع من السمك الصغير لا قشر له) لسبب لم يذكره لنا المؤرخون ، وصدرت الأوامر فى منع بيع كافة أنواع السمك الذى لا قشر له .

وقد دعا الحاكم السماكين إلى اجتماع أخذ فيه عليهم العهود ألا يبيعوا هذا النوع من السمك ، ومن أبى إطاعة هذه الأوامر كان جزاؤه القتل[1] . وهـذا التشدد يحملنا على الظن بأنه لا بد أن يكون هذا المنع راجعا إلى أحد أمرين جرت بهما عادة الشيعة : إما لأن أحد الصحابة كان يكثر من أكل هذا السمك ، وإما لأن عليا أو بعض أهل بيته كانوا يكرهون أكله . وإما أن هذه النزعة يهودية ، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذى لاحُرشُف له (أى لا قشر له) . ولا يبعد أن يكون أحد اليهود المقربين إلى الحاكم أفضى إليه بذلك فعلق بذهنه .

وفى سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب[2] ، فخلت منها الطرقات ؛ كما حرم بيع « الفقاع » (الجعة) والترمس والسمك الذى لا فصوص له[3] ؛ ونهى أيضاً عن ذبح السليم من البقر إلا فى عيد الأضحى[4] . وكان العقاب الشديد نصيب من يعصى هـذه القوانين ؛ فكان من يتهم ببيع شىء من الممنوع بيعها يُشَهَّرُ ويُضْرب ثم يقتل[5] .

وفى سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب قليلا أو كثيرا ؛ ونهى التجار من أن

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) ذكر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨) أن كلاب الصيد كانت مستثناة .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٤) لم يكن لهذا الأمر الذى أصدره الحاكم خاصاً بالبقر أية صلة بالرسوم الشيعية . وقد ذكر لنا أبو المحاسن (ج ٢ رقم ٢ ص ١٣٤) أن الخليفة الظاهر أصدر فى سنة ٤١٧ أمراً يقضى أيضاً بمنع ذبح البقر الصالح للحرث إلا فى عيد الأضحى ، وأرسلت بذلك الكتب فقرئت باسم الخليفة .

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

يستوردوه ، كما جمع كميات كبيرة منه وأحرقها . ومن نفقات إتلاف هذه الكميات البالغة خمسمائة دينار — على ما يحدثنا به ابن خلكان — يمكننا أن نتصور مقدار ما أحرق من الزبيب . وفى هذه السنة أيضاً منع بيع العنب ، وأرسل رسله إلى الجزيرة[١] فقطعوا ما بها من الكروم وألقوها للثيران فداستها .

كذلك أرسل الحاكم إلى حكام الولايات بأن ينحوا هذا السبيل ، كما منع بعد ذلك أن يشترى أحد أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة ، خشية أن يتخذ منه نبيذا . وشمل هذا المنع أيضاً العسل ، حتى لقد جمع خمسة آلاف جرة ، وذلك ما كان بالمخازن ؛ وألقى بها فى النيل حيث أحرق ما بها ، كما أحرقت أيضاً إحدى وخمسون زجاجة من عسل النحل . وتبع ذلك أن حرّم بيع الرُّطَب ؛ فقد جمعت منه مقادير كبيرة ثم أحرقت[٢] .

٧ — المرأة فى العصر الفاطمى

وكان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية ، فكن يتدخلن فى شئون الدولة ؛ واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ . وذكر المقريزى[٣] أن بنتين للمعز قد تركت إحداهما ، واسمها رشيدة ، ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١٫٧٠٠٠٠٠ دينار أى ¾ مليون جنيه) ، وتركت الأخرى ، واسمها عبدة ، كثيراً من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقلى ، وغير ذلك من الذخائر .

وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز ، أموالا جمة على بناء مسجدها بالقرافة ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، كما بنت هذه السيدة قصر القرافة كما تقدم .

وقد تزوج الخليفة الفاطمى العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكانى

---

(١) المراد بها هنا جزيرة الروضة .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ . المقريزى خطط ج ٢ س ٢٨٧ .

(٣) خطط ج ١ ص ٤١٥ .

— مذهب كنيسة القسطنطينية — فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك . وكان لزوج العزيز هذه نفوذ كبير فى الدولة ، حتى إن الخليفة عين أخويها بطريرقين ملكيين : أحدهما فى الإسكندرية والآخر فى بيت المقدس[1] .

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل ، واشتهرت بالكرم والحلم ، وعرفت بالتسامح الدينى ، وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى . وكانت فى السادسة والعشرين من عمرها حين توفى أبوها ، وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبة السلطة ، فأثار ذلك حفيظتها ، ولا سيما عندما انتقد مسلكها ، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة .

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة ، منها ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار[2] .

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر ، وكانت سودانية ، على ما تقدم . واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين ، الذين كثر عددهم وقوى بطشهم فى عهد المستنصر ، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً .

ولم يظهر بين طبقة العامة فى ذلك العصر نساء كان لهن أثر فى الحياة السياسية أو فى ترقية المجتمع ، بل كان النشاط فى هذه النواحى مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وقد عوملت النساء فى عهد الخليفة الحاكم معاملة تنطوى على القسوة والعنف . ففى سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم قانوناً منع فيه النساء من الظهور سافرات[3] ، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس فى حالة منافية للأدب والحشمة ؛ كما حرم أيضاً أن يدخل أحد مطلقاً الحمامات بدون إزار[4] .

---

(١) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٢٠٨ .

(٤) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٥ .

وقد ذكر الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٤٠٤ أن الحاكم منع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور فى أعلاها ، ومن دخول الحمامات العامة ؛ كما منع أيضا أن يصنع صانعو الأحذية أحذية خاصة بهن . وزاد على ذلك أنه كان إذا توفيت امرأة ، ذهب أحد أقاربها إلى قاضي القضاة[1] وأعلن إليه نبأ وفاتها ، وطلب إليه أن يجيز لإحدى النساء أن تذهب معه لتتولى أمر غسلها وما إليه . وكان قاضي القضاة طبقاً للأمور المتبعة يحيل المسألة إلى صاحب المعونة ، وهذا يختار إحدى النساء لقضاء هذه المهمة ، ويندب معها اثنين يحرسانها ، حتى تفرغ مما انتدبت له وتعود إلى منزلها[2] . ويتضح ذلك مما جاء فى عبارة الذهبي التى نقلها القارئ بنصها : « فإذا ماتت امرأة جاء وليها إلى قاضي القضاة يلتمس غاسلة ، فيكتب إلى صاحب المعونة ، فيرسل غاسلة مع اثنين من عنده ، ثم تعاد إلى منزلها » .

على أنه من الحق أن نقول إن كثيرا من التبعة يقع على عاتق النساء أنفسهن لما نالهن من تضييق الحرية . ذلك أنهن كن يكثرن الخروج ليلا وينغمسن فى حمأة الملاهي والرذائل ، ولهذا يحدثنا ابن خلكان[3] أن النساء قَبَعْنَ فى بيوتهن سبع سنوات ، حتى ارتقى عرش الخلافة ابن الحاكم ، وهو الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ هـ)[4] .

٨ — الأعياد والمواسم

كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ، ويومي عيد الفطر والأضحى ، أيام دينية أخرى . وكان من اللازم ، ليكون لهذه الاحتفالات أثرها العظيم فى النفوس ، أن تقام أسمطة فى قصور متعددة ، وأن توزع الإنعامات بمقادير وافية . وفيما يأتي بيان بأسماء الأعياد التى كان يحتفل بها الفاطميون . وهذه الأعياد هي :

١ — رأس السنة ٢ — أول العام ٣ — يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين)

---

(١) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن وفاة أي امرأة إنما كان يتبأ بها المحتسب لا قاضي القضاة .

(٢) الذهبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٤٧ أ .

(٣) ج ٢ ص ١٦٦

(٤) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن النساء ظللن على هذه الحالة إلى سنة ٤٠٩ ، أي قبل وفاة الحاكم بسنتين .

٤ — مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ٥ — مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٦ — مولد الحسن عليه السلام ٧ — مولد الحسين عليه السلام ٨ — مولد فاطمة عليها السلام ٩ — مولد الخليفة الحاضر ١٠ — ليلة أول رجب ١١ — ليلة نصف رجب ١٢ — ليلة أول شعبان ١٣ — ليلة نصف شعبان[1] ١٤ — موسم ليلة رمضان ١٥ — غرة رمضان ١٦ — جبر الخليج ١٧ — يوم النَّوْرُوز ١٨ — يوم الغطاس ١٩ — يوم الميلاد ٢٠ — عيد النصر[2] ٢١ — خميس العهد[3] .

كان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام ؛ وهي موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدي الفطر والأضحى ، وجبر الخليج[4] . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، كما يقول القلقشندي أيضاً ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ؛ ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء[5] .

---

(١) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود .

(٢) كان للاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم علاقة بالخليفة الحافظ ، إذ هو اليوم الذي أطلق فيه سراحه . وذلك أن أبا علي أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي كان قد حبس هذا الخليفة وجعله في عزلة عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٣) خميس العهد هو الخميس الذي كان يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم ؛ وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني . وكان الاحتفال بهذا العيد يمتاز بالهدايا التي ينالها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين . ولفظ " عهد " استبدلت خطأ بلفظ عدس ، وسماه أهل الشام خميس الأرز أو خميس البيض ؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقريزي ، خطط ج ١ ص ٤٩٥) . وقد سمي هذا العيد بهذا الاسم لأن المسيح عليه السلام أخذ على تلاميذه العهد بألا يتفرقوا . فكانوا يملئون إناء من ماء يزمزمون (يرتلون) عليه ، ثم يغسلون به أرجلهم للتبرك كما فعل المسيح بتلاميذه في مثل هذا اليوم . وكان الفاطميون يضربون دنانير خاصة تسمى خروبة يوزعونها على كبار رجال الدولة كما كانوا يفعلون في أول العام الهجري . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٧ ؛ المقريزي خطط ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٩٥ ؛ انظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢١ .

أول العام الهجرى :

ويقول المقريزى إنه كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يقيموا مواكب يركبون فيها فى أيام السبت والثلاثاء سائر الشهر ، كما كانوا يركبون فى الاحتفال بأول المحرم . وفى هذه الأيام كان يصحب الخليفةَ وزيره ، وحوله حرسه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الركاب ؛ فيمر الموكب كذلك بالطرق الرئيسية حتى الجامع العتيق . فإذا وصل إليه ، وجد الخطيب فى انتظاره على مصطبة فى المسجد ، وبيده مصحف ينسب خطه إلى علىّ بن أبى طالب . فإذا قرب الخليفة من الخطيب ، تناول المصحف منه فقبله مرات عديدة ، وأمر صاحب الكيس (المشتمل على المال المعتاد توزيعه فى هذه المناسبة) أن يعطيه ثلاثين دينارا ؛ فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها ، والباقى يقتسمه المؤذنون . فإذا ما انتهت الصلاة ، استأنف الخليفة السير إلى دار الملك ، وفى إيابه يعطى رئيس كل مسجد يمر به دينارا[١] .

وفى غرة المحرم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة العيد فى مصلى القاهرة[٢] ؛ وقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة ، ثم سورة الغاشية (رقم ٨٨) ، ثم كبر . وقد أطال الركوع والسجود ، وسبح فى كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة[٣] ، وذكر لنا

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٤ .

(٢) عين المقريزى (ج ١ ص ٤٥١) و (ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤) موضع هذا المصلى فقال إنه خارج باب النصر ، وأن جوهراً أنشأه فى رمضان سنة ٣٥٨ لصلاة العيد . وقال بعد ذلك : إن المعز ركب يوم عيد الفطر لصلاة العيد فى مصلى القاهرة (الذى هو مصلى العيد أيضاً) .

(٣) التسبيح فى الصلاة هو أن يقال فى الركوع : " سبحان ربى العظيم " مرة أو أكثر، كما يقال فى السجود : " سبحان ربى الأعلى " مرة أو أكثر كذلك . وأما ما ذكره المقريزى من ترديد عبارة "سمع الله لمن حمده" ، ووصفه بأن هذا تسبيح فهو خطأ ، إذ هذا هو التسميع وأول ما عرف عن التسميع أن موسى بن عمران هو أول من ابتدعه ؛ وسار عليه الناس حتى ظهرت المسيحية . وكانوا يسبحون فى الهزيع الأخير من الليل ، فيعظمون الله بكلام منزل بالوحى حتى مطلع الفجر ، ويضربون عند ذلك بالآلات الموسيقية كالعود والدف والمزمار ونحوها . أما فى الإسلام فكان بدء استعمال التسبيح فى مصر فى ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧–٦٢ هـ) ، فقد بنى مسلمة هذا مناراً فى جامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس ذات ليلة ، فشكا إلى عريف المؤذنين ، فأشار عليه أن يأمر بمنع ضرب الناقوس إذا أذن من نصف الليل حتى مطلع الفجر . فلما ولى أحمد بن طولون مصر ، أفرد بمنزله حجرة أقام فيها اثنى عشر مكبراً ؛ فكانوا يكبرون ويسبحون ، ويقرءون القرآن ويؤذنون . وكان يقوم بذلك فى كل ليلة أربعة منهم ، يعملون الليل نوباً بينهم ، وأغدق —

لمقريزى نقلا عن ابن زولاق الذى أدّى صلاة الجمعة خلف الخليفة ذلك اليوم أنه سبح نيفاً وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة وسجدة ، وكان القاضى محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

وفى الركعة الثانية قرأ الخليفة الفاتحة ثم سورة الضحى[1] ؛ وكرر ما قرأه فى الركعة الأولى ؛ ثم جهر بالبسملة ، وقد حذا فى ذلك حذو علىّ بن أبى طالب . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ، وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله ! » . وكان فى أعلى المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان معه على المنبر جوهر وابن عمار من رؤساء كتامة ، وشفيع صاحب المظلة .

بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر ، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما ، فبدأها بالبسملة جهرا ، وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخطبة بخضوع وخشوع ؛ وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من خطبته وأتم صلاته ، انصرف فى عساكره وخلفه وأولاده الأربعة بالجواشن والخوذ ، ممتطين الخيل ، وهم فى أحسن زى ، يحف بهم فيلان . فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون[2] .

وفى عهد الفاطميين أدخل على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة لم تكن معروفة فى مصر من قبل ؛ وكان أول ما عرف ذلك فى الجامع الأزهر . ذلك أنه لما مات بعض بنى عم المعز ، صلى عليه هذا الخليفة فى الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً ، وكبر على ميت آخر خمساً فقط ، مقتفياً فى ذلك أثر علىّ بن أبى طالب الذى كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته ؛ وهذا يخالف مذهب السنة ، إذ يكبرون على الميت أربعاً فقط[3] يضاف إلى ذلك ما كان من احتفال المعز بعيد الغدير أول مرة فى مصر .

= على هؤلاء الأرزاق والعطايا . ولما خلف ابن طولون ابنه خمارويه ٢٧٠–٢٨٢ هـ (٨٨٣ – ٨٩٥ م) ، أقر المكبرين على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأجرى عليهم أرزاقهم . عرف الأذان بعد ذلك بالتسبيح ، وبقى على ذلك إلى أن آلت مصر إلى حكم الفاطميين ، فغدا مألوفاً عند الشيعيين . المقريزى خطط (ج ٢ ص ٢٧٢ – ٢٧٣) ، بتصرف واختصار .

(١) القرآن الكريم ، سورة ٩٣

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٢

(٣) المقريزى — خطط ج ٢ ص ٣٥٣

شهر رمضان :

كذلك عنى الفاطميون بالاحتفال بشهر رمضان . وثمة ظاهرة غريبة نلحظها عند الفاطميين ، وهى أن صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهى بمجرد ظهور القمر ، سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوما أم ثلاثين ، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته (هلال رمضان) وافطروا لرؤيته (هلال شوال) ؛ فإن غُمّ عليكم (يعنى إذا لم يكن من الممكن رؤية الهلال فى نهاية اليوم التاسع والعشرين من شعبان بسبب تكاثف الغيم فى السماء) ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

ولكن جوهرا الصقلى لم يرتض السير وفق هذه الطريقة التى لا تتفق مع أصول المذهب الشيعى . ففى سنة ٣٥٨ هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال . فاعترض أهل الفسطاط على ما فعل ، وصاموا اليوم الثلاثين حسب أصول المذهب السنى ، ثم جعلوا العيد بعد ذلك اليوم ، أى بعد رؤية الهلال ، واتبعوا فى ذلك قاضيهم السنى الذى تلمس الهلال جريا على هذه العادة فوق سطح الجامع العتيق ، وأعلن انقضاء شهر الصوم . ولما بلغ ذلك جوهرا أنكر على القاضى ما فعل وتهدده[١] .

غدير خُم :

وإن عيد الغدير الذى احتفل به المعز ولا يزال الشيعيون يحتفلون به إلى اليوم يؤيد النظرية التى يقول أصحابها : إن على بن أبى طالب ولى عهد الرسول دون سواه ، وإنه كان يجب أن يخلفه فى زعامة المسلمين . ومن ثم يرى الشيعيون أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وبنى أمية ثم بنى العباس اغتصبوا حق الخلافة من على وأبنائه[٢] .

---

(١) الكندى ص ٥٨٤ . المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٦ .

(٢) وقد أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " على منى بمنزلة هارون من موسى ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله " . ويروى الشيعيون هذا الحديث عن النبى ، ويقولون إنه قاله فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ، أى العام الذى ودع فيه النبى مكة وحج فيه لآخر مرة . فنزل بغدير خم (ويقع بين مكة =

وعمل المعز على جذب أنصار الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين إلى الدعوة الفاطمية ، وأنه استطاع التأثير فيهم . وقد عنى المعز بالاحتفال بعيد الغدير عناية فائقة ، وحذا خلفاؤه حذوه فى هذه السبيل ، فأصبح الاحتفال بيوم ١٨ ذى الحجة من كل سنة من أهم الاحتفالات الدينية ، التى كانت تهتز لها جوانب القاهرة فرحا وسرورا ، ويقف منها السنيون موقف المتفرجين المعجبين ، لأنها كانت من عوامل تسليتهم . ويعد عيد الغدير ، كما تقدم ، من أهم أعياد الفاطميين ، فيهنىء الإسماعيلية بعضهم بعضاً ، وينحرون فيه أكثر مما ينحرون فى عيد الأضحى ، لأنهم يفضلون عيد الغدير عليه .

يقول ابن زَوْلاق[١] : « فى يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سنة اثنتين وثلثمائة ، وهو عيد الغدير ، تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم ، للدعاء ، لأنه يوم عيد ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فيه واستخلفه ، فأعجب المعز ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر » . ويقول المسبحى[٢] فى يوم الغدير هذا : « اجتمع الناس بجامع القاهرة (الأزهر) ، والقراء والفقهاء والمنشدون ، فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر ، ثم خرجوا إلى القصر ، فخرجت إليهم الجائزة . وبذلك كان اهتمام المعز بهذا اليوم كبيراً ، حتى إنه كان يخرج إلى قنطرة

= والمدينة) ، وآخى على بن أبى طالب . ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدير خم عيداً يعتنى به الشيعيون عناية عظيمة ويحتفلون به .

شرف الدين الهلوى ، مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرق . رقم ٣٨٦٨ ، ورقة ٣٣١ ا وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٦) والمقريزى ، خطط (ج ١ ص ٣٨٨)

هذا ما رواه بعض المؤرخين . ولكنى لا أشك فى أن مسألة غدير خم من مخترعات الشيعة ، يريدون بها إثبات أمر ، وهو أن علياً ولى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبنون على ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان غاصبون للخلافة . ولو أن هذه العبارة كانت صحيحة لاحتج بها على ، واستشهد الصحابة على ذلك ، ولما طلبها الأنصار وهم شهود ليلة الغدير ؛ وفى ذلك يقول المعرى :

ضمنتُ وفاقى للعشائر كلها وأمسكتُ لما عظموا الغار أو خما

وقد ذكر المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٨٨) أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العيد سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، فاتخذه الشيعة عيداً يحتفلون به كل عام .

(١) نقلا عن المقريزى خطط : جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٨٨ .

المقبس ، ويمرض الأسطول ويعوِّذه[١] ويباركه ويدعو له[٢] .

وكان الفاطميون يحتفلون بركوب الخليفة وكبار رجال الدولة إلى الإيوان الكبير بالقصر الخلافى حيث يسبقه الوزير . فإذا وصل موكب الخليفة ، أسرع الوزير فأخذ مكانه فى الموكب الذى يصل إلى الإيوان فيجلس الخليفة فى الشباك ، ويتجه القاضى إلى كرسى الدعوة ، ويشبه المنبر فيه تسع درجات ، فيأخذ مجلسه وأمامه الشهود والأمراء والأجناد والمتشيعون وغيرهم . كذلك يجلس الوزير وحاشيته على مقربة من كرسى الدعوة . ثم يتلو قاضى القضاة قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب يوم غدير خم . فإذا فرغ قاضى القضاة نزل عن الكرسى وصلى بالحاضرين ركعتين . ثم ينهض الوزير ويسير إلى الشباك ليقدم فروض الولاء من جديد للخليفة ، ثم ينفض الحاضرون بعد تبادل التهانى . ثم يتوجه الوزير لذبح الأضاحى على النحو الذى كان متبعا فى عيد النحر . ثم يقام سماط فخم كسماط أول عيدى الفطر والأضحى ، وتوزع الأطعمة والكسى ، وتعمل الدولة على تزويج الأيامى[٣] .

يوم عاشوراء :

يقع يوم عاشوراء فى العاشر من شهر المحرم . وهو أول شهر مبارك ، يجله العرب قبل الإسلام وبعده ، فقد رُوى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أيها الناس : سارعوا إلى الخيرات فى هذا اليوم ، فإنه يوم عظيم مبارك ، قد بارك الله فيه على آدم » .

ومن مظاهر احترام المسلمين لهذا اليوم أنهم كانوا يصومونه ، فقد روى عن الرسول أنه لما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود يصومون هذا اليوم ، فسألهم عنه ، فأخبروه أنه اليوم الذى أغرق الله فيه فرعون وآله ، ونجّى موسى ومن معه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « نحن أحق بموسى منهم » ، فصام وأمر الصحابة بصومه[٤] .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سُنَّة الرسول الكريم ، فكانوا يجلّون هذا اليوم

---

(١) أى يقرأ المعوذتين ، سورة ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله الفاطمى ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠
انظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج ٢ (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٢٦ — ١٢٨ .

(٤) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٣٠

ويعظِّمونه ويصومون فيه ، حتى كان عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان واستشهد الحسين ابن عليّ فى موقعة كربلاء ، فى اليوم العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة . فتركت هذه المأساة فى نفوس المسلمين آثاراً مختلفة : فالأمويون السنيون اتخذوا من هذا اليوم عيدا يبتهجون فيه ، فيلبسون الجديد من الثياب ويتزينون ، ويكتحلون ، ويقيمون الولائم ، ويقدمون الحلوى ، فيثير ذلك الفرح والسرور فى نفوس أنصارهم . أما الشيعة من أنصار على بن أبى طالب وأولاده ، فإنهم اتخذوا من هذا اليوم مأتما ، يبكون فيه الحسين ، ويظهرون أشد مظاهر الحزن لقتله .

لذلك ظل الشيعيون يذكرون هذا اليوم ، فيبكى فيه الرجال والنساء ، وينشد النساء من أهل البيت الشعر ، نادبات باكيات . من ذلك قول ابنة عَقيل بن أبى طالب .

ماذا تقولون إنْ قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى وبأهلى عنـد مُفْتَقَدى ... نِصْفٌ أسارى ونصفٌ ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذْ نصحتُ لكم ... أن تَخْلفونى بسوء فى ذوى رحمى [(١)]

وقد ظل الشيعيون يحتفلون بذكرى هذا اليوم فى عهد الأمويين والعباسيين ، ويلقون ألوان الاضطهاد ، حتى قامت الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب ومصر ، واستولى بنو بويه الشيعيون على السلطة فى بغداد حاضرة الدولة العباسية السُّنية ، فغدا يوم عاشوراء عيدا من أعياد الفاطميين والبويهيين الذين أرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعيين . فقد أمر معز الدولة أحمد بن بويه الناس بتعطيل الأسواق فى يوم عاشوراء من سنة ٣٥٢ هـ ، ومنع الطباخين من طهى الطعام ، ونُصِبت القباب فى الأسواق ، وعُلق عليها السواد ، وخرج النساء مرسلات الشعور ، وهن يلطمن فى الطرقات ، وأقيمت المآتم على الحسين فى الدور والمساجد . وكان هـذا أول يوم نيح عليه ببغداد حاضرة الدولة العباسية فى ذلك الحين .

ولا يزال الشيعيون فى البلاد الإسلامية ، وخاصة فى العراق وفارس ، إلى اليوم يحتفلون بهذه الذكرى ، فيبكون الحسين ، ويلبسون السواد ، ويقف دولاب الأعمال حداداً عليه .

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٣٢٩ .

وقد جعل الفاطميون يوم عاشوراء عيداً من أعياد الدولة ، تحتفل به الحكومة والشعب جميعا احتفالا يتفق وما له من مكانة فى نفوس المسلمين ، فتتعطل الأسواق ، ويخرج المنشدون ، ويسير الناس إلى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) ، ويخرجون إلى الطرقات بعد الصلاة وهم ينوحون ويبكون . وقد روى المقريزى[1] عن ابن الطوير أنه إذا حل اليوم العاشر من شهر المحرم ، احتجب الخليفة الفاطمى عن الناس ؛ فإذا علا النهار ، ركب قاضى القضاة والشهود ، وقد لبسوا ملابس الحداد ، ثم يسيرون إلى المشهد الحسينى ، فيتخذون مجلسهم إلى جانب القراء حتى يصل الوزير ، فيجلس فى صدر المكان ، والقاضى عن يمينه ، والداعى عن شماله . ثم يتناوب القراء تلاوة القرآن ، ويُنشد الشعراء القصائد فى رثاء أهل بيت النبى . ثم ينصرف الوزير إلى داره ، ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما باب الذهب ، وهو أحد أبواب القصر الفاطمى ، فيجدون الدهاليز قد فرشت بالحصر بدل البسط ، وصاحب الباب جالسا هنالك ، فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه ، ثم يجلس سائر الناس ، فيقرأ القراء وينشد المنشدون .

ومن مظاهر الاحتفال بيوم عاشوراء ، ذلك السماط الذى أطلق عليه «سماط الحزن» . وكان يُقدَّم فيه خبز الشعير والعدس والمملحات والمخللات والأجبان والألبان وعسل النحل .

وكان الخليفة يحضر هذا السماط ، ويجلس على كرسى من الجريد بغير مخدة ، متلثما هو وجميع رجال حاشيته ، فيسلم عليه الوزير والأمراء والقاضى والداعى والأشراف ، وهم مُلَثَّمون حفاة . وكان الخليفة يبدى أبلغ مظاهر الحزن والأسى فى ذلك اليوم .

وإذا انتهى السماط انصرف الناس فى ذلك الزى الذى ظهروا فيه ، وطاف النّواح بالقاهرة . وأغلق الباعة حوانيتهم إلى ما بعد صلاة العصر . وكان الفاطميون ينحرون فى يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم عند مشهد الحسين ، الذى يجله المسلمون عامة والشيعيون خاصة إلى اليوم ، ويوزعون لحومها على الفقراء والمساكين[2] .

وقد قيل إن الحسين بن علي لما قتل ، طيف برأسه فى الكوفة ، ثم أرسل إلى الخليفة

---

(١) خطط ج ١ ص ٤٣١ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٣١ .

الأموى يزيد بن معاوية بدمشق ، ثم رُد الرأس إلى الجثة ، ودفنا بدمشق ، ثم نقل رأسه فى عهد الفاطميين إلى عسقلان من أعمال فلسطين ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها هى و بلاد الشام . فلما تقلد الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة ، أخرج رأس الحسين ، وعطره ، وحمله على صدره ، وسعى به ماشيا إلى أن أحله فى مقره الذى هو فيه ، حيث نجد المشهد الحسينى[1] .

وقد ذكر المقريزى[2] أنه فى العاشر من شهر المحرم سنة ٣٦٣ هـ — وهو ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء — انصرف جماعة من المصريين المتشيعين ، ومعهم فريق من فرسان المغاربة ورجّالتهم من مشهدى أم كلثوم (بنت محمد بن جعفر الصادق) ونفيسة[3] ، وساروا فى موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين ؛ وحملوا الناس على مشاركتهم فى الحزن حملا ؛ فكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وسبّوا من ظهر بغير مظاهر الحزن والأسى فى هذا اليوم . فأغلقت الدكاكين وتعطلت حركة الأسواق ، وكثرت القلاقل بين السنيين والشيعيين . فخرج ابن عمار — وكان من زعماء المغاربة — على جناح السرعة ، وتم على يديه انفصال الفريقين بعضهما عن بعض .

وكانت هذه الاضطرابات تقوم فى مصر عند الاحتفال بهذا العيد ، حتى قبل أن يتم فتح هذه البلاد على يد الفاطميين . ففى عهد الدولة الإخشيدية ، كان يتجمع السودانيون الذين أتى بهم كافور — وقد عرفوا بالتعصب ضد مذهب الشيعة — فى الطرقات ، وكانوا يسألون كل من يمر عليهم : من خالك ؟ فإن قال معاوية ، أكرموه وسمحوا له بالمسير ؛ وإن سكت لقى المكروه ، وانتزعت ثيابه وأخذ ما معه . ولقد حاول كافور أن يحول دون وقوع هذا العدوان ، فكان يعين فى هـذا اليوم حراسا على أبواب المدينة المؤدية إلى الصحراء ، فيمنعون الناس من الخروج[4] .

---

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢٧ .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٩٦ .

(٣) هى نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . دخلت مصر مع زوجها إسحاق ابن جعفر الصادق ؛ وكانت صالحة تقية ، سمع منها الشافعى الحديث . ولما مات أدخلت إليها جنازته فصلت عليه ؛ وتوفيت فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين .

(٤) اتعاظ الحنفا ص ٩٧ .

وقد تم عزل المغاربة عن أهل مصر بإنشاء الأحياء الخاصة بهم ؛ فحظرت عليهم السكنى مع المصريين والمبيت فى المدينة . وكان ينادى كل عشية ، ألّا يبيتن فى المدينة أحد من المغاربة . ولم يُسمع بعد موت المعز بشىء من أعمال العنف الكثيرة التى كنا نسمع بها من قبل ، اللهم إلا عند إقامة بعض الأعياد الدينية ، حيث كانت تتجدد الشحناء بين السنيين والشيعيين .

وفى عهد المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) ، الذى سار على نهج أبيه فى التعصب للشيعة ، زاد النياح والصياح والبكاء والعويل فى اليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين ، وظهر ذلك بصورة لم تعهد من قبل . ولكنه كان مع الأفضل بن بدر الجمالى مسلوبَ السلطة والإرادة كما كان المستنصر مع أبيه بدر . وبعد سنة ٤٦٧ هـ أصبح النفوذ والسلطان المطلق فى يد الوزراء . وكان التحمس للمذهب الشيعى ونصرته ، أو إضعافه ومناهضته ، تابعا لرغبة الوزراء وميولهم .

ولما دالت الدولة الفاطمية الشيعية وخلفتها الدولة الأيوبية السنية ، اتخذ سلاطينها من عاشوراء يوم بهجة وسرور . فاتخذوا الأوانى الجديدة ، وأكثروا من الأطعمة التى زخرت بها موائدهم ، ومنها ذلك اللون من الحلوى المعروف بالعاشوراء الذى لا يزال يصنع فى هذه الذكرى .

كذلك كانوا يكتحلون ويدخلون الحمام جريا على السنة التى سنها الحجاج بن يوسف الثقفى لأهل الشام فى عهد عبد الملك بن مروان . وكانوا يثيرون بذلك حنق الشيعيين وحفيظتهم ؛ فقد عبّر أبو الحسين الجزار الشاعر الذى عاش فى عصر الأيوبيين عن فرحه بهذا اليوم فى هذه الأبيات التى بعث بها إلى الشريف العلوى شهاب الدين فى ليلة عاشوراء يعرّض فيها بالأشراف ، ويسخر مما يبدونه من مظاهر الحزن فى ذلك اليوم فقال :

قُلْ لشهاب الدين ذى الفضلِ النَّدِى	والسيد ابن السيد ابن السيدِ
أُقسم بالفرد العَلى الصمدِ	إنْ لم يبادرْ لِنَجاز موعدى
لأَحْضُرَنَّ للهناء فى غَدِ	مُكَحَّلَ العينين مخضوبَ اليدِ

وقد احتفظ يوم عاشوراء بمنزلته من نفوس المسلمين على مر الدهور ، فلا زلنا على

اختلاف مذاهبنا نُنزله من نفوسنا منزلة رفيعة من الاحترام والتبجيل ، فيصوم بعض المسلمين ، ويتخذه الشيعيون يوماً من أيام الحزن ، يذكرون فيه ذلك اليوم الذى استشهد فيه الحسين ابن بنت الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . ولا يزال الشيعيون يزهدون فى الطيب من الطعام فى يوم عاشوراء ، على حين يكثر السنيون منه فيصنعون العاشوراء وغيرها ، متأثرين فى ذلك بتلك التقاليد التى ورثوها عن أسلافهم .

ليالى الوقود[١] :

أما ليالى الوقود الأربع ، فهى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان ؛ ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر . وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بها بأبهة عظيمة . وكانت المساجد فى كل من هذه المناسبات تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس . وكان قاضى القضاة يتقدم الموكب نائباً عن الخليفة ؛ فكان يظهر ممتطيا جواداً ، يحيط به ثلاثة من ممثلى الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ، ومؤذنو المساجد المختلفة يحمدون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يمتطون الجياد أيضاً ، وبأيديهم الشموع المضاءة ، ويحفون بقاضى القضاة كرسى له . وقد ذكر المقريزى عن ابن الطوير أن قاضى القضاة كان مخصصا له خمسون شمعة فى كل يوم من هذه الأيام ، وكانت كل شمعة تزن نحو ستة عشر رطلا ، غير الشموع التى كانت تحيط بالشهود ، وكان يعطى كل منهم عددا من الشموع يتراوح بين شمعة وثلاث حسب درجته . وكانت المساجد المختلفة توزع عليها كمية كبيرة من الزيت لإضاءتها فى تلك الليالى ؛ فكان ما يخص الجامع العتيق لكل ليلة أحد عشر قنطارا . هذا عدا ما كان يوزع من الهبات والإحسانات المعتادة والحلوى ونحوها[٢] .

---

(١) يرجع أصل الاحتفال بليالى الوقود إلى عهد عمر بن الخطاب الذى كان يطلب إلى أهل مكة أن يوقدوا النار ليلة غرة المحرم ليهتدى الحجاج . وقد استمرت الحال على ذلك حتى ولاية عبد الله بن داود ، فأمر أهل مكة أن يوقدوا النار فى ليلة أول رجب . انظر المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٦ . ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج ٢ ص ١٢٠ هامش رقم (١) .

(٢) خطط ج ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

وكانت الجموع الغفيرة تتبع الموكب الذى يبدأ من دار قاضى القضاة ، و يسير مخترقا الطرق الكبيرة فى القاهرة حتى يصل إلى باب الزمرد ، وهناك يكون الخليفة جالسا فى منظرته التى تسطع فيها الأنوار لانتظاره . وهنا يشتد زحام هذه الجموع فى الفضاء حول المنظرة ، والكل يترقب الفرصة كى يرى وجه الخليفة[1] .

وكان خطباء مساجد الأزهر والحاكم والأقمر يخطبون بين يدى الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم . فإذا ما انتهى الخطباء ، فتحت نوافذ المنظرة ، فيظهر وجه الخليفة وحوله الشموع الساطعة الضوء ، ثم يحيى أحد الأساتذة المحنكين المميزين هذه الجموع المتلهفة ، ويلوِّحُ لهم بكمه علامة للانصراف ويقول : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » . و بعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ؛ وهناك يترجل قاضى القضاة والشهود و يمثلون بين يدى الوزير ، ثم تلقى الخطب تكريما له[2] . بعد هذا يعود الموكب مارا بالمساجد المضاءة فى طريقه إلى مدينة مصر .

وكانت الحكومة تُعنى عناية خاصة بتنظيم هذه الاحتفالات ، فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام ، وكان على الواليين أن يصحبا قاضى القضاة فى موكبه و يطيعا أمره فيما يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار ، وتكثر فيها الحلوى سدا لحاجة المشترين[3] .

النوروز :

ومن الأعياد القديمة التى احتفل بها الفاطميون النوروز . اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ؛ و يقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس فى برج الحَمَل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . ولقد اسْتَن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٥٠١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٠٢ .

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٧٦ .

من اتخذ هـذا اليوم — على ما ذكره البيرونى[1] — هو جَمُّ شَيْذ ، وهو — كما يقول الأستاذ براون[2] نقلا عن بعض المصادر العربية — سليمان بن داود (يظهر أن هذه الفكرة أتت للأستاذ براون عن بعض المؤرخين كسكويه[3] والبيرونى[4] والمقريزى[5] . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامى ؛ غير أنه عاد فى الصدر الأول من أيام العباسيين . ويقول البيرونى[6] : إن إبطال نظام النوروز القديم أضر ضررا بليغا بالمزارعين ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يجىء والزرع أخضر ، فى الوقت الذى يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيرونى فى الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ / ٧٢٤ — ٧٤٣) وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسرى ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهرا ، فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب : إنى أخاف أن يكون هذا من قوله (إنما النسىء زيادة فى الكفر)[7] . واستمرت الحال كذلك إلى أن جاء هارون الرشيد ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى ابن خالد البرمكى ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحوا من شهرين . فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

ولما جاء المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ / ٨٤٧ — ٨٦١) أمر بتأخير النوروز ، إذ تأثر من شكاية المزارعين حين جمعوا الخراج قبل نضوج الغلات[8] . غير أنه لما مات المتوكل وولى المستنصر (٢٤٧ — ٢٤٨ / ٨٦١ — ٨٦٢) أبطل ذلك ؛ وأمر بجمع الخراج فى الوقت الذى كان يجمع فيه أولا . ولما ولى المعتضد (٢٤٨ — ٢٥٢ / ٨٦٢ — ٨٦٦)

---

(١) الآثار الباقية ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) Lit. Hist. of Persia, vol. i. pp. 114, 259.

(٣) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٩٩ .

(٤) الآثار الباقية ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٨ .

(٥) خطط ج ١ ص ٤٩٤ .

(٦) الآثار الباقية ص ٣٧ .

(٧) سورة التوبة ٩ : ٣٧ .

(٨) ياقوت : إرشاد الأريب ج ٢ ص ١٢٨ .

أمر بتأخير النوروز من جديد (وكان النوروز فى عهده فى ٢١ يونية ، أى قبله فى أيام المتوكل بستة عشر يوما)[١] .

ويقول البيرونى إن الشهور المعتضدية كانت تتفق مع الشهور الفارسية التى أولها فرْوَرْدين ماه » المقابل لشهر مارس .

أما عن أصل النوروز فيقول البيرونى ، إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فعاد إليه ملكه ، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور . فقالت الفرس « نوروز آمَدْ » أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : « أيها الملك ! إن لى عشا فيه بيضات ، فاعدل لا تحطمها » ، فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة ، فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز[٢] .

وقد أصدر الحاكم الأوامر بمنع النصارى من الاحتفال بالنَّوْروز على شواطئ النيل ، وحرم الألعاب التى كانت تقام عند الاحتفال بهذا العيد[٣] .

و يقول ابن زولاق إن المعز أبطل إقامة هذا الاحتفال (وربما كان ابنه العزيز هو الذى أعاده) بسبب ما كان يلازمه من المفاسد ، فكان ينادى بعدم الاحتفال وصلب كل من لم يطع أمره . ونحن ننقل قول ابن زولاق للقارئ . « ثم لما تولى المعز بمصر ، منع القبط من صب المياه فى يوم النوروز فى الطرقات ، ووقود النار [فى] تلك الليلة ، ومن النزول فى المراكب ، وضرب الخيام على شاطئ البحر (يعنى النيل) عند المقياس ، لأنه كانت تحصل بسبب ذلك مفاسد عظيمة ، فأبطل ذلك جميعه ، ونادى أن كل من يفعل ذلك يصلب »[٤] .

---

(١) انظر مسكويه ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٧ حاشية ١ ، وابن عساكر : المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط رقم ٥٩٨٦ ورقة ١٣٨ ا .

(٢) البيرونى : الآثار الباقية ص ١٩٩ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٦ .

(٤) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ا . ذكر ابن ميسر (ص ٤٦) وابن إياس عن المسبحى (ج ١ ص ٤٦) أن المعز أصدر الأوامر بمنع إيقاد النيران فى الليلة التى قبل يوم النوروز ، ومنع صب الماء فى هذا اليوم .

وعلى الرغم من تشدد بعض الخلفاء الفاطميين فى إقامة الاحتفال بالنوروز فإننا نقرأ أن خلفاء العصر الفاطمى اهتموا بالاحتفال بهذا العيد . فقد ذكر المقريزى[١] أن الخليفة الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠) احتفل بالنوروز احتفالا عظيما كما احتفلت الدولة الفاطمية بغيره من الأعياد والمواسم التى أخذت شكلها النهائى منذ ذلك العصر .

٩ — الولائم

كانت الولائم فى كثير من الأحيان مظهراً من مظاهر الاحتفال بالأعياد ، وكانت تقام فى بعض المساجد ، وفى القصر ، وفى دار الوزير . ففى القصر كانت تقام فى المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يلتئم مجلس الملك . وكان الخليفة المعز الفاطمى أول من سن تلك السنة ، واستمر ذلك إلى آخر أيام الفاطميين . وكانت الأسمطة لا تنقطع من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين .

وكان السماط يمد من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه . وكان يدعى لهذه الولائم قاضى القضاة (وذلك يوم الخميس عادة) والأمراء وغيرهم من رجالات الدولة كل بدوره . وكان الوزير وابنه — أو أخوه — وكبير الأمناء يمثلون الخليفة . أما مقادير الأطعمة فكانت من الوفرة بحيث تكفى ليأخذ كثير من الناس ما يريدون . وبلغت النقود التى كانت مخصصة لهذه الولائم فى ثلاثة وعشرين يوماً ٣٠٠٠ر٣ دينار ، فيكون متوسط اليوم الواحد ١٣٠ دينارا .

ولم تكن العناية التى كان يوجهها الفاطميون لأسمطة العيدين بأقل منها فى الأسمطة الأخرى . وكان يقام يوم عيد الفطر سماطان : أحدهما بعد صلاة الفجر ، والثانى بعد صلاة العيد ، وهذا يجلس عليه الخليفة . وكان طول السماط الأول الذى كان يمد فى الإيوان (بقاعة الذهب) ٤٠٠ ذراع (نحو ١٩٠ ياردة) ، وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ ياردة) .

أما هذا السماط فكان فيه صحاف ملأى بالفطائر والحلوى . وكان يدعى الناس من كل الطبقات إليه ؛ فيأخذ كل ما يحب ، إذ كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان مايتبقى منها

(١) خطط ج ١ ص ٢٦٨ . انظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ج ٢ ص ١٣٣ .

يأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله وبيعه . وكان الخليفة يجلس فى إحدى النوافذ ليمتع نفسه بهذا المنظر الذى كان مظهرا من مظاهر جوده وكرمه ، كما كان القصد منه أن يملك قلوب الناس .

وفى السماط الذى كان يمد بقاعة الذهب دليل آخر على رغبة الخلفاء الفاطميين فى استرضاء العامة . غير أن أعمال الكرم هذه خفضت من بيت المال كثيرا . ولكن من كان يجسر على مقاومة رغبات الخلفاء ووزرائهم الذين كانوا يرون أن لهذه الأعمال أثراً هاما فى تقوية مركز الفاطميين ، كما أنها كانت تزيد من إجلالهم وحب الشعب لهم ؟

وكان يقام بجانب سرير الملك بقاعة الذهب دِيْسَق مربع[1] يجلس عليه الخليفة ، وقد وضعت عليه الصحاف الذهبية والصينية . أما السماط العام فكان من خشب مدهون ؛ وعرضه عشرة أذرع ، وطوله طول القاعة . وكان يزين بالأزهار ذات الرائحة والألوان المختلفة ؛ ويوضع فى طرف السماط كتلتان كبيرتان من الحلوى ، كل منهما على هيئة القصر تزن سبعة عشر قنطارا محلاة بطبقة من الذهب ، وقد مثل فيها بالنتوءات صور الإنسان وغيره من الحيوانات المختلفة[2] .

وقد وصف القلقشندى هذا السماط وصفاً شيقاً ، وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الأوانى . فقد كان يوضع عليه إحدى وعشرون جفنة ، فى كل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام ؛ وكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف فى كل منها سبع دجاجات . وكانت هذه الصحاف والجفان تحاط بأنواع مختلفة من الفطائر والحلوى[3] .

ومن هذا البيان نعلم أنه كان يقدم فى هذا السماط ٤٣١ خروفا ، وكذا ١٠٫٨٥٠[4] ما بين دجاج وحمام ، ومقدار كبير من الحلوى والخبز ونحو ذلك . هذا ، وإن الناظر لأول وهلة

---

(١) الديسق الخوان من الفضة .

(٢) القلقشندى ج ٣ ص ٥٢٧ و ٥٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٨ .

(٤) ذكر أبو المحاسن فى بيان آخر أن ما كان يستهلك فى هذا السماط ٢٦٫٥٥٠ ما بين دجاج وحمام ، عدا ٤٤١ خروفاً محمراً (طبعة جوينبول Juynboll ج ٢ ص ٤٧٧) .

ليخال أن ما أتى به القلقشندى من قبيل الأساطير . غير أنا نقول إن ذلك لا يبعد تصديقه ، إذا علمنا أنه كان مخصصاً لأطعمة العيدين الثلاثة ٤٠٠٠ دينار[1] . وكان يدعى لهذا السماط الوزير الذى كان يجلس عن يسار الخليفة ، ويرتدى حُلة خاصة للأكل ، كما كان يدعى إليه أيضاً الأمراء وكبار الرجال . غير أنه لا يحتمل أن يأكل كل هؤلاء كل هـذا الطعام . فلذلك يقول القلقشندى إن ما تبقى من هذه المقادير من الأطعمة كان يرسل بعضها إلى دور أصحاب الرسوم ، وسائرها يأكله غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السماط بعد فراغ كبار المدعوين[2] .

ولم يكن هـذا كل ما كان يقدم من الأطعمة فى العيدين . فقد كان يصحب ذلك سماط آخر يمد فى دار الوزير ، يدعى إليه كثير من رجالات الدولة ، ثم يمنح ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة[3] .

وكان الخليفة بعد أن يفرغ من صلاة العيد يركب إلى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستاذون وغيرهم فى انتظار وصوله . حتى إذا ما وصل ذبح بيده ٣١ ما بين الأبعرة والنوق . وفى اليوم الثانى كان يركب للمذبح أيضا ويذبح بيده ٢٧ رأساً ، كما كان يذبح فى اليوم الثالث ٢٣ .

من هذا نرى أن ما كان يذبحه الخليفة هو ٨١ رأسا . وقد ذكر المقريزى[4] أن ما ذبح فى عيد سـنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) كان ٢٥٦١ رأساً ، منها ١١٧ ناقة و ٢٤ بقرة و ٢٠ جاموسة و ٢٤٠٠ كبش . غير أنه لم يبين لنا عدد الحيوانات التى كان ينحرها الخليفة بيده . ومن المحتمل أن يكون قد سقط من عبارة المقريزى لفظ « عدا » ، وبها تكون العبارة « عدا ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده » . وإذا جرينا على هذا الزعم ، كان ما يذبحه الخليفة بيده يتراوح بين ثمانين وتسعين رأساً ، إذ من المستحيل أن يذبح بيده عددا كبيرا يبلغ ٢٥٦١ رأساً . ومما يجدر ملاحظته أن العدد الذى ذكره المقريزى وهو ٢٥٦١ ، كان

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٥٢٨ .

(٢) القلقشندى ج ٣ ص ٥١٤ .

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٨٨ .

(٤) المقفى الكبير (مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٣٦٦ ، ج ٢ ورقة ٢٠٦ ب) .

يذبح فى عيد الأضحى وعيد الغدير (غدير خم) معاً . و إلى القارئ نص عبارة المقريزى : وعدة ما ذبح سنة ست وعشرة وخمسمائة فى ثلاثة أيام عيد النحر وعيد الغدير ألفان وخمسمائة وواحد وستون رأساً ، منها مائة وسبعة وعشرون من النوق ، وأربعة وعشرون بقرة ، وعشرون جاموسة . وهذا [عدا] ما ينحره الخليفة و يذبحه بيده فى مضحى العيد فى المنحر. ومن الكباش ألفان وأربعمائة » .

وقد وصف القلقشندى ما كان يصنع بلحم أول ذبيحة ، فقال : إن لحمها كان يحمر و يقدد ، وتحمل منه شرائح ترسل لوالى المدينة ، فيوزعها على من هناك من الشيعة . أما لحوم سائر الضحايا ، فكان يفرق بعضها على أرباب الرسوم ، و يوزعه قاضى القضاة على طلبة دار العلم وغيرهم ممن كانوا يأوون إلى مساجد القاهرة[١] .

وكان الاحتفال بالأعياد المختلفة يستلزم إعداد الولائم وتوزيع المآكل والحلوى ، والهبات والعطايا والإحسانات ، وغيرها مما جرى توزيعه عادة .

فقد كان يصنع فى عيد مولد النبى صلى الله عليه وسلم عشرون قنطارا من الحلوى ، توضع على ثلثمائة خوان (صينية) ، وتوزع فى الأزهر[٢] . وفى الاحتفال بجبر الخليج كان يقام سماط عظيم فى سرادق رحب على شاطئ النيل ، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة التى كان يجلس فيها الخليفة . وكان يأكل على هذا السماط من يدعوهم الخليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون وراء المواكب[٣] .

وهكذا كانت مظاهر أوائل الخلفاء الفاطميين الذى كان لهم ولع خاص بالإنفاق فى هذا السبيل . وقد نهج خلفاؤهم نهجهم وزادوا عليهم فى البذخ حتى انتهى حكمهم . وقد كان القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية الدينية . وإن فى اشتراك جماعات كبيرة فى الاحتفال بتلك الأعياد ، وفى الأبهة والعظمة التى كانت تنطق عن نفسها فى مواكبهم الملكية وولائمهم الفخمة ، وهباتهم الوفيرة من الملابس والنقود والطعام التى ينال منها كل الأهلين تقريبا ، والجماعات الغفيرة التى كانت تجتمع تحت المنظرة وتترقب القيمن بوجه

---

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٥١٥ — ٥١٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٠ .

الخليفة المقدس — إن فى هذا كله لدليلا محسوسا على مبلغ نجاحهم فى سياستهم .

غير أن ذلك النجاح وما يستلزمه صار عبئاً ثقيلا على توالى الأيام ، حتى أدى إلى سرعة انحلال خلافتهم وسقوطها . أما تأثير تلك السياسة فقد كان ظاهريا لم ينفذ إلى قلوب الناس ، بدليل أنهم لما زالت الدولة الفاطمية ، لم يلبثوا أن رجعوا إلى مذهبهم السنى القديم .

١٠ — المواكب العظام

(ا) صلاة الجمعة

وفى الاحتفال بصلاة الجمعة ما يدلنا على العظمة التى كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويرينا الكرم الذى مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم .

وقد أمدنا القلقشندى والمقريزى وأبو المحاسن بوصف صلاة الجمعة ، كما كان يقيمها الخلفاء الفاطميون . ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يركبون فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة .

وكان صاحب بيت المال فى صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأثيث المسجد الذى يصلى الخليفة الجمعة فيه ، فكان يوضع فى المقصورة ثلاث طنافس دَبيقية أو سامانية بيضاء — بعضها فوق بعض — ويوضع فوق الجميع — كما يقول أبو المحاسن — الحصيرة التى يقال إنها كانت لجعفر الصادق ، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) فى عهد الحاكم[١] . وكان ينصب على جانبى المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين[٢] .

وقبل وصول الخليفة بقليل ، كان قاضى القضاة يقف وبيده مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى كان يقف الخليفة تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد كتاب البلاط فى ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوباً من الحرير الأبيض ،

---

(١) أبو المحاسن ، مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(٢) القلقشندى ج ٣ ص ٥١١ .

ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف[1] ؛ ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس .
وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهي قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة ؛ ويظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان .

وحينئذ يدخل قاضي القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! » ، فيخرج الخليفة وحوله الأستاذون المحنكون ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . أما الخليفة فيستمر حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة . فإذا أومأ إليه ، صعد فقبل يدي مولاه ورجليه[2] ، وزرّ السترين عليه . وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج ، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر .

ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر ، أن الخليفة كان يستره وهو في قاعة الخطابة ستر من الحرير . وكان قاضي القضاة ، ويتبعه صاحب بيت المال حاملا مبخرة بيده ، يدخلان القاعة متى سمعا الأذان ، فيتقدم الأول ويحل الستر ، ثم يأخذ المبخرة من صاحب بيت المال فيبخر المكان . وبعد ذلك يغادران القاعة ، ويقبلان الدرج حال نزولهما[3] .

كما ذكر المقريزي أن السبب في زر الستور ، أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبهم ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة في ديوان الإنشاء ، كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة ، على سترين يوضعان على

---

(١) ذكر أبو المحاسن أن الخليفة الآمر كان يحف به القينة والأسود ، وهي مزينة بفاخر الكسى ، وعليها الأسلحة اللامعة (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) . وأضاف إلى هذا أنه بالرغم من شغف الحاكم بأن تكون مواكبه في غاية الأبهة ، فقد رأى أن ينيب وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة ؛ إذ كان لا يجمع مزايا الخطيب (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٠) .

وذكر ابن ميسر (ص ٤٤) أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، والفيلان .

(٢) ذكر المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨١) أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فإن قاضي القضاة هو الذي يزر السترين .

(٣) مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢ .

جانبى الخليفة (أحدهما على يمينه ليقرأ ما فيه فى الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقرأ ما فيه كذلك فى الركعة الثانية) ، هو حفظه من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة .

وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة قصيرة ، وتشتمل على آية من القرآن . وقد نقل المقريزى عن المسبحى الذى حضر صلاة الجمعة فى الأزهر سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وكان موقفه خلف الخليفة العزيز ، أن هذا الخليفة ذكر بعد الآية نفسه وقومه بعبارة موجزة ، ثم قال : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »[١] . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلىّ رضى الله عنه ، وللخلفاء أسلافه . ودعا لنفسه أخيراً قائلا : « اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسى خيرا ولا نفعاً (ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إنْ أنا إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون) »[٢] .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين .

فإذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحل السترين ، ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد هذا يأخذ الخليفة فى الصلاة ، فيبلّغ الوزير عنه ، ثم قاضى القضاة ، ثم المؤذنون .

فإذا ما انتهت الصلاة ، يخلو الجامع من الناس ، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة[٣] عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع .

وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه إلى الجامع — حيث يصلى الجمعة — كما كان يصطف كثير من الناس على جانبى الطريق[٤] .

---

(١) سورة النمل ٢٧ : ١٩ .

(٢) سورة الأعراف ٧ : ١٨٨ .

(٣) ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر أن داعى الدعاة كان يتبع قاضى القضاة إذا لم يكن قاضى القضاة هو داعى الدعاة .

(٤) القلقشندى ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢ . المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(ب) جبر الخليج :

أما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فنكتفي بذكر ما قاله ناصر خسرو أيضاً من أنه كان من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في كل عام . وكان الاحتفال بفتح الخليج يقترن بفتح جميع السدود . وكان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر ، وفي ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلي هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة ، تقودها طائفة من جند الخليفة ؛ وكذا كانت عُدد البغال محلاة بالذهب .

أما الجند فكانت تسير في صفوف منتظمة ، فصيلة تلو فصيلة ، ميممين فم الخليج ، والبربر من هؤلاء يسيرون في عشرين ألفاً من أشداء قبيلة كتامة (من قبائل البربر في شمال إفريقية) من سلالة جند المعز . ويلي هؤلاء خمسة عشر ألفاً من المغاربة ، ومن المصامدة (قبيلة من قبائل البربر بشمالي إفريقية) عشرون ألفاً . ويسير خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس في عشرة آلاف ، ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر . ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفاً ، ومن السودان ثلاثون ألفاً . وكان يطلق عليهم عبيد الشراء ، أي الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

ويلي هؤلاء أيضاً عدد غير قليل من الأرقاء ورجال الحاشية ، وكذلك الموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأمراء من مراكش واليمن ، وبلاد النوبة والحبشة ، وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دِهْلي — وكانت أمهم تقيم في القاهرة .

أما الخليفة فكان شابا في مقتبل العمر ، بهيّ الطلعة حليقَ اللحية ، عليه ساء طويل[1] ناصع البياض ، يمتطي بغلة عارية من كل ما يزينها . وكان حرس الخليفة يتألف من ثلثمائة من الديلم المشاة ، مرتدين الحلل السندسية المصنوعة في بلاد الروم ، حاملين المعاول

(١) يقول ناصر خسرو إن ثوب الخليفة هذا كان من صنع دبيق ، وكانت قيمته ألف دينار .

والمزاريق . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة[(١)] ، ويحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق . حتى إذا ما وصل إلى الفسطاط المقام عند فم الخليج سجد له الناس إكبارا وإجلالا .

وكان موكب الخليفة لفتح الخليج من أعظم المواكب . فقد كان ينصب للخليفة على حافة الخليج سرادق عظيم يعرف بالقاتول حيث يقام له سرير الملك ، ويوضع عليه حشيّة (مرتبة) عظيمة يجلس عليها . ويوضع للوزير كرسى . ويقف كبار رجال الدولة صفين من سرير الملك إلى باب السرادق . وكان الاحتفال يبدأ بتلاوة القرآن الكريم ثم يلقى الشعراء قصائدهم .

ثم يغادر الخليفة السرادق بصحبة الوزير إلى منظرة السكرة التى كانت تطل على الخليج ، وقد فرشت بفاخر الفرش ، على حين يبقى كبار رجال الدولة فى سرادقهم المطلة على الخليج ، ويطل من المنظرة أحد الأساتذة المحنكين إيذاناً بإيصال أمر الخليفة بفتح الخليج . وحينئذ يقذف الخليفة المزراق فى سد النيل . ومن ثم ينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم ، فينساب الماء ، وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمناً وتفاؤلا[(٢)] .

وأخيرا يقول ناصر خسرو إن مصر كانت فى ذلك الوقت فى بحبوحة من العيش ، ويقول إن الخليفة كان محبوبا جدا من الشعب ، وإنه لم يكن أحد يخشى سلباً أو تعديا فى ظل حكومته . ويقول فى كلامه عن أسواق القاهرة وحوانيتها الفخمة الغنية بما فيها من الطرف ، إن تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم ، إذ كانوا لا يخشون عليها من اللصوص[(٣)] .

---

(١) كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة باللآلئ والأحجار الكريمة .

(٢) ناصر خسرو ص ١٣٦ — ١٤٢ ، وقد ترجم معظم ذلك لينبول فى كتابه The Story of Cairo, pp. 145, 146.

انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٠ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٧٤ .

(٣) Nasir-i Khusrau, Safar Nameh, pp. 155, 156

١١ — وسائل التسلية

كان الناس فى هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التى عرفها المسلمون فى عهد هارون الرشيد ثم انتشرت بين العرب . وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم[١] . كذلك كان النرد من الألعاب التى اعتاد الناس أن يتلهوا بها . ويستعمل فى اللعب به ثلاثون حجراً وفصان ، على رقعة رسم اثنا عشر منزلا أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد . والمشهور أن الشطرنج اختراع هندى وأن النرد من اختراع الفرس .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة فى هذا العصر . وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة ، على ألا يكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب . وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولى فى بعض الأحيان على الحصان المسبوق[٢] .

وقد عنى أحمد بن طولون بحلبات السباق ، فبنى مكانا لعرض الخيل سماه « المنظر » . ووصف القضاعى المؤرخ هذا العرض ، فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهى : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد . وأضاف هذا المؤرخ أنه بقى منها فى أيامه شهر رمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتارى عليها سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م[٣]) .

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد ، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة ، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفى هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك فى الاحتفال بالأعياد .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢١ — ٥٢٢ .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ . سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣

(٣) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

فإذا جاء وقت السباق ، أطلقت الخيل إلى غايتها ، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضاً حتى نهاية الشوط .

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعاً شديداً ، فكان يخرج فى جهات الأهرام والعقاب وغيرها ، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده فى صحبة رجال عليهم اللبود ، فيدخلون فى الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم ، ثم يضعونه فى قفص من الخشب محكم الصنعة يسعه وهو قائم . فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذى فيه السبع ، واجتمعت العامة لمشاهدته[(١)] .

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، كخمارويه بن أحمد بن طولون ، مشغوفاً بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرماً أيضاً بالصيد ، وخاصة صيد السباع[(٢)] . وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد .

كذلك عنى الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها فى الموكب فيجلس على مرتبة عالية فى الشباك فى المبنى المعروف باسم السَّدِلِّى[(٣)] . وقد جرت العادة أن يرسل الخليفة « صاحب الرسالة » لاستدعاء الوزير من دار الوزارة . فإذا عاد هذا الموظف الكبير خرج الخليفة من مسكنه فى القصر راكباً حتى يصل إلى الشباك ، فيترجل الأمراء ويدخل الوزير راكباً من باب العيد (أحد أبواب القصر الشرقى الكبير) حتى يصل إلى أول باب من أبواب الدهاليز الطوال[(٤)] يحيط به حاشيته وغلمانه وأقاربه وأولاده حيث يصل إلى المكان الذى فيه الشباك ، ويقف الحاضرون كل فى المكان المخصص لوقوفه . ويجلس الوزير على كرسى كبير تحت الشباك ، فإذا استقر فى جلوسه رفع كل من زمام القصر وصاحب بيت المال الستر من جانبه ، فيشاهد الحاضرون الخليفة وهو جالس فى الشباك فى أتم أبهة وأعظم هيئة . عند ذلك يقف الوزير ويسلم على الخليفة بأن يلمس بيديه الأرض ثلاث

---

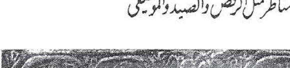
(١) خطط ج ١ ص ٣١٨ .

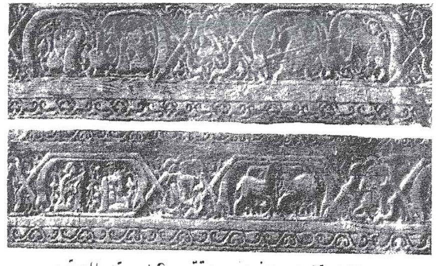
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) وهو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التى قد يوضع فيها حاجز من حديد . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٧٧ .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٤ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٤٧ .

مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى





مناظر منقوشة تمثل طيوراً وتيوساً وصائداً يقتنص سبعاً مع جوقة من الموسيقيين



مرات ، فيأمره الخليفة بالجلوس على كرسيه . ثم يستفتح قراء الحضرة بآيات قرآنية تناسب المقام ، ثم يسلم سائر رجال الدولة على الخليفة الذى يأخذ فى عرض الخيول والدواب[١] . فإذا انتهى العرض ختم القراء بآيات مناسبة ، ثم يرخى الستر ، ويدخل الوزير فيقبل يد الخليفة ورجليه ، ثم ينصرف إلى دار الوزارة وبصحبته كبار رجال الدولة .

وكان من أثر انخفاض النيل الذى دام ثلاث سنوات متواليات تبتدئ من سنة ٣٩٨ هـ ، أن صدرت قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ . وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع للموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات أو بيعهن[٢] .

وكان الخليفة الآمر يعطى الرهبان فى دير نَهيا[٣] بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[٤] . وكان أبو على الأكمل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى يشاهد لعبة الكرة .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٠٥ . المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٤٧ .

(٢) المقريزى خطط جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٣) ذكر الشابشتى (A.S. Atiya : Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of al — Shabushti's Kitab Al — Diyarat, p. 17) أن دير نهيا بالجيزة « من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها ، عامر برهبانه وسكانه . وله فى النيل منظر عجيب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته . فإذا انصرف الماء وزرع ، أظهرت أراضيه غرايب النوار وأصناف الزهر ، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة . وله خليج يجتمع إليه ساير الطيور ، فهو أيضاً متصيد حسن » .

(٤) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ — ٧٨ . ناصر خسرو : Nasir-i Khusrau Safar Nameh, pp. 155—6

مصادر الكتاب

نورد فى الثبتين الآتيين المصادر العربية والافرنجية التى رجعنا إليها . وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء مع ذكر سنة وفاة المؤلفين الأقدمين .

١ ــ المصادر العربية

ابن الأبّار (٦٥٩/١٢٦١) : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى .

١ ــ كتاب التكملة لكتاب الصلة ، جزءان (مدريد ١٨٨٦) .

ابن الأثير (٦٣٠/١٢٣٨) : على بن أحمد بن أبى الكرم .

٢ ــ الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ) ، (المطبعة الكبرى، القاهرة ١٢٩٠ هـ)

٣ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ)

ابن الإخوة

٤ ــ معالم القربة فى أخبار الحسبة ، نشره روبان ليفى ed. by Rheuban Levi, Gibb Memorial, New Series, vol. xii (Cambridge, 1938).

الإدريسى (٦٤٩/١٢٥١) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى .

٥ ــ كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان ، وهو مختصر لكتاب الإدريسى " نزهة المشتاق " (رومة سنة ١٥٩٢ م) .

٦ ــ "Mappæ Arabicæ Arabische Welt und Länderkarten des 9-13 Yahrhunderts, in Arabischer Urschrift, lateinischer Transkription, und Ubertragung in neuzeitliche Kartenskizzen. Mit einleitenden Texten, herausgegeben von Konard Miller (Stüttgart, 1926).

٧ ــ المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٩٤)

أسامة بن منقذ (٥٨٤/١١٨٨) : أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة نجم الدين .

٨ ــ كتاب الاعتبار أو " حياة أسامة " .

Première Partie, ed. by Hartwig Derenbourg (Paris, 1889).

(٩) "Anthologie de textes arabes, inédits par Ousâma et sur Ousâma", ed. by H. Derenbourg (Paris, 1893).

(٣٢٤/٩٣٥ ــ ٩٣٦) : أبو الحسن على بن إسماعيل .

١٠ ــ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين . جزءان (اسلامبول ١٩٢٠)

الأصفهانى (٣٥٦/٩٦٧) : أبو الفرج .

١١ ــ كتاب الأغانى ٢١ جزءاً (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) .

ابن أبى أصيبعة (٦٦٧/١٢٧٠) : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجى .

١٢ ــ كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء جزءان (القاهرة سنة ١٢٩٩ ــ ١٣٠٠ هـ) .

أوتيخا (٣٢٨ هـ/٩٤٠) : سعيد بن البطريق .

١٣ – التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت سنة ١٩٠٩) .
ابن إياس (٩٣٠ هـ / ١٥٢٣) : أبو البركات محمد بن أحمد .
١٤ – كتاب تاريخ مصر المعروف " ببدائع الزهور فى وقائع الدهور " ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١–١٣١٢ هـ) .
الباشا : الدكتور حسن .
١٥ – الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧) .
بديع الزمان (٣٩٨/١٠٠٧ – ١٠٠٨) : أحمد بن محمد المعروف ببديع الزمان الهمذانى .
١٦ – رسائل الهمذانى (بيروت سنة ١٨٩٠ م) .
البراوى : الدكتور راشد .
١٧ – حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
ابن بطوطة (٧٧٩ / ١٣٧٧) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله .
١٨ – تحفة النظار فى غرائب الأمصار ٤ أجزاء، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفريميرى (Defrémery) وسانجينتى (Sanguinetti) (باريس ١٨٥٣ – ١٨٥٨ و ١٨٦٩ – ١٨٧٩ م) .
البغدادى (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .
١٩ – الفرق بين الفرق (مطبعة المعارف ، القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠) .
البغدادى (٤٦٣/١٠٧٠ – ١٠٧١) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب .
٢٠ – تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١) .
البغدادى (٦٢٩/١٢٣١) : عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادى .
٢١ – مختصر تاريخ مصر Ed. by J. White (Oxford, 1800)
٢٢ – الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر .
Rélation de l'Egypte, translated with historical notes by De Sacy (Paris. 1810).
البكرى (٤٨٧/١٠٩٧) : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز .
٢٣ – كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دى سلان (De Slane) ، الطبعة الثانية (باريس سنة ١٩١١) .
البلاذرى (٢٧٩/٨٩٢) : أحمد بن يحيى بن جابر .
٢٤ – فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٥/١٩٠١) : نشر القسم الأول منه الدكتور صلاح الدين المنجد (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦) .
البلخى (٣٢٢/٩٣٣ – ٩٣٤) : أبو زيد بن سهل .
٢٥ – كتاب البدء والتاريخ ، وينسب إلى مطهر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩–١٩٠٧)
البلوى (القرن الرابع الهجرى) : أبو محمد عبد الله
٢٦ – سيرة أحمد بن طولون ، نشره محمد كرد على (دمشق ١٣٥٨ هـ)
دى بور : ت . ج .
٢٧ – تاريخ الفلسفة فى الإسلام، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨)
البيرونى (٤٤٠/١٠٤٨) : أبو الريحان محمد بن أحمد .
٢٨ – الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) (لندن سنة ١٨٧٩) (ليبزج ١٨٧٨ – ١٨٧٩) .

٢٩ – تاريخ البريد فى مصر ، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر فى القاهرة (بولاق ١٩٣٤) .

التميمى (من علماء القرنين الثالث والرابع) : أبو العرب محمد بن أحمد .

٣٠ – كتاب طبقات علماء إفريقية (الجزائر ١٣٣٢/١٩١٤) .

التنوخى (٣٨٤/٩٩٤) أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم .

٣١ – نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) ، ترجمه إلى الإنجليزية الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (لندن سنة ١٩٢٢) .

تيمور : أحمد باشا

٣٢ – التصوير عند العرب ، نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢) .

ابن تيمية (٧٢٨/١٣٢٧ — ١٣٢٨) : تقى الدين الحرانى

٣٣ – الحسبة فى الإسلام (القاهرة ١٣١٨ هـ) .

الثعالبى (٤٢٩/١٠٣٧) : أبو منصور عبد الملك .

٣٤ – يتيمة الدهر (٤ أجزاء دمشق سنة ١٣٠٤ هـ) (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤) .

الجاحظ (٢٥٥/٨٦٩) أبو عثمان عمرو بن بحر البصرى .

٣٥ – كتاب التبصر بالتجارة ، نشره حسن حسنى عبد الوهاب (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥) (الجزائر ١٩٠٥) .

ابن جبير (٦١٤/١٢١٧) : أبو الحسن محمد أحمد الكنانى .

٣٦ – رحلة ابن جبير ، طبعة و . رايت (W. Wright) (ليدن سنة ١٨٥٢) .

trans. by R. J. C. Broadhurst "The Travels of Ibn Jubayr (Jonathan Cape, London, 1952)

الجزنائى : أبو الحسن على .

٣٧ – زهرة الآس فى بناء مدينة فاس (تلمسان ١٩٢٢) .

الجوذرى (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو على منصور العزيزى الجوذرى .

٣٨ – سيرة الأستاذ جوذر ، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين ، نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة .

ابن الجوزى (٥٩٧ / ١٢٠١) : أبو الفرج عبد الرحمن .

٣٩ – تلبيس إبليس أو نقد العلماء (القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

٤٠ – المنتظم ، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دى سوموجى Revista degli Studi O ientali, vol. xiii.

ابن الجوزى (٦٥٤/١٢٥٧) : أبو المظفر بن قيزوغلى سبط بن الجوزى .

٤١ – مرآة الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ .

بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقمى ١٥٠٥ و ١٥٠٦ .

والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٥٥١ .

ومكتبة بودليان (Bodleian) بأكسفورد ، مجموعة پوكوك (Pocock, Oxford, Or. 370) طبعة Jewett (شيكاغو ١٩٠٧) .

حاجى خليفة (١٠٦٧ / ١٦٥٧) : مصطفى المسمى كاتب شلبى .

٤٢ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel ، ٧ أجزاء (ليبسك ولندن ١٨٣٥ – ١٨٥٨) .

ابن حجر العسقلانى (١٤٤٩/٨٥٣) : شهاب الدين بن على .

٤٣ — الإصابة فى تمييز الصحابة طبعة سبرنجر (Sprenger) وغيره (كلكتا سنة ١٨٥٦-١٨٧٣)، (القاهرة ١٣٢٣) فى ٦ أجزاء .

٤٤ — رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥) .

ابن أبى الحديد (١٠١٣/٤٠٤) : الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسينى .

٤٥ — شرح نهج البلاغة ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

ابن حزم (١٠٦٤/٤٥٦) : أبو محمد على بن أحمد .

٤٦ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

حسن إبراهيم حسن .

٤٧ — تاريخ عمرو بن العاص ، دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٦) .

٤٨ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ٣ أجزاء الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨) .

٤٩ — الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (بولاق ١٩٣٢) .

٥٠ — النظم الإسلامية ، بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٣٩) .

٥١ — مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ، مستخرج من كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٢٧ – ٢٢٩ (القاهرة ١٩٤٢) .

٥٢ — زعماء الإسلام : مطبعة الآداب (القاهرة ١٩٥٣) .

٥٣ — عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٤٧) بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف .

٥٤ — المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٤٨) ، الطبعة الثانية تحت الطبع .

٥٥ — انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى جنوباً وفى شرق القارة الإفريقية وغربيها ، نشره المعهد العالى للدراسات العربية (جامعة الدول العربية) (القاهرة ١٩٥٧) .

٥٦ — المأمون وعلى الرضا . . . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة) المجلد الأول ، الجزء الأول (مايو ١٩٣٣) .

٥٧ — كافور الإخشيد ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة (مايو ١٩٤١) .

٥٨ — اليمن : البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨) .

حسن أحمد محمود : الدكتور

٥٩ — قيام دولة المرابطين (القاهرة ١٩٥٧) .

حسن سليمان محمود : الدكتور

٦٠ — الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (٢٦٨ – ٦٢٦ هـ) ، بالاشتراك مع الدكتور حسين الهمدانى (القاهرة ١٩٥٥) .

٦١ – الملكة أروى سيدة ملوك اليمن (القاهرة ١٩٥٥) .

ابن حماد : القاضي أبو عبد الله محمد بن علي .

٦٢ – أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، نشره Vonderheyden : ٣ أجزاء (الجزائر – باريس ١٩٢٧) .

Les Chroniques d'Ibn Hammad, ed. by Cherbonnot (Journal Asiatique, Dec. 1882

يتكلم عن الفاطميين في المغرب

الحمادي اليماني (من فقهاء السنة في اليمن في أواسط القرن الخامس الهجري) : محمد بن مالك بن أبي الفضائل

٦٣ – كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (مطبعة الأنوار ١٣٥٧/١٩٣٩) .

ابن حوشب (منصور اليمن)

٦٤ – رسالة الرشد والهداية ، نشرها الدكتور محمد كامل حسين في مجلة Collectanea) ، المجلد الأول سنة ١٩٤٨ .

ابن حوقل (٣٨٠/٩٩٠) : أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي

٦٥ – كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، نشره دي غويه ، المجموعة الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٣) .

ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

٦٦ – كتاب المسالك والممالك ، نشره دي غويه (ليدن ١٨٨٩ ، وبذيله نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي .

الخشني : محمد بن الحارث بن أسد

٦٧ – كتاب طبقات علماء إفريقية (الجزائر ١٩١٤) .

الخطيب البغدادي (٤٦٣/١٠٧٠ – ١٠٧١) : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي .

٦٨ – تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١) .

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ – ١٤٠٦) : عبد الرحمن بن محمد .

٦٩ – مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠) ، ترجمة دى سلان – De Slane, Les Prolégomènes d'Ibn Khaldun, 3 vols. (Paris, 1862).

٧٠ – العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٧٤ هـ) ، (بيروت ١٨٨٦) .

A Selection from the Prolegomena of Ibn Khaldun by D. B. Macdonald (Leiden, 1905)

ابن خلكان (٦٨١/١٢٨١) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي .

٧١ – وفيات الأعيان جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) ، (القاهرة ١٣١٠ هـ) ، (القاهرة ١٩٤٩) ، ترجمه إلى الإنجليزية دى سلان De Slane ، باريس ١٨٤٢ – ١٨٤٨) .

الخوارزمي (٣٨٣ / ٩٩٣) : أبو بكر محمد بن العباس .

٧٢ – رسائل الخوارزمي (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ) .

الخوارزمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب

٧٣ – كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦ هـ) . (القاهرة ١٣٤٤ ، ليدن ١٨٩٥) .

الخياط المعتزلى (بعد سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان

٧٤ — كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، نشره نيبرج ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة (١٩٢٥/١٣٣٤) .

ابن الداية (٩٤١/٣٣٠ — ٩٤٢) :

٧٥ — سيرة ابن طولون ، نشره ك فولرز K. Vollers (برلين ١٨٩٤) .

٧٦ — المكافأة ، نشره أحمد أمين وعلى الجارم (بولاق ١٩٤١) .

الدباغ (١٢٩٦/٦٩٦ — ١٢٩٧) : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى

٧٧ — معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠) .

ابن دقان (٨٠٩ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧) : إبراهيم بن محمد المصرى .

٧٨ — الانتصار لواسطة عقدة الأمصار . لم يظهر منه إلا الجزءان الرابع والخامس (بالقاهرة ١٣٠٩ / ١٨٩٣) .

ابن أبى دينار (١٦٩٨/١١١٠) : محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى .

٧٩ — كتاب المونس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ)

الدينورى (٨٨٢ / ٨٩٥) : أبو حنيفة أحمد بن داود .

٨٠ — الأخبار الطوال ، جزءان ، طبعة ج . كراتشوفسكى J. Kratchkovsky (ليدن سنة ١٨٨٨) .

الذهبى (٧٤٨ / ١٣٤٨ — ١٣٤٩) : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد .

٨١ — تاريخ الإسلام ، وهو مخطوط :

(أ) بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٨١

(ب) ودار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ (تاريخ) .

(ج) ومكتبة بودليان بأكسفورد (Bodleian, Laud., Or , 304)

الرازى (٣١١ / ٩٢٢) : أبو بكر محمد بن زكريا

٨٢ — رسائل فلسفية ، نشره پول كراوس (القاهرة ١٩٣٩) .

الرازى : فخر الدين

٨٣ — اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره سامى النشار (القاهرة ١٩٣٨) .

٨٤ — رسائل الحاكم بأمر الله ، كتبها كثير من الدعاة الفاطميين فى سنة ٤٠٨ هـ . وهى مخطوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (مذهب الشيعة) .

الرضى (١٠١٥/٤٠٦) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى . . . بن الحسين بن على ابن أبى طالب .

٨٥ — ديوان الشريف الرضى (بيروت ١٣٠٧ هـ)

رينو : پول .

٨٦ — تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ترجمه وعلق عليه شكيب أرسلان (القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

ابن أبى زرع (١٣٢٥/٧٢٦ — ١٣٢٦) : أبو الحسن على بن عبد الله .

٨٧ — الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (أبسالا ١٨٤٣) (باريس ١٨٦٠) .

زكي محمد حسن

٨٨ — الفن الإسلامى فى مصر (القاهرة ١٩٣٥)

٨٩ — كنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٧)

٩٠ — الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى (القاهرة ١٩٤٠) .

٩١ — فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨) .

٩٢ — زخارف المنسوجات القبطية ، فصلة من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الأول — مايو ١٩٥٠ .

٩٣ — التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ، المقتطف .

٩٤ — الأسرات الحاكمة وبعض الأحداث السياسية الخطيرة الشأن فى العالم الإسلامى منذ قيام الإسلام حتى القرن السابع عشر الميلادى — المقتطف .

ابن زولاق (٣٨٧/٩٩٧) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم .

٩٥ — كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩) .

٩٦ — العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج ، نقله ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حلى المغرب .

زيدان : جورجى .

٩٧ — تاريخ التمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

ابن زيدان : عبد الرحمن

٩٨ — إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩) .

سرور : الدكتور محمد جمال الدين

٩٩ — النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، دار الفكر العربى (القاهرة ١٩٥٧) .

السخاوى (٩٠٢/١٤٩٦ — ١٤٩٧) : أبو الحسن نور الدين على

١٠٠ — تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات (القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٧) .

ابن سعد (٢٣٠/٨٤٥) : محمد بن سعد كاتب الواقدى .

١٠١ — كتاب الطبقات الكبير ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) ، ٨ أجزاء (ليدن سنة ١٣٢٢ هـ) .

ابن سعيد (٦٧٣/١٢٧٥) : على بن موسى المغربى .

١٠٢ — كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق (ليدن سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م) . القسم الأول من الجزء الخاص بمصر نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف ، وسيدة إسماعيل كاشف (القاهرة ١٩٥٣) .

السقطى الأندلسى

١٠٣ — أدب الحسبة ، نشره Lévi-Provencal and Colin (باريس ١٩٣١) .

السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى

١٠٤ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هـ) .

السمعاني (٥٦٢/١١٦٦ – ١١٦٧) : القاضي أبو سعيد عبد الكريم .

١٠٥ – كتاب الأنساب (Gibb Memorial Series, No. xx (London, 1912

سيبوله : كريستيان فريدريخ

١٠٦ – نشر كتاب النقط والدوائر (من كتب الدروز (١٣١٩/١٩٠٢) .

ابن سيده (٤٥٨/١٠٦٥ – ١٠٦٦) : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي .

١٠٧ – كتاب المخصص ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ) .

السيوطي : أبو بكر بن محمد المغربي .

١٠٨ – كتاب في نسب بعض الصحابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

السيوطي (٩١١/١٥٠٥) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .

١٠٩ – حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) ترجمه إلى الانجليزية الميجر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .

١١٠ – تفسير الجلالين ، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات (القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٦)

١١١ – تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (القاهرة ١٣٥١ هـ) .

الشابشتي (٣٨٨ / ٩٩٧) : أبو الحسن علي بن محمد .

١١٢ – كتاب الديارات (Berlin, We. 1100) نشر الدكتور عزيز سوريال عطية الجزء الخاص (بديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتنزه بها) ، وترجمها إلى الإنجليزية

(Ex. du Bulletin de la Société d' Archéologie Copte, tome v, 1939).

أبو شامة (٦٦٥/١٢٦٧ – ١٢٦٨) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة ، شافعي من أهالي دمشق .

١١٣ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome IV ; another edition‘ 2 vols. (Cairo, 1287 A. H.)

أبو شجاع (٤٨٨ / ١٠٩٥) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري .

١١٤ – ذيل كتاب تجارب الأمم طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) وترجمه إلى الإنجليزية الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١) .

ابن شداد (٦٣٢ / ١٢٣٤) : القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم .

١١٥ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

(Receuil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III).

١١٦ – شرح لمعة من أخبار المعز . لم يعرف مؤلفه بعد ، مخطوط بجامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٢ .

شرف : الدكتور طه أحمد

١١٧ – تاريخ الإسماعيلية السياسي حتى سقوط بغداد ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه .

١١٨ – دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها الحسن الصباح (القاهرة ١٣٦٩/١٩٥٠) .

الشهرستانى (٥٤٨/١١٥٣) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

١١٩ – الملل والنحل ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

الشيال : الدكتور جمال الدين

١٢٠ – مصر والشام بين دولتين ، دار الفكر العربى (القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧) .

١٢١ – مجمل تاريخ دمياط (الإسكندرية ١٩٤٩) .

١٢٢ – وحدة مصر وسورية فى العصر الإسلامى ، مجلة جامعة الإسكندرية (إبريل ١٩٥٨) .

الشيزرى (حول سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) : عبد الرحمن بن نصر

١٢٣ – نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى (مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦) .

أبو صالح (٦٠٥ – ٦٠٦ / ١٢٠٨) : الأرمنى .

١٢٤ – تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر ، طبعة وترجمة إيفتس (A. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م) .

الصديق : الدكتور محمد زبير

١٢٥ – السير الحثيث فى تاريخ تدوين الحديث

دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد (١٣٥٨ هـ)

الصولى (٣٣٥/٩٤٦) : أبو بكر محمد بن يحيى

١٢٦ – كتاب الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ، نشره ج هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٤)

١٢٧ – أخبار الراضى بالله والمتقى لله أو تاريخ الدولة العباسية ، نشره ج . هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٥)

١٢٨ – أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشره ج . هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٦) .

ابن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩) : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى

١٢٩ – الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٥/١٩٢٧)

الطبرى (٣١٠/٩٢٢) : أبو جعفر محمد بن جرير .

١٣٠ – تاريخ الأمم والملوك ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٢٦ هـ)،طبعة دى غويه (De Goeje) (B) Series ٧ أجزاء (ليدن سنة ١٨٨١ – ١٨٨٣ م)

الطرطوشى (٥٢٠/١١٢٦ – ١١٢٧) : أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد

١٣١ – سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩) .

طوسون (الأمير) عمر

١٣٢ – كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن (الإسكندرية ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م)

الطوسى (٤٦٠/١٠٦٧ – ١٠٦٨) : محمد بن الحسن .

١٣٣ – فهرست كتب الشيعة (كلكتا سنة ١٨٥٥ م) .

طيفور (٢٨٠/٨٩٣ – ٨٩٤) : أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر .

١٣٤ – تاريخ بغداد ، الجزء السادس ، طبعة هـ . كلر (H. Keller) ، (لايبسك سنة ١٩٠٨ م) .

ابن عبد الحكم (٢٧٦/٨٨٩) : أبو القاسم عبد الرحمن القرشى المصرى

١٣٥ — كتاب فتوح مصر وأخبارها ، نشره هنرى ماسيه Herri Massé ، مطبعة المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية (القاهرة ١٩١٤) فى جزئين .

١٣٦ — كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس ،نشره تشارلز س . تورى Charles C. Torrey (Leiden, 1920).

عبد الحميد يونس (الدكتور) وعثمان توفيق

١٣٧ — الأزهر (دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٦) .

ابن عبد ربه (٣٤٩/٩٤٠) : شهاب الدين أحمد .

١٣٨ — العقد الفريد ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٢٩٣ ﻫ) .

عبد القادر : الدكتور على حسن

١٣٩ — نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى (مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٦) .

ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو عبد الله محمد المراكشى

١٤٠ — البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ٣ أجزاء ، نشره دوزى (ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١) (باريس ١٩٣٠) .

أبو العرب تميم : محمد بن أحمد بن تميم التميمى

١٤١ — طبقات علماء تونس (الجزائر ١٩١٤) .

عريب بن سعد (٣٦٦/٩٧٦ — ٩٧٧) القرطبى .

١٤٢ — صلة تاريخ الطبرى ، طبعة دى غويه De Goeje (ليدن ١٨٩٧ م) (القاهرة ١٣٠٢ﻫ)

ابن عساكر (٥٧١/١١٧٥) : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن .

١٤٣ — التاريخ الكبير ٥ أجزاء (دمشق ١٣٢٩ — ١٣٣٢ ﻫ) ، ويوجد منه مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢١٣٧ .

على إبراهيم حسن

١٤٤ — تاريخ جوهر الصقلى (القاهرة (١٣٥١ / ١٩٣٣) .

١٤٥ — تاريخ مصر فى العصور الوسطى : الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٥٣) .

على مبارك باشا

١٤٦ — الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٦) .

على بن الوليد (٦١٢ / ١٢١٥) سيدنا

١٤٧ — مختصر تاج العقائد ، نشره ايڤانوف بعنوان A Creed of the Fatimids (Cambridge, 1936.)

عماد الدين الأصفهانى (٥٩٧ / ١٢٠١) : أبو عبد الله محمد بن أبى الرجاء .

١٤٨ — خريدة القصر وجريدة العصر (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٦ — ٣٣٣١) .

١٤٩ — الفتح القسى فى الفتح القدسى ، نشره Carlo de Landberg بعنوان La Conquête de La Syrie et la Palestine (Leiden 1833).

عمارة اليمنى (٥٦٩ / ١١٧٤) : أبو الحسن نجم الدين اليمنى .

١٥٠ — كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية طبعة هارتوج ديرنبورج Hartwig Derenbourg) (باريس سنة ١٨٩٧ م) .

١٥١ — Tome Second (*a*) partie arabe, Poésies, Epitres (Tarassulât), Biographies, Notices en arabe par 'Oumâra et sur 'Oumâra (Paris, 1909).

١٥٢ — كتاب تاريخ اليمن ، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون المغربى ، ثم أخبار القرامطة باليمن للبهاء الجندى (لندن ١٣٠٩ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية Henry Cassels Kay (London, 1892

عنان : محمد عبد الله

١٥٣ — الحاكم بأمر الله (القاهرة ١٩٣٧)

تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٤٢) .

عيسى : الأستاذ أحمد محمد

١٥٤ — مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سينا ، مستخرج من المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (القاهرة ١٩٥٦) .

العينى (٨٥٥ / ١٤٥١) : بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى

١٥٥ — عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

الغزالى (٥٠٥ / ١١١١) : الإمام أبو حامد

١٥٦ — المنقذ من الضلال ، أو الملل والنحل (دمشق ١٣٥٣ / ١٩٣٤) .

١٥٧ — فضائح الباطنية ، أو المستظهرى ، نشره جولد تسيهر (ليدن ١٩١٦) .

أبو الفدا (٧٣٢ / ١٣٣١) : إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة .

١٥٨ — المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

أبو الفرج الملطى (٦٨٥ / ١٢٨٦) : جريجورى المسمى بارهبرايس .

١٥٩ — مختصر الدول ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م) .

ابن قتيبة (٢٧٦ / ٨٨٩) : أبو محمد عبد الله بن مسلم

١٦٠ — الإمامة والسياسة ، جزءان (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

١٦١ — كتاب المعارف (القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

القضاعى (٤٥٤ / ١٠٦٢) : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر الشافعى المذهب .

١٦٢ — عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٩١) ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٧٧٩ تاريخ .

ابن القفطى (٦٤٦ / ١٢٤٨) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب .

١٦٣ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء (لا يبسك ١٣٢٠ / ١٩٠٣) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

ابن القلانسى (٥٥٥ / ١١٦٠) : أبو يعلى حمزة

١٦٤ — تاريخ ابن القلانسى المسمى ذيل تاريخ دمشق مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسبط بن الجوزى والذهبى (بيروت سنة ١٩٠٨) .

القلقشندى (٨٢١ / ١٤١٨) : أبو العباس أحمد .

١٦٥ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣ — ١٩١٧ م) .

كاشف : الدكتورة سيدة إسماعيل

١٦٦ — مصر فى فجر الإسلام دار الفكر العربى (القاهرة ١٩٤٧) .

١٦٧ مصر فى عهد الإخشيديين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٥٠) .

آل كاشف الغطاء : الشيخ محمد الحسين

١٦٨ — أصل الشيعة وأصولها ، الطبعة الثالثة (العراق ١٣٦٣ / ١٩٤٤) .

كامل حسين : الدكتور محمد

١٦٩ — فى الأدب المصرى الإسلامى (من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين (القاهرة ١٩٣٩) .

١٧٠ — نظرية المثل والممثول (القاهرة ١٩٤٨) .

الكتبى (٧٦٤ / ١٣٦٢ — ١٣٦٣) : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبى

١٧١ — فوات الوفيات جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) ، (القاهرة ١٩٥١) .

الكرمانى (توفى بعد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م) : الداعى أحمد حميد الدين

١٧٢ — راحة العقل نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى .

١٧٣ — الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول (مايو ١٩٥٢) .

الكرملى : أنستاس مارى

١٧٤ — النقود العربية وعلم النميات (القاهرة ١٩٣٩) .

الكندى (٣٥٠/٩٦١) : أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب

١٧٥ — كتاب الولاة وكتاب القضاة . به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب " رفع الإصر " لابن حجر العسقلانى ، طبعة روفن جست (Rhuvon Gues)

(E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XIX, 1912)

١٧٦ — كتاب القضاة الذين ولوا مصر ، وذيله أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن بن برد (رومة ١٩٠٨)

ماجد : الدكتور عبد المنعم

١٧٧ — نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٣) الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٥) .

١٧٨ — السجلات المستنصرية : سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى دعاة اليمن وغيرهم ، نشرها الدكتور ماجد (دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٤) .

مالك (١٧٩/٧٩٥) : الإمام مالك بن أنس

١٧٩ — موطأ الإمام مالك ، وشرحه تنوير الحوالك ، تأليف جلال الدين السيوطى (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

المالكى : أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله

١٨٠ — رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم ، نشره الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) .

الماوردى (٤٥٠/١٠٥٧) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى .

١٨١ — الأحكام السلطانية (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ولندن سنة ١٩٠١ م) .

١٨٢ – أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٤٨/١٩٢٩)

المتنبى (٣٥٤/٩٦٥) أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفى

١٨٣ – ديوان المتنبى ، نشره عبد الرحمن البرقوقى (القاهرة ١٣٤٨/١٩٣٠) .

أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى

١٨٤ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " جزء ١ و ٢ طبعة جوينبول (Juynboll) (ليدن سنة ١٨٥١ – ١٨٥٥ م) ووليم بوبر (Wiliam Popper) طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ٩ أجزاء (القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٥٢) .

المحلى (٦٥٢/١٢٥٤) : حسام الدين

١٨٥ – الحدائق الوردية (مكتبة المتحف البريطانى القسم الشرقى رقم ٣٧٨٦) .

المراكشى (٦٦٩/١٢٧٠ – ١٢٧١) : محيى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى

١٨٦ – كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " طبعة ر . دوزى (R. Dozy) الطبعة الثانية ليدن سنة ١٨٨١ م) ، وترجمه وشرحه ا . فانيان (E. Fagnan) (الجزائر سنة ١٨٩٣ م) (القاهرة ١٩٢٩)

ابن المرتضى (٣٢٥/٩٣٦ – ٩٣٧) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيى

١٨٧ – المنية والأمل ، مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ، رقم (٣٧٧٢) ؛ وهو أول شرح لكتاب " غايات الأفكار " (مكتبة المتحف البريطانى القسم الشرقى رقم (٣٩٨٦) . والنسخة الثانية من الشروح مجموعة تحت عنوان " غايات الأفكار " (طبع فى الهند)

المسعودى (٣٤٦/٩٥٦) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .

١٨٨ – " كتاب التنبيه والإشراف " طبعة دى غويه (De Goeje)

(Bibliotheca Geographoram Arabicorum, Vol. III. (Leyden, 1893).

(القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨)

١٨٩ – " مروج الذهب ومعادن الجوهر " جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م) ، ٩ أجزاء ترجمه إلى الفرنسية س . باربييه دى مينار (C. Barbier de Meynard) (باريس سنة ١٨٦١ – ١٨٧٧) (القاهرة ١٣٤٦) ، جزءان .

مسكويه (٤٢١/١٠٣٠) : أبو على أحمد بن محمد

١٩٠ – كتاب تجارب الأمم النسخة العربية جزءان . طبعة هـ . ف . أمدروز (H.F. Amedroz) وترجمه الأستاذ مرجوليوث (Prof. D.S. Margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١ م) .

مسلم (٢٦١/٨٧٥) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى

١٩١ – الجامع الصحيح ، ٨ أجزاء فى ٤ مجلدات (القاهرة سنة ١٣٢٩/١٣٣٢) .

مشرفة : الدكتور عطية

١٩٢ – القضاء فى مصر من الفتح العربى إلى الفتح الفاطمى ، (القاهرة ١٩٤٥) .

١٩٣ – نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ، دار الفكر العربى (القاهرة ١٣٦٧ ١٩٤٨) .

المعرى (٤٤٩ / ١٠٥٧) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

١٩٤ – سقط الزند (القاهرة ١٣١٩ هـ) : (بولاق ١٢٨٦ هـ) جزءان .

١٩٥ – لزوم ما لا يلزم (القاهرة سنة ١٨٩١ م) .

المقدسى (٣٨٧ / ٩٩٧) : شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف بالبشارى .

١٩٦ – أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى غويه .Bib. Geog. Arab (ليدن سنة ١٨٧٧) .

المقرى (١٠٤١ / ١٦٣٣) : أحمد بن محمد .

١٩٧ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٢٧٩ / ١٨٦٢) .

١٩٨ – أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، ٣ أجزاء (نشره مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤١) .

المقريزى (٨٤٥ / ١٤٤١) : تقى الدين أحمد بن على :

١٩٩ – المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠ ﻫ) .

٢٠٠ – اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا (بيت المقدس سنة ١٩٠٨ م) ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٦٧ / ١٩٤٨) .

٢٠١ – السلوك فى معرفة دول الملوك مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٦٩ ترجمه كترمير (Quatremère) إلى الفرنسية (Histoire des Sultans Mamluks de l' Egypte) وذيله بمذكرات فيلولوجية وتاريخية وجغرافية : ظهر منه جزءان (باريس سنة ١٨٣٧ م) .

٢٠٢ – التاريخ الكبير المقفى .

(أ) مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ٢٣٦٦ ، ٣ أجزاء .

(ب) مخطوط بالمكتبه الأهلية بباريس رقم ٢١٤٤ .

ابن مماتى (٦٠٦ / ١٢٠٩) : القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد

٢٠٣ – كتاب قوانين الدواوين (القاهرة ٢٩٩) ، نشره الدكتور عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣) .

ابن منجب (٥٤٢ / ١١٤٧) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على ، ويسمى أيضاً الصيرفى المصرى .

٢٠٤ – الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة سنة ١٩٢٤ م) .

٢٠٥ – قانون ديوان الرسائل ، نشره على بهجت (القاهرة ١٩٠٥) ، ترجمه إلى الفرنسية هنرى ماسيه ، طبعة المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية (القاهرة ١٩١٤) .

المنصورى (٧٢٥ / ١٣٢٥) : ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار

٢٠٦ – زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، المجلد الخامس .

المؤيد فى الدين (٤٧٠ / ١٠٧٧) : هبة الله الشيرازى

٢٠٧ – السيرة المؤيدية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦ .

٢٠٨ – ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاه ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) .

ابن ميسر (٦٧٧ / ١٢٧٨) : محمد بن على بن يوسف بن جلب .

٢٠٩ – تاريخ مصر ، طبعة هنرى ماسيه (Henri Massé) ، (القاهرة سنة ١٩١٩ م)

٢١٠ – نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم ، ألفه سنة ٧١٢ ﻫ (١٣١٢ م) ، ونشره بروفنسال (الرباط ١٩٣٤) .

٢١١ – نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ، نشرها بروفنسال (باريس ١٩٤٨) .

ابن النديم (٣٨٣ / ٩٩٣) : محمد بن إسحاق

٢١٢ – كتاب الفهرست جزءان (لايبسك سنة ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ ﻫ) .

النسيبى

٢١٣ – كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩ .

النعمان (٣٦٣ / ٩٧٣ – ٩٧٤) : أبو حنيفة بن محمد المغربى

٢١٤ – المجالس والمسايرات ٣ أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .

٢١٥ – افتتاح الدعوة الزاهرة ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٨٨ .

٢١٦ – شرح الأخبار ، مخطوط بدار الكتب المصرية (بالقاهرة ، رقم ٧٠٦٢) .

٢١٧ – كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، نشره الدكتور محمد كامل حسين (دار الفكر العربى ، القاهرة) .

٢١٨ – دعائم الإسلام ، الجزء الأول ، نشره آصف على فيظى (القاهرة ١٩٥١) .

النوبختى (٢٠٢ / ٩١٤) : أبو محمد الحسن بن موسى

٢١٩ – كتاب فرق الشيعة ، استانبول ١٩٣١ .

النويرى (٧٣٢ / ١٣٣٢) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

٢٢٠ – نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط مصور بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٧٦) . نشرت دار الكتب الملكية بالقاهرة ١٢ جزءا من هذا الكتاب ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معاوف عامة فى عدة مجلدات .

النيسابورى

٢٢١ – استتار الإمام (نشره إيفانو فى مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة سنة ١٩٣٦) .

ابن هانئ (٣٦٢ / ٩٧٣) : أبو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد

٢٢٢ – ديوان ابن هانئ (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) .

الهدوى (٦٧٠ / ١٢٧١ – ١٢٧٢) : الإمام المنصور بالله شرف الدين الحسين بن يحيى

٢٢٣ – أنوار اليقين فى فضـــائل أمير المؤمنين (مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى رقم ٣٨٦٨) .

ابن هشام (٢١٨ / ٨٣٣) : أبو محمد عبد الملك

٢٢٤ – كتاب سيرة رسول الله ، ٥ أجزاء طبعة ف . وستنفلد (F. Wüstenfeld, Göttingen 1858-1860) ، (القاهرة ١٣٣٧ / ١٩٥٦) .

هلال الصابى (٤٤٨ / ١٠٥٦) : أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحق إبراهيم الكاتب

٢٢٥ – تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) ، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات .

٢٢٦ – الجزء الثامن من تاريخه (٣٨٩ – ٣٩٣ هـ) طبعة أمدروز (H. F. Amedroz) . وطبعه بعد ذلك وترجم ، الأستاذ مرجوليوث (Prof. D.S. Margoliouth) ، وذيل به كتاب تجارب الأمم لمسكويه (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .

الهمدانى (٣٣٤ / ٩٤٦) : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود

٢٢٧ – صفة جزيرة العرب ، جزءان ، طبعة داڤيد هينريش ميلر (David Heinrich Müller) (ليدن سنة ١٨٩١) .

الهمداني : الدكتور حسين والدكتور حسن سليمان محمود

٢٢٨ – الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (٢٦٨ – ٦٢٦ هـ) ، القاهرة ١٩٥٥) .

ابن واصل (٦٩٧ / ١٢٩٧ – ١٢٩٨) : جمال الدين بن واصل الشافعى المذهب

٢٢٩ – مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٠٢) ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال فى جزئين (القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧) .

ياقوت (٦٢٦ / ١٢٢٩) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

٢٣٠ – معجم البلدان ١٠ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٢٣ / ١٩٠٦) .

٢٣١ – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

E. J. W. Gibb Memorial, Series VI. 7 vols. (Cairo, 1907-1911).

٢٣٢ – مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع : اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق ، ٤ أجزاء ، طبعة جوينبل T. G. J. Juynholl (لندن سنة ١٨٥٣ م) .

يحيى بن الحسين (٣٦٠ / ٩٧١) : الإمام يحيى بن الحسين بن هارون بن زيد بن على بن أبى طالب

٢٣٣ – كتاب الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية ، مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ١٩٧٤) .

يحيى بن سعيد الأنطاكى (٤٥٨ / ١٠٦٦)

٢٣٤ – « صلة كتاب أوتيخا » المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان (بيروت سنة ١٩٠٩) .

اليعقوبى (٢٨٢ / ٨٩٥) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

٢٣٥ – تاريخ اليعقوبى ، جزءان طبعة Houtsma (ليدن ١٨٨٣ م) ، طبعة النجف (العراق ١٣٥٨) .

٢٣٦ – كتاب البلدان ، طبعة دى غويه (ليدن ١٨٩٢ Trad. Gaston Wiet, Les Pays
(Institut Français du Cairo (1937).

٢٣٧ – صفة المغرب وأرض السودان .

اليمانى

٢٣٨ – سيرة جعفر الحاجب ، نشره إيفانوف فى مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة (١٩٣٦) .

٢ — المصادر الافرنجية

Amari : Michel

1— Biblioteca Arabo-Sicula, 2 vols. (Rome, 1857-1887).

Amedroz, H.F.

2— Three Years of Buwaihid Rule in Baghdad. A.H. 389-393. Being a fragment of the History of Hilal as-Sabi (A.H. 448) from a Ms. in the Library of the British Museum.

3— The Office of the cādi in the Ahkām Sultāniyya of Māwardi (J.R.A.S., July, 1910)

4— The Mazālim jurisdiction in the Ahkām Sultāniyya of Māwardi (J.R.A.S., July, 1911).

5— The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916)

Ameer Ali : Sayed

6— A Short History of the Saracens, Macmillan and Co. (London, 1953).
مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي (القاهرة ١٩٣٨) ، نقله إلى العربية رياض رأفت .

Arberry : A. J.

7— The Legacy of Persia (Oxford, 1953).

Arnold, Sir Thomes W.

8— The Preaching of Islam, 3rd ed. (London, 1935)
وجه إلى العربية حسن ابراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين ،واسماعيل محمود النحراوى (نشرته مكتبة النهضة المصرية ،الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧) .

9— The Caliphate (Oxford, 1924).

10— The Legacy of Islam (Oxford, 1931).

Atiya. A.S.

11— Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of Al-Shābushi's Kitāb al-Diyārāt, Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologic Copte, tome v (1939).

Bachir ad-Dīn

12— The Political Theory of Islam, Islamic Culture, vol. viii, No. 4, Oct., 1934. pp. 585-599.

Bell, H. I.

13— Jews and Christians in Egypt (London, 1924).

Bemond (Charles) et Monod (Gabriel)

14— Histoire de l'Europe au Moyen-Age (395-1270), Paris 1921.

Bernhaur

15— Mémoire sur les Institutions de Police chez les Arabes, J.A., Ve Série, tomes XV and XVI (1861,1862).

Blochet, L.

16— Le Missianisme dans l'Heterodoxie Musulmane (Paris, 1903).

De Bouvard, E.

17— Mémoire sur l'évolution monétaire de l'Egypt médiévale (Revue de l'Egypte Contemporaine, No. 185 (May, 1939).

Brockelmann, Carl.

18— Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

19— Supplément-Brande, 3 vols. (Leiden, 1937-1942).

20— History of the Islamic Peoples, trans. by J. Carmichael and Moche Perlmann (Luna Humphries, London, 1949)

Browne : Edward G.

21— Literary History of Persia

1. from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909). 2. From Firdawsi to Sa'di (London, 1906). 3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.) 4. Modern Times (1500-1924), Cambridge University Press, 1930.

Cahen

22— Quelques chroniques anciennes aux derniers Fatimides B.I.F.A.O., XXXVII (1937)

Canard, Marius.

23— L'Impérialisme des Fatimides et leur propagande. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, (anées 1942-1947) pp. 156-193.

24— Le cérémonial fatimite et le cérémonial byzantin : Essai de comparaison Byzantium, XXI (1951), pp. 355-420.

25— La Procession du Novel an Chez les Fatimides, Extrait des Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, X, Année (1952)

Creswell : K. A. C.

26— Early Muslim Architecture 2 vols. (Oxford, 1930,1938)

Darmesteter, James.

27— Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusq'u'á nos jours (Paris, 1885).

Defrémery, M.C.

28— Essai sur l'Histoire des Ismaéleens de la Perse.

Devonshire, Mme R.L.

29— Some Cairo Mosques and their founders (London, 1921)

30— L'Égypte Musulmane et les Fondateurs des Ses Monuments (Paris, 1926).

31— Quatre-vingts Mosquées et Autres monuments musulmans du Caire (Le Caire, 1925).

Donaldson, Dwight M.

32— The Shi'ite Religion, a History of Islam in Persia and Iraq (London, 1933).

33— Studies in Muslim Ethics (London, 1935).

Dozy : R. P. A.

34— Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).

35— Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).

36— Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).

37— Essia sur l'Histoire de l'Islamisme (trad. R.V. Chauvin, Paris, 1879).

Dussaud, René,

38— Histoire et Religion des Nosairis (Paris, 1900).

39 – Encyclopaedia of Islam.

Fagnan, E.H.

40— Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923)

41— L'Afrique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).

Fahmy, A.M.

42— Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the seventh to the Tenth Century (Alexandria, 1950).

Fayzee, Asaf A.

43 – A Chronological List of the Imams and Dais of the Musta 'lian Ismailis (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934).

44— Outlines of Muhammadan Law, 2nd ed. (Oxford University press, 1955).

45 – A Shi'ite Creed, Islamic Research Association, Series No. 9. (Oxford University Press, London, 1942).

46 – Cadi-An-Numan J.R.A.S., 1934).

47— The Ismailian Law of Mut'a (J.B.R.A.S., 1929).

48— The Ismaili Law of Wills (Bombay, 1933).

49— Law and Culture in Islam, Islamic Culture, vol. XVII, No. 4 (October, 1934).

Finlay, George

50— History of the Byzantine Empire from 716 to 1500., William Blackwell and Sons, Edinburgh and London (1856).

Fischel, Walter J. ,

51—The Origin of Banking in Mediaeval Islam : A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A. S., April, 1933).

52— Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).

Fournel, Henri

53— Les Berbères, Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes (Paris, 1881)

Friedlænder, Israël.

54 – The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm, Journal of the American Oriental Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).

Gaudefroy – Demonbynes, Maurice

55 – Les Institutions musulmanes (Paris, 1931) transl. = Muslim Institutions (George Allen and Unwin Lt., London, 1950).

• ترجمه إلى العربية بعنوان : النظم الإسلامية ، صالح الشماس ، وفيصل السامر (مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٥٢) .

Gautier, E.F.

56— Les Siècles Obscurs du Maghreb (Paris, 1927)

Gibbon : Edward.

57— The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 vols, ed. by Prof. J. B. Bury.

Gobineau, De.

58—Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).

De Goeje, M. J.

59 —Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886).

60—La Fin de l'Empire du Bahrain (Journal Asiatique, 1895).

61—The Karmarhians, Encyclopaedïa of Religion and Ethics.

Goldziher : Ignaz.

62—Vorlesungen über den Islam, 2nd ed. (Heidelberg, 1910), translated into French by Felix Arin under the title : Le Dogme et la Loi de l'Islam, Paris 1920),

وترجمه إلى العربية تحت عنوان " العقيدة والشريعة الإسلامية " محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) .

Grohman, Adolf

63— Arabic Papyri in the Egyptian Library Vol. i, Cairo, 1933, Vol. ii (Cairo 1936).

ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٤ ، ١٩٥٦) . ترجمة الجزأين الثالث والرابع تحت الطبع .

Guyard, S.

64—Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

Hamdani, Dr. H.

65—Some Unknown Ismaili Authors and their Works (J.R.A.S, 1933).

66—A Compendium of Ismaili Esoterics زهر المعاني ,Islamic Culture, vol. ii, 1937), pp. 216-220.

67—The Letters of al-Mustansir (Bulletin of the school of Oriental and African Studies, London 1934).

68—The History of the Ismaïli Da'wat and its Literature during the last phase of the Fatimid Empire (J.R.A.S., 1932), pp. 126-136.

Hammer, Von

69—Histoire de l'Ordre des Assassins, trad. par Hellert (Paris, 1833).

Hassan, Hassan Ibrahim

70—Relations between Egypt and the Caliphate (641 - 1924) (Paper Read at the VIII th International Congress of Historical sciences Zurich, 1938). Extract from the Bulletin of the Graduates of the Higher Training College Society, Cairo, Jan. - Feb., 1940.

71—Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain (Paper Read at the 21st International Congress of Orientalists, Paris, 1948), Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol. x Part ii, Dec., 1948

72—Contributions to the study of Fatimid History in Egypt during the Last Twelve Years (Paper Read at the IX th International Congress of Historical Seiences, Paris, 1950), Reprint from the Bulletin of the Faculty of Arts, University of Cairo, Vol xiii, Part i, May, 1951.

73—Aspeets of Shī'ah History, Reprint from the Muslim World, Hartford Seminary Foundation, Vol. X Lvii (October, 1957).
Sturcture of Muslim Society (Under Preparation),

Hautecoeur et Wiet

74—Les Mosquées du Caire, 2 vols. (Le Caire, 1932).

Hell, Joreph

75—The Arab Civilisation, trans. from German by Khuda Bukhsh (Cambridge, 1936).

Heyd. W.

76—Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Âge, 2 vols. (Leipsiz, 1923).

Hitti, Philip K.

77—History of the Arabs (5th ed. London, 1953.)

78—The Origins of the Druze People and Religion (Colombia, 1928).

79—The Origins of Islamic State (New york, 1916).

Hughes, Thomas Patrick

80—A Dictionary of Islam (London, 1885).

Hurgronje, Snouck

81—Mekka (The Hague, 1889-1990)

Ivanow, Vladimir

82—Studies in the Early Persian Ismailism (Leiden, 1948).

83—The Rise of the Fatimids (Calcutta, 1942)

84—A Guide to Ismaili Literature (London, 1933).

85—The Alleged Founder of Ismailism (Bombay, 1946).

86—Kalami Pir (Bombay, 1934).

87—Risala Dar Haqiqat-i Din or True Meaning of Religion (Thacker and Co., Bombay, No. 1, 1947).

88—True Meaning of Religion or Risala dar Haqiqat - i Din, trans. into English by Ivanow (Thacker and Co., Bombay No. 2. 1947).

89—On the Recognition of the Imam (Fasl dar Bayan - i Shinakht - i Imam), trans. from Persian (Thacker and Co., Bombay, 1947).

90—Nasir-i Khusraw and Ismailism (Thacker and Co., Bombay, 1948),

91—Collectanea, Vol. i (1948), The Ismaili Society, E. J. Brill, Leiden,

92—The Organisation of the Fatimid Propagarda (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society [T.B.B.R.A.S.]), 1939, pp. 1-35.

93—Ismailis and Qarmations (T.B.B.R.A.S.), 1940, pp. 43.85

94—Ismaili Tradition Concerning the Rise of the Fatimids (Oxford, 1942).

Jomier, Jacques

95—Le Mahmal et la Caravane Egyptienne des Pélerins de la Mecque (XIII e xx e Siècles, Recherches d'archéologie de philologie et d'histoire tome XX (Le Caire, 1953.)

Juynboll et De Goeje

96—Description du Maghreb (Leiden, 1860)

Kahle, Paul E.

97—Die Schatze der Fatimiden, Z.D.M.G (1935)

Kremer, Alfred von.

98—Culturgeschichte des Orients unter den chalifen. 2 vols. (Vienna 1875), translated by Khuda Bukhsh. (Calcutta, 1920-1927).

Kuhnel, Ernest

99—The Textile Museum, Catalogue of dated Tiraz Fabrics, Umayyed, Abbasid, Fatimid (Washington, 1952).

Lane-Poole, Stanley.

100—The Story of Cairo (London, 1912).

ترجمه إلى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعلى ابراهيم حسن ، وادوار حليم (القاهرة ١٩٥١).

101—History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).

102—Coins and Medals (London, 1892).

103—Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. (London, 1893).

104—The Muhammadan Dynasties, chronolgical and geneological tables with historical introductions (Paris, 1925).

105—The Moors in Spain (London, 1887)

106—Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo (London, 1897).

107—Coinage of Egypt, A.H. 358—922, Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).

Lavoix, H.

108—Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Dcccxci

Levi-Provençal

109—L'Espagne musulmane au xèmé siècle: Institutions et vie sociale (Paris, 1932).

110—La civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948)

Lewis, Bernard

111—The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940).

112—Isma'ili Notes, Reprinted from the Bulletin of the School of Oriental and African Studies (University of London), Vol. xii, Parts 3 and 4, 1948.,

113—The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).

Mac Donald, Duncan B.

114—Development of Muslim Theology, Turisprudence and Constitutional Theory (New York 1903).

Mamur Prince

115—Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs, Luzac and Co. (London, 1934).

Mann, J.

116—The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs. 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).

Margoliouth, Prof. D.S.

117—Cairo, Jerusalem and Damascus. (Oxford, 1907).

Mas Latrie, Du N.L.

118—Traités des paix et de Commerce et documents divers concernant les relations des Chretiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale (Paris, 1866).

Massignon, Louis

119—Equisse d'une Bibliographie Carmathe, Reprinted from a volume of Oriental Studies, February, 1922, Cambridge University Press.

120—L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l' essor des banques Juives (Bulletin d'Etudes Orientales), Paris, 1931.

Mercier, Louis.

121—La Chasse et les sports chez les Arabes, La Vie Musulmane et Orientale Sociologique (Paris, 1927).

Mez : Adam

122—Die Renaissance des Islams (Heidelberg, 1922), trans. into English (The Renaissance of Islam) by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London, 1937).

ترجمه إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جزءان (القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١).

Migeon, G.

123—Manuel d'Art Musulman, 2 vols. (Paris, 1927).

Miller, Konrad von.

124—Mappae Arabicæ, drawn after Idrisi, 4 parts (Stüuttgart, 1926 — 1927).

Muir, Sir William Temple

125—The Caliphate : Its Rise, Decline and Fall (London, 1924) (Edinburgh, 1925).

Nasir-i Khosrau (481/1088).

126—Safar Namèh, Rélation du voyage de Nasiri Khosrau (Safar Naméh) en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881), trans. by Y. El Khachab (Le Caire, 1946).

Nicholson, John.

127—An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa. (Tübingen, 1848.)

Nicholson, Prof. Reynold A.

128—Literary History of the Arabs (London, 1914). (Cambridge, 1930).

Nizam al-Mulk (485/1092):

129—Siasset Namèh, traité de Gouvernement, composé pour le Sultan Melik-Chah par le Vizir Nizam oul-Moulk, texte Persan (ed. by Charles Schefer), 3 vols. (Paris, 1891-1897).

O'Leary, De Lacy

130—A Short History of the Fatimid Khalifate (London, 1923).

Quatremère, Etienne Marc.

131—Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites. (Journal Asiatique, Août, 1836.)

132—Vie du calife fatimide Mu'izz li-din Allah (J.A., 1836.)

133—Mémoires géographiques et historiques sur l' Egypte et sur quelqus contrées voisines, 2 vols. (Paris, 1811).

134—Histoire des Berbères (Algier, 1851-2).

Ravaisse, Paul

135—Essai sur l'histoire, la Topographie du Caire d'après Makrisi, Memoires publiés par les membres de la Mission Archéologique française au Caire, Tome III. (Paris, 1887).

136—Receuil d' Histoire des Croisades, Historiens Orientaux ; Historiens Occidentaux

Rehatsek, E.

137—Notes on some old arms and instruments of war, chiefly among the Arabs (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society J.B.B.R.A.S), vol. xiv (1880).

De Reinaud, M.

138—De l' Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IV/12 (Journal Asiatique, 1848).

139—Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).

De Sacy, Silvestre,

140—Exposé de la Religion des Druzes......précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim-Biamr-allah, 2 vols. (Paris, 1838).

141—Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd. ed. (Paris, 1826-1827).

142—Recherches sur l'initiation a la Secte des Ismaéleens, Journal Asiatique (1824).

Sanhoury, A.A.

143—Le Califat, son Evolution vers une Société des Nations Orientale (Paris, 1926).

Shacht, Joseph

144—The Origins of Muhammadan Jurisprudence (The Clarendon Press, Oxford, 1950).

De Slane, M.

145—Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).

Steingass : F.

146—Persian-English Dictionary (London, 1930).

Stern, G.H.

147—The Succession to the Fatimid imam al-Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, and the rise of the Tayyibi Ismailism, in Oriens, vol. 4, No. 2 (December, 1951), pp. 193-255.

148—Masriage in Early Islam (London, 1939).

Le Strange, Guy

149—Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford University Press, 1924).

150—The Lands of Eastern Caliphate (Cambridge, 1905)

ترجمه إلى العربية بعنوان «بلدان الخلافة الشرقية» بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤).

Taylor, W.C.

151—History of Mohammedanism and its Sects (London, 1839).

Tousson (Prince) O.

152—La Géographie de l' Égypte A L'Époque Arabe, Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte, Tome VIII, Première Partie, Institut Français d' Archéologie Orientale du Caire (1926).

Vasiliev, A.A.

153—History of the Byzantine Empire 324—1453, Basil Blackwell (Oxford, 1952).

154—Cambridge Mediaeval History, vol. iv.

Vloten, J. van

155—Recherches sur La Domination Arabe, Le Chiitisme et les Croyances Messianiques, sous le Khilafat des Omayades (Amsterdam, 1894).

ترجمه إلى العربية وعلق عليه حسن ابراهيم حسن ومحمد زكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤).

Whishaw, Bernhard

156—Arabic Spain, Sidelights on the History and Art (London, 1912).

Wiet, Gaston

157—Précis de l' Histoire d'Égypte, 4 vols. (Le Caire—Rome, 1932—1935).

158—Histoire de la Nation Égyptienne, 7 vols. (Paris, 1931-1940), vol. IV (1939) : L'Égypte Arabe (ed. by Hanoutau)

Wüstenfeld, F. von.

159—Geschichte der Fatimiden Chalifen (Göttingen, 1881).

160—Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Göttingen, 1882).

فهرس عام

خطأ وصـــواب

نعتذر للقارئ عن وقوع بعض أغلاط مطبعية راجين أن يتفضل بإصلاحها قبل قراءة الكتاب تحقيقا للفائدة

صفحة	سطر	خطأ	صـــواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٨	بالكبير	بالتكبير	١٠	٧	مسرح	مرح
١٨	١	السبثية	السبئية	٢١	١٠	أمية	أبيه
٢٣	١	الجرة	للهجرة	٣٨	٢٦	وسوه	وسوء
٤٠	٩	ميميون	ميمون	٤٢	١٦	اسول	أصول
٤٨	٢٧	ستعاء	صنعاء	٥٦	٩	الدلة	الدولة
٧١	١٧	السمى	القصى	٨٢	١٣	ركيف	وكيف
٨٦	٢٣	حبوس	حيوس	٨٨	٨	البلاد	بلاد
٨٩	٥	حبوس	حيوس	٩٩	٢٢	الكامل	الكامل
١٠٠	٢٤	Meidiaeval	Mediaeval	١٠٤	٤	امسلمون	المسلمون
١٠٥	٥	تجهت	اتجهت	١١١	١١	فرسقة	قرسقة
١٢٤	٤	الحيـل	الحيل	١٢٧	١٥	عنوية	علوية
١٣٤	١	ديبق	دبيق	١٢٩	١٨	بنويه	بنو بويه
١٥٣	٢٥	الفاطيين	الفاطميين	١٥٦	٣	شمـ	شمسا
١٥٧	١٩	القلانس	القلانسي	١٦١	٢٢	وانوه	وآنوه
١٦٢	١٥	القلانس	القلانسي	١٧٨	٣	مقتال	مصال
١٨٠	١٥	وأبو	وأبي	١٨٤	١٤	نصر	يد نصر
١٨٧	١٣	طلائع	طلائع	١٩٨	١٥	الجدرى	الجدوى
٢١٩	١٢	وق	وفى	٢٣٩	١٩	الرواحى	الزواحى
٢٥٤	١٩	ؤمنين	المؤمنين	٢٥٩	٦	يلق	يطلق
٢٥٩	١١	لإمبر اطورة	الإمبراطورة	٢٦٢	١٤	لى	[illegible]
٢٧٣	١٣	الرساطة	الوساطة	٢٧٦	٢٣	سعد	سعيد
٢٨٦	٢٣	توف	توق	٣٥٧	١٤	الرحن	الرحيم
٣٦٦	١٢	مرضانك	مرضاتك	٣٨٢	٩	هقائد	عقائد
٣٨٩	١٦	الحسين	الحسن	٤٠١	[illegible]	[illegible]	[illegible]

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٠٤	٢٤	المذار	المزار	٤٢٢	٢٠	قانوس	قابوس
٤٥٣	٩	الخليفة	يحذف	٤٥٤	١٠	قصر	قصّر
٤٨٦	١٣	الموسمية	الموسوية	٥٠١	١٣	عبد الله	عبيد الله
٥٠٧	١٣	بوبخت	نوبخت	٥١٦	١٧	هلان	هلال
٥٢١	٩	سرنيب	سرنديب	٥٢٥	٣	جعجر	حجر
٥٢٨	١٣	دقاق	دقماق	٥٦١	١٣	قراءة	قراء
٥٧٩	١٥	ه	و	٥٨٠	٢٢	المدينة	المدينة
٥٨٤	٤	الوزارة	تحذف	٥٨٥	١٩-٢٢	مكرر	تحذف
٥٩٨	١٧	بالأسوان	بالأسواق	٦٠٤	٧	القابيس	المقاييس
٦٣٠	٨-١٣	مكرر	تحذف	٦٤٣	٢٢	سب	نسب

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٨



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٨